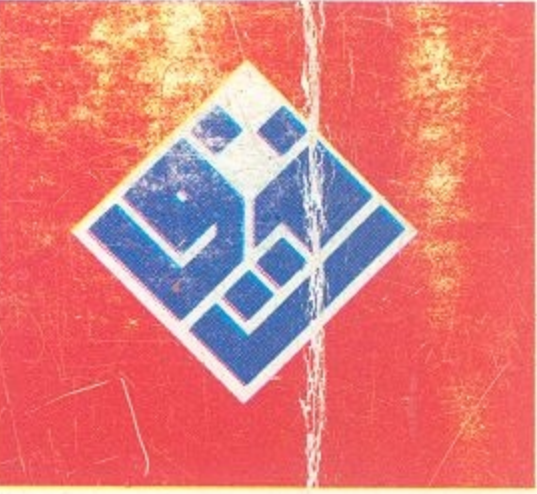


الآن توريين نقد الحداثة

ترجمة: أنور مغيث



المشروع القومي للترجمة



ألان تورين نقد الحداثة

ألان تورين

نقد الحداثة

ترجمة

أنور مغيث



١٩٩٧

Alain Touraine

Critique de la modernité

Paris, Fayard, 1992 .

مقدمة المترجم

السوسيولوجيا في منظور آلان تورين

« كقصر من الرمال يطيح به المد ، ينهار المجتمع الصناعى أمام أعيننا . لم نعد نؤمن بثقافة بروموثية تستغل الموارد الطبيعية التى لاتنفد وبالحضارة التكنيكية .

لم يعد ، لصورة الإنسانية التى تنهض من البؤس بفضل العمل ، وتتقدم فى تطور صاعد نحو الوفرة وتحرر الحاجات ، أى تأثير فىنا .

لم نعد نحث عن المعنى فى التاريخ ، وأخلاقنا لم يعد يملئها احترام الأب والتعارض بين اللذة المدمرة والطموح أو التوفير كمصدر للربح والفرح .

ولم يعد الدين العلمانى - الرأسمالى أو الاشتراكى - للتقدم يبدو إلا كايديولوجيا تستخدمها الطبقة السائدة كى تفرض تراكم رأس المال »^(١) .

هذا النص الذى كتبه آلان تورين منذ حوالى ربع قرن يعبر عن الموضوع الأساسى لكتابه الذى بين أيدينا : « نقد الحداثة » . ونلمح فى نصه المبكر هذا نبرة من الأسف على عالم جميل يشهى ، كان الفكر فيه يظن ، واهماً ، أنه قد وصل إلى كنه الأشياء وسيطر على مقادير الواقع . كما نلمح أيضاً فى هذا النص نزوعاً إنسانياً من مثقف قلق على مصير البشرية ونشعر خلفه بروح المناضل الذى يحلم بتغيير العالم وينفذ بصيرة المفكر النقدى الذى يسعى لازالة الأوهام الراسخة .

(١) Alain Touraine, *Lettres à une étudiante*, Paris, Seuil, 1947, p.8

(٢) *ibid*, p.12

كل هذه الجوانب تمثل أبعاداً فى النشاط الفكرى والسياسى لأن تورين فلقد تأثر منذ شبابه بأشكال عديدة من الرفض السياسى : رفض للحرب الاستعمارية « العبيية والأليمة » ، ورفض لاشتراكية جى موليه « الخائنة » ، ورفض آخر لذلك الخيار الذى فرضه مالرو على المثقفين الفرنسين بين الديجولية والحزب الشيوعى^(٢) .

هكذا كان إتجاهه للتخصص فى علم الاجتماع مدفوعاً بهذا الانتماء وهذه الرغبة فى المشاركة والتغير . ويعتبر تورين أن هذا الدافع ليس دافعاً شخصياً بل هو شرط موضوعى لقيام السوسولوجيا كعلم .

« إن يكن المرء عالم اجتماع اليوم هو أن يتأمل شروط وجود مجتمع جديد ، والطريقة التى يمكن بها للأزمة والقطيعة من جانب والصراعات الاجتماعية من جانب آخر أن تتحد جميعاً لوضع تنظيم اجتماعى وثقافى جديد . من العبث الحلم بمجتمع مثالى مع نسيان التمزقات والانقلابات التى توشك على الحدوث »^(٣) .

نقد السوسولوجيا التقليدية

ومنذ البداية أراد تورين أن يتحرر من أسرة المدرسة الفرنسية فى السوسولوجيا وريثة أوجست كونت ودور كايم والتى كانت تدرس الظواهر الاجتماعية ، متمثلة فى القاعدة الأولى فى منهج دركايم ، باعتبارها « أشياء » لها وجودها المستقل عن الأفراد ؛ بل لها قوة قاهرة إلزامية على الأفراد . « إن الوجود الموضوعى للظاهرة الاجتماعية يعنى أن المجتمع والدولة هما الآلهة الجديدة عند دوركايم »^(٤) .

وقد اهتمت السوسولوجيا التقليدية على إختلاف مدارسها بدراسة المؤسسات كالأسرة والمدرسة والمصنع والدولة ، وهى بذلك تكرر سيطرة النظام الاجتماعى على الفاعلين وتغفل دراسة الجانب الآخر فى المجتمع وهو الحركات الاجتماعية

Ibid, p. 12 (٢)

Ibid, p. 22 (٣)

(٤) محمود عودة ، تاريخ عالم الاجتماع ، القاهرة ، مكتبة سعيد رأفت ، ١٩٨٣ ، ص ٢٩٥ .

التي يعبر بها الفاعلون عن ذواتهم في مواجهة سيطرة وقهر هذه المؤسسات .
وتقوم السوسيولوجيا التقليدية على مبادئ ثلاثة :

١ - إلتصاق نمط معين للمجتمع مع « اتجاه » التاريخ في مفهوم المجتمع الحديث .

٢ - تطابق النسق الاجتماعي مع الدولة القومية وهو ما يعطى مكاناً مركزياً لفكرة المؤسسة .

٣ - إحلل منظومات إحصائية محددة محل مستوى المشاركة الاجتماعية وإحلل المنطق الداخلي لأداء النظام محل الفاعلين الاجتماعيين .

هذه المبادئ تحصر نطاق السوسيولوجيا وتجعل منها مجرد صورة لنمط خاص من المجتمعات وهو نمط المجتمعات الرأسمالية السائدة في الحقبة الصناعية أى أن السوسيولوجيا هي صورة تخلقها الرأسمالية عن نفسها^(٥) .

واتجه تورين الباحث عن فاعلية الأفراد إلى تبني مدرسة جديدة وهي سوسيولوجيا الفعل عند عالم الاجتماع الأمريكي نالكوت بارسونز . ولكنه سرعان ما اكتشف أن بارسونز يسعى لاكتشاف آلية عمل النظم الاجتماعية مؤسساً السوسيولوجيا على الفكرة المزدوجة لانتصار العقل في المجتمع الحديث وعلى الوظيفية كمعيار للخير ... والإنسان طبقاً لهذا الرأي ينظر إليه على أنه مواطن في المحل الأول^(٦) . وبهذا يعتبر بارسونز هو الذي أعطى الصيغة الأكثر تبلوراً للسوسيولوجيا الكلاسيكية لأنه في نهاية الأمر لم يستطع أن يتجاوز إطار المؤسسات لينتقل إلى دراسة الحركات الاجتماعية .

(٥) A. Touraine, *le retour de l'acteur*, Paris, Fayard, 1984, p. 24 - 26.

(٦) A. Touraine, *critique de la modernité*, p. 406.

ولقد دفع تنوع الأنماط الاجتماعية فى زماننا المعاصر آلان تورين إلى التخلي عن المجتمع كمبدأ شارح للظواهر الاجتماعية متجها إلى اعتباره حقل للبحث يتم من خلاله الكشف عن طبيعة نشاط الفاعلين . كما إتجه تورين إنطلاقاً من همومه السياسية إلى بلورة جهوه الفكرية فى مجال علم الاجتماع . وقد وصلت هذه الجهود إلى حد الاسهام الريادى فى مجالين هامين من مجالات علم الاجتماع :

(أ) سوسولوجيا المجتمعات التابعة :

لقد اكتشف تورين بفضل إقامته الطويلة فى أمريكا اللاتينية وشيلى على وجه الخصوص أن علم الاجتماع الغربى الكلاسيكى ليس فعالاً فى دراسة مجتمعات العالم الثالث . . كما أنه يقدم للمجتمع صورة تبدو نمطية لا تتغير ولهذا قام تورين بتطوير سوسولوجيا التنمية وهى تعنى سوسولوجيا الانتقال من مجتمع إلى آخر ، وفى هذا الاطار تلعب الدولة دوراً استثنائياً لأنه إذا كانت « الطبقات تمثل الفاعلين الأساسيين فى مجتمع ما ، فإن الدولة هى العامل الرئيسى للانتقال من نمط للمجتمع إلى نمط آخر »^(٧) . ويعرف تورين المجتمعات التابعة بأنها المجتمعات التى يقود التنمية والتصنيع فيها برجوازية أجنبية . فعندما يكون فاعل التنمية هو البرجوازية الوطنية يكون من الصعب فصل دراسة الرأسمالية عن دراسة التنمية وفصل دراسة الدولة عن المجتمع المدنى وهذا هو ما يحدد سمات العالم الأول . ولكن عندما تكون البرجوازية الوطنية منسحقة بواسطة دولة بيروقراطية يحدث التغير نتيجة قطيعة فى النظام السياسى يقودها حزب ثورى وهذا دأب العالم الثانى ، أما فى العالم الثالث فالأمر أعقد لأن البرجوازية هى التى تعمل ولكنها أجنبية وهو ما يعزى للبرجوازية الوطنية دور تابع ويعطى للدولة مجالاً كبيراً للحركة ؛ ولكن هذه الدولة ليست كلية القدرة لأنها تنفصل عن السلطة الاقتصادية للمراكز

A. Toruaine, *Les Sociétés indépendantes*, Paris, Du Culot, 1976, p. 14. (٧)

الرأسمالية»^(٨). هذا الوضع شديد التعقيد هو الذى يقتضى بلورة مفاهيم جديدة ومعالجة منهجية مبتكرة لأن وظائف وأدوار المكونات الاجتماعية مثل الدولة والطبقة والمؤسسات وباقى الفاعلين تختلف إختلافاً جذرياً عن مثيلاتها فى علم الاجتماع الكلاسيكى ومن هنا كان الجهد الذى بذله تورين فى بلورة سوسولوجيا المجتمعات التابعة .

(ب) سوسولوجيا الحركات الاجتماعية :

هدف المسيرة الاجتماعية الحديثة عند تورين هو تحرير الذات . والذات عنده ليست مطابقة لمفهوم الفرد كما هو معروض فى فلسفة جون لوك السياسية والتي تنظر إلى الأفراد كجواهر منعزلة مثلها مثل الذرات المادية فى فيزياء نيوتن ، تدخل فيما بينها فى علاقات جذب وطرء ، ولا هى الإرادة الجماعية عند روسو والتي تذوب فيها إرادة الأفراد . ولكنها تتجسد لديه فى مفهوم الفاعل الاجتماعى وهو والمفهوم الذى يجعل العلاقة الاجتماعية بعداً أصيلاً فى الفرد . إن الذات هى اسم الفاعل « عندما يكون على مستوى الفاعلية التاريخية لإنتاج توجهات كبرى معيارية للحياة الاجتماعية »^(٩) . هذه الذات هى التى تشكل عصب الحركات الاجتماعية المختلفة التى عن طريق طرحها للتوجهات الاجتماعية الجديدة تقوم بإنتاج المجتمع . هذا التصور هو الذى يجعل علم الاجتماع الجديد يختلف نوعياً عن علم الاجتماع الكلاسيكى والذى كان يتناسب مع المجتمعات الرأسمالية .

إن مفاهيم ومناهج علم الاجتماع الكلاسيكى ، ذى الطبيعة الميكانيكية والقاصر على المجتمع الصناعى ، تتزعزع ، بل وتنهار فى علم الاجتماع الجديد وهو سوسولوجيا الحركات الاجتماعية ولقد دأب البحث الاجتماعى على أن يضع

(٨) *ibid*, p. 22

(٩) Touraine, *le retour*, op. cit. p. 15.

ماكس فيبر في مواجهة كارل ماركس . ويرى تورين أنه لم يعد هناك سبب لهذه المعارضة في السوسيولوجيا الجديدة لأن ماركس قد جاء إلى علم الاجتماع المعاصر بفكرة أن الحياة الاجتماعية مؤسسة على علاقة تقوم على السيطرة وفيبر جاء بفكرة أن الفاعل توجهه دائماً قيم معينة . ولو ألفنا بين الاثنين لحصلنا على ما يقصده تورين بالحركة الاجتماعية : « فاعلين ، متعارضين عبر علاقات سيطرة وصراعات ، لديهم نفس التوجهات الثقافية والأنشطة التي تنتجها »^(١٠) .

إن مفهوم الحركة الاجتماعية لهذا المعنى يجعلنا نقف على حقيقة أن ما يقوم به الفاعلون ليس مجرد ردود أفعال تجاه المؤسسات الاجتماعية ، ولكنهم ينتجونها ويتحددون بتوجهاتهم الثقافية وبالصراعات الاجتماعية المنخرطين فيها .

إن تورين في احتفائه بالحركات الاجتماعية وبدورها يمثل نغمة فريدة في الثقافة المعاصرة . لأن الاتجاه الغالب نحو إلى التقليل من شأنها بآطراد ، وهو ما نجده لدى ماركيز وفوكو والتوسير وبورديو ، فلقد رأوا أن المجتمع المعاصر يميل أكثر فأكثر إلى التسلط والمراقبة المحكمة بحيث أن الحياة الاجتماعية لم تعد إلا تجليات لسيطرة مطلقة ، وهو ما يجعل من الحركة الاجتماعية مجرد تمرد يتم على هامش المجتمع دون تأثير كبير .

ولكن هذا النقد قد ينسحب على الحركات الاجتماعية في شكلها ودورها النقابي القديم المرتبط بالمجتمع الصناعي ؛ ولكن الحركات الاجتماعية الجديدة ، من وجهة نظر تورين ، « لا تتشكل بالعمل السياسي والصدام ولكن بتأثيرها في الرأي العام »^(١١) . إنها تمتد إلى مناطق شاسعة ومترامية في الحياة الاجتماعية فهي

ibid, p. 33 (١٠)

ibid, p. 28 (١١)

تضع موضع التساؤل - أكثر من ذي قبل ، قيم وثقافة المجتمع ، « وتعرض للمشاكل المستبعدة عملياً من الحياة العامة كالصحة والجنس والمعلومات والاتصال والعلاقة بين الحياة والموت » (١٢) .

علم الاجتماع والمعاصر ودوره :

يرصد تورين أنه في كل مرحلة معينة من تطور المجتمع هناك علم يمثل موقعاً مركزياً ويكون بالغ التأثير . كالاقتصاد في المجتمع الصناعي والفلسفة السياسية في المجتمعات التجارية قبيل الثورة الصناعية أما اليوم فهذا الموقع يمثله علم الاجتماع ، فلقد أصبح بؤرة الحياة الثقافية المعاصرة ، كما أصبح دوره إيجابياً في إنتاج المجتمع . لقد كان ماكس فيبر يجعل مهمة علم الاجتماع هي فقط فهم كيفية أداء النظام الاجتماعي . ولكن ينبغي على علم الاجتماع حسب تورين ، أن يقر لنفسه بهدف ووظيفة . هناك أصلاً الجانب التنويري الذي يجعل علم الاجتماع يناضل دائماً ضد الوضعية الزائفة للنظام القائم وخطابه التبريري . ولكن بالإضافة إلى ذلك يرى تورين أن علم الاجتماع في وضعه الجديد « يساهم في أن يتصرف أعضاء المجتمع كفاعلين بقدر الإمكان . وأن يتخلص المجتمع نفسه من نظامه وأيديولوجياته وبلاغته عن طريق إبداع نظاماً للفعل بواسطتها تصيغ المنظومة الاجتماعية باستمرار نفسها ... فهدف علم الاجتماع هو تنشيط المجتمع » (١٣) . هذا الدور الإيجابي والديناميكي لعلم الاجتماع ينعكس بالضرورة على الباحث الاجتماعي ويؤثر في أدواته المنهجية وغاياته . وهذا يلقي الضوء على النقد الذي يوجهه تورين لمفكرين آخرين مثل ميشيل فوكو وبير بورديو ، فهو يرى أن أعمالهم لها فضل الكشف عن آليات القمع في مناطق تبتعد عن السلطة بمعناها

Ibid, p. 322 (١٢)

Touraine, *Pour la Sociologie*, Point, 1974, P. 236 . (١٣)

التقليدى ، كما أن هذه الأعمال تكتسى سمة نقدية راديكالية لاتعرف التواطؤ مع أوهام المجتمع الحديث ولكن تبقى مشكلة أنها تسد الطريق أمام إمكانيات التغيير .

فيقول تورين : « أنا مثل الآخرين معجب بمثقفى هذا البلد عندما يتكرون ممارسات بحثية جديدة ، وعندما يمسون بجوانب خيئة فى حياة المجتمع كما يفعل شتراوس وفوكو ... ولكن إذا لم يكن لنا دور آخر من الأفضل للمرء أن يهاجر عن أن يكون مقلداً أو مفسراً ... لماذا نكون نحن علماء إجتماع إذا لم يكن من أجل مساعدة المجتمعات على الفعل ، على صنع تاريخها ، بدلا من أن نساو إلى الاغتراب والخضوع واللاوعى »^(١٤) لقد كشف هؤلاء المثقفون أساليب النظم والمؤسسات الاجتماعية فى فرض سيطرتها على الفكر بشكل مباشر أو غير مباشر ، ولكن غاب عن أنظارهم مقاومة الفاعلين لهذه النظم باستمرار .

والدور الذى يطالب به تورين كعالم الاجتماع فى مجتمعنا المعاصر لايشبه الصورة التقليدية للمثقف الثورى الذى يتبنى حقوق البروليتاريا ولكن دور يستمد فاعليته من انضمام عالم الاجتماع إلى النخبة القائدة للمجتمع فهو يقول عن نفسه : « أنا أؤمن بضرورة نخبة قائده « باردة » أى غير أيديولوجية وجهاز دولة للإدارة والتخطيط ، يحركها الاعتقاد بأنه ينبغى إسقاط برجوازية الماضى وأنه لاتوجد تنمية بدون دفع كبير للحراك الاجتماعى .. وفى مواجهة هذه النخبة الباردة حركة إجتماعية ساخنة ليست مادة خام لقوى سياسية وإنما تكون قادرة على القيام بأعباء الحياة الاجتماعية »^(١٥) .

هذه الصورة التى رسمها لنا تورين تلقى الضوء على طبيعة إهتمامه وإنخراطه فى الحياة السياسية للمجتمع الفرنسى فى فترة حكم الاشتراكيين .

A. Touraine, *Letres, op . cit* p . 22 (١٤)

Ibid, p. 20 (١٥)

تورين بين العلم والسياسة :

غالباً ما يحرص العلماء والمفكرون على التمييز بين نشاطهم العلمى الموضوعى وبين إنحيازاتهم السياسية باعتبارهم مواطنين فى نظام اجتماعى معين ، ولكن يختلف الأمر فى حالة آلان تورين فلم يقتصر انتماءه السياسى على كونه مواطناً يمارس حقوقه السياسية وإنما كان وثيق الصلة بالحزب الاشتراكى الفرنسى وكان مستشاراً لميشيل روكار رئيس الوزراء الفرنسى فى الفترة ما بين ١٩٨٨ - ١٩٩١ . وكما كانت انتماءات المفكرين مثل جارودى والتوسير إلى الحزب الشيوعى الفرنسى تلقى أضواءً على نشاطهم العلمى واطروحاتهم الفكرية ، كذلك كانت علاقة تورين بالحزب الاشتراكى ، فنجدته يميل فى مناقشته للآراء المختلفة فى الفلسفة السياسية إلى تحييد اختيار الاشتراكية الديمقراطية التى تتلافى الثورة وتسعى لتحقيق الاشتراكية عن طريق إدارة الصراعات الاجتماعية . لكننا لانقصد من هذه الإشارة اتهام إنتاجه العلمى بالوقوع فى فخ الدعاية الأيديولوجية ، ولكننا نشير إلى الصيغة التى يطبق من خلالها دعوته إلى ضرورة قيام عالم الاجتماع المعاصر بدور فعال فى مجتمعه والا يكتفى بالنقد حتى ولو كان جذرياً . ولهذا نجد أن إنتاجه العلمى يمتلئ بالتعرض للقضايا الساخنة فى المجتمع كمشكلة شباب العاطلين المكდسين فى الأحياء العشوائية على هوامش المدن الكبرى . وأيضاً قضية المهاجرين الأجانب فى البلاد الأوروبية ، والتى يحاول من خلال طرحها نقد آلية اجتماعية إستقرت منذ حوالى ثلاثة قرون وهى آلية الاندماج أو الاستيعاب ، حيث كانت الدولة تسعى دائماً إلى تحويل المهاجر الأجنبى شيئاً فشيئاً إلى مواطن متخلص من كل انتماءاته السابقة . . . ولقد لاحظ تورين أن المؤسستين اللتين كان يناط بهما تحقيق هذا الاندماج وهما الجيش والمدرسة قد ضعف دورهما فى الفترة الأخيرة ، وأصبح المجتمع مهدد بالتحول إلى أقليات وتجمعات مهنية وعرقية وثقافية ودينية يستبعد كل منها الآخر . ولهذا يحاول تورين أن يطرح منظوراً جديداً يعترف كل فاعل اجتماعى فيه بالآخر من

خلال التواجد المشترك فى إطار اجتماعى واحد وهو ما يفرض على الدولة التخلّى عن آلية الاندماج والسماح للتجمعات الأجنبية بممارسة طقوسها الدينية وتأكيد مرجعيّتها الثقافية .

موضوع الكتاب :

يحتل موضوع « الحداثة » موقعاً فكرياً بارزاً فى عالمنا المعاصر . ويطلق مصطلح الحداثة بوجه عام على مسيرة المجتمعات الغربية منذ عصر النهضة إلى اليوم ، ويشمل الترشيد الاقتصادى والديمقراطية السياسية والعقلانية فى التنظيم الاجتماعى وهذه المسيرة قد أصبحت الآن محل مراجعة من جانب الفكر الغربى نفسه . وبدأ التبشير بدخول العالم فى مرحلة مابعد الحداثة . وقد بدأت عملية المراجعة هذه أساساً من داخل النقد الأدبى ثم انتقلت إلى مجال الفلسفة . وفى الكتاب الذى بين أيدينا يتعرض آلان تورين لموضوع الحداثة من وجهة نظر سوسيولوجية تتميز بالرؤية التاريخية البانورامية لفكر الحداثة عبر تطوره وانعطافاته المختلفة . وتأتى أهمية الكتاب من أنه لا يتعرض لجانب واحد لهذا الفكر ولكن ينظر إليه من زوايا مختلفة ولذا نجد أن العرض النقدى الذى يقدمه تورين يشمل الفلسفة والاقتصاد وعلم الاجتماع والفلسفة السياسية وفلسفة التاريخ وعلم النفس . ومن هنا تأتى أهمية الكتاب بالنسبة للقارئ العربى إذ يمكنه أن يلم إلماماً شاملاً بكافة أبعاد إشكال الحداثة المطروح الآن على الساحة الفكرية . كما أن الكتاب يزود القارئ بنظرة جديدة إلى الفكر الغربى وذلك لأن تورين ، فى عرضه النقدى الواسع لتطور هذا الفكر لم ينشغل بالكشف عن صواب فكرة ما وخطأ أخرى وإنما تناول الموضوع من خلال مبحث تاريخ الأفكار . وهو المبحث الذى يعنى بالكشف عن سياق ظهور الفكرة وإزدهارها وأفولها وعن وظيفتها الاجتماعية فى مرحلة تاريخية معينة . وجدير بالذكر أن هذه الأفكار لم يقتصر دورها على المجتمع الغربى وحده وإنما إمتد تأثيرها إلى العالم بأسره . ومما لاشك فيه أن هذا المنظور الجديد للفلسفات والنظريات الغربية بالغ الأهمية للقارئ العربى خاصة وأن مجتمعاتنا تضع استكمال عملية التحديث على رأس أولوياتها .

ونظراً لأن الكتاب يحتشد بالكثير من أسماء الإعلام والتيارات الفكرية التي ربما لا يصادفها القارئ العربى كثيراً فقد زودنا الترجمة بهوامش توضيحية لمزيد من التعريف بها .

ونرجو فى النهاية أن نكون قد ساهمنا فى تزويد المكتبة العربية بكتاب يلقي مزيداً من الضوء على ما يعترى الفكر من مشكلات فى نهاية القرن العشرين .

أنور مغيث

تقديم

ما هي الحداثة ذات الحضور الجوهري في أفكارنا وممارساتنا منذ ثلاثة قرون والتي يتم اليوم مراجعتها ورفضها وإعادة تحديدها.

فكرة الحداثة ، في شكلها الأكثر طموحا ، هي التأكيد على أن الانسان هو ما يفعله. هناك إذن صلة تتوطد أكثر فأكثر بين الإنتاج الذي أصبح أكثر فعالية بفضل العلم والتكنولوجيا والإدارة من جانب وبين تنظيم المجتمع الذي ينظمه القانون والحياة الشخصية وتنعشه المصلحة وكذلك الرغبة في التحرر من كل الضغوط من جانب آخر. على أى شئ تقام هذه الصلة بين ثقافة علمية ومجتمع منظم وأفراد أحرار إن لم يكن على إنتصار العقل؟ فالعقل وحده هو الذى يعقد الصلة بين الفعل الانسانى ونظام العالم، وهذا ما كان يبحث عنه الفكر الدينى من قبل ولكنه كان مشلولاً بسبب الغائية الخاصة بالأديان التوحيدية القائمة على الوحي والعقل هو الذى يهب الحياة للعلم وتطبيقاته وهو أيضا الذى يتحكم فى تكييف الحياة الإجتماعية مع الحاجات الفردية والجماعية. وهو أخيراً الذى يضع سيادة القانون والدولة محل التعسف والعنف. وعندما تتصرف الإنسانية وفقا للقانون تتقدم نحو الوفرة والحرية والسعادة. إن هذا التأكيد الجوهري هو الذى رفضته واستنكرته إنتقادات الحداثة.

على أى أساس تكون الحرية والسعادة الشخصية وأشباع الحاجات أموراً عقلانية؟ فلنفرض أن يتعارض تعسف الأمير وإحترام العادات المحلية والمهنية مع ترشيد الإنتاج ، وإن هذا الترشيد يقتضى أن تسقط الحواجز ويتراجع العنف وتتأسس الدولة على القانون. ولكن هذا لا علاقة له بالحرية والديمقراطية والسعادة الفردية، كما يعرف ذلك الفرنسيون جيداً فقد تحققت سيادة القانون فى ظل الملكية المطلقة. وأن تشترك السلطة العقلانية الشرعية مع إقتصاد السوق فى بناء المجتمع الحديث لا يكفى لاثبات أن التنمية والديمقراطية مرتبطان بواسطة قوة العقل. إنهما مرتبطان بكفاحهما

المشترك ضد التراث والتعسف، أى مرتبطان سلباً لا إيجاباً. وينطبق نفس النقد وبصورة اشد على الصلة المفترضة بين العقلنة والسعادة فالتحرر من سيطرة الأشكال التراثية للسلطة يسمح بالسعادة ولكنه لا يكفلها. إنه يدعو للحرية ويخضعها فى الوقت نفسه للتنظيم الممركز للانتاج والاستهلاك. والجزم بأن التقدم هو السير نحو الوفرة والحرية والسعادة وبأن هذه الأهداف الثلاثة وثيقة الصلة ببعضها البعض ليس إلا إيديولوجيا يكذبها التاريخ باستمرار. بل وأكثر من ذلك، كما يقول النقاد الراديكاليون، إن ما نسميه مملكة العقل أليس هو السيطرة المتنامية للنظام على الفاعلين، وفرض السوية والتنميط normalisation الذى، بعد أن أطاح باستقلال العاملين، إمتد إلى عالم الاستهلاك والاتصال؟ تُمارس هذه السيطرة بطريقة ليبرالية أحياناً، وأحياناً أخرى بطريقة تسلطية. ولكن فى جميع الحالات تهدف هذه الحداثة، لا سيما عندما تدعو لحرية الذات، إلى إخضاع كل فرد لمصالح الكل، سواء كان هذا الكل مؤسسة إنتاجية أو أمة، أو المجتمع أو العقل نفسه. ثم أليس باسم العقل وكونيته أن امتدت سيطرة الرجل الغربى الذكر، الراشد والمتعلم على العالم كله، على العمال وعلى المستعمرات وعلى النساء والأطفال؟ كيف لا تكون مثل هذه الانتقادات مقنعة فى نهاية قرن سادته الحركة الشيوعية التى فرضت على ثلث العالم نظاماً شمولية قائمة على العقل وعلى العلم وعلى التقنية؟

ويجيب الغرب بأنه يحذر منذ زمن طويل، منذ عهد الإرهاب، من هذا الاستبداد المستتير. لقد استبدل فى الواقع تدريجياً بالنظرة العقلانية للكون والفعل الانسانى مفهوماً أكثر تواضعاً، مفهوماً أداتياً خالصاً للعقلانية، واضعاً إياه فى خدمة طلب المستهلكين، والحاجات التى تفلت تدريجياً، بقدر ما ندخل إلى مجتمع الاستهلاك الضخم، من القواعد الملزمة لعقلانية خاصة. بمجتمع إنتاج محور حول التراكم أكثر منه محوراً حول إستهلاك أكبر عدد من الأفراد. فى الواقع، هذا المجتمع الذى يحكمه الاستهلاك ومؤخراً الاتصال الضخم، هو مجتمع بعيد عن الرأسمالية النقية التى كان يتعرض لها فيبر Weber، وأيضاً بعيد عن الدعوة، من الطراز السوفييتى، لقوانين التاريخ.

ولكن هناك انتقادات أخرى تنتصب في وجه هذا المفهوم الوديع للحدث. ألن يفقد ذاته في التفاهة؟ ألا يعزى أهمية كبرى إلى الطلب التجارى الملح والآنى، أى الأقل أهمية؟ ألا يعتبر هذا المفهوم أعمى عندما يختزل المجتمع إلى مجرد سوق غير مبال بعدم المساواة الذى يتفاقم، ولا بتدمير البيئة الطبيعية والإجتماعية الذى يتسارع؟ وللأفلات من وطأة هذين النوعين من النقد، أكتفى الكثيرون بمفهوم أكثر تواضعا للحدث. فالدعوة إلى العقل، بالنسبة لهم، لا تؤسس أى نمط من المجتمعات ، إنه قوة نقدية تذيب الإحتكارات والتكتلات المهنية وكذلك الطبقات أو الايديولوجيات. وقد دخلت بريطانيا العظمى وهولندا والولايات المتحدة وفرنسا فى الحدث بواسطة الثورة ورفض الحكم المطلق. أما اليوم ، وكلمة الثورة تحمل دلالات سلبية أكثر منها ايجابية، نتحدث بالأحرى عن التحرر ، سواء كان تحرر طبقة مضطهدة ، أو أمة مستعمرة أو نساء مقهورات أو أقليات مظلومة. إلى أى شئ يقود هذا التحرر؟ يرى البعض أنه يقود إلى تكافؤ الفرص ويرى البعض الآخر أنه يقود إلى التعددية الثقافية المعتدلة. ولكن أليست الحرية السياسية سلبية عندما تختزل إلى استحالة أن يصل أى شخص إلى السلطة أو يحتفظ بها ضد إرادة الأغلبية، حسب تعريف إيسيا برلين IsaiahBerlin ؟ أليست العادة هى حرية إتباع المرء لارادته ورغباته؟ باختصار هل يسعى المجتمع الحديث إلى القضاء على كل أشكال النظام وكل مبادئ التنظيم كى يصبح مجرد تيار من التغييرات اى من الاستراتيجيات الشخصية أو التنظيمية أو السياسية يحكمها القانون والعقود؟ مثل هذه الليبرالية المتسقة منطقياً لم تعد تحدد اى مبدأ للحكم أو الادارة أو التعليم. إنها لا تضمن الصلة بين النظام والفاعل كما تنقلص إلى مجرد تسامح لا يُحترم إلا فى غياب الأزمة الإجتماعية المتفاقمة، ويستفيد منها فقط أولئك الذين يحوزون الموارد الأكثر وفرة والأكثر تنوعاً.

ألا ينفى مثل هذا المفهوم الوديع للحدث نفسه؟ وهذه هى نقطة إنطلاق إنتقادات ما بعد الحدث. كان بودلير Baudelair يرى فى الحياة الحديثة، فى طريقتها وفنّها، حضوراً للأبدى فى اللحظى. ولكن ألم يكن ذلك مجرد إنتقال من "رؤى العالم" القائمة

على المبادئ الدينية أو السياسية الثابتة الى مجتمع ما بعد تاريخي، مكون من تنوعات يتعايش فيه الهنا والهنالك ، القديم والجديد دون مزاعم في الهيمنة. وهذه الثقافة ما بعد الحداثية ليست عاجزة عن الابتكار! ومتقلصة إلى مجرد عكس لابداعات الثقافات الأخرى ، تلك التي كانت تظن نفسها حاملة للحقيقة.

إن فكرة الحداثة، في شكلها الأكثر صلابة والأشد تواضعاً ، عندما تحدت بتدمير النظم القديمة وبإنتصار العقلانية، قد فقدت قوتها في التحرر وفي الإبداع. ولا تستطيع الصمود امام القوى المتعارضة مثل الدعوة الكريمة لحقوق الانسان ، وصعود الاختلافية والعنصرية.

ولكن هل ينبغي الانتقال إلى المعسكر الآخر والانضمام إلى العودة الكبرى للقوميات ، والخصوصيات ، والأصوليات ، الدينية أو غيرها التي تتقدم في كل مكان ، في البلاد الأكثر تحديثاً كما في البلاد المتأثرة بقسوة التحديث الاجباري. إن فهم هذه الحركات يستدعي استجواباً نقدياً لفكرة الحداثة، كما تطورت، ولكنه لا يمكنه أن يبرر بأي شكل إهمال فاعلية العقل الأداتي القوة التحريرية للفكر النقدي والنزعة الفردية معاً

ها نحن قد وصلنا الى نقطة الانطلاق في هذا الكتاب. ولورفضنا العودة للتراث والجماعة، يكون لازماً علينا أن نبحث عن تحديد جديد للحداثة وتفسير جديد لتاريخنا "الحديث" الذي غالباً ما يختزل في المسار الضروري والتحريري لصعود العقل والعلمنة. وإذا كان لا يمكن قصر تعريف الحداثة على العقلنة فقط، وإذا كان، تصور الحداثة من جهة أخرى كتيار متدفق من التغييرات يروج لمنطق السلطة ولتصلب الهويات الثقافية، عندئذ ألا يصبح واضحاً أن الحداثة تتحدد أساساً بهذا الانفصال المتنامي بين العالم الموضوعي، الذي خلقه العقل باتفاق مع قوانين الطبيعة، وبين عالم الذاتية، الذي هو عالم الفردية، أو تحديداً عالم الدعوة للحرية الشخصية؟ لقد مزقت الحداثة العالم المقدس الذي كان إلهياً وطبيعياً في آن ، وكان مخلوقاً وشفافاً امام العقل. ولم

تحل محله عالم العقل والعلمنة، والحادثة حين ردت الغايات الأخروية الى عالم لا يستطيع الانسان أن يبلغه، فرضت الانفصال بين ذات هابطة من السماء إلى الأرض متخذة مظهراً إنسانياً ، وبين عالم موضوعات تتلاعب به التقنيات. لقد اطاحت الحادثة بوحدة عالم خلقته الارادة الإلهية، أو العقل أو التاريخ وحلت محله العقلنة وتحقيق الذات.

هذا هو توجه هذا الكتاب : الذى سوف يعرض أولاً لإنتصار المفاهيم العقلانية للحادثة، على الرغم من تصدى الثنائية المسيحية لهذه المفاهيم: تلك الثنائية التى تبث الروح فى فكر ديكارت وفى نظريات الحق الطبيعى وإعلان حقوق الإنسان. ثم يتابع الكتاب تدمير مفهوم الحادثة فى الفكر وفى الممارسة الإجتماعية وصولاً إلى الانفصال الكامل بين المجتمع كتيار جارف من التغييرات التى يبلور الفاعلون فى غماره استراتيجياتهم للغزو أو للبقاء على قيد الحياة، وبين خيال ثقافى ما بعد حدثى. وأخيراً يقترح الكتاب إعادة تعريف الحادثة كعلاقة يسودها التوتر بين العقل والذات، بين العقلنة وتحقيق الذات، بين روح النهضة وروح الإصلاح، بين العلم والحرية. وهو موقف بعيد عن حداثة اليوم التى دخلت فى مرحلة الانهيار وعن ما بعد الحداثة التى يجول شبحها فى كل مكان.

فى أى إتجاه ينبغى خوض المعركة الأساسية؟ أصد صلف الايديولوجية الحداثية أم ضد تدمير فكرة الحادثة ذاتها؟ لقد اختار أغلب المثقفين الإجابة الأولى. ذلك لأن القرن العشرين قد بدا للتكنولوجيين والاقتصاديين قرن إنتصار للحادثة، وإن ساد على المستوى الثقافى الخطاب المعادى للحادثة. ومع ذلك، يبدو لى اليوم أن الخطر الثانى هو الأكثر واقعية، وهو خطر الفصل الكامل بين النظام والفاعلين، وبين العالم التقنى أو الاقتصادى وعالم الذاتية. كلما تقلص مجتمعنا إلى مجرد مؤسسة إنتاجية تكافح من أجل البقاء فى السوق العالمى، كلما انتشر فى نفس الوقت وفى كل مكان هوس هوية لم تعد تتحددها الملامح الاجتماعية ؛ سواء تعلق الأمر بالطائفة الجديدة للبلاد الفقيرة، أو بالفردية النرجسية للبلاد الغنية. كما يؤدى الانفصال الكامل للحياة العامة عن الحياة

الخاصة إلى إنتصار السلطات التى لم تعد محدودة بإطار الإدارة والاستراتيجية، وفى مواجهة هذه السلطات يعيش معظم الافراد حياة خاصة منطقية، وكل هذا يحفر هوة بلا قرار مكان الساحة العمومية، الإجتماعية السياسية التى ولدت فيها الديمقراطية الحديثة. كيف لا نرى فى موقف كهذا تراجعاً إلى المجتمعات التى كان يعيش فيها القادرون والشعب فى عالمين مستقلين، عالم المحاربين الغزاة ومن جانب وعالم الناس العاديين المنغلقيين فى مجتمع محلى، من جانب آخر؟ وبالأحرى كيف لا نرى أن العالم منقسم بعمق وأكثر من ذى قبل بين الشمال حيث تسود الأدوات والسلطة، والجنوب المنغلق قلقاً فى هويته المفقودة؟

ولكن هذا العرض لا يصور الحقيقة كلها. فنحن لا نعيش كلية فى وضع ما بعد حدثى من الانفصال الكامل بين النظام والفاعل، ولكننا نعيش على الأقل فى مجتمع ما بعد صناعى، وأنا أفضل تسميته مجتمعاً مبرمجاً، مولياً الأهمية الجوهرية للصناعات الثقافية - علاج طبي ، تربية ، إعلام - حيث يوجد صراع مركزى بين أجهزة الانتاج الثقافى والذات الشخصية و يشكل هذا المجتمع ما بعد الصناعى حقلاً للعمل الثقافى والإجتماعى أكثر تطوراً مما كان عليه فى المجتمع الصناعى الذى ينهار اليوم ، ولا يمكن أن تذوب الذات فى ما بعد الحداثة لأنها تؤكد نفسها فى الصراع ضد السلطات التى تفرض سيطرتها باسم العقل. كما أن الإمتداد غير المحدود لتدخلات السلطة هو الذى يحل الذات من التطابق مع أعمالها ومن الفلسفات المتفائلة للتاريخ.

كيف يمكن إعادة خلق وسائط بين الإقتصاد والثقافة؟ كيف يمكن إعادة إختراع الحياة الاجتماعية وعلى وجه أخص الحياة السياسية، التى يعتبر تفككها الحالى، فى كل مكان فى العالم تقريباً، نتاج هذا الانفصال بين الأنوات والمعنى، بين الوسائل والغايات. فيما بعد ستكون هذه الاسئلة هى التى تسعى لانقاذ فكرة الحداثة سواء من الشكل الغازى والفظ الذى أعطاه لها الغرب أو من الأزمة التى تتعرض لها منذ قرن. إن نقد الحداثة المعروض هنا يريد ان يخلصها من التراث التاريخى الذى إختزلها فى

العقلنة ويدخل اليها فكرة الذات الشخصية وتحقيق الذات. إذ أن الحداثة لا تقوم على مبدأ وحيد ولا على مجرد تحطيم العقبات التي تقف في وجه سيادة العقل ؛ إنما هي نتيجة للحوار بين العقل والذات. بدون العقل تنفلق الذات في هوس هويتها ؛ وبدون الذات يصير العقل أداة للقوة. عرفنا في هذا القرن ديكتاتورية العقل والانحرافات الشمولية للذات. فهل يمكن لوجهي الحداثة، الذين تقاتلا أو تجاهل أحدهما الآخر، أن يخاطب كلا منهما الآخر ويتعلما العيش سوياً؟

نصيحة للقارئ

قدمت في الجزء الثالث افكارى حول الحداثة كعلاقة متوترة بين العقل والذات: ويمكن للقارئ ؛ دون تعثر كبير، أن يبدأ بهذا الجزء. وإذا كان مهتماً بالمفهوم "الكلاسيكى" للحداثة الذى يطابق بينها وبين العقلنة، سيجد تاريخ إنتصارها وسقوطها في الجزئين الأولين.

الجزء الاول

الحداثة المنتصرة

الفصل الاول أنوار العقل

الايديولوجية الغربية

كيف يمكننا الكلام عن المجتمع الحديث إلا إذا كان هناك مبدأ عام معترف به لتعريف الحداثة؟ من المستحيل أن نطلق كلمة "حديث" على مجتمع يسعى قبل كل شيء لأن ينتظم ويعمل طبقاً لوحي إلهي أو جوهر قومي. وليست الحداثة أيضاً مجرد تغيير أو تتابع أحداث: إنها إنتشار لمنتجات النشاط العقلي، العلمية، التكنولوجية، الإدارية. فهي تتضمن عملية التمييز المتنامي لعدد من بين قطاعات الحياة الاجتماعية: السياسية والإقتصادية والحياة العائلية والدين والفن على وجه الخصوص، لأن العقلانية الأدوات عملها 'تمارس في داخل مجال النشاط نفسه. وهي بذلك تستبعد أن ينظم أي من أنماط النشاط هذه من الخارج، أي إنطلاقاً من اندماجه في رؤية عامة، ومن اسهامه في تحقيق مشروع مجتمعي يطلق عليه لويس دومون Louis Dumont كلى holiste. فالحداثة تستبعد أي غائية. إن العلمنة وإزالة سحر الأوهام ، اللتان يتحدث عنهما فيبر Weber واللذان تحددان الحداثة باعتبارها عقلنة، تبرزان القطيعة الضرورية مع الغائية الدينية التي تنادي يوماً بنهاية للتاريخ، سواء عن طريق تحقق تام لمشروع إلهي أو إختفاء لإنسانية منحرفة لم تخلص لرسالتها. وفكرة الحداثة لا تستبعد فكرة نهاية التاريخ، يشهد على ذلك كبار مفكري النزعة التاريخية، كونت وهيغل وماركس، ولكن نهاية التاريخ هنا هي بالأحرى نهاية ما قبل التاريخ وهي أيضاً بداية لتطور يدفعه التقدم التقني وتحرير الحاجات وإنتصار العقل.

تحل فكرة الحداثة فكرة "العلم" محل فكرة "الله" في قلب المجتمع وتقصر الإعتقادات الدينية على الحياة الخاصة بكل فرد. هذا من جهة، ومن جهة ثانية فإنه لا يكفي أن تكون هناك تطبيقات تكنولوجية للعلم كي نتكلم عن مجتمع حديث. ينبغي أيضاً حماية النشاط

العقلي من الدعايات السياسية أو من الإعتقادات الدينية، وأن تقوم عمومية القانون بحماية هذا النشاط ضدالمحاباة والمحسوبية والفساد، وأن لا تكون الإدارات العامة والخاصة أدوات لسلطة شخصية. ينبغي الفصل بين الحياة العامة والحياة الخاصة كما ينبغي أن يتم ذلك الفصل بين الثروات الخاصة وميزانية الدولة أو المؤسسات الإنتاجية.

- ٥ ترتبط فكرة الحداثة إذن إرتباطاً وثيقاً بالعقلنة. التخلي عن إحداها يعني رفض الأخرى. ولكن هل يمكن إختزال الحداثة إلى العقلنة؟ هل هي تاريخ تقدم العقل أي تاريخ تقدم الحرية والسعادة وتدمير العقائد والانتماءات والثقافات "التقليدية"؟ إن مايميز الفكر الغربي، في أقوى لحظات تماهيه مع الحداثة، هو إرادة الانتقال من الدور المحدود لعملية العقلنة إلى فكرة المجتمع العقلاني الأكثر شمولاً، والذي لايقوم العقل فيه بتوجيه النشاط العلمي والتقني فحسب ولكنه أيضاً يوجه حكم البشر وإدارة الأشياء. هل لهذا المفهوم قيمة تاريخية عامة أم أنه لا يعدو كونه حالة تاريخية خاصة، حتى وإن كانت عظيمة الأهمية؟ ينبغي أولاً وصف هذا المفهوم للحداثة والتحديث باعتبارهما خلقاً لمجتمع عقلاني. يتصور هذا المفهوم المجتمع أحياناً على أنه نظام ومعمار قائم على الحساب ؛ وأحياناً أخرى يجعل من العقل أداة في خدمة مصلحة الأفراد ولذتهم، وأحياناً كسلاح نقدي ضد كافة أشكال السلطة لكي يحرر "الطبيعة البشرية" التي سحقته السلطة الدينية.

لكنه على أي حال جعل هذا المفهوم من التحديث المبدأ الوحيد لتنظيم الحياة الشخصية والجماعية، رابطاً إياها بموضوع العلمنة أي التخلص من أي تحديد "لغايات نهائية".

صفحة جديدة Tabula rasa

كان المفهوم الغربي الأشد وقعاً والأكثر تأثيراً للحداثة قد اكد بصفة خاصة على أن التحديث يفرض تحطيم العلاقات الإجتماعية والمشاعر والعادات والإعتقادات المسماة بالتقليدية، وأن فاعل التحديث ليس فئة أو طبقة إجتماعية معينة وإنما هو العقل

نفسه والضرورة التاريخية التي مهدت لإنتصاره. وهكذا أصبحت العقلانية، وهي عنصر لاغنى عنه للحدث، آلية تلقائية وضرورية للتحديث. وتختلط الفكرة الغربية عن الحدث بمفهوم عن التحديث خاص بالغرب. وهذا التحديث ليس إنجازاً لطاغية مستنير ولا ثورة شعبية ولا لإرادة نخبة حاكمة ؛ إنها إنجاز للعقل نفسه، وبالتالي - للعلم والتكنولوجيا والتربية . ولا ينبغي أن يكون هناك هدف للسياسات الاجتماعية للتحديث سوى إخلاء الطريق للعقل : بإلغاء اللوائح وقوانين الحماية الخاصة بالطوائف المهنية والعوائق الجمركية، وبتوفير الأمان وإمكانيات التنبؤ التي يحتاجها صاحب المشروع، وبتأهيل الإداريين والفنيين الواعين والأكفاء. ربما تبدو هذه الفكرة تافهة ، لكنها في حقيقة الأمر ليست كذلك. بما أن الغالبية العظمى من بلاد العالم قد إنخرطوا في عمليات تحديث مختلفة لعبت فيها إرادة الإستقلال الوطني والصراعات الدينية والاجتماعية واعتقادات النخب الحاكمة الجديدة - أي الفاعلين الاجتماعيين والسياسيين والثقافيين - دوراً أكبر من التحديث نفسه الذي كان مشلولاً بسبب مقاومة التقاليد والمصالح الخاصة له. هذا التصور النظري عن الحدث لا يمكن تطبيقه بسهولة على البلاد الأوروبية فقد لعبت الحركات الدينية ومجد الملك والدفاع عن العائلة وروح الغزو بالإضافة إلى المضاربات المالية والنقد الاجتماعي دوراً على نفس القدر من الأهمية التي لعبها التقدم التقني ونشر المعرفة في هذه البلاد. مثل هذا التصور يشكل نموذجاً للتحديث، وإيديولوجية ذات آثار نظرية وعملية بعيدة المدى.

الغرب إذن قد تمثل الحدث وعاشها كثورة. العقل لا يعترف بأى مكتسب من الماضي، بل على العكس يتخلص من المعتقدات وأشكال التنظيم الاجتماعي والسياسي التي لا تؤسس على أدلة من النوع العلمي. وهو ما ذكرنا به مؤخراً ألان بلوم Alan Bloom : (p.186) (*) إن ما يميز فلسفة التنوير عن الفلسفة السابقة عليها هو عزمها على أن تمد جميع البشر بالمزايا التي كانت فيما قبل خاصة ببعض الفئات فقط وهو ما يمكن أن نسميه بالحياة طبقاً للعقل. لم تكن إذن "النزعة المثالية" ولا "النزعة التفاؤلية"

(*) كل إشارة لأرقام الصفحات في النص تحيل إلى المراجع الموجودة في آخر الكتاب.

هي الدافع وراء مشروع هؤلاء المفكرين ، ولكنه كان "علماً جديداً"، "ومنهجاً" ومقترناً بهما علم سياسي جديد. ومن قرن إلى قرن بحث المحدثون عن نموذج طبيعي "لمعرفة علمية للمجتمع والشخصية، سواء كان هذا النموذج آلي أم عضوي أم سيبرناتيقي، أو قائم على نظرية عامة للأنساق. وكل هذه المحاولات قد دعمها الاعتقاد بأنه إذا ضربنا صفحاً عن الماضي فإننا نحرر البشر من اللامساواة الموروثة ومن المخاوف غير العقلانية ومن الجهل.

الأيدولوجية الغربية للحدثة modernite والتي يمكن أن نسميها بالحداثية modernisme قد ألغت فكرة الذات وفكرة الله المرتبطة بها وبنفس الطريقة إستبدلت تشريح الجثث أو دراسة نقاط التلاحم العصبي في المخ بالتأملات حول النفس. يقول انصار الحدثة أنه لا المجتمع ولا التاريخ ولا الحياة الفردية تخضع لإرادة كائن أسمى يجب الإذعان له أو يمكن التأثير عليه بواسطة السحر. الفرد لا يخضع إلا لقوانين طبيعية. هذه هي فلسفة التنوير التي ينتمي إليها جان جاك روسو لأن كل عمله، كما يقول جان ستاروبينسكي Jean Starobinski ، يسيطر عليه البحث عن الشفافية والنضال ضد العقبات التي تعتم المعرفة والاتصال. ونفس الروح هي التي تملأ أعماله كداعية للطبيعة، وإختراعاته كباحث موسيقي، وكذلك نقده للمجتمع وبرنامجه التعليمي. روح التنوير لا تدمر الإستبداد فقط ولكن تدمر أيضاً كل الأجسام الوسيطة، كما فعلت الثورة الفرنسية : أن يلزم الوضوح والشفافية للمجتمع على غرار الفكر العلمي. وهي فكرة مازالت حاضرة في المفهوم الفرنسي للجمهورية وفي الاعتقاد بأن هذه الجمهورية ينبغي أن تكون حاملة لمثل عليا كونية : الحرية والإخاء والمساواة. هذه الروح تفتح الأبواب بنفس القدر لليبرالية أو لسلطة يمكن أن تكون مطلقة، لأنها ستكون سلطة عقلانية وجمعية، سلطة تبشر بالعقد الاجتماعي الذي سعى اليعاقبة لتأسيسه والذي سيكون مشروع كل الثوريين، بناء سلطة مطلقة لأنها علمية ومناط بها أن تحمي شفافية المجتمع ضد التعسف والتبعية والفكر الرجعي.

وما يسرى على المجتمع يسرى على الفرد. إذ ينبغي أن يكون تعليم الفرد باباً يحرره من الرؤية الضيقة واللاعقلية التي تفرضها عليه أسرته وإنفعالاته الخاصة، ويفتح أمامه مجالاً للمعرفة العقلية والإشتراك في مجتمع ينظم نشاط العقل. وينبغي للمدرسة أن تكون مكاناً للقطيعة مع وسط النشأة وللإنفتاح على التقدم بواسطة المعرفة والمشاركة في مجتمع قائم على مبادئ عقلية. ليس المدرس مربياً يتدخل في الحياة الخاصة للأطفال وهم ليسوا مجرد تلاميذ: إنه وسيط بينهم وبين القيم الكونية للحق والخير والجمال. والمدرسة تستبدل أصحاب الإمتيازات، وريثة الماضي البغيض بنخبة يتم تكوينها عبر الإمتحانات والمسابقات غير الشخصية.

الطبيعة واللذة والذوق

ولكن هذه الصورة الثورية والتحررية للحدثة لا تكفي إذ ينبغي لها أن تكتمل بالصورة الوضعية للعالم يحكمه العقل. أينبغي الحديث عن مجتمع علمي أم عقلاني؟ دفع المشروع الثوريين إلى خلق مجتمع جديد وإنسان جديد وفرضوا عليهما باسم العقل إلزامات أشد من إلزامات الملكيات المطلقة. كما ستسعى النظم الشيوعية إلى بناء إشتراكية علمية تتشابه مع القفص الحديدي الذي تحدث عنه فيبر أكثر من كونها تحريراً للحاجات. وتختلف عن ذلك بشكل واضح إجابة فلاسفة التنوير، في القرن الثامن عشر، : يجب أن تحل معرفة قوانين الطبيعة محل تعسف الأخلاق الدينية. وحتى لا يضطر الإنسان لأن يكفر بذاته إذا عاش في وفاق مع الطبيعة لا يكفيه أن يلجأ إلى عقله. أولاً لأن أساليب التفكير لا تتوافق بسهولة وتؤدي إلى تنوع الآراء والقوانين. كما لا يمكن فرض مملكة العقل كما نفرض الحقيقة المنزلة. ينبغي إذن بيان أن الخضوع لنظام الأشياء الطبيعي يسبب لذة ويناسب قواعد الذوق. هذا البيان يجب إنجازاه في النظام الجمالي كما في النظام الأخلاقي. وهو ما يسميه جان إرار Jean Ehrard "حلم القرن الكبير : حلم بإنسانية متصالحة مع نفسها ومع العالم وتتوافق تلقائياً مع نظام الكون" (p.205). اللذة تعادل نظام العالم، كما يقول نفس المؤلف، "كما أن عقل

الرياضي متوافق مع القوانين العامة للطبيعة الفيزيائية، يتوصل الإنسان ذو الذوق تلقائياً إلى حقيقة الجميل المطلق. هناك إنسجام سماوى يجعل تحديد مثال الجمال يتفق مع قوانين المتعة للنوق. هكذا يتجلى المطلق في نسبية اللذة" (p.187).

كان لوك هو الذى صاغ بشكل أكثر وضوحاً هذا المفهوم للإنسان. فهو يرفض الثنائية الديكارتية وبالتالي فكرة الجوهر والمفهوم الديكارتي للأفكار الفطرية وتحديداً المكان المركزى الذى يعطيه الله. الوعي بالذات ليس مختلفاً عن الوعي بالأشياء والإنسان يكون بنفسه وبدنه معاً في خبرة هويته. لايعطي الذهن الصورة للأشياء بل هو إنعكاس قائم على الإحساس ويلح لوك على تأكيد سلبية. وهكذا يتحدد فكر بلا ضامن مفارق ، منفصل عن الله، يتحدد عقلاً أداتياً محضاً. تطبع الطبيعة نفسها في الإنسان عن طريق الرغبات والسعادة التي يتم الحصول عليها بقبول القانون الطبيعي. وبالشقاء الذى ينتج كعقاب لمن لايتبعونه.

هذه النزعة الطبيعية وهذا اللجوء إلى العقل الأداتي يتكاملان بشدة لدرجة أن إتحادهما قد إجتاز العصر الحديث حتى فرويد الذى جعل من الأنا، حسب تصوير شارل تايلور Charles Taylor ، ملاحاً يبحث عن طريقه بين ضغوط الذات والأنا الأعلى والتنظيم الإجتماعي.

وكذلك ساد الفكر الأخلاقي لعصر التنوير فكرة طيبة الإنسان الطبيعية. إن الفضيلة مؤثرة ، تجعل الإنسان يبكي من الفرح، من الحنان ، وتسبب لذة. وإذا لم يتبع الإنسان طريق الفضيلة فذلك لأنه ضحية للقدر أو للمجتمع الفاسد، مثل شخصية الفارس دى جريو Des Grieux في رواية مانون ليسكو Manon Lescaut ستتمكن لغة القلوب من إسماع صوتها رغم أكاذيب الكلمات ويضع ماريفو Marivaux على خشبة المسرح إنتصار الحب ضد الأحكام المسبقة للتربية. ولكن إنتصار الشر لن يكون ممكناً مالم تمنح الفضيلة لذة. "عندئذ، كما يقول ديدرو Diderot ، يتحد إستحسان تقريظى للعقل مع حركات للقلب لذيدة ورائعة لتكتمل سعادة الخليقة".

ويمكننا أن نتساءل، دون أن نكون متشائمين بخصوص الطبيعة الإنسانية مثل بسكال Pascal أو لاروشفوكو La Rochefoucauld (*) ، عما إذا كان العقل وحده يؤدي إلى اللذة. لقد كان الماركيز دو صاد أكثر إقناعاً عندما يصف لذة إجبار وإخضاع وإهانة وتعذيب موضوع الرغبة. وسيصبح مع الوقت من الصعب قبول هذا المفهوم عن العقل كتنظيم عقلائي للذات. لماذا نطلق اليوم صفة عقلائي على الإستهلاك الضخم الذي يستهدف بالأحرى الإجابة على الطموح في وضع إجتماعي معين أو رغبة في الإغواء أو لذة جمالية؟ إن روح التنوير كانت روحاً لنخبة متعلمة من النبلاء والبرجوازيين والمتقنين قبل إوانهم يتذوقون في هذه اللذات التحرر والإشباع الناتج عن فضح الكنيسة، وخصوصاً في حالة البلاد الكاثوليكية. ولكن في قلب النزعة الطهرية puritanisme ، كما أوضح إدمون لايتس Edmund Leites ، سمحت فكرة المثابرة ، وبالتحديد في الولايات المتحدة ، بالجمع بين التحكم في الذات والبحث العقلائي عن اللذة الجنسية. إن ما يربط العقل واللذة هو الخطاب ، ولو أخذنا الكلمة في معناها الثاني قلنا العقلنة. ولكن الهدف الرئيسي من هذه الأخلاق وهذه الجمالية ليس هو بناء صورة للإنسان ، ولكن بالأحرى إستبعادها جميعاً والإبتعاد عن اللجوء لقانون سماوي ولوجود النفس، أى لحضور الله في كل فرد حسب تعاليم المسيحية. إن القضية الكبرى هي التحرر من كل فكر ثنائي وفرض رؤية طبيعية للإنسان. وهو ما لا يجب فهمه بصورة مادية فقط لأن فكرة الطبيعة في فترة التنوير كان لها معنى أوسع من معناها اليوم ، كما يشرح ذلك كاسيرر Cassirer (p.246) : "لاتدل الطبيعة فقط على مجال الوجود "الفيزيائي"، ولا على الواقع (المادي) الذي ينبغي تمييزه عن "العقلي" أو "الروحي". المصطلح لا يتعلق بوجود الأشياء ولكن بأصل وتأسيس الحقائق. تنتمي الى الطبيعة، دون أى إحفاف بمضمونها، كل الحقائق التي تقبل تأسيساً محايثاً ولا تقتضي أى وحى مفارق، والتي تكون في حد ذاتها يقينية وبديهية. هذه هي الحقائق

* لا روشفوكو (١٦١٣-١٦٨٠) كاتب فرنسي من كتاب البلاط عرف بكتابة المواعظ والحكم الأخلاقية. غلب على فكره الصراحة وانتقاد الدوافع الأنانية للإنفعالات والمشاعر وكذلك العلاقات الإجتماعية واعتبر الفضائل رذائل مقنعة . (كل الهوامش في الكتاب من وضع المترجم) .

التي يتم البحث عنها ليس فقط في العالم الفيزيقي، ولكن أيضاً في العالم العقلي والأخلاقي. وذلك لأن هذه الحقائق هي التي تجعل من عالمنا "عالم" واحد، كون يستقر على ذاته ويملك في داخله مركز جاذبيته.

الوظيفة الأساسية لهذا المفهوم للطبيعة وكذلك لمفهوم العقل هي توحيد الإنسان بالعالم، كما كانت تفعله من قبل فكرة الخلق، المرتبطة غالباً بالطبيعة أكثر من كونها معارضة لها، ولكن ذلك بأن تسمح للفكر والفعل البشريين أن يمارسا تأثيرهما على الطبيعة مع معرفة واحترام قوانينها دون اللجوء إلى الوحي ولا لتعاليم الكنيسة.

الجدوى الاجتماعية

إذا كان لنداء الطبيعة هذا وظيفة نقدية بالأساس ومعادية للدين فذلك لأنه يسعى لأن يعطى للخير والشر أساساً ليس دينياً ولا سيكولوجياً ولكن اجتماعياً فقط . إن فكرة كون المجتمع منبعاً للقيم ، وأن الخير هو ما يكون نافعا للمجتمع والشر هو ما يؤدي سلامته وفعاليته ، هي عنصر جوهري في المفهوم الكلاسيكي للحدثة. لكي ينتهي الإذعان لسلطة الأب ينبغي أن يستبدل بمصلحة الأشقاء وإخضاع الفرد لمصلحة الجماعة. هذا التماهي بين الروحي والزمني في صورة الأشد دينية وهي الإصلاحات البروتستانتية والكاثوليكية ، يأخذ شكل البحث عن مجتمع القديسين. وهكذا قام فلاحو مقاطعة الصوب في المانيا، الذين نشروا البنود الإثني عشر في عام 1525م الذي يحدد بداية حرب الفلاحين، بتعريف أنفسهم كجماعة أو كنيسة، وهو ما قادهم إلى رفض إمتلاك القساوسة للأراضي فالجماعة هي التي تدفع لهم أجرهم. وهذا النص الذي حله جيداً إيمانويل ميندز سارجو Emmanuel Mendes Sargo ، قريب من روح مدينة جينيف الكاثوليكية وإيضاً من سياسة الجزويت الذين سيعملون على إقناع الأمراء بأن يحكموا من أجل المجد الأكبر لله ad gloriam Dei majorem . ولكن هذه الرؤية سرعان ما صارت دنيوية وحلت مصلحة الجميع محل النداء إلى الإيمان بالجماعة. وقد أسس ميكيا فيلي هذا الفكر الجديد إعجاباً بنضال مواطني فلورنسا

ضد البابا لإنهم وضعوا " حُبهم للمدينة التي ولدوا بها فوق خوفهم على سعادتهم الأبدية " ، والمدينة هي الجسد الإجتماعى الذى تكون سلامته ضرورية لسعادة كل فرد. ولهذا لجأ عصر النهضة والقرون التالية عليه إلى النماذج المستعارة من الحضارة القديمة اليونانية والرومانية. وذلك لأن هذه الحضارة قد أعلت من قيمة الأخلاق المدنية واعتبرت أن المواطنة فى إطار مدينة حرة هي الخير الأسمى.

إن صياغة فكر سياسى وإجتماعى جديد هو التكملة التى لاغنى عنها للفكرة الكلاسيكية عن الحداثة فى إرتباطها بالعلمنة. يحل المجتمع محل الله كأساس للحكم الأخلاقى ويصبح مبدأً للتفسير وتقييم السلوك أكثر من كونه موضوعاً للدراسة . ويولد العلم الإجتماعى كعلم سياسى. أولاً فى غضون الصراعات بين آباء الكنيسة والأباطرة الذين دافع أوكام Occam ومارسيل دوبادو Marsile de Padou عن مصالحهم ، كما يولد وبصفة خاصة برغبة ميكيا فيلى فى أن يتم الحكم على التصرفات والمؤسسات السياسية دون اللجوء إلى حكم أخلاقى، أى دينى. ويولد أيضاً من الفكرة المشتركة بين هوبز وروسو -والمختلفة عن تحليل لوك - وهى أن النظام الإجتماعى قد أنشئ بناءً على قرار من الأفراد الذين يخضعون لسلطة الدولة أو للإرادة العامة التى تعبر عن نفسها فى العقد الإجتماعى. ولا ينبغى للنظام الإجتماعى أن يستند على أى شئ آخر سوى القرار الإنسانى. الذى يجعل من هذا النظام مبدأً للخير والشر، وليس على الإطلاق تعبيراً عن نظام أقامه الله أو أقامته الطبيعة. لقد سبق تحليل هوبز تحليلات الآخرين ويعتبر، بعد كتابات ميكافيللى، أول تأملات كبرى حديثة عن المجتمع. فى البداية بالنسبة لهوبز كانت حرب الجميع ضد الجميع ، وذلك لأن كل فرد يتمتع بحق الإمتلاك الغير محدود. ويؤدى الخوف من الموت الناتج عن هذا التناحر العام إلى إرساء السلام عن طريق تخلى كل فرد عن حقوقه لصالح سلطة مطلقة. وهو ما لايلغى حق الأفراد فى التمرد على الحاكم إذا لم يضمن السلام الإجتماعى. من الأنسب هنا أن نتحدث عن فلسفة سياسية وليس عن سوسيولوجيا لأن التحليل لدى هوبز وروسو لاينطلق من النشاط الإقتصادى - كما لدى لوك - ولا من الخصائص الثقافية

والاجتماعية - كما فى أعمال توكفيل Tocqueville (*) - ولكن ينطلق مباشرة من السلطة وأسسها. ولاتحتل فكرة الفاعل الاجتماعى موقعا هاما فى هذه الفلسفة السياسية ، وكذلك أيضا هو حال فكرة العلاقات الاجتماعية. كل ما يهم هو تأسيس النظام السياسى دون اللجوء إلى مبادئ دينية، وهو ما كان ذا أهمية خاصة لدى هوبز الذى انتقد زعم المجموعات السياسية المختلفة فى تبرير قتالهم من أجل السلطة فى إنجلترا بحجج مستعارة من الكتاب المقدس ومن إيمانهم الدينى. وقد إستند تشكيل دولة الحكم المطلق فى فرنسا، من لوازو Loiseau والمشرعين فى عهد لويس الحادى عشر حتى روشيليو Richelieu(**) ولويس الرابع عشر، على العبور من الكونى إلى الاجتماعى وإستبدال السياسى بالإلهى كتعبير عن المقدس فى الحياه الاجتماعيه مستبعدا بذلك فكر بوسويه Bossuet (***) . وقد دفعت الثورة الفرنسية هذا التطور إلى مداه عندما وحدت بين العقل والأمة وبين المواطنة والفضيلة، وفرضت كل الثورات اللاحقة واجبات ملزمة أكثر فأكثر على المواطنين وإنتهت إلى "عبادة الشخصية". وفى غمار حركة التنوير عارض ديدرو الأهواء الفردية بعقلانية الإرادة العامة. وقال محلاً فكرة الحق الطبيعى فى "الأنسيكلوبيديا" أن الإنسان الذى لا يستمع إلا إلى إرادته الخاصة هو عدو الجنس البشرى ...، وأن الإرادة العامة هى بالتالى فى داخل كل فرد فعلاً خالصاً للعقل ، الذى يفهم بعيداً عن الإنفعالات ما يمكن "للمرء أن يقتضيه من الآخر وما يكون من حق الآخر أن يقتضيه من المرء". سعى روسو، بصورة مختلفة، إلى الدفاع عن مبدأ للمواطنة يناهض عدم المساواة السائدة فى المجتمع المدنى. كما بدأ المفكرون الاسكوتلانديون يعتبرون المجتمع لا برجوازيّاً ولا مقدساً. ينبغى للنظام الاجتماعى أن يقام على قرار حر ويصبح بذلك مبدأ الخير. ولكن هذا القرار الحر هو تعبير عن الإرادة العامة كما يرى هوبز فى القرن السابع عشر ويرى روسو فى القرن الثامن عشر.

(*) (توكفيل (١٨٠٥-١٨٥٩) سياسى وكاتب فرنسى، دافع عن الديمقراطية وكان أول من حذر من ديكتاتورية الأغلبية واشترط لتجنبها إستقلال القضاء وحرية الصحافة.

(**) روشيليو (١٥٨٥-١٦٤٢)، رجل سياسى فرنسى، مستشار لويس الرابع عشر و مؤسس الأكاديمية الفرنسية.

(***) بوسويه (١٦٢٧-١٧٠٤) لاهوتى وكاتب فرنسى حاول أن يوفق فى رؤيته للتاريخ بين النظام الإلهى والنشاط الإنسانى.

هذه الصيغة شاع إستخدامها وكان لها عند روسو معنى عقلانى. لأن الإرادة العامة لاتدافع عن مصالح الأغلبية أو عامة الشعب، فهذا أمر يرفضه روسو تماماً ، انها لاتنطبق الا على القضايا العامة للمجتمع، اى على وجوده نفسه، وأى اساس يمكن ان تقوم عليه هذه النزعة العامة، إن لم يكن العقل؟ هناك نظام طبيعى يجد الانسان نفسه فى داخله، وعندما يخرج منه مدفوعاً برغبته وطموحاته فانه ينتقل من هذا الوجود الطبيعى الى مجال الشر الذى يفصل الافراد ويضعهم فى مواجهه بعضهم البعض. يؤدى العقد الاجتماعى الى ظهور حاكم يعبر عن المجتمع نفسه . ذلك المجتمع الذى يشكل جسدا اجتماعياً بشرط أن يكون بسيطاً كما يعبر عن العقل فى نفس الوقت. ويستبعد روسو مثله مثل كل فلاسفة التنوير، الوحي الالهى كاساس لتنظيم المجتمع ويستبدل العقل به. ان مفهوم الحاكم لدى روسو تمهيد لمفهوم الوعى الجمعى لدى دوركايم، كما ان فكره، بعد فكر هوبز، هو اساس كل صور السوسيولوجيا التى تحدد الوظائف الاساسية لمجتمع ما وتقيم السلوك على اساس الاسهام الايجابى أو السلبي فى الاندماج الاجتماعى وعلى اساس قدرة المؤسسات فى التحكم فى المصالح والأهواء الشخصية. وبهذا المعنى يكون دوركايم وريثاً للفلسفة السياسية فى القرن السابع عشر والثامن عشر بعد حاله الكسوف التى تعرضت لها نتيجة لإنتصار النزعة التاريخية ولتصوير المجتمع على انه حقل لصراعات اجتماعية بين المستقبل والماضى، بين المصلحة والتراث ، بين الحياة العامة والحياة الخاصة. هكذا خلق احد نماذج التمثيل الكبرى للحياة الاجتماعية، تلك الحياة التى تعقد فى مركزها الصلة بين النظام الاجتماعى والفاعلين، بين المؤسسات وعملية الصياغة الاجتماعية. الإنسان ليس مخلوقاً خلقه الله على شاكلته ولكنه فاعل اجتماعى يتحدد بانوار معينة، اى بسلوكيات مرتبطة بموقع وينبغى لها ان تسهم فى الاداء الجيد للنظام الاجتماعى. ولان الانسان هو ما يفعله فلا يجوز له ان يبحث عن فرديته الخاصة وعن اصوله فيما وراء المجتمع، أى لدى الله، وعليه ان يبحث عن تحديد للخير والشر على اساس ما هو نافع أو ضار للبقاء على قيد الحياة ومن اجل اداء افضل للجسد الاجتماعى. إن مفهوم المجتمع ،

الذي نستخدمه عبر هذا الكتاب لنطلقه على مجموعة ملموسة ومحددة بحدود، لمصادر للسلطة معترف بها، واجهزة لتطبيق القوانين ووعي بالانتماء، قد أخذ في إطار هذا الفكر الإجتماعى الكلاسيكى معنى مختلف، معنى شارح وليس وصفيًا ، بما ان المجتمع ومواقع الافراد فيه هى عناصر لشرح السلوك وتقييمه . هذه هى النزعة السوسيولوجية التى تمثل عنصراً مركزياً فى الرؤية الحديثة.

وقد عضد هذه الرؤية تفاؤل ديدرو فى كتابه مقال فى الجدارة والفضيلة : " الانسان مستقيم وفاضل عندما يلزم اهواءه ، دون اى دافع دنىء او ذليل فى مكافأة أو خوف من عقاب ، بالمعاونة على تحقيق الصالح العام للنوع الانسانى . وهو جهد بطولى ولايختلف بأى حال عن مصالحه الخاصة" . وهى فكره علينا ان نقر بضعفها مثلها مثل فكرة الطيبة الفطرية للإنسان أو الربط بين الفضيلة واللذة. والنقد الذى يوجهه ماندفيل Mandeville للنظام الاجتماعى نقد مدمر كالنقد الذى يوجهه صاد Sade للنظام الاخلاقى. وكيف يمكن ان ننكر قوة المديح الذى نشره عام ١٧٠٥ م للغريزة الانانية، وتأكيد الحاسم على وجوب الاختيار بين الفضيلة والثراء ، وبين الخلاص الابدى والسعادة؟

إن ضعف هذه الاخلاق وهذه الجمالية وهذه السياسة يأتى من كون الايديولوجية الحديثة غير مقنعة بما فيه الكفاية عندما تسعى لاعطاء محتوى ايجابى للحداثة، لكنها قوية عندما تظل نقدية. يمكن للعقد الاجتماعى ان يخلق جماعة قهرية كالتنين Leviathan الذى يضع نهاية لحرب الجميع ضد الجميع مقابل خضوعهم لسلطة مركزية مطلقة. ولكن الأمر فهم على انه نداء للتحرر ، وقلب السلطات التى لا تقوم إلا على التراث وعلى الأمر الالهى. إن مفهوم الحداثة الذى بلوره فلاسفة التنوير هو مفهوم ثورى، ولكنه لايزيد ذلك ، فهو لا يحدد لثقافة ولامجتمع. انه يشعل الكفاح ضد المجتمع التقليدى اكثر من كونه يلقي الضوء على آليات عمل مجتمع جديد. وهو عدم سيلقى بظله على علم الاجتماع : فمنذ نهاية القرن التاسع عشر وضع علم الاجتماع فى قلب مصطلحاته

التعارض بين التقليدي Traditionel والحديث، بين الجماعة والمجتمع كما لدى تونيس Tonnie's، بين التضامن الآلى والتضامن العضوى لدى دوركايم Durkheim، وبين الإعزاء ascription والانجاز achievement لدى لينتون Linton، والمصطلحات المتعارضة للمحاور التى تحدد المتغيرات النموذجية لدى بارسونز Parsons واخيراً بين الكلية Holisme والفردية لدى لويس دومون. فى كل هذه الحالات يبقى المصطلح الذى يحدد المجتمع الحديث غامضاً وكأن المجتمع المسمى بالتقليدى هو وحده المنظم حول مبدأ محدد بصورة ايجابية وبالتالي قادر على ادارة ادوات مؤسساتية، بينما يكون ما يحدد المجتمع الحديث مبدأ سلبياً، فهو قوة لحل النظام القديم اكثر منه بناء لنظام جديد.

هذا الضعف فى المقترحات وهذه القوة فى الانتقادات فى الفكر الحدائى يفسرهما كون نداء الحدائى لا يتحدد بتعارضه مع المجتمع التقليدى بقدر ما يتحدد بكفاحه ضد الملكية المطلقة، وخصوصاً فى فرنسا حيث خاض فلاسفة القرن الثامن عشر، روسو وديدرو وفولتير، كفاحاً نشطاً ضد الملكية وضد شرعيتها الدينية والامتيازات التى تكفلها. ظلت فكرة الحدائى ثورية وقتاً طويلاً فى فرنسا لانه لم يكن لديها الامكانيات، كما فى انجلترا بعد عام 1688 والقضاء على الملكية المطلقة، أن تبني نظاماً سياسياً واجتماعياً جديداً، وهى المهمة التى خصص لوك نفسه لها عندما كان على ظهر السفينة التى حملت وليم اورانج Guillaume d'Orange الى انجلترا. ولهذا يدعو للطبيعة ضد المجتمع والى سلطة مطلقة جديدة ضد اللامساواة والامتيازات. ولم ترتبط الايديولوجية الحدائى بالفكرة الديمقراطية، لقد كانت ثورية محضة، ناقدة على مستوى النظرية وبعد ذلك على مستوى التطبيق، لسلطة الملك والكنيسة الكاثوليكية باسم المبادئ الكونية وباسم العقل نفسه.

إن التماهى بين الحدائى والعقل كان فرنسياً اكثر منه انجليزياً، وكانت الثورة الانجليزية ومذكرة الحقوق Bill of rights عام ١٦٨٩م تدعو لاعادة الحقوق التقليدية للبرلمان، فيما دعت الثورة الفرنسية انطلاقاً من راديكاليته، باسم العقل الى وحدة الامة وعقاب عملاء الملك وعملاء الخارج.

روسو نقد حدائى للحدائىة

نذكر فيما سبق اسم جان جاك روسو اكثر من مرة ومرتبطةً باسم هوبز. ولكن اذا كان روسو تلميذاً للفلاسفة - وعلى وجه الخصوص ديدرو ، الذى ، بينما كان روسو فى طريقه لزيارته فى سجنه عام ١٧٤٩م جاءه الإلهام بأول مقال وقدمه لأكاديمية ديجون فى ١٧٥٠- فإن فكره مازال يمثل اكبر نقد للحدائىة من داخلها ، والذى يطالب بهارمونية الطبيعة ضد التشوش وعدم المساواة الاجتماعية، وهذا ليس المقال الاول ولكنه المقال الثانى فهو يمهد للعقد الاجتماعى الذى اعطى لفكر روسو اهميته الاستثنائية. إن فكرة كون تقدم العلوم والفنون يصاحبه انحطاط فى الاخلاق ، وهى فكرة عزيزة على العصر اليونانى القديم وخصوصاً لدى هزئود، تسمح بصياغة بارعة ولكنها لاتجدد الفكر الاجتماعى. وفى المقابل يخرج روسو من عقلانية التنوير المتفائلة بمجرد ما ان يستنكر عدم المساواة فى مقاله الثانى. وهنا تصبح المسافة هائلة مع هوبز. فلم يعد الخوف من الحرب او الموت هو الذى يدفع البشر لان يخلقوا نظاماً اجتماعياً وينقلوا كل حقوقهم لحاكم مطلق لكنها هى عدم المساواة التى بتناميها فى المجتمع الحديث، تدفعه الى تأسيس نظام سياسى معارض للمجتمع المدنى. ان الدعوة الى الارادة العامة تصبح عند روسو أداة للكفاح ضد عدم المساواة عملياً. وتكون الدولة، باعتبارها جماعة المواطنين، هى المقابل الضرورى للتفاوت الاجتماعى الذى ينتج من التحديث نفسه. هذه هى نزعة روسو الثورية والجماعية فى العداء للحدائىة. تتعارض الوحدة او التجمع الصغير Communauté التى هى بالضرورة ذات حجم محدود، كما كانت اثينا وكما هى جينيف وكورسيكا وربما بولاندا، مع المجتمعات الكبرى، والتى تتهدد وحدتها بواسطة تقسيم العمل او البحث عن الربح. إنها العودة الى ما هو سياسى، هو الذى يبقى حتى اليوم ، او الامس، المبدأ الرئيسى لليسار الفرنسى المبادر لأن يماهى بين المجتمع المدنى والرأسمالية وانتصار المصالح الخاصة والانانية طارحاً نفسه كبطل للدولة الجمهورية والاندماج القومى. انه ينظر بحذر الى فكرة المجتمع ويفضل عليها فكره السيادة الشعبية ، المتجسدة فى الدولة القومية. وهذا تمجيد لما هو سياسى وقد

بلغ اوجه مع التحليل الهيجلى للدولة كمجتمع Staatsgesellschaft . بالنسبة لروسو كاتب العقد الاجتماعى، "نحن لانبدأ حقاً فى ان نصير بشراً الا بعد أن نكون مواطنين"، وهذه الفكرة كانت زاد كل المحاولات الطموحة لخلق مجتمع جديد، اى سلطة سياسية جديدة تخلق انساناً جديداً. تمجد الحداثة الارادة الجماعية فى الكفاح ضد عدم المساواة والتأثيرات السلبية للإثراء ، باسم العقل الذى يتحول الى سيادة شعبية، لكى يؤسس تحالف الانسان مع الطبيعة. ولكن روسو كان واعياً بان الارادة العامة لايمكن ان تحتفظ بنفسها نقية، وان تفرض نفسها بصورة مطلقة ضد مصالح الافراد والفئات الاجتماعية ولم يكن لديه اوهام عن جينيف المتبرجزة.

هذا التناقض بين الحداثة الاقتصادية والمواطنة، والذى سعى كل من مونتسكيو وفولتير ان يجعلوه محتملاً عن طريق تحديد السلطة السياسية، رآه روسو امراً مأساوياً ولايمكن تجاوزه لانه قائم على التناقض بين النظام الطبيعى والنظام الاجتماعى، وهو ما يقوله فى بداية الجزء الأول من كتاب إميل. ويشدد جان ستاروبينسكى على هذا التناقض بين الكينونة والمظهر، والذى يتخذ شكله الاكثر تبلوراً فى شهادة كاهن من سافوى (فى الكتاب ١٧ من إميل Emile) وفيه يضع الدين الطبيعى فى مواجهه عقائد يشهد تنوعها من مجتمع لآخر على خاصية النسبية والاصطناعية. كيف يمكن تجاوز هذا التناقض؟ ليس بالعودة الى الوراء نحو مجتمع بدائى لا أخلاقى اكثر منه أخلاقى بصورة ايجابية، ولكن بقلب التناقضات الاجتماعية وبناء مجتمع اتصال قائم على المعرفة الحدسية بالحقيقة.

ينتقد روسو المجتمع وزخارفه وعدم المساواة فيه، ولكن يتم ذلك باسم التنوير حتى وان تحول أكثر فأكثر ضد أصدقائه الفلاسفة. إنه يدعو الى طبيعة هى بمثابة النظام والانسجام أى العقل. ويريد ان يضع الانسان فى هذا النظام بجعله يفلت من التشوش والفوضى التى يخلقها التنظيم الاجتماعى. هذا هو هدف التعليم : تشكيل كائن طبيعى، طيب، عاقل وقادر على الاجتماع، وهو ما يطرحه كتاب إميل أو عن التعليم.

هذه النزعة الطبيعية هي نقد للحدثة، نقد حدثي متجاوز لفلسفة التنوير، لكنه مستتير. سيربط المثقفون ، بعد روسو الذي يمثل كانط في هذا الصدد استمرارية له، وحتى منتصف القرن التاسع عشر، نقدهم للمجتمع الظالم بالحلم في مدينة مكشوفة لنفسها، وبالعودة الفلسفية للوجود والعقل، وهو حلم سيأخذ غالباً الشكل السياسي للمجتمع الجديد المبني تحت اشرافهم في خدمة العقل بعد ان يحملهم الى السلطة الشعوب المتمردة ضد مجتمع المظاهر والامتيازات. ويفتح مع جان جاك روسو النقد الداخلي للحدثة، ذلك النقد الذي لايدعو الى الحرية الشخصية او الى التراث الجماعي ضد السلطة، ولكن يدعو للنظام ضد الفوضى والطبيعة والجماعة ضد المصلحة الخاصة.

ولكن أليس روسو هو ايضا مؤلف الإعترافات الاحلام والمحاورات وهو نموذج الفرد الذي يقاوم المجتمع ؟ في الواقع لا يضع روسو الذات الاخلاقية في مواجهة السلطة الاجتماعية، لكنه يشعر إنه مستبعد من قبل المجتمع وبالتالي مجبر أن يكون شاهداً للحقيقة وشاجباً للهتات التي يفرضها المجتمع الفاسد على نفسه. إن نزعته الفردية، في تعريفها الايجابي، هي قبل كل شيء نزعة طبيعية، والسيكولوجيا لديه قريبة من السيكولوجيا لدى لوك ولاسيما في الاولوية التي يقر بها للاحساس وفي مفهومه عن الذهن.

فكرة أن الحدثة ستقود نفسها الى نظام اجتماعي عقلائي، وهي الفكرة التي قبلها فولتير المعجب بنجاح البورجوازية الانجليزية والبارع في التوفيق بين وعيه ومصلحه، ستصبح مرفوضة من جانب روسو. فالمجتمع ليس عقلائي والحدثة تفرق اكثر مما توحد. ينبغي مواجهة آليات المصلحة والارادة العامة وخصوصا بالعودة الى الطبيعة أي الى العقل وإعادة تحالف الانسان مع الكون. خرج من روسو في أن معاً فكرة السيادة الشعبية، التي غذت العديد من النظم الديمقراطية وكذلك الديكتاتورية، وفكرة الفرد كمثل للطبيعة ضد الدولة. ومع روسو يؤدي النقد الراديكالي للمجتمع الى فكرة سيادة سياسية في خدمة العقل. وقد حل برنار جرويتيهويسن Bernard Groethuysen هذه التفرقة لعمل روسو بين الدعوة للاستبداد الجمهوري في العقد الاجتماعي وشخصية

الاعترافات قائلاً: "يمكن مقارنة روسو بثوري من أيامنا، واع بان المجتمع ليس على ما ينبغي ان يكون فيتصور حلاً ذا سمة اشتراكية واخر ذا سمة فوضوية في آن. ويرى انه هنا بإزاء شكلين لايتوافقان مع النظام السياسى ، ولكنه باعتباره ثورياً قبل كل شيء ، يعتقد هذين الشكلين المختلفين في المثل الاعلى معاً لانهما يتعارضان مع المجتمع في صورته القائمة". لاداعى لأن نحول روسو الى رومانتيكى لانه فيما بين كتابيه العقد الاجتماعى و اميل ظهر موضوع بناء "نحن " اجتماعية تتجاوز وتعلو على الفرد. ولكن كيف لانقر مع جرويتهويسن بان القطيعة مع المجتمع تستدعى كل شيء، خلق يوتوبيا سياسية وفي نفس الوقت عزلة الفرد الذى يقيم تعارضاً بين الحقيقة والمجتمع الذى يحكمه الغرور والمظاهر .

ان ما يحدد الحكم الصالح ، وسيقول كانط بنفس الرأى ، هو وحدة الفضيلة والسعادة وبالتالي اذن وحدة القانون بالفرد والنظام بالفاعل. وكيف يمكن بلوغ هذه الوحدة إن لم يكن بإعلاء الانسان فوق كل هوى وفوق كل موضوع وكل مسلك متماهى مع الخير، نحو ما هو كونى فيه وهو العقل، حيث تتأسس به الصلة بين الانسان والكون؟ هذا هو مبدأ الاخلاق الكانطية الحديثة بامتيان، بما انها تستبدل المثل العليا والوصايا القادمة من الخارج تعديلاً للارادة يوحد بها بالعقل ويجعل هذا العقل عملياً. إن الخير هو الفعل الموافق للعقل، الخاضع للقانون الاخلاقى، وهو البحث عن الكونى فى الخاص سواء بإختيار سلوك مقابل لان يصبح كونياً أو بإتخاذ الانسان غاية وليس وسيلة. فالانسان ذات اخلاقية، ليس عندما يبحث عن سعادته أو عن ما تعلمه من فضيلة، ولكن عندما يخضع للواجب الذى ما هو الا سطوة الكونى والتى لاتكون الا واجباً بالمعرفة. يقول كانط : "تجراً على المعرفة ، اجعل لديك الشجاعة فى استعمال عقلك الخاص". لايمكن ان تمتزج مقولات الفهم بمقولات الارادة إلا فى حدود، إلا بمجهود يؤدى الى فرض مسلمات خلود النفس ووجود الله والتى يقوم عليها هذا المجهود الذى لاينتهى فى الارتفاع نحو الفعل الكونى. هذا التجاوز لكل الاوامر الشرطية يؤدى الى الامر القطعى Imperatif catigorique فى الخضوع للقانون ، وهو موافقه الارادة لقانون الطبيعة الكونى.

ان التوازي صريح بين اخلاق كانط وسياسة روسو التي تطرح خضوعاً مطلقاً من جانب الفرد الى الإرادة العامة، و التي تتبنى مجتمعاً إرادياً و طبيعياً في آن، أى يكفل إتصلاً بين الفرد و المجموع و يقيم الرابطة الإجتماعية كضرورة و كحرية في نفس الوقت. لا يختار روسو ولا كانط السعادة ضد العقل ولا العقل ضد الطبيعة، فهما يرفضان الإختزال الرواقى للسعادة الى الفضيلة و كذلك الوهم الابيقورى الذى تكون الفضيلة بمقتضاه هى البحث عن السعادة ، إن ما يعنيههم، وهم على قمة فلسفة التنوير (Aufklärung) أن يوحّدوا بين العقل والإرادة ، وأن يدافعوا عن حرية هى خضوع للنظام الطبيعى أكثر منها تمرداً على النظام الإجتماعى.

هذا هو المبدأ المركزى لهذا المفهوم "الإستنارى" ، فلم يكن يسمى بعد بالحدائث، ولكن ينبغى أن نطلق عليها هذا الإسم بأثر رجعى ؛ فالحدائث لسيت فلسفة للتقدم و لكنها، ربما بالعكس، فلسفة نظام يجمع الفكر اليونانى القديم بالفكر المسيحى. يمكننا أن نلمح فيها قطيعة مع التراث وفكراً للعلمنة، ولتدمير العالم المقدس ؛ ولكن ينبغى أن نرى فيها، بصورة أكثر عمقا ، محاولة جديدة وقوية للحفاظ على إتحاد الإنسان بالكون فى ثقافة قد تم بالفعل علمنتها. وبعد فكر التنوير ستأتى النزعة التاريخية للفلسفات المثالية للتقدم فى محاولة أخيرة للتوحيد، ولكن الإنسان لم يتمكن بعد روسو وكانط، من العثور على وحدته مع الكون ، لأن هذا الكون سيصبح تاريخاً وفعلاً، بينما سيتوقف الإنسان عن الخضوع كلية للنداء الكونى للعقل الذى لم يعد يرى الإنسان فيه أى مبدأ للنظام و لكن سلطة للتحويل والتحكم تتمرد عليها الخبرة المعاشة، الفردية و الجماعية.

الإيدولوجية الحداثية هى آخر صورة للإعتقاد فى وحدة الإنسان بالطبيعة. والحدائث بإعتبارها متماهية مع إنتصار العقل، هى الصورة الأخيرة التى يأخذها البحث الكلاسيكى عن الواحد والوجود. بعد قرن التنوير، ستصبح هذه الإرادة الميتافيزيقية حنيناً وتمرداً ، وسينفصل الإنسان الداخلى دائماً أكثر فأكثر عن الطبيعة الخارجية.

الرأسمالية

الأيدولوجية الحداثية التي ترتبط بالصيغة، ذات الخصوصية التاريخية، للتحديث الغربى لم تنتصر فقط فى مجال الافكار مع فلسفة التنوير. فقد سادت أيضاً فى المجال الإقتصادى ، حيث أخذت صورة الرأسمالية وهى التى لا يمكن إختزالها الى إقتصاد السوق والى الترشيده.

يتعلق إقتصاد السوق بتعريف سلبي للحداثة، فهو يعنى إختفاء أى إشراف كلى على النشاط الإقتصادى ، وإستقلاله عن الأهداف الخاصة بالسلطة السياسية أو الدينية وعن آثار التقاليد والإمتيازات. أما عن الترشيده فهو عنصر لا غنى عنه للحداثة، كما قلنا فى أول هذا الفصل. يتحدد النموذج الرأسمالى للتحديث على العكس بواسطة فاعل مدير هو الرأسمالى. بينما إعتقد فرنر سومبارت Werner Sombart أن التحديث الإقتصادى قد أدى الى تفكيك كل أشكال التحكم الإجتماعية و السياسية، و الى فتح الأسواق و تقدم الترشيده أى الى إنتصار الربح والسوق. وقد وقف فيبر عند هذه النظرة الإقتصادية المحضة وحدد فى كتابيه (الأخلاق البروتستانتية وروح الرأسمالية، و الإقتصاد والمجتمع) شخصية الرأسمالى كنمط إجتماعى وثقافى خاص ، وكان قصد فيبر العام هو إظهار كيف قامت الأديان الكبرى المختلفة بتحبيذ أو عرقلة العلمنة والترشيده الحديثين.

وفى حالة المسيحية ستركز إهتمام فيبر على الإصلاح وعلى الفكرة الكاليفنية عن القدر المسبق والتي تستبدل الزهد داخل العالم بالزهد خارج العالم. الرأسمالى هو الذى يضحى بكل شىء لا من أجل النفوذ و لكن من أجل رسالته Breuf ، ومن أجل عمله الذى لا يضمن به نجاته الأبدية كما كانت تعتقد الكنيسة الكاثوليكية، ولكن به يكتشف إمارات إصطفائه (النجاة اليقينية certitudo salutis) أو على الأقل يحقق الإنفصال عن العالم الذى يقتضيه إيمانه، أن انسان الإصلاح يولى وجهه شكراً للعالم. ويذكرنا فيبر أن الفريوس المفقود لميلتون Milton ينتهى بدعوة الى الفعل فى العالم خلافاً لروح الكوميديا الإلهية.

هه الإطروحة الشهيرة تستدعى سؤالين. الأول تاريخي : لا أحد يجهل أن الرأسمالية قد تطورت أولاً في البلاد الكاثوليكية، إيطاليا و الفلاندر، ويمكن أيضاً أن نضيف أن البلاد الكالفينية الأكثر تشدداً لم تعرف أى تطور إقتصادي ملحوظ، فقد بقيت أسكتلندا الكالفينية زمناً طويلاً متخلفة عن إنجلترا الأنجليكانية، كما أن بول الشمال بقيت زمناً طويلاً جداً متخلفة، وقد تم دفع إمستردام الى قمة العالم الرأسمالي بواسطة الأرمن والريمونتران Remonstrants الأقل تشدداً من كالفيني جنيف، تلك المدينة التي لم تعرف في القرن السادس عشر لا تقدم إقتصادي لامع ولا نشاط جامعي ملحوظ (لم تصبح جامعة جنيف مركزاً للإنتاج الفكرى إلا مع قدوم الديكارتيين الفرنسيين في القرن التالي). ومن جانب آخر، في القرن الثامن عشر، في بريطانيا العظمى والولايات المتحدة، وهى في طور التكوين حيث كان فرنكلين هو وجهها الرمزي، خف حضور الكالفانيين وترك التشدد مكانه لنفعية شديدة الدنيوية. من الصعب إذن تفسير تطور الرأسمالية بتأثير البروتستانية الأكثر تشدداً. إن ما كان يسعى فيبر الى فهمه هو بالأحرى نمط خاص ومغالى من النشاط الإقتصادي ؛ ليس التاجر ولا الصانع الحديث وإنما الرأسمالى بمعنى الكلمة، وهو الغارق تماماً في النشاط الإقتصادي، والذي تعتمد طاقاته في الإستثمار على إدخاره الشخصى، والذي لا يجذبه لا المضاربة و لا الترف، والذي يستخدم خيرات العالم وكأنه ليست مسخرة له حسب تعبير القديس بولس.

والسؤال الثانى أكثر قريباً من سؤال فيبر الأساسى، هل يحبذ الإيمان ظهور سلوك إقتصادي؟ و لكن كيف يمكن قبول مفارقة مثل هذه، فى حين تكون الروح الدينية، المعدلة والمنتعشة بسبب الإصلاح، زهداً فى داخل العالم، وبالتالي تؤدى الى انفصال عن خيرات العالم التى يصعب توفيقها مع حياة مكرسة للعمل وللتجارة والربح؟ وهكذا نجد أنفسنا مدفوعين الى تأويل أكثر محدودية للوقائع التى حلها فيبر. لن يكون الجوهرى هو الإيمان أى الثقافة الدينية ولكن إنقطاع الروابط الإجتماعية التى فرضها الخوف من حساب اله خفى. إنقطاع للعائلة، لعلاقات الصداقة ورفض للمؤسسات الدينية التى تخطط المقدس بالدينوى والإيمان بالثروة والدين بالسياسة مثل آباء وكاردينالات عصر النهضة، وهو ما يقودنا الى الموضوع الفيبرى عن إزالة السحر، وعن القطيعة مع كل

شكل لتأويل المقدس والدينوى أو الوجود والظواهر، بلغة كانطية. إن فيبر فى الفصل الرابع يتقدم بشكل ملحوظ فى هذا الإتجاه. لو فسرنا بهذه الطريقة المحدودة فكره لوجدناه فى إتفاق تام مع مجال الفكرة الغربية والتقليدية عن الحداثة والتي يدركها على انها تعقلن Intellectvalisation. وعلى أنها قطيعة مع "معنى العالم" وعلى أنها فعل فى العالم، و على أنها إستبعاد للغائية، وللوحى وفكرة الذات. إن أهمية البروتستانتينية لا تكمن هنا فى مضمون إيمانها ولكن فى رفضها سحر العالم المسيحى الذى تحدده الأسرار وسلطة الآباء الزمنية فى آن .

لا يرتبط فكر فيبر إذن بتحديد عام للحداثة ولكن بالرأسمالية كصيغة إقتصادية للإيديولوجية الغربية للحداثة منظوراً إليها كقطيعة وصفحة جديدة. وقد خرج من الإصلاح نفسه كما خرج من التحول النابع من التقوى الكاثوليكية وخصوصاً مع فرانسو دوسال Franois de Sales (*) ، أخلاق مستنيرة بالإيمان مختلفة جد الإختلاف عن خوف وإرتعاش أولئك الذين ينتظرون قراراً من الله لا حيلة لهم امامه. بشكل جعل أن البروتستانتينية إذا كانت قد ساهمت فى إبتكار أخلاق ethos تحبذ الرأسمالية، فأنها فى نفس الوقت قد ساهمت بشكل كبير فى تنمية أخلاق للضمير وللتقوى والحميمية التى قادت الى إتجاه آخر هو الفردية البرجوازية التى يليق بها أن تعارض روح الرأسمالية، كما عارض بسكال بين الإحساس والعقل. الرأسمالية التى حللها فيبر بعمق، ليست إذن هى الصيغة الإقتصادية للحداثة بشكل عام، ولكن لمفهوم خاص يقوم على قطيعة بين العقل والإعتقاد، وبين الإنتماءات الإجتماعية والثقافية للظواهر القابلة للتحليل والحساب من جانب والوجود والتاريخ من جانب آخر. من هنا جاء العنف مستوحى من مبدأ الصفحة الجديدة والذى تم به تنفيذ التحديث الرأسمالى، والذى فرض سيطرته ولكنه أدى الى تمزقات مأساوية، يستحيل معها قبوله كشرط ضرورى للحداثة .

* فرانسوا دو سال (١٥٦٧-١٦٢٢) قسيس كاثوليكي إعتنق الكالفينية ودعا إلى الزهد في مظاهر الحياة .

إن التعريف الفيبري للرأسمالية – صيغة إجتماعية خاصة للترشيد الإقتصادي – قد كان في قلب تأملات كلاً من كارل بولاني Karl Polanyi في كتابه التحول الكبير (1944) وجوزيف شومبيتر Joseph Schumpeter في كتابه الرأسمالية والإشتراكية والديمقراطية (1942)، يعطى بولاني أهمية مركزية لإنفصال السوق عن المجتمع والذي يرمز اليه إلغاء قانون الفقراء في بريطانيا العظمى في عام 1834 والقطيعة مع التدخلات الإجتماعية، والسياسية مثل قانون الفقراء ووضع الحرفيين منذ القرن السادس عشر. وهذا الإنفصال بين الإقتصاد والمجتمع هو الذي دفع شومبيتر للتنبؤ بسقوط رأسمالية لم تعد تجد لها سنداً من الرأي العام في البلاد الرأسمالية.

هل يعد هذا الإنفصال عنصراً دائماً و ضرورياً للتحديث؟ بالتأكيد لا، وأقلية من البلاد في قلب العالم الحديث هي التي عرفت تنمية رأسمالية خالصة. ولم تكن هي حالة فرنسا التي أدارت الدولة فيها التصنيع، ولا حالة ألمانيا التي قضى فيها بسمارك على برجوازية فرنكفورت، ولا اليابان التي لم تتوقف الدولة فيها منذ ثورة مييجي Meiji^(*) عن أن تلعب دوراً مركزياً في التنمية الإقتصادية. كما أنها بالتأكيد لم تكن حالة البلاد التي كانت البرجوازية الرأسمالية فيها ضعيفة أو غير موجودة. إن ما يميز النموذج الرأسمالي الإنجليزي و الهولندي و الأمريكي على وجه الخصوص هو انه خلق مجالاً للفعل المستقل للفاعلين الأفراد في التنمية الإقتصادية. كما ينبغي أيضاً إضافة أن الرأسمالية الصناعية قد إعتمدت بشكل كبير على إستغلال الأيدي العاملة بينما ينطبق التحليل الفيبري بالأحرى على الإقتصاد ما قبل الصناعي وعلى الإقتصاد المنزلي House Hold حيث يعتمد نجاح المشروعات الإنتاجية أو التجارية أولاً على قدرة الرأسمالي على تقليل إستهلاكه للربح الناتج من إستثماره.

* مييجي إمبراطور ياباني أسمه الحقيقي موتسو هيتو (1852-1912) مؤسس اليابان الحديثة ونسب إليه إسم مييجي ويعنى في اليابانية الحاكم المستنير. بدأ حركته في الإصلاح بالسماح بالملكية الخاصة للأرض ثم أدخل التقنية والعلم الغربيين والتصنيع.

جدوى التحليل الفيبر للرأسمالية هي تمييزه للحالة التاريخية حيث يساهم الاعتقاد الدينى بشكل مباشر فى عزل منطق للإقتصاد عن باقى الحياة الإجتماعية والسياسية. ويأتى خطره من الاعتقاد بان هذا التحليل ينطبق على الحداثة عموماً. إن ما يصفه فيبر ليس هو الحداثة ولكن نمط خاص من التحديث يتميز بتركز شديد للوسائل فى خدمة الترشيح الإقتصادى وفى نفس الوقت بالقهر الشديد الذى يمارس على الإنتماءات الإجتماعية والثقافية التقليدية، وعلى الحاجات الشخصية للإستهلاك وعلى كل القوى الإجتماعية - عمال ومستعمرين وأيضاً النساء والأطفال - التى تتماهى فى نظر الرأسماليين مع دائرة الحاجات المباشرة ومع الكسل واللاعقلانية.

لأن التحديث الغربى قد سبق بزمن كبير كل عمليات التحديث الأخرى، ولأنه منح الدول الأوروبية خلال ثلاث قرون، وبعد ذلك الولايات المتحدة، وضعاً سائداً، يقوم مفكرو هذه البلاد بالتوحيد غالباً بين تحديثهم و الحداثة بشكل عام، وكأن القطيعة مع الماضى وتشكيل نخبة رأسمالية خالصة هي الشروط الضرورية والمركزية لتشكيل مجتمع حديث. إن النموذج السائد للتحديث الغربى يختزل الفعل الطوعى الموجه بواسطة قيم ثقافية أو أهداف سياسية الى حده الأدنى، ويستبعد إذن فكرة التنمية، التى تعتمد بالعكس على التفاعل المتبادل للمؤسسات الإقتصادية والحركات الإجتماعية وتدخلات السلطة السياسية والتى لم تنى تكتسب أهمية ضد النموذج الرأسمالى المحض. وهو ما يظهره تعقد التحليل الفيبرى بما انه قائم على الفكرة العامة القائلة بأن المصالح الإجتماعية موجهة ثقافياً ولكنه يسعى فى الوقت نفسه أن يبين كيف يتشكل الفعل المتحرر من رؤية للعالم، تحكمها فقط العقلانية الأداتية ولا تعرف أى قانون اخر سوى قانون السوق. وهو ما جعل فيبر يعى بصورة درامية بمأزق المجتمع الحديث المنغلق فى العقلانية الأداتية والمحروم من المعنى والذى يتحرك رغم ذلك دائماً بواسطة العقل الكارزمية وبالتالي بواسطة أخلاق الإقتناع (Gesinnung) والتى تسعى الحداثة للقضاء عليها لمصلحة السلطة العقلانية الشرعية وأخلاق المسئولية. الرأسمالية،

والدعوة للإخلاق الطبيعية و فكرة الصفحة الجديدة تتلاقى جميعها لتحديد الأيديولوجية الحداثية للغرب فى جوانبها الخاصة والتي لا ينبغى أن تماهى بينها وبين الحداثة بشكل عام. وسيكون من الخطير أن نقترحها أو ان نفرضها على العالم أجمع على أنها المنهج الوحيد الصحيح أو الطريق الوحيد الأفضل (One Best Way) حسب تعبير تايلور.

الأيديولوجية الحداثية

هذا المفهوم الكلاسيكى والفلسفى والإقتصادى فى آن للحداثة يعرفها بانها إنتصار للعقل وتحرر وثورة، ويعرف التحديث على أنه الحداثة فى حالة فعل وعلى أنه مسار مباطن لها تماماً. تتحدث كتب التاريخة المدرسية بحق عن العصر الحديث بإعتباره يمتد من عصر النهضة الى الثورة الفرنسية والى بدايات التصنيع المكثف فى بريطانيا العظمى. لأن المجتمعات التى تطورت فيها روح وممارسات الحداثة كانت تبحث عن ترسيخ نظام وليس عن تكريس حركة : تنظيم التجارة وقواعد التبادل وخلق إدارة عمومية وسيادة القانون ونشر الكتاب ونقد التراث والمحظورات والإمتيازات. ويلعب هنا العقل الدور المركزى اكثر من رأس المال. لقد ساد المشرعون والفلاسفة والكتاب وكلاً من ممتهى الكتابة هذه القرون ، وقامت العلوم بالملاحظة والتصنيف والترتيب وبكشف نظام الأشياء. وفى أثناء هذه الفترة كانت فكرة الحداثة – الحاضرة رغم أن الكلمة نفسها لم تكن قد خرجت بعد – تعطى للصراعات الإجتماعية شكل كفاح العقل والطبيعة ضد السلطات القائمة. ليس المحدثين فقط هم الذين يواجهون القدامى، ولكن هناك أيضاً الطبيعة وحتى كلام الله يتحررون جميعاً من أشكال السيطرة المستندة إلى التراث أكثر من التاريخ، وتنتشر الظلمات التى ستنتقش بالتنوير. المفهوم التقليدى للحداثة هو اذن وقبل كل شىء بناء صورة عقلانية للعالم الذى يدمج الإنسان بالطبيعة، الكون المتناهى فى الصغر (الميكروكزم) فى الكون المتناهى فى الكبر (الماكروكزم) ويرفض كل أشكال الثنائية بين الجسد والنفس، بين عالم الإنسان والعالم المفارق.

ويعطى أنطوني جيدنس Anthony Giddens صورة وثيقة الصلة للحدثة كجهد شامل للإنتاج التحكم تكون أبعاده الأربعة الأساسية هي التصنيع والرأسمالية وصناعة الحرب ومراقبة كل جوانب الحياة الاجتماعية. ويضيف حتى أن الاتجاه العام للعالم الحديث يدفعه الى عملية شمول متنامية تأخذ شكل تقسيم العمل الدولي وتشكيل العوالم الإقتصادية وكذلك نظام عسكري دولي وتقوية الدول القومية التي تركز نظم التحكم. إنها رؤية تختلط فيها عناصر الثقة والقلق في التحديث المتسارع، وتحبذ بوضوح فكرة النسق كإمتداد لمفهوم دوركايم عن التضامن العضوي. يبدو المجتمع الحديث كما يتصور في الغالب نفسه كمجتمع قادر على "الانعكاسية" كما يقول جيدنس، ولممارسة الفعل على الذات، وهو ما يجعله يتعارض مع المجتمعات الطبيعية التي تجعل الفرد يتصل مباشرة بالمقدس عبر التراث أو خارجه، في حين ان المجتمع الحديث ينحى كلاً من الفرد والمقدس لصالح نسق إجتماعي ذاتي الانتاج وذاتي التحكم وذاتي الإنتظام، وهكذا يستقر شيئاً فشيئاً مفهوم يستبعد أكثر فأكثر فكرة الذات.

هذا المفهوم التقليدي للحدثة والذي ساد أوروبا ثم بعده باقى العالم الغربى والمتغرب قبل أن يتراجع أمام الإنتقادات وتغير الممارسات الإجتماعية، موضوعه الأساسى هو تماهى الفاعل الإجتماعى مع اعماله وإنتاجه سواء بإنتصار العقل العلمى والتكنيك أو بالإجابات التي يأتى بها المجتمع بصورة عقلانية لرغبات وحاجات الأفراد. ولهذا فالأيديولوجية الحداثية تؤكد قبل كل شىء موت الذات. وقد كان التيار السائد فى الفكر الغربى فى القرن السادس عشر مادياً. إعتبر اللجوء الى الله والإحالة الى النفس كموروثات من فكر تقليدى ينبغى تدميرها. لم يكن الكفاح ضد الدين النشط فى فرنسا وإيطاليا وأسبانيا والأساسى فى فكر ميكافلى وهوبز والموسوعيين الفرنسيين، رفضاً فقط للملكية والحق الالهى والحكم المطلق الذى يدعمه الاصلاح المضاد، وخضوع المجتمع المدنى لتحالف العرش و المنبر. لقد كان رفضاً للمفارقة وبشكل أكثر عينية للفصل بين النفس والجسد، ونداء لوحدة العالم والفكر الذى يسوده العقل أو للبحث عن المصلحة واللذة.

فلنقر ان بحدّة المفهوم التقليدي للحدث، بل وبعنفه ، لقد كان ثورياً مثل كل نداء للتحرر ومثل كل رفض للتواطؤ مع الأشكال التقليدية للتنظيم الإجتماعي والإعتقادات الثقافية، إنه عالم وإنسان جديدين ينبغي خلقهما بإدارة الظهر للماضي، للعصور الوسطى و بإيجاد الثقة التي كانت لدى القدماء فى العقل، وإعطاء الأهمية المركزية للعمل وتنظيم الإنتاج وحرية التبادل وعلو القوانين على الأشخاص. فك السحر والعلمنة والترشيد والسلطة العقلانية الشرعية وأخلاق المسؤولية : تحدد مفاهيم ماكس فيبر هذه بشكل واف الحدث التي ينبغي أن نضيف بشأنها أنها غازية ؛ أنها تؤسس سيطرة النخبة المرشدة والتحديثية على بقية العالم بواسطة تنظيم التجارة والمصانع وبالأستعمار. إن إنتصار الحدث يعنى إلغاء المبادئ الخالدة والقضاء على كل جوهر وعلى هذه الكيانات الإصطناعية مثل الأنا والثقافات من اجل معرفة علمية للآليات البيو-سيكولوجية وللقواعد الغير شخصية والغير مدونة لتبادل الثروات والكلمات والنساء. وسوف يقوم الفكر البنيوي بتجذير هذه النزعة الوظيفية، وسوف تذهب عملية القضاء على الذات الى مدى أبعد. إن النزعة الحدثية معادية للنزعة الإنسانية، لأنها تعرف جيداً ان فكرة الإنسان قد ارتبطت بفكرة النفس التي تفرض فكرة الله، لإن إستبعاد كل وحى وكل مبدأ أخلاقي يخلق فراغاً يتم ملأه بفكرة المجتمع أى بفكرة النفعية الإجتماعية. فالإنسان ليس الا مواطناً والبر يصبح تضامناً والضمير إحتراماً للقانون ، ويحل الإداريون ورجال القانون محل الأنبياء.

إن مجال العقل واللذة والذوق الذي فتحه فلاسفة التنوير أمام المحدثين يجهل الصراعات الداخلية للمجتمع أو يفسرها بإعتبارها مقاومة من جانب اللاعقل لتقدم العقل. إن الحدثين مرتاحي الضمير ؛ إنهم يحملون النور الى قلب الظلمات ويثقون فى طيبة الإنسان الفطرية، وفى قدرته على إبتكار المؤسسات العقلية ويثقون قبل كل شئ فى مصلحته التي تمنعه من أن يدمر نفسه وتدفعه الى التسامح وإحترام حرية الآخرين.

هذا المجال يتسع إعتقاداً على وسائله الخاصة أى على فتوحات العقل. فالمجتمع ليس جماعاً للتأثيرات التى ينتجها تقدم المعرفة. وتتقدم الوفرة والحرية والسعادة معا، لأنها جميعاً منتجات لتطبيق العقل فى جميع نواحي الوجود الإنسانى، وليس التاريخ إلا صعود شمس العقل فى الأفق، وهو ما يلغى كل انفصال بين الإنسان والمجتمع فالوضع الأمثل هو ان يكون مواطناً وأن تشارك الفصائل الخاصة فى تحقيق الصالح العام. إن مجال التنوير شفاف ولكنه مغلق على نفسه كبلورة الكريستال. يحيا الحداثيون فى بلورة تحميهم من كل ما يقلق العقل والنظام الطبيعى للإشياء.

فشلت هذه المحاولة لتكوين المجتمع المرشد أساساً لأن فكرة الإدارة العقلانية للإشياء والتى تحل محل حكومة البشر هى فكرة خاطئة بصورة مأساوية. ولأن الحياة الإجتماعية التى تم تخيلها على انها شفافة ويحكمها إختيارات عقلانية بدت مشحونة بسلطات وصراعات بينما بدأ التحديث نفسه مع الزمن اقل داخلية واكثر إستثارة عبر الارادات القومية او الثورات الاجتماعية. لقد انفصل المجتمع المدنى عن الدولة ؛ ولكن اذا كان المجتمع الصناعى يعنى انتصار الاول فإن الدولة قد ظهرت فى القرن العشرين الفارس المسلح للتحديث القومى. هذه الهوة التى حفرت بين الحداث والتحديث وبين الرأسمالية والقومية قد أدت الى انهيار الحلم فى مجتمع حديث يحدده انتصار العقل. لقد مهدت الى قلب نظام الحداث التقليدى بسبب عنف السلطة وتعدد الحاجات.

ماذا يبقى اليوم من الايديولوجية الحداثية؟ نقد وتفكيك وازالة للسحر. إرادة وفرحة لتدمير العقبات المتراكمة امام طرق العقل اكثر منها بناء لعالم جديد. لا تستمد فكرة الحداث قوتها من طوباويتها الوضعية وهى بناء عالم عقلانى ولكن من وظيفتها النقدية والتى تحتفظ بها بمدى ما تبقى مقاومة الماضى.

هذه المقاومة كانت قوية ومستمرة - خصوصاً فى فرنسا حيث ارادت الملكية المطلقة ان تكن نابعة من الحق الالهى - لدرجة ان الهم الاول لفلسفة التنوير منذ

بايل Bayle(*) كان هو الكفاح ضد الدين أو بالاحرى ضد السلطات الكنسية باسم الدين الطبيعى او احياناً باسم الشك بل وحتى باسم الالحاد المناضل. ويذكر كاسيرر عن حق بان هذا الموقف كان فرنسياً بالاساس وان التنوير Aufklärung فى المانيا والتنوير Enlightenment فى انجلترا كانوا على توافق جيد مع الدين ؛ ولكن رفضت الفلسفة، فى كل هذه البلاد، سلطة التراث ولم تثق الا بالعقل. يبقى هذا الفكر النقدى وهذه الثقة فى العلم هما القوة الاساسية لمفهوم الحداثة الذى يجمع فكرة التقدم بفكرة التسامح وخصوصاً فى فكر كوندورسيه Condorcet (*). ولكن عملها الهدام اكثر إقناعاً من عملها البناء ولا تتوافق الممارسات الاجتماعية مع افكار الفلاسفة، الأكثر جسارة وصرامة فى نقدهم للتطيرات عنهم فى تحليلهم للتغيرات الاجتماعية.

وقبل ان نترك هذه الحداثية، علينا الا ننسى انها كانت مرتبطة بحركة متحمسة لتحرير الافراد الذين لم يعوبوا يكتفون بالانعتاق من السيطرة السياسية والثقافية بالجوء الى الحياة الخاصة والذين يطالبون بحقهم فى اشباع حاجاتهم وفى نقد الامراء ورجال الدين، والدفاع عن افكارهم وميولهم. اذا كانت الثقة الكاملة فى العقل الأداة والاندماج الاجتماعى محفوفة بالمخاطر، فالتحطيم السعيد للمقدس ومحرماته وطوقسه كان رقيقاً لاغنى عنه للدخول الى الحداثة. ليس هناك اكثر من رابليه Rabelais (***) من

* بييربايل (١٦٤٧-١٧٠٦) فيلسوف فرنسى بروتستانتى دعا إلى التسامح وفصل الأخلاق عن الدين ودعا إلى حرية الاعتقاد وحتى حق المرء فى أن يكون ملحداً ويعتبر من الذين مهدوا لفلسفة التنوير التى جاءت فى القرن الثامن عشر.

** كوندورسيه (١٧٥٦-١٧٩٤) فيلسوف ورياضي ورجل سياسى فرنسى أودع السجن فى عصر الإرهاب وفيه كتب أهم مؤلفاته "مخطط لتقدم العقل الإنسانى" يدعو فيه إنطلاقاً من إيمانه بالتقدم المطرد للعلم، إلى العمل على تحقيق التقدم الفكرى والأخلاقى للبشرية عن طريق التعليم المرشد. حكم عليه بالإعدام فتعاطى السم تجنباً للمقصلة.

*** رابليه (١٤٩٤-١٥٥٣) كاتب فرنسى تعكس أعماله الحماس للفلسفة وعلوم اليونان ودعا إلى السعادة عبر العيش طبقاً لمقتضيات الطبيعة فامتلات كتاباته بتقريظ الملذات كالطعام والخمر. كما كان له فضل فى تطوير الكتابة وتقريبها من لغة الشعب.

يمثل هذا العطش للحياة ، والاكل والتعليم والحصول على اللذة وبناء العالم الجديد مطابقا للخيال والرغبات والعقل، بدلا من النصوص المقدسة والعادات والمراتبية المكرسة. والمجتمعات الصناعية المتقدمة هي اليوم ابعد ما تكون عن هذا التحرر المبدأى ونشعر بانها سجينه لانتاجها وليس للحرمانات التقليدية. ولكنها تخاطر بالإنجذاب الى الحلم بمجتمع مغلق وطائفي ومصان ضد التغيرات. إن افضل حماية ضد هذه العودة للمجتمع المغلق هي شهوة رابليه ويكملها شك مونتاني Montaigne (*). ينبغي العودة باستمرار الى ازدهار عصر النهضة وبدايات الحداثة منذ المسيرة الفردية لجيدوريشيو دا فوليانو Guidorico da Fogliano فى لوحه الفنان سيمون مارتيني Simone Martini حتى ضحك الخادما فى الكوميديا، لى نحمل انفسنا ضد كل اشكال القمع التى تمارس باسم الدولة، وباسم النقود أو باسم العقل نفسه. إن نقد الايديولوجية الحداثية لاينبغى ان يؤدى الى العودة لما قامت هي بتدميره .

مونتاني (١٥٣٣-١٥٩٢) كاتب فرنسى صاغ مجموعة من التأملات حول حياته وقراءاته فى كتاب les Essais مستخدما طريقة الإستبطان ، مدافعا عن أخلاق رواقية وحب للبشرية وشك فى الوصول إلى يقين أكيد .

الفصل الثانى

النفس والحق الطبيعى

المقاومة الأوغسطينية

يؤكد الفكر الحديث أن البشر ينتمون لعالم تحكمه القوانين الطبيعية التى يكتشفها العقل ويخضع هو أيضاً لها. ويعتبر الشعب والأمة ومجموع البشر جسداً اجتماعياً يعمل هو أيضاً طبقاً لقوانين طبيعية وعليه أن يتخلص من أشكال التنظيم والسيطرة اللاعقلانية والتى تحاول زوراً وبهتاناً أن تستمد شرعيتها من وحى أو من قرار يتجاوز الإنسان. إنه فكر للإنسان فى العالم وبالتالي لإنسان اجتماعى. وقد تعارض هذا الفكر مع الفكر الدينى بعنف يتنوع حسب قوة الرباط الذى يربط السلطة السياسية بالسلطة الدينية.

وأن يكن هذا الفكر قد لاقى مقاومة شديدة باسم إحترام العادات أى إحترام التاريخ الخاص والثقافة الخاصة لمجموعة اجتماعية فذلك أمر لا يدهش أحداً، ولكن مقاومة نمط الحياة المحلية والقومية أو المعتقدات القائمة لم ينجح أبداً فى إعاقه استخدام التقنيات الحديثة أو الهجرة من الريف إلى المدينة. بوجه عام ليس هناك وزن إلا للانتقادات التى تقبل الدور المركزى للعقل فى تحديد الإنسان وتقييم سلوكه. وكما لا يجب إضاعة الوقت فى نقد الطب العلمى باسم مناهج لم يتم تقييمها علمياً كذلك أيضاً لا ينبغى لنقد الحداثة أن يضل ويسير فى ركاب اللاعقلانية والسلفية.

فى المقابل، كان الفكر الدينى، الذى وقف دائماً بقوة فى وجه الصيغة الطبيعية والمادية للحداثة، قد ساهم فى نفس الوقت وبصورة نشطة فى تطوير الفكر العقلانى فى الغرب. فلنعد إلى تحليل فيبر الشهير. ليست الحداثة هى القضاء على المقدس ولكنها تنهى الزهد خارج العلم وتحل محله زهداً داخل العالم، زهداً لا يكون له معنى إلا إذا استدعى الإلهى والمقدس بشكل أو بآخر، وإستدعى فى نفس الوقت انفصال عالم الظواهر عن عالم الوحى وعن الوجود فى ذاته. إن العلمنة لا يمكن لها إلا أن تكون نصف

العالم المنزوع السحر، والنصف الآخر هو الدعوة لذات فاعلة Sujet بعيدة المنال ولكنها تبقى باستمرار مرجعاً يتمتع بحضور دائم. لم يقبل فيير الإجابات المفرطة في البساطة التي تقدمها النزعية الوضعية والعلمية وإنما هاجمها بعنف عندما وجدها لدى المؤرخين والمشرعين الألمان في إطار الصراع الشهير حول المناهج (Methodenstreit) ويترك لنا صورة للمجتمع تتسم بالتعارض: عقلنة وحرب الآلهة، أو سلطة شرعية عقلانية وزعامة. ويمكن لنا أن نضيف أيضاً رأسمالية وأمة. لا يبدو لي أنه يمكن تجاوز هذا التفكك وهذا الفكر المزدوج. إذ يمكنهما أن يحملا أشكالاً مختلفة ومضامين مختلفة. ولكن ينبغي الاستناد عليهما للقيام بنقد العقلانية الحداثية.

التاريخ الحديث لا يسير في خط مستقيم، خط العقلنة التي يفترض أنها ذاتية المسار. والثنائية ذات الأصل المسيحي، والتي سوف نبين في هذا الفصل أهميتها في تكوين الحداثة، سوف تحطمها الأيدلوجيا الحداثية لدرجة جعلت القرن الثامن عشر يبدأ بحقبة عقلانية طويلة يميل الكثيرون لأن يطابقوا بينها وبين الحداثة نفسها. ولكن عندما تدخل هذه الأيدلوجية في أزمة ثقافية واجتماعية وسياسية في النصف الثاني من القرن التاسع عشر كما سنرى في الجزء الثاني من هذا الكتاب. طرحت أسئلة جديدة حول الحداثة ستؤدي إلى الشعور من جديد بهذه الثنائية التي كان الظن أنها تدمرت نهائياً بقوة الصناعة والحروب. هذا الفصل مخصص إذن للتراث الثقافي الذي يبدو وكأن فلسفة التنوير قد هزمت وفي نفس الوقت لأصول تأملاتنا الشخصية، تلك التأملات التي سيخصص لها الجزء الثالث من هذا الكتاب.

بدت المسيحية لفلاسفة التنوير كنظام يهدف إلى تكريس الوضع القائم: فالواقع التاريخي لأوروبا المعادية للإصلاح كان يبرر تمردهم ضد تحالف العرش والمنبر ولكن واقع هذه السلطة الملكية التابعة من الحق الإلهي هو الذي أدى إلى الشك في أن انتقاداتهم قد أحسنت إختيار هدفها عندما كانت تهاجم المسيحية. ويعتبر مرسيل جوشيه Marcel Gauchet على صواب عندما يضع المسيحية في مواجهة الدين إذا

جوشيه Marcel Gauchet على صواب عندما يضع المسيحية فى مواجهة الدين إذا أخذنا هذه الكلمة بمعناها الدقيق وهو تنظيم ما هو اجتماعي حول ما هو مقدس، أى سحر العالم بالمعنى الفيبرى لهذه الكلمة. فى الواقع جاءت أديان الوحي، واليهودية على رأسها، بمبدأ تحقق الذات الإلهية والذي وهو بداية فك سحر العالم. وقد عممت المسيحية هذا الإتجاه بقطعها للرابطة بين الدين وبين شعب معين وبإعطائها معنى غير اجتماعي لشعب الله. إنها تفصل السلطة الزمنية عن السلطة الروحية أكثر مما تخطط بينهما. وقد تشكل الفكر الحديث لمساندة الإمبراطور فى صراعه ضد البابا ثم تفرع اتجاه منه يقود الى لوثر. قطعت المسيحية الصلة مع الفكر اليونانى التقليدى الذى إرتبطت به الأيديولوجية الحداثية هذا إذا إعتبرنا أنها تطابق بين الخير والمنفعة العامة أى توحيد بين الإنسان والمواطن. فالثقافة اليونانية فكر مفتون - كالفكر المسيحى - وفى نفس الوقت هو دين ولكن بلا تعالى، ونظرة للكون تحتل فكرة الخلق فيها وضعا محدودا، وفوق كل ذلك هو فكر لا تظهر فيه فكرة الشخص وكذلك فكرة العلاقات الشخصية بين فرد إنسانى وإله. هكذا يحل جان بيير فرنان Jean Pierre Vernant فى مقال (الفرد فى المدنية فى كتاب حول الفردية ص ٢٣) غياب الذاتية فى الثقافة اليونانية : "النفس فى كل واحد منا هى كيان غير شخصى أو مفارق للشخص إنها النفس فى داخلى بدلاً من كونها نفسى. أولاً لأن هذا النفس تتحدد أساساً بمعارضتها الجذرية للجسد وكل ما يتصل به، وبالتالي تستبعد كل ما ينبت فينا من خصوصية فردية...، ثم لأن هذه النفس فينا هى شيطان، كائن مقدس أو قدرة فوق الطبيعة، يتجاوز مكانها ووظيفتها فى الكون شخصنا الفردى". ويصف ميشيل فوكو انهيار هذا المفهوم فى القرنين الثالث والرابع فى لحظة بداية تشكل صورة للأنا.

ولكن هذه الدعوة للمسيحية تتسم بالعمومية. ينبغى فى داخل هذه التشكيلة التاريخية المتنوعة أن نعزل الفكر الذى يعطى أهمية خاصة للعلاقة الشخصية للإنسان بالله وهو الأوغسطينية، والتى تتمثل تعبيراتها الحديثة فى فكر ديكارت ونظريات الحق الطبيعى، وحتى فى فكر كانط الذى تلمح العين فى ثناياه سوسيولوجيا ماكس فيبر .

هناك نص مشهور يدخلنا مباشرة في رحاب هذا الفكر ويقع في الصفحات الأولى من الكتاب العاشر وهي الأهم في إقرافات القديس أوغسطين فلنستمع إليه "سألت البحر والأخاديد، والقوى الصاعدة للحياة، فأجابوني "نحن لسنا إلهك ابحت فوقنا" سألت الريح العابر فقال لي الهواء وسكانه "لقد أسرف أنكسامينيس(*) وأنا لست إلهك" سألت السماء والشمس والقمر والنجوم فقالوا لي "نحن لسنا إلهك الذي تبحت عنه". فقلت لكل هذه الكائنات حول أطراف جسدي "إنكم لستم إلهي ولكن خبروني عنه شيئاً" فصاحوا في بصوت عال "لقد خلقنا هو". إن سؤالي هو انتباهي وإجابتهم هي مظهرهم، فلذا توجهت شطر نفسي وسألتها وأنت... من أنت؟ فأجابت "إنسان". وهكذا تعارض في ذاتي من هو في الخارج ومن هو في الداخل، الجسد والنفس. لمن أتجه كي أبحت عن إلهي، والذي بحثت عنه من قبل بواسطة الجسد من الأرض للسماء، بعيداً قدر ما استطعت ويقدر المدى الذي تصله أشعة بصرى؟ الأفضل هو الداخل والذي تدين له كل حركات الجسد والذي يرأس، ويحكم على كل إجابة، بينما تقول السموات والأرض وكل ما تحتويه "نحن لسنا الله، لقد خلقنا هو". هذا الاتجاه الى الداخل هو الذي يبتعد بأوغسطين عن الفكر الأفلاطوني الذي يظل مع ذلك قريب منه وذلك لأنه إذا كان يعتقد أن كل ما هو موجود جميل لأن كل شئ يرتبط بالنظام العقلي للخلق فهو لا يكتشف الله من خلال جمال مخلوقاته ولكن بالاتجاه نحو الإنسان والكشف في داخله عن نور العقل أو بالأحرى نور النفس التي خلقها الله على صورته وهو ما يقربنا كثيراً من الكوجيتو الديكارتي. لقد كتب أوغسطين اعترافاته لأن الذاكرة نشاط للروح وبالتالي للعقل فتسمح بالمرور من الخارج الى الداخل.

هذه الثنائية مطروحة دائماً عند لوثر في القسمة التي يقيمها بين الفلسفة واللاهوت بين ما يدخل في مجال العقل وما يدخل في مجال الإيمان. هذه القطيعة مع الرؤية التي تدمج الإنسان في الطبيعة تحمل في ذاتها نداء للخبرة والشعور الذي يتعارض مع العقل

(*) يشير القديس أوغسطين هنا إلى رأى هذا الفيلسوف، الذي كان من أوائل فلاسفة اليونان ومن المدرسة الإيلية، وكان يرى أن الهواء هو مبدأ الوجود.

ويمكنه أن يستثير تأملاً للوجود يبتعد عن العقلانية ويدعم مفهوماً عن الإنسان يتميز بمركزية الإله وليس بمركزية الإنسان، ومع ذلك قد لعب هذا المفهوم دوراً جوهرياً في تاريخ النزعة الإنسانية الغربية. لقد أثرى الإصلاح وكذلك الجانسينية Jansnisme، التي لم تحدث قطيعة مع الإيمان والكنيسة الكاثوليكية، حرية الضمير رغم أن هذا التعبير لا يتوافق مع الفكرة اللوثرية عن الجبرية serf arbitre

يتم في الغالب تحديد إنجاز لوثر انطلاقاً من كفاحه ضد الكنيسة وهذا ما يجعله ينتمي بجدارة الى الحركة الكبرى الساعية للعلمنة. لقد قاتل ضد الكنيسة وضد تلك الشبكة التي تتنامى وتتكثف مع الزمن من الوساطات والممارسات السحرية التي تخلقها بين البشر والله

لقد أراد لوثر قبل كل شيء أن ينتهي من كل الوساطات ومن كل الطقوس لكي يعود الى جذب الإنسان الى كلام الله. أن يوبخ التقوى وأعمال الخير، وكل ما يعتقد المسيحيون أنهم بعمله يضمنون نجاتهم، دافعاً إياهم الى الخطيئة والشهوة التي لا يستطيعون أبداً التحكم فيها، تاركاً إياهم لإرادة الله الطيبة وعدالته التي لا تكون قهراً وإنما دائماً محبة، وتكون طريقهم الوحيد للنجاة. المسيحي الحقيقي ليس هو الإنسان التقى ولكن من ينقله إيمانه الى الله والذي يثق في فضل الله حتى لو لم يكن لديه اليقين بأنه من الناجين.

هذه المواجهة بين العالم الإنساني والعالم الإلهي تؤدي الى إلغاء حرية الاختيار. وقد ابتعد لوثر في شيخوخته عن إراسم Erasmus(*) وكتابه رسالة في حرية الاختيار وكتب ضده رسالة في الجبر وهذا تشدد ، ولكن لوثر لم يدفع به الى نزعه التقوى، التي ازدهرت

(*) إراسم (١٤٦٩-١٥٣٩) هيومانيسـت هولندي بالمعنى الذي كان يعزى لهذه الكلمة في ذاك العصر، أى متخصص في اللغات والآداب القديمة. قام بتدريس اليونانية في انجلترا حيث صار صديقاً لتوماس مور وأهدى له كتابه المشهور "في مديح الجنون". كما كتب رسالة "في حرية الاختيار" يؤكد فيها حرية الانسان. ورد عليه مارتن لوثر برسالته "في الجبر". حاول طوال حياته التوفيق بين الانجيل وحكمة القدماء.

بعد موته وحالات نون تقديم تفسير ليبرالى لفكره. إن مسألة أن يمكن للحياة الورعة والفاضلة أن تقوى آثار الفضل الإلهي، وهى الفكرة المركزية فى العالم المسيحي والتي دخلت بطرق متعددة، منذ ميلانكتون Melanchthon (*) ، فى العالم البروتستانتي، هى فى تعارض تام مع فكر لوثر وخصوصاً فى كتاباته الكبرى عام ١٥٢٠. إن المبدأ الأساسى لهذا الفكر هو خضوع الشخص الإنسانى لمبدأ فى الفعل، هو الله. فلنذكر من بين عديد من النصوص المعروفة "خصام حول الإنسان" (١٥٣٦). تقول الفقرة ٢٦: "إن من يقولون انه بعد السقوط تبقى القوى الطبيعية سليمة لم تمس، يتحدثون كفلاسفة، بصورة جاحدة، مضادة للاهوت" والفقرة ٢٧: "وكذلك أولئك الذين يقولون بأن الإنسان عندما يعمل ما فى وسعه يمكن أن يستحق الفضل الإلهي والحياة الأبدية" والفقرة ٢٩: "وكذلك من يؤيدون فكرة أن بالإنسان نور وأن وجه الله مطل علينا (المزمارة ٧، ٤ حسب النص الألمانى Vulgate للكتاب المقدس) أى أن الاختيار الحر يكون قادراً على تكوين فكر صحيح وإرادة طيبة". والفقرة ٣٠: "وكذلك الذين يعتقدون أن الإنسان قادر على الاختيار بين الخير والشر أو الحياة والموت.. الخ.". باختصار كتب لوثر فى خلاف هايدلبرج "حب الله لا يجد موضوعه ولكن يخلقه، وحب الإنسان يخلقه موضوعه" إن فكر لوثر يصنع تراثاً فكرياً يتعارض مع كلا من عقلانية التنوير والنزعة الإنسانية المستوحاة من المسيحية، ويخضع الإنسان، بمعنى ما، لكائن يسيطر عليه ولا يملك حياله إلا الخضوع له بالإيمان وبالحب.

كل هذا يبدو محصوراً فى إطار من الزهد خارج العالم. ولكن ألا تؤدى هذه النزعة الأخلاقية المعادية للفردية الى صورة علمانية ومشاعية لشعب الله، أخذت شكل المسيحانية messianisme الثورية لفلاحى إقليم الصواب Souabe بألمانيا وكذلك شكل القومية والتي كان لوثر وما يزال مرجعها الأساسى فى ألمانيا، قومية تعبر عن نفسها أولاً فى ما يسميه لوسيان فيفر Lucien Febvre الإقليمية territorialisme الروحية؟

(*) ميلانكتون (١٤٩٧-١٥٦٠) تلميذ لمارتن لوثر. يعتبر مؤسس اللاهوت اللوثرى، وحاول التوفيق بين مذاهب الإصلاح الدينى المختلفة.

وكأن النواحي الخطيرة لمعارضة النزعة العقلية النقدية كانت قد بدأت تتجلى منذ بداية الأزمنة الحديثة. ولكن في نفس الوقت كيف لنا أن نرى في هذا اللاهوت الإيمانى وفي فكر الجانسينية فيما بعد، أحد المصادر الأساسية للنزعة الفردية الأخلاقية، ودعوة الى مسئولية الإنسان بعد أن تحرر من الوساطة بين السماء والأرض، حيث تؤدي العزلة والعجز إلى إدراكه لنفسه على أنه ذات شخصية؟

أهم تعاليم فكر لوثر، بالنسبة لتاريخ الأفكار، هو الفشل الذي ألحقه بالمجموعة الصغيرة من أنصار النزعة الإنسانية وإتباع إراسم الذين كانوا يجهدون أنفسهم من أجل التوفيق بين روح عصر النهضة والإصلاح، والإيمان مع المعرفة. إن تاريخ الحداثة ممزق منذ البداية، ليس بين أنصار التقدم وأنصار التراث، ولكن بين من كانوا يعملون على ولادة كل عنصر من العنصرين اللذين سوف تتركب منهما الحداثة فيما بعد. فهناك من جانب، أولئك اللذين يدافعون عن العقل والذين يختزلونه غالباً الى مجرد أداة في خدمة سعادة تضع الإنسان في قلب الطبيعة ؛ ومن جانب آخر أولئك اللذين يقومون بالمغامرة الصعبة في تحويل الذات الإلهية الى ذات إنسانية والذين لا يستطيعون أن ينجزوا ذلك إلا بإتباع طريق ملتوٍ ومتناقض، وهو تفكيك الإنسان عبر الإيمان، بل وحتى عبر القدر.

هذا الإنشطار الذي يفصل واجهتي الحداثة لن يلتئم بعد ذلك. فمن جانب، سيتراجع البعض حتى يصلوا الى الطوباوية الألفية (*) millinarisme ، وفي الجانب الآخر سيتراجع آخرون إلى مستوى البحث عن منفعة يحددها التجار. ولكن في مابين هذه الإختيارات يظل تاريخ الحداثة دائماً هو حوار بلا أدنى إمكانية لحل وسط بين عملية العقلنة وتحقيق الذات. إن عظمة القرن السادس عشر المؤثرة تكمن في أنه لم يتهاون أمام أى أسطورة توحيدية، لا أسطورة الملكية المطلقة ولا أسطورة التنوير ولا أسطورة

(*) مذهب طوباوى إشتراكى ذو صبغة دينية إنتشر عقب حركات الإصلاح الدينى تزعمه رجال دين مثل توماس مونزر وكامبانيلا ولعب دوراً كبيراً فى حرب الفلاحين التى نشبت آنذاك.

التقدم، وعاش هذا القرن، على أنقاض العالم السعيد المسحور وضد أوهام دعاة النزعة الإنسانية، التمزق الضروري والخلق للحدثاة الوليدة. ألا نعتبر نحن في نهاية هذه الألف الثانية، قريبين من هذه البدايات المأساوية للحدثاة أكثر من قربنا من انتصاراتها الظاهرة خلال قرون التنوير والثورات؟

إعتقد الكثيرون أن القطيعة مع العالم المقدس والساحر ينبغي أن تخلق مكاناً للعالم الحديث الذي يحكمه العقل والمصلحة، والذي سيكون قبل كل شيء عالماً واحداً بلا ظلال ولا ألغاز، عالم العلم والفعل الأداتي. هذا النوع من الحدثاة والذي حددت مقامه في بداية هذا الكتاب بدا لفترة طويلة منتصراً ولم يتم إنتقاده إلا في النصف الثاني من القرن التاسع عشر مع نيتشه وفرويد ودخل في مرحلة التفكك. ولكن منذ البداية، وعلى الأخص في زمن الإصلاح والقرن السابع عشر، قد أُستكمل أو حُورب بقوة لها نفس قدرة العقلنة وهي تحقيق الذات. أطلق تحليل العالم المقدس، والفصل المتسارع بين العالم الذي خلقه الإنسان وعالم الخلق الإلهي، حركتين متعارضتين ولكنهما مرتبطتان ببعضهما وبعيدتان عن النزعة الطبيعية الحدثاة. فمن جانب حل الإنسان - الذات محل الذات الإلهية الموجودة خارج الإنسان، وهو ما أدى إلى القطيعة مع الشخص باعتباره شبكة من الأدوار الإجتماعية والخصوصيات الفردية لصالح وعي قلق بالذات، وإرادة للحرية والمسؤولية. ولكن من الجانب الآخر يتجلى نوع من العودة إلى إله لم يعد يتطابق مع عالم مقدس ومؤله بواسطة الخلاص ولكن على العكس يتحدد بإنفصاله وبغيابه وبعشوائية فضله، وهو ما كان ينادى به الإصلاحيون وكذلك بيرول (*) Berull، والمدرسة الفرنسية في الروحانيات في دعوتها إلى عالم متمركز حول شخص المسيح. إنه تراث مزدوج للأوغسطينية : لم تحل الحدثاة عالماً عقلياً مرشداً محل عالم منقسم بين الإنساني والإلهي ؛ بل بصورة عكسية، قطعت الحدثاة مع العالم السعيد للسحر والطقوس وحلت محله قوتين ترسم علاقتهما العاصفة التاريخ المأساوي للحدثاة ؛ العقل

(*) بيرول، (١٥٧٥-١٩٢٩) كاردينال فرنسي أسس جماعة الكرمليين الكاثوليكية.

والذات، العقلنة وتحقيق الذات. لقد خرجت الإصلاحات الدينية عن نطاق عقلانية الرينسانس سواء بالدعوة الإنسانية الى الضمير والى التقوى أو بالتذكير المعادى للنزعة الإنسانية بالتعسف الإلهي.

يتمزق الفكر الدينى حتى فى داخل العالم الكاثوليكي نفسه، بين اتجاهات متعارضة وخلافات عنيفة، وعلى الأخص بين ما يسميه هنرى برموند Henri Bremond بالنزعة الانسانية المتفانية من جانب والجانسينيه وبعض الفرق الأوغسطينية المتطرفة من جانب آخر ، وهى القرية من الإصلاح والتى تدين بالخضوع المطلق للفضل الإلهي الفعال. هناك اتجاه فى داخل هذه المدرسة الثانية يعتقد بخدع العقل الذى تتحكم فيه الاندفاعات الطبيعية ؛ وهو ما يعتقده لاروشفوكو وبسكال. ويريد هذا الأخير أن يخفض من نظام الروح حتى لا يدع سوى نظام الجسد فى مواجهة نظام الإحسان، ولكن عليه أن يلجأ إلى العقل كأداة لاكتشاف قدر الإنسان. والشخصية المركزية للفكر الكاثوليكي هو فرانسوا دوسالز Franois de Sales لأنه إذا كان هذا المؤلف لكتاب "مدخل الى الحياة المتفانية" (١٦٠٨ والطبعة النهائية ١٦١٩) ينتمى إلى النزعة الإنسانية المتفانية ، هذا القسيس فى كنيسة بالقرب من جنيف والمتأثراً جداً بالبروتستانتية، قد مال الى الأوغسطينية فى كتاب "رسالة فى حب الله" (١٦١٦) حيث نشعر بتأثير الخبرة الصوفية لجان دو شانتال (*) Jeanne de chantal . ولكن نزعة الورع هذه التى تبشر بقدوم فنلون Fenlon (*) ، تفترض ثقة أسمى فى الطبيعة الإنسانية، وخصوصاً فى إرادة تحديد نوع من التقوى، لا للمتدينين ولكن للعلمانيين، تطبق فى حياتهم اليومية والعائلية. يترافق الدخول للحدأة على مستوى الفكر بالدعوة لإله مفارق وكلى القدرة، دعوة ليس الغرض منها العودة لنظام دينى للأشياء وإنما مقاومة حب العالم ومواجهة سلطة الملك على الكنيسة الكاثوليكية، وبالتالي هى نداء للضمير ولحرية الذات الإنسانية.

(*) القديسة جان دو شانتال (١٥٧٢-١٦٤١) تلميذة فرانسوا دو سال. أسست جماعة زيارة السيدة العذراء .
(*) فنلون (١٩٥١-١٧١٥) كاتب فرنسى، وفق بين المسيحية والنزعة الإنسانية، وعرف بأسلوب النثر الشعري وبرواياته الطوباوية مثل مغامرات تليماك التى ترجمها رفاعة الطهطاوى للعربية لما تتضمنه من مناداة بسعادة الفرد والتتديد بالحكم المطلق.

فلنعد إلى أوغسطين في نهاية حديثنا. هل يمكن القول أنه، هو أو أحد أتباعه اللوثريين أو الكالفانيين أو الجانسينيين، يقاوم الحداثة. أو أنهم ينادون بالتصوف مقابل الأخلاق، في حين أن بيلاج Pelage(*)، في عصر أوغسطين، أو اليسوعيين في القرن السابع عشر الفرنسي، كانوا أكثر اقتراباً من العالم وبالتالي كانوا أكثر إنسانية؛ ولكن النداء الأخلاقي للإنسان يتحول دائماً لاحترام القواعد المتلائمة مع مصلحة المجتمع، وهو ما يزداد - في احسن الحالات كحالة بيلاج على سبيل المثال - نبلاً بالدعوة إلى فضائل مواطن المجتمع القديم. وهذه الأخلاق التي تدعو بشدة إلى الضمير، سرعان ما تنتهي بأن تدخل الإنسان تماماً في العالم الاجتماعي ليندمج فيه كلية ويضع نفسه في خدمة الضمير الجمعي والصالح العام، والسلطات القائمة، أياً كانت الأسماء التي تعطيها. وعلى العكس، يمكن للدعوة إلى الله والتي يبدو أنها تشغل الإنسان عن ذاته أن يكون لها تأثير عكسي : إنها تسحق الإنسان أمام الله ولكنها في الوقت نفسه تكشف في النفس ذاتها عن ماهية الحياة في الله، كما يتبدى في حكاية أوغسطين عن اعتناقه للمسيحية في الكتاب الثالث عشر من الاعترافات. وهذه الثنائية تدمر نفسها إذا أصبحت مانوية، أي إذا فضلت تماماً مبدأ الخير على مبدأ الشر. لكنها نقطة إنطلاق لبناء ذات لم تعد تتفق مع الأدوار الاجتماعية للأنا، ولا تخطط بين الإنسان والمواطن، وتقر بذلك بدور الذاتية الغربية عن التراث اليوناني-الروماني. والأوغسطينيون، مثلهم مثل إمامهم نفسه، لديهم وعي مشتعل بوجود ما يسمونه الخطيئة الأصلية فيهم أو بمعنى أدق الشهوة. الرقابة الأخلاقية للأنا على الفرد قد اطح بها الجنس، والرغبة في النساء التي كانت تشعل أوغسطين والتي لا يمكن السيطرة عليها إلا بواسطة قوة هي « اعمق من أكثر الأشياء حميمية في داخلي، واسمى من أفضل ما في " (meo intimo interior، meo sumo superior، الإعرافات III-6). يحل القتال بين الله والشر محل الاتفاق على القاعدة العامة واحترام الخير، وبذلك

(*) بيلاج (٤٢٢-٣٦٠) راهبة مسيحية يعطى مذهبها الأولوية لحرية الاختيار على الخطيئة الأصلية والفضل الإلهي. هاجمها القديس أوغسطين وأديننت من قبل مجالس الكنيسة. وماتت في مصر.

تظهر الطبيعة المزدوجة المتناقضة للإنسان : كمخلوق تميزه الخطيئة الأصلية، وهو ما يعنى أن هناك خلاصاً للجميع وفى نفس الوقت هناك كثير من المدعوين وقليل من المصطفين. هذا الانفجار للأنا Moi وهذا البناء الجزئى والممكن لضمير المتكلم "أنا" (*) Je إبتداء من الصراع بين الهو Ca ومايكون فوق الأنا، والذي يبدو فى كل لحظات التاريخ كمعادى للنزعة الإنسانية هو على العكس نقطة البداية فى اختراع الذات Sujet فى الثقافة الغربية. هذه الاطلالة المختصرة على الأصول الدينية للفردية الحديثة تؤدى إلى اتجاه مخالف لذلك الاتجاه الذى يعرض له لويس دومون والذي يعارض الفردية، أيديولوجية المجتمع الحديث ، بالكية holisme التى تميز المجتمعات الأخرى، من يونان المدن إلى هند الطوائف ، ولكن لويس دومون نفسه فى دراسته عن المسيحية يتحدث عن العبور من "الفرد خارج العالم" إلى "الفرد داخل العالم" وباستخدام تعبيراته نجد انه يقرر، فى المجتمعات التقليدية، وجود المنسحب الذى يحيا فى الله بجانب الفرد المتماهى مع الأدوار الإجتماعية التى تكتسب مشروعيتها بواسطة امر طبيعى ومقدس. وهو ما يؤدى بطريقة موازية فى المجتمع الحديث الى ظهور وجه آخر للفرد إلى جانب الحرية الفردية، وجه يطابق بينه وبين أدواره الاجتماعية .

فى البداية كان النظام الإجتماعى، فى جنيف وقت أن كان فيها كالفان، متضمناً فى الكنيسة ومفروضاً بصرامة تتوافق مع فكرة القدر المسبق. وفيما بعد سوف أصبح هذا المفهوم دنيوياً وأصبح الفرد مواطناً أو عاملاً ولكنه ملحق دائماً على النظام الإجتماعى والاقتضاعات الكلية للوعى الجمعى، بحيث أن العالم الجديد الذى يحرر الفرد يخضعه بدوره لقوانين جديدة ، فى حين أن المجتمع الدينى البوذى أو المسيحى يؤيد حرية الفرد فى الله وفى نفس الوقت يخضعه للتراث، فبدلاً من ربط الفردية بالعالم الحديث ينبغى الكشف فى كل المجتمعات قديمة أو حديثة عن أشكال خضوع الفرد للجماعة، وكذلك

* يميز المؤلف على مدار الكتاب بين الأنا Moi وهى تعنى لديه منطقة الوعى بالنفس فى مواجهة اللاوعى أو الهو Ca ، وأنا المتكلم Je كتعبير عن الذات Sujet ويضعهما Moi و Je فى تعارض باستمرار.

الوسائل التي تتوفر له ضد هذه الجماعة. ولذا ينبغي أن نرى في العودة الحالية للأديان أو الأخلاقيات المستلهمة من الدين إنتقاماً من الجماعة ضد الفردية الحديثة وفي نفس الوقت إنتقام الفرد ضد الحراك الإجتماعي والسياسي المرتبط بالتحديث والذي أخذ شكلاً متطرفاً في النظم الشمولية .

ليس مجتمعنا فردياً لانه عقلاني وعلماني وموجه إلى الإنتاج: هو كذلك رغم الضغوط والتنميط التي يفرضها الإنتاج والادارة المركزية على الأفراد، وهو كذلك بفضل التأثير الذي تمارسه المفاهيم الأخلاقية والإجتماعية ذات الأصول الدينية. لويس دومون يسير في هذا الإتجاه عندما يذكرنا بالأصول الدينية للفردية وخصوصاً عندما يكتب (ص ٦٤): "ما نطلق عليه الحديث le modern «فرد-داخل-العالم» يوجد في داخله عنصر من خارج العالم جوهرى وإن كان غير ملحوظ ، ولكن لا يكفى أن نعتبر أن الفرد خارج العالم يحدد مرحلة بين الكلية القديمة والفردية الحديثة داخل العالم، وذلك لأن العالم الحديث يهدد الفردية بقدر ما يهددها المجتمع القديم . وهو ما يظهره الحضور المستمر والمتوازي لتنميط الأفراد بواسطة المجتمع وتحرر الفرد والذي بدوره لا يمكن له ممارسة قدرته على تغيير المجتمع .

هذه التأكيدات قد تؤدي إلى الشعور بالدهشة. ألا يجب على العكس معارضة التشاؤم الأوغسطيني وفكرة أن الطبيعة الإنسانية فاسدة وغير قادرة أن ترتفع من تلقاء نفسها إلى مستوى الإلهي، بتفائل الإنسانيين ولاسيما الإنسانية المسيحية من مارسيل فيسان (*) Marcel Ficin لإراسم المنفتح على العلوم والوائق في العقل؟ ألا يجب أن نقر مع كاسيرر بنوع من الاستمرارية منذ هذه النزعة الإنسانية، والتي بدت في أوائلها مهمشه بواسطة الإصلاح، وحتى الدين الطبيعي في القرن الثامن عشر وفكرروسو وكانط؟ ولا تكون المفارقة فادحة إلا إذا إختزلنا الثقافة القديمة إلى مجرد فكرة العجز الإنساني والثقافة الحديثة إلى الشعور بعكس ذلك. في الواقع، يوجد تعارض دائم

(*) مارسيل فيسان (١٤٢٣-١٤٩٩) فيلسوف وهيومانيسيت إيطالي. ترجم محاورات أفلاطون إلى اللاتينية. وحاول صياغة لاهوت أفلاطوني للمسيحية بهدف إصلاح الكنيسة .

فى الثقافة التقليدية بين الرؤية الكوزمولوجية لعالم يتجلى فى كل شىء فيه قدرة الله ورحمته، وبين تأملات حول الشر، والسقوط والخطيئة الأصلية تؤدى إلى الخضوع إلى الفضل الإلهى والإيمان به. هذا التوجه المزدوج موجود فى الثقافة الحديثة : فبينما كان فلاسفة التنوير بصدد إعادة بناء رؤية للعالم وللإنسان . إكتشف أتباع أوغسطين ذاتاً إنسانية، مقهورة ومستغلة ومغتربة بواسطة المجتمع، ولكنها أصبحت قادرة على أن تعطى لحريتها محتوى إيجابى عبر العمل والإحتجاج . فى القرن السابع عشر وخصوصاً من خلال ديكارت وبسكال، القرييين من بعضهما أكثر من كونهما متعارضين أصبحت الأوغسطينية حديثة بالاعتماد على العقل، حتى وإن تعلق الأمر بإدانة هذا العقل كما فعل بسكال.

ديكارت، حديث مرتين.

ينبغى أن يتعايش الذات والعقل فى الكائن الإنسانى. الفكر السائد فى الحداثة الوليدة ليس هو الذى يختزل الخبرة الإنسانية إلى مجرد الفكر والفعل الأداتيين. وليس هو أيضاً الفكر الذى يدعو للتسامح بل وحتى إلى الشك على طريقة مونتاني لى يجمع بين العقل والدين. ولكن هو فكر ديكارت، لا لأنه فارس العقلانية ولكن لأنه يجعل الحداثة تسير على قدمين واثقتين، ولأن فكره المميز بالثنائية – الذى سرعان ما هاجمه التجريبيون ولكنه إمتد عبركانط – ينادينا عبر قرني فلسفة التنوير وإيديولوجية التقدم لى يعلمنا من جديد أن نحدد الحداثة.

حرر ديكارت نفسه من عالم الأحاسيس والأراء الخادع الذى لا يسمح له بالصعود من الوقائع للأفكار ولأكتشاف نظام العالم الذى خلقه الله، كما كان يفعل القديس توما. وديكارت فى حذره من كل معطيات الخبرة لا يكتشف فقط قواعد المنهج الذى يحميه من الأوهام، ولكن يقوم بالانقلاب المدهش للكوجيتو. فبينما كان قد شرع فى عمل علمى وفى صياغة مبادئ الفكر العلمى التى يناط بها أن تسمح للإنسان يوماً أن يصير سيداً ومالكاً للطبيعة، نجده ينعطف نحو الكوجيتو الذى يقوده، فى الجزء الرابع من المقال،

لأن يكتب : "أعرف من ذلك أنني كنت جوهرًا كل ماهيته أو طبيعته ليست إلا فكرياً وأنه لا يحتاج إلى أي مكان أو أي شيء مادي لكي يوجد. بحيث تكون الأنا أي النفس التي بها أكون على ماأنا عليه، مميزة تماماً عن الجسد، وحتى معرفتها تكون أسهل من معرفة الجسد. وأنه حتى إذا لم يكن الجسد موجوداً، فإنها تظل موجودة على ما هي عليه"

فلندع جانباً الإحتجاجات التي يثيرها هذا النمط من التفكير لدى هوبز وأرنو Arnaud، مؤلف الإحتجاجين الثالث والرابع على كتاب "التأملات" لديكارت. ولنتابع ما تتضمنه هذه الثنائية الجذرية. لا يمكن اثبات وجود الله إنطلاقاً من ملاحظة العالم، لأن معنى ذلك الخلط بين الجوهرين، نظام الأجساد ونظام النفوس. وفي المقابل لا يمكن تفسير وجود فكرة لدى عن الله إذا لم يكن الله موجوداً ففكرة الله هي التي تثبت وجود الله. يقول الجزء الرابع من المقال : "آليت على نفس أن ابحت من أين تعلمت التفكير في شيء ما أكثر كمالاً مني وعرفت بالطبع أنه ينبغي أن يكون من طبيعة أكثر كمالاً... بحيث أنها بقيت وأدخلت في ذهني بواسطة طبيعة هي في حقيقة الأمر أكمل مني ويكون لها في ذاتها كل الكمالات التي يمكنني تصورها، أي في كلمة واحدة هي الله". مثل هذا الدليل يتعلق مباشرة بتأملاتنا أكثر من دليل القديس أنسلم، والذي اسماه كانط أنطولوجي والذي يقدمه ديكارت في التأمل الخامس. هكذا فإن هذا الانفصال للخبرة المباشرة وللأراء الذي يسمح به العقل . يقود العقل الإنساني لاكتشاف قوانين الطبيعة التي خلقها الله ؛ وفي نفس الوقت يقود الإنسان ليحدد وجوده الخاص كمخلوق خلقه الله على صورته والذي يكون فكره هو العلامة على التي تركها الصانع الإلهي على صنعه . كلما إلتفت ديكارت إلى مشاكل الأخلاق، وخصوصاً في مراسلاته مع الأميرة اليزابيث، كلما شدد على التعارض بين عالم العقل والحكمة من جانب وعالم الارادة والإختيار الحر من جانب آخر. ومع ديكارت الذي يتحد اسمه غالباً بالعقلانية بدأ ما يسميه هوركهايمر Horkheimer العقل الموضوعي في الإنهيار مخلياً مكانه للعقل الذاتي: العقل "الجوهري" كما يقول شارل تايلور Charles Taylor قد حل محله العقل "العملياتي" في الوقت الذي تأكدت فيه حرية الذات الإنسانية وترسخت في الوعي.

هى ذات تتحدد بسيطرة العقل على الإنفعالات. ولكن تتحدد وقبل كل شىء بإرادة خلاقة، إرادة هى مبدأ داخلى للسلوك وليس على الإطلاق انسجام مع العالم. ومن هنا ولدت صورة البطل الذى إبتدعه كورنى Corneille(*) والذى يرى فيه كاسيرر تلميذاً لديكارت، على الرغم من أن شارل تايلور ألح على التعارض بين الشرف الارستقراطى والدعوة الديكارتية للوعى بالذات . بطل كورنى هذا مأخوذ بحب يتجاوز ذاته، حب إقتضاء وليس مشاركة للأحاسيس . يقول ديكارت فى التأمل الرابع : "لا يوجد سوى الإرادة وحدها التى اختبرها فى داخلى، وهى كبيرة لدرجة أننى لا أدرك اكبر منها، بحيث تجعلنى أدرك أننى أأخذ صورة الله وأشبهه" ، وهو ما يحمل الإنسان على أن ينصب نفسه فوق جميع الكائنات . ويقدم لنا المقال 153 من كتاب "إنفعالات النفس" سبب ذلك. "اعتقد أن السبب الحقيقى للكرم الذى يجعل الإنسان يقدر نفسه أقصى تقدير يرجع فى جزء منه إلى كونه يعرف أنه لا يملك سوى التصرف الحر فى إرادته، وأنه لا يرى سبباً لأن يلام إلا على إستخدامه لها خيراً أو شراً. وفى جزء ثان يشعر فى نفسه بتصميم حاسم ومستمر على أن يستخدمها فى الخير، أى أنه لا تنقصه الارادة للشروع فى تنفيذ كل ما يراه طيباً وهو ما يعنى اتباع الحق للفضيلة". بدت أخلاق الحرية هذه لجان بول سارتر إستباقاً لأفكاره هو. تلك الأهمية التى يعزىها ديكارت لحرية الإرادة أدت به إلى إثثار الصداقة وإعتبار الآخر كذات مستقلة. وهو ما يجعله سائراً على خطى مونتاني فى إحداث قطيعة مع الأخلاق الإجتماعية التى يكون معيار الفضيلة فيها هو تقانى الفرد من أجل الصالح العام.

لا تعارض إذن بين هذين الجانبين من الإنسان : جانب المعرفة العقلية للقوانين التى خلقها الله، وجانب الإرادة والحرية كسمتين إلهيتين فى الإنسان . إذ أنهما يتكاملان باعتبار أن الإرادة والكرم يصدران عن العقل، وبشكل ملموس، إذا كان الإنسان شيئاً مفكراً فهذا يعنى، كما يقول الجزء الرابع من مقال عن المنهج أنه، "شىء يشك ويدرك

(*) بيير كورنى (١٦٠٦-١٦٤٨) شاعر وكاتب مسرحى فرنسى أشهر أعماله "السيد" التى خرج فيها على تقاليد المسرح الأرسطى.

ويؤكد، وينكر، يريد ولا يريد ، يتخيل ويشعر". وفي بداية التأمل الثالث يتناول ديكارت هذا النص ويضيف إليه "يعرف أشياء قليلة، ويجهل أكثر، يحب ويكره ويرغب". ولا يقول ديكارت هناك فكر فى داخلى ولكن يقول : أنا أفكر. فلسفة ديكارت ليست فلسفة للعقل أو للكينونة ولكنها فلسفته للذات والوجود. وهو ما يؤدى إلى الثقة فى الإنسان، ثقة لا يمكن أن تقتصر فقط على قدرة الفكر العلمى. ويعلق فرديناند الكيه Alquie Ferdinand قائلاً: "إذا كان الله قد خلق الحقيقة والطبيعة فالإنسان - بفضل معرفته للحقيقة - هو الذى سيطر فى عصر التكنيك على طبيعة محرومة من غاية ومن صورة خاصة. عندئذ تخضع الطبيعة لغايات الإنسان وتتلقى صورته وتكتسى بملامحه". ليس الإنسان هو الطبيعة ولا يمكن أن يتماهى مع الله، أو الروح. فهو بين بين، يسود الطبيعة حين يفك رموزها وتحمل نفسه علامة الله. ويعترف بأن هذا الإله الحاضر فى فكره يتجاوزه. وهذا فكر مطابق للحركة العامة للعلمنة ورافض لكل نزوع فيضى أو إشراقى، فعالم الطبيعة والله منفصلان تماماً. ولا يتصلان إلا عبر الإنسان ، الذى يسخر بفعله عالم الأشياء لتحقيق حاجاته. ولا تفنى إرادته فى إرادة الله، ولكنه يكتشف فى داخله "أنا Je" لا تختلط مع الآراء والأحاسيس والحاجات ، هى الذات الفاعلة . وكان بول فاليرى Paul valery شديد الحساسية إزاء هذا الجانب فى فكر ديكارت (Variete V ed Pleiade .p ، 839) إذ كان يرى فى استخدام ديكارت لضمير المتكلم "أنا" قطيعته القصوى مع "المعمار المدرسى" فى الفكر .

تخلص ديكارت من فكرة الكون، فالعالم لم يعد له وحدة ، وهو ليس إلا مجموعة من الأشياء المطروحة أمام البحث العلمى وبذلك إنتقل مبدأ الوحدة إلى الخالق الذى لا يمكن إدراكه إلا عبر التفكير فى الله أى عبر الكوجيتو الذى تتعارض مسيرته مع مسيرة المثالية. فالوعى يدرك ذاته فى نهائيته وزمنيته. كما أن الإنسان لا يتماهى تماماً مع الله والله لا ينبغى أن يتحول إلى كائن زمنى وتاريخى كالإنسان الكائن بين الله والطبيعة.

هذه الطبيعة المزدوجة لإنسان مكون من نفس وجسد نجدها أيضاً عند بسكال. "الإنسان في نظر ذاته هو أكثر كائنات الطبيعة إعجازاً فهو لا يستطيع أن يدرك ماهو الجسد وبالأحرى ماهى الروح ولا كيف يمكن أن يتحدا معاً . هنا نقف على أكبر معضلات الإنسان التى هى كينونته الخاصة" ويتبع بسكال نصه هذا باستشهاد من القديس أوغسطين نقلاً عن مونتاني (Pensee ٧٢ ed. Brunshvicg . P. 357) كما يتناول بسكال فى شذراته الشهيرة عن أعواد البوص المفكرة نفس الفكرة "فالإنسان ليس إلا عوداً من البوص هو أضعف ما فى الطبيعة لكنه عود مفكر. ولايلزم أن يتدجج الكون كله بالسلاح ليسحقه فنفخة بخار ونقطة ماء تكفى لقتله ولكن عندما يسحقه الكون سوف يكون أكثر نبلاً من قاتله لأنه حينئذ سوف يعى أنه فان وأن للكون إمتياز عليه. كل كرامتنا تكمن فى تأمل ذلك". هناك إذن بين ديكارت وبسكال إتفاق وليس تعارضاً فيما يخص وحدة الفكر والوجود الشخصى وسريان الإلهام الدينى عبر هذه الوحدة وهو ما يضع التوافق بين العقلانية والفكر المعادى للدين فى حجمه الحقيقى، ذلك الفكر الذى ينتقل بسهولة من النقد الاجتماعى للكنيسة والممارسات الدينية إلى نزعة مادية تعمى عن إدراك تحول الذات الدينية إلى ذات إنسانية.

الإنسان جزء من الخلق وخاضع للحقيقة فى آن. ويفترض أن تمنعه طبيعته المزدوجة هذه من أن يعارض كلية العالم الإلهى بالعالم الإنسانى، والإحسان بالعقل كما أراد بسكال. وينبغى أن يتكفل الإنسان بانفعالاته التى هى علامات على الوحدة الملموسة - عبر الغدة الصنوبرية - بين النفس والجسد. "أعيش طيبة الحياة وحلاوتها فى الانفعالات" هذه هى العبارة التى قالها ديكارت عام 1640 لنيوكاستل Newcastle كما قالها عام 1645 للأميرة إليزابيث رداً على ريجيوس Regius الذى كان يريد أن يفصل تماماً النفس عن الجسد. هذه الثنائية الديكارتية يتتبعها إقراره بأسبقية الوجود. عالم ديكارت ليس هو عالم الطبيعة ولا عالم الروح الكونى، إنه عالم الإنسان الذى يشك فينفصل بذلك عن الله، ولا يجد سنداً متيناً إلا فى داخله ، عبر عملية قلب تؤدى إلى ظهور الذات، فأنا المتكلم Je، لسان حال الذات يظهر داخل الشعور Moi.

تري عقلانية التنوير الحرية في إنتصار العقل وتحطيم المعتقدات السائدة . وهذه الرؤية تجعل الإنسان حبيس الطبيعة كما تدمر بالضرورة كل مبدأ لوحدة الإنسان. وجاعلة من الأنا Moi - عن حق - مجرد وهم ووعي زائف. لكن ديكرت يتبع طريقاً مختلفاً إذ تقوده ثقته في العقل إلي تأمل الذات الانسانية التي هي مخلوق ولكن على صورة الخالق. لو كانت الصورة التي في ذهننا عن الحداثة صورة سلبية ونقدية لبدأ ديكرت من رواد العقلانية الحديثة، وغالباً ما ينظر إلى المدافعين عن الروح "الديكرتي في هذا الإطار الضيق ". لكننا على العكس من ذلك من حقنا أن نرى فيه الفاعل الأساسي لتحويل الثنائية المسيحية إلى فكر حديث للذات.

فردية لوك

تنطلق فكرة الحداثة دائماً من الثقة في العقل. ومن ثم ترى في القانون والفكر السياسي والفلسفة مفترق تنفصل عنده نزعة طبيعية - يترتب عليها النظر إلى المجتمع كجسد إجتماعي - عن نزعة فردية يتشكل في داخلها مفهوم الذات. وتكمن عظمة ديكرت، المؤلف العقلاني لكتاب "مقال عن المنهج"، في انه دافع أيضاً عن ثنائية حادة حولت الفكرة المسيحية عن الإنسان الذي خلق على صورة خالقه إلى فلسفة للذات الشخصية. ونجد في الفكر السياسي والقانوني انفصلاً بين تيارين هما في الحقيقة من جذع واحد. فمنذ أن تم تدمير فكرة ربط الخير بالأمر الإلهي - ذلك الربط الذي تم بواسطة الوصايا العشر التي نقلها موسى. - ظهر تيار أول يؤكد أن الأخلاق ينبغي أن تخضع لفكرة الصالح العام ومصلحة العيش في إطار المجتمع وقد طرح شيشرون هذا المفهوم عن الصالح العام De re publica . تتمثل الأفكار الرئيسية لهذا التيار في العقد والإلزام، والحق كطاعة للقانون، وهو ما قد ينقلب إلى تسلط أو إلى ديموقراطية. ويتمثل التعبير الحديث عن هذا المفهوم في ضرورة موازنة القانون للمنفعة العامة، تلك التي يحددها السلام والحفاظ على الحياة الفردية والجماعية. ولكن الدعوة إلى الحق الطبيعي وإلى العقل يمكن أن تقودنا إلى إتجاه مخالف للإتجاه الذي ساد من هوبز إلى روسو والذي كان محملاً بالروح الثورية للقرن الثامن عشر . هذا الإتجاه الذي تبني فكرة

العقد كتأسيس للمجتمع السياسى. إتجاه مخالف، لأن مانطلق عليه "الصالح العام" ينقلب بسهولة إلى قوة للدولة التى لاتعترف بأى أساس لحقها الوضعى سوى مصلحتها الخاصة. وقد عارض هوجو جروتىوس Hugo Grotius (*) المعاصر لديكارت هذه النظرية الحديثة فى الدولة المطلقة بنظرية ميكيا فيلى أو جان بودان Bodin Jean (**). والتى تتمثل فى أن الحق الطبيعى يتحدد - وبصورة أفلاطونية - كمجموع أفكار ومبادئ قانونية تسبق فى وجودها أى وضع خاص بل وتسبق وجود الله ذاته. يقول جروتىوس أنه إذا لم تكن هناك أى دائرة موجودة فإن أقطار الدائرة تظل دائماً متساوية فالحق هو إبتكار للعقل له صرامة الرياضيات. وسوف يلح بوفندورف Pufendorf (***) على هذه المقارنة فيما بعد .

إن دفاع جروتىوس عن الحق منفصلاً عن السياسة ومستقلاً عنها وقائماً على العقل وحده، يمثل مع الفكر الديكارتى اللحظة الرئيسية فى تحول الثنائية الديكارتية القديمة إلى فلسفة للذات والحرية. ولم يكتف جروتىوس بما منحه علماء اللاهوت للقانون الطبيعى من استقلال نسبى عن القانون الإلهى. كما أنه لم يقبل على الإطلاق الموقف المتطرف لكالفان الذى ينكر أى استقلال للحق الإنسانى إزاء الفضل الإلهى الذى يصطفى من عباده من يشاء. لقد دفعته ثقته فى العقل إلى مساندة الأرمن وحين هزموا فقد وظائفه فى إمستردام .

نجد هذا المفهوم للحق الطبيعى، كموضوع للدراسات العلمية، لدى مونتسيكو الذى يسعى هو أيضاً لاستخلاص روح القانون من الخبرات الاجتماعية، أى من

(*) جروتىوس (١٥٨٣-١٦٤٥) مشرع ودبلوماسى هولندى كان من أول الذين إهتموا بوضع نظرية فى مفهوم السيادة.

(**) بودان (١٥٣٠-١٥٩٦) إفيلسوف وعالم إقتصاد فرنسى كان من أوائل من إهتموا بقضية شرعية الدولة. ويعتبر المنظر للملكية المطلقة فى الفكر السياسى.

(***) بارون بوفندورف (١٦٣٢-١٦٩٤) مؤرخ ورجل قانون ألمانى جعل من العقد الإجتماعى الأساس العقلى لكل دولة . ومن هذا المنطلق إنتقد الأمبراطورية الجرمانية فنقى إلى السويد.

"العلاقات الضرورية التي تشتق من طبيعة الأشياء" والتي تتحكم في تماسك وإنسجام التشريعات. أى فارق كبير بين هذا الموقف والمواقف المترددة لفولتير واستسلام ديدرو للبراجماتية، فعندما يتحدث ديدرو عن الفاعلية، أو دالمبير d'Alambert عن الواجبات تجاه الغير يصبح للقانون طابعاً اجتماعياً. فى حين أن ما يهم جروتوس ومونتسكيو بتأسيسهم القانون على العقل، هو تقليص السلطة وفى نفس الوقت فصل نظرية الحق عن اللاهوت.

قد يبدو مدهشاً أن نقارب بين النزعة العقلية لأنصار الحق الطبيعى و موقف لوك الذى تحتل نظريته فى الفهم موقعاً مركزياً فى فلسفة التنوير. هناك بالأحرى ميل لمعارضة النظرية "البرجوازية" لجون لوك بالتمرد الاجتماعى لروسو. عل الرغم أن روسو هو الذى يحتل موقع القلب من فلسفة التنوير بكتاباته : "المقال الثانى" و"إميل" و"العقد الاجتماعى" إلا أن لوك هو الذى يعطى أساساً جديداً للفصل بين الفرد والمجتمع. وسوف نرى بوضوح تعارض المنطقيين فى إعلانى حقوق الانسان فى فرجينيا وفرنسا.

إن نقطة إنطلاق لوك هى "إن الله بإعطائه العقل للانسان لكى يوجه فعله قد منحه أيضاً حرية الإرادة وحرية التصرف (Deuxieme Traite P. 58) . هذا الفعل هو العمل قبل كل شئ. قانون الطبيعة هو الملكية المشاع للأرض ومنتجاتها، وبينما يخضع البعض لقانون الطبيعة هذا يقوم آخرون بتحويل وتنمية المصادر الطبيعية بواسطة عملهم، الذى يعطى لهم الحق فى الملكية. وتمثل الفقرة ٢٧ من رسالة لوك نقطة إنطلاق هذا المنطق الذى يكرس الملكية والنقود وعدم المساواة : "رغم أن الأرض وكل المخلوقات الأدنى مشاع بين جميع البشر، يبقى لكل فرد حق خاص فى أن يكون سيداً على نفسه ولايجوز لأى شخص آخر أن ينال منها. يمكننا أن نقول أن ما يعمل الفرد بجسمه وما تنتجه يداه هو ملكيه خاصة له، وأن كل ما استخلصه من الطبيعة بجهد وصنعتة له وحده ؛ لأن هذا الجهد وهذه الصنعة هما جهده هو وصنعتة هو وحده. ولا يمكن لأى شخص أن يكون له حق على ما أكتسبه الفرد بجهد وصنعتة وخصوصاً

عندما يتمتع الآخرون بما بقى طبيباً ومشاعاً بينهم". هكذا يتم الانتقال من المشاع إلى الملكية الفردية وهو ما يغير دور القانون : فبدلاً من أن ينطلق من الصالح العام عليه أن يحمى حرية التصرف والاستثمار والإمتلاك. إن ما يباعد بين لوك و هوبز هو أن لوك لم يحصر نفسه فى منطق سياسى محض طبقاً لمقتضاه يكون العقد المؤسس للمجتمع السياسى قائماً على الخوف من العنف و الحرب إنه يعطى للحق الطبيعى بعداً إقتصادياً يضعه فى مواجهة السلطة السياسية أى الملكية الوراثية. بالتحديد والتى دافع عنها السير روبرت فيلمر Sir Robert Filmer الذى يهاجمه لوك فى كتابه "الرسالة الأولى". ولوك بذلك يحدث إنقطاعاً بين حالة الطبيعة والتنظيم الإجتماعى. ويشدد على هذا الانقطاع عندما يذكرنا بأن النظام السياسى قد تشكل لا رداً على حالة الطبيعة ولكن درءاً لحالة الحرب التى تدمر حالة الطبيعة.

وكان لويس ديمون على حق حين اعتبر أن لوك هو رائد الانتقال من الكلية إلى الفردية. إن تحليل نظام المشاع وحاجات أفراديه قد حل محله تحليل لنظام العمل والملكية التى ينبغى أن تحميه القوانين. ولكن لوك ظل مهتماً بنظام المشاع كما هو واضح فى الطريقة التى يبرر بها مقاومة الإضطهاد (pp.210-230). إنه لا يقوم بالدفاع عن التمرد و لكنه يدين المشرعين بإنتهاك العقد breach of trust الذى يجعل منهم ممثلين للصالح العام. إنهم هؤلاء الحكام غير الأكفاء الذين يطيحون بالنظام العام. مامن فصل كامل بين حقوق الفرد وشروط وجود الحياة الإجتماعية الآمنة سواء فى النظرية السياسية أم فى النظرية الاقتصادية.

هذا التصور يمنح لوك موقعاً أساسياً فى تاريخ الأفكار، إذ أنه يجمع بين المفهوم الفردى للملكية والثروة المكتسبة عن طريق العمل وبين الإبقاء على نظام إنسانى، يحدده لويس دومون بطريقة عابرة : "نظام كونى تتحد فيه المصلحة والأخلاق بفضل وجود الله"، ويرى ريمون بولان Rymond Polin. نفس الرأى. ويدافع لوك عن الفردية الموجودة فى الفكر الثنائى وعن التآليه الطبيعى فى فلسفة التنوير فى أن. هذه الوحدة

سوف يحل محلها تدريجياً تعارض بين نزعة تجريبية تؤدي إلى الوضعية، بل إلى نزعة سوسيولوجية نابعة من روسو، وبين فكرة الحق الطبيعي الذي يدعم كل الحركات الإجتماعية المناهضة للنظام القائم.

يعتبر كل من هوبز ولوك وروسو ثوريين بنفس الدرجة، ومن الممكن أن نعتبرهم معا رواد الفكر الديموقراطي الذي يرفض شرعية السلطة السياسية بالوراثة أو بالإرادة الإلهية. وهم بذلك يؤسسون المجتمع السياسى على قواعد مختلفة تماماً. بالنسبة لهؤلاء المفكرين وبالنسبة لكل منظرى الحق الطبيعي يتعلق الأمر بقيام المجتمع السياسى على قرار حر للأفراد، أو على عقد أو منح للثقة. ولكن هذه الكلمات التى يستخدمها الجميع يمكن أن تعطى مفاهيماً مختلفة، وهو ما شعر به بوفندورف عندما اقترح فكرة العقد المزوج: إجتماع ثم خضوع بعد ذلك. وهو ما يؤدى إلى بروز التناقضات دون حلها. يلح لوك على التراضى فى الإجبار، على أساس إرادة الأغلبية لا الإرادة العامة، بحيث يصبح القانون حماية للحقوق الفردية أكثر منه تشكيل لنظام إجتماعى سلمى، كما كان يرى هوبز. وقد قدم لوك أيضاً نظرية فى المواطنة، ويرى فى المجتمع المدنى وسيلة لضمان للحقوق الطبيعية للإنسان. وتساير أفكار لوك المبادئ التى تضمنتها وثيقة الحقوق الصادرة عام 1689 - وإن كان قد كتب رسالته قبل ثورة 1688 - فى التأكيد على استقلال المواطنين أكثر من بناء مجتمع تنتقل فيه حقوق الأفراد إلى سلطة ذات سيادة. إنه يكره الكلام عن الحاكم ذى السيادة، ويشدد على أهمية الثقة ومشاركة الجميع فى إدارة المؤسسات، (يستخدم لوك لفظ الجميع لأن كلمة الشعب كان لها وقعاً سلبياً فى عصره). وباعتباره برلمانياً، يؤمن بالمواطنة عن طريق إلحاحه على حقوق المواطنين أكثر من إلحاحه على الوحدة الوطنية.

ويخالف بوفندورف المعاصر للوك، كلاً من جروتوس وكمبرلاند Cumberland بإسم ثنائية قريبة من ثنائية ديكارت. ثنائية تفصل تماماً الكيانات الفيزيكية عن الكيانات الأخلاقية التى لا تتبع من الطبيعة. وعنها تصدر أحكام المنفعة أو اللذة، ولكن الحكم

الأخلاقى يفترض (قاعدة موجهة نسميها القانون) كما يقول بفندورف فى كتابه "عناصر التشريع الكونى". وهذا القانون، بإعتباره حقاً قانون العقل يمكن أن يحيلنا إلى معيار المنفعة الإجتماعية. وبذلك لا يكون هناك أي خلاف بين جروتىوس وبفندورف. ولكن الأخير يلح على المسافة التى تفصل بين ما هو كائن وما ينبغى أن يكون، كما يحكم على الفعل بالنوايا ويمدى إقتراجه من القانون الإلهى أكثر من الحكم عليه بالنتائج. وهو ما يبتعد به عن المفهوم الحديث للقانون وينسبه إلى مجال الفكر الدينى، سواء الكونفوشيوسية أوالبوذية أو المسيحية، التى تحرص على أن تكون أخلاقاً للنوايا والطهارة أكثر منها أخلاقاً صادرة عن القانون.

ويبتعد تفكير لوك عن أى مطلق أخلاقى وعن أى محتوى دينى. ومقصده الرئيسى هو الكفاح ضد الملكية المطلقة. وعلى الرغم من ذلك هو يكفل الانتقال من تحديد دينى إلى تحديد علمانى لفاعل إنسانى لا يتماهى تماماً مع المجتمع السياسى الذى ينتمى إليه. إن الحق فى الملكية والحرية ومقاومة الإضطهاد هو الأساس الذى يقوم عليه المجتمع المدنى. ولا يمكن الخلط بين هذا المجتمع والأمير ، سواء أكان هذا الأمير ديمقراطياً أم ملكياً. ويحتج علماء اللاهوت الأسبان مثل سواريز Suarez ولاسكازاس Las Casas على المجازر التى يقوم بها الفاتحون. ويقولون أن الهنود مخلوقات الله مثلهم مثل الأسبان. وينبغى على السلطة السياسية وجناتها المسلح إحترام المساواة بين أبناء الله، فلا تعامل بعضهم كالحيوانات أو كسلع فى السوق. وسواء تحدثنا عن قانون الطبيعة أو عن العقل بدلاً من تجلى الخالق فى مخلوقاته التى جعلها على صورته، فإن هذا لا يعنى أية قطيعة فى الفكر الأخلاقى. فى حين أن إبدال هذا المنطق فى التفكير بمنطق آخر يولى المنفعة الإجتماعية دوراً مركزياً، - سواء أحدد هذا المنطق بألفاظ مسيحية أو دنيوية - يعنى أن ننتقل من مفهوم للحياة الأخلاقية والسياسية إلى مفهوم آخر مختلف تماماً. إن تعريف الحداثة بالنفعية والاعتقاد بأن الفكر الحديث لا يهتم إلا بالعقود والقانون وبالتوازن أو الاندماج فى المجتمع هو تعريف ينطوي على نوع من الاستعجال. لقد تم التخلّى عن مبدأ المعيارية الذى أتى به الدين لصالح مبدأ قياس

الأشياء بالنتائج ولصالح الفاعل الإنسانى المحدد بفعله وإرادته وحريته وقبل كل شىء بعمله فى الواقع. إن فكرة العقد الإجتماعى التى أفادت منها كل من النزعة الاستبدادية المطلقة والثورة - ولذلك يقترب كل منهما من الآخر - تلغى الذات داخل المجتمع السياسى، وداخل الشعب السيد وداخل الأمة كما تقول الثورة الفرنسية. وعلى العكس من ذلك فإن فكرة الحق الطبيعى كما صاغها لوك أو بفندورف تؤسس لثنائية المجتمع المدنى والدولة، ولثنائية حقوق الانسان والسلطة السياسية، كما تسمح بميلاد الفكر البرجوازى والحركة العمالية أيضاً، أى بميلاد أفكار و أفعال يفترض أنها تمثل فاعلين إجتماعيين.

وهكذا يوجد تياران فى الفكر يختلطان ويتعارضان. الأول نابع من ميكافيللى، والمهم بالنسبة له هو تحرير الدولة من حكم الكنيسة وإحياء نموذج روما الجمهورية كما نقله تيتوس ليفيوس Tite- Live . مثل هذا الإنتصار لمنطق الدولة يحمل فى داخله أثراً سلبية وإيجابية، فمن جانب هناك فكرة السيادة الشعبية، التى إنطلقت من جنيف الثيوقراطية، بالإضافة إلى الإيمان العميق حتى اليوم فى فرنسا - التى لعب فيها العداء لرجال الدين دوراً كبيراً. - بأن عقلانية الدولة هى شرط حرية المواطنين وبأن الفرد لا يتألق إلا باشتراكه فى الحياة العامة، ومن جانب آخر هناك سلطة الدولة المطلقة سواء كانت تسلطية أو شعبية قائمة على العقد أو على إرادة عامة أو إنتفاضة ثورية للشعب.

يعارض هذه الفلسفة السياسية للعقد الجماعى عقد خاص أو عقد الثقة trust ، كى نستخدم مصطلح لوك المستعار من القانون الخاص. فبينما كان التيار الأول فى التفكير، والنابع من النزعة الأسمية، لا يؤمن إلا بالحق الوضعى، تبنى التيار الثانى مفهوم للحق الطبيعى بالمعنى الذى أعزته له إعلانات الحقوق والموجود سلفاً فى نصوص أنصار المساواة الانجليز Levellers فى القرن السابع عشر. التيار الأول مشهور بالثورات التى أججها، والثانى يمكن أن يطلق عليه "برجوازى"، ولكن يلزم أيضاً القول أن الإرهاب والأنظمة التسلطية قد نبعا من الأول، ومن الثانى قد أستلهمت كل

الحركات الإجتماعية. هذه الثنائية تمنع الصلة الوثيقة بين تأسيس الدولة والفردية الحديثة، لأنه إذا كانت هذه الصلة هي شاغل من أسماهم ريجيس دوبريه "الجمهوريين" فإنها مرفوضة من قبل الديموقراطيين بالمعنى الذى حدده هو لهذه الكلمة ليؤكد على تمسكه الشديد بالفكرة الجمهورية. بالطبع يفهم القارئ أن كاتب هذا الكتاب "ديمقراطى".

إعلان حقوق الانسان و المواطن

بدءاً من الثنائية الديكارتية الى فكرة الحق الطبيعى وحتى كتابات كانط، بقى القرنان السابع عشر والثامن عشر، رغم القوة المتنامية للنزعة الطبيعية والتجريبية اللتين تبشران بالنزعتين العلمية والوضعية فى القرن التاسع عشر، متأثرين على المستوى النظرى بعلمنة الفكر المسيحى، وبتحويل الذات الإلهية إلى ذات إنسانية. هذه الذات التى ستصبح بمرور الزمن أقل إستغراقاً فى تأمل كائن يزداد إحتجاباً، وسوف تصبح فاعلاً وعاملاً وضميراً أخلاقياً.

تختتم هذه الفترة بنص عظيم : إعلان حقوق الإنسان والمواطن، المقترح عليه بواسطة الجمعية العمومية فى 26 أغسطس 1789. وقد تفوق هذا الإعلان على الاعلانات الأمريكية فى التأثير. وإختلف مغزاه عن مغزى وثيقة الحقوق الإنجليزية لعام 1789. لقد كان هذا النص عظيماً ليس فقط لأنه ينادى بمبادئ تتناقض مع الملكية المطلقة، وبالتالي فهى بهذا المعنى ثورية، ولكن أيضاً لأنه ينهى السجال الدائر عبر قرنين من الزمان ويعطى تعبيراً كونياً لفكرة حقوق الإنسان التى تدحض الفكرة الثورية. يقع الإعلان الفرنسى للحقوق كحلقة وصل بين فترة سادها الفكر الانجليزى وبين فترة الثورات التى سادها النموذج السياسى الفرنسى والفكر الألمانى. إنه النص الأخير الذى نادى أمام الجميع بالطبيعة الثنائية للحدثة، والتى تتشكل من العقلنة ومن تحقيق الذات فى وقت واحد، وذلك قبل أن تنتصر النزعة التاريخية ونظرتها الأحادية خلال قرن طويل من الزمان.

تطابق نص الإعلان مع مبادئ الديمقراطية والإطاحة بالنظام الملكي القديم فى فرنسا وفى كثير من البلاد الأخرى، لدرجة أننا، عند قراءته بكل الاحترام الجدير به، نفترض له وحدة تجعل فهمه أمراً عسيراً. ومثال على ذلك رغبة Clemenceau عام 1898 فى الدفاع عن كل تراث الثورة الفرنسية ككتلة واحدة. فقد جعلت هذه الوحدة المفترضة من الصعب، بل من المستحيل، تحليل العشر سنوات، التى بدأت من إعلان السيادة الوطنية وانتهت بإنقلاب عسكري. إن ما ينبغى، على العكس من ذلك، هو تقاطع الموضوعين المتعارضين، موضوع الحقوق الفردية الذى تعودنا أن نربطه باسم لوك وموضوع الإرادة العامة المرتبط باسم روسو. والسؤال الاساسى الذى يفرض نفسه يتعلق بمعرفة ما يجمعها وما يكسب هذا الإعلان وحدة وتماسكاً. إذا كنا قد تطرقنا هنا لهذا النص التاريخى فذلك لأنه ينتمى للفكر الفردى أكثر مما ينتمى للفكر الكلى، طبقاً للتعارض الذى أقامه لويس دومون، ولأنه يقع تحت تأثير الانجليز والأمريكان أكثر من تأثره بالوطنيين الفرنسيين - وهذه علاقة موازين قوى سرعان ما ستتقلب وتؤدى إلى إنتصار ثورة تبتعد تدريجياً عن النزعة الفردية لحقوق الإنسان وتعاديها. وبهذا المعنى ينهى الاعلان الفترة ما قبل الثورية، فى حين أن إعلان 1793 يقع فى قلب المرحلة الثورية. إن عظمة شأن موضوعات الحقوق الفردية قد ظهرت بوضوح فى فاتحة الاعلان التى تضع "الحقوق الطبيعية للإنسان المقدسة والتى لا يجوز إنتهاكها" فوق النظام السياسى الذى يمكن فى كل لحظة الحكم على "تدابيره" بالرجوع إلى أهداف أى مؤسسة سياسية. ولا يمكن إذن تقييم هذه الحقوق بالرجوع إلى تماسك المجتمع أو إلى الصالح العام أو إلى ما نسميه اليوم المصلحة الوطنية. تحدد المادة الثانية للإعلان الحقوق الأساسية : حرية وملكية وأمان ومقاومة الإضطهاد. وتم تحديد حق الملكية فى المادة 17 التى أنهت بها عمل الجمعية الوطنية. أما المادة الرابعة فهى تخضع لنفس المنطق الفردى. ولكن فى مواجهة مفهوم الانسان تنشأ صورة المواطن، وذلك منذ المادة الأولى التى تنص على أن : "الإمتيازات الإجتماعية لا يمكن أن تؤسس إلا على المنفعة العامة" وكذلك فى المادتين الثالثة والسادسة التى تبرز فكرة الأمة والإرادة العامة. هذان المفهومان متعارضان كما لاحظ هيجل فى كتابه "مبادئ فلسفة الحق"، (الفقرة 258) "إذا خلطنا بين الدولة والمجتمع المدنى، وإذا خصصنا هذه للأمان

وحماية الملكية والأمن الشخصي، تكون مصلحة الأفراد بإعتبارهم أفراداً هي الهدف الأسمى الذي إجتمعوا من أجله وينتج عن ذلك أن مسألة أن يكون المرء عضواً في دولة هي أمر إختياري، ولكن علاقة هذه الدولة بالفرد تكون مختلفة تماماً إذا كانت هي الروح الموضوعي، فلا يكون للفرد نفسه أى موضوعية أو حقيقة أو أخلاق إلا إذا كان عضواً بها. وتكون الرابطة الإجتماعية باعتبارها كذلك هي المضمون الحقيقي والغاية الحقيقية. ويكون قدر الأفراد هو أن يحيا حياة جماعية". إن تعارض المفهومين ليس تعارضاً بين الكلية التقليدية والفردية الحديثة، إنه تعارض لوجهين من وجوه الحداثة. من جانب تم إستبدال مبدأ المنفعة الإجتماعية بمطلق القانون الإلهي، فالإنسان ينبغي أن ينظر إليه باعتباره مواطناً ويكون فاضلاً أكثر عندما يضحى بمصالحه الأثانية من أجل نجاة الأمة وإنتصارها، ومن جانب آخر يدافع الأفراد والفئات الاجتماعية عن مصالحهم وقيمهم في مواجهة حكومة تقوم بعرقلة المبادرات الخاصة عن طريق دعوتها للوحدة وبالتالي تعرقل أيضاً شرعيتها التمثيلية هي ذاتها.

لا يمكن تجاوز هذا التعارض بمحاولة فهم ما هي الأمة في إختلافها عن الدولة، وإعتبار أنها الشعب أى الإرادة العامة، لأن هذا التصور ينتمى إلى أحد المفهومين اللذين نسعى للربط بينهما : الإرادة العامة والحرية الفردية ؛ وتمنعنا الخبرة التاريخية تماماً من المطابقة بين إجماع الجمهور وبين الصالح العام وحقوق الإنسان. ويقدم لنا إعلان 1789. إجابة مختلفة وأكثر تبلوراً : أن القانون هو الذى يوائم بين المصلحة الفردية والصالح العام، وتلك صيغة بديهية فى نهاية قرن يختلط فيها الفكر الإجتماعي بفلسفة الحق ويقع تحت سيادتها. فالقانون هو التعبير عن الإرادة الجماعية وأداة تحقيق المساواة، ومن مهامه أيضاً الدفاع بصورة غير مباشرة عن الحريات الفردية بتعريفه "للحدود" التى جعلت حرية كل فرد تتلاءم مع إحترام حقوق الآخرين. وهو ما تقترحه نظرية الديمقراطية فى كلمات قليلة (هى كلمة لم تستخدم فى الإعلان) . ليس هذا هو النظام الذى يجمع بين تعددية المصالح ووحدة المجتمع، وبين الحرية والمواطنة بفضل القانون الذى تتحدد وظيفته الأساسية فى الوساطة والتوفيق، إنها وظيفة محدودة وهشة، ولكن لا غنى عنها بحال؟

هذا المفهوم للقانون يبدو أقل طموحاً وعلى الأخص أقل تسلطاً من مفهومه لدى المشرعين الذين أسسوا مبدأ سيادة القانون l'Etat de droit فى إطار الملكية المطلقة. إذ أنهم جعلوا من القانون أداة إخضاع الفرد لصالح عام محدد بوصفه منفعة جماعية. هنا نجد أن القانون، على عكس التصور الأول، موضوع فوق الحقوق الطبيعية للإنسان، وبالتالي يتولى عملية التوفيق بين مصلحة كل فرد ومصلحة المجتمع - وهو ما يسقط أوهام اليوتوبيا على طريقة روسو - ذلك أن الفرد يمكنه أن يكون أنانياً أو غير شريف وأن كلمة "مجتمع" يمكن أن تخفى مصالح خاصة للحكومات والتكنوقراطية والبيروقراطيين.

تهتم أغلب مواد الإعلان، إبتداءً من المادتين الخامسة والسادسة، بتحديد شروط تطبيق القانون، وعلى الأخص طريقة عمل القضاء. وهو ما يؤكد على أولوية حقوق الانسان وخصوصاً فى المادة التاسعة التى تدخل مبدأ السيادة على الجسد habeas corpus . والمادة العاشرة، بصيغتها الغربية : "لايجوز أن يضطهد أحد بسبب رأئه، حتى الدينية منها"، والتى تعطى للعلمانية شكلاً أبعد ما يكون عن الروح المعادية للدين التى تحلى بها عقلانيو القرن التاسع عشر، شكلاً يقوم على إحترام الحريات الأساسية وبالتالي على التعددية الثقافية والسياسية التى تتجسد فيها حقوق الإنسان. ولا تأتى خلاصة الإعلان فى المادة السابعة عشر الخاصة بالملكية والتى ذكرناها ولكن فى حقيقة الأمر على المادة السادسة عشرة المهداة لمونتسكيو "كل مجتمع لا يكون فيه ضمان الحقوق مكفولاً ولا الانفصال بين السلطات محدداً لا دستور له". تقوم هذه الصيغة بالحسم الواضح لصالح الحقوق الفردية ضد الاندماج السياسى، ولصالح الحرية ضد النظام .

الثورة التى اطاحت بالملكية المطلقة فى انجلترا فى مستعمراتها القديمة التى أصبحت فيما بعد الولايات المتحدة الأمريكية والثورة الفرنسية قد سادها فكر التنوير والثنائية المسيحية والديكارتية. وقد جمع الفكر البرجوازى الذى بقى على قيد الحياة

بعد هذه الفترة بين الوعي بالذات الشخصية وإنتصار العقل الأداة. وبين الفكر الأخلاقي والتجريبية العلمية وإبتكار علم الإقتصاد وخاصة لدى آدم سميث.

سيكون تاريخ القرنين التاليين هو تاريخ الفصل المتنامي بين هذين المبدئين اللذين ارتبطا إرتباطاً وثيقاً في فكر لوك : الدفاع عن حقوق الانسان والعقلانية الأداة. ويقدر ما تبني هذه العقلانية الأداة عالماً من التكنيك والقوة بقدر ما يتخلص نداء حقوق الانسان، بداية في الحركة العمالية وحتى الحركات الاجتماعية الأخرى، من الثقة في العقل الأداة. وتتساعل الانسانية التي انساقت في تيار التقدم عما إذا كانت قد فقدت نفسها، إذا لم تكن باعته للشيطان بإمتلاكها لزام السيطرة على الطبيعة. لم يكن هذا هو الوضع في القرن الثامن عشر لأن الكفاح ضد التراث وإمتيازات النظام القديم ظل سائداً، وذلك قبل أن تعمل الإنقلابات – التي جاءت بها الثورة الفرنسية والامبراطورية النابليونية – والثورة الصناعية في إنجلترا على إبراز أزمة الرومانتيكية ، تلك الأزمة التي وضعت نهاية للمطابقة بين الخبرة الداخلية والعقل الأداة. ولذلك يعتبر إعلان حقوق الإنسان إعلاناً برجوازياً وتأكيداً للحق الطبيعي في أن . إن نزعة الإعلان الفردية هي تأكيد للرأسمالية المنتصرة ومقاومة أخلاقية لسلطة الأمير في نفس الوقت. إن إعلان حقوق الإنسان، وهو أرقى إبداع للفلسفة السياسة الحديثة، يحمل في داخله التناقضات التي سوف تمزق المجتمع الصناعي.

نهاية الحداثة ما قبل الثورية.

لقد وضع إنتصار الحرية في فرنسا وقبل ذلك في الولايات المتحدة الأمريكية، التي تحررت من الإستعمار، نهاية لفترة مكونة من ثلاثة قرون تشكل ما يسميه المؤرخون "العصر الحديث" ، وأريد أن أذكر بأن هذه الفترة لم تكن فقط فترة العلمنة والعقلنة وروح الرأسمالية. وعندما عارضت هذا المفهوم النقدي والعقلاني للحداثة المتطابق تماماً مع إزالة الأوهام عن عالم ظل لأمد طويل مسكوناً بالآلهة، بمفهوم آخر ، مكمل ومعارض له في آن، وهو ميلاد الذات ومسيرة تحقيقها، أردت أولاً أن أستبعد مفهوماً تطورياً حققت

له بساطته نجاحاً كبيراً - الحداثة هي العبور من المقدس إلى الدنيوي، من الدين إلى العلم - وفوق كل ذلك أردت أن أضع بدلاً من الإيديولوجيا الحديثة التي تطابق تماماً بين الحداثة والعقلنة رؤية ذات مغزى ونتائج مختلفة : الحداثة هي الانفصال المتعاضم تدريجياً بين عالم الطبيعة الذي تتحكم فيه القوانين التي يكتشفها ويستخدمها الفكر العقلاني وبين عالم الذات وهي التي يختفى منها كل مبدأ متعالى لتحديد الخير والذي أحل محله الدفاع عن الحق لكل إنسان في الحرية والمسؤولية. إن المبادئ التي منحتها الثورة الفرنسية للعالم، الحرية والإخاء والمساواة، لم تأت من فكرة العلمنة ولا من الفكر التجريبي الميال بطبعه لعدم المساواة من كل نوع، وإنما أتت من موضوع الحق الطبيعي ذي السمة التأسيسية.

أردت إبدال صورة الأنوار التي تزيل ضباب الماضي، من على قمم المجتمع أولاً ثم بعد ذلك من على ساحات أكثر إتساعاً، بصورة تيارى فكر وتنظيم إجتماعى متعارضين. فلنسمى الأول رأسمالية والثانى الروح البرجوازي. من جانب، هناك الانسان، المتحرر من كل رباط إجتماعى والذي يخضع نفسه ، ربما لأنه من المصطفين ؛لإنضباط صارم، ولكنه يفرض نظاماً قهرياً على من لا يعيشون بمقتضى العدالة وتحت نظر الرب. وهكذا يتكون مجتمع عادل، نخبوى، صارم، فعال يحول الإيمان إلى أنشطة عملية. ومن الجانب الآخر هناك اكتشاف الوعي بالذات، الذى يهتم بهذه "الصورة السيدة"(*) كما كان يقول مونتاني ويتعبير آخر الشخصية الفردية، وكذلك الشعور العاطفى الذى يفلت من سيطرة أى قانون.

يمكننا أن نوجد هاتين الصورتين اللتين غالباً ما يختلطان بقدر ما تتقلص المسافة الموجودة بينهما وخصوصاً فى القرن السابع عشر عشية التصنيع. ورغم ذلك فإنهما يسيران فى إتجاهين متعارضين. الأولى تبني مجتمع إنتاج وعمل وتوفير وتضحية ؛

(*) "maitresse forme" تعبير يستعيره مونتاني من التصور الأرسطى عن النفس باعتبارها صورة للجسد وسيدة عليه.

والثانية تبحث عن السعادة وتعطى الأهمية للحياة الخاصة. بدأت الحياة العامة والحياة الخاصة فى الانفصال الذى يتزايد مع الزمن. وهى نفس ثنائية الاتجاهات التى لاحظناها أولاً لدى جاك روسو والتى تؤسس مجتمعاً تتحول فيه الإرادة العامة بالضرورة إلى وعى جماعى، إدماجى، وغير متسامح، ولكنها تشهد على حساسية قريبة من حساسية موتتانى ومواطنى جنيف فى عهد كالفان.

وما قلناه ينطبق أيضاً على البلاد الكاثوليكية. فهى من جانب تقاوم العلمنة بإعطائها سلطات أكبر للكنيسة، المسلحة بالطقوس والتى تعترف بالحق الإلهى للملوك مطلقى السلطات؛ ومن الجانب الآخر تحتفظ بالفصل بين ما هو روحى وما هو زمنى على طريقة الجبليين المتطرفين ultramontanisme (*) من جهة وعلى التقوى الجديدة وليدة الإصلاح الكاثولى من جهة أخرى.

وبدلاً من أن نقيم تعارضاً بين الكاثوليك المرتبطين بالماضى والبروتستانت المتوجهين للمستقبل، علينا أن نقابل بين إبداع الذات الشخصية وبين تدعيم النظام الإجتماعى بالقيم الدينية، لأن هذين الإتجاهين واضحان فى معسكرى المسيحية المنقسمة. حتى اليوم. فقد كان الاستناد إلى الدين يدعم غالباً النظام القائم وإمتهاداته أكثر مما يشجع على التمرد . ألم يكن تاريخ الحياة الدينية، وخصوصاً فى العالم الذى نطلق عليه اليهودى - المسيحى، هو تاريخ الفصل المتنامى بين العقلانية، الصادرة عن أفلاطون وأرسطو والتى عدلها علماء اللاهوت، وبين تصوف الذات، أى إكتشاف الذات الشخصية عبر فنائها فى حب الله ؟ تصبح العقلانية فى المجتمعات الحديثة تنظيماً لمجتمع عادل ونموذجاً حافزاً وملزماً، فى حين أن التصوف يصبح رومانتيكية ثم يصير حركة إجتماعية، هى فناء وإكتشاف للذات الشخصية فى آن . هذا الفصل بين العقلانية وتصوف الذات أصبح اليوم تاماً ويقيم تعارضاً بين مجتمعات تعتبر نفسها قائمة على أسس دينية، مثل الولايات المتحدة أو بعض المجتمعات الإسلامية وبين حركات

(*) مذهب لاهوتى كان يقول بالتدخل الدائم للروح القدس فى العالم الأرضى .

اجتماعية تنادى بالحرية الشخصية أو الجماعية ، وأخرى تقاثل ضد السلطة باسم الإيمان. هكذا نشعر أننا قد ابتعدنا كثيراً عن فكر القرنين السابع عشر والثامن عشر فى بحثهما عن الصلة بين قانون العقل والوحى الإلهى. وهذا الصلة تحقق – كما رأينا – عبر تصور المجتمع كتجارة للثروات وللأفكار أى كتقسيم عضوى للعمل. من هنا جاء الموقع الرئيسى الذى يشغله الفكر الاجتماعى وعلى وجه الخصوص الفلسفة السياسية فى الفكر الكلاسيكى. وهو ما يعلن عن أن الفصل المتنامى للتيارين المتعارضين فى الفكر : تيار الحياة الدينية وتيار التنظيم الاجتماعى، سوف يحدث بالضرورة عند إهمال كل تصور للمجتمع المثالى .

ولقد طابق شارل تايلور فى كتابه الكبير "مصادر النفس" بين الحداثة وبين بناء الذات، أى تأكيد الإنسان الداخلى، ونحى جانباً أولئك الذين يمثلون ما يسميه "التنوير الجذرى" وأغلب هؤلاء ممن يعتبرهم الفرنسيون فلاسفتهم فى القرن الثامن عشر، من ديدرو إلى هلفيسوس وهولباخ وحتى كوندرسية. فبالنسبة لتايلور كانت النفعية المفرطة أقل فاعلية من تغيير المشاعر الأخلاقية وتغيير صورة الإنسان. وأنا مثل تايلور أؤمن بالأهمية الكبرى لموضوع الذات، وإن كانت هذه الذات قد وهنت فى القرن الثامن عشر لأنها ظلت مرتبطة برؤية مسيحية تتقهقر أمام تقدم العلمنة، بينما إرتبطت الفردية البرجوازية تدريجياً بالصرامة الرأسمالية. وهو ما مهد لانتصار النزعة التاريخية والنزعة العلمية التى أدت لكسوف شبه كامل فى القرن التاسع عشر لفكرة الذات قبل أن تدب فيها الحياة مرة ثانية كلما وهنت الثقة فى العقل الغازى والمحزر.

تجلى هذا البعث للذات فى الإحتفال الغريب للفرنسيين بمرور قرنين على الثورة الفرنسية. لقد أستبعد الإحتفال الفكرة التى سادت طويلاً وهى أن الثورة كانت إنتصاراً للعلم والعقل والأحزاب التى فهمت قوانين التاريخ. ولأن أوروبا الموحدة كانت تمانع فى الإحتفال الصاخب بكفاح الأمة ضد الملوك والجيوش الأوروبية المتحالفة ضد الثورة، خصص الفرنسيون مساحة فى ذاكرتهم لإعلان حقوق الانسان، محتفين بذلك بالحدث

الأقل ثورية والأبعد عن الفكر التاريخي الذي يربط تحول المجتمع الفرنسي بتحول المجتمع الانجليزي ومولد المجتمع الأمريكي. وقد عبر هذا الاختيار عن الانتصار الفكري لفرانسوا فوريه Franois Furet على أتباع البرت ماتيز Albert Mathiez .

إننا هنا بإزاء بعث للفترة ما قبل الثورية وفكرها في نفس الوقت الذي تحل فيه كلمة الديمقراطية محل كلمة الثورة في الخطاب، لأننا نشعر من الآن فصاعداً بمشاعر مختلطة تجاه فلسفات التقدم. نحن نادراً ما نرفضها ولكن الأنوار غالباً ما تعمى العيون بقدر ما تضيء. إننا نخشى في الأساس أن نصبح كائنات بشرية ذات طبيعة إجتماعية محضة فنكون بذلك معتمدين تماماً على سلطة سياسية نعرف أنها لا يمكن أن تتطابق كلية مع إرادة عامة ذات طابع أسطوري أكثر منه واقعي.

إن عودة الدين هي في الغالب حركة معادية للحدث ، إنها تكافح ضد العلمنة وتحاول أن تنشئ مجتمعات يوحد بين السلطة الروحية والسلطة الزمنية. ولكنها أيضاً تعتبر محاولة لإدخال قوة غير إجتماعية في الحياة الإجتماعية، وفرض أخلاق الإعتقاد في عالم تسوده أخلاق المسؤولية، حسب تعبير فيير. ونحن نرى الآن، كما كان الحال في بداية العالم الحديث، أن هناك ثلاث قوى يختلط بعضها ببعض : العقلنة والدعوة للحقوق الانسانية والنزعة الجماعية الدينية. من منا يزعم أنه أيقن أن الأولى وحدها هي التي تدافع عن الحداثة، وأن الثانية تقتصر على إحترام حقوق المستهلك، وأن الثالثة رجعية من الألف إلى الياء؟

الفكرة المركزية التي تفرض نفسها هي أن قطبي الحداثة الآن على وشك الانفصال، وهما العقلنة وتحقيق الذات، في حين أن العالم السابق الذي سادته إجتماع الفلسفة باللاهوت المسيحي كان ذا فكر عقلاني وسحري في آن، وكذلك هو فكر مسيحي (*) ماتيز(1874-1932) مؤرخ فرنسي إهتم بتاريخ الثورة الفرنسية وحاول رد إعتبار روبسبير والجناح المتشدد في الثورة .

الانسانى داخل العقلانية وكيثوننتها سوف يعترض عليها مكتشفو الشخصية والنزعة القومية ومؤخراً ستتذكر لها تحليلات الاستهلاك وإتصالات الجماهير.

وقد حاول كبار مفكرى القرن السابع عشر أن يمنعوا هذا التفتيت بتحويل الفكر نى الصبغة الدينية، أى فكر النفس، إلى فكر للذات الحرة، نون أن يكتفوا بالتجريبية الفردية أو بالنفعية التى تجعل التنظيم الأجماعى معقولاً. ولقد حاول ديكارت وجروتىوس ولوك أن يتجاوزوا القطيعة التى تمت فى أوائل القرن السادس عشر بين لوثر وإراسم وبين الإصلاح والنهضة.

ولكن إذا كان القرنان السابع عشر والثامن عشر لم يضطرا إلى الإختيار بين إتجاهين، فى صراع مفتوح، ألم يكن ذلك لأن تعارضهما المشترك مع الماضى كان أكثر حدة من صراعهما فيما بينهما داخل إطار الحداثة نفسها؟

ولهذا انتهت هذه الفترة الطويلة من الحداثة بالثورة الفرنسية وبالتصنيع فى بريطانيا العظمى . وتكتسب المجتمعات الصناعية الحديثة قدرة على التدخل فى شئونها، قدرة كبيرة لدرجة تدفع بها إلى أن تعتنق أكثر التصورات صلفاً عدوانية لحداثتهم. فليس للانسان طبيعة أو حقوق طبيعية، فهو ليس إلا ما يفعله. وحقوقه هى حقوق إجتماعية. والعقل ليس فكراً أو إكتشافاً لنظام ولكنه قوة تاريخية للتغيير، ومفهوم المجتمع الذى كان ميكانيكياً وأصبح عضوياً . وبالتالى اختفى التمييز بين الذات والمجتمع وأصبح الانسان كائناً إجتماعياً وتاريخياً بصورة كاملة . هذا إنتصار لأيدولوجيا الحداثة ، إنتصار تام وعنيف لدرجة أننا يجب أن ننتظر قرناً من الزمان حتى يمكننا أن نرى إحتجاجاً عليه. وحتى يظهر من جديد الانفصال بين العقلنة والذات الشخصية.

الفصل الثالث إتجاه التاريخ

النزعة التاريخية

كانت النتيجة الرئيسية للتحديث الإقتصادي المتسارع هي تغيير مبادئ الفكر العقلي إلى موضوعات إجتماعية وسياسية عامة. فبينما كان القادة السياسيون والمفكرون الإجتماعيون في القرن السابع عشر والثامن عشر مشغولين بالنظام والسلام والحرية في المجتمع، إنشغل المفكرون طوال القرن التاسع عشر وجزء من القرن العشرين بتحويل القانون الطبيعي إلى إرادة جماعية. وتمثل فكرة التقدم أفضل تعبير عن هذا التسييس لفلسفة التنوير. لم يعد الأمر مقتصرأً على أعمال العقل وإزالة وما يعرقل مسيرته، ولكن يجب السعي إلى الحداثة والرغبة فيها. ويجب تنظيم مجتمع خلاق لها، متحرك ذاتياً. ولكن الفكر الإجماعى فى هذه المرحلة مازال يسوده التماهى بين الفاعلين الإجماعيين والقوى الطبيعية. والأمر صحيح بالنسبة للفكر الرأسمالى، الذى يكون بطله هو المستثمر المحكوم بالبحث عن الربح. وكذلك بالنسبة للإشتراكي الذى يعتبر الحركة العمالية الثورية تعبير عن القوى المنتجة التى تسعى للفكاك من أسر العلاقات الرأسمالية فى الإنتاج ومن تناقضاتها. يعبر التحرر السياسى والإجتماعى عن العودة إلى الطبيعة والوجود، بفضل العقل العلمى الذى يسمح بجمع شمل الانسان والكون. كان كوندورسيه يعتمد على تقدم العقل الانسانى لضمان السعادة للجميع، وفى القرن التاسع عشر تعمل التعبئة الإجتماعية والسياسة وإرادة السعادة كمحركات للتقدم الصناعى. ينبغى العمل والانتظام والاستثمار من أجل خلق مجتمع تقنى يولد الوفرة والحرية. كانت الحداثة فكرة ثم أصبحت إرادة دون أن تنقطع الصلة بين أفعال الانسان وقوانين الطبيعة والتاريخ وهو ما يضمن استمراراً أساسياً بين قرن التنوير وعصر التقدم.

يرجع ذلك، فى نظر الفكر الفظ، إلى نجاح الفكر الوضعى، أى بالتالى إلى انحلال للذاتية فى الموضوعية العلمية التى تتخذ من العقل مركبة لها. شهدت النزعة العلمية نجاحاً كبيراً فى الحياة الثقافية حتى بداية القرن العشرين، أى حتى قامت العلوم الإجتماعية بالقطيعة مع هذه النزعة وخصوصاً مع فيبر فى ألمانيا ودوركايم فى فرنسا وعملهما الذى استأنفه سيمياند Simiand ثم بعد ذلك مارك بلوخ Marc Bloch ولوسيان فيفر Lucien Febvre عبر مناقشات مشهورة أكثر عمقاً فى ألمانيا منها فى فرنسا. تلك النزعة العلمية التى كانت تعتقد أنه من خلال وقائع محددة وواضحة يمكننا استخراج قوانين التطور التاريخى.

ويعتبر الفكر التاريخى ذا أهمية كبرى سواء كان هذا الفكر مكتسباً طابعاً مثالياً أم لا. وهو الفكر الذى يطابق بين التحديث وتنمية العقل الإنسانى وبين انتصار العقل والحرية، وبين تكوين الأمة والانتصار النهائى للعدالة الاجتماعية. كما تشكل العلاقة بين النشاط الإقتصادى والتنظيم الاجتماعى، بالنسبة للبعض، البنية التحتية التى تحدد كل مظاهر الحياة السياسية والثقافية، وهذا تصور قد أدخل نوعاً من الحتمية الإقتصادية، ولكن الأهم منه هو التأكيد على وحدة كل أشكال الحياة الجماعية كمظاهر على قدرة أو إرادة للإنتاج الذاتى أو للتحويل الذاتى للمجتمع.

لقد ابتعد الفكر الاجتماعى عن مثل هذه النزعة التاريخية بشكل بالغ العنف وخصوصاً فى العقود الأخيرة، لدرجة أننا نسينا تقريباً مغزى هذه النزعة، وسيكون من التهور أن نلقى بها كلية إلى "مزيلة التاريخ". وقد كان الفكر السابق يتساعل عن طبيعة السياسة والدين والعائلة وخصوصاً القانون، وبالتالي عن العلاقة السببية بين هذه الإنساق الواقعية المتعددة. هل تتحكم الأفكار فى السياسة أما أن السياسة يحددها الإقتصاد؟ ما هى أسباب إنتصار أمة من الأمم أو أسباب إنهيار الحضارة الرومانية؟ وتستبدل النزعة التاريخية بهذه الأسئلة تحليلاً الظاهرة حسب وضعها فى محور يمتد من التراث إلى الحداثة. الفكر الماركسى نفسه ليس حتمية إقتصادية بقدر ما هو رؤية

للمجتمع كمنتج بواسطة ممارسة العمل وبواسطة التناقض بين التقدم العقلاني للقوى المنتجة والربح، بين إتجاه التطور التاريخي ولا عقلانية المصلحة الخاصة . وصورة الشيوعية التي يقدمها ليست صورة مجتمع عقلاني راشد ولكنها صورة لمجتمع يأخذ كل فرد فيه حسب حاجته أو يخضع الفكر التاريخي في كافة أشكاله لمفهوم الكلية Totalite الذي يحل محل مفهوم المؤسسة والذي كان مركزيا في الفكر السابق . ولهذا أرادت فكرة التقدم أن تفرض التطابق بين النمو الاقتصادي والتنمية الوطنية ، فالتقدم هو تكوين الأمة كشكل ملموس للحدثة الاقتصادية والاجتماعية كما يشير إلى ذلك المفهوم الألماني للاقتصاد الوطني، وكذلك الفكرة الفرنسية عن الأمة المرتبطة في الفكر الجمهوري والعلماني بانتصار العقل على التراث . ولقد تبنت هذا الموضوع الأيديولوجية المدرسية للجمهورية الثالثة(*) ، والتي لم تهدأ إلا في النصف الثاني من القرن العشرين . لا تنفصل الحدثة إذن عن التحديث، وهكذا كان الأمر في فلسفة عصر التنوير، ولكنه اكتسب أهمية أكثر في قرن لم يعد التقدم فيه هو تقدم الأفكار ولكن تقدم أشكال الإنتاج والعمل حيث يقوم التصنيع والعمران وإمتداد الإدارة العامة بتغيير حياة أغلب الافراد . وتؤكد النزعة التاريخية على أن حركة المجتمع تجاه الحدثة هي التي تفسر طريقة عمله الداخلية. فكل مشكلة إجتماعية هي في التحليل الأخير صراع بين الماضي والمستقبل . أن مسار التاريخ هو في نفس الوقت وجهته وولادته، لأن التاريخ يميل إلى انتصار الحدثة التي هي عبارة عن تعقد وفاعلية وتفاضل، أي ترشيد وعقلانية، وهي في نفس الوقت إرتقاء لوعي هو عقل وإرادة يحل محل الخضوع للنظام القائم والتراث.

لقد تم مواجهة الفكرة التاريخية عادة باعتبارها غير إنسانية، إذ كانت متهمة بتبرير السلطة المطلقة لقادة الاقتصاد والمجتمع على الأفراد. ولكن سيكون من الخطأ أن

(*) بدأت الجمهورية الثالثة في فرنسا بعد هزيمة الامبراطورية الثانية التي أسسها نابليون الثالث، أمام الجيوش الألمانية عام ١٨٧١ وبعد سقوط كومونة باريس. وانتهت عام ١٩٤٠ مع غزو ألمانيا النازية لفرنسا. وأثناء حكم هذه الجمهورية تم تطبيق مبدأ التعليم المجاني والعلماني في فرنسا بأسرها وتم الفصل رسمياً بين الكنيسة والدولة.

نختزل ذلك إلى مجرد خضوع حياة الأفراد وفكرهم لقوى إقتصادية غير شخصية. كانت النزعة التاريخية في أفضل نتائجها وأسوأها نزعة إرادية أكثر منها طبيعية. بهذا المعنى تكون فكرة الذات المتطابقة مع اتجاه التاريخ، بارزة خصوصاً في القرن التاسع عشر قرن الروايات الشعرية والملحمية، في حين أنها كانت مهمة من قبل فلاسفة القرن الثامن عشر وأثارت ريبتهن بسبب أصولها الدينية. ونرى هنا تيارين من الفكر يندمجان، المثالية والمادية، فيما وراء التعارض القديم بين العقل والدين، وبين أخلاق المسؤولية وأخلاق الاعتقاد وبين عالم الظواهر وعالم الأشياء في ذاتها. إن الأولوية تكون لوحدة الممارسات وإنتاج المجتمع والثقافة في إطار أمة مندمجة بكاملها في عملية تحديثها. أن فكرة الحداثة تنتصر ولا تترك شيئاً يبقى بجانبها. هي لحظة مركزية في التاريخ تصورنا فيها أنفسنا بطريقة تاريخية.

كيف تم هذا الاندماج؟ كيف إتحد تراث لوك وروسو، وليبرالية المدافعين عن حقوق الإنسان وفكرة الإرادة العامة؟ كيف إنتفى انفصال هذين الاتجاهين في القرنين السابع عشر والثامن عشر وحل محله نظام موحد للفكر، بواسطة إعتقاد في التقدم الذي أصبحت له القوة التعبيرية للدين وبداهة الحقيقة العلمية ؟ السبب الرئيسى في هذا التحول هو الثورة الفرنسية وليست الثورة الصناعية. فهذه الأخيرة تدعم فكراً تطورياً بل وحتى وضعياً. إن الثورة الفرنسية هي التي أدخلت في الفكر وفي التاريخ مفهوم الفاعل التاريخى، وفكرة لقاء شخص أو فئة إجتماعية مع القدر، وكذلك فكرة الضرورة التاريخية. وكل هذا تم خارج السياق الدينى الذى تسوده الفكرة اليهودية للشعب المختار. إن الثورة التي غيرت فرنسا لم تكن فرنسية محضة في حين أن الثورة المجيدة في عام ١٦٨٨. كانت وستظل انجليزية محضة. إن رجال هذه الثورة سواء من قطعوا الرؤوس أو من قطعت رؤوسهم، سواء ثوريو الأيام الأولى أو جنود العام الثانى ، دون أن ننسى بونايرت الذى تحول إلى نابليون(*) ، كل هؤلاء كانوا شخصيات ملحمية

(*) بونايرت، هكذا كان اسمه عندما كان جنراً في جيش الثورة، أما نابليون فهو اللقب الذى منحه لنفسه عندما فرض حكمه على فرنسا وحولها إلى امبراطورية وتحول بذلك من بونايرت إلى نابليون الأول.

تتجاوز دلالاتها التاريخية شخوص الأفراد . لقد عاشوا جميعاً، في فترة قصيرة، المواجهة بين ماضٍ من آلاف السنين ومستقبل يعد بالقرون. كيف يمكن في موقف كهذا الحفاظ على انفصال الموضوعية الطبيعية والذاتية الانسانية؟

تحتل فكرة التقدم مكاناً وسطاً بين فكرة العقلنة وفكرة التنمية. وهذه التنمية تعطي الأولوية للسياسة، أما العقلانية فتمنحها للمعرفة. فكرة التقدم تؤكد على تطابق سياسات التنمية وإنحصار العقل، أنها تعلن عن تطبيق العلم على السياسة وبالتالي تطابق بين الإرادة السياسية والضرورة التاريخية.

أن الاعتقاد في التقدم يعنى حب المستقبل الذى يتسم بالسعادة والضرورة معاً. وهو ما عبرت عنه الأمم المتحدة الثانية (*) التى إنتشرت أفكارها فى معظم بلاد أوروبا الغربية بتأكيداها على أن الاشتراكية سوف تنبثق من الرأسمالية عندما تكون الرأسمالية قد استنفذت قدراتها على خلق قوى إنتاج جديدة. وأيضاً ستنبثق بدعوتها للفعل الجماعى للعمال وبنشاط المرشحين الذين يمثلونهم. هل نسمى ذلك مستخدمين أحد تعبيرات نيتشه الشهيرة حب القدر Amor fati

طبقاً لهذه الرؤية تكون الصراعات الإجتماعية هى بالأساس صراع المستقبل مع الماضى. ولكن إنتصار المستقبل لا يكفله تقدم العقل فقط ولكن النجاح الاقتصادى ونجاح الفعل الجماعى أيضاً. هذه الفكرة تشكل جوهر كل اعتقاد فى التحديث ، وقد أراد عالم الاجتماع الكبير سيمور مارتن لبست Seymour Martin Lipset أن يثبت أن النمو الاقتصادى والحرية السياسية والسعادة الشخصية تسير معاً خطوة بخطوة. هذا الاتساق هو ما يسمى بالتقدم ولكن كيف يتحقق هذا التقدم؟ أولاً بترشيد العمل

(*) أسسها إنجلز فى العقد الأخير من القرن التاسع عشر. وتهدف إلى الجمع بين الاشتراكية والديموقراطية والعلم. أنضمت لها أغلب الأحزاب الاشتراكية فى أوروبا ثم خرج عليها لينين بعد تأييد أحزابها لدولهم فى الحرب العالمية الأولى وأسس الأمم المتحدة الثالثة. وتعتبر مجموعة الاشتراكية النورية التى تضم الأحزاب الاشتراكية الحاكمة فى أوروبا حالياً إمتداداً لهذه الأمم المتحدة الثانية.

وهو ما كان المهمة الأساسية للصناعة من تايلور وفورد حتى لينين الذى كان تلميذاً متحمساً لهم ؛ ثانياً بنشاط للسلطة السياسية التى تحرك الطاقات - وهو مصطلح مستعار من الفيزياء - من أجل الإسراع بالتحديث. وهو ما يفترض ربط التراث والانتماءات الاقليمية بإندماج وطنى قوى. هذه الصلة بين العقل والارادة وهذا الربط للفرد بالمجتمع والمجتمع بتحديث الانتاج وبقوة الدولة يسمح بتحريك جماعى لم تستطع الدعوة النخبوية للعقلانية تحقيقه.

الثورة

إرتبط الفكر التاريخى بالفكرة الثورية إرتباطاً وثيقاً، تلك الفكرة التى كانت حاضرة منذ البداية فى الفكر الحداثى، ولكنها بعد الثورة الفرنسية، شغلت موقعاً مركزياً لم تتركه إلا بخروج عديد من بلاد وسط وشرق أوروبا من النظام الشيوعى فى عام ١٩٨٩. وتجمع الفكرة الثورية بين ثلاثة عناصر : إرادة تحرير قوى الحداثة، والنضال ضد نظام قديم يعرقل التحديث وإنتصار العقل، وأخيراً تأكيد الارادة الوطنية التى تتطابق مع التحديث. لا توجد ثورة إلا وهى تحديثية وتحريرية ووطنية. ويضعف الفكر التاريخى أكثر حتى فى قلب النظام الرأسمالى، حيث يتحكم الإقتصاد فى التاريخ، وحيث يمكن الحلم بفناء الدولة . ولكنه على العكس يقوى أكثر عندما تطابق أمة بين نهضتها أو استقلالها مع التحديث، كما كان الأمر فى حالة ألمانيا وإيطاليا، قبل أن يمتد إلى عديد من بلاد أوروبا والقارات الأخرى. فبينما لم يهتم بالنزعة الكونية لعصر التنوير إلا بعض النخب وأحياناً بعض المحيطين بالملوك المستعيرين فإن فكرة الثورة تقيم أمماً أو على الأقل تقيم طبقة وسطى. وقد أصبحت فرنسا هى النموذج لهذه الحركات الثورية الدولية على الرغم من أنه فى ألمانيا قد تطورت حركة سياسية ثورية بصورة واسعة. وعلى الرغم من ان فى روسيا قد نشبت الثورة التى كان لها أثر عميق على القرن العشرين ، إلا أن "الثورة الكبرى" فى فرنسا قد ربطت بقوة كبيرة بين تحطيم النظام القديم وبين إنتصار الأمة التى قهرت الأمراء المتحالفين وأعداء الداخل. وهى رؤية سياسية قوية لدرجة أننا نشعر بتأثيرها حتى اليوم، رغم أن الموقف السياسى والثقافى والاجتماعى قد تغير

بعمق. لقد استمر مثقفون وسياسيون فى الدعوة للقومية الثورية التى بدونها لم يكن ممكناً بحال تصور التحالف الغربى بين الاشتراكيين والشيوعيين من 1972 حتى 1984(*) . وإن شاب هذا التحالف بعض الانقطاع .

هذه الأفكار التى هى فى ذات الوقت مشاعر، توجد مجتمعة بشدة لدى ميشليه Michelet(**) من "مدخل إلى التاريخ الكونى" (1831) إلى "الشعب" (1864) وإلى "تاريخ الثورة الفرنسية" (1852 - 1853). لا يوجد لديه موضوع أهم من تاريخ فرنسا كشخصية وكأمة ضحت بنفسها من أجل العدالة. وحماسه للثورة الفرنسية يأتى من كونها إنجاز للشعب الذى أنقذ الحرية فى فالمى Valmy وجيماب Jemmapes. وأكثر من ذلك وحد العقل والإيمان فسمح بذلك بانتصار الحرية على القدر وانتصار العدالة على فكرة الفضل الإلهى كما قال هو حرفياً. ومنذ عام 1843 لم يصبح ميشليه معاد لرجال الدين فقط - وهو العام الذى صدر فيه كتابه ضد الجزويت - ولكن أصبح معاد للدين نفسه، لقد ترك أبحاثه حول العصور الوسطى وتحمس لدراسة عصر النهضة قبل أن يكرس جهده للثورة الفرنسية. ولكنه فى حديثه عن العصر الحديث لا يتكلم إلا عن الإيمان والحب، وعن الوحدة الموجودة فيما وراء صراع الطبقات، وحدة فرنسا ووحدة الوطن التى يجسدها أفضل تجسيد عيد الاتحاد الوطنى فى 14 يولية 1790. وإذا أضفنا إلى ذلك أن الشعب لا يصنع العدالة والحرية إلا عبر التضحيات وعبر دمه المسكوب، نجد أن كل الموضوعات الجوهرية فى الفكر التاريخى موجودة فى كتاباته التى تنتمى بنفس القدر إلى فلسفة التاريخ وإلى التأريخ : الاعتقاد فى التطور باتجاه الحرية، وفى المطابقة بين العدالة والأمة الفرنسية، وفى البحث عن وحدة الوطن فيما

(*) يشير المؤلف هنا للتحالف الذى تم تحت شعار وحدة اليسار بين الحزب الشيوعى والحزب الإشتراكي وبعض المجموعات اليسارية فى فرنسا. هذا التحالف الذى على اثره شارك الشيوعيون فى أول حكومة تتشكل فى عهد الرئيس ميتران.

(**) (1874-1798) مؤرخ فرنسى تميز فى أعماله بأسلوب أدبى يعتمد على السجع والمجاز وحماسه للثورة الفرنسية إنطلاقاً من نظرة تطويرية رومانتيكية للتاريخ.

وراء التمزقات الاجتماعية، وفي الحلم بدين جديد قادر على توحيد المجتمع. فالثورة ليست قطيعة وتوقف ولكنها على العكس من ذلك حركة التطور التاريخي نحو الحرية. الحداثة هي مملكة الحب والعدالة، هي إعادة توائم أجزاء من كل ؛ كل لا يمثل فقط حصيلتها مجتمعة ولكن يمثل الغاية التي يسعى لها كل جزء.

وتظل الفكرة الثورية، حتى في أكثر أشكالها إعتدالاً، دافعة إلى الحركة الأكثر تكيفاً أى الأكثر قوة. كيف يمكن للأغلبية أن تتحمس لايديولوجية تشيد بانتصار الأقلية؟ على العكس تقوم النزعة التاريخية وتعبيرها العملي أى الفعل الثوري بتعبئة الجماهير باسم الأمة والتاريخ ضد الأقلية التي تعرقل التحديث دفاعاً عن مصالحها وامتيازاتها. ولقد بين فرنسوا فوريه أن فكرة المركزية للثورة الفرنسية وبطلها الأساسي روبسبير كانت تأكيداً على أن المسار الثوري طبيعي وينبغي له في نفس الوقت أن يكون طوعياً، وأن الثورة هي في نفس الوقت من فعل الفضيلة ومن فعل الضرورة. ولهذا ينبغي أن يكون الجسم السياسي نقياً كالبلور، وأن يتخلص من كل الشوائب ومن كل الخونة الذين يتآمرون لخدمة الطغاة. تتميز الثورة بسيادة الفئات السياسية على غيرها من الفئات، مما يؤدي إلى إغلاق المجال السياسي، الباحث عن نقائه، محركاً قواه ومشهراً أسلحته في وجه أعداء الداخل وخصوصاً ضد الثوريين غير المخلصين لروح الثورة. وهو ما تجلى في الأهمية التي حظيت بها الجلسات العامة في النوادي وفي خطب القادة اليعاقبة التي لا تتضمن أى برنامج ولكن بالأحرى دفاع عن النقاء الثوري وعن الحركة الداخلية للثورة وتصفية مستمرة للفاترين الذين يتحولون بالتأكيد إلى خونة. وهو ما يلخصه فوريه قائلاً: "يتميز المفهوم الفرنسي عن الثورة بتركيزه الهام على السياسة ؛ على قدرة الدولة الجديدة على تغيير المجتمع " وكان قد أكد في صفحات سابقة أن "الجمهورية تفترض أن الدولة لا تنفصل عن الشعب " .

في فرنسا اذن تنفصل المشاكل الاجتماعية عن المشاكل السياسية بصعوبة كبرى. كان أفضل من راقب ونقد هذه الظاهرة هو ماركس الذي يشجب "الوهم

السياسى " القوى فى فرنسا وخصوصاً فى كومبيونة باريس 1871 التى كانت فى أغلبها تقليداً لكومبيونة 1793 ، يشغف صناعتها بالبلاغة الثورية بل ويتجرؤون على أن يطردوا من صفوفهم أقلية ينتمى لها ممثلو الأممية. لم تختف من فرنسا هذه السيطرة للقوى السياسية على القوى الاجتماعية بعد عام 1848 و1871، بل توجد هذه السيطرة بتمامها فى البرنامج المشترك اليسار فى 1972. لقد كان القرن التاسع عشر قرناً ملحمياً حتى ولو كنا قد تعلمنا لوقت طويل أن نرى فيه نشأة التصنيع الثقيل. ومن يتحدثون بصدد هذا القرن عن عصر الثورات لهم الحق فى اعتبار أن هذا التعريف السياسى يحمل من المعانى أكثر من فكرة المجتمع الصناعى. لأن هذه الفكرة تدخل نوعاً من الحتمية الاقتصادية التى لا تكشف عن آليات تكوين مثل هذا المجتمع ولكن المفهوم الثورى يؤكد - حتى لو طبق على بلاد لم تعرف القطيعة فى توسعاتها السياسية - على قوة التعبئة فى خدمة التقدم والتراكم والقوة.

لم يكن الانفصال بين عالم التقنية وعالم الوعى سائداً فى القرن التاسع عشر أو بين الموضوعية والذاتية، ولكنه يكرس نفسه، بجهد غير مسبوق فى التاريخ، لأن يجعل من الفرد كائن عمومى، ليس بالمعنى الأثنى أو الرومانى الذى يلحق الفرد بالمدينة ولكن بتجاوز التعارض بين الروحى والزمنى باسم إتجاه التاريخ أى باسم الرسالة التاريخية لكل فاعل اجتماعى.

هذه رؤية عسكرية أكثر منها صناعية، وتعبئة أكثر منها تنظيم. ينبغى إذن، البحث فى الحياة الاقتصادية عن تحقيق الذات، الذى وإن كان قد قمع إلا أنه لم يلغ كلية. ذلك التحقيق الذى أشرنا إلى إحتلاله لمكانة كبيرة فى مرحلة ما قبل الثورة ولم تستطع عقلانية التنوير أن تحجبه. فالعمل هو الذى يصمد أمام هذه التعبئة العامة للمجتمع أكثر من المصلحة. والعمل يشكل حسب تحليل فيير رسالة فى الحياة يتصرف باسمها كثير من المستثمرين وهى أيضاً تمثل التبرير الرئيسى للحركة العمالية. إن الدعوة للذات فى المجتمعات الصناعية لا تنفصل عن صراعات العمل. فرب العمل يرى نفسه رمزاً للعمل

والعقل فى مواجهة المأجورين رمز الروتين والكسل، فى حين أن المناضل العمالى يدين لاعقلانية الربح ويدين الأزمات التى تدمر العمل الانسانى الذى هو القوة المنتجة والتقدمية بامتياز.

لم تتشكل الذات فى التراث المسيحى الطويل إلا عبر تمزق الأنا بين الخطيئة والفضل الإلهى، وفى المجتمع الصناعى تقوى الذات بتحولها إلى حركة إجتماعية، تخاطر بنويانها - كما ينوب الفرد فى الفضل الإلهى - عندما تصبح هذه الحركة صورة جديدة من صور الدولة وشكلاً جديداً للتقدم وللضرورة التاريخية. مرة أخرى لا تتأكد الذات إلا بتكبد مخاطرة الضياع سواء فى قوة شبه طبيعية، أو فى سلطة تقيم شرعيتها على قوانين طبيعية.

إن تصدى الفاعلين الاجتماعيين لحركة التاريخ الكلية تدفعنا الى التساؤل : كيف لا يمكن لنا أن لا نشعر بهشاشة التطابق بين النمو الاقتصادى، أى التصنيع، وبين الفعل الجماعى، والإجتماعى والقومى، بين الاقتصاد والسياسة، بين التاريخ والذات؟ لقد انتصر الفكر التاريخى على هوامش الحداثة، وفرض نفسه بصعوبة داخل الرأسمالية الصناعية المنتصرة، كما فرض نفسه فى البلاد التى سيطرت فيها المسألة القومية على المسألة الاقتصادية والاجتماعية، أو كانت فى تعارض معها. ولهذا كان الفكر التاريخى فكراً ألمانياً بالأساس، ثم انتشر بعد ذلك إلى أوروبا الوسطى التى قلبها رأساً على عقب دخول الرأسمالية وتشكل الحركة الثورية. هذا مجال شاسع يمتد من هررد Herder إلى لينين مروراً بماركس، لكنه لا يحوى فى داخله بريطانيا العظمى ولا الولايات المتحدة، ولم يدخل إلى الثقافة السياسية الفرنسية إلا جزئياً. أما فى الجانب الخاص بالأمم الخاضعة للأمبراطورية النمساوية - المجرية أو الروسية أو التركية طغى النضال من أجل الاستقلال على الرغبة فى الحداثة: فالعمال التشيك، عشية الحرب العالمية الأولى، كان عليهم أن يقرروا ما إذا كانوا عمالاً أو تشيك قبل كل شئ، واختاروا الاجابة الثانية، وسيطر على الحركات القومية فى الغالب الطبقات القديمة السائدة أو فئات وسيطة ذات علاقات غامضة مع الحداثة.

وفى الجانب الآخر، جانب البلاد "المركزية"، ربطت الدعوة للسوق وتركيز رأس المال وترشيد أساليب الانتاج، فكرة المجتمع الحديث أو حتى الصناعى بالاقتصاد الرأسمالى وفصلت بفضاظة بين الحياة العامة والحياة الخاصة، وبين التحديث والضمير، مانحة بذلك الرجال الممثلين للحياة العامة سيطرة كبرى على النساء، حبيسات الحياة الخاصة، ولكنهن يعوضن الحرمان من الحقوق والسلطة بالتسلط الشديد اللاتى يمارسنه على العائلة وتربية الأطفال.

ظل الفكر والحركات التاريخية فى حالة هشّة بين الرأسمالية الهمجية والقطيعة القومية ، وخصوصاً فى فرنسا التى خضعت لكل من سلطة البرجوازية المالية والدولة القومية والمتسلطة، حيث لم يتمتع المجتمع إلا باستقلال ضعيف وحيث كان الفكر الاجتماعى تاريخاً للأمة أكثر منه سوسيولوجيا للحدّات ؛ وذلك على الأقل حتى نجاح مدرسة دور كهايم الذى تساوقت مع الصعود المحدود لبعض السياسات التضامنية.

كان للاندماج الذى أحدثه الفكر التاريخى بين الحياة الخاصة والحياة العامة أثره على الإنتاج الثقافى فعرف هذا العصر بعصر الرواية : رواية تجمع بين سيرة ذاتية وموقف تاريخى، وتفقد قوتها إذا كانت الشخصية الرئيسية فيها مجرد رمز لتاريخ جماعى أو إذا عاشت فى مجال خاص تماماً.

الحدّات بدون ثورة : توكفيل

ينبغى لإنهاء هذا العرض، أن نرسم على الأقل صورة المتمرّد على هذه الفلسفة التقديمية للتاريخ. ولا أجد من هو أكثر أهمية من توكفيل. لأنه يبدو لأول وهلة كما لو كان يؤمن بفكرة أن للتاريخ إتجاه : فهى ضرورة طبيعية لا مفر منها، تنقلنا من الأرستقراطية إلى الديموقراطية، ومن عدم المساواة والفوارق بين الشرائح والطبقات إلى التكافؤ فى الفرص التى هى إلغاء لعوائق الحركة أكثر منها إخفاء للاختلافات. لم يعتقد توكفيل أن امريكا مختلفة عن أوروبا إلا أنها تحمل بوضوح صورة المستقبل الذى نتقدم نحوه

فرنسا وأوروبا، ولكن عبر العديد من التناقضات والتعرجات. ولكن ما أن عبر توكفيل عن هذه الفكرة حتى إنتقل، فى الجزء الثانى من كتابه "عن الديمقراطية فى أمريكا"، إلى معنى آخر لهذا التطور. فتؤدى المساواة المتنامية إلى تركيز السلطة وهو ما يفتح باباً للتفكير هو محط إهتمام الأرسقراطيين وكل المرتبطين بالتراث الاجتماعى والثقافى بصفة خاصة : ألا يصبح المجتمع الحديث، بعد أن إقتلع كل الخصوصيات والتقاليد والعادات، جمهرة لا قوام لها تترك المجال مفتوحاً للسلطة المطلقة وتجاوزاتها؟ يتسائل توكفيل لماذا لا تسقط امريكا فى إستبداد الأغلبية أو الديكتاتورية. هذا يعود أولاً إلى حكومتها الفيدرالية والحكم الذاتى للمحليات وإستقلال السلطة القضائية، ولكن مثل هذه التفسيرات لا تكفى لأنها مظاهر للديمقراطية وليست أسباباً لها. يذهب توكفيل إذن إلى ما هو جوهرى ألا وهو الدين. فى الفصل التاسع من الجزء الثانى من المجلد الأول يؤكد أولاً على أن الدين يقرر مبدأ المساواة بين البشر، ثم يمضى بمنطق أكثر تعقيداً فيعمل على تخفيف الصراعات بتوجيهه مشكلة الغايات الأخيرة إلى السماء، ويمكننا أن نقول أنه يجعل السياسة دنيوية. لا يعتبر قول توكفيل بأن العادات والأفكار هى التى تحدد المساواة التى تحدد بدورها الديموقراطية قولاً نافلاً. فالديمقراطية إجتماعية قبل أن تكون سياسية وثقافية تتفصل إذن الاعتقادات والعادات عن التنظيم الاجتماعى والسياسى، وتؤثر فيه ويمكن أيضاً أن تدخل فى صراع مع بعض الاتجاهات داخل الحداثة. إذا كان لهذا الفكر أثر كبير فى انجلترا والولايات المتحدة، فقد ظل على الهامش لوقت طويل فى فرنسا، أليس ذلك لأنه يعارض النظرة الاندماجية والثابتة للحداثة، والصورة المادية للتقدم المتوازى للثروة والحرية والسعادة. هذه الصورة التى انتشرت وفرضت بواسطة إيديولوجيات وسياسات الحداثة؟

يرفض توكفيل بشكل مطلق الفكرة الثورية التى سادت الفكر الفرنسى والتى تؤكد على وحدة الفعل الإرادى الذى يدفع المجتمع الحديث إلى الحرية والمساواة. انه يوافق على القضاء على النظام القديم، ولكنه يرفض الثورة. متفقاً فى ذلك مع كثير من المفكرين فى عصره مثل أوجست كونت كما سنرى فيما بعد. إنه يميل إلى أقول النبلاء

والطوائف الوسيطة، وإلى الانتصار التدريجي للمساواة، أى إلى تخفيف الحواجز الإجتماعية والثقافية. ويتبنى مبدأ الفصل بين الكنيسة والدولة، هذا المبدأ الذى يرى حسناته فى الولايات المتحدة ؛ على الرغم من أن فكره يقوم على الحق الطبيعى والروحانية المسيحية. يحلم توكفيل، بأثر رجعى، باستمرارية تاريخية على الطريقة الانجليزية تجمع بين التحديث والسلطة المركزية. إنه يعيد التفكير فى تأملات مونتسكيو ولكن على أرض جديدة. ويختزل الولايات المتحدة إلى مجتمع فى القرنين السابع عشر والثامن عشر بعيد تماماً عما أصبحت عليه الولايات المتحدة فى عصر جاكسون(*) وعما كانت عليه فى لحظة تحطيم الشمال الصناعى لإقتصاد الجنوب الزراعى.

إن الإهتمام الواسع بتوكفيل اليوم فى فرنسا يشكل جزءاً من حركة أشمل ترتد بنفر من الراغبين فى الهروب من حطام النزعة التاريخية إلى الفلسفة السياسية للقرن الثامن عشر. وذلك لأن توكفيل وإن كان مفكراً مقتنعاً بالمساواة بعد الثورة إلا أنه ظل باحثاً عن قوة تصمد فى وجه مجتمع الجماهير وعاقبته الوخيمة وهي تركيز السلطة. ويجد توكفيل هذه القوة فى تصور دينى وأخلاقى يفرض نفسه على التنظيم الاقتصادى والاجتماعى، كما نرى فى عناوين الأجزاء الرابع للمجلد الثانى التى تتناول تأثير الديمقراطية – أى روح المساواة – على الحركة الثقافية والمشاعر والعادات والمجتمع السياسى فى الولايات المتحدة. إن الخاصية الثقافية لتحليلات توكفيل لا تمنعها من الانتماء للثقافة السياسية للقرن السابع عشر والثامن عشر التى يتمسك بها الأمريكان أكثر من الفرنسيين. إن الذات التى يعارض بها توكفيل التحديث الاقتصادى والسياسى هى الذات المسيحية التى تتبع من الحاجة الكامنة فى الانسان للأمل والتى لا يمكن

(*) أندرو جاكسون (1767-1845) سياسى أمريكى، وسابع رئيس للولايات المتحدة. خاض حرباً ضد هنود فلوريدا واستولى عليها وصار حاكماً لها. ثم أصبح رئيساً للولايات المتحدة عن الحزب الديموقراطى. وتمثل سياسته البرجماتية والتوسعية نوعاً من القطيعة مع عصر سلفه جيفرسون الذى تميز "بالمثالية".

قمعها . ماهو وزن هذه الأفكار فى اللحظة التى ينتشر فيها البؤس والذى يلفت الأنظار اليه الاشتراكيون ومحبو البشرية، حيث إجتىح العالم الأوروبى والأمريكى الشمالى بالثورة الصناعية التى ربما لا تستحق إسمها، كما يقول المؤرخون، إلا أنها غيرت بعمق الحياة المادية والعقلية لدرجة أنها جعلت من المستحيل الكلام عن الانسان بوجه عام، والتساؤل عن الأسس الأخلاقية والدينية للنظام الإجتماعى. هذا اللقاء مع توكفيل كان وداعاً أخيراً للفكر المرتبط بالحق الطبيعى وبالتثنائية المسيحية والديكارتية. أن التوليفة بين الثورة الفرنسية والتحول فى الاقتصاد التى ظهرت فى بريطانيا قد أخذت فى غمارها العالم الأوروبى، ثم بعد ذلك جزء كبير من الكرة الأرضية، إلى حدائة تتجاوز عالم الافكار، قد خلقت مجتمعاً وفاعلين إجتماعيين يحددون ما يفعلونه اكثر مما تحددهم طبيعتهم. لقد تركت الفلسفة السياسية المجال للاقتصاد السياسى .

الحنين للوجود :

إن الدخول فى النزعة التاريخية وفى العالم التقنى بواسطة الصدمة المزوجة للثورة الفرنسية والتصنيع الانجليزى قد أثارت مقاومات أكثر حدة من مقاومة توكفيل الذى كان يرفض الثورة باحثاً فى الحداثة عن تحقيق أفكار القرن السابع عشر والثامن عشر. أن الدخول فى التاريخ والانتقال من الأفكار إلى الممارسات وكذلك الهوة السحيقة التى تفصل بين الظواهر والوجود، كل هذا قد ولد حنيناً للوجود الذى هو مبدأ وحدة العالم الطبيعى والعالم الانسانى، أى مبدأ لرؤية عقلانية تقوى تدريجياً لتصبح القوة الرئيسية لرد الفعل الفكرى ضد الحداثة. إن بروميثوس المنتصر يندم على الجمال المفقود لجبال الأوليمب. كيف لم تؤد ازالة السحر عن العالم، الذى يتحدث عنها فيير، إلى محاولات من جديد لإضفاء السحر على العالم؟ أن المحاولات التى كانت تسعى لاعادة خلق عالم ما قبل الثورات، أى عالم الخصوصيات والتقاليد والإمتيازات، لم تكن ذات أهمية كبرى. لقد فهم توكفيل وكذلك جيزو Guizot (*) وتيير Thiers (**) عبثية هذه

(*) جيزو (1787-1874) سياسى فرنسى محافظ، كان رئيساً للحكومة عام 1847 وكان منحازاً للبرجوازية المالية وأنت سياسته إلى قيام ثورة 1848.

(**) تيير (1797-1877) سياسى فرنسى تولى الكثير من الوظائف السياسية، وكان يمثل المعارضة الليبرالية لنابليون الثالث. قام بسحق كومونة باريس وصار أول رئيس للجمهورية الثالثة.

الرجعية، على مستوى الفكر وعلى مستوى السياسة. أما الجهود التي تسعى لإعادة إضفاء السحر على العالم والتي أخذت شكلاً جمالياً ورومانتيكياً أو سابقاً على الرومانتيكية فقد كانت أكثر عمقاً.

إنه حنين إلى الوجود يحتج على انتصار العقلانية التحديثية بطريقة مخالفة تماماً للأنا الديكارتي أو للحقوق الفردية لأنصار الحق الطبيعي. ومن شيلر إلى هولدرلين وشيلنج، عرفت ألمانيا، التي ظلت بعيدة عن التحديث السياسي الذي غير بريطانيا ثم فرنسا، صعود موجة من الحنين إلى الوجود، لن تختفى أبداً من الفكر الألماني وستكتسب طابع نقد الحداثة وخصوصاً لدي فلاسفة مدرسة فرانكفورت في منتصف القرن العشرين.

إعادة بناء النظام

إن الخاصية الأساسية للنزعة التاريخية هي الهوس بفكرة تحطيم النظام القديم والبحث عن نظام جديد. وهو فكر يتعارض مباشرة مع فكر الليبراليين الكبار مثل توكفيل. أنه لا يبتكر أى علاقة جديدة بين التقدم والاندماج الإجتماعى ؛ بل على العكس يحذر من النزعة الفردية المنتصرة ويبتدع فى مواجهتها نظاماً جديداً للاندماج الإجتماعى. ويعتبر أوجست كونت August Comt أفضل ممثل لهذا الفكر ، مع أن الرجوع إلى الحداثة يحتل موقعاً جوهرياً فى فكره. إن ما بقى من فكر كونت على وجه الخصوص هو قانون "المراحل الثلاث" الذى يبشر بقوم المرحلة الوضعية بعد انهيار المرحلة اللاهوتية والصحة الأخيرة للمرحلة الميتافيزيقية. ولكن من الخطير أن نتصور أن أوجست كونت هو نبي يتنبأ بانتصار الروح العلمية. فهو ليس واثقاً من أن العلوم الطبيعية تمتلك حقيقة خاصة بها. ويمكن، على حسب قوله، أن توجد أكثر من نظرية خاصة لتفسير مستويات متعددة للظواهر دون أن تندمج فى نظرية عامة للطبيعة. وهو يرى كأستاذه سان سيمون Saint-Simon، أن التقدم لايعنى مجرد الانتقال من مرحلة

إلى أخرى إنه انتقال من عصر عضوى إلى عصر نقدى، أى الانتقال من الجماعة إلى الفردية التجارية. إن السوسيولوجيا، التى منحها أوجست كونت هذا الاسم قد ولدت أساساً من قلق المثقفين فى المرحلة ما بعد الثورية، حيث كانوا يتساءلون كيف يمكن أن نقيم نظاماً مغايراً للنظام القديم. وقد ظل هذا الهم قائماً طوال القرن ووصل إلى ألمانيا التى تغيرت بدورها بواسطة الحداثة – حيث كان تونيس Tonnies يقابل بين الجماعة والمجتمع الذى يتشكل مع فكرة العودة إلى الحياة الجماعية (Vergemeinschaftung) مثل هذه الفكرة نجدها الآن فى فكر لويس دومون، فالتعارض الذى يقيمه بين الكلية والفردية يشى بقلق تجاه إنتصار الفردية. يقول كونت أن مشرعى الثورة الفرنسية قد أحلوا المجرى محل المطلق، وحرروا الفرد، ولكنهم أسلموه إلى الحلم والجنون والعزلة.

هذه الرؤية للحداثة هى أبعد ما تكون عن فكرة الذات الشخصية. بالنسبة لأوجست كونت يتعلق الأمر بالتخلص من الأوهام الفردية والانتقال من الأنا إلى نحن. وعلى خلاف أحكام ليتريه Littré وجون ستيوارن مل John Stuart Mill وتبعاً لاستنتاجات هنري جوييه Henri Gouhier ينبغى أن لا نرى قطيعة تامة بين المرحلتين الأساسيتين فى حياة أوجست كونت الفكرية، مرحلة "دروس الفلسفة الوضعية"، ومرحلة الدعوة إلى دين الإنسانية فى كتابه "نظام السياسة الوضعية". مرحلتان يفصلهما اللقاء المفاجئ مع كلوتيد دوفو Clotilde de Vaux فى عام 1845 ذلك اللقاء الذى استمر عدة أشهر فقط لأنها فارقت الحياة فى عام 1846. يدير انصار الوضعية الظهر لمحاولة كونت إنشاء دين جديد، ولتأكيد على «أن الأحياء يتحكم فيهم الاموات : هذا هو القانون الأساسى للعقل الانسانى» ويرى جوييه الأمر بدقة عندما يشدد على الفكرة المركزية لكونت فهو يهدف إلى اكتشاف مبدأ جديد للاندماج الإجتماعى بعد الانتصار الضرورى – والعابر بلا شك – للفردية. تلتقى الوضعية بالبحث عن الاندماج الإجتماعى. ذلك أن الفئات الإجتماعية الأكثر اندماجاً فى نظام الأشياء مثل البروليتاريا والنساء (وخصوصاً

الأميات) هي الفئات الأكثر ميلاً لوحدة البشرية، ضد الروح الميتافيزيقي للمثقفين. وبشكل عام ينبغي للمجتمع أن يكون جماعة ونظاماً. وأن يكون للروح العلمية الفضل الأسمى في الوقاية من الذاتية والمصلحة الشخصية. فكر كونت يمقت الصراعات الإجتماعية لأنه يعطى الأولوية المطلقة لخلق نظام يسمح للنوع الانساني بالمشاركة في النزوع الكوني (الحفاظ على الوجود وتحسينه). ويبدو العقل الوضعي حسب مفهوم أوجست كونت، في تعارض مع الانشغال بالإنسان عند فلاسفة الحق الطبيعي. "إن العقل الوضعي، على عكس ما نظن، إجتماعي بصورة مباشرة وهو كذلك بقدر الامكان وبلا أدنى جهد، نظراً لطبيعته الخاصة. فبالنسبة لكونت لا يوجد الانسان بوصفه إنساناً فقط ؛ وانما الانسانية هي الموجودة بما أن تطورنا كله يرجع إلى المجتمع بصورة أو بأخرى. إذا كانت فكرة المجتمع مازالت تبدو تجريداً قامت به عقولنا فذلك بسبب النظام الفلسفي القديم. ولكن في الواقع إن ما يتسم بالتجريد هي فكرة الفرد وذلك على الأقل في نوعنا الانساني. وتسعى الفلسفة الجديدة في مجملها دائماً إلى إبراز إرتباط كل فرد بالمجموع في الحياة العملية والحياة النظرية، وذلك عبر مظاهر متنوعة عدة، وبشكل يجعل الشعور الداخلي بالتضامن الإجتماعي شعوراً مألوفاً ولاأرادياً وممتداً عبر الزمان والمكان. (1844 ، ed ,Vrin ,1987 ، P. 56)

(Discours sur l'esprit positif)

ما هي إذن هذه الانسانية الموجودة خارج الأفراد، اللهم إلا أن تكون هي المجتمع نفسه؟ ما هو هذا التضامن الذي ينبغي له أن يصبح المصدر الأساسي للخلاص الشخصي، اللهم إلا إذا كان شيئاً مقابلاً للنوع لدى الحيوانات الأخرى؟ يفتح الفكر التاريخي على التطابق بين الحرية الشخصية والمشاركة الجماعية، وعلى هذا الموقف المعادي للبرالية والمعادي للمسيحية الذي يلحق الفرد بممثلة المجتمع، أي بعبارة أكثر واقعية، بأصحاب السلطة وعلاوة على ذلك يتخذ الفكر التاريخي لدى أوجست كونت صبغة تسلطية تفسرها التجربة الثورية وما ينجم عنها من خوف نتيجة لما تحدثه من تفكك للمجتمع يؤدي إلى سيطرة المصلحة والعنف. وقد دام هجومه ضد المثقفين وأهل

الأدب والمناقشات البرلمانية والصراعات الإجتماعية أمداً طويلاً من بعده. وكما أن فكرة الحرية الحقيقية تنشأ من الاندماج الإجتماعي، يدفع التضامن كل شخص إلى المشاركة في حياة الجسد الإجتماعي. وإذا كان صحيحاً أن دعوة التعبئة السياسية والإجتماعية والقومية من أجل التحديث تشكل جوهر التاريخية، فإن هذه التعبئة لدى الوضعيين تختزل إلى حد ما الأدنى ؛ فتمنح الثقة لقادة التحديث على شرط أن يعملوا على تشجيع دين الانسانية. يمكننا إعتبار دين الانسانية تعريفاً أولياً للاشتراكية مازال في حدود اليوتوبيا، لأنها تحمل في داخلها مفهوماً إجتماعياً ووظيفياً محضاً للانسان. هذه الوضعية أقرب إلى النزعة الإجتماعية للفلسفة السياسية لدى هوبز وروسو منها إلى تحليل الصراعات الإجتماعية للمجتمع الصناعي بواسطة بروبون ولاسيما بواسطة ماركس، ولكنها من جهة أخرى تبتعد عن الفلسفات السياسية للحدثة التي كانت تبرر السلطة المطلقة باسم تحرير المجتمع من السلطة الدينية.

بعد الثورة الفرنسية كان الأمر يتعلق بإعادة انشاء سلطة جماعية، ودين للتقدم والمجتمع. وتهاوت الوضعية سريعاً مثلها مثل السان سيمونية التي كانت إرهاباً لهذه الوضعية في جانبها : من جانب الدعوة للعلوم والنمو، ومن جانب آخر الرغبة في إقامة كنيسة جديدة، كما مارست تأثيراً مباشراً على القادة الصناعيين الجدد. ورغم ذلك كانت رغبتها في الجمع بين العقل والأيمان، بصورة مشابهة لميشيليه، قد امتدت عبر القرن كله، وأثرت في نوركهايم الذي كان يتساءل عن كيفية إقامة النظام داخل الحركة، وكيف يمكن تأكيد التضامن العضوي في مجتمع نفعي ومتحول باستمرار.

الكلية الجميلة

يأتى ضعف الوضعية من كونها غريبة عن التقاليد الثقافية التي تواجهها . إنها تركز نفسها بالكامل لحل مشكلة الحاضر : ولكن كيف يمكن إدخال النظام في الحركة؟ الحل الذي تقترحه الوضعية يقف عند حدود المجتمع منظوراً إليه كنظام عضوي في حاجة إلى تنوع أعضائه وفي نفس الوقت إلى وحدة الحياة وإلى الطاقة. ولكن ما هي

الإجابة التي تقدمها الوضعية إلى السجال الهام في تاريخ الفكر خلال القرنين السابع عشر والثامن عشر : التوفيق الصعب بين الحق الطبيعي والمصلحة الفردية، بين العام والخاص، بين العقل والأحاساس؟ ويقع دين الانسانية بين هذين المجالين ولكننا لا نرى كيف يفرض نفسه في مواجهتهما. ولهذا السبب ظلت السياسة الوضعية بلا أى أثر على الممارسات الإجتماعية. أما هيجل فقد توحد، في سنوات تكوينه، بالثورة الفرنسية، وأمن بالتطابق بين الحرية الشخصية وتغيير المجتمع. وتبنى صرخة الثورة : الحرية أو الموت. وتبحث فلسفته عن تركيب بين الذاتية والكلية إنطلاقاً من نقد مزيج للأخلاق المجردة والمجتمع المدني الذي يقوم على المصلحة الخاصة. عندما كان هيجل شاباً اختلف مع كانط ومع الأخلاق Moralitat المجردة التي يعارضها بالأخلاقية النظرية Ethique ومجال العادات Sittlichkeit الذي لا ينفصل مطلقاً عن المؤسسات، أى عن المساهمة الفعالة للحرية والتي تكون المواطنة هي أعلى أشكالها. وهذا ما دفعه الى نقد الحق الطبيعي. ويتشابه هيجل مع روسو في الموضوع الأساسى الذي يعالجه : العام لا يتحقق إلا في الخاص، والذي يصبح بناء على ذلك تفرداً Singularite. لا يشكل تاريخ العالم تطوراً خطياً، ولكن تتابعاً لأشخاص وثقافات تمثل كل منها فعلاً للعام في التاريخ. والمسيح هو بالأصالة وجه الذاتية المتحقق في التاريخ، وتمثل الثورة الفرنسية نفس المفهوم فيما بعد. يحطم المسيح الشرعية اليهودية والصلة بين الروحي والزمني التي كان يشترك فيها اليهود مع اليونان. ولكن فردية المسيح هي حب قدرى وتكمن في استجابته لقدره المسيحاني messianique وتضحيته.

تحتوى حركة التاريخ إذن على مسارين متكاملين : التمزق والاندماج. ويقترب هيجل من التراث المسيحي في كتابه "فينومينولوجيا الروح" : "لا يغنم العقل بحقيقته إلا بمقدار ما يجد نفسه في التمزق المطلق. إنه لا يشبه الإيجابي الذي يعرض عن السلبي، مثل عندما نقول: هذا لا شئ، هذا زائف، وكأئنا عندما ننتهى من شئ فإننا نتخلص منه لنفرغ للتفكير في شئ آخر. إن قوة العقل تكمن في القدرة على مواجهة السلبي والإقامة فيه. هذه الإقامة هي القوة السحرية التي تحول السلبي إلى وجود. وهذه القوة هي التي

كانت تسمى من قبل بالذات. تتجاوز الذات الآنية المجردة بإعطائها لعنصرها الخاص وجوداً ينزع للتحديد، أى أنها ليست إلا موجوداً بوجه عام وبهذا تكون الذات هى الجوهر الحقيقى، هى الوجود أو الآنية التى تكون بحد ذاتها وساطة وليست الآنية الخارجية عن أى وساطة». وهو ما تقوله مقدمة الكتاب بألفاظ أكثر وضوحاً. كل شئ يتوقف على هذه النقطة الجوهرية : "إحتواء الحقيقى والتعبير عنه ليس بإعتباره جوهر ولكن كذات على وجه التحديد."

ولكن هذا التمزق، وميلاد تحقيق الذات الذى ينتج عنه، يؤدىان، عبر طرق وسيطة، إلى إندماج الإرادة والضرورة حتى الوصول إلى توافقهما التام فى اللحظة التى توجد فيها الحرية كواقع وكضرورة وإرادة ذاتية أيضاً. من هو الكائن الذى يمكن أن يصل إلى هذه الحرية المتجسدة؟ هو المواطن كما خلقتة الثورة الفرنسية، ولكنه مواطن فى أمة متجسدة تاريخياً، فى "شعب". إن هيجل هو التابع المباشر لهردر ولوثر وهو جد لأنصار الخصوصية الثقافية الذى يقاومون الكونية المجردة للعقل، لا لى يضعوا فى مواجهتها خصوصية بلا حدود، لدرجة تصبح معها عبثية ومدمرة، ولكن يواجهونها بفكرة، هردر الجوهرية عن إمكانية وحق كل أمة وكل ثقافة، ذات وجود تاريخى واقعى فى أن تساهم فى تقدم العقل. وهنا بالتحديد يبتعد هيجل كثيراً عن القرن الثامن عشر الفرنسى وعن نزعة الفردية، ويرتبط بوعى بالفكر الألمانى عن التنمية. فالذات ليس كائناً مجرداً، إنها حاضرة فى أعمال وفى حياة جماعية، وخصوصاً فى الأديان الكبرى التى أثرت فى تطور الانسانية، تلك الانسانية التى تمر من شكل تاريخى إلى آخر وليس من مستوى فى الترشيح إلى آخر. وهو ما ينحى جانباً تلك الثنائية التى سادت الفكر الفلسفى من ديكارت إلى كانط، وكذلك الأحكام الأخلاقية حول التاريخ. يعتبر هيجل وثيق الصلة بهوم عصره عندما يرى فى المجتمع المدنى خضوع من جانب الانسان لقوانين الانتاج والعمل وينادى ضد هذا الخضوع بالمواطنة أى بالعلاقة مع الدولة. وهى فكرة مازالت حية حتى اليوم حيث يطابق البعض من اليمين أو من اليسار بين الدولة والتاريخ، ويختزلون الحياة الإجتماعية إلى الدفاع عن مصالح مباشرة. وهو ما يعيد خلق ثنائية

جديدة خطيرة بقدر ما كانت الثنائية الأولى ذات الأصل المسيحي محررة، لأن الفرد لم يعد هو الذى يحمل القيم الكونية ولكن الدولة هى التى تحققها فى التاريخ. إن تجاوز المجتمع المدنى بمعنى تاريخى ملموس يعنى أن تتحكم فيه الدولة. هذه رؤية مأساوية. فهى قصة للقدر يحقق أبطالها نواتهم عبر موتهم، مثل المسيح ذلك الوجه الأكبر للوعى الشقى الذى يحوى فى داخله سقطة العالم، ولكنه بذلك يحقق إرادة الأب. ولا يرجع هيجل، فيما وراء المسيحية، إلى المدينة اليونانية، إلى تطابق الإنسان والمواطن، وذلك لأنه يحتفظ باللمحة المسيحية لانفصال الروح عن الزمن، واستبدال الأخلاق بالقانون، وبالتالي إبتداع دين خاص كميلاد للذاتية التى بدونها لا يتم صعود إلى الروح باتجاه الوجود لذاته. الروح لا تجد نفسها إلا إذا انقسمت، إذا انفصلت عن الطبيعة، وإذا صارت حرة.

ويسأل ماركس: ولكن ألم يتعرض هيجل للتمزق والكلية كمجرد فكرتين؟ ألا تذهب بنا موضوعات مثل التمزق والذاتية إلى فكرة الصراع بين السادة والعبيد، فى حين أن نداء الكلية يتحول إما إلى خلق سلطة مطلقة، وريثة للارادة العامة لدى روسو، وإما لنوبان كل الفاعلين التاريخيين فى الروح المطلق وهو ما يظهر فى فكر هيجل نفسه عندما أستبعد فلسفة التاريخ ووضع محلها فلسفة للروح لتعلى من قدر الفن والدين والفلسفة على حساب الحياة الإجتماعية؟

ربما لا يوجد خيار أمام الفلسفة الهيجلية بين تفسير يمينى يرى فى الدولة تحققاً للعقل وتفسيراً يسارياً يجعل من تمزقات الروح تعارضات واقعية بين الطبيعة والمجتمع، وبين العقل والربح، ويكافح ضد الايديولوجيات الدينية والثقافية التى تلقى قناعاً على هذا الصراع الإجتماعى أساساً. ولكن من الصعب أن تطبق مثل هذه الأفكار الفلسفية على الممارسة التاريخية دون رؤية تعارض بين تأكيد الذاتية والحركة تجاه الكلية، وهذا يقضى على وحدة الذات والتاريخ التى تحلم بها النزعة التاريخية. نجد هذا التباين فى الماركسية التى هى حتمية إقتصادية ودعوة للفعل التحريرى للبروليتاريا فى آن.

ولكن لم يضارع أحد هيجل فى دفعه الطموح الثقافى للتاريخية إلى أقصى مداه. ولم يجمع أحد مثله بين كل من التقليديين الثقافيين المورثين من المرحلة ما قبل الثورية : إحترام الذات والايمان بالتقدم والعقل. فلسفة التاريخ عند هيجل مشحونة بقوة مأساوية، وهى أقرب للمفهوم المسيحى للخلاص منها إلى التفاؤل العقلى عند كوندرسيه. فبعد هيجل لم يعد ممكناً الحديث، كما كان الأمر فى القرن الثامن عشر، عن الفاعلين الإجتماعيين بمصطلحات غير تاريخية. لقد أصبح العقل تاريخياً مثله مثل الذات.

البراكسيس:

يكمن الخطر الأكبر للفكر التاريخى فى إلحاقه الفاعلين الإجتماعيين بالدولة، كفاعل للتغيرات التاريخية. وأيضاً فى كونه لا يرى فى الذاتية سوى لحظة ضرورية لظهور الروح الموضوعى، ثم لظهور الروح المطلق. وتميل النزعة التاريخية، عندما تطابق بين الذات والتاريخ، لأن تقضى على النوات، أى على الفاعلين كباحثين عن تغيير وضعهم من أجل زيادة حريتهم.

إن الفكر التاريخى لدى ماركس أو هيجل أو كونت لا يقبل فكرة الانسان كصانع لتاريخه إلا ليلغيها مباشرة، لأن التاريخ هو تاريخ العقل او مسيرة للوصول إلى شفافية الطبيعة: ونحن هنا امام أشكال مختلفة من نفس الاعتقاد العام. وبينما كان يسود فكر القرنين السابع عشر والثامن عشر المواجهة بين الذات والعقل، وبين النفعية والحق الطبيعى، كانت النزعة التاريخية فى القرن التاسع عشر تذيب الذات فى العقل، والحرية فى الضرورة، والمجتمع فى الدولة.

فى داخل فكر ماركس تعيش فلسفة التاريخ التناقض بين قوتها المحررة وخضوع الذات للتاريخ، بصورة أكثر مأساوية من أى فكر آخر. فلم نستمع فى أى موقف آخر فى الفكر الإجتماعى ويمثل هذه القوة للقول بأن الانسان هو صانع تاريخه. إن الحدس الأول لماركس كان هو البحث عن ممارسات خلف المقولات المجردة للدين والقانون

والسياسة. ومن هنا جاءت إدانته، كما رأينا، لسيادة المقولات السياسية في فرنسا. فخلف الروح المذهبي لروبسبير وخلف أوتوقراطية نابليون يرى ماركس إنتصار الفردية البرجوازية، وخلف البلاغة اليسارية لقادة الكوميونة يرى ضعف الطبقة العاملة الفرنسية، وخلف الملكية، كمقولة قانونية، يرى العمل والعلاقات الاجتماعية للإنتاج. وماركس بإعتباره عالم إقتصادي وفيلسوف وقائداً للأمم يدعو باستمرار "للإنسانية الايجابية" التي ستولد من "إنهاء التحديد المغترب للعالم الموضوعي " كما يقول في المخطوط الثالث من "مخطوطات 1844".

يعتبر ماركس هو عالم إجتماع التصنيع لأنه لا يعيش في مجتمع السوق ولكن في مجتمع المصنع، مجتمع يهتم بالحث على إحترام قواعد القانون أو الأخلاق، التي تسمح بالسلام والعدالة للزمين للتجارة. أن ماركس يلاحظ عالما صناعياً يختزل البشر فيه إلى حالة السلعة، وتخفيض فيه الأجور إلى المستوى الذي يضمن إعادة إنتاج قوى العمل بيولوجياً. وتؤدي سيادة النقود والأشياء والايديولوجيات الفردية فيه إلى تدمير "الوجود النوعي "Etre generique" للإنسان. وتصل هذه الرؤية إلى ذروتها مع "أطروحات حول فيورباخ"، المكتوبة بين 1844-1847، وخصوصاً مع العبارة الأولى: "إن الهزيمة الكبرى لكل مادية مضت (بما فيها مادية فيورباخ) تأتي من كون الشيء الملموس، الواقعي والمحسوس، لم يدرك إلا في صورة الموضوع أو الحدس، وليس كأنشطة إنسانية محسوسة، كممارسة عملية، ليس بصورة ذاتية.

هذه الممارسة العملية هي قبل كل شيء العلاقات الاجتماعية للإنتاج. ولد العلم الإجتماعي للفعل مع مثل هذه النصوص. فكيف لا نعترف اليوم بعظمتها، في الوقت الذي يحول فيه إنهيار النزعة التاريخية، وخصوصاً في الربع الأخير من القرن العشرين، نون الولوج إلى فكر ماركس؟

ولكن ما هي هذه الذات، هذا الكائن النوعي أو الاجتماعي المغترب والمستغل؟

أدرك ماركس، كعالم إقتصاد ومناضل سياسى، عملية البلتر Proletarianisation المطلقة كحدث جوهري، واعتبر التناقض بين وضع البروليتارى والإبداع الانسانى. تناقضاً موضوعياً أكثر منه صراع حى، لأن هذا الصراع لا يوجد إلا نادراً فى مجتمع كانت الحركة العمالية فيه بعيدة عن أن تكون فاعلاً هاماً ومستقلاً. إن فكر ماركس ليس تحليلاً للصراعات الإجتماعية ولكن للتناقضات بين القوى المنتجة والشمول من جانب، وسيطرة وايدولوجيا فردية من جانب آخر. أنه لا يتوجه إلى حركة إجتماعية لمواجهة الرأسمالية ولكن إلى الطبيعة. ولا يمكن أن يكون فعل البروليتاريا وأهميتها مطالبة يقوم بها مجموعة من أصحاب المصانع باسم حقوقها ؛ إنها تحويل العمال المغتربين إلى قوة لتفجير التناقضات الرأسمالية، قوة تقوم قدرتها على الفعل الإيجابى وعلى الدعم المعطى للقوى المنتجة التى تبقىها الرأسمالية سجيئة. ليس هناك أى حركة ممكنة إلا إذا كانت فى صف التقدم الذى يتجه هو نفسه نحو الشمول، إى نحو تحرير للطبيعة والقوى المنتجة وبصورة أعمق للحاجات الانسانية.

لم يؤسس ماركس فى أى لحظة من اللحظات سوسيولوجيا للحركات الإجتماعية، حتى وإن جعل هذه السوسيولوجيا ممكنة من خلال نقده الهدام للأوهام "المؤسسية" ومن خلال دعوته المستمرة لأولوية الممارسة. إن الاغتراب الكامل يمنع العمال أن يصبحوا صانعين لتاريخهم الخاص. وإن يؤدى تدمير السيادة الرأسمالية إلى انتصار الفاعل ، الذى كان حتى ذلك الحين مقهوراً ، بوصوله إلى التسيير الذاتى للانتاج - وهى رؤية قريبة من تصور برودون - ولكنه يتم بإلغاء الطبقات وانتصار الطبيعة. لا يمهّد فكر ماركس الأرض على الإطلاق للصيغة الاصلاحية والاشتراكية الديمقراطية للعمل العمالى والنقابى والسياسى، تلك الصيغة التى تعمل من أجل خدمة حقوق العمال ومن أجل تأثيرهم فى القرارات الاقتصادية والإجتماعية. إن فكره نوراديكالية متطرفة لدرجة أنه يرى فى كل المؤسسات والايديولوجيات أقنعة للمصلحة والسيطرة ؛ ولا يؤمن إلا بقوة الطبيعة التى لا تفنى، وبقوة التقدم والعقل، وضغط الحاجات الانسانية كوسائل للكفاح ضد النظام الرأسمالى.

يستبعد فكر ماركس الفاعل الإجتماعى. ويرفض كل إحالة، ليس فقط إلى الانسان ككائن أخلاقى، على طريقة القرن الثامن عشر، ولكن أيضاً إلى حركة إجتماعية تقودها قيم الحرية والعدالة. ربما تثير هذه الكلمات الإضطراب، ألم يكن ماركس هو القائد الأكثر نشاطاً للأممى العمالية والخصم العنيد لإلحاق الحركة العمالية بالعمل السياسى؟ هذه أراء صحيحة لكنها لا تمثل على الإطلاق أى تعارض مع التفسير المقدم هنا. فماركس يدعو للطبيعة، أكثر مما يدعو إلى العمل الإجتماعى، كقوة قادرة على تجاوز تناقضات المجتمع الطبقي. إنه أميل إلى مدمر فكرة الحداثة الكبار مثل نيتشه وفرويد والذين سنعرض لهم الجزء الثانى من هذا الكتاب، منه إلى المناضلين النقابيين أنصار العمل المباشر.

هذا هو المعنى الملموس للمادية التاريخية، المعروض فى "الايديولوجية الألمانية"، والذي وجد صيغته الكلاسيكية فى مقدمة "إسهام فى نقد الأقتصاد السياسى" سنة 1859.

"يعقد البشر، فى الانتاج الإجتماعى لوجودهم، علاقات محددة، وضرورية ومستقلة عن إراداتهم: علاقات الانتاج هذه ترتبط بدرجة معينة بتطور قواهم المادية المنتجة. يشكل جوهر هذه العلاقات البنية الاقتصادية للمجتمع، الأساس الحقيقى الذى يقوم عليه كل البناء القانونى والسياسى والذي تستجيب له أشكال محددة من الوعى الإجتماعى... ليس وعى البشر هو الذى يحدد وجودهم، ولكن على العكس وجودهم هو الذى يحدد وعىهم. وعند درجة معينة من تطورها، تدخل القوى المنتجة للمجتمع فى إصطدام مع علاقات الإنتاج الموجودة أو مع علاقات الملكية التى إنحسرت فيها حتى الآن والتى لا تكون سوى التعبير القانونى عنها. تلك العلاقات التى كانت بالأمس أشكالاً لتطور القوى المنتجة، هذه الشروط تصبح عوائق ثقيلة. وهنا يبدأ عصر الثورة الإجتماعية". تبشر هذه الكلمات الأخيرة بمقولته: "لا تطرح الأنسانية على نفسها إلا المهام التى تستطيع إنجازها" وقد بررت هذه المقولة النزعة الاقتصادية للأممى الثانية

ولكثير من الإصلاحيين الذين، مع اعتراضهم الشديد على العمل الثورى العنيف، يتفقون مع هذه المقولة، كما يتفقون مع كل تجليات الفكر التاريخى، فى اعتبار أن مغزى الفعل هو فى الصيرورة التاريخية منظوراً إليها على أنها تحرير للطبيعة أو عودة إليها، لا كبناء لعالم مؤسساتى وأخلاقى قائم على مبادئ مطلقة. إن ماركس حدثى إلى أعلى درجة لأنه يحدد المجتمع كمنتج تاريخى للنشاط الانسانى، وليس كنسق منظم حول قيم ثقافية أو حول مراتبية إجتماعية. ولكنه لا يطابق بين الرؤية الحداثية والنزعة الفردية ؛ بل على العكس، فالانسان الذى يتحدث عنه هو أولاً الانسان الإجتماعى، محدداً بموقعه فى نمط إنتاج، فى عالم تقنى، وفى علاقات ملكية ؛ إنسان محدد بعلاقات إجتماعية أكثر منه محدد بالبحث العقلانى عن المصلحة. فيما يتعلق بماركس، لا يكفى اللجوء إلا التعارض بين الكلية والفردية، كما يفعل لويس دومون. لأنه بعيد عن كلا المفهومين. فهما يدعان جانباً، تحديد الفاعل انطلاقاً من مصطلحات إجتماعية خالصة.

لا يدافع ماركس فى الواقع عن حقوق الانسان والذات الأخلاقية، أن سبب تعارضه مع الأبنية المغتربة للنظام الإجتماعى هو الحاجة الانسانية. ألا يمكن أن نطلق على هذه الحاجة الانسانية مصطلح هو le ca كما سيفعل نيتشه وفرويد من بعد ماركس؟ لقد تخلصت النزعة التاريخية من إله المسيحية الأخلاقى؛ وأستبدلت به أولاً الرغبة فى الجمع بين التقدم والنظام، ثم استبدلت به، بصورة اعمق لدى هيجل، الديالكتيك الذى يؤدى إلى إنتصار الروح المطلق، والذى حوله ماركس، بإقتراجه من الممارسات الإقتصادية والإجتماعية، إلى طاقة للطبيعة والعقل تطيح بالدفاعات التى بنتها الطبقة السائدة وممثليها. وفى القلب من كل هذه المحاولات الفكرية يوجد الولع بالشمول كمبدأ للمعنى يحل محل الوحي الإلهى والحق الطبيعى. على أى حال فالفاعل الإجتماعى، كما ظهر فى المجتمع المدنى، أولاً كبرجوازي ثم بعد ذلك كحركة عمالية، لا مكان له. إن النزعة التاريخية هى إلحاق التاريخ بفلسفة التاريخ، إلحاق الإجتماعى باللا إجتماعى سواء كان هذا الأخير عقلاً أم روحاً أم طبقة.

ولكن مثل هذه النظرة للمجتمع، المرتبطة بخبرة المجتمعات الصناعية الأولى التي كانت تسيطر عليها رأسمالية بلا حدود تقريباً، تحمل أيضاً عنصراً لا غنى عنه لأي فكر يتعلق بالذات الشخصية. لأنه حتى إذا كان العمل العمالي لن ينجح إلا إذا سار في اتجاه التاريخ في نظر ماركس، فإنه يحطم تمثيلات المجتمع كآلة أو كنظام عضوي. في الواقع يفتح إختفاء فكرة الله ورفض النفعية الإجتماعية طريقين لتأكيد الحرية : إما العودة للوجود بالفن أو بالجنس أو بالفلسفة وإما تأكيد الذات لحريتها. وهو ما يمكن أن يكون تافهاً إذا لم تتجسد هذه الحرية في كفاح ضد القوى السائدة. ويرفض ماركس مثله مثل نيتشه أي دعوة للذات. ولكن الحركة العمالية في عملها لا تنفصل، بإعتبارها التعبير الأساسي بعد نهاية الثورات البرجوازية، عن الدعوة للذات. وهنا كما في حالات أخرى كثيرة تتقدم الممارسة على النظرية.

ولكن الممارسة بوجه عام كانت قد إنسحقت تحت وطأتها هي نفسها وتحت وطأة العمل السياسي الذي إستلهمها. واستحوذ القادة السياسيون تدريجياً على إحتكار تحويل عمل البروليتاريا والأمم المضطهدة – الذي لا يستطيع بقدرته الذاتية، على ما يقولون، أن يذهب إلى ما وراء نفى النفي – إلى عمل إيجابي للتوفيق بين الانسان والطبيعة وبين الارادة والعقل. كان إسهام الماركسية محدوداً في إقامة سوسيولوجيا للعمل الجماعي. ونظراً لقلّة ما أنتجته من تحليل لهذا العمل والحركات الاجتماعية ينبغي أن نعترف بأهمية مستمرة لكتاب جورج لوكاتش Georg Lukacs، المركزي والهامشي في آن، "التاريخ والوعي الطبقي" الذي ينتهي به، صبيحة الحرب العالمية الأولى، تاريخ النزعة التاريخية الهيجيلية الماركسية ؛ ليبدأ انتصار النزعة الشمولية. يقول لوكاتش أن البرجوازية وعي بمصالحها، وعيها وعي طبقي ذاتي، ولكنها ترفض أن يكون لها وعي بشمولية المسار التاريخي. لقد كان له هذا الوعي عندما كانت تكافح ضد الأقطاع؛ ولكنها فقدته عندما هاجمتها البروليتاريا ودمرت البرجوازية كل تحليل للعلاقات الاجتماعية بفصلها للذاتي عن الموضوعي. تصل البروليتاريا على العكس إلى الوعي الطبقي الذي لا يعنى مطلقاً بالنسبة للوكاتش ذاتية طبقية، ولكن تطابق لمصالحها مع

الضرورة التاريخية. "البروليتاريا ناتجة إذن عن الأزمة الدائمة للرأسمالية وهي التي تقوم بتنفيذ المحفزات التي تدفع الرأسمالية إلى الأزمة" (P.26) وهو ما قيل بصورة أكثر وضوحاً (P.221-220) "هذا الوعي ليس إلا التعبير عن الضرورة التاريخية، فليس للبروليتاريا 'مثل عليا' تسعى لتحقيقها" ويضيف لوكاتش بعد ذلك أن الفعل البروليتاري "لا يمكن أن يضع نفسه 'عملياً' فوق مسيرة التاريخ ويفرض عليه مجرد أمانى أو مجرد معارف، لأن البروليتاريا نفسها ليست إلا تناقض التطور الاجتماعي بعد أن أصبح واع بذاته".

هذا البراكسيس ليس مجرد دفاع عن المصالح وليس في المقابل سعى وراء مثال أعلى. إنه تطابق لمصالح طبقة مع مصيرها، أى مع الضرورة التاريخية. والعمال مثلهم مثل أى فئة اجتماعية أخرى لا يرتفعون تلقائياً إلى مستوى هذا الوعي بالشمول عندما يكونون مستغلين ومغتربين ومقهورين.

الحزب الثورى هو الوعي للذات *la Conscience pour soi* . والحزب فقط هو القادر أن يحقق الانقلاب الاستثنائى الذى يحول طبقة مغتربة تماماً إلى فاعل ثورى يستطيع أن يقضى تماماً على المجتمع الطبقي ويحرر الانسانية. كان لوكاتش وقت أن كتب هذا الكلام عضواً فى الحزب الشيوعى وكان وزيراً لبيلا كون Bela Kun ولكن كان أيضاً مدافعاً عن المجالس العمالية. لا ينبغي إذن تصوير لينينية لوكاتش تصويراً كاريكاتورياً ؛ ومع ذلك يقول : إن الانتصار الثورى للبروليتاريا لن يكون، كما هو الحال مع الطبقات السابقة، هو التحقيق المباشر للوجود المعطى اجتماعياً للطبقة، إنما هو كما بينه ماركس الشاب بوضوح ، هو تجاوزها لذاتها *Son depassement de soi* كيف لهذا التجاوز وهذا العبور إلى الوعي بالشمول، الذى يجعل من البروليتاريا ذات-موضوع يغير واقعها البراكسيس، بتعبير لوكاتش نفسه، أن لا يتحقق بال جماهير، وإنما بحزب يمتلك إتجاه التاريخ ويقوده المثقفون الثوريون؟ "لا تحقق البروليتاريا رسالتها التاريخية إلا بإلغاء نفسها عن طريق قضائها على المجتمع الطبقي وخلق مجتمع بلا

طبقات" كل هذه الصيغ، الموجودة ليس في قلب فكر لوكاتش ولكن في قلب الفكر الثوري لماركس، ويصرف النظر عن السجلات التي تضع إيجاباً في مواجهة الآخر، قد أدت لقيام السلطة المطلقة للحزب الثوري كفاعل للتحويل التاريخي، ولانتقال من المجتمع الطبقي إلى مجتمع بلا طبقات.

وهناك من كانوا أكثر راديكالية مثل ريجيس بوبريه في كتابه "ثورة في الثورة" ومناضلي "البؤر الثورية" foco revolucionario وهم يرون أن إرتباط بعض المناطق في أمريكا اللاتينية بالامبريالية كان شاملاً لدرجة أنه لا يجعل فقط فعل الجماهير مستحيلاً ويل وأيضاً وجود حزب ثوري. النشاط المسلح للعصابات المتحركة أى غير الملتحمة بالسكان فقط هو الذى يستطيع أن يضرب الحلقة الأضعف للامبريالية ألا وهى الدولة القومية الفاسدة والقمعية. لم يحدث أن وصل الانفصال بين الطبقة العاملة أو الفلاحية والنشاط الثوري إلى مثل هذا الحد. ولم يتفق جيفارا، عندما أطلق من بوليفيا الكفاح ضد الأمبريالية، لا مع عمال المناجم وهم القوة النقابية الرئيسية في البلاد، ولا مع الحزب الشيوعي. فقد استقر بعصاباته المسلحة في منطقة ريفية يتحدث الفلاحون فيها لغة الجوارانى المحلية بدلاً من اللغة الأسبانية، وكانوا علاوة على ذلك قد أستفادوا من الإصلاح الزراعى. وهو ما أدى سريعاً إلى هزيمته وموته. وهناك العديد من المثقفين والمناضلين السياسيين في بعض البلاد، قد انخرطوا في هذه العصابات المقطوعة الجنور الإجتماعية والتي لا يؤدى إنتصارها، الذى تم في كوبا، إلا إلى ديكتاتورية بلا بروليتاريا. إنه موقف على حافة الهاوية ولكنه يبين المنطق العام للعمل الثوري الماركسى. وحيث انتصر هذا العمل إستطاع فعلاً أن يحقق الانتقال من مجتمع طبقي إلى مجتمع بلا طبقات. ولكن إذا كانت الطبقات قد أُلغيت فقد كان ذلك لصالح سلطة مطلقة لصالح جهازها. وتمارس هذه السلطة إرهاباً دائماً، ينتهى مع الزمن إلى أن يصبح تكنوقراطياً وبيروقراطياً، مع استمراره كإرهاب بوليسى يقف في وجه أى استقلال وأى تعبير حر عن الفاعلين الإجتماعيين .

لا يستطيع الفكر الماركسى أن يؤدي إلى تشكيل حركة إجتماعية. ولم تكن الاشتراكية، فى الشكل الذى أعطته لها الماركسية والذى كان أكثر تأثيراً، هى الذراع السياسى للحركة العمالية. ولكن قامت الاشتراكية الديمقراطية بهذه المهمة. لقد أرادت الحركة العمالية أن تعطى لفاعل إجتماعى القدرة على العمل المستقل الذى يفترض اللجوء لمبادئ أخلاقية عن المساواة والعدالة من أجل إحياء سياسة ديمقراطية ؛ أما الاشتراكية الماركسية، على العكس، فهى معادية للذاتية الطبقية، وغريبة عن الديمقراطية، ولا تهتم بتحقيق العدالة الاجتماعية بقدر إهتمامها بتحقيق مصير تاريخى. وحتى إذا كان ماركس، بعد هيجل، لديه الوعى بتكوين فلسفة للذات، فإن هذه الكلمة لا تكتسب لديه المعنى الذى نعطيه للذاتية ولتحقيق الذات أو الحرية والمسؤولية. ولوكاتش على صواب عندما يقول : "ليس تغلب العناصر الاقتصادية فى تفسير التاريخ هو ما يميز الماركسية عن الوعى البرجوازى، ولكن هى وجهة النظر الشاملة (P.47). ووجهة النظر هذه لا يمكن أن تعبر عن فاعل اجتماعى محدد، أنها لا يمكن أن تكون إلا وجهة نظر ممثل سياسى للضرورة التاريخية ينتزع السلطة المطلقة ليحققها.

بينما كانت الذاتية تبدو برجوازية، كانت النظرات التى تدعو إلى الشمولية التاريخية، سواء كانت ثورية أو برجوازية صغيرة، كما كان يحلو لماتيز أن يقول عن ميشيليه، تطابق بشدة بين طبقة أو أمة وبين الحركة الطبيعية للتاريخ، وهذه الحركة ليست إلا فكرة معينة يكون الفاعلون الإجتماعيون تعبيراً لها، أو هم عملياً "جماهير" يتحدث باسمهم حزب أو مجموعة من المثقفين. إن النظر للإنسانية كفاعلة لتاريخها، مطيحة بالأوهام الخادعة للجواهر ومبادئ الحق والأخلاق، لكى تستوعب ذاتها وتتغير فى ممارساتها، يؤدي إلى الخضوع العنيف أو المعتدل للفاعلين الاجتماعيين، الخضوع الشمولى أو البيروقراطى، ولاسيما الخضوع الطبقي لسلطة مطلقة لنخبة سياسية تزعم شرعيتها باسم معرفتها المزعومة بقوانين التاريخ .

وداعاً للثورة

نحن نعرف اليوم من خلال التجربة أن التقدم والشعب والامة لا تتأسس فى غمار الحماس الثورى لخلق قوة تاريخية لا تصمد أمامها عوائق المال والدين والقانون. هذه التركيبية الثورية التى كان يحلم بها العصر الثورى لم تتحقق تلقائيا فى أى زمن رغم أحلام ميشليه. ولم تؤد إلا إلى السلطة المطلقة للقادة الثوريين الذى جعلوا من أنفسهم تعبيراً عن نقاء الثورة ووحدتها. إن وحدة المسار التاريخى لم تتحقق إلا بإحلال الواحد، الممثل للامة والشعب والجماعة المحاصرة والتى ينبغى أن يسودها قانون الطوارئ ومعاقبة الخونة، محل تعدد الفاعلين الاجتماعيين وعلاقاتهم.

أدارت الثورات ظهرها دائماً للديمقراطية وفرضت وحدة لا يمكن أن تكون سوى ديكتاتورية بدلاً من تعددية المجتمع المنقسم إلى طبقات. ولأن الاشتراك النشط للفاعلين الاجتماعيين فى الحياة العامة ظل ضعيفاً، حتى فى فرنسا التى بدأ فيها الاقتراع العام منذ 1848م، استقرت سيطرة النخبة السياسية على الشعب وعلى الطبقات الاجتماعية. تلك السيطرة التى بدأت مع فترة الارهاب فى الثورة الفرنسية ثم أصبحت دائمة مع الشمولية فى القرن العشرين.

لو وافقنا للحظة على الفكرة، التى أذاع عنها طوال صفحات هذا الكتاب، والتى ترى أن الحداثة تتحدد بفصلها المتنامى للعقلانية والذاتية، لكان التأكيد على أن الوحدة الاصلية للقوانين الطبيعية للتاريخ وللعمل الجماعى أمر يبتعد عن الحداثة. إذ يؤدى بالضرورة، عندما يتجاوز دائرة الايديولوجيين الصغيرة، إلى بناء سلطة مطلقة وقمعية تفرض وحدة مصطنعة وتسلطية. وتم ذلك سواء فى عالم الاقتصاد والذى يفقد فى هذه المغامرة عقلانيته الداخلية، أوفى عالم الفاعلين الاجتماعيين المحرومين من هويتهم باسم رسالتهم الكونية. أدى عصر الثورات، عبر طرق ملتوية، الى الإرهاب والى قمع الشعب باسم الشعب، وإعدام الثوريين باسم الثورة، ولأنه يؤكد وحدة الحداثة والتعبئة الاجتماعية، فقد أدى الى الفشل الإقتصادى والى إختفاء المجتمع الذى ابتلعه الدولة القطبية Etat saturn .

إن إنتصار التقدم يؤدي بالضرورة إلى إضفاء البعد الطبيعي على المجتمع وإنطلاقاً من ذلك يُنظر إلي من يعارضون الحداثة وثورتها كعراقيل ينبغي التخلص منها بواسطة منسقى الحداثة الطيبين المخول لهم إقتلاع الأعشاب الضارة. ها نحن قد وصلنا إلى التحطيم الذاتي التام للحداثة. فى لحظة تنادي الأيديولوجيا فيها بهوية تجمع بين الإرادة والضرورة، وتجعل من التاريخ صعوداً نحو الحرية ونحو تحرير الطبيعة فى آن، وتزعم الأيديولوجيا أنها تعمل على إنتصار ما هو إجتماعى بإذابته فى الكون الكبير. مثل هذه الفكرة المتطرفة عن الحداثة لم تنجح فى فرض نفسها بشكل كامل فى المراكز النشطة للتحديث الغربى، تلك المراكز التى لم تتحكم سلطتها المركزية فى الإقتصاد والثقافة. ولكن كلما إمتد التحديث إلى مناطق صادفته بها عراقيل كلما أصبح إرادياً وتطابق مع الفكرة الثورية.

واجب المثقفين الأول اليوم هو أن يعلنوا أن الأطروحة التأليفية الكبرى للنزعة التاريخية كانت حلماً خطيراً وأن الثورة كانت دائماً نقيض للديمقراطية. إن الحداثة ليست هى إنتصار الواحد ولكن إختفاؤه وتأسيس إدارة العلاقات المعقدة والضرورية بين التحديث وبين الحرية الفردية والجماعية.

ينبغي إذن أن نتساءل، بعد هزيمة الفكر المسيحى والحق الطبيعى أمام فلسفة التنوير، ما هو شكل العودة للذاتية تلك العودة التى ينبغي لها أن تعقب النزعة التاريخية. ولمثل هذه الصيغة ميزتين. الأولى هى أنها تضعنا اليوم على مسافة متساوية من الفكر فى كل من القرنين الماضيين وتجبرنا على الإعتراف بكل من نداء العقلانية وتحرير الذات الشخصية. والثانية هى أن نقبل وضع تأملاتنا فى سياقها التاريخى، ليس بالقطع فى صورة تدرج مراتبى لأشكال التحديث أو لمراحل النمو الاقتصاى، ولكن فى بحث عن أشكال من التدخل يجريها المجتمع على ذاته ويمكنها أن تدعو إلى تحديد جديد للعلاقة بين الفعالية والحرية. أعطت الحداثة، كما قلنا، الأولوية لعملية تدمير الماضى، والتحرير والانفتاح. ثم أعطت فلسفات التاريخ والتقدم محتوى وضعى للحداثة. وأسموها

الكلية أو الشمول Totalite، وهذه الكلمة قريبة من الشمولية totalitarisme لدرجة تبين بوضوح خطر إلتباسات هذه الكلمة وأخطارها. أيمكننا إدراك موقف تاريخي جديد، أو نوع جديد من المجتمعات لا تتحدد الحداثة فيه بواسطة مبدأ وحيد شمولي، ولكن بالعكس بواسطة توترات جديدة بين العقلانية والذاتية؟

الباب الثانى

الحدائثة فى أزمة

الفصل الأول

التفكير

المراحل الثلاث للأزمة

بقدر ما تنتصر الحداثة بقدر ما تفقد قدرتها على التحرير. إن دعوة التنوير مؤثرة عندما يكون العالم غارقاً في الظلام والجهل! وفي العزلة والعبودية. هل مازال التنوير عاملاً على التحرر في المدن الكبرى المضاعة ليل نهار! والتي تغرى الأنوار فيها المشتري أو تفرض عليه دعاية الدولة؟ والترشيد كلمة نبيلة عندما تدفع الروح العلمى والنقدى الى مجالات تتحكم فيها السلطة التقليدية وتعسف مراكز القوى حتى الآن ؛ وتصبح كلمة رهيبة عندما تطلق على التaylorية وطرق تنظيم العمل الاخرى التى تحطم الاستقلال المهنى للعمال وتخضعهم لايقاع وأوامر تزعم أنها علمية! ولكنها ليست إلا أدوات فى خدمة الربح! لا تبالى بالواقع الفسيولوجى والنفسى والاجتماعى لانسان العمل.

كنا نعيش فى الصمت! صرنا نعيش فى الضجيج ؛ كنا معزولين فصرنا ضائعين وسط الزحام ؛ كنا نتسلم القليل من الرسائل والآن تنهمر علينا كوابل من نار. لقد إنتزعنا الحداثة من الحدود الضيقة للثقافة المحلية التى نحيا فى إطارها وألقت بنا فى الحرية الفردية ، وينفس القدر فى المجتمع وفى ثقافة الجماهير. لقد ناضلنا طويلاً ضد نظم الحكم القديمة وميراثها ، أما فى القرن العشرين ، ف ضد الأنظمة الجديدة والمجتمع الجديد والانسان الجديد الذين أرادوا خلق نظم متسلطة إنطلقت الدعوات المساوية للتحرير! وهبت الثورات ضد الثورات والنظم المتولدة عنها.

إن القوة الاساسية للحداثة ، قوة فتح عالم كان مغلقا ، تستنفذ نفسها كلما تزايدت التبادلات وزادت كثافة البشر ورؤوس الأموال والسلع الاستهلاكية وأدوات التحكم

الاجتماعى والأسلحة. كنا نريد الخروج من جماعاتنا الصغيرة وبناء مجتمع فى حالة حراك! ونسعى الآن للتخلص من الجماهير ومن التلوث ومن الدعاية. يسعى البعض للفرار من الحداثة ولكنهم قلة ، وذلك لأن مراكز الحداثة قد استحوذت على العديد من المصادر المتاحة وتحكمت تماماً فى العالم بأكمله لدرجة انه لم يعد هناك مكان من ما قبل الحداثة أو همج طيبون ولكن فقط مستودعات للمواد الخام واليد العاملة وأراضى للمناورات العسكرية ومساحات مغطاة بالعبء المحفوظة وبرامج التليفزيون. والأغلبية لم تعد تقنع بالتعارض الذى كان يتم فى الغالب بين الماضى المظلم والمستقبل المضى بل والساطع كما كان يقول زينوفيف Zinoviev فى هجومه على نفاق البيروقراطيين السوفييت. لا يتعلق الامر برفض الحداثة بقدر ما يتعلق بمناقشتها وبأن نستبدل بالصورة الكلية لحداثة متعارضة مع التراث بتحليل للجوانب الإيجابية وأيضاً السلبية لأهدافها الثقافية وعلاقات السيطرة والتبعية وكذلك الادماج والاستبعاد ، هذا التحليل هو الذى يعطى لفكرة الحداثة الثقافية مضموناً اجتماعياً. فبينما كانت تدعو أناشيد الحداثة لجبهة مشتركة لكل المحدثين وبشكل ملموس ، إلى الحاق الجميع بالنخبة التى تقود التحديث ، فإن نقد الحداثة لا يؤدى إلى رفضها ولكن ، طبقاً للمعنى الاصلى لكلمة الحداثة ، يفصل بين عناصرها ويحلل ويقيم كل عنصر منها بدلا من أن نظل حبيسى الكل أو اللاشئ الذى يضطرنا إلى أن نقبل كل شئ خوفاً من أن نفقد كل شئ.

لا مفر من هذا النقاد لفكرة الحداثة. لأنها لا تتحد كنظام ولكن يمكن تعريفها ، بإستعارة تعريف شومبيتر للرأسمالية ، كحركة للتدمير الخلاق. الحركة تجذب من كانوا قابعين فى السكون ؛ وتؤدى للارهاق والدوار إذا كانت مستمرة ولا تسير إلا بتسارعها الخاص. ولأن فكرة الحداثة نفسها هى فكرة نقدية وليست فكرة بناءة فهى تنادى بنقد مفرط فى الحداثة. وهو ما يحمى من الحنين إلى الماضى الذى نعرف كيف ينقلب بسهولة إلى مسار خطير.

يتحول نفاذ الحداثة إلى شعور قلق بخلو الفعل الذى لا يرضى إلا بمعايير العقلانية
الأداتية من أى معنى. ولقد استنكر هوركهايمر تدهور "العقل الموضوعى" إلى "عقل
أداتى" أى التحول من رؤية عقلانية للعالم إلى فعل تكتيكى محض توضع العقلانية من
خلاله فى خدمة حاجات المستهلك أو الديكتاتور التى لا تخضع للعقل ومبادئه الضابطة
للنظام الاجتماعى والنظام الطبيعى. هذا القلق يؤدى إلى تغير فى النظرة المستقبلية.
فجأة أطلق هوركهايمر وادرنو Adorno على الحداثة "أفول العقل" ودأب على ذلك كل
من تأثر بهم خارج مدرسة فرانكفورت. وهذا التفكير هو امتداد لمخاوف فيبر أكبر
محلى الحداثة. والعلمنة وإزالة السحر عن العالم والفصل بين عالم الظواهر الذى
يُمارس فيه الفعل التكتيكى وبين عالم الوجود الذى لا يخترق حياتك إلا عبر الواجب
الأخلاقى والخبرة الجمالية ألا يحبسنا كل ذلك فى قفص حديدى حسب التعبير المشهور
الذى يختم به فيبر كتاب "الأخلاق البرتستانتيّة وروح الرأسمالية"؟ وقد طور يورجن
هابرماس Jurgen Habermas هذا الموضوع بجدارة فى كتاباته الأولى. يحدد ماكس
فيبر الحداثة بعقلانية الوسائل ويعارض بينها وبين الغاية العقلية للقيم هذا التعارض
الذى يعبر عن نفسه بشكل أكثر عينية فى التعارض بين أخلاق المسؤولية الخاصة
بالإنسان الحديث وأخلاق الاقتناع التى لا يمكن أن تتدخل فى العالم إلا فى ظروف
استثنائية مثلها مثل السلطة الكريزماتية لا تُمارس إلا فى عالم مُرشّد. تلك هى الصورة
التي يرسمها فيبر للعالم الحديث : التعايش بين الترشيذ اليومى وحرب الآلهة الطارئة.
وقد أدت هذه النزعة الكانطية فى الغالب إلى وجود تعبيرات معتدلة لها فى البلاد
الأوروبية فعلى سبيل المثال كانت هذه النزعة هى التى ألهمت مبتكرى التعليم العلمانى
الفرنسى فى أواخر القرن التاسع عشر. كان الكثيرون منهم بروتستانت ولم تكن
علمانيتهم تتسم بالعداء للمعتقدات الدينية. لقد كانوا يريدون فقط أن يرسموا الحدود
بين المعتقدات الخاصة والحياة العامة التى تنشأ فيها المدرسة والتى لا ينبغى لها أن
لا تعرف إلا الفكر العقلانى والنقدى. هذا الفصل بين الكنيسة والدولة الذى كان يناسب
تماماً طبقة وسطى "تقدمية" كما كانت تطلق على نفسها فى مواجهة البرجوازية

الكاثوليكية وكذلك أيضاً ضد الطبقة العاملة الثورية التي كانت تدين مثل هذا التسامح المعتدل باسم مشروع مضاد لصالح المجتمع ،! إن الحداثة تقطع ترابط ووحدة السماء والارض. وهو ما يزيل فتنة العالم ويلغى السحر ويحطم النظرة العقلانية الكاملة للكون ويقضى على مملكة العقل الموضوعي. سواء قنعنا بمملكة العقلانية الأداة أم لا ، لم يعد يمكننا العودة إلى فكرة العالم الذي تحكمه قوانين العقل والتي يكشفها العلم. إن الاله الذي تقضى عليه الحداثة هو إله خالق لعالم معقول مثله مثل إله رجال الدين وطقوسهم. وسواء قبلنا الثنائية الكانطية وتفسير فيبر لها أم لا ، لم يعد يمكننا الإيمان بنظام للعالم ، وبالوحدة الشاملة لظواهر الطبيعة التي يكون السلوك الانساني أحد مظاهرها.

ويرفض كبار المفكرين العقلانيين هذا التصور الشامل لازالة السحر عن العالم. إن ما يسحرهم حتى الآن ليست ذكرى الحكايات عن غابة بورسلياند ، ولكن فكرة اللوغوس التي انتقلت إليهم عبر قرون من الفكر اليوناني المسيحي. ولم يصل هذا الحنين إلى العقل الموضوعي إلا ذروته إلا لدى هوركهايمر. المنفى وتدمير الهنترية للثقافة الألمانية والقضاء على اليهود الأوربيين الذين ارتبط جزء كبير منهم ، وأكثر من أي مجموعة بشرية أخرى ، بكونية العقل ، كلها أسباب تفسر بسهولة شعور هوركهايمر بأن أفول العقل الموضوعي لا يمكن أن يؤدي إلا إلى البربرية النازية عبر أزمات مجتمع برجوازي فاقد الاتجاه. وفي أغلب الأحيان قامت الماركسية بإحياء وضعية تجعل من نفسها وريثة مفكرى اليونان الكبار وقدمت لبعض المثقفين القلقين صورة ثابتة ومنسجمة للنظام العقلي للعالم. وكانت مدرسة فرانكفورت هي المكان الافضل لهذا الخليط من الحنين لنظام العالم والنقد الإجتماعي جامعاً بين التقدمية السياسية والتقليدية الثقافية.

هاتان المرحلتان لأزمة الحداثة : نفاذ الحركة المبدئية في التحرر وفقدان المعنى في ثقافة تشعر أنها حبيسة في التكنيك والفعل الاداتي ، قد أدتا إلى مرحلة ثالثة أكثر

جزرية لأنها لا تنتقد إيقاع الحداثة ولكن تنتقد أهدافها نفسها. فقد لاحظنا بوضوح منذ الفصل الاول لهذا الكتاب ان إختفاء الاسس غير الإجتماعية للأخلاق قد أدى لإنتصار الأخلاق الإجتماعية. فليكن كل منا مواطن صالح وعامل صالح وأب صالح أو ابنة صالحة. وفكرة الحق لا تنفصل عن فكرة الواجب، رغم أن المشرعين قد قرروا عدم الحديث عن الواجبات فى إعلان حقوق الانسان والمواطن. ولكن هذا المجتمع الذى ينبغى أن يخدمه كل شخص أليس هو الإرادة العامة التى يتحدث عنها روسو والتى ينبغى أن يرتبط بها المشرعين أى الدولة؟ كيف لنا أن لا نعتقد أن كل شئ مختلف عن أجزائه ويميل للسيطرة عليها؟ وكيف لنا ألا نرى أن المجتمع، وفى المحل الأول منه الدولة، يفرض منطق الواحد على حياة إجتماعية هى عبارة عن شبكة من العلاقات الاجتماعية وبالتالي هى مجال للتعددية؟ من مازال يؤمن بتطابق مصلحة الدولة ومصلحة الافراد وباتحاد الانسان والمواطن فى الماهية؟ وإلى الفصل بين الكنيسة والدولة ينبغى إضافة فصل أكثر أهمية وأكثر جزرية وهو الفصل بين المجتمع والدولة وهو ما يعنى إستبعاد فكرة المجتمع نفسها كنظام أو كجسد إجتماعى وتأكيد التعارض بين فكرة المجتمع وواقع الحياة الاجتماعية المفتوحة والمتغيرة والمتعددة. يجد الفكر الإجتماعى، عندما يمر بهذه الانتقادات الثلاثة للحداثة، نفسه فى نقطة البدء. وقد دأبت الدفعة التحررية للحداثة أن تعارض الإرادات التى تنتجها القواعد والقوانين بالبداهة الحقيقية غير الشخصية أى بحقيقة العلم وأيضاً بحقيقة النجاح الاقتصادى والفاعلية التكنيكية. جذبت روح الحداثة، ضد الانبياء والغزاة، من يتعاملون بحذر مع الانظمة ويريدون اكتشاف آفاق جديدة لم تكتشف بدلا من بناء عالم جديد ويريدون العيش فى عالم يتسم بالبحث أكثر مما يتسم بالتيقن أى يتسم بالحرية والتسامح أكثر من إتسامه بالنظام والمبادئ. ولكن ها هى الحداثة تبدو كأداة للسيطرة وللاندماج والقهر، وقد أدان فوكو وآخرون نزوع المجتمعات الحديثة إلى توسيع مجال فرض الاخلاق. لا يتعلق الأمر البتة بعدم إطاعة أوامر الدركى ولكن بالايمان بها، وضبط المشاعر والرغبات وفقاً لقواعد النجاح الإجتماعى وقواعد الصحة الإجتماعية المصاغة غالبا باسم العلم. إذا كانت

الحدثات تعبر عن نفسها بواسطة قدرة كبرى لتأثير المجتمع على ذاته، ألا يعنى ذلك أنها مزودة بالسلطة أكثر من كونها تحقيقاً للعقلانية. وانها تعبير عن قيود أكثر من كونها تحريراً؟ يشعر الفكر الإجتماعى من الآن فصاعداً أنه سجين حدثات يخشاها. وتسعى بعض إتجاهات الفكر إلى تغيير تعريفها: وأخرى ترفضها قلباً وقالباً وتجهد نفسها فى محاولة لإيقاف التاريخ، أو على الأقل تحاول إعطاء الأولوية للتوازن على التقدم، وتغرق بعض الاتجاهات فى الحدثات المتطرفة، التى من فرط تسارعها تتزع، فيما يعتقدون، إلى إلغاء نفسها. ولكن تبقى هذه الربود هامشية نسبياً. ويقود نقد هذه الحدثات إلى تفجير هذه الفكرة بصورة أكيدة بدلاً من السعى إلى إحلال فكرة أخرى محلها.

هذا التفكك هو ما ينبغى وصفه إذا صحت هذه الفرضية، بما أن مجال فعلنا الاجتماعى والثقافى ينبغى فهمه على أنه مجموع الشذرات المفككة للحدثات. والثقافة التى يمكن أن نسميها ما بعد حدثية، إذا كانت هذه الكلمة تستخدم اليوم لتسمية عدد محدود من الأفكار، ليس لها مبدأ مركزى يمكن الكشف عنه، إنها تجمع اتجاهات مختلفة ويبدو انها تهيم فى كل واد. ما هو المشترك بين المظاهر المتنوعة للثقافة والمجتمع اللذين يتطوران منذ منتصف القرن التاسع عشر؟ هل هناك موضوع مركزى فى أعمال ونتائج اكبر معارضى الحدثات، أولئك الذين سيطر عملهم، مع فكر ماركس، على أكثر من قرن من الحياة الثقافية: وهم نيتشه وفرويد؟. مع الأسف خلف لعبة المرايا kalidoscope الثقافية هذه يمكن أكتشاف وحدة لمسار تفكك الحدثات، ولنبدأ بوصف هذا الانفجار .

شذرات أربع

١- رد الفعل المعادى للحدثات الأكثر عمقا هو الذى يقاوم بكل شدة إرادية السلطات التحديثية. فى بداية الحدثات، كما رأينا، كانت هناك النزعة الروحية المسيحية وإنحيازها لنظرية الحق الطبيعى، تلك النظرية التى شكلت العائق الأساسى فى وجه السلطة السياسية. ولكن إذا كان الله غائبا فلمن يتم التوجه ضد غزو السلطة

الاجتماعية، إن لم يكن إلى الشيطان؟ الانسان، الذى خلقه الله، ولكنه يحمل فى تكوينه حرية الخالق، قد حل محله الكائن نو الرغبة. فالأنا ليس إلا غلاًفاً للعقل الباطن، للجنس، الذى يسعى لأن يجدد طاقته الحيوية بتخطيه للعوائق التى وضعتها الاعراف الاجتماعية وممثلة الاخلاق. والانثروبولوجيا الجديدة حدثية لأنها تدفع بالنضال ضد الدين وتحديد المسيحية إلى حده الاقصى، وهو الموضوع الرئيسى فى كتابات نيتشه وفرويد، ولكنها فى نفس الوقت معادية للحدثية باعتبارها تستبعد الوجود التاريخى للانسان لصالح طبيعته الانثروبولوجية ، وهو النضال الأبدى بين الرغبة والقانون.

ظهرت الحياة الخاصة، بالأخص فى بريطانيا العظمى وفرنسا فى نهاية القرن الثامن عشر خارج الحياة الدينية والتى كانت قد تمكنت داخلها من الحصول على استقلالها عبر الإصلاحات الدينية البروتستانتية والكاثوليكية، بفضل الاهمية المعطاة للتقوى والاعتراف. ثم سرعان ما صارت علمانية؛ وتحول الاعتراف بالخطيئة إلى استشارة سيكولوجية، ثم بعد ذلك إلى تحليل نفسى. وفقد الأنا السيطرة على الحياة النفسية. إن ما يدمر تماماً فكرة العقلانية عن الوعي، هو الاعتراف بما أسماه نيتشه الهو تلك الكلمة التى انتقلت إلى فرويد عبر جرودك Groddeck وأكد فرويد نفسه هذه الاستدانة.

٢- لا يمكن أن نختزل إقتصاد الإستهلاك إلى أنثروبولوجيا الرغبة لأنه مرتبط ارتباطاً وثيقاً بالترشيد الصناعى. لقد حاز جان فوراستى Jean Fourastie وكولان كلارك Colin Clark الشهرة بقياسهما التطورات الاخيرة المتسارعة للانتاجية التى لم يعيرها إقتصاديو القرن التاسع عشر الإهتمام الذى تستحقه. فمنذ نهاية القرن التاسع عشر إنقلبت مجتمعاتنا من التوازنات المستقرة أو الدورات الطويلة المدى إلى النمو. وتصبح صورة الإقلاع (take-off) تعبيراً مجازياً مناسباً عن هذا التحول. فبينما وطوال قرن من الثورة الصناعية، لم يتغير الاستهلاك ونمط الحياة بشكل عميق فى البلاد التى فى طريق التصنيع، من نهاية القرن التاسع عشر إلى نهاية القرن العشرين، ورغم

الازمات والحرب انقلب حال الاستهلاك وفي نفس الوقت تقلص الحيز الذي يشغله العمل في الحياة تدريجياً بفضل تخفيض فترة العمل السنوى وإطالة سنوات الدراسة ووضع سن للتقاعد. الاقتصاد الحديث في طور التكوين protomodern الذي كان إقتصاداً للانتاج قد سادته الروح العلمى والتكنيكى، والإقتصاد الذى يحدده الانتاج والاستهلاك الضخم يسوده السوق والتسويق. تغير هائل بعد الحرب العالمية الثانية صار يرمز له بإنتصار ألفريد سلوان Alfred Sloane وشركة جنرال موتورز، اللذين يهتمان بطلبات الزبائن، على فورد بطل الترشيده الصناعى والذى نعرف عبارته الساخرة: "يمكن للزبون أن يختار لون سيارته على شرط ان تكون سوداء". لا يمكن للعقلانية من الآن فصاعداً إلا ان تكون أداتية بما أنها مسخرة لخدمة طلب يعكس البحث عن رموز تعبر عن المكانة الإجتماعية أو الرغبة فى الاغواء أو الولع بالغريب، كما يعكس البحث عن أجهزة تحل محل العمل أو تسمح بالانتقال السريع أو أغذية مضمونة الجودة وسريعة التحضير.

٣- فى مجال الانتاج تحتل فكرة التنظيم المكان الاكبر. وإذا كان نجوم الرأسمالية فى القرن التاسع عشر هم أصحاب البنوك وخصوصاً عائلة بريير Pereire، فقد فرض المنظمون ورؤساء الشركات أنفسهم فى نهاية القرن، فى الولايات المتحدة فى البداية. وكانت سنوات 1920. فى ألمانيا أساساً هى سنوات الترشيده والنقابات، وتكيفت النقابات فى الولايات المتحدة وفرنسا وألمانيا، على هذه الموضوعات الجديدة : الانتاجية والتaylorية. وأحتلت المؤسسة الانتاجية، كمركز لصناعة القرار اليوم، نفس المكان الذى كانت تحتله من قبل الرأسمالية كمركز لتعبئة المصادر المالية والبشرية. وانتقلت الصراعات الإجتماعية إلى داخل المؤسسة الانتاجية لدرجة إتخاذ إحتلال المؤسسة كسلاح فى الصراعات كما حدث فى الولايات المتحدة وفى فرنسا من زمن الجبهة الشعبية. ويبدو فى نهاية القرن العشرين أننا قد عدنا لمملكة رأس المال المالى، ولكن بعض المراقبين مثل ليستر ثورو Lester Thurow وميشيل ألبرت Albert Michel يندبون، عن حق، بخطأ من ينسون الدور المركزى للمؤسسة الانتاجية.

٤ - تختلط الصراعات الإجتماعية غالباً بالصراعات القومية. فهذه الصراعات القومية تزعم أيضاً أنها تحديثية، مثل الاتحاد الجمركي (Zollverein) الذي خلق سوقاً مشتركة للدول الألمانية وأعد التطور الاقتصادي مع الوحدة السياسية لألمانيا التي تحققت عام 1871. وبالإضافة إلى ذلك أعادت الحياة إلى فكرة الهوية الثقافية. إن الدفاع عن اللغات القومية أساسى فى حركة القوميات والتي ظهر إنتصارها فيما بعد فى بعث اللغة العبرية فى دولة إسرائيل الجديدة. كل قومية تسعى لتحديد وتوسيع اراضيها، وتخلق لنفسها رموزاً للهوية الجماعية وتتسلح وتكون لنفسها ذاكرة جمعية. هذه الحركة تتسم بالعمومية : حتى بريطانيا العظمى وفرنسا اللتان كانتا تتحدان طوعاً بما هو كوني فى الحداثة الاقتصادية والمؤسساتية والسياسية، قامتا فى هذه الفترة بتدعيم الوعي بهويتهم القومية.

إنفصلت الأمة عن العقل وحاز الاستقلال الاولوية على التحديث. ولكن هذا الهدفان ظلا متحدين فى ألمانيا وإيطاليا واليابان فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر، هدف الاستقلال الوطنى أصبحت له السيادة فى جزء كبير من العالم فى القرن العشرين، لدرجة أنه تحالف بسهولة مع الاصولية الشعبية أكثر من ليبرالية البرجوازيات الجديدة أوحى مع إرادية أجهزة الدولة.

الوحدة الخفية

هذا العرض السريع للقوى الاساسية التى سيطرت على المسرح الإجتماعى والثقافى خلال القرن الماضى : الجنس والاستهلاك السلعى، والمؤسسة الإنتاجية والأمة ليس إلا مجرد حصر أولى، يوجه انتباهنا إلى التنوع الظاهر فى هذا المسرح الذى لم يعد يمكن أن يسمى مجتمعاً. ألم يكن لدينا إنطباع بأننا نحيا فى عالم ممزق أو فى اللا مجتمع بما أن الشخصية والثقافة والاقتصاد والسياسة تبدو أن كل منها تذهب فى اتجاه مخالف يبعدها عن الأخرى. فلنحاول أولاً أن نضع شئ من النظام فى هذا الاضطراب الظاهر، قبل أن نستكشف بالتتابع هذه المجالات الأربع، لا لكى نرسم

صورة لمجتمع جديد ولكن على العكس لكى يظهر أن كل هذه القوى الاجتماعية أو الثقافية تنتج عن تفكك الحداثة الكلاسيكية.

كيف نحدد وضع كل منها بالنسبة للأخرى فالجنس والاستهلاك السلعى والمؤسسة الانتاجية يعتبرون المكان الاساسى للصراعات الاجتماعية والامة أو القومية؟ إن ما يبدو واضحاً للعيان هو انفصال نظام التغير عن نظام الوجود وكانا مرتبطين من قبل فى فكرة الحداثة التى كانت تعنى العقلانية والفردية فى وقت واحد. وتتزايد المسافة بين التغيرات المستمرة للانتاج والاستهلاك وبين الاعتراف بشخصية فردية، تلك الشخصية التى تجمع بين الجنس والهوية الثقافية الجمعية. وبدلاً من أن يزول الواقع الاجتماعى والثقافى شيئاً فشيئاً أمام شفافية الفكر العقلى، قام هذا الواقع بغزو مجال الحداثة من جانبيه. ولا نرى أى مبدأ قادر على توحيد القوى المتنوعة التى ما فتأت تشغل عالم الحداثة المتحطم. والقرن الطويل الممتد من منتصف القرن التاسع عشر إلى منتصف القرن العشرين وحتى إلى ما بعد ذلك، هو قرن تحطم العالم العقلانى. ولم يتم ذلك عن طريق تغييره بمبدأ آخر يقوم بعملية التوحيد ولا بنموذج أكثر إتقاناً.

ونرى ببساطة فى المستوى الثانى أن الأمر الشخصى ينفصل عن الامر الجماعى. فمن جانب يوجد الجنس والاستهلاك السلعى وفى الجانب الآخر توجد المؤسسة الانتاجية والامة.

وتتماسك هذه الثنائيات بسهولة. فبعد الأمل فى تحديث منسجم وفى إنتصار أنوار العقل وقوانين الطبيعة التى تقضى على أوهام الوعى وأكاذيب الايديولوجيات ولا عقلانية التراث وعلى الامتيازات، جاء الاعتراف المفاجئ بالقوى التى يغير تنوعها المجال الاجتماعى والثقافى. لقد أستبدلت فكرة الفعل التحديثى بفكرة الحداثة ؛ فالفعل التحديثى يعبئ قوى غير حدائية؛ إنه يحرر الفرد ويحرر المجتمع الذى مازال حبيس القوانين غير الشخصية للعقل بعد أن كان حبيس القانون الإلهى .

تغيير	وجود	
استهلاك	جنس	فردى
مؤسسة إنتاجية	أمة	جماعى

ليس للمجال الثقافى والاجتماعى الذى نحيا فيه منذ القرن التاسع عشر أية وحدة. ولا يشكل مرحلة جديدة فى الحداثة، بل يمثل تفككها. فلم يحدث من قبل أن افتقدت حضارة مثل حضارتنا هذه إلى مبدأ مركزى، بإعتبار أن أياً من الأديان الكبرى لا يمارس أى تأثير حاسم فى هذه الثقافة العلمانية التى يكون فيها الفصل بين الكنيسة والدولة مبدأ جوهري. ولكن، فى نفس الوقت، لم يكن الحنين إلى الماضى أو إلى النظام المفقود ضعيفاً مثل هذه الأيام. أن عرضنا السريع لشذرات الحداثة المبعثرة قد أثبت أن كل شذرة تحمل محفوراً فى داخلها علامة الحداثة الإرادية. وهذا واضح من جانب العناصر التى تحدد المجتمع الجديد للإنتاج والاستهلاك: وظاهر فى جانب النزعات القومية. ولكنه أكثر غموضاً فى جانب مفكرى العقل الباطن الكبار مثل نيتشه وفرويد وهما من أعداء الحداثة اللادودين ولكنهما بقيا عقلانيين يعتقدان فى إمكانية تحرير الانسان من القيود التى خلقتها الثقافة الأخلاقية.

ولهذا لا أرى تسمية تصلح أن تطلق على هذا المجموع التاريخى سوى "ما بعد الحداثة". هذا التعريف الذى يبدو مفارقاً يمكنه أن يخفف من التفاؤل المتعجل ويذكر بأن هذا القرن المسمى بقرن التقدم قد نُظر اليه، فى أوروبا على الأقل، على أنه قرن الأزمة وفى كثير من الأحيان قرن الإنحطاط أو الكارثة. ألم يرافق الدفعة الكبرى للتصنيع الغربى وعلى الأخص فى ألمانيا وفيينا فى نهاية القرن التاسع عشر حركة ثقافية واسعة لنقد الحداثة؟ ثم بعد ذلك بنصف قرن، عندما جاءت الفترة التى يسميها جان فوراستي "الثلاثين المجيدة" ألم يسودها فى فرنسا الفكر المعادى للحداثة والمتشائم جداً لأتباع نيتشه، وعلى رأسهم ميشيل فوكو Michel Foucault ، بعد أن

تأثر هذا الفكر بالنقد الجذري لجان بول سارتر؟ من المستحيل أن نجد في فرنسا مثقفاً واحداً ذا شأن يكون قد تغنى بالحدثة، وحتى ريمون أرون Raymond Aron نفسه، وهو أقرب من يلعب هذا الدور، قد أقر دائماً بأولوية مشاكل الحرب والسلام على مشاكل الانتاج والتوزيع. ولأنه كان مفكراً سياسياً أكثر منه عالم إقتصاد، لم يستطع أن ينأى بنفسه عن التشاؤم السائد الذي كان يبرر في نظره الحرب الباردة وتزايد الأنظمة الشمولية. أن تصورنا لهذا القرن بشكل يشعر بالرضى يتناقض بشكل صريح مع التصور الذي بلوره المفكرون والكتاب نوى الشأن، من توماس مان إلى سارتر. فصم العرى هذا بين التصرفات والمعنى وبين الإقتصاد والثقافة يحدد على أفضل وجه أزمة الحدثة. في أثناء القرن التاسع عشر، قرن الحدثة المنتصرة عشنا وتأملنا نموذج المجتمع القومي والطبقي من الداخل. وانتهينا من ذلك لنبرز التعبير الملموس للحدثة. وأكدنا، طبقاً لصيغ متنوعة حسب البلاد، على أن الإقتصاد والمجتمع والوجود القومي ترتبط فيما بينها كأصابع اليد الواحدة، وأن التعبير، والخبرة الجماعية كانت تتسم بالوحدة الأساسية وكنا نسميها طوعاً "المجتمع". ويبين لنا، تالكوت بارسونز Talcott Parsons أفضل من أى شخص آخر، كيف أن السياسة والإقتصاد والتربية والعدالة تشكل الوظائف الرئيسية الأربع للجسم الإجتماعي. كانت الحدثة تتحدد بمظاهر عدة مثل زيادة التبادلات، وتنمية الانتاج، والاشتراك الواسع في الحياة السياسية وتكون الامم والدول القومية. يمنح الفرنسيون لإرتباط هذه المظاهر وتواجدها معاً قوة البداة، في حين أن الولايات المتحدة تعطى لهذا الارتباط شكلاً طوعياً وبالتالي قانونياً، ولدى الألمان يتخذ مضموناً ذا طابع نبوي وثقافي.

بعد قرن من الزمان، يشدد أغلب المثقفين، من اليمين إلى اليسار، على ما يسميه دانيال بل Daniel Bell "التناقضات الثقافية للرأسمالية"، وعلى التعارض المتزايد للقواعد التي تدير الانتاج والاستهلاك والسياسة. ما زالت فرنسا تعتقد، في نهاية القرن العشرين، في صورتها كأمة جمهورية وكونية وتحديثية، تلك الصورة التي ما يزال بعض المثقفين والسياسيين، الذي لا يجدون أذاناً صاغية، يتمسكون بها؟ وما نسميه بأزمة

التعليم، ألا يعنى، قبل كل شىء، الاعتراف بهذه التناقضات الثقافية وتفكك نظام القيم والقواعد التى كان من المفترض أن تنقلها المدرسة والاسرة وكل هيئات تشكيل المجتمع إلى الأعضاء الجدد فى المجتمع؟ والوعى القومى الذى كان هو الوجه الآخر للتحرر الثورى يتعارض معه اليوم، وكان القرن العشرين على حق عندما ربط بين القومية ومعاداة التقدم، عسى ذلك يمكننا من فهم آخر من تبقى من اليعاقبة اليعاقبة إلى ليين عندنا. إن الاستهلاك الضخم هو بلاشك أحد المحركات الرئيسية للنمو الإقتصادى، ولكن من يستطيع أن يقول أن آثاره إيجابية على طول الخط، وفى الوقت الذى تتزايد فيه تحذيرات أنصار البيئة، ومن يجرؤ على التغنى بالترشيد كما فعل تايلور منذ مائة عام؟ كل شذرة من الشذرات المنفرطة تحمل فى داخلها علامة الحداثة وعلامة أزمتها معاً. وكل شىء فى ثقافتنا وفى مجتمعنا يتسم بهذا الإلتباس. كل شىء حديث ومعادى للحديث، لدرجة أننا لا نبالغ لو قلنا أن العلامة الأكيدة للحداثة هى رسالة العداء للحداثة التى تبثها الحداثة والتى تتسم بالنقد الذاتى والتدمير الذاتى، وهى طبقاً لعنوان بودلير «جلاد نفسه heautontimoroumenos»، وكان هو أول من أطلق موضوع الحداثة مع تيوفيل جوتييه. الحداثة، بالنسبة إليه، هى حضور الأبدى فى الآن والمؤقت. هى الجمال الموجود فى الموضوعة التى تتغير فى كل فصل من الفصول. وهو تحديد يحمل فى داخله الشعور بأن الأبدى سينتهى بالتحلل فيما هو آتى، كما يحل الحب فى الرغبة، وذلك حتى لا يمكن ادراك الأبدية إلا فى الوعى بغيابها وفى قلعة الموت.

الصورة التى شرعنا فى رسمها ينبغى لها أن تكتمل. والنموذج الشامل للحداثة ذى الإبعاد الثقافية والاقتصادية والسياسية عندما تتفكك فى الجنس والاستهلاك والمؤسسة الإنتاجية والأمة – يختزل العقلانية إلى كونها من البواقى: العقلانية الآتية التكنيك باعتبارهما بحثاً عن الوسائل الفعالة للوصول لأهداف تفلت بذاتها من معايير الحداثة لأنها تنبع من قيم إقتصادية وثقافية، أى من إختيارات تمت بناء على معايير بعيدة عن أى سند من العقلانية. فالتقنية توضع فى خدمة التضامن الإجتماعى وفى نفس الوقت فى خدمة القمع والبوليس والإنتاج الضخم، وأيضاً فى خدمة العدوان العسكرى والدعاية والإعلان، بصرف النظر عن مضمون الرسائل التى يتم إرسالها. وهذه التقنية لاتناقش لأنه واضح بالنسبة للأغلبية أنها لا تفرض أى إختبار يتعلق بغايات الفعل.

ومع ذلك استنكر العديد من المثقفين، إستكمالاً لموقف فيبر، سيطرة الأدوات وعبادة التكنيك والفعالية. هذه الانتقادات تقوم على الوعي بإنحطاط العقل الموضوعي، وعلى إنهاء الرؤية العقلانية للعالم، سواء أمرنا بها إله عاقل يضمن لعقلنا القدرة على فهم قوانين العالم أم لا. ولكن هذه الانتقادات تفتقد لأي أساس عندما تسعى لأن تعطي لنفسها مضمونها إجتماعياً وسياسياً. وعلى نفس الدرجة من الضعف والهشاشة كان استنكار التكنوقراطيين. وكأن سيطرة العقلانية التكنيكية كبيرة لدرجة أنها أصبحت تتوب عن كل غائية.

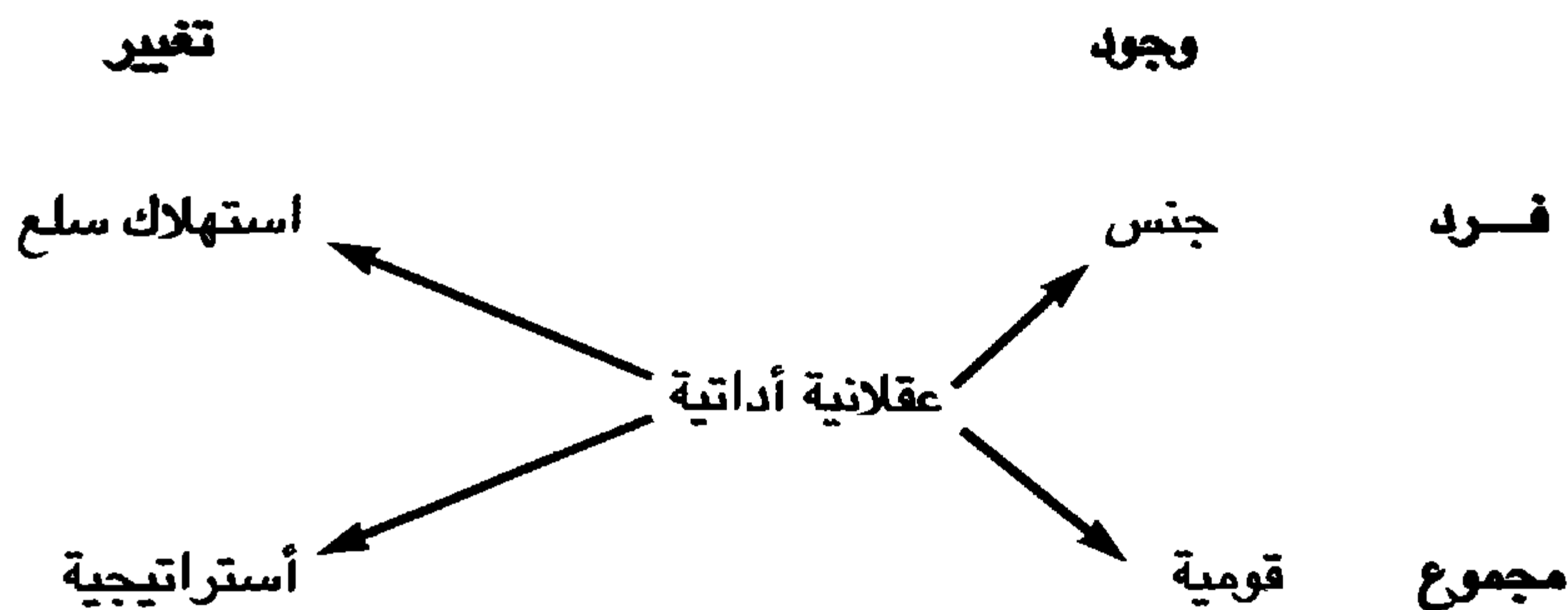
من السهل جداً شجب الحضور الكاسح للتكنيكيين، ومن الخطير الاعتقاد بأنهم يديرون عالماً يكون الحكام فيه مهندسين للنفوس والمجتمع. إن عالم التكنيك وعالم الوسائل يبقى ملحقاً بعالم الغايات الشخصية أو الجماعية لدرجة أن الصلة قد انقطعت بين العقل الموضوعي والعقل الذاتي ؛ ولم يعد التكنيك لا مسخراً فقط لرؤية عقلانية للعالم ولأوامر إله فيلسوف أو رياضي.

إن شجب التكنيك هو شكل خاص من الحنين للوجود . إنه يغذي كل الايديولوجيات التي تريد أن تعزى لواحدة من الشذرات المنفرطة للحدثة دور المبدأ المركزي للعالم الحديث. فبالنسبة لإحدى هذه الايديولوجيات يكون كل شئ قومياً ، وينبغي خلق تجمعات مقفلة على ذاتها ترفض أي عدوان أجنبي؛ وبالنسبة للثانية يكون الأمر على العكس تماماً، فالتقاليد والدفاعات القومية ينبغي إزاحتها لتسهيل عمليات المؤسسات الانتاجية العابرة للقوميات التي تنشأ في كل مكان تكتيكها ومنتجاتها؛ وتنادى أخرى بأن يحل السوق محل أي مبدأ للتنظيم الإجتماعي؛ وترى الأخيرة أنه ينبغي أن نلقى بأنفسنا في لذة جنسية شاملة قادرة وحدها على أن تجمع البشر في عبادة ديونيزية ينشرها التلفزيون وشرائط الفيديو.

فى مواجهة هذه الفوضى الثقافية المترتبة على انفراط الحداثة يمكننا أن نتساءل عن إمكانية إعادة بناء عالم ثقافى متماسك. وسأحاول أن أقوم بذلك، والجزأين الأولين فى هذا الكتاب ليسا إلا أعمالاً تمهيدية لهذه المحاولة. ويمكن أيضاً إعلان التحيز والقبول بالتعددية الأساسية للخبرات والقيم، والاقتصار على تنظيم مجتمع مبنى على التسامح والتعددية والبحث عن الأصالة. إن الاستناد إلى العقلانية الأداتية، مهما كان ضعيفاً، يلعب دوراً رئيسياً فى منع كل واحدة من شذرات الحداثة المنفرطة من قطع روابط الإعتماد المتبادل بينها وبين الأخريات ويمنعها من الاعتقاد بأنها مختلفة تماماً عن الأخريات، وأنها ذات سيادة وبالتالي عليها أن تقوم بحرب مقدسة ضد الأخريات.

تقوم العقلانية الأداتية بالحد من مزاعم السيطرة لكل من هذه الإتجاهات الثقافية وتمنعها بذلك من أن تتحول إلى قوى إجتماعية باحثة عن الهيمنة السياسية. يوجد فى أحسن الأحوال فراغ فى القيم فى المجتمع ما بعد - الحديث، فى مجتمع الأمس وأكثر منه فى مجتمع اليوم، ويؤمن فراغ القيم هذا استقلال العقلانية الأداتية ويسمح بحماية فراغ السلطة فى مركز المجتمع والذي يجعله كلود لوفور، عن حق، الأساس الاول للديمقراطية.

يمكننا أن يتخذ إنفراط الحداثة الشكل التالى:



المؤسسة الإنتاجية

فلنذكر بأن هذا الشكل ينبغي أن يُقرأ بطريقتين تكمل كل منهما الأخرى. إنه يصف إنفراط الحداثة وبالتالي يبين قائمة القوى التي تميل إلى أن تصير معادية للحداثة، كما تقول باستمرار وبقوة كل أشكال الفكر النقدي أياً كانت توجهاتها: في الجنس كما في الاستهلاك هناك إستنفاد وتدمير؛ وفي سياسة المؤسسات الإنتاجية ينحوا الربح والقوة إلى سحق وظيفة الإنتاج؛ والقوميات، ككل نزاعات الاختلاف والتميز، في داخلها الحرب. وكل عنصر من هذه العناصر، كما قلت، يحمل أيضاً في داخله مطالبة بالحداثة؛ فاستقلال الأمة هو شرط التنمية الاقتصادية؛ والجنس يعارض القواعد التي تهدف إلى الاندماج الاجتماعي وإلى إعادة الإنتاج الثقافي. والاستهلاك يصون انتاج المؤسسات الكبرى ويسمح بإشباع الطلب الذي يزداد تنوعاً كل يوم. تتطوى هذه الوظيفة التحديثية كل مرة على تحالف مع العقلانية الأداتية. في حين أن الهجمات ضد التكنيك ترتبط بتوجهات معادية للحداثة وأصولية نابعة من كل واحدة من شذرات الحداثة المنفرطة.

ولكن هذا التاكيد لا يمكن أن ينبو عن البحث عن مبدأ ثقافي مركزي يسمح بإعادة بناء مجال ثقافي مندمج، ولكن يعين حداً لا يمكن تجاوزه بأي حال: إذا لم يكن الترشيح هو المبدأ الذي تقوم عليه ثقافة مندمجة فإنه لا يمكن قيام وحدة لهذه الثقافة ضد الفكر والفعل العقليين. تؤدي العقلانية إلى إنفراط شديد، وإلى انفصال كامل للعناصر التي كانت مندمجة قديماً في نموذج العقلانية الموضوعية. ولهذا السبب كان شجب التكنيك خطيراً وغذى الافكار الشمولية أكثر مما غذى الافكار الليبرالية والفوضوية.

يمكن أن نشجب سيطرة الربح أو السياسات العدوانية أو تدمير البيئة أو تحويل الجنس إلى سلعة. ويمكن في كل مرة قيام حوار وتبادل للحجج. ولكن شجب التكنيك لا يجد تبريراً خصوصاً وأنه لم ينجح ابداً في اثبات أن الوسائل قد حلت محل الغايات في المجتمع الحديث. وقد دافع بعض المهندسين، ولا سيما في أوقات الأزمة، عن التكنوقراطية، ضد الرأسمالية وأيضاً ضد التقاليد الثقافية والاجتماعية التي تعتبر عقبات في وجه النمو. وهذا الفكر الذي وصل إلى ذروته في الولايات المتحدة ومع

ثورشتاين فييلن ، يستطيع ان يسود لأن المجتمع ليس مجرد ماكينة والدولة ليست مجرد بيروقراطية. إن ضعف مجتمعاتنا ينتج عن إختفاء الغايات التي دمرها المنطق الداخلي للوسائل التكنيكية، ولكن على العكس نتج عن تفكك النموذج العقلاني، الذي دمرته الحداثة نفسها، وبالتالي دمره التطور المنفصل لمنطق الفعل والذي لم يعد يستند على العقلانية: البحث عن اللذة، عن المكانة الإجتماعية، عن الربح أو عن القوة.

الفصل الثانى تدمير الأنا

ماركس ، مرة ثانية

قد يثير الدهشة وجود ماركس فى بداية هذا النقد الثقافى للحدائث نظراً لأننى كنت قد وضعته طبقاً للعرف فى الصف الأول من مفكرى الحدائث، فلقد سيطر على فكر ماركس رغبته فى أن يقلب فكر هيجل لى ينتمى إلى مجال ثقافى مختلف عن خصمه ومعلمه. ولكن عملية القلب هذه شكلت قطيعة مثالية مع فلسفات التاريخ. فلم يعد التقدم منظوراً إليه باعتباره إنتصار للعقل أو تحقيق الروح المطلق ولكن تحرير لطاقة ولحاجات طبيعية تقف فى وجهها أبنية مؤسساتية وأيديولوجية. والفصل بين الروحى والزمنى الذى حاولت المثالية التخلص منه قد عاد بقوة فى شكل متطرف لدرجة يتجاوز معها مجال المؤسسات والساحة السياسية نفسها: فمن جانب توجد الحاجات ومن الجانب الآخر يوجد الربح، وبين الاثنين لم يعد الأمر مجرد صراع يمكن حله بالتراضى : هو تناقض لايمكن تجاوزه إلا باللقاء الحاسم بين التمرد التحررى ونمو القوى المنتجة، وبين جماعية الانتاج والاشتراكية، حتى نصل فى النهاية إلى رد المجتمع إلى الطبيعة وإلى إزاحة العقبات التى خلقها الوعى. تعتبر فكرة الذات بالنسبة لماركس أيضاً هى خصمه الفكرى الأساسى. وبين الحاجات والارباح المتواجدة، يرى ماركس أن كل ما يأخذ صورة المجتمع أو الشخصية، نموذج المجتمع أو النموذج الانسانى، ذاتية فردية أو جماعية كلها ما هى إلا حيلة للبرجوازية. الوعى دائماً وعى زائف. وهو ما يبرر دور المثقفين الثوريين، الذين لا يعتبروا مندوبين للوعى ولكنهم يفكون شفرة قوانين التاريخ، ولهذا يظل ماركس ذا نزعة تاريخية : الحياة الإجتماعية ما هى إلا الصراع بين القيمة الاستعمالية والقيمة التبادلية، بين قوى الانتاج والعلاقات الاجتماعية للانتاج.

وربما لأن كتابات ماركس كانت فى لحظة الذروة فى عملية البلترة، لم تفسح أى مجال للذات العاملة. فالاستغلال هو أن يدفع الرأسماليون أجراً للعمل المنتج يعادل السعر الأدنى الضرورى لإعادة إنتاج قوة العمل، والضرورى لبقاء العامل على قيد الحياة. وهو ما يجعلنا أسرى منطق اقتصادى محكم، لا يمكن للفاعل العمالى الجماعى أى الحركة العمالية أن تتدخل فيه. ويستبعد ماركس الحجة التى تقول بأنه إلى جانب العمال غير المؤهلين ذوى الأجر المنخفض، يوجد أيضاً عمال مؤهلون يحتل بعضهم موقعاً مرتفعاً فى سوق العمل وهم الذين يخلقون الحركة العمالية. هذا النموذج للعامل المؤهل، والذي يبدو لى أنه لا غنى عن وضعه فى قلب كل دراسة عن الحركة العمالية، قد أستبعده كارل ماركس الذى أكد بصورة قاطعة أن العمل المؤهل المعقد ما هو إلا توليفة من العمل البسيط غير المؤهل. هكذا ترتبط الموضوعات الماركسية الكبرى بعضها ببعض : قوانين للنمو التاريخى وحتمية تكنولوجية وإقتصادية؛ تناقض بين التاريخ الطبيعى للبشرية والسيطرة الطبقيّة؛ نقد الوعى كأحد آثار سيادة البرجوازية؛ غياب الفاعلين الطبقيين؛ وأخيراً وكنتيجة لكل هذه الموضوعات، يأتى الدور المحرك للمثقفين الثوريين المسلحين بعلم التاريخ.

يعتبر ماركس أول مفكر كبير ما بعد حدائى لأنه معادى للنزعة الانسانية، ولأنه يرى التقدم تحرراً للطبيعة وليس تحقيقاً لتصوّر أسمى عن الإنسان. ومفهومه عن الشمول يتنوع حسب النصوص وحسب مراحل حياته، ولكن هناك وحدة فى أعماله وهى المادية، وهو ما يعنى بالتالى النضال ضد النزعة الذاتية. وهذا هو الإرث السوسيولوجى الذى خلقه ماركس. إن الدعوة للوعى والفعل القصدى، وبصورة أولى، للقيم هى "برجوازية صغيرة" وليس لها أى وظيفة أخرى سوى إخفاء الاستغلال وإخفاء منطق الاقتصادى المحض. واليوم أيضاً يشعر الماركسيون أنهم أقرب إلى الليبراليين الذين يدافعون عن فردية منهجية متطرفة منهم إلى المصلحين الاجتماعيين ولم يتخلوا أبداً عن إدانتهم للاشتراكيين الديمقراطيين.

ما هو جوهرى فى هذا الفكر وفى نضاله ضد الاشتراكية الطوباوية أو ضد الهيجليين اليساريين يتمثل فى أنه يستبدل بالتمرد المنطلق باسم الذات الانسانية تحليلاً لتناقضات الرأسمالية ويتمثل فى معارضة هذه الرأسمالية لا بالقيم ولكن بالطاقة الطبيعية لقوى الانتاج - بما فيها العمل الإنسانى - وبضغط الحاجات التى تزدهر بحرية فى المجتمع الشيوعى، ذلك المجتمع الذى يتحدد بالمبدأ القائل لكل حسب حاجاته.

لهذا الفكر قوى سجالية وسياسية لا تضاهى، وتحديداً لأنه يهاجم بلا نفاق النزعة الأخلاقية لدى محبى البشر والمصلحين والطوباويين وخصوصاً لأنه يضع مغزى العمل السياسى بين يدي نخبة مضادة من الثوريين. فعندما انتصر المجتمع الفيكتورى فى منتصف القرن التاسع عشر، وعندما كانت روح المؤسسات التى تخدم الرأسمالية المنتصرة قد تحولت بنجاح كبير إلى قناعات أخلاقية وإلى قواعد لتنظيم الحياة الجماعية كان الفكر الماركسى حجراً ملقى فى الماء الآسن، لا يعرف الهدوء.

قد نعتقد أن فظاظة التصنيع الرأسمالى، والقطيعة الكاملة بين الاقتصاد والمجتمع هى التى تفسر السيادة الطويلة للماركسية على دراسة الحركات الإجتماعية وعلى الإصلاحات الديمقراطية فى أوروبا، وعلى الأخص فى البلاد التى وقفت فيها سلطة سياسية مطلقة بنجاح فى وجه التنظيم المستقل للحركة العمالية. لقد سحقت كل من الرأسمالية والدولة فى اتحادهما الفاعلين الإجتماعيين والديمقراطية بصورة عنيفة، لدرجة أن المجتمع الغربى لم يعد يدرك إلا كفاح العمل والانتاج ضد العنف والربح، كما أحال كل إشارة إلى إتجاهات الفعل إلى مملكة الأخلاق والفن.

نيتشه

بدا أن المجتمع الصناعى التى تشكل أولاً فى أوروبا ثم بعد ذلك فى أمريكا الشمالية قد أنقسم إلى قسمين بسبب الرأسمالية الفظة : فمن جانب، هناك عالم

المصلحة والفردية، الذى يشبهه شوبنهاور، من الناحية الجمالية، بحانة ملأى بالمخمورين، ومن الناحية الثقافية بمستشفى للمجاذيب، ومن الناحية الأخلاقية بوكر للصوص. ومن الجانب الآخر هناك عالم الرغبة المقطوع الصلة بعالم الحساب. لم يعد للعقل الأدوات المسخر لخدمة الانانية العطشى للتملك أى صلة بقوى الحياة وبالجسد وبالرغبة، تلك القوى التى لا يمكن إدراكها بالتمثيل ولكن بالحدس. هنا تصبح الثنائية الكانطية مأساوية. ويعتقد شوبنهاور أن الانسان بائس لأنه ممزق بين رغبته فى الحياة بصورة كونية وبين الحركة التى تجذبه إلى التفرد. ويرى الحل فى ضرورة الاختيار، التحرر من هذا التفرد، ومن مفهوم ليبرالى للحق يقتصر على أن يقلل من أن تطغى إرادات الآخرين على إراداتى، وهذا التحرر لا يتم لكى يترك الانسان نفسه رهن رغبته ولكن من أجل تخليص هذه الرغبة من نفسها، من التفرد، أى من أجل الانسحاب منها والوصول إلى النرفانا وكان شوبنهاور يهتم بالبوذية، كما كان ميالاً لطمأنينة quietisme مدام جويون (*) Mme Guyon. إن عدميته التزهدية تحرير لارادة الحياة بفضل الفن والفلسفة وتأمل الموت.

ومنذ بداية القرن التاسع عشر صدر كتاب "العالم كإرادة وكمثيل" فى عام 1818 وفيه إبتعد شوبنهاور عن عالم العقل والعلم والتكنيك، الذى يمثل بالنسبة له عالم الإنانية ونفى الحياة الإجتماعية. إبتعد شوبنهاور لا لكى يخلق نظاماً إجتماعياً مستحيلاً ولكن لكى يدعو إلى الحياة وإلى الرغبة، أى إلى ما هو غير شخصى فى الخبرة المعاشة، وليس إلى ما هو واعى وإرادى. ينبغى تدمير الذات وأوهام الوعى كما ينبغى الحذر من أوهام النظام الإجتماعى الذى يقتصر على حماية الشهوات الانانية. كيف لم يرفض الفكر والفعل النقيدين أوهام الأنا والفردية والنظام الإجتماعى، وكيف لم يدافع الفكر

(١) مدام جويون (1648-1717) متصوفة فرنسية كانت ترى الكمال فى حب الله وسكينة الروح، اجتمع حولها حلقة من الكاثوليك والبروتستانت، ينشدون الطمأنينة، قبض عليها واودعت سجن الباستيل ولم تنشر كتاباتها الغزيرة إلا بعد وفاتها.

الأخلاقي والإجتماعي الصارم، من شوبنهاور إلى برجسون عن الحياة ضد التكنيك وعن الاستمرار والحياة الجماعية ضد الانقطاع والفردية؟ لا جدوى من البحث عن الذات فى هذه الحركة الفكرية : فهى على العكس معادية لهذه الفكرة؛ ولكننا نجد فيها على الأقل تدمير الأنا ونقد الاتجاه إلى الفردية اللذين وإن كانا أبعد ما يكون عن بناء الذات إلا أن هذا البناء بدونهما يصير أمراً مستحيلاً.

يعارض نيتشه حل شوبنهاور وإن كان يتبنى نقده للفردية. أنه يضع نفسه فى قلب الحداثة ويطالب بتراث التنوير، ولا سيما فولتير، وذلك رفضاً للمسيحية . لقد انفصل البشر عن الآلهة ولكن هذه القطيعة ليست نهاية العالم، أنها تمثل تحرراً يفتح مرحلة جديدة وجريمة إغتيال فى أن: تركت القطيعة الإنسان محملاً بعقدة الذنب "الله قد مات"، كما قال نيتشه فى كتابه "المعرفة السعيدة" ويضيف "لقد قتلناه": ويستعيد قائلاً : "الله مات وبقي ميتاً، ونحن الذين قتلناه. كيف ننعم بالسكينة، نحن قتلة القتلة؟ كل ما كان العالم يمتلكه من مقدس ومن جبار حتى هذه اللحظة قد فقد دمه تحت طعنات خناجرنا. من سيمسح هذا الدم من على أيدينا؟ أى مياه رقراقة يمكننا أن تطهرنا تماماً؟ أى حفل للمغفرة وأى ألعاب مقدسة علينا من جديد إختراعها؟ ألا تتجاوزنا عظمة هذا الفعل؟ ألا ينبغي لنا أن نصبح نحن أنفسنا آلهة لكى نكون جديرين بهذا الفعل؟ ولم يحدث أن تم فعل بهذه الضخامة . ولكن من سيولد بعدنا سينتمى، بفضل هذا الفعل ذاته، إلى تاريخ أسمى من أى تاريخ حدث حتى الآن".

إن موت الاله يعين أيضا نهاية الميتافيزيقا، التى تتحدد بإعتبارها البحث عن الصلة بين الوجود والفكر وعن وحدتهما، هذا البحث الذى استمر من بارمنيدس وأفلاطون إلى ديكارت وسبينوزا.

وفى غمار القرن الذى سادته التاريخية، يضع نيتشه الصيرورة محل الوجود، والفعل محل الجوهر. ويمكن له ان يقول بالبراكسيس مع ماركس. إن قلب القيم

(Umwertung) الذى يعلنه يستبدل بالتكيف مع النظام العقلى للعالم تمجيد الارادة والعاطفة. "لقد قضينا على عالم الحقيقة فما هو العالم الذى بقى لنا؟ عالم المظاهر ربما؟ بالطبع لا ، فقد قضينا على عالم المظاهر مع عالم الحقيقة. الظهيرة لحظة للظل شديدة القصر، ونهاية للخطأ البالغ الدوام: إنها لحظة الذروة للإنسانية. هكذا تكلم زارادشت.(من كتاب "افول الأوثان"، فصل : كيف اصبح "عالم الحقيقة" أخيراً مجرد حكاية خرافية رقم ٦).

ليس هناك ما هو أكثر حداثة من هذه الكلمات الموجهة ضد كانط، كلمات يمكن أن ينطق بها أوجست كونت كمفكر يحتقر الميتافيزيقا. ولكن يوجد أكثر من طريق فى هذه الحداثة. والطريق الأكثر إرتياداً هو طريق النفعية التى يسميها نيتشه الفكر الانجليزى والذى يرفضه بمنتهى الصرامة ؛ فلا يمكن أن نعيش أسرى عالم الظواهر. والحضارة الفرنسية جديرة ايضاً بنفس الكراهية التى يحظى بها الفكر الانجليزى. لأن الحياة قد انسحبت منها وأصبحت موضوعات الثقافة تسبح فى الفراغ.

لو أدركنا ظهورنا لهذه الطرق التقليدية للحداثة، يمكننا، كى نقطع الطريق على النفعية ان نعود إلى الحق الطبيعى وإلى الفكر المسيحى جاعلين من فكرة الذات والديمقراطية موضوعاً أساسياً لتأملاتنا. ولكن هذا لم يكن إختيار أى من المفكرين الثلاثة الذين سادوا أزمة الحداثة : ماركس ونيتشه وفرويد. ونيتشه هو أبعدهم عن هذا الاختيار.

قدم نيتشه حجته الأساسية فى كتاب "أصل الأخلاق". يوجد أقوياء وضعفاء وسادة ومسودين وطيور جوارح وحملان. وبينهم علاقات مادية يغيب عنها أى عنصر أخلاقى، وهذه العلاقات هى علاقات الحياة نفسها، علاقات الأنواع بالأفراد. ولكن الضعيف يفسر قوة خصمه على أنها قسوة لكى يقلت من علاقات القوى التى ليست فى صالحه. ويدخل خلف أفعاله إرادة وجوهرأ. ومن هنا تتولد فكرة الذات اللاعقلانية والإصطناعية والتى

تشبه في ذلك فكرة الصاعقة التي يدخلها الجاهلون ليفسروا الشحنات الكهربائية، وتصبح هذه الصاعقة بدورها ذاتاً وتتخذ لنفسها وجه الإله جوبيتر. إن إدخال النية العامة والضمير كتفسير للسلوك هو أداة للدفاع في يد الضعفاء، ويدمر بالتالي نظام الطبيعة ويخلق ماهيات، هي مبادئ جعل منها أوجست كونت أساس الفكر القانوني والميتافيزيقي. ويقول جيل ديلوز Gilles Deleuze تحديداً [P : 44]. "لم يكن الوعي في يوم من الأيام وعياً بالذات ولكنه وعى الأنا بذات هي نفسها غير واعية. الوعي ليس وعى السيد، ولكنه وعى العبد في علاقته بسيد ليس من خصائصه أن يكون واعياً".

إن ما يهمنا هنا هو القوة التي يرفض بها نيتشه فكرة الذات، وخصوصاً المسيحية، دين الضعفاء، ويرفض من قبلها نزعة سقراط السيكولوجية وتلميذه يوربيدس الذي دمر روح التراجيديا اليونانية. ويكتب نيتشه في "أصل الأخلاق" (P 104): "مثل هذا الإنسان يحتاج للإعتقاد في "الذات" المحايدة كمجال للإختيار الحر، وذلك عبر غريزة للحفاظ على الشخصية، ولتأكيد الذات التي تسعى من خلالها كل الأكاذيب أن تجد تبريراً. ربما بقيت الذات (أو النفس كما نقول لغة العامة) حتى اليوم موضوع الإيمان الذي لا يهتز، وذلك لأنها تسمح للأغلبية الكبرى من البشر الفانين والضعفاء والمقهورين من كل نوع، بهذه الخدعة الرائعة والتي تهدف إلى التعامل مع الضعف على أنه حرية ووجودهم على هذا النحو على أنه جدارة".

وفي كتابه "فيما وراء الخير والشر" يركز نقده على فلاسفة الذات، وبداية على كوجيتو ديكارت : "أن ديكارت يقول "أنا أفكر" وهنا تحدد الذات الكلمة؛ هناك أنا يفكر، ويرى الحديثون العكس : "يفكر" هي التي تحدد و"الأنا" يتحدد. تكون "الأنا" حينئذ جميعة synthèse يشكلها الفكر نفسه".

ويرى نيتشه، مستخدماً الفاظاً قريبة من الالفاظ التي استخدمها فرويد، أن الوعي

بناء اجتماعى مرتبط باللغة والاتصال، أى مرتبط بالانوار الإجتماعية. ما هو أكثر شخصية وخصوصية هو أيضاً الأكثر إرتباطاً بالعرف والأكثر تواضعاً. والوعى، كما يقول نيتشه فى "المعرفة السعيدة"، ما هو إلا الشئ الأقل اكتمالاً والأشد هشاشة فى تطور الحياة العضوية. بحيث انه كلما إزداد الكائن وعياً كلما تعددت أخطاؤه وهفواته التى تؤدى إلى موته. كيف نمنع أنفسنا إذن من تذكر ماركس الذى يضع القوى المنتجة والخلاقة والمعبرة عن الحياة والطاقة فى مواجهة علاقات الانتاج وأبنية الوعى: ذلك الوعى الذى يعتبره وعى الطبقة السائدة؟

حتى هذه اللحظة كانت الحداثة - التى يتصورها نيتشه فى انتصار الوعى - هى إغتراب الطاقة الإنسانية المنفصلة عن نفسها والتى تعادى ذاتها بتماهايها مع إله ومع قوة غير انسانية، وتفرض على الانسان الخضوع لها. لقد قادت الحداثة إلى العدمية؛ وإلى استنفاد الانسان الذى انتقلت قدراته إلى العالم الإلهى بواسطة المسيحية، التى ليس لها من سمة تخصها إلا سمة الضعف، وهو ما يؤدى إلى انحطاطها واختفائها الذى لا مفر منه. إن قلب القيم يؤدى إلى رفض هذا الإغتراب وإلى استعادة الانسان لوجوده الطبيعى وطاقته الحيوية وإرادته فى القوة.

إن ما يسمح بالتححرر هو التخلّى عن المثل الأعلى، عن الله. وهو إنتصار إرادة الحياة على الرغبة فى الموت. ولكن الصراع لا يتوقف بين هذين القوتين المتعارضتين، لأن كل رغبة تحلم بتحققها وهذا ما يولد المثل الأعلى. وسوف يعيد ماكس فيبر فى نهاية القرن الماضى دراسة موضوع الزهد، الذى أهتم به نيتشه، مركزاً على الانتقال من الزهد خارج العالم إلى الزهد داخل العالم ليفسر نمو الرأسمالية أى نمو عالم الأغنياء والاقوياء وليس عالم الفقراء والضعفاء. ونيتشه، على العكس من فيبر، يضع بلا هوادة ارادة القوة فى مواجهة زهد رجال الدين والفلاسفة الذين يجنون الصمت والفقر والعفة. فيبر يضع نفسه فى العالم الاقتصادى والاجتماعى، ونيتشه يضع نفسه فى عالم

الفكر، إذ أنه يتهم الفلاسفة بأنهم صاغوا سلوكيات للإنسانية كلها تحبذ تصورهم للفضائل. ولهذا الاختلاف في المنظور بين نيتشه وفيير نتائج حاسمة. فالإنسان لدى نيتشه ليس إنساناً اجتماعياً كما هو الحال لدى فيير، ويبحث نيتشه عن نماذج في الماضي، في العصر اليوناني القديم وفي عصر النهضة الإيطالي حيث كانت الفضيلة هي أفضل تعبير عن إرادة للقوة مشحونة برغبة في المعرفة. لقد قتلنا الإله وبقيت عقدة الذنب تروى عطشنا للخضوع والخلاص. في حين أنه ينبغي لنا أن نتجاوز هذا الاغتيال لنذهب إلى ما وراء الخير والشر وأن نجد أو نخلق وجوداً طبيعياً متحرراً من أى زهد ومن كل أشكال الاغتراب، وذلك بفضل جهد هو رغبة وعقل في آن، وأيضاً سيطرة وتحكم في الذات، وعودة إلى ديونيسوس. كان هذا هو الموضوع الرئيسي لتأملات نيتشه الشاب عندما كتب "مولد التراجيديا" وكان يرى فاجنر Wagner تجسيداً لهذه العودة إلى ديونيسوس، وذلك قبل أن يقوم بعد بضع سنوات بشجب عودة فاجنر إلى الأخلاق المسيحية عندما ألف أوبرا بارسيفال. ويرى جيل ديلوز عن حق أن ديونيسوس يقف في مواجهة سقراط والمسيح وليس في وجه أبولون الذي يعتبر الوجه المكمل له بالضرورة. لأن ديونيسوس هو الحياة فهو إذن مبدأ يتجاوز الفرد.

لا يقلت نيتشه من النفعية الانجليزية إلا بتجاوز الفكرة المسيحية عن الذات، وبابتعاده عن التجريبية، وبإرتفاعه فوق مستوى الشخص. وما يجذبه إلى أسرار إليوسيس Eleusis هو "ملاحظة الوحدة بين كل الموجودات، واعتبار فكرة الفردية هي أساس الشر كله وأن الفن يمثل الشعور والامل المرح في أن يأتي يوم ينتهي فيه سحر التفرد وتعود الوحدة". حنين للوجود وعودة، فيما وراء الوعي وفي مواجهته، إلى الواحد الذي لا يمثل العالم الالهي ولكن عالم ما قبل الالهية، عالم الوثنية الذي كان الإنسان فيه إلهاً أو نصف إله؛ كان بطلاً. حضارتنا المحرومة من الأساطير، والتي دخلت في طور التفكيك، الذي تمثل فرنسا اسطع وأسوأ مثل عليه ؛ فالحضارة تسعى لأن تخلق لنفسها أسطورة مؤسسة تستنفذ جهودها للبحث عنها في الثقافات الماضية. ينادي "مولد

التراجيديا" بصورة مباشرة بلذة الحياة. "علينا أن نبحث عن هذه اللذة لا في الظواهر ولكن فيما وراء الظواهر... حيث نتحد فعليا، وللحظات قصيرة، بالوجود الحقيقي الذى قتلنا الظمأ اليه.. نذوق سعادة العيش بالرغم من الارهاب ومن الرحمة، لا كأفراد ولكن كمشاركين فى الجوهر الحى الفريد الذى يضمنا جميعاً فى لذته التى تخرج منها الحياة إلى الوجود".

بالنسبة لنييتشه هذه الأسطورة الديونيسية التى تقلت من ضغوط الحياة الإجتماعية والتى لا يمكن لها أن تظهر إلا عندما يختفى إتحاد شعب ما بحضارة معينة، هذا الاتحاد المتحقق تماماً وبصورة خطيرة فى فرنسا، لا يمكن لها إلا أن تكون أسطورة ألمانية. وذلك تحديداً لأنها لا علاقة لها بالوعى القومى ولأنها غير إجتماعية. فألمانيا منذ لوثر هى أرض الصيرورة وإرادة الوجود التى لم تكتف أبداً بالاشكال السياسية والإجتماعية، إن الروح الألمانية هى وحدها القادرة على النضال ضد التدهور الحديث، وضد إتلاف العنصر الأوروبى. من الصعب تفسير هذا الفكر البعيد عن القومية وعن البيروقراطية وعن العسكرية الدولية البسماركية. ونحن نعرف أيضاً أن نييتشه كان من الخصوم القلائل لمعاداة السامية، وهو ما يدعونا إلى تجنب أى خلط بين فكره وبين النازية التى كانت قد أعلنت إنتمائها اليه. إن نييتشه لا يتماهى بالأمة ولا بالشعب الألمانى إلا أن هذا الوجود Etre، هذا الواحد الذى يدعو اليه يتجلى فى التاريخ بواسطة إرادة شعب، وخصوصاً الشعب الألمانى الذى نهض بإمتعاض عميق ضد الأفكار الحديثة، كما يقول فى كتابه "فيما وراء الخير والشر". يعود نييتشه باستمرار إلى الشعوب السلافية كروسيا وبولندا التى تتحدر بعض أصوله منها، ولكنه يعود أساساً إلى الشعب الألمانى، نقيض الحضارة الفرنسية والفكر الانجليزى، هذا التعارض اقامه أيضاً تونيس فيما بعد. حيث يضع الجماعة فى مواجهة المجتمع مع بعض الحنين إلى حياة الجماعة والميل إلى القومية.

كان المجتمع والتاريخ يمثلان وجهين مختلفين لواقع واحد في نظر فلاسفة التنوير. بقيت هذه الفكرة بارزة في الفكر الفرنسي الذي يطابق بين إنتصار العقل من جهة والحرية من جهة أخرى. مثل هذا الحلف الجديد بين الزمنى والروحى لا يترك مجالاً لأى شئ يخرج عن إطار المشاركة فى التقدم المتجسد فى الأمة. أما الفكر الالمانى، والذي يعتبر نيتشه معبر أساسى عنه، فيفصل بين الأمة والعقلنة. ويهاجم نيتشه الإنسان المجرد والمحروم من الأسطورة البناءة، ويهاجم التعليم المجرد، والحق المجرد، والدولة المجردة باسم الاسطورة القومية، وباسم ما هو أعمق من إرادة جمعية أى باسم قوة الحياة لكائن تاريخى ملموس. ينادى فكر نيتشه بالوجود وبحركة تأكيد الأمة لذاتها. إن الدعوة إلى الوجود، فيما وراء الخير والشر، تؤدى إلى وحدة الحرية والضرورة. "أريد أن أتعلم أكثر فأكثر، أن أعتبر الضرورة فى الأشياء كالجمال فى ذاته. وبهذا أكون واحداً ممن يصفون على الأشياء جمالاً. حب القدر: فليكن هذا حبى من الآن فصاعداً" هكذا قال نيتشه فى "المعرفة السعيدة".

السوبرمان هو من يستطيع أن يرتفع إلى مستوى الحب القدرى. فهو من يعرف، طبقاً لكلام زاردشت، أنه يحتاج إلى أسوأ ما فيه إذا أراد أن يصل إلى أفضل ما فيه. بالطبع لا ينادى نيتشه بتحرير الغرائز ولكن إلى إضفاء الصبغة الروحية عليها، وتحويل الطبيعة إلى عمل فنى، والولوج إلى العود الأبدى. "كل شئ يمضى وكل شئ يعود، تدور للأبد عجلة الوجود. كل شئ يموت، كل شئ ينبت من جديد، تمضى بصورة سرمدية السنة الكبرى للوجود." هذا صعود باتجاه الوجود أو باتجاه الفن يرتبط بتيار رئيسى فى الفكر الالمانى من شيلر Schiller إلى هولدرلين Holderlin وإلى شيلنج Schelling وإلى هيغل الشاب، والثلاثة تلامذة فى مدرسة توينجن. صعود يرتبط بالفكر القومى ؛ ويشاركه رفضه لحدائثة تنمهى مع الاندماج الاجتماعى، ومع سيادة الأخلاق ومع الحضارة البرجوازية. ولكن هذا الارتباط هش. فدعوة الشعب سرعان ما تتحول إلى قومية وتدخل فى صراع مع النزعة الجمالية، لكنه ليس أكثر هشاشة من ارتباط

الوعى المسيحى بالمطالب الإجتماعية والتي يقوم عليها العمل الديمقراطى الحديث. إن النفعية المنتصرة لتجد أمامها باستمرار هذين الخصمين اللذين يبدو أن متقاربين أحياناً رغم أنهما يقعان فى أقصى طرفى الأفق : الوثنية النيتشوية والروح الديمقراطى المستند على الدفاع عن الضعفاء والمستغلين وعلى فكرة حقوق الانسان. اختار المثقفون من أبناء جيلى، فى أغلب الاحيان، النقد الأنثروبولوجى الذى قام به نيتشه للحضارة البرجوازية بدلاً من النقد الإجتماعى للسيطرة الرأسمالية، وإن كان إمتداد الأنظمة الشمولية قد خلق لقاءً وتكاملاً بين هذين النوعين من النقد. إلا أنه تكامل مظهرى أكثر منه واقعى، لأن "السياسة الكبرى" التى كان نيتشه يفكر فيها فى السنوات الأخيرة من حياته الواعية يمكن وصفها بأى صفة إلا أن تكون ديمقراطية. إن قلب القيم يجد تعبيراً مكثفاً له فى الانتقال من الثورة إلى نابليون. هذه السياسة الكبرى تنوى النضال ضد الانحطاط أى ضد المسيحية والاشتراكية، ضد أخلاق العبيد. ولكن هل يتعلق الامر حقاً بسياسة؟ يهدف النضال ضد المسيحية وضد الاخلاق الكانطية إلى تحرير الانسان قبل كل شئ. ويعنى هذا النضال القدرة على الوعد، كما تقول الكلمات التى يبدأ بها المقال الثانى من "أصل الاخلاق"، ويهدف إلى جعل الحياة "تجريباً للمعرفة" كما يقول فى "المعرفة السعيدة". ويختتم قائلاً : "بالعاطفة التى تسكن القلب، يمكن لنا، لا أن نعيش بشجاعة فحسب ولكن أيضاً أن نعيش بمرح وأن نضحك بمرح. ومن يعرف إذن كيف يضحك جيداً ويعيش جيداً إذا لم يعرف أولاً كيف يقاتل وكيف يعيش؟"

نجد فى هذه الكلمات كل أفكار نيتشه الرئيسية : رفض الاخلاق المسيحية، والمرح، والقتال. إن ما يجمع هذه الموضوعات أساساً هو نقد الحداثة المتماهية مع النفعية ومع إخضاع الكائن الفردى ومن خلاله إخضاع الحياة لصالح التنظيم الاقتصادى والإجتماعى. لا يعتبر نقد نيتشه على هذه الدرجة من الراديكالية إلا لأنه معاد للبعد الإجتماعى. على نفس المنوال نجد كراهية عديد من الفنانين والمثقفين لمجتمع مدنى ولديمقراطية تتماهيان مع رأسمالية جلفاء. يلقي فكر نيتشه الضوء على

قطاع كبير من هذه الحداثة المنفرطة التي قدمتها في الفصل السابق. الحنين إلى الوجود والدعوة إلى الطاقة القومية هما الصيغتين الأساسيتين لمقاومة الحداثة، والعودة إلى حياة اجتماعية أخرى تحل محل الإله المغتال. يصبح الفكر مع نيتشه معادياً للبعد الإجتماعي ومعادياً للحداثة. معادياً للبرجوازية أحياناً وأحياناً أخرى معادياً للديمقراطية؛ ويحذر دائماً من القوى الاجتماعية ومن الفاعلين الاجتماعيين للحداثة ومن علاقتهم فيما بينهم. وسواء دعى إلى وحدة الوجود أو إلى الروح القومي أو إلى صيرورة التاريخ، فهو يشرع في طريق العودة إلى الواحد، إلى الكل، منتهاً إلى القرن العشرين، قرن المواجهات حيث تلقى المجتمعات بكل قواها في خدمة آلهتها. يتقاتل الجميع حتى الموت على المقبرة الخاوية لإله المسيحيين. وإذا كان نيتشه يفلت من هذه المعارك المفرطة في واقعيتها فذلك لأنه يرفض القطيعة المطلقة مع المسيحية. ففي كتاب "ما وراء الخير والشر" كما في السطور الأخيرة من "أصل الأخلاق" يتكون نوع من الاستمرارية مع الدين الذي جمع بين المعاناة وإرادة الذات ممثلة في المسيح، والذي علم الغريزة "أن تحنى ظهرها وأن تخضع ولكن علمها أيضاً أن تتطهر وأن تُشحذ" مرتفعة بذلك إلى درجة الحب العاطفي.

وبقدر ما تستنفذ النزعة التاريخية وتنعدم الثقة الممنوحة للتقدم بقدر ما يكتسب فكر نيتشه أهمية تزيد تدريجياً إلى حد أن يصير له السيادة، في فرنسا على سبيل المثال حيث كان وراء رد الفعل ضد أيديولوجية التحديث التي كانت تصاحب التنمية الاقتصادية الكبرى بعد الحرب العالمية الثانية. ويرى جيانى فاتيمو Gianni Vattimo، عن حق، أن نيتشه هو أصل ما بعد الحداثة، لأنه أول من أظهر إستنفاد الروح الحديثة لنفسها في التبعية epigonisme وبوجه عام هو خير من يمثل الهوس الفلسفي بالوجود المفقود، وبالعدمية المنتصرة بعد موت الإله. يتسم الفكر المعاصر بالانقسام المتزايد بين من يحذون حذو ماركس فيضعون مكان الوجود كمبدأً لنظام ووحدة العالم نضالاً يتم باسم الذات الانسانية أو باسم الطبيعة ضد السيطرة الاجتماعية، ومن يستهلمون

نيتشه فيولون وجوهم شطر وجود داخل العالم، يكون عبارة عن طاقة وحامل لتراث وثقافة وتاريخ ويتعين أساساً بانتسابه إلى أمة. ونيتشه، في نفس الوقت، هو من ندد بأول أوهام الحداثة أى بفكرة الصلة بين التطور الشخصى والاندماج الاجتماعى، وهو من كرس جزءاً من الفكر الأوروبى لفكرة الحنين إلى الوجود الذى أدى فى الغالب إلى تمجيد الوجود القومى والثقافى الخاص.

فى مواجهة الفكر الحداثى الذى صار نقدياً، قام فكر معاد للحداثة، ينطلق من نيتشه، ويركز هجومه على فكرة الذات. وهو فكر أنثروبولوجى وفلسفى يعارض العلوم الإجتماعية المرتبطة بصورة طبيعية بالحداثة. وهو فكر ليس به حنين للماضى ولكنه يرفض التطابق بين الفاعل وأعماله. الفكر النيتشوى يخرج من الحداثة عندما يدخل فى الوجود اللا تاريخى؛ والذى لا يمكن له أن يكون عالم المثل الأفلاطونى ولا اللوغوس الإلهى، أنه العلاقة بالهو والوعى والرغبة. الإنسان يتجاوز تاريخه لا لأن له نفس على صورة الرب، كما كان يرى ديكارت، ولكن لأن ديونيسوس يسكنه ويمثل فيه القوة غير الشخصية للرغبة والجنس والطبيعة. ينبثق الكونى مع نيتشه، ضد الفكر التنويرى الذى وضع ما هو كونى فى العقل ودعا إلى التحكم فى الإنفعالات بواسطة الإرادة المسخرة لخدمة الوضوح، ثم من بعده مع فرويد، ينبثق الكونى فى اللا وعى وفى لغته، فى الرغبة التى تزيل الحواجز المنتصبة داخل النفس. يمكن دفع هذا الانقلاب إلى درجة العداء الأشد تطرفاً للحداثة: لكنه يمثل الشرط الضرورى لخلق ذات لا تكون هى الأنا الفردية ولا النفس كما يشكلها المجتمع؛ ذات تتحدد بالعلاقة مع ذاتها وليست بالقواعد الثقافية المؤسسة، ولا يمكن لها أن توجد إلا إذا أكتشفت الطريق الذى يقود من الهو إلى أنا المتكلم je وهو طريق سيتخطى الأنا moi المتماهية مع العقل. لا يابئ نيتشه بهموم الأنا؛ الحب القدرى الذى ينادى به يسعى لتحرير الإنسان من كل الميول، الانحطاطية والمسيحية والديمقراطية والنسائية، ويتوجه به نحو تحقيق الذات.

يسقط هذا الفكر فى حنين إلى الوجود وفتنة بالأمة كجماعة حية، وهو ما دفع هيدجر Heidegger ، المتأثر بنيتشه للتحالف مع النازية، ولا يمكن أن نعزل نيتشه نفسه عن عملية صعود القوميات فى أوروبا الوسطى. هذا الصعود الذى يمثل أول أزمة كبرى تتعرض لها الايديولوجيات الحديثة. ولكن سيكون من المبالغة أن نهایى بين نيتشه وهذا الصعود للأمم. ومن المبالغة أيضاً إعتبار أنثروبولوجيا نيتشه رد لازم على النفعية والامتنال الاجتماعى. يمكن فهم أحد المفكرين على أنه عنصر خاص فى صيغة ثقافية إلى جانب عناصر أخرى قد لا تكون بالضرورة أفكار ولكن قوة إجتماعية وسياسية جماعية. بل ينبغى حتى التذكير، كما يرى نيتشه، بأن أى فكر إنما يوجد فى قلب مجتمع منقسم إلى مصالح متعارضة. إن الوعي والشعور الداخلى ما هما إلا أداتين للدفاع عن الفقراء، فى حين أن الاقوياء يحملون الحياة. إن التعارض الذى يقيمه نيتشه بين السلوكيات الفعالة والارتدادية هو تعارض إجتماعى، ولهذا ليس بالصدفة أنه يوجه هجماته ضد الضعفاء والديمقراطية والنساء. وهو سلوك أعتبره هاماً وأنوى مواجته بالدفاع فى هذا الكتاب عن فكرة أن موضوع الذات ليست هى البحث عن أساس ميتا- إجتماعى metasocial للنظام الإجتماعى، أو البحث عن إسم جديد للواحد أو للإله أو للعقل أو للتاريخ ولكن على العكس هى حركة إجتماعية، وعمل للدفاع عن المقهورين ضد المسيطرين الذين يتماهون مع أعمالهم ومع رغباتهم. وذلك لأن النزعة الطبيعية والمادية فى المجتمع الحديث هما فلسفتا المسيطرين، فى حين أنه ينبغى للمأخوذین فى شبكات وايديولوجيات الخضوع أن يقيموا علاقة مع أنفسهم، وأن يؤكوا أنفسهم كنزوات حرة نظراً لانعدام إمكانية أن يكتشفوا أنفسهم عبر أعمالهم وعلاقاتهم الإجتماعية لأنهم فى إطارها مغتربين ومقهورين. يتحد نيتشه مع السعادة بهجومه على الوعي وعلى الذات مبيناً بذلك الطريق العكسى الذى ينبغى أن تسلكه فلسفة الذات والتي لا يمكن لها فى نهاية الأمر إلا أن تكون سوسولوجيا للذات. بإعتبار أن الذات لا يمكن لها أن تتخذ قوامها إلا بقطع روابط الخضوع التى تكبلها. ولكن ما هى الديمقراطية التى تهاجم

كثيراً من قبل عديد من المثقفين باسم نخبوية العقل وباسم إرادة القوة؛ إن لم تكن خلق ضمانات للضعفاء تسمح لهم بإقامة تلك العلاقة مع أنفسهم، والتي نطلق عليها حرية والتي تكون بمثابة القوة التي يمكن الانطلاق منها لإعادة إمتلاك المجال الإجتماعى والذي يديره المسيطرون واصفين اياه بأنه طبيعى وغريب عن الوعى ومتطابق مع حركة التاريخ أو مع طبيعة الانسان؟ وأخيراً كيف ننسى أن انتصار الحداثة يحدد أيضاً انتصار الرجولة وإنفصال الرجل المتماهى مع العقل والارادة عن المرأة التي تختزل إلى مجرد كونها تراث وعاطفة ؟

يسود التعارض بين السيد والعبد ذاك القرن باكملة من هيجل إلى نيتشه مروراً بماركس. أنه يفرض علينا إما الدفاع عن الذات وإما رفضها فى داخل مجتمع منقسم إلى طبقات ونخبة تطابق بين نفسها وبين التقدم وفئات إجتماعية مقهورة تنطوى دائماً ليس فقط على هوية يحددها التراث ولكن أيضاً على شعور داخلى وعلى وعى ويعتبر هو مجال الحرية الوحيد لديهم، والذي يمكن من خلاله تنظيم هجومهم المضاد حتى ولو كان هذا الوعى يستخدم لغة تقليدية.

فلنقبل فكرة أن النفعية ودين المجتمع اللذين يسجنان الإنسان الحديث فى قفص من حديد يمكن مهاجمتهما من جهتين متعارضتين: من جهة نيتشه وهى جهة العقل الباطن أو الهو أى من جهة الحياة التي تنمرد على قواعد النظام وضد فرص الأخلاق. والجهة الاخرى هى جهة الأنا وحريتها والحركات الإجتماعية التي تقاتل ضد نظام إجتماعى يحاول السادة أن يقدموه على أنه طبيعى. والمهم هو الاعتراف بهذا التعارض ويأته أكثر حسماً فى مهاجمة النفعية والوظيفية السوسيولوجية من الارادة المشتركة لتيارى الفكر السابقين. إن نقد النظام البورجوازي باسم الحياة أو باسم الرغبة، سواء مال إلى اليسارية أو على العكس إلى الفاشية، كان دائماً محملاً بالكراهية للديمقراطية وخصوصاً لما كان يطلق عليه باستهانة الاشتراكية الديمقراطية. وفى اللحظة التي يبدأ

فيها تحليلي في تعقب أقول التاريخية بعد أن تتبع انتصارها على الثنائية المسيحية، سيكون من المستحيل بالنسبة لي أن أحدد اختلافي مع نيتشه بون الاعتراف بضرورة مساندة هجومه على الوضعية وعلى التاريخية الخائفة. وذلك لأن ما يرفضه كذات وكوعي هو اقرب لما يطلق عليه علم الاجتماع التنشئة الاجتماعية socialisation وتمثل القواعد الاجتماعية في داخل الشعور أو أيضا فرض الاخلاقية moralisation إنه اقرب إلى كل ذلك من فكرة الذات كما نعرفها عندما يقاوم وعي السجين معسكرات الاعتقال وعندما تقاوم فكرة حقوق الانسان تعسف السلطة المطلقة.

لم يكن نيتشه هو المفكر الكبير الوحيد الذي يحارب الايديولوجيا الحداثية. فقد إرتبط فلاسفة التاريخ والمجتمع بهذا الجانب أو ذاك من جوانب أزمة الحداثة . وربطوا أنفسهم في الغالب "بالتنمية" القومية كما رأينا في فرنسا وكذلك أغلب المثقفين الألمان وبالطبع مثقفو البلاد الموجودة على حوض الدانوب حيث نمت القوميات. لقد كانوا في أغلب الاحيان منكبين على البحث عن الوجود والذي سيكتشفونه في الطبيعة وفي الجمال وأساساً في الحياة أو بصيغة أكثر تحديداً في الجنس. تعتبر فلسفات الحياة تعبيراً ثقافيا عن الحداثة وفي نفس الوقت رد فعل على تلك النزعة الثقافية التي تختزل الثقافة إلى مجرد عقلانية أدواتية. وقد دخلت إلى فرنسا متأخراً مع برجسون. ومن السهل رؤية التعارض بينها وبين سوسيولوجيا الذات. ولكن الأكثر جدوى هو الاعتراف بأنها تمثل نقطة إرتكاز سمحت للفكر أن يتحرر من العقلانية التي يبتلعها الإمتثال والنفعية تدريجياً. وهذا التحرر هو حركة نقدية لتشكيل الذات حتى ولو كان التوتر شديداً بين كل فلسفات الوجود وكل نظريات الذات.

إذا كنت قد بدأت بنيتشه فذلك قطعاً لأنه أبعد ما يكون عن تعريف الحداثة المخصص له هذا الكتاب وأيضاً لأن فكرة الذات لا يمكن إبخالها قبل تحطيم عقلانية التنوير التي إختزلت الحداثة إلى العقلنة والعلمنة. ومع نيتشه بدأ أيضاً إعادة إضفاء السحر على الحياة الاجتماعية والتي أرى أن فكرة الذات توجد في القلب منها.

فرويد

إن تدمير الأنا، الذى يرمى إلى جعل القواعد الإجتماعية جزءاً من كيان الإنسان، قد وصل إلى نتائجه القصوى مع فرويد، فكتابته تعتبر أهم هجوم منهجى ضد أيديولوجيا الحداثة. ويستبدل فرويد بوحدة الفاعل والنظام ويعقلانية العالم التقنى والأخلاق الشخصية قطيعة بين الفرد وما هو إجتماعى؛ فمن جانب هناك اللذة، ومن جانب هناك القانون؛ عالمين متعارضين تماماً لدرجة يستحيل معها التفكير فيهما مجتمعين. وقد تم تفسير الفكرة الأساسية لفرويد بطرق متعارضة : بدا فرويد، بالنسبة للبعض، متشائماً يعتبر أنه لا غنى عن خضوع الدوافع الفردية لقواعد وضغوط الحياة الإجتماعية، وبالنسبة للبعض الآخر هو الذى جذب الانتباه إلى الجنس وبالتالي عمل على تحرره. ومن المستحيل الوقوف عند هذه الثنائية المرتبطة بنقطة إنطلاق تأملات فرويد وليس بنقطة وصولها. ولكن فلنعترف أنه لم يقض عليها تماماً وأن فكر فرويد لا يمكن له أن ينسجم مع أى تفسير يسعى لإضفاء السمة الأخلاقية أو الإجتماعية عليه. إن لراديكالية فكره قوة هائلة. ينادى فرويد بالكفاح ضد الوعى وضد الانا إذ «يرفض التحليل النفسى أن يعتبر الوعى مكوناً لجوهر الحياة النفسية، ويراه مجرد خاصية لها يمكن أن تتواجد مع خصائص أخرى أو لا تتواجد». وهذا إنقلاب يشبه إنقلاب نيتشه. فبدلاً من البدء بالوعى ينبغى البدء باللاوعى ليس بالمعنى الثانوى لهذه الكلمة أى المحتوى النفسى المكبوت، ولكن بالمعنى الأولى أى النشاط النفسى العميق والذى يمثل الوعى مجرد غلاف له، يحتك بالواقع الذى يدركه. هذا النشاط النفسى يعتمد على تحليل بيولوجى بل وحتى فيزيائى. هناك غرائز فى باطن الانسان تخلق حاجات، أى توترات يسعى النظام العضوى لإشباعها لى يعود إلى حالة التوازن. واللذة هى اشباع الرغبة، وتهدة التوتر الذى تخلقه. ولو وصلنا بهذه الرؤية إلى مداها فإنها تعنى أن النظام العضوى يسعى إلى تخفيض التوترات وبالتالي إلى حالة الخمود *inertie* وهو ما يشرحه فرويد بوضوح فى كتابه "فيما وراء مبدأ اللذة". ليست الغريزة إلا التعبير عن

ميل داخل كل نظام عضوى حى تدفعه لإعادة إنتاج وإقامة حالة داخلية كان قد أضطر للتخلي عنها تحت تأثير قوى خارجية موثرة، إنها تعبير عن نوع من المرونة العضوية، أو ربما بتعبير آخر، عن خمود الحياة العضوية. ويضيف فرويد بعد ذلك بصورة جذرية أيضا : " لو قبلنا، كأمر تجريبي لا إستثناء له، أن كل حى يعود إلى الحالة الغير العضوية، يموت لأسباب داخلية، يمكننا القول أن النهاية التى تتجه إليها كل حياة هى الموت، والعكس، غير الحى سابق على الحى " وقبل ذلك فى نفس النص، وصل فرويد إلى النتائج الأساسية لتأكيد أنه : "إذا كانت الغرائز العضوية عبارة عن عوامل لحفظ النوع قد تم اكتسابها تاريخياً، وإذا كانت تتجه للتراجع، وأيضاً عبارة عن عوامل لإعادة إنتاج الحالات الداخلية، فلا يبقى لنا إلا أن نعزى التطور العضوى أو التطور المتنامى إلى العوامل الخارجية الموثرة والتى تنحرف بالنظام العضوى عن ميله إلى الثبات". مثل هذه النصوص أبعد ما تكون عن التمثيلات التى يقدمها لنا فروم Fromm والتى تجعل من الجنس الوسط الطبيعى للقابلية للإجتماع والرغبة فى الآخر وبالتالي أنتجت الجنسية الشاملة pansexualisme التى انتشرت فى الثقافة المعاصرة. لم يتوقف فرويد عن الإتجاه إلى مزيد من الجذرية، وخاصة بعد الخبرة المأساوية للحرب العالمية والتدمير الذى نتج عنها، فأعطى أهمية كبرى للعدوانية وغريزة الموت. وهنا يتفق فكره مع فكر هوبز، فحالة الطبيعة هى حالة حرب الجميع ضد الجميع. وتنظيم الحياة الإجتماعى بدلا من أن يستند على الميول الطبيعية للإنسان عليه أن يكون فى قطيعة معها. فمجال القانون يتعارض مع مجال الغرائز ومبدأ الواقع يتعارض مع مبدأ اللذة. وقد شددت مارى موسكوفيتشى Marie Moscovici مؤخراً فى كتاب، "ظل الموضوع" على هذا التوجه لدى فرويد بإبرازها لدور الكراهية فى فكره وفكر فينيكوت Winnicott. ألا تقوم الطريقة التى يشرح بها فرويد تكوين القاعدة الإجتماعية فى كتاب "التوتم والتابو" على قتل الأب وقيام الإخوة القتلة بإرساء القانون الذى يمنع العنف ؟

إن التحليلات الفرويدية للفرائز والبحث عن اللذة تستبعد تماماً الذاتية والقصدية في السلوك، وهو ما يوضحه أهمية التنويم المغناطيسى في تكوين هذا الفكر.

يقف القانون في مواجهة اللذة وكلاهما خارجان عن الوعي. ولا يمثل الأنا في تصور فرويد شيئاً ذا بال أمام القانون القهرى بطبيعته وأمام الهو. ولا يتم التكيف مع العالم الخارجى إلا عبر القهر. فالخوف من الإخفاء هو الذى يدفع الإبن إلى ترك الأم وإدارة الوجه شطر الواقع. إن ما يغرسه القانون فى اذهان أعضاء المجتمع هو ضرورة تبعيتهم لمصالح هذا المجتمع. القابلية للإجتماع وتمثل القواعد داخلياً الذى يصفه علماء الإجتماع الوظيفيون كإكتساب يبدو هنا كبتاً لا ينعم أبداً بالاستقرار.

هذه الصورة المبدئية للفكر الفرويدى، والتي سيتحتم نقدها، لها فضل تقديم تفسير لطبيعة المجتمع الرأسمالى يستخدم مصطلحات الحياة النفسية. ذلك المجتمع الذى ليس مجتمعاً للإكتساب فقط ولكنه بالاساس مجتمعاً للقطيعة، كما وصفها بولانى جيداً، بين الاقتصاد وبين الاعتقادات الثقافية أو أشكال التنظيم الإجتماعى .

هذه الصورة للمجتمع الرأسمالى تتفق مع خبرة هذا المجتمع عن نفسه والتي تتجلى فى قواعده الاجتماعية أو ما نطلق عليه قيمه. وتقوم هذه الصورة بالفعل على الفصل الكامل بين المصلحة الفردية والسوق الذى يتم تحديده كمجال غير إجتماعى وكمبدأ للمعارك والقتال حتى الموت من جانب، ومن جانب آخر القانون أو بصورة أكثر تحديداً الانضباط الذى يفرض من خلاله ضغوط على وجود الرغبة لتجعل منه وجوداً إجتماعياً. لا يضحى العالم الرأسمالى لا بعنف النقود ولا بصرامة النظام الإجتماعى؛ فهو يعلم أن كلا الإثنين لا غنى عنهما لقيامه بوظيفته وهو ما يستدعى تحرير غريزة الاكتساب، كما يستدعى فرض قواعد صارمة فى كلا من مجالى العمل المنتج والتعليم. هذا التضاد بين اللذة والقانون يفسر كيف بنى المجتمع الرأسمالى على تعارضين

رئيسين : الأول بين البرجوازيين يقودهم الرغبة فى الاكتساب وبين العمال الخاضعين للإنضباط. والثانى بين النشاط الاقتصادى العام الذى تتحكم فيه المنافسة والنقود والحياة الخاصة التى يفرض فيها الخضوع للقوانين والقواعد والأعراف. إن ما يعطى لهذا المجتمع الرأسمالى خاصيته المميزة : أن الغرائز تتحرر فى الحياة العامة أما فى الحياة الخاصة يكون الشعور بوطأة القانون. وهذا ما جعل بعض النظرات السطحية تعتقد أن الافراد فى هذا المجتمع مندمجين إجتماعياً ومسيطر عليهم تماماً. إن تحرير الغرائز الذى تقبله مجتمعات أخرى فى مجال الحياة الخاصة يتحقق هنا فى الحياة العامة، فى الحياة الإقتصادية وفى السوق كمجال للعنف والعدوان والموت. وهذا هو الموضوع الرئيسى لكثير من روايات القرن التاسع عشر وعلى رأسها روايات بلزاك.

يمكننا أن نستخلص من التحليل الفرويدى إمكانيات لقلب وحتى لتجاوز الانفصال بين اللذة والواقع. وتعريف الشيوعية : لكل حسب حاجاته، أليس حتماً لإضفاء السمة الطبيعية على المجتمع؟

ولكن من منظور أكثر واقعية، خفف عمل الحركة العمالية والاصلاحات الاجتماعية من الفصل بين الاقتصاد والمجتمع الذى يميز المجتمع الرأسمالى القح، ولم يكن فرويد هو الذى قام بتطوير مثل هذه الأفكار، لأنه كان بعيداً عن الوعى وعن الفعل الثوريين باعتبار أن رؤيته تستبعد تعريف السلوك الانسانى فى إطار الفعل والقصد ، ولكن حان الوقت للتذكير بأنه إذا كان لهذه القطيعة الكاملة بين اللذة والواقع، وبين الغرائز الفردية والنظام الإجتماعى، قيمة نقدية لا تنفصل عن فرويد، فهى لا تترك أى مجال آخر لمعظم تحليلاته لو تناولناها بهذه الصيغة المبسطة. فهى تستبعد موضوع الليبيدو من جانب وعقدة الذنب والتسامى من جانب آخر.

لأن ما يميز الليبيدو عن أى غريزة أخرى، هو أنه رغبة لها موضوع وليس رغبة

تستهدف أشباعها الخاص. والسطور المذكورة سالفاً تشترط وضع غريزة الحياة فى مواجهة غريزة الموت والعلاقة بالموضوع فى مواجهة تدمير الموضوع، والارتباط بموضوع الرغبة، الذى تعبر عنه كلمة حب بمعناها الدارج، فى مواجهة تكرار رغبة لا ترتبط إلا بذاتها. ولا يبقى القانون خارجياً بالنسبة للفرد بل يدخل فيه ويحكمه جزئياً ويفرس فيه عقدة الذنب التى تتولد عن مقاومة الرغبة للقانون.

وأخيراً يقودنا التساؤل إلى المشكلات ذات الصعوبة البالغة : ألا يمكن للأنا الأعلى ألا يكون قمعياً ؟ أليس له القدرة أيضاً على استقبال طلبات الهو ومنحها معنى متسامياً تلك العملية التى تجعل من الأنا الأعلى مبدعاً للذات sujet وليس للأنا Moi ؟ بإختصار ألا ينبغى أن يتحول الفصل بين مناطق الحياة النفسية : اللاوعى، وما قبل الوعى والوعى، حسب مصطلحات فرويد الأولى، إلى علاقة أكثر ديناميكية بين هذه المناطق بعد إعادة تعريفها : الهو، الأنا الأعلى، الأنا؟ فليس تاريخ الفرد صراعاً متصاعداً بين الرغبة والقانون وخضوعاً نهائياً من الرغبة للقانون.

إنه تجاوز للاندماج الأصلى مع الأم ورفض الأب الناتج عن هذا الاندماج، وهو عبور فيما وراء الصراع الأوديبى إلى التماهى بالأب. وهذا الأب ليس مجرد وجه قمعى يهدد بإخصاء الابن الذى يرغب فى الأم. وكتاب "الأنا والهو" يتعرض لذلك بوضوح : "الأنا المثالى يمثل إرث عقدة أوديب وبالتالي يمثل التعبير عن الميول القوية لغايات الليبيدو الخاصة بالهو ومن خلاله قد أصبح الأنا متحكماً فى عقدة أوديب وأصبح خاضعاً فى نفس الوقت للهو. وبينما يمثل الأنا بالاساس العالم الخارجى والواقع نجد الأنا الأعلى يقف فى مواجهته بإعتباره محملاً بسلطات العالم الداخلى، الهو".

وهكذا نجد أنفسنا قد انتقلنا من المواجهة بين الهو والأنا الأعلى، حسب التعبيرات التى ظهرت فى هذه المرحلة من فكر فرويد، إلى حلف الهو والأنا الأعلى ضد الأنا

المنظور إليه دائماً على أنه مجموعة التماهيات الإجتماعية. هذا الحلف هو التسامى والذى بواسطته "يصبح كل ما ينتمى إلى الطبقات العميقة فى الحياة النفسية للفرد، أسمى ما فى النفس البشرية بفضل تكوين الانا المثالى". والدين والأخلاق والشعور الإجتماعى، حسب تعبير فرويد نفسه، هم منتجات لهذا التسامى. هل سيكون من المبالغ فيه القول بأن فكر فرويد، تقوده إرادته فى تحطيم الصورة السائدة عن الانا وعن الوعي، قد توصل، نون التخلّى عن عمله النقدى فى إحلال الانا كتعبير عن الذات المتكلمة Je محل الانا Moi كمنطقة الشعور بين الهو والانا الأعلى؟ ألا يمكن لنا أن نفهم الصيغة الشهيرة "هناك حيث يوجد الهو يمكن لانا التعبير Je أن يرى النور" كتكملة للعملياتين السابقتين فى إلحاق الانا Moi بالهو وتحويل لجزء من الهو إلى أنا أعلى ، لم يعد من الآن فصاعداً قانوناً خارجاً عن الفرد، ولكن ذات، لم تعد ممثلة للقانون فى الشعور الداخلى ولكن أداة للتحرر من الضغوط الإجتماعية؟ يعتبر غياب الفصل بين الهو والانا الأعلى هو الأمر الجوهرى فيما نسميه بالمصطلحات المتأخرة. وقد أستعاض عن الانشطار الموجود بين الكابت والمكبوت بمرور جزء من مخزن الليبيدو فى الهو إلى الانا الأعلى. الهو يتميز ويتحول إلى أنا أعلى وإلى أنا Moi بالمعنى الجديد لهذه الكلمة أى إلى أنا معبرة عن ذات فاعلة Je. ويمعنى أكثر تحديداً لو تتبعنا الاشارات المعطاة فى كتاب " من اجل إدخال النرجسية" المنشور فى عام 1914 أى بعد كتابيه "فيما وراء مبدأ اللذة" و"الانا والهو"، نجد أن الليبيدو المرتبط بالانا النرجسية البدائية، قد انعكس بعد ذلك على موضوعات خارجية نون التخلّى عن الارتباط بالانا، ويشبه سلوكه تجاه الارتباط بالموضوعات، كما يقول فرويد، "كسلوك جسد جزئى بروتوبلازمى imalcul- protoplasmique an تجاه الأطراف الخلوية pseudopodes التى بثها". هناك إذن نرجسية ثانوية تنوب عن النرجسية البدائية، نرجسية ثانوية لا تتجه إلى الانا ولكن إلى الانا الأعلى. "لن يكون مدعاة للدهشة أن نجد منطقة نفسية خاصة تستكمل مهمة السهر على ضمان الأشباع النرجسى الصادر عن المثل الأعلى للانا ، وبناء على ذلك تقوم

دائماً بمراقبة الأنا الواقعي وتعايره طبقاً للمثل الأعلى. يفسر التسامي والرجسية الثانوية ظهور الوعي الأخلاقي، وهو ما يقضى على الفصل بين غريزة الأنا والليبيدو تجاه موضوع معين.. فالاندفاعات الخاصة بالحفظ الذاتى لها أيضاً طبيعة تنتمى لليبيدو وهو ما يقوله فرويد فى كتابه "فرويد بقلمه" فى عام 1925. "إذا كان السعى للتماهى يخضع الفرد للمجتمع فالرجسية تمثل عودته إلى ذاته، محملة بالليبيدو، وذلك دون أى دلالة مرضية، ولكن على العكس كعودة للتمركز حول الذات فيما وراء الغريزة الجنسية. ويصاغ لابلانـش Laplanche وبونتاليس Pontalis هذا التحليل الفرويدى بوضوح : "تحول النشاط الجنسي إلى نشاط متسامى... يحتاج إلى زمن وسيط يتم فيه إنسحاب الليبيدو إلى الأنا وهو ما يجعل إزالة النزوع الجنسي desexualisation أمراً ممكناً"

تتخذ هذه العودة إلى الذات أهمية خاصة فى مجتمع الجماهير حيث يميل كل فرد من الجمهور إلى أن يتماهى بالقادة الذين يمارسون عليه تأثيراً يشبه التنويم المغناطيسى. الأنا الأعلى هو الذى يعطى الفرد، عبر التسامي والليبيدو والذى يرفعه إليه، القدرة على مقاومة هذا الاغواء وهذا التلاعب به. سيكون من المبالغة الاهتمام فقط بهذه الجوانب من فكر فرويد رغم ارتباطها بعدد من كتاباته التى يعرض فيها الميتاسيكولوجيا الفرويدية بكل وضوح. ومن المبالغة أيضاً تقييد فكر فرويد بتشاؤم شامل يقوم على التناقض المطلق بين اللذة والقانون الاجتماعى. فما هو مكبوت يلعب دوراً ايجابياً عندما يتسامى وذلك، كما يقول فرويد فى كتابه "الميتاسيكولوجيا"، بواسطة انفصال ما بين التمثيل "وكمات الانفعال" quantum d' affect التى تبحث عن تمثيلات جديدة لكى تدخل إلى الوعي. لا يتشكل الوعي الأخلاقى إلا من خلال علاقة مع القهر والقلق ولكن لا يمكن تصوره فى هذه الحدود فقط. ذلك لأن فرويد بعيد عن كل من أخلاق المتعة morale hedoniste التى انتشرت فى القرن العشرين والأخلاق القديمة القائمة على عقدة الذنب. إنه سيتكشف الطرق التى يمكن للفرد من خلالها أن يفلت من ضياع الذات فى موضوع الرغبة وفى نفس الوقت من القلق. وإذا كان قد أولى أهمية كبرى

لغريزة الموت أو لثاناتوس، فى النصف الثانى من حياته فذلك لكى يواجه إندفاعات الأنا والبحث عن اللذة - الذى لا يقود كما يقول ماركيز إلى النرفانا وإلى الموت - بالدور الخلاق لإيروس وهو الذى يهب الوحدة باعتبار أن وظيفته الأولى هى إعادة الانتاج الجنسى والذى يتسامى فى الحب كما يسميه فرويد نفسه . ولكن يمكن لإيروس أن يؤدى هو أيضاً إلى فقدان الأنا، الذائبة فى تماهياتها. يمكن فقط للعودة إلى الذات، ولا سيما النرجسية فى طورها الثانوى أن تسمح بتفادى هذين المأزقين المتعارضين؛ وهما الانغلاق على الذات وفقدان الذات فى الموضوع. وتؤدى بذلك إلى بناء شخصية لا تكون هى هذه القشرة الرقيقة من الهو فى إحتكاكها بالعالم الخارجى والذى جعله فرويد متطابقاً مع الأنا.

يمكن للتعارض المطلق بين اللذة والقانون أن يؤدى إلى مفهوم متسلط وذكورى تماماً لتشكيل الشخصية. فمن المغرى القول بأن الفتاة، التى لم تقطع علاقتها تماماً بالأم لكى تتماهى مع نموذج من جنسها تظل قيد المجال الخيالى، حسب تعبير لاكان Lacan ، ويتعثر عليها الدخول إلى المجال الرمزى، أى إلى الثقافة. ولكننا لو شددنا فى المقابل، على التواصل بين الهو والأنا الأعلى وعلى غزو الليبيدو للمثل الأعلى للأنا، فلن يكون هناك فصل كامل بين الخيالى والرمزى. وهو ما يؤدى إلى إضفاء الطابع الأنتوى على نظرية الشخصية. وهذه الشخصية تتكون عبر ما يسميه البراجماتيون المحادثة الداخلية بين أنا الوعى Moi وأنا الذات الفاعلة Je ، كما تقول مرجريت ميد Mead Marguerit أى أنها تتكون عبر إنفصال بين الأنا التى تعلن الخطاب والأنا موضوع الخطاب، كما يقول لاكان. ولكن ينبغى أن نعطى لإتصال هذين الموضوعين نفس الإهتمام الذى نعطيه لانفصالهما. وهذه الرؤية - الموجودة فى كتابات فرويد فى الجزء الثانى من حياته وخصوصاً قبل التشاؤم المفرط فى نصوصه الأخيرة - تحررنا من وجهة النظر التى فرضتها النزعة العقلانية التى تطابق بين الذات والعقل فى تغلبه على العواطف. ولم يكن هذا رأى ديكارت فى تصور لاكان فهو يرى أن الأنا لدى كوجيتو

ديكارت في "أنا أفكر" ليس هو نفس الأنا في "أنا موجود". فتشكل الذات ليس إبتعاداً عن الفرد فحسب ولكن إتحاد بالمجموع وبمقولات الفعل العقلاني. هذا التشكل مرتبط برغبة في الذات وبرغبة في الآخر في نفس الوقت.

إن ما تعلمناه من فرويد هو الحذر تجاه "الحياة الداخلية" المليئة بالتماهيات التي تؤدي للإغتراب والحذر تجاه النماذج الإجتماعية التي تم غرسها فينا. هذا الحذر يجبرنا على البحث عن أنا الذات الفاعلة خارج أنا الوعي وذلك عن طريق رفض الصلة بين الفرد والمجتمع كما يجبرنا أيضاً على ربط الدفاع عن أنا الذات الفاعلة بالتمرد على النظام القائم.

يقترّب فكر فرويد من فكر نيتشه ولكنه أيضاً يتعارض معه. وقد اشار فرويد نفسه أكثر من مرة إلى هذا التقارب كما جاء في كتابه "فرويد بقلمه" على سبيل المثال. فكلّا الأثنين يقاوم الموضوعات السائدة للتنشئة الاجتماعية والأخلاقية. وذلك عن طريق الإطاحة بالدور المركزي للوعي وإبداله بتحليل ينطلق من الهو ومن الحياة كـرغبة وجنس. وعندئذ ينفصل الطريقان، ويصرح فرويد بوضوح في كتابه "فيما وراء مبدأ اللذة": أنه لا يعتقد بنزوع عام لدى البشر أن يصبحوا سوبرمان، وبالتالي فهو أكثر تشاؤماً من نيتشه فيما يتعلق بإمكانية قلب القيم، لأن الثقافة الإنسانية هي قبل كل شيء قمع للغرائز. لكنه يضيف في كتابه "علم النفس الجمعي وتحليل الأنا"، أن السوبرمان عند نيتشه كان قائداً للبشر "بلا نوافع ليبيدية، فهو لا يحب إلا نفسه ولا يقدر الآخرين إلا بقدر ما يستخدمهم في أشباع غرائزه". يسعى نيتشه للافلات من قهر المجتمع عن طريق العودة للوجود، إذ لا يقبل أن يكون الوجود الكبير قد مات، في حين أن فرويد يحاول بناء الشخص إنطلاقاً من العلاقة بالآخر ومن الصلة بين الرغبة في الموضوع والعلاقة مع الذات. وهو ما يسمح له بإستكشاف تحول الهو – تلك القوة غير الشخصية الخارجة عن الوعي – إلى قوة بناء للذات الشخصية عبر العلاقة مع البشر. وقد وجه نقد

الحدث، المتأثر بهذين المفكرين ، فكر نيتشه إلى رفض الحدث وفكر فرويد إلى البحث عن حرية الفرد وهذا التعارض لا يخفى تشاؤمهما المشترك، ورفضهما للأوهام الحدثية، ولا سيما هذا الزعم الخطير في التماهي بين الحرية الشخصية والاندماج الإجتماعي. يحاول نيتشه بعث عالم ما قبل المسيحية. وفرويد يعلن ميلاد الذات الشخصية في عالم علماني ويبين تعرضها فيه لخطر الانسحاق بسبب عقدة الذنب أو بسبب تماهياتها الاجتماعية أو السياسيات التي تصنع الإغتراب. فلنعترف أن هذين التأثيرين يتداخلان في أغلب الأحيان ويدفعان عدداً من المثقفين إلى رفض كامل للمجتمع، بعد أن يرونه مختزلاً في صورة شبكة من القواعد والضغوط، فهم يرفضونه باسم الرغبة، هذه الكلمة التي يفضلونها على إرادة القوة لأسباب تاريخية* . إن هذا العداء الجذري للحدث، الذي يرفض تبني أي إختيار سياسي أو إجتماعي يؤدي بدوره إلى إختيارات متنوعة، سيأخذ في القرن العشرين شكل معارضة "الفنان" للعالم البرجوازي. ولكن يمكن تتبع فكر فرويد من وجهة مختلفة تماماً. فعداؤه للحدث يدفعه للبحث في لغة اللا وعى عما يمكن أن يقاوم به التحكم الإجتماعي. وفرويد بعيد عن الأديان بوجه عام بقدر إبتعاده عن المسيحية. وسيدعم هذا الموقف الفكر السريالي بوجه خاص، ذلك الفكر الذي يرتبط نقده الجذري هو أيضاً للمجتمع البرجوازي بتحريف اللاوعي عن طريق بلبله المعنى وآليات أخرى مثل الكتابة الآلية.

ولكن لا يمكننا أن ننسى ما يفصل الجنس، وهو الليبيدو في إرتباطه بموضوع، عن غرائز الأنا : الجنس هو علاقة قبل كل شئ بإعتباره غريزه للتناسل وبالتالي هو بحث عن لقاء بين كائنين من جنس مختلف. وينبغي أن نتذكر أيضاً أن هذا الليبيدو يخترق الأنا الأعلى الذي لا يكون قهرياً فحسب بل مثل أعلى للأنا. وهكذا تتم صياغة مفهوم العمل الإجتماعي كشرط لوعي بالذات خال من العصاب والنرجسية. لماذا ينبغي

(*) يشير المؤلف هنا إلى إرتباط المصطلح النيتشوي "إرادة القوة" بصعود ألمانيا النازية، مما أدى

إلى عزوف المثقفين المعاصرين عنه وتفضيلهم للمصطلح الفرويدي "الرغبة".

الاختيار بين هذين الاتجاهين اللذين يصدران عن فكر فرويد؟ أليس من الأفضل أن نؤكد على تكاملهما مع مراعاة نقاط التعارض بينهما؟ أن الوجه النقدي لفكر فرويد يتعلق بتدمير الانا والوعي ذى الخاصية القمعية، تدميراً لا يقبله النظام الإجتماعى ولكن لا مفر منه. أما الوجه التعليمى لفكر فرويد فهو يؤكد إمكانية استثمار الذات للعلاقات بين الأشخاص والمواقف الإجتماعية التى توجد فيها. مثل هذا التعارض بين وجهى الفكر الفرويدى يبدو أقرب إلى الواقع من ذلك التضاد المفرط الذى يقام بين التحليل الخالص لرمزية اللاوعى والفكر "المراجع" العلاجى والذى يهدف إلى تهيئة الفرد للاندماج فى المجتمع وهى فكرة لا يمكن بحال نسبتها إلى فرويد ولا إلى إريك فروم مؤلف كتاب "الخوف من الحرية" والذى قام فيه بتحليل الفاشية ولا حتى إلى كارين هورنى.

لقد كان تأثير فرويد أوسع إنتشاراً من نيتشه. ففي حين أن نيتشه لا يقدم أى مخرج من الحداثة إلا بالفن والحنين للكل، وللعالم البائد الذى "كل شئ فيه نظام وجمال ورغد، هدوء ولذة"، كما يقول فى كتاب "دعوة للسفر". يقوم فكر فرويد بإستكشاف الدروب التى يمر من خلالها كل فكر للذات، فى الوقت الذى يدفع فيه تفكير الأنا إلى غايته.

وقد تتبع هريبرت ماركيز هذه الدروب بصورة منهجية مدركاً إن فكرة الذات لا يمكن طرحها إلا عبر نقد إجتماعى. وهذا المفهوم قد تبلور فى تيار من الفكر ولد من اللقاء بين الفكر الفرويدى والحركة الثورية فى العشرينات والثلاثينات من هذا القرن.

للوهلة الأولى يبدو أن ماركيز قد دفع بتشائم فرويد إلى مداه عندما أقام تعارضاً بين ضغوط الحياة الإجتماعية والانتعاش الحر للجنس فى فترة ما قبل البلوغ. ولكن هذا الموضوع سرعان ما تغير لأن مثل هذا الانتعاش مستحيل بدون سند من الخبرة الإجتماعية. وهذا هو جوهر فكر ماركيز. فما يراه فرويد كواقع إجتماعى ينقسم لدى ماركيز إلى واقعين متعارضين : الأول هو أن النشاط والعمل ليسا فقط مشقة وإلزام ولكن يمكن أيضاً أن يفترضا علاقة وأن يكون لهما مضمون جنسى واقعى وتحقق ذلك

مرتبط بالخروج من المجتمع الصناعى لندخل فى مجتمع الأنشطة الوسيطة التى يحل فيها الاتصال محل التصنيع. والثانى يتمثل فى ممارسة السيطرة الإجتماعية فى مجال العمل وبالتحديد فى الصناعة التaylorية. وهذا التعارض بين جانبين من النشاط الإجتماعى لا يكف عن التفاقم لدرجة أن ماركيز يرى أن الوجوه السلبية للعمل فى المجتمع الصناعى المتقدم تأتى من السيطرة الإجتماعية أكثر من الضغوط المهنية. إن الادانة "اليسارية" للسيطرة الطبقيّة التى تدمر الرغبة فى العلاقات العاطفية، يقابلها من جهة أخرى ثقة كبيرة فى الحداثة كما هو واضح عند جماعة جيل الزهور generation Flower وتجمع الشباب فى وودستوك Woodstock. ويطرح ماركيز هذا الموضوع الذى اشرت إلى أهميته فى فكر فرويد وهو إندماج الهو مع الأنا الأعلى، وهو يشارك مباشرة فى فكر روهيم Roheim الذى كتب يقول "فى التسامى ليس الأنا الأعلى هو الذى يغزو ارض الهولكن، على العكس، فما يحدث هو أن الأنا الأعلى يفرق فى سيول تأتية من الهو". (مقال "Sublimation" فى Psychoanalysis of Book Year 1945). ويرتقى الليبيدو من الجنس إلى الحضارة لأنه قبل كل شىء رباط إجتماعى. إن ما يهمنى هو أن ماركيز، بعد روهيم، قد ادرك أن الليبيدو لا يتسامى إلا إذا أصبح ظاهرة إجتماعية وهو ما يبتعد تماماً عن التعارض المباشر بين اللذة والواقع. فالعلاقة مع الآخر وحدها تسمح بالإفلات من التدمير الذاتى والذى يهدد الليبيدو، هذا التهديد الحاضر دائماً فى مجتمع الاستهلاك. وينأى ماركيز بنفسه عن الإدانة المطلقة للتكنيك التى تميز مدرسة فرانكفورت ويلتزم بمنظور ماركس عندما يجمع بين القوة المنتجة والليبيدو ويضعهم فى مواجهة علاقات الانتاج الرأسمالية التى تجمع بين كونها ظالمة إقتصادياً وقمعية عاطفياً. إن الرفض الشامل للمجتمع الحديث مع إختزاله إلى مجرد إنتصار للعقلانية الأدواتية يحيلنا إلى الحنين إلى الوجود وإلى نموذج لمجتمع ما قبل رأسمالى يتطابق فى الغالب مع المدينة اليونانية. أما الماركسية، على العكس فلأنها مليئة بالثقة فى الحداثة تركز نقدها فقط على شكل إدارتها الإجتماعية وليس على أليتها.

ما يجمع بين فرويد وماركس، ويؤدى بعد الحرب العالمية الأولى إلى ميلاد تيارات هامة فى الفكر تضم إستلهامات من هذين المفكرين الكبيرين، هو رفض خطاب النظام وآليات التماهى بالحكام. وعلى هذا الصعيد يعتبر كل من ماركس وفرويد أوفياء للإلهام الرئيسى للعلوم الاجتماعية : الحذر تجاه المقولات التطبيقية والامبريقية. إن مقولات الحياة اليومية التى تتحكم فيها القواعد أكثر من غيرها هى التى تعبر بصورة مباشرة عن علاقات السيطرة. فنقطة البدء فى العلم الإجتماعى هى دائما الحذر من ما هو "إجتماعى" والإبتعاد عن كل ما يختزل وظيفة المجتمع إلى عمليات تقنية إدارية. لا المجتمع الصناعى ولا غيره من المجتمعات يخضع لتحكم العقل الآداتى وحده. ويذكر ماركس هنا نور الريح وفرويد يذكر تراكم سلطة القادة التى تدفع إلى تماهى أعضاء الجمهرة بالقادة. وفى مواجهة هذه الحيل للسيطرة الإجتماعية يطرح ماركس، كنصير للنزعة التاريخية، المنطق الطبيعى للقوى المنتجة، أما فرويد الذى يعتبر أكثر منه حداثة وفى نفس الوقت أكثر منه تقليدية ينادى، بقوة العقل وأيضا بالمبدأ الأخلاقى الكونى، مبدأ المسيح، أحبوا بعضكم بعضا والذى يطرح فكرة الذات. وفى نهاية كتاب "علم النفس الجمعى وتحليل الأنا" ، يضع فرويد الجيش فى مواجهة الكنيسة. ففى الجيش يتحد الجنود بالقائد وبالنظام وبالمجتمع القائم عليه. ولكن فى المقابل كما يقول فرويد لا يتماهى المسيحى بالمسيح فينوب فيه ولكنه على العكس يسعى إلى تقليده وإلى إخضاع نفسه مثل المسيح إلى القانون الأخلاقى الكونى للتضامن. فتقليد الشخصية الزعامية التى ما هى إلا حامل لقيمة ما، يتعارض مع التماهى فى المجموع. وهكذا نجد فرويد مثل ماركس ونيتشه يدعو إلى تفكيك المجتمع وقطع روابطه بالتراث الذى ولد مع روسو والثورة الفرنسية والذى انتشر بواسطة القوميات التى سادت القرن التاسع عشر والقرن العشرين. هذا التفكيك للمجتمع، أساس كل فكر نقدى، يمكن أن يرجعنا إلى الوجود عبر الفن، يمكن أن يعود بنا إلى التراث العقلانى وإلى الثنائية المسيحية والديكارتية. ويمكن أن يجد فى الفرد نفسه القوة الرئيسية القادرة على التصدى

للسيطرة الاجتماعية، ويمكن لفرديته أن تتخذ شكل الدفاع عن حاجته الخاصة وحرية في المبادرة أو تتخذ شكل تأكيد حقوق كل فرد، في أن يبنى نفسه، عبر مقاومته لمنطق السيطرة، كذات شخصية.

تضع المناظرات الخاصة بالفكر الاجتماعى منذ قرن هذه الإجابات بعضها فى مواجهة البعض، وما يجمع بينها هو رفضها لتمامى الفاعل والنظام. ولكن إتجاهاً واحداً فقط من هذه الاتجاهات الفكرية الثلاثة التى تسود هذا القرن أو جزء منه على الأقل، يضعنا على طريق الذات، فى حين أن ماركس يتمنى إنتصار الطبيعة ونيتشه إنتصار ديونيزوس.

سيوسولوجيا نهاية القرن.

تبدو السوسولوجيا دفاعاً عن الحداثة وعن العقلنة فى مواجهة هجمات فرويد ونيتشه ضد الصورة العقلانية للإنسان. ولكن أليست هذه الصورة زائفة؟ فى الواقع تنتسب السوسولوجيا إلى فكر نهاية القرن، ذلك الفكر الذى يشك فى روح التنوير ويعيد مع نيتشه وفرويد إكتشاف قوة الارادة والرغبات غير المحدودة فى مواجهة العقل العمليّاتى. ولن يكون من المفارقة القول بأن الفيلسوف الذى ترجع اليه السوسولوجيا الوليدة بصورة مباشرة هو شوبنهاور وينسحب هذا حتى على نوركايم الذى أطلق عليه تلاميذه "شوبن". لقد استند نوركايم فى معركته ضد المفهوم النفعى للعقد الاجتماعى على فكرته عن الإنسان المزدوج *homo duplex* أو بتعبير أدق ، واجه عالم التمثلات أى عالم المجتمع بعالم الإرادة والرغبة. اليس هذا التعارض الذى يقيمه نوركايم بين عالم التمثلات وعالم الارادة يأتى مباشرة من شوبنهاور؟ ومفهومه عن فقدان النظام *anomie* أليس هو مفهوم عن الصراع بين التحديدات التى تفرضها القواعد الاجتماعية والرغبة غير المحدودة الموجودة فى الإنسان؟ ونوركايم، فى كتابه "التعليم الأخلاقى" الصادر فى 1925، يقترب من فرويد ويعتقد مثله أن المجتمع الحديث يفرض عوائق

يصعب على إنسان الرغبة مع الزمن من تجاوزها. ولكنه يرى مثل فرويد أيضا أن المجتمع هو الذى يفرض القواعد الأخلاقية التى تجعل العقل ينتصر على الرغبة ولهذا فهو يتعارض من هذه الزاوية مع تونيس، إذ يعتقد أن إصطناعية المجتمع لا ينبغى لها أن تتغلب على القوى الطبيعية للجماعة. ليست نزعة بوركايم العقلية نوعاً من السوسيولوجيا الأولية. فهو كهوبز وكشوينهاور يعتقد أن الفرد هو انانية وعنف ويمكن فقط لعقد إجتماعى لفكرة العدالة أن يشيداً حواجز كافية لمنع قوى التدمير. ولهذا فهو ينادى، فى مواجهة النفعيين، بدولة قوية قادرة على فرض إحترام الاتفاقات الضرورية بين مصلحة المجتمع ورغبات الفرد.

قطعت السوسيولوجيا الوليدة صلاتها بروح التنوير. حتى فيبر، رغم أنه متأثر حقاً بكانط، يشدد على الخاصية غير العقلانية لقيم الكاليفينية ويجعل من النبى أساس الحياة الإجتماعية والسياسية. وزيميل، الذى كتب فى عام 1907 نصاً حول شوبنهاور ونيتشه، يعطى دوراً أكثر مركزية للرغبة فى الحياة كمصدر أولى للأخلاقية واللاأخلاقية فى آن.

ولهذا ليست السوسيولوجيا غربية عن وعى نهاية القرن بإنحطاط الغرب أى بأزمة عقلانية التنوير، ذلك الوعى الذى ينمو على الأخص فى المانيا.

ويفرض إنتصار الرأسمالية التخلّى عن الصورة العقلانية للإنسان، فمن البديهي بالنسبة لعلماء الإجتماع ولمؤرخى الاقتصاد أن إرادة الربح والقوة، والحرب فى السوق والقيود المفروضة على العمال فى المؤسسة الانتاجية لا تقبل أن تختزل إلى تلك الصورة الملطّفة للعقلنة والترشيد.

إن السوسيولوجيا حركة فكرية قوية ومتنوعة لدرجة لا يمكن معها إختزالها إلى مثل هذه الصورة. هى تنظر إلى قوة الرغبة فى الثراء كإمتداد للتدمير الذى يتعرض له المجتمع ؛ فنجدها تدعو أحيانا العمال إلى المقاومة، وفى أغلب الأوقات إلى تدخل

الدولة. ولكنها على أى حال تواجه النفعية كما كان نوركايم يواجه سبنسر Spenser. فهي تأخذ إذن مكانها فى الحركة العامة لتدمير المفهوم العقلانى للإنسان والتي أطلقها نيتشه وفرويد. ولهذا فالسوسولوجيا لا علاقة لها بذلك التبسيط الوظيفى الذى إزدهر فى منتصف القرن العشرين والذى ينقصه تلك القوة المأساوية الموجودة فى أعمال فيبر ووركايم، حيث كانت تسيطر على كليهما فكرة القطيعة والصراع بين القوى المتعارضة: العقلانية الإجتماعية من جانب والقناعة أو الرغبة الشخصية من جانب آخر. صحيح أن علماء الإجتماع مقتنعون مثل فرويد بأن النظام الإجتماعى يقوم على إنتصار العقل وعلى تبعية الرغبة للقاعدة وهو ما يجعل منهم إمتداداً للمفكرين السياسيين فى القرن السابع عشر والثامن عشر. ولكن الأهم من ذلك هو قطيعتهم مع إيديولوجيات التقدم. لقد ولدت السوسولوجيا متشائمة وتنتمى كتابات فرويد السوسولوجية فى النصف الثانى من حياته إلى هذا التيار. هم واعون بعدم توافق الرغبة والعقل وواعون بتطابق العقل والقواعد الاجتماعية وإذا كان الإنسان مزوجاً، ينبغى التخلّى عن فكرة إمكان إتفاق المؤسسة مع البواعث. لا يهم أن هذا الصراع بين الفرد والحضارة يعبر عنه غالباً بمصطلحات تنتمى إلى فترة بداية التصنيع فى الغرب، زمن تحول غالبية المجتمع إلى بروليتاريا، ولا تنتمى إلى مجتمع الاستهلاك الذى لم يبدأ فى الولايات المتحدة إلا بعد الحرب العالمية الأولى، وفى أوروبا بعد الحرب العالمية الثانية. لقد باعد ثراء وتنوع السلع الاستهلاكية بين المجتمع الحديث وبين التفاؤل الذى كان سائداً فى بدايته. وكما يقول نوركايم كلما تقدمت الحداثة كلما ابتعدت السعادة وكلما زاد الشعور بالكبت وعدم الاشباع.

نقدان للحداثة

إذا كان الفكر الحداثى، سواء فى صيغته الليبرالية أو فى صيغته الماركسية، يقوم على تأكيد الصلة بين تحرير الفرد والتقدم التاريخى وهو ما وجد تعبيراً له فى الحلم بخلق إنسان جديد فى مجتمع جديد، فإن نيتشه وفرويد قد حطما فكرة الحداثة. هل

هناك مبالغة في الاقرار بأن هذا التحطيم للحدثة كان نهائياً وأنه مازال على قوته كما كان في نهاية القرن التاسع عشر، خاصة وأن الفترة الكبرى للنمو الاقتصادي بعد الحرب العالمية الثانية قد أدت إلى بعث لفلسفات التقدم؟ وقد أدى تأثير الحزب الشيوعي، وخصوصاً في فرنسا، إلى الإحتفاظ بمذهب في التقدم يغلب عليه الطابع الإيديولوجي، إلا أنه لم يكن قوياً لدرجة تولد الثقة في المستقبل. بل على العكس لقد مارس تأثيراً مضاداً وهو التنديد بالأزمة العامة للرأسمالية وبالأفقار النسبي، بل والمطلق؛ وهو ما قضى على الفكر الاشتراكي الذي كانت الثقة في الطبقة العاملة الثورية، بالنسبة له، لا يمكن لها أن تنفصل عن الاعتقاد في الحركة الطبيعية للاقتصاد وعن مزيد من إضفاء الطابع الاجتماعي للانتاج.

مع نيتشه وفرويد كف الفرد عن أن يكون مجرد عامل أو مستهلك أو حتى مواطن، أى كف عن أن يكون كائناً اجتماعياً فحسب. أصبح موجوداً للرغبة تسكنه قوى غير شخصية ولغوية، ولكنه أيضاً كائن فردي، خاص. وهو ما يضطرنا إلى إعادة تحديد الذات. لقد كان الله، أو العقل أو التاريخ هو الصلة التي تربط الفرد بما هو كوني؛ أما الله فقد مات، والعقل أصبح أداتياً والتاريخ صار خاضعاً للدول المطلقة.

كيف يمكن للفرد في هذه الظروف أن يفلت من قوانين مصلحته التي هي في نفس الوقت قوانين المنفعة الاجتماعية؟ يلجأ أغلبية المفكرين إلى فكرة أن الانسان يمكنه أن يستعيد بفضل الفن طبيعته العميقة، والمقموعة والمشوهة بسبب تدعيم السيطرة الاجتماعية : ينبغي تحويل الحياة إلى عمل فني، واستعادة الروابط التي توحد الإنسان بالعالم عبر الجمال. لقد كان فرويد شغوفاً بالأساطير التأسيسية للمجتمعات القديمة، ولكن معرفة هذه الاساطير هي أيضاً خبرة جمالية، بما أن الأعمال الدينية لهذه الثقافات القديمة هي ما تركوه لنا باعتبارها أعمالاً فنية. هي عودة للوجود، للكل، تجتذب أغلب الانتقادات الفلسفية للحدثة وتبتعد أكثر فأكثر عن النقد الاجتماعي الذي ينبغي له

الاستناد على مفهوم جديد للذات ينظر إليها باعتبارها رغبة في الحرية وإرادة أن تكون فاعلاً اجتماعياً مستقلاً.

ولكن إذا كان هذان التقدان للحادثة يتعارضان، فقد عمل نيتشه وفرويد على ظهور ثنائية كانت روح التنوير وفلسفات التقدم قد قضيا عليها. وبالرغم من أن عدوهم الأول كان هو المسيحية وتعريفها للذات على أنها النفس التي خلقها الله على صورته، نجدهم يضعون الوجود في مواجهة العمل. إنهم يبحثون عن ما هو أساسى وطبيعى وبيولوجى، داعين إليه ضد ما هو اجتماعى والذي ينظر إليه على أنه التعبير النهائى المتحقق لما يسميه نيتشه بالعدمية، والتي تحرم الإنسان من قدرته على الابتكار وتخرجه من نفسه لتلقى به فى المجتمع، الذى هو إله الحادثة. وهو ما يخلق تعارضاً بين المجتمع النفعى والفرد الذى تحركه قوة إيروس الحيوية. ويتقارب نيتشه وفرويد فى نقدهما للمجتمع الحديث، ولكن نيتشه يرفض تماماً فكرة الذات وحركة تحقيق الذات التى أدخلتها المسيحية، فى حين أن فرويد لا يفصل تدمير الوعى والأنا عن البحث عن أنا ذات فاعلة Je تجمع فى داخلها الليبيدو والقانون رافضة لرغبة التدمير الذاتى وسلطة الرئيس. ولهذا السبب فإن هذا الكتاب يظل دائماً بعيداً عن فكر نيتشه لكنه يبقى فى ظل فرويد.

إن تحطيم الأنا، فى مجتمع حديث، تحل فيه الحركة وعدم التحديد محل النظام والواجب تجاه الدولة، يشير أكثر من أى تغير آخر، إلى نهاية الحادثة الكلاسيكية. وقد بدت لنا هذه الحادثة لزمان طويل المعارض للمجتمع التقليدى؛ باعتبارها كانت تنادى بإن الفرد، بدلا من أن يشغل المكان الخاص به، عليه أن يتماهى مع العقل الكونى، وعلى التعليم أن يرتفع بالطفل إلى مستوى القيم غير الشخصية، قيم المعرفة والفن. ولكنه منذ نيتشه وفرويد اللذان يمكن أن نعتبرهما مؤسسى ما بعد الحادثة، تبدو لنا هذه الحادثة التقليدية أقرب إلى المجتمع الدينى التقليدى منه إلى الحادثة كما نعيشها فى القرن العشرين. فمملكة العقل هى مملكة ما هو كونى.

مازال الكونى هو مملكة العقل، رغم أن توكفيل كان عنده مبررات تجعله يصرح بأن كل شئ فى المجتمع الحديث يرجع إلى الحياة الخاصة. إن إنتصار النزعة الفردية كمقابل لتدمير الأنا يجدد حداثة جديدة ويفرض علينا مراجعة التحليلات التى تلقيناها من فلسفة التنوير والتقدم. ولم يعد الامر مجرد تحليلات لأن عديداً من تيارات الفكر الكبرى قد تكونت واستقلت فى نهاية القرن التاسع عشر وفتح التعارض بينها حقلاً لا نهاية له من النقد الثقافى .

أزمة الهوية الشخصية كانت هى رد الفعل الأكثر قوة والذي ساد ثقافة فيينا. ويوضح لنا جاك لوريديز Jacques Le Rider على أثر كارل شورسك Schorske Karl، الملامح الغالبة لهذه الأزمة والتى كانت قبل كل شئ أزمة الهوية الذكورية والهوية اليهودية. فعلى أنقاض الهوية المدمرة ينفث عالم مفكك ومتغير الماهية. عدم تحديد الأنا، فى نظر البعض مثل روبرت موزيل Robert Musil، له جوانب إيجابية وآثار سلبية، ولكن بالنسبة للجميع يفقد الإنسان خصائصه كما يقول موزيل الذى كان قد تابع عن قرب سيكولوجيا ماخ Mach عندما تحدث عن الأنا الذى لا يمكن إنقاذه. وفى السوسيولوجيا كان جورج زيمل Georg Simmel هو الذى أعطى لهذا الإبدال للقانون العقلى بالقانون الفردى مكاناً مركزياً. ولكن هذه الفردية المتطرفة لا يمكن إحتمالها. لأنها لا تمنح أى إجابة على سؤال الهوية وأى قبول لتحديد شخصى أو إجتماعى. هل أنا رجل أم امرأة؟ وهو سؤال قد دفع بالرئيس شريبر Schreber إلى الجنون. أنا يهودى أم ألمانى؟ سؤال دفع بالعديد من المثقفين اليهود إلى حدود العداء للسامية. ينمو تدمير الذات خارج المكان الذى تنعدم فيه راحة العقل فى إتجاهين مختلفين.

الإتجاه الأول والأهم من الناحية الثقافية، وهو العودة إلى الشمول الذى افتتحه نيتشه وكان شوبنهاور قد مهد له. فيتحدث روبرت موزيل عن الانسان بلا خصائص بالمعنى الذى نجده عند أرنست ماخ وكذلك لدى إيكهارت Maitre Eckhart الذى كان

يعرف الله بأنه موجود وبلا خصائص ويدعو الانسان إلى اكتشاف الطريق الذي يقربه منه فيما وراء أى تحديد شخصى أو إجتماعى. يحاول موزيل كنيته أنه يجد السلام فى الشمول. وهكذا تسود النزعة الصوفية نهاية القرن كما يسودها كل تنويعات فلسفة الحياة (Lebensphilosophie)

ولكن هذه العودة إلى الفن وإلى الواحد لا تجذب إلا أولئك الذين يتصورون إنقاذ فرديتهم بهذه الطريقة ويعتبرون أنفسهم عابرة. إن الاستنفاد المزيج للمجتمع التقليدى والفكر العقلى الكلاسيكى قد أوجد حركة كبرى للدفاع عن الهوية الجماعية التى صاحبت صعود القوميات وأدت إلى سطوع النازية الذى يعنى الأبصار، تلك النازية التى تحدد المرأة لتخضعها للرجل واليهودى لتقضى عليه والامة لتعلن رقى الجنس الألمانى والامة الألمانية على غيرها. كان المثقفون ورثة التنوير يكافحون ضد القومية والتى بدأت فى باريس وفيينا فى نفس الوقت مع قضية درايفوس (*) Dreyfus. ولكن المثقفين الليبراليين والوطنيين لا يستطيعون تجاوز أزمة الحداثة. أنهم يحاولون العثور على الوحدة عبر رؤية للعالم عقلانية أو شعبية. وهو ما يؤدى إلى إنتاج خطاب عبثى فى جانب وصياح همجى فى جانب آخر.

هذه المحاولات اليائسة لن تمنع تفكيك المفهوم العقلى للحداثة لأن يصل إلى مده. وسوف نتابع هذا الاستنفاد للايديولوجيا الحداثية قبل البحث، فى الجزء الثالث، عن مخرج لهذه الأزمة والتى هى أزمة التنوير والعقل والنقد التاريخى فى الوقت ذاته.

(*) الفريد درايفوس (١٨٥٩-١٩٣٩) ضابط فرنسى من عائلة يهودية أتهم فى أواخر القرن التاسع عشر بالتجسس لحساب ألمانيا، وأدى ذلك إلى انبعاث موجة من الشوفينية والعداء للسامية اجتاحت فرنسا. وانقسم المجتمع الفرنسى الى معسكرين : أنصار درايفوس ويضم المثقفين والاشتراكيين والجمهوريين؛ وأعداء درايفوس ويضم المحافظين ورجال الدين والملكيين.

الفصل الثالث

الأمة والمؤسسة الإنتاجية والمستهلك

فاعلى الحداثة

إلى جانب النقد الثقافى للتفاؤلية التاريخية كان هناك بإستمرار نقد تاريخى عملى للأوهام الوضعية. هذا النقد التاريخى يرى ان المجتمع الحديث أو الصناعى لا يمكن إحتزاله إلى مجرد إنتصار الحساب والسلطة العقلية الشرعية. إن هذا المجتمع من إنتاج المؤسسة، يحمله الوعى القومى فى طياته ويحدده أكثر فاكثراً طلبات المستهلكين. ولا يعتبر أى من هؤلاء الفاعلين الثلاثة مجرد فعل أداتى.

إن الأمم تتحد بالثقافة أكثر مما تتحد بفعل إقتصادى؛ وتهدف المؤسسات الإنتاجية إلى الربح والقوة وينفس القدر تهدف إلى التنظيم العقلى للإنتاج؛ ويدخل المستهلكون فى إختياراتهم جوانب متنوعة من شخصياتهم بقدر ما يسمح لهم مستواهم فى المعيشة بأشباع حاجاتهم الغير أساسية والتي تخرج عن القواعد والأطر التقليدية. إن انفراط الفكرة التقليدية عن الحداثة وإيديولوجيا التنوير والتقدم قد تم مؤخراً نتيجة لإعادة إكتشاف هؤلاء الفاعلين وكذلك نتيجة لفكر نيتشه وفرويد. وسوف أحاول أن أبين فى هذا الفصل أن كل فاعل منهم – الأمة، المؤسسة الإنتاجية، المستهلك – يمثل نقطة من النقاط المحورية فى هذه الحداثة المنفرطة، مثله مثل أنثروبولوجيا الهو التى بلورها نيتشه وفرويد والتى تمثل النقطة الرابعة.

ينبغى إعتبار النظرية والتطبيق معاً كتجليات متكاملة لنفس الأزمة الثقافية العامة وهى أزمة الحداثة. الجنس، والقومية والربح والحاجات تلك هى القوى التى تشكل علاقاتها وتكاملها ولا سيما تعارضها، لحم المجتمع الصناعى ودمه. بشكل جعل ممن نظروا إلى الحداثة على انها فقط إنتصار العقل الأدوات يقاتلون ضد صورة معدمة

وفقيرة، لدرجة لا يمكن معها أن يحرزوا إنتصاراً حقيقياً ؛ إذ هم لا يفعلون سوى أن يزينوا ببعض الصيغ النظرية فعل القوى الواقعية التى تعمل فى المجتمع الصناعى أى الجنس والقومية والربح والحاجات. ولكن ينبغى النظر إلى المجتمع فى كل أبعاده بالتفكير سواء فى ممارساته الإقتصادية أو فى أفكاره الفلسفية

الأمة.

هل يعتبر الفاعلون فى الحياة الإجتماعية حاملين للحدثة أم يتبعون منطقاً آخر فى الفعل؟ لقد استمدت نظريات الحدثة الكلاسيكية قوتها من تبنيها للإجابة الأولى عن هذا السؤال. الأمة هى الشكل السياسى للحدثة فهى تضع محل التراث والتقاليد والإمتيازات مجالاً قومياً مندمجاً مبنياً على القانون المستوحى من مبادئ العقل. وينفس الطريقة تعتبر المؤسسة الانتاجية فاعلاً عقلانياً ويفضله يصبح العالم تقنية للإنتاج، ويصبح السوق معياراً للحكم على نتيجة الترشيح فى المؤسسة. أما فيما يخص الإستهلاك، فهو يتحرر شيئاً من التحدد بالعادات والقيم الرمزية المرتبطة ببعض أنواع الملكية فى كل ثقافة. أنه ينبع من إختيارات عقلانية بين الإشباع المحدد بمعيار مشترك وسعر السلع والخدمات.

لقد عبرت الاطروحة الحداثية عن نفسها بقوة كبيرة فى إطار الأمة، وفى إطارها أيضاً واجهت أعنف المقاومات. هذه الاطروحة كانت متبناه بصورة واسعة جداً فى فرنسا حيث كتب لويس دومون أن "الأمة هى المجتمع الشامل المكون من بشر يعتبرون أنفسهم أفراداً" (كتاب "رسالة فى الفردية" [ص21]) ولكن المؤلف البريطانى أرنست جيلنر Ernest Gellner هو الذى أعطاه صيغتها المبلورة. وذلك بتعريف الأمة بأنها الصلة بين وحدة سياسية وثقافية ما. ويبين كيف أن المجتمعات الحديثة والصناعية تحتاج إلى ثقافة قومية، أى ثقافة بنيت من أجل الأمة وبواسطة الامة لتتجاوز الثقافة التراثية المحلية التى تقاوم التغير. وبدلاً من تصور أن وجود ثقافة قومية هو الذى يؤسس

الأمة والقومية يكون العكس هو الصحيح : الدولة القومية هي التي تنتج، وخصوصاً بواسطة المدرسة، ثقافة قومية. وتلك رؤية دوركايمية تلعب الثقافة فيها دور خلق الوعي الجمعي. الدولة تنتشر وتعمم وتفرض ثقافة تم بلورتها فيما قبل، ولا سيما لغة تصبح لغة قومية بفضل المدرسة، والإدارة العامة والجيش. هذا مفهوم عقلاني وحدائي هدفه الأساسي محاربة النزعات القومية والشعبوية التي تزعم وضع السياسة في خدمة الأمة والشعب، وكأنهما كانا موجودين قبل تدخل الدولة. جلنر هنا قريب من التراث الفرنسي الذي يرى أن الدولة هي التي خلقت الأمة وخلقت فرنسا نفسها، منذ الملوك إلى الثورة والجمهوريات المتعاقبة. ولكن جلنر يطبق أطروحته على الأمم الحديثة أساساً ناقداً قضيتهم المفضلة وهي النهضة القومية. فالأمر يتعلق بميلاد وليس بنهضة. ولكن هذه الأطروحة يواجهها مع ذلك اعتراضات قوية، لأن الحداثة التجارية والصناعية تنادي بالأفكار الكونية للانتاج والترشيد والسوق وليس بفكرة الأمة. وعديد من النخب الحاكمة قد حرصوا على إدخال بلادهم في التبادلات الدولية وليتم لهم ذلك، وحاربوا بعض أشكال الحياة الإقتصادية والإجتماعية والثقافية. وكثيراً ما ثار أيضاً منتجو المعرفة وناشروها ضد القومية.

وما أن نبتعد عن الأماكن المركزية للتنمية الإقتصادية حتى تتفصل الحداثة وينفصل المجتمع عن الدولة، لأن الدولة تصير خالق الحداثة وليس مندوبها. وهي باسم استقلال الأمة تناضل ضد خصومها الأجانب وتقوم بتحديث الإقتصاد والمجتمع، كما فعل نابليون في كفاحه ضد إنجلترا والإمبراطور ميخى عندما دفع باليابان إلى التصنيع لينقذها من السيطرة الأمريكية أو الروسية. قامت ألمانيا وإيطاليا وكذلك اليابان وبلاد كثيرة بعدهم، بالربط بين التحديث والحفاظ على الثقافة القومية أو بعثها لأنه إزاء حداثة متماهية مع التجارة الأنجليزية أو اللغة الفرنسية ماذا بوسع دولة قومية أن تفعل للدفاع عن إستقلالها سوى تعبئة المصادر غير الحداثية سواء كانت ثقافية أو إجتماعية أو إقتصادية؟ كما أن الملاك والعقاريين، اليونكرز البروسيين أو الديامبوس اليابانيين هم

الذين أخذوا، في أغلب الأحيان، المبادرة بالتنمية الرأس مالية. إن الدعوة إلى الإخلاص الإجتماعي التقليدي هي التي سمح لبلاد دخلت الحداثة مؤخراً أن تعبى مصادرها. وهذه الحركة لم تلبث أن تضخمت حتى وصلت الذروة مع الاسلامية islamisme البعيدة عن السلفية وحتى عن التقوى الإسلامية والتي تعبى النخب التحديثية، لطلاب العلوم والطب على وجه الخصوص. وفي هذه الحال، تدخل قضية النهضة الثقافية في صراع مع السلفية وكذلك في صراع مع الحداثة الليبرالية.

وفي بقاع أخرى وبالأخص في أمريكا اللاتينية يتخذ المزج بين القومية والحداثة أشكالاً أكثر تنوعاً. وإذا كان إرتباطهما، في البرازيل بين الحريين العالميين، قد أتاح ميلاد الحركة الفاشية الوحيدة في القارة، وهي التمامية integralisme فإن هناك في بلاد أخرى، نظماً قومية شعبية تدعوا إلى اشتراك موسع لسكان المدن الجدد تكون دعواتهم الحداثية على نفس الدرجة من الأهمية مع الدعوات القومية. كان جلنر إذن على حق عندما أكد على أن القومية تأتي من أعلى، من الدولة، ولكنه على خطأ عندما لم ير أن هذه الدولة ينبغي لها أن تستند على التاريخ والخصوصيات الموروثة لتعبئة القوى القادرة على مقاومة هيمنة القوى المركزية الكبرى. القومية هي تعبئة الماضي والتراث في خدمة المستقبل والحداثة. أنها تفتح باب الثقافة المحلية لرياح الحداثة والعقلنة، ولكنها تنشئ كياناً قومياً تحديثياً أكثر منه حديثاً. وكلما كان ارتباط بلد ما بأصوله وتراثه كبير كلما ابتعد عن مراكز الحداثة وشعر أنه مهدد بامبريالية أجنبية. ليست الأمة هي الشكل السياسي للحداثة ولكنها الفاعل الاساسي للتحديث وهو ما يعنى أنها الفاعل غير الحديث الذي يخلق حداثة ويسعى للتحكم فيها وفي نفس الوقت يقبل أن يفقدها جزئياً لمصلحة الانتاج والاستهلاك اللذين يكتسبان طابعاً عالمياً.

إلى جانب هذه النظرة من المركز إلى المحيط ينبغي أن تكون هناك نظرة من المحيط إلى المركز. وذلك لأن الأفريقي والأمريكي اللاتيني لهما أسبابهما الوجيهة للشك

فى أن يكون كل ما يأتى اليهم من فرنسا أو الولايات المتحدة أو من انجلترا تعبيراً عن الحداثة. فهو فى الغالب سيطرة استعمارية أو فرض لنماذج ثقافية غريبة. عندما يعلم الفرنسيون الجزائريين، "أجدادنا الغاليون" أو عندما تنشر الولايات المتحدة فى أمريكا اللاتينية كتباً مدرسية تتحدث عن الزراعة فى كنساس وليس فى التيبلانو، كيف يمكن أن نجد الجرأة على إعتبار هذا الإستعمار تحديثاً فى حين انه ليس إلا غزواً؟ كان يلزم كل صلف البلاد المسيطرة لى تطابق بين قوميتها وكونية العقل.

اليوم تم تجاوز هذه القوميات التحديثية لأن الاقتصاد والثقافة أصبحا شيئاً فشيئاً عابرين للقوميات، وهو ما لا يستبعد أن نجد بعض البلاد، مثل الولايات المتحدة اليوم أو ربما اليابان غداً، تتحكم ثقافياً فى جزء كبير من المعلومات المبتوثة على مستوى الكوكب. وهو ما أدى من زمن إلى وجود قطيعة عنيفة بين التحديث والقومية. إن القوميات بإعتبارها فاعلين غير حديثين للحداثة، قد أصبحت أكثر فأكثر قوى لمقاومة التحديث وتنتشر أفكاراً معادية للكونية بشكل صريح؛ وتصل إلى ذروتها بإقرار التفوق المطلق لثقافة ما أو حتى لجنس معين. هذا التحول من التحالف بين الأمة والحداثة قد وصل إلى أشكال متطرفة فى أوروبا فى القرنين التاسع عشر والعشرين، كلما تقدم التصنيع. ففي زمن التصنيع الألماني الكبير، فى نهاية القرن التاسع عشر وخصوصاً بعد بسمارك، تطورت القومية وتغلغلت فى أوساط المثقفين. فنجد ماكس فيبر يجمع بين كونه ليبرالياً ومعارضاً لمعاداة السامية وقومياً فى نفس الوقت. لقد حل العداء للسامية محل العداء لليهودية عندما إنزاح الخوف من الثقافة اليهودية المعزولة فى الجيتو فى أوروبا الشرقية لصالح الخوف من اليهودى المتحرر، المتماهى مع كونية العلم والتجارة والفن. أصبحت القومية الألمانية والقومية الفرنسية معاديتان للسامية من أجل الدفاع عن ثقافة قومية، وتقليدية يغذيها التاريخ، ضد عقلانية مفسدة وبلا جذور. وهو ما أدى إلى سياسة التصفية الجسدية لدى النازى وإلى إجراءات التمييز والقمع التى قامت بها حكومة فيشى.

إن إنفتاح الأمم على الحداثة والإطاحة بالتقاليد والعوازل الثقافية قد تم في ظرف خاص جداً وهو دخول الأمم الرائدة، إنجلترا وفرنسا ومن بعدها الولايات المتحدة، في الحداثة. سرعان ما أصبح التحالف بين الأمة والحداثة أكثر تعقيداً في كل مكان كف فيه التحديث عن أن يكون ليبرالياً وأصبح إرادياً، وفي كل مكان عبئت فيه الأمة الماضي لبناء المستقبل بدلا من الانفتاح فقط على الرياح الخارجية. وفي النهاية إنقلب الوعي القومي على الحداثة وأصبح أصولياً واستبعد من لا يلتزمون كلية بإرث ثقافي مفسر في الغالب بمصطلحات بيولوجية، واعتبرهم عملاء للخارج أو قوى شيطانية.

كيف لا نرى أن العالم الصناعي الحديث ليس آلة هائلة ولكن كوكبة من الأمم السائدة والمسودة، واثقة أو حذرة من فرصتها في الاحتفاظ بهويتها مع اشتراكها في التبادلات العالمية؟ كان أوجست كونت يعتقد أن تقدم الصناعة سيجعل الحرب أمراً هزلياً إذ ستكون الثورة الناتجة عن الغزو أقل من الثروة الحاصلة من تعاظم الانتاجية الصناعية. وأثبت التاريخ خطأه كما أثبت خطأ من ظنوا أن كونية العقلية سوف تحل شيئاً فشيئاً محل الخصوصيات الاجتماعية والثقافية والقومية. إن صانعي التاريخ ليسوا مجرد مندوبين للحداثة. إن فكرة التحديثيين الكبرى والتي ترى أن النظام يتلائم مع الفاعلين في المجتمع الحديث بفضل تمثل الفاعلين داخلياً لقواعد المجتمع، قد تهاوت وتم تجاوزها من قبل الواقع التاريخي والذي يصنع الشيوخ فيه ما هو جديد. وعبر الخصوصية نتقدم إلى الكونية أو نواجهها. رغم أن العديد من المفكرين قد اعتقدوا أن التحديث هو المرور من الخصوصية إلى الكونية وإلى الإعتقاد وفي العقل. لا يمكن أبداً إختزال الفاعل الاجتماعي إلى مجرد الوظائف التي يشغلها في النظام العام كما لا يمكن إختزال المجتمع إلى حلقة في تاريخ يكشف الفلاسفة أو الاقتصاديين عن اتجاهه. في مثل هذا الفصل، الجزئي أحيانا والتام أحيانا أخرى، بين الحداثة والفاعلين في المجتمع يمكن حدوث أزمة الأيديولوجيا الكلاسيكية للحداثة والتي كانت تقوم على تأكيد إرتباطهما التام.

أن فصل الحداثة، الكونية عن التحديث الذى يتبع طرقاً ويعبئ موارد خاصة أو قومية أو محلية قد اتخذ فى نهاية القرن العشرين، أشكالاً أكثر جذرية من القرن الماضى الذى أمكن فيه البحث عن توفيق بين المسألة الإجتماعية والمسألة القومية كما فعل الماركسيون النمساويون. ولكن نقل الطرق القومية شيئاً فشيئاً لأن الحداثة تزيد تدريجياً المسافة بين توافد الثروة والمعلومات فى السوق العالمى والتماهى مع منظومة ثقافية وإجتماعية. ويمكن أن تتحطم الساحة العمومية ووجود الحياة الإجتماعية نفسه بواسطة الهوة الكبرى بين السلوكيات الإقتصادية والسلوكيات الثقافية، وبين موضوعية السوق والوعى الذاتى للانتماء. إن سكان مقاطعة كوبيك فى كندا لا يحلمون باقتصاد قومى كما كان يريد الألمان أو اليابانيون فى القرن الماضى ولكنهم يريدون على العكس أن يوفقوا بين مشاركة مباشرة فى الاقتصاد الأمريكى الشمالى وبين الدفاع عن هويتهم الثقافية كما يفعل سكان الفلاماند أو كتالونيا فى أوروبا. وينفس الطريقة عندما طالب السلوفانيون والكروات بإستقلالهم كانوا يريدون الاندماج فى السوق الأوروبية المشتركة قبل سكان مقدونيا ومننت نيجرو .

ألم تكن القومية خطيرة بشكل خاص عندما كانت مسخرة لخدمة دولة تحديثية ومتسلطة وقومية والتي كانت تدعو إلى الفكرة المصطنعة عن الشعب Volk لكى تبنى فى احسن الاحوال دولة قومية وفى أسوأها سلطة مستبدة باسم الشعب أو الدولة أو الزعيم؟ اليس ذلك تأكيداً على الصلة بين الحداثة والقومية سواء فى شكلها الاستعمارى أو فى شكلها القومى والتي كان لها أثراً مدمرة. فى حين أن الفصل بين الحداثة والإقتصادية والوعى القومى، الذى يمكنه بالتأكيد أن يقسم المجتمع إلى قسمين يعلو أحدهما على الآخر ويظلا بلا أى تواصل، ليس له مثل تلك الآثار المأساوية؟ هذا الفصل يبدو لى أحد أهم وجوه تداعى الفكرة الكلاسيكية عن الحداثة، وتداعى مفهوم التحديث الذى يعتبر التصنيع وترسيخ الديمقراطية وتكوين الدول القومية ثلاث جوانب مستقلة من نفس المسار العام. مثل هذه الفكرة التى يتمسك بها الليبراليون مثل سيمور مارتن

لبست وماركسيون مثل إريك هوبسباوم Eric Hobsbawm ينبغي التخلي عنها بحسم. إن الفكرة المقابلة هي التي تتناسب بشكل أفضل عالم اليوم، وهي فكرة الفصل المتنامي بين الجوانب المفترضة للعقلنة المنظور إليها باعتبارها هي الحداثة.

المؤسسة الإنتاجية

يبدو من الصعب عدم إعتبار المؤسسة الإنتاجية فاعلاً للحداثة التي يكون الترشيد ماهيتها. الإنتاج بفاعلية، الاستجابة للطلب المعبر عنه في السوق، البحث عن الربح الأقصى، تنوع الاستثمارات، كل هذه الجوانب التي تشكل جوهر إدارة المؤسسات الإنتاجية أليست هي بنفس القدر تطبيقات للعقلانية الاقتصادية؟ ولكن المكان المحدود الممنوح للمؤسسة الإنتاجية في تحليلات النشاط الاقتصادي هو ما يوقظ الشك. ففي حقبة أولى كان الحديث يدور أساساً عن رأس المال وعن الدورات الاقتصادية وبصورة أقل عن آثار الابتكارات التكنولوجية على النشاط الاقتصادي. في الحقبة الثانية من تاريخ تحليل الانتاج كانت فكرة الترشيد هي السائدة. ولكن إبتداءً من تايلور وفرويد وحتى العصر الذهبي لمدارس الأعمال الأمريكية business Schools في الخمسينات والستينات بدت المؤسسة الإنتاجية هي الإطار الحقيقي والملموس للتحديث. لقد أشار الخبراء على المؤسسة بتطبيق مبادئ عقلانية التنوير، وتعريف وظائفها ومستوياتها المراتبية، وبتحديد مرور المعلومات والأفكار والبضائع والبشر فيها بشكل ماهر، بإختصار تنظيم وتحديد تلك التجمعات التي تزداد تعقيداً مع الزمن. إن الإدارة ent-mangem التي انتقلت من الولايات المتحدة إلى أوروبا بعد الحرب العالمية الثانية تطبق مبادئ ذات قيمة عامة على مواقف خاصة، حتى وإن أستخدمت دراسة الحالة استخداماً كبيراً. ولكن هل، في هذه الفترة التي تمثل ذروة الصناعة الأمريكية، شغلت فكرة المؤسسة الإنتاجية مكاناً مركزياً؟ لا. لم يتم ذلك بأي صورة من الصور. فبالنسبة لتايلور وفورد تظل الورشة وموقع العمل هما نقطتا التدخل الأساسيتين. وتعاليم الإدارة لا تتحدث عن المؤسسة الإنتاجية ولكن على التنظيم وهو ما يعنى إحلال مبادئ عامة

محل الفاعل الإقتصادي الواقعي. وفي إطار منظور مختلف تحدث الكثيرون في القطاع العام كما في القطاع الخاص عن دور التكنوقراطيين الذين يستندون على معارفهم التقنية أو الإدارية أو المالية فيدخلون كمتخصصين في الإنتاج. كان فاعلو النشاط الاقتصادي مرشدين ومنظمين فصارت فكرة المؤسسة الانتاجية هامشية.

تكونت، بشكل موازي، صورة مختلفة تماماً للمؤسسة الانتاجية ولكنها تؤدي إلى تجريدها من أي أهمية؛ فقد كان ينظر إليها على أنها أرض الصراع الطبقي والحركة العمالية التي تضع عمل العمال في مواجهة ربح الرأسمالي، واستقلال المهنة والثقافة العمالية في مواجهة هذه السلطة الاقتصادية التي تتحول إلى حواجز طبقية، وأشكالاً سلطوية للقيادة، عبر الفصل بين مستويي التصور والتنفيذ الذي لم يكن نتيجة للتنظيم العلمي للعمل فحسب ولكنه بالأحرى كان تعبيراً عن السيطرة الطبقية. كانت الحركة العمالية والمؤسسة الانتاجية حقيقتين متعارضتين طوال الوقت أو كلتاها غريبة عن الأخرى. تقع الحركة العمالية في مستوى مكان العمل، والموقع والورشة، وأيضاً في مستوى المجتمع في مجمله. كما تضع الحركة العمالية طبقة في مواجهة أخرى، ليس بإعتبارهما ثقافتين أو جماعتين إجتماعيتين متعارضتين ولكن بإعتبار كل منها نموذج إجتماعي مختلف في استخدام الصناعة والآلات وتنظيم العمل. ولهذا حين كانت الحركة العمالية قوية، أدت إلى مواجهات حادة - النزعة النقابية ذات النشاط المباشر والتي تسمى غالباً ثورية - كما أدت إلى نضال سياسي يضع الاشتراكية في مواجهة الرأسمالية. بين هذين المستويين من النشاط الجماعي تلعب المؤسسة الانتاجية دوراً ثانوياً سواء بالنسبة للمديرين - مهندسين أو ماليين - أو بالنسبة للأجراء الذين ينظرون للمؤسسة على أنها شكل من أشكال المجتمع الطبقي. ولأن تلك النظرة التي رفعت النقابية إلى مستوى الحركة الإجتماعية لم تعد تناسب الواقع الحالي فقد بدت المؤسسة الانتاجية الآن كفاعل إقتصادي مستقل.

لقد كفت المؤسسة الانتاجية عن أن تكون التعبير الملموس للرأسمالية، أنها تبدو أكثر فأكثر وحدة استراتيجية فى سوق دولى تنافسى وكعامل لإستخدام التكنولوجيات الجديدة. فليست العقلنة ولا السيطرة التطبيقية هى التى تُعرّف المؤسسة الانتاجية التعريف الأفضل، ولكن تقوم إدارة الأسواق والتكنولوجيات بهذا التعريف على أفضل وجه. هذا الإنتقال من التحليل عبر مصطلحات الطبقات الإجتماعية والترشيد إلى تحليل آخر عبر مصطلحات الاستراتيجية، يغير تماما تصورنا للمؤسسة الانتاجية. فطوال ما نتحدث عن الترشيذ وصراع الطبقات نبقى أسرى الصورة الكلاسيكية للحدائة وتطبيقاتها الإجتماعية، وفى المقابل عندما تكون المؤسسة الانتاجية محددة عسكرياً وصناعياً، وهو ما يفترض استخدام كلمة "إستراتيجية"، يصبح الفاعل أكثر من مجرد مندوب للتحديث.

كان جوزيف شومبيتر هو الذى أعطى أهمية كبرى للمستثمر ذاهباً حتى إلى حدود المفارقة لأن يرى أن الرأسمالية تتسم بروح الروتين المتنامى كلما أدت المنافسة إلى خفض معدل الربح. هذه الرأسمالية، المحكوم عليها بالموت والتى ينبغى أن يحل محلها الإقتصاد المخطط لم تستمر، كما يعتقد، إلا بتدخل رؤساء المؤسسات الانتاجية الذين أدخلوا القيم الارستقراطية الحربية فى عالم الروتين، والذين هم فى نهاية الأمر عناصر الابتكار. إن الصدام الذى تم بين الجيش الصناعى الأمريكى والجيش الصناعى اليابانى وإنتصار الأخير أدى إلى سرعة تغير صورتنا عن المؤسسة الإنتاجية مؤخراً. لأنه إذا كانت المؤسسة الانتاجية الأمريكية موجهة إلى الترشيذ وإلى السوق أو المرونة، فإن المؤسسة اليابانية تفكر فى ذاتها وتضع فى المقام الأول تحديد أهدافها وتعبئة مواردها التكنيكية والبشرية لتحقيقها. هذا السعى لإندماج المؤسسة الانتاجية يؤدى أساساً إلى تخفيض الفوارق الإجتماعية وهو ما لا يعنى إختفاء علاقات العمل التسلطية. ما أن نبدأ الحديث عن استراتيجية المؤسسة الانتاجية وليس عن القواعد العامة للترشيذ حتى تصبح المؤسسة فاعلاً جوهرياً فى الحياة الإجتماعية، لم يعد يمكن لأى تحليل أن

يكتفى بإختزالها إلى مجرد وحدة أساسية للنظام الراسمالي. ويتبدى ذلك فى القطيعة المتنامية بين إقتصاد عام macro - economie بالغ التقنين، ومجدى للقرارات الحكومية، وإقتصاد خاص micro - economie يقترب من دراسة الإدارة أى من المنظور السوسيولوجى. فدراسة النظام تتفصل عن دراسة الفاعلين . وهذا هو الموضوع الرئيسى فى هذا الفصل والذي يصلح للمؤسسة الانتاجية كما يصلح للأمة وللأستهلاك ويهدف إلى تحطيم صورتنا عن الحداثة، تلك الفكرة التى يحددها الفاعلون عن طريق إمتثالهم أو انحرافهم عن اتجاه للتاريخ ينتهى إلى الإنتصار التدريجى للعقلانية.

الإستهلاك

فى هذا المجال يبدو أنه من الصعب إدراك القطيعة بين النظام والفاعلين إن أفكارنا عن الاستهلاك قد سادها لفترة طويلة من الزمن نوعين من التفسير : طبقاً للأول، يكون للاستهلاك شكل السلم الذى يبدأ من الملكيات الضرورية جداً والغذاء إلى أولئك الذين يتمتعون بقدر كبير من حرية الإختيار، فى الترويح، مروراً بالملابس والسكن؛ طبقاً للتفسير الثانى يعتبر الاستهلاك لغة تعبر عن المستوى الإجتماعى، لأن كل ما يظن شخص منا انه ذوقه الخاص يحدده الموقع الذى يشغله فى المجتمع وميله إلى الإرتفاع أو الهبوط داخل هذا الموقع بشكل يبدو فيه الاستهلاك محدداً تماماً بالوضع الإجتماعى. هذا التصور، مثله مثل التفسير الذى كان يختزل الأمة او المؤسسة الانتاجية إلى مجرد شكل من أشكال الحداثة يرتبط تماماً بتعريف لهذه الحداثة متكيف مع مجتمع يقوم على الانتاج. وأولئك الذين حرصوا دائماً على الاحتفاظ برباط وثيق ومباشر بين الحداثة والعقلانية أدانوا دائماً مجتمع الإستهلاك صوناً لفكرة مجتمع الانتاج المتمحور حول العمل والتنظيم العقلانى للانتاج والتوفير والإندماج القومى. وهو ما يفسر النجاح الذى لاقته رسالة فيبر عن العلاقة بين البروتستانتية والرأسمالية. إن ما كان يبعث على الطمأنينة فى الصورة الفيبرية للرأسمالية، هو زهداها. وما كان مرفوضاً بالنسبة

للاستهلاك كان مقبولا بالنسبة للعلم ولعبادة العقل الموضوعي. والصورة التي كونها للحدائق بقيت لفترة طويلة مرتبطة بالفكرة المسيحية عن الزهد والحياة البسيطة، والحذر تجاه اللذة. ألم تعلمنا المدرسة المدنية وكذلك المدرسة الدينية، بمصطلحات متوازنة أكثر منها متعارضة، أن نتحكم في غرائزنا لكي نصبح عمالاً جيدين ومواطنين جيدين وأباء جيدين وأمهات جيدات. فصحيح أيضاً ولفترة طويلة - طوال القرن التاسع عشر تقريباً - أن التصنيع لم يغير بشكل عميق أنماط الاستهلاك، وفيما بعد نجد أن الثلاثين سنة المجيدة بعد الحرب العالمية الثانية قد سميت كذلك بفضل معدل التوفير والاستثمار المرتفع جداً، وصحيح أخيراً، أن الحاجة التي كان يلبيها الانتاج أثناء هذه الفترة تتعلق أساساً بالمعدات المنزلية وبالتالي تدخل ضمن إطار المجتمع الصناعي. فقط ابتداء من عام 1968 - وهو عام لا ينسى لأنه ملئ بالرموز - بدأت بلاد أوروبا الغربية في اللحاق بالولايات المتحدة في مجتمع الاستهلاك الذي كانت قد دخلت فيه بعد الانهيار الكبير والحرب.

هذا التحول حديث جداً وشديد العمق حتى أننا لم نتمثله بعد. مازالت كلمة الاستهلاك محملة بمعاني سلبية في حين أن كلمة الانتاج مازالت تحتفظ بدلالات إيجابية، والنظريات العقلانية للاستهلاك سواء كانت مؤيدة أو ناقدة، تبذل جهداً مضاعفاً لتجعل من هذا الاستهلاك إما علامة على مستوى المعيشة أو نمط سائد لتحكم النظام في الفاعلين. ولكن ما جدوى هذا القتال في حرب خاسرة سلفاً؟ من المستحيل اختزال الاستهلاك إلى المصلحة أو الوضع الاجتماعي فقد غزاه الاغراء والانطواء القبلي والرجسية، مظاهر شتى لا يقبل أى منها أن يختزل إلى صورة المجتمع الهرمي للانتاج.

كان للاستهلاك التقليدي أو التابع لانشطة الانتاج ثلاثة اتجاهات رئيسية : إعادة إنتاج قوة العمل والرمز للمستوى المعيشي والعلاقة مع عالم الأفكار غير النفعي. أما الإستهلاك الذي يمكن أن نسميه الاستهلاك الضخم، بالرغم من عدم إنفصاله عن الدخل، له هو الآخر ثلاث جوانب : يأتى تشكل جماعات جديدة أو قبائل ليحل محل إعادة

الإنتاج المادى والثقافى، وبدلاً من المراتبية فى نوعية الاستهلاك يأتى ميلاد المستهلك الغائى prosommateur حسب تعبير توفلر Toffler أى المستهلك الذى يمثل غاية المؤسسة الانتاجية وهو ما يحدد وضع التلميذ أو الطالب بالنسبة للمدرسة أو الجامعة، والمريض بالنسبة للمستشفى والجمهور بالنسبة للتلفزيون. وأخيراً تتحول الدعوة للثقافة الراقية إلى دفاع وتأكيد للشخصية الفردية. ففى شكل الإستهلاك القديم كما فى الشكل الحديث يكون الاستهلاك أحياناً دفاعياً وأحياناً تقليدياً وأحياناً محرراً. ولكن ما يهمنا فى هذا المجال هو ان المستهلك، سواء فى الشكل القديم أو الشكل الحديث ينفصل عن الوضع الاجتماعى كما ينفصل الفاعل عن النظام.

إن الدخول إلى مجتمع الاستهلاك، يعنى، أكثر من أى تغير اجتماعى آخر، الخروج من المجتمع الحديث، باعتبار أن أفضل تعريف لهذا المجتمع هو أن السلوكيات تتحدد بموقع الفاعلين فى عملية الإنتاج، سواء فى مقدمتها أم فى مؤخرتها، فى أعلاها أم فى أسفلها. يتفكك هذا الدرع الاجتماعى والاقتصادى للسلوك ويتحدد الفاعل بالنسبة لذاته برسائل ييثرها جمهور عريض أو بانتماء لمجموعات ضيقة. سيكون هناك مغالاة فى القطيعة مع الحداثة إذا ما تحدثنا، مع بودريار، Baudrillard عن مجتمع خيال simulacre أو دلائل بلا مدلولات. ولكن لمثل هذه الصيغ فضيلة إبراز ضياع المرجع الاجتماعى، هذا الضياع الذى تحاول تفسيرات أخرى إنكاره أو إخفائه. الفاعل لم يعد عقلاً أو تراثاً كما كان يعتقد فيبر، أنه بحث عن الذات وإغراء، وهو مشاهد، ساكن فى النظام البيئى وعضو فى عصابة.

عالم الإستهلاك هذا غريب عن عالم المؤسسة الإنتاجية وعن عالم الأمة. إنه يلتقى بسهولة بالليبدو رغم إبتعاده عنه على خلاف ما يعتقد من يتحدثون عن خلاعية erotisation الاستهلاك. إيروس، أمة، مؤسسة إنتاجية، استهلاك، تلك هى الشذرات المنفرطة للحداثة التى كانت عقلنة وتماهى بين الانسان وأنواره الاجتماعية. واليوم

يختلف منطق الانتاج عن منطق الإستهلاك. فهما لا يتقابلان، فى الايديولوجيا الرسمية على الأقل، إلا فى هذه النماذج الكاريكاتورية للمجتمعات الحديثة وهى المجتمعات الشيوعية التى تداعت فى الليل أمام أعيننا. إن فكرة مجتمع تترابط كل عناصره بتأثير فينا الرعب كفكرة التعليم عندما لا يكون إلا تدريباً على الأدوار الاجتماعية.

لقد وضعت الحداثة فكرة المجتمع محل فكرة الله. ولقد قالها دوركايم بشكل أصرح من الجميع. واليوم تطيح أزمة الحداثة بفكرة المجتمع. كانت هذه الفكرة مبدأً موحداً بل وأكثر من ذلك مبدأً للخير، وأصبح الشر هو كل ما يتعارض مع الاندماج الاجتماعى : فلنقم بأوارنا ولنؤد وظائفنا، ولنعرف كيف نعد العدة للقادمين الجدد ونعيد تقويم المنحرفين. إرتبطت فكرة الحداثة دائماً بهذا البناء لمجتمع، آلى فى بدايته، ثم تحول بعد ذلك إلى نظام وجسد إجتماعى تساهم أعضاؤه فى الأداء الوظيفى الملائم، جسد مقدس وروح خالدة يحولان الانسان الهمجى إلى متحضر، والمحارب إلى مواطن، والعنف إلى قانون. لم يختلف هذا التصور فهو مازال يزين الخطب الرسمية، ولكنه فقد كل قوته. نحن نؤمن فى الغالب بضرورة النظام العام وقواعد اللعبة الاجتماعية، ونحن نخاف من العنف وكذلك من العزلة، ولكننا تعلمنا أن ندافع عن الفرد ضد المواطن والمجتمع، وأن نطلق مصطلح سيطرة أو تلاعب على ما كنا نسميه الاندماج.

إن إنفراط الحداثة إلى أربع قطع موزعة على الأربع جهات الأصلية للحياة الاجتماعية هو فى ذات الوقت حركة رباعية نحو التحرر : فمن جانب تأكيد الإيروس بواسطة نيتشه وفرويد ضد القانون الاجتماعى والصبغة الأخلاقية، ومن جانب ثانى بزوغ الآلهة القوميين فى مواجهة كونية السوق والنقود: ومن جانب ثالث تركيز المؤسسات الانتاجية والإمبراطوريات الصناعية والمصرفية، وهم سادة المجتمع الصناعى والذين يؤكدون رغبتهم فى الفتح والسلطة متجاوزين الوصايا الباردة للكتب المدرسية فى الادارة؛ وأخيراً ظهور الرغبات التى تفلت من التحكم الاجتماعى لأنها لم

تعد مرتبطة بوضع إجتماعى. وقد ولد هذا المشهد الإجتماعى من تفكك النموذج الذى يطابق بين الحداثة وإنتصار العقل.

التقنية.

هل الانفراط تام؟ لو كان الأمر كذلك إذن لاختفت الحداثة. ولكن ذلك لم يحدث، والموقف الذى أصفه، والخاص بقرننا الحالى ينبغى أن يفهم فقط على أنه أزمة للحداثة. وإذا كنت قد تعرضت مراراً لفكر ما بعد الحداثة، ولا سيما لدى نيتشه وفرويد، فذلك فقط للتشديد على أهمية القطيعة التى جاؤا بها. سوف يكون من باب المفارقة أن نطلق مصطلح ما بعد الحداثة على حقبة تبدو للجميع إنتصاراً للحداثة. تقع الحقيقة فيما بين هذه الصورة السطحية وبين فكرة أن نقد الحداثة قد انتصر منذ نهاية القرن التاسع عشر. ووضع الأزمة هذا ينبغى تحديده على وجه الدقة. يؤدى انهيار وأقول العقل الموضوعى إلى الانفصال التدريجى لأربع مجالات ثقافية : إيروس والاستهلاك والمؤسسة الانتاجية والأمة؛ ولكن هذه المجالات ترتبط ببعضها بواسطة العقل الأداة الذى يجدر أن نطلق عليه، امعاناً فى الوضوح، التقنية. وهو ما يتفق مع رؤية فيبر وهوركهايمر. أصبح العقل أدواتاً فحسب؛ واحتلت عقلانية الوسائل مكان العقلانية الموجهة إلى الغايات. وهذا ما يحدد مجتمعاً صناعياً يمنح موقعاً مركزياً للإنتاج الضخم لأدوات التجهيز وتوزيعها وللإستهلاك. وما تسميه السوسيولوجيا الوظيفية النظام الإجتماعى ليس إلا مجرد أداة تكنولوجية لا تدمج الفاعلين الإجتماعيين إلا جزئياً. وهو ما يؤكد عليه فيبر عندما يتحدث، بعد كانط، عن إنفصال القيم الأخلاقية والعقل الاداتى، وعندما يشير إلى "حرب الآلهة" التى هى أيضاً حرب المؤسسات الانتاجية والأمم المصاحبة لتطور التكنيك. وهذا هو الدور الإيجابى للتكنيك، فهو يحمى ضد كل أشكال الشمولية الثقافية.

هذا العالم التقنى ليس معزولاً؛ أنه يضمن الاتصال بين المجالات الثقافية المتنوعة. فبدونه ينفلق كل مجال على ذاته. وسوف نصف فى الفصل الأخير من هذا الجزء "ما بعد الحداثة" كفض اشتباك للتقنية مع هذه المجالات الثقافية التى تكف حينئذ عن إرتباطها بالفعل الاداتى. يمكن للأمة أن تؤكد إستقلالها وإختلافها؛ وينبغى لها أيضاً أن تدير وتنظم الانتاج والاستهلاك، وتجهز جيشاً. وكل هذا يفترض اللجوء إلى التقنية حتى لو كان نظام الحكم ثيوقراطياً أو أصولياً. والمؤسسة الانتاجية عامل على التغيير الاقتصادى قبل أن تكون تنظيمياً، ولكنها أيضاً مجموع تقنيات للانتاج والاتصال. حتى ولو كان فتيان البورصة Golden boys يختزلون عالم المؤسسة الانتاجية مؤخراً إلى توليفات مالية ناسين إقتضاءات الانتاج. وفى مجال الاستهلاك مازال هناك الحساب العقلانى وهناك الإختيارات التى تعبر عن الشخصية أو عن التوجهات الثقافية. وأخيراً لا يمكن إعتبار نيتشه وفرويد معادين للعقلانية. ولنيتشه خصوصاً تصور زاهد لارادة القوة، ويرى فى التعبير غير المحكوم عن المشاعر إنتصار للصبغة الأخلاقية والسيطرة الثقافية وبالتالي تحطيماً لأخلاق الأقوياء. أما فيما يخص فرويد، فإنه إذا كان يضع مبدأ اللذة فى مواجهة مبدأ الواقع، فليس لتحرير الأولى من الثانى، ولكن على العكس ليحتفظ بعلاقة متوترة بين الاثنين، وأسلوبه فى علاج العصاب عقلانى يتعارض مع الأساليب الحديثة فى التعبير الحر عن الاندفاعات العميقة المنتمية إلى ثقافة ما بعد حداثة ينفصل فيها التعبيرى عن الأدوات بل يتعارضان.

ويمكن أن نحدد الخطوط العريضة للحداثة بهذا الشكل : العقلانية الأدواتى هى محور الحداثة ولكنها ليست هى الأساس الذى يستوعبها. وهو ما يوضح خطأ كل الذين، مع مدرسة فرانكفورت أو ضدها، إتهموا المجتمع الصناعى بأنه ليس له مبدأ للشرعية سوى التقنية، أى اعتبروه تكنوقراطياً. هى حقاً فكرة غريبة عندما نطبقها على قرن قد شهد هتلر وستالين، كما شهد ماو وفيدل كاسترو وروزفلت وديجول، ونكتفى بذكر القادة السياسيين نوى الأهمية والذين حددوا بوضوح السمة التى يعطونها لشرعيتهم. أى مجتمع ملموس وأى بلد يمكن أن نقول أنها حكمت بواسطة التكنوقراطية؟

إن المجموعة الحاكمة من النمط السوفييتي هي النقيض للتكنوقراطية فهي تمثل خضوع الاختيارات والوظائف الاقتصادية لسلطة الجهاز السياسي. وفي الرأسمالية لا يؤدي البحث عن الربح إلى تطور القوى المنتجة، والماركسيون على صواب في هذه النقطة الهامة ضد كل من يدينون سطحية الثورة الإدارية بعد جيمس بورنهام James Burnham . إن موضوع التقنية المنتصرة ليس إلا خطأ في الحكم عند من لا يرون في الحداثة إلا استبدالاً للعقل الموضوعي بالعقل الذاتي سواء كانوا يساريين أو من غلاة الليبراليين. المجتمع الحداثي المأزوم مليء بالألوهة المتحاربين وليس بالتقنية فقط. والصخب الذي هز القرن العشرين ينبغي أن يحميننا من هذا التصور الذي يضع المهندس، أو المهني عموماً، في قمة المجتمع، في حين أنه لا يشغل إلا موقعاً وسطاً هو موقع الفنيين. وخطر هذه الايديولوجيا هي أنها تدفع إلى الاعتقاد بأن المجتمع الحديث ليس إلا حقلاً للقوى قد استبعد منه الفاعلون في حين أن الحداثة، مأزومة أم لا، مليئة بالفاعلين الذين يعلنون عن ما يعتقدونه ويقاثلون ضد أعدائهم وينادون ببعث الماضي أو خلق المستقبل.

وفي حدود أكثر ضيقاً، دعمت هذه الايديولوجية حتمية تكنولوجية تسربت في أغلب الأحيان خلف ظاهرة "المجتمع الصناعي". وكأن التكنيك يحدد التقسيم المهني ولا سيما التقسيم الإجتماعي للعمل بحيث يكون المجتمع مؤسسة انتاجية هائلة. وعندما كنت باحثاً شاباً حاربت هذا الزعم، مثبتاً أن تنظيم العمل والترشيد كعنصر مركزي للانتاج الصناعي كان يمثل تأثير نظام الانتاج، بكل جوانبه الاقتصادية والاجتماعية، على عمل العمال ويطيح باستقلاله، كما بينت أن الهروب من هذا العالم المهني والعمالي هو ما يفسر ظهور الحركة العمالية.

وقد عاب جورج فريديمان Georges Friedmann على هذا الموقف الذي صغته من خلال ملاحظة الورش وخاصة في مصانع شركة رينو، أنه لا يرى في المجتمع

الصناعى إلا الوسط التقنى ويصورة أعم الحضارة التقنية التى تتمتع بإستقلال يتزايد مع الوقت عن علاقات الانتاج الإجتماعية. ألا نعيش فى عالم تقنى للانتاج وأكثر فأكثر للإتصال، ينتزعنا من نواتنا ويجعلنا حبيسى الترويح؟ وأنا إذ أستخدم هذا المصطلح المستعار، من بسكال فذلك لأنه كان يتعلق بنقد ذى خاصية دينية يعارض الاقتضاعات الروحية والتأملية للنفس بالأداتية ونفعية الحضارة التقنية. وهذا ما تبينه الدعوات إلى إضافة بعد روحى يحتاجه مجتمعنا الغنى مادياً والفقير روحياً.

لقد لعب فكر جورج فريدمان دوراً هاماً فى التأمل فى طبيعة المجتمع الصناعى وينبغى الانتباه بشدة بهذا الدور. وخصوصاً أن الموضوعات الرئيسية لهذا الفكر قد اعيد تناولها وتفسيرها بشكل واسع بواسطة الايديولوجيات الايكولوجية. واخشى ان يخضع هذا الفكر بسهولة للاغواء ما بعد الحدائى الملحوظ فى مدرسة فرانكفورت والذى يختزل الحدائة إلى التقنية وكأن الفاعلين الاجتماعيين وعلاقاتهم بالسلطة وكذلك توجهاتهم الثقافية تنوب فى بحر التقنيات. وهو فكر ينفع للرد على الماركسية التبسيطية التى لا ترى فى المجتمع الصناعى الا قناع لربح الرأسمالى وتختزل الصراعات الإجتماعية إلى حرب بين مصالح متناقضة.

نعم نحن نعيش فى أيضا فى مجتمع صناعى وليس فقط فى مجتمع رأسمالى أو فقط فى مجتمع قومى، ولكن ما يميز المجتمع الصناعى الذى جاء عقب العقلانية ما قبل الصناعية الخاصة بالمجتمع التجارى أو الخاضع للدولة هو أنه أعطى العلاقات الطبقيّة والعلاقات الاجتماعية شكل التنظيم التقنى للعمل. وكان ماركس هو أول من فهم هذه الخاصية. إذا كانت هناك ضرورة لمتابعة جورج فريدمان فى تحليله للحضارة التقنية فذلك ليس لتفادى تحليل العلاقات الإجتماعية، بل على العكس تماماً، لأنه يساهم فى طرح فكرة أن الصراع الأساسى لم يعد، من الآن فصاعداً، صراع العقل مع العقيدة ولكنه صراع الذات الشخصية مع أنوات الإنتاج والادارة والاتصال، وهذه الرؤية قد

رُقِضت وعمِلت بإحتقار من قبل كل من يرفضون الفاعل الإجتماعى والذات ليفرضوا علينا تصوراً لمجتمع متبلور ذى بنية ومراتبية غير ملموستين، مجتمع مستغرق بأكمله، كمجتمع النمل أو النحل، فى السيطرة التى يمارسها على أعضائه. وفريدمان على حق فى تأكيده على أنه فى العمل، ليس البروليتارى فقط هو المستغل بواسطة الرأسمالى أو البيروقراطى، ولكن بمنظور أعمق هو الذات الشخصية التى تكون مغتربة، محرومة من كل قدرة على بناء هويتها أو الدفاع عنها بسبب قواعد تقديم ؛ فى الغالب بلا أسس كافية، على أنها علمية وأيضاً بسبب أجهزة السلطة. لأن مجتمعنا هو بالتحديد مجتمع تقنى لا تكون السلطة فيه أدواتية، وتمارس دورها من خلال العنف والبحث عن الربح والقوة وروح الغزو. نحن لم نمر من مجتمع تقليدى قائم على الإمتيازات إلى مجتمع حديث قائم على التقنية بآثارها السلبية والإيجابية. نحن نعيش فى مجتمع فيه إنفصال بين الوسائل والغايات، تستطيع فيه هذه الوسائل نفسها، البعيدة عن فرض الغايات أو عن إحتوائها، أن توضع فى خدمة الشر كما توضع فى خدمة الخير، وفى خدمة تخفيف عدم المساواة، كما تستخدم أيضاً فى القضاء على الأقليات. إن الكثافة المتعاضمة للتقنيات والعلاقات التى نعيش فى وسطها والتى توجه وتتحكم فى سلوكنا لا تحبسنا إطلاقاً فى عالم التقنية، ولا تدمر الفاعلين الإجتماعيين سواء كانوا سادة أم مسودين، لا تفرض منطقاً للفاعلية والانتاج ولا منطقاً للسيطرة وإعادة الانتاج.

إن صورة التكنوقراطية المنتصرة تتميز بفرها التافه فى مواجهة عالم الإستهلاك وبروز القوميات وقوة المؤسسات الانتاجية العابرة للقوميات.

الفصل الرابع المثقفون ضد الحداثة

لقد أحياء المثقفون حركة العقلنة بربطهم تقدم العلم بنقد عقائد الماضي. بل خدموا طوعية الأمراء المستنيرين، منذ عصر الميديتشى Medicis^(١)، نون أن ينزعجوا من استبدادهم. ولكن بعد قرون من الحداثة إنقلابت العلاقة بين المثقفين والتاريخ فى القرن العشرين، ولأسباب متعارضة أكثر منها متكاملة. أول هذه الأسباب أن الحداثة صارت إنتاج وإستهلاك ضخم، وأن العالم الخالص للعقل قد تم غزوه من قبل جماهير تضع آليات الحداثة فى خدمة الطلب الأقل تواضعاً بل حتى والمفرط فى العقلانية. والسبب الثانى هو أن عالم العقل الحديث أصبح، فى هذا القرن، تابعاً أكثر فأكثر لسياسات التحديث والديكتاتوريات القومية ولقد حاول كثير من المثقفين، خصوصاً فى فرنسا وأيضاً فى الولايات المتحدة الحفاظ لأطول وقت ممكن على تحالفهم التقليدى مع قوى التقدم". ودفعتهم الحروب الإستعمارية التى خاضتها بلادهم، فى الهند الصينية وفى الجزائر على وجه الخصوص، إلى الدفاع عن حركات التحرر الوطنى، وهو ما قاموا به عن قناعة وشجاعة ضد حكومات بلادهم. ولكنهم فى نفس الوقت ظلوا مرتبطين إرتباطاً شديداً بفكرة أن الأنظمة الناشئة عن ثورة معادية للرأسمالية أو معادية للأمبريالية هى أنظمة "تقدمية"، وهو ما أدى بهم إلى أن يظهروا كثيراً من الرأفة بل والتعاطف الأعمى مع الأنظمة الشيوعية الأشد قمعاً، ودفع ذلك بعضاً منهم إلى أخطاء فادحة فى الحكم على ثورة "ماو" الثقافية أو على أنشطة الإرهابيين فى أوروبا الغربية. ولكن سرعان ما بدا واضحاً، حتى لأكثرهم تخلفاً، أنه ينبغى التوقف عن مساندة هذه

(١) عائلة ايطالية من التجار وعشاق الفن والفلسفة اليونانية، حكمت فلورنسا من القرن الخامس عشر الى القرن الثامن عشر، ولعبت دوراً كبيراً فى عصر النهضة برعايتها للفنانين والشعراء والمفكرين ومقاومتها لسلطة البابوية فى روما.

القضايا الوخيمة. وجد كثيراً من المثقفين حينئذ، ولا سيما بعد 1968، فلسفة جديدة في معاداة الحداثة. لقد حرقوا ما كانوا يعبدونه وشجبوا العالم الحديث كمدمر للعقل، وهو ما يرضى نخبويتهم المعادية للجماهير كما يرضى كراهيتهم تجاه إستبداد الديكتاتوريات التحديثية. وصار العداء للحداثة، خصوصاً في سنوات السبعين، سائداً ومهيماً إلى حد ما.

ويقدر ما كان مثقفو منتصف القرن التاسع عشر مشحونين بأحلام المستقبل كان يسيطر على مثقفي منتصف القرن العشرين الشعور بالكارثة وباللامعنى وبإختفاء صانعي التاريخ. كانوا قد إعتقدوا أن الافكار تقود العالم، فانحدروا إلى مجرد إدانة صعود الهمجية الحتمى أو السلطة المطلقة أو رأسمالية الدولة الإحتكارية.

هكذا انفصلت الحياة الثقافية عن الحياة الإجتماعية وحبس المثقفون أنفسهم في نقد شامل للحداثة دفعهم إلى راديكالية متطرفة وإلى هامشية متزايدة ولأول مرة منذ وقت طويل تبدو التغييرات الإجتماعية والثقافية والسياسية الجارية في العالم وكأنها في منأى من التفكير، وذلك لأن المعلومات التى يعطيها الخبراء، أياً كانت ضرورتها، لا تنتج بنفسها التفسيرات التى يبدو أن المثقفين غير قادرين على تقديمها. يجب أولاً وصف انحراف المثقفين المعادين للحداثة قبل أن نستكشف الأشكال القصوى لتفكك الايديولوجية الحداثية.

هوركهايمر ومدرسة فرانكفورت

مجموعة المثقفين الأكثر أهمية، رغم أن تأثيرها الذى ظل لفترة طويلة محدوداً بسبب النفى، ولم ينتشر إلا بعد إختفائها، كانت وبلا أدنى شك هى مجموعة معهد البحث الاجتماعى الذى تأسس سنة 1923 فى فرانكفورت، وكان مديره هو ماكس هوركهايمر من سنة 1931 حتى عودته إلى ألمانيا بعد الحرب. وقد كتب مارتن جاى Martin Jay وآخرون تاريخ هذا المعهد وفكر باحثيه الأساسيين.

تنطلق مدرسة فرانكفورت من الانفصال الذي يوجد بين البراكسيس والفكر، بين العمل السياسى والفلسفة. رفض هوركهايمر وزملاؤه كلاً من الإصلاح الإشتراكي والديمقراطى فى جمهورية فايمر Weimar* والسلطة البولشفية فى الاتحاد السوفيتى. ولأنهم لا يعترفون بأى فاعل تاريخى، لا البروليتاريا ولا الحزب، كما كان يريد لوكاتش، فإنهم شرعوا فى نقد شامل للمجتمع الحديث وثقافته على وجه التحديد. وقد كانت المسافة بينهم وبين الواقع السياسى والإجتماعى كبيرة لدرجة أن هؤلاء المثقفون اليهود، المضطرون للمنفى، كانوا يكتبون قليلاً عن المشكلة اليهودية ولا ينشرون تحليلاتهم الهامة عن معاداة السامية إلا فى إطار الدراسة الشهيرة عن الشخصية المتسلطة، وتدين هذه الدراسة إلى العلوم الإنسانية الأمريكية بقدر ما تدين إلى جهدهم الخاص، والتي لم تبدأ إلا فى عام 1944 لتنتشر فى عام 1950.

أنهم يعتبرون العالم الذى يعيشون فيه عالم سقوط العقل الموضوعى، أى سقوط الرؤية العقلانية للعالم. يمكن القول أنهم يتباكون على الرأسمالية القديمة التى كانت تحمل الحركة العقلانية الكبرى. فى حين أن عالم الأزمة الإقتصادية، عالم الصناعة والتaylorية وفى نفس الوقت عالم النازية والستالينية، ليس فى نظرهم إلا عالم قوة النقود والذى يسعى، بلا مبدأ سامى للعقلانية، إلى المصالح المادية التى تدمر حياة العقل. الفردية هى عدوة العقل كصورة جوهرية للوجود. يقوم العقل الذاتى منذ لوك والنفعيين بإحلال الايديولوجيات المسخرة لخدمة الربح محل الأفكار ويستبدل إنتصار الخصوصيات وعلى رأسها القوميات بكونية عصر التنوير. فقد إختفت الصلة بين الفرد والمجتمع والتي كان يكفلها العقل. وهذه القطيعة بدأت منذ زمن مع سقراط، ثم زادت فى بداية الأزمنة الحديثة، مع شخصية هاملت على وجه التحديد، أما فى القرن العشرين

(*) جمهورية تشكلت فى ألمانيا بعد هزيمتها فى الحرب العالمية الأولى واستسلام الامبراطور غليوم الثانى،

وكانت تحت قيادة الاشتراكيين المعتدلين واستمرت حتى وصول النازى إلى الحكم فى 1933

فقد شملت كل شئ. لم يعد يسلك الانسان الحديث طبقاً للقواعد الكونية للعقل. يقول هوركهايمر في كتابه "نقد العقل الأداتي" : كلمة "العقل" كانت تعنى عبر وقت طويل نشاط معرفة الأفكار الخالدة واستيعابها، وكان ذلك هو هدف البشر. أما اليوم، فعلى العكس، فقد صار دور العقل بل وعمله الأساسى هو إيجاد وسائل فى خدمة الغايات التى يتبناها كل فرد فى لحظة معينة. وهو يتهم فيبر بإحتفائه بإنتصار العقلانية الوظيفية على العقلانية الجوهرية وهو ما يعنى قبول إنحطاط العقلانية الموضوعية وإنتصار العقلانية الأداتية. ويعبر فالتر بنيامين Walter Benjamin ، أحد أصدقاء مدرسة فرانكفورت، عن نفس الفكرة باحلال الخبرة الخلاقة محل ما هو معاش. فالذات الفردية تقع عندما تستقل عن العقل تحت تبعية السلطة السياسية والاقتصادية. وتحل الوسائل محل الغايات فى حين أن نظريات العقل الموضوعى كانت تهدف إلى تشكيل نظام يشمل ويرتب كل الكائنات، بما فيها الانسان وأهدافه. ويمكن تحديد درجة العقلانية فى حياة إنسان حسب درجة إنسجام هذه الحياة مع هذا الشمول ("خسوف العقل"، الترجمة الفرنسية P.14). إن إزالة السحر عن العالم المعاصر لا تكمن فقط كما كان يرى ماكس فيبر فى إختفاء الأساطير والمقدسات، لأنها أصلاً كانت منتجات للعقل، ولكن ما تم فقده فعلاً هو وحدة العالم. ينبغى أن يستبعد الانسان الحرية الإيجابية التى كان يحلم بها له هيجل وماركس، وأن لا يكتفى بالحرية السلبية التى كان يدافع عنها لوك وكانط، تلك الحرية التى تحمى الأفراد من تأثير السلطة. الحرية الإيجابية هى القدرة على السلوك طبقاً للقواعد الكونية للعقل، وبالتالي حسب تعبير هوركهايمر فى سنة 1942، هى المدينة polis اليونانية ولكن بدون عبودية. وقد أدان هوركهايمر حركة تحقيق الذات فى الأزمنة الحديثة بكلمات تبشر بقوم ميشيل فوكو : "تأتى نهضة الذات على حساب الاعتراف بالسلطة كمبدأ لكل العلاقات" ("جدل الخضوع" 26-27 P.). إن فلسفات الذات تؤدى إلى الخضوع، وليس هناك ما هو أخطر من الدعوة إلى فردية لا مبالية بتنظيم المجتمع تضع الأخلاق المجردة جنباً إلى جنب مع العنف. على العكس، كما يقول هوركهايمر فى "خسوف العقل : الفرد المتطور بشكل تام هو الإتيقان الكامل لمجتمع متطور بشكل تام" (P. 144)

إن تاريخ الحداثة هو تاريخ القطيعة البطيئة والحتمية بين الفرد والمجتمع والطبيعة. وقد إنتصرت الأوغسطينية على التوماوية والمسيحية ومنذ ذلك الوقت دعمت انتصار الذات الشخصية واستفادت من ذلك فى إرساء دعائم سلطتها فى نشر الاخلاق. وبالتالي فى اخضاع الفرد للمجتمع. والفرد المعزول فى هذا المجتمع الحديث بسبب تفكك العائلة يقع تحت رحمة السلطات الاجتماعية مثله كمثل مشاهد السينما الذى تتلاعب به الصناعات الثقافية، أما المسرح فهو يستدعى العقل. فى حين أن السينما تجرى بأرتفاع سريع لا يسمح بالتأمل. ينطوى نشاط العقل بالنسبة لهوركهايمر على فهم نظام العالم وليس على حركته. والسينما تلغى المسافات التى تخلقها الأعمال الكبرى فى المسرح وفى الموسيقى، وهدفها الأساسى هو إدماج الفرد فى الجمهور. صحيح أن ليو لوينتال Leo Lowenthal، فى كتاباته المجموعة سنة 1961 بعنوان ("الأدب والثقافة الشعبية والمجتمع") قد بدا غير جازم، فهو يعترف بوجود شعور بالسعادة فى السينما وثقافة الجمهور. فى حين يرى كل فلاسفة مدرسة فرانكفورت فى ثقافة الجماهير أداة للقمع وليس للتسامى وبالتالي فهى أداة تسخير.

هذا الفكر لا يؤدى فقط إلى نقد عام للحداثة؛ ولكنه أيضا يمثل تاريخاً للتخلى التدريجى عن التفاؤل الماركسى. فقبل عام 1933 كان هوركهايمر يعتقد مثل ماركس، أن العمل والانتاج سيعملون على انتصار العقل الذى يتعارض مع الربح الرأسمالى. فالتاريخ السياسى إذن هو تاريخ التخلص من العقبات الإجتماعية التى تقف فى وجه إنتصار العقل. ولكن عجز الحركة العمالية ثم تصفيتها وبعد ذلك وقيام الستالينية محل النازية كعامل على تدمير الفاعلين التاريخيين قد دفعه إلى التخلى عن كل صورة لمملكة الحرية، وأن يوجه كل فكرة إلى مملكة الضرورة. هذا التخلى هو ما يميز النظرية النقدية التى ترفض أن تكون نظرية إيجابية للحرية والتحرر. لقد تم مع هوركهايمر تصفية النزعة التاريخية وثقتها فى مسيرة السعادة والحرية. ولأنه لا يريد أن يتخلى عن الأمل الذى وضعه فى التنوير والعقل، نراه يعتقد أن هذا العقل عندما يحرر الفرد يدمره فى الوقت نفسه بما أنه يجعله تابعاً لتقدم التقنية، وبالتالي تتحطم الذاتية عندما يسيطر العقل

الأداتى. ويأخذ هابرماس على هوركهايمر وأدرنو أنهم حبسا نفسيهما داخل التشاؤم بإختزالهما العقل إلى حدود الأدوات؛ ولكن لا تتعلق تأملات هوركهايمر الأساسية بنجاح النزعة التقنية؛ وإنما بانتصار السلطات الشمولية التى تنزل بالمجتمع إلى مستوى الورشة وإلى معسكر عمل إجبارى. هذا التماهى بين العقل والنزعة التكنيكية والتسلط المطلق هو المبدأ الأساسى فى فكر هوركهايمر والذى يكمن وراء فكر كل أعضاء مدرسة فرانكفورت مهما كانت الاختلافات بينهم. الدفاع الوحيد الممكن ضد هذه السيطرة لسلطة التقنية موجود فى الفكر نفسه. لا تفلت الأخلاق ولا القانون ولا الفن من هذا التفكير. يمكن للفكر وحده، وباعتباره تجريباً أى قدرة على الاستشكال *Denken* وباعتباره تجريباً أى إعادة إنتاج محكومة للظاهرة *Mimesis* ، أن يفلت من قبضة السلطة وهو ما لا يدع أى أمل لمن لا يكونوا فى حى كفاعتهم الثقافية. فلنعيد النظر إلى الخطين الرئيسيين لهذا النقد. طبقاً للخط الأول تحمل النزعة الصناعية فى طياتها السيطرة الإجتماعية، ليست فقط عبر التaylorية ولكن أيضاً من خلال النازية والستالينية التى تحول المجتمع إلى مصنع كبير، وتفرض على الجميع فى كل جوانب حياتهم، إنضباطاً شبيهاً بإنضباط المصانع. وقد أبدى هوركهايمر وأدرنو فى عديد من المرات أسفهما على عالم التجارة القديم الذى كان النشاط الاقتصادى فيه يقوم على الحساب وعلى التوقع أى على النشاط العقلى وليس بالسيطرة على الآخرين. بقدر ما تتقدم الرأسمالية بقدر ما تلغى الفكر العقلانى ومشاعر الرحمة والإنسانية. إن نموذج المجتمع الحديث هو ما يقدمه الماركيز دو صاد *Sade* فى رواية "جوليت" : المرأة-الطبيعة ، تصير خاضعة لسيطرة الرجل-العقل ، الذى نسى الحب من أجل المتعة وليس له إلا أهداف أداتية.

وأندهش عندما أجد أن مثل هذه الأفكار قد لاقت قبولاً واسعاً. لقد أستخدمت المناهج التaylorية والفوردية للإنتاج فى الولايات المتحدة والإتحاد السوفييتى وفرنسا وألمانيا النازية. لقد فرضوا على الأجراء فى كل مكان سيطرة مهنية وإجتماعية قامت فى مواجهتها الحركة العمالية وأنتظمت المقاومة العفوية للعاملين، ولكنها ليست مسئولة

عن النظم السياسية المستبدة فهي قد أستخدمت فى أنظمة عديدة مختلفة ومتنوعة. فكرة إن يصير المجتمع مصنعاً كبيراً وأن يصبح المستهلك موضوعاً للقهر والتلاعب مثل العامل هى موضوع لأحد الأخلاقيين لا يستطيع عالم الاجتماع أن يقبله. من المستحيل قبول مثل هذه الانتقادات، ذات الطبيعة الأرستقراطية، لمجتمع الجماهير وكأن وصول الأغلبية إلى الإنتاج والتعليم والاستهلاك يؤدي إلى إنخفاض فى المستوى العام ويخلق أنظمة مستبدة. لقد اثبت المؤرخون وعلماء الاجتماع منذ وقت طويل خطأ من يظنون أنهم يفسرون النازية بإقتلاعها لمجتمع الجماهير الصناعى والعمرانى من جنوره؛ فعلى العكس كانت الفئات المرتبطة بجنورها هى التى دعمت الديكتاتورية بكل حماس.

ينبغي ان نتخلى عن الاعتقاد بأن الصناعة هى المسؤلة عن الفوضى والعنف فى القرن العشرين. ولا غنى عن أن يقرن بفكرة التقدم نقداً للمجتمع الصناعى ولكن من الخطأ إفتراض أن جميع عناصر المجتمع التاريخى مترابطة. إن غياب الفاعلين التاريخيين القادرين على تغيير النواحي الهامة فى هذا المجتمع هو ما يفسر تطور الفكر النقدى الخالص وبالتحديد فكرة ان المجتمع الحديث والصناعى ينبغي أن يرفض كله ككتلة واحدة. وقد كتب فالتر بنيامين فى دراسته حول كتاب "هوايات مختارة" لجوته : "لقد منحنا الأمل من هم بلا أمل" {الأعمال الكاملة، 1، الأسطورة والعنف، ص260}. إنها عبارة رهيبة وخطيرة : هل علينا أن نقبل أنه لا يمكن لكل من العمال والمستعمرين والفقراء الذين هم فى أغلب الأحوال بلا دفاع، أن يكونوا فاعلين تاريخيين إلا إذا ناب عنهم المثقفون؟ أليس طبقاً لهذه الصيغة أن تكلم المثقفون الثوريون والطليعة باسم الشعوب المفترض أنها مغترية بشكل يمنعها من التعبير عن نفسها؟ فإذا كان العمال ليسوا إلا ضحية كانت الديمقراطية مستحيلة، إذ يجب الخضوع للسلطة المطلقة لمن تكون رسالتهم فى الحياة هى الفهم والتصرف، وليست التaylorية التى تفصل بين من ينفذون ومن يفكرون إلا لعبة أطفال بالمقارنة بهذه المسافة اللانهائية القائمة بين الشعب

وأولئك الذين يفكرون فى التاريخ. الفكرة الأساسية الثانية لهذا الفكر النقدى هى أن الدعوة للذاتية تؤدى بالضرورة إلى إخضاع الفرد لسيادة المجتمع. وكأن الفرد ، متروكاً لمصيره بلا سند من الله أو من اللوغوس، لا يمكن له إلا أن يكون شمعاً طرياً تطبع عليه القوى المسيطرة رسائلها التى تعبر عن مصالحها. ولكن لماذا نستبعد فكرة أن الفرد يمكنه أن يكون شيئاً مختلفاً عن أن يكون مجرد مستهلك. ويمكن له أن يسعى فى سبيل حريته وقدرته على الارتباط بفرد آخر فى علاقة ثقافية وفكرية؟ وأنا أقبل بسهولة أن تطرح مثل هذه التعبيرات مشاكل أكثر مما تحل. أما أن نختزل الفردية إلى الإستهلاك السلبي والتعرض للتلاعب فهذا ما لا أقبله. لقد خضع الإنسان كثيراً لمن كانوا يتحدثون باسم الله أو باسم العقل أو باسم التاريخ. وبأى حق يؤكد من يأسفون على اختفاء هذه المبادئ الكامنة فيما وراء المجتمع ، أن الفرد لا يمكن له أن يصبح ذاتاً تخلق أناها عبر اشكال متنوعة من العلاقة مع الذات ومع الآخرين؟ يقيم هوركهايمر جنازة التاريخية بسبب ثقته المفقودة فى ماركس وهيجل؛ ولا يرى فى الحداثة إلا الصخب والعنف. ويولى وجهه شطر الوجود وشر العقل الموضوعى الذى يصون نظام العالم، فى حين أن الحداثة تدمر الوجود بجره إلى حركة ليست ضرورية. هذا التشاؤم يأتى بالقطع من فقدان الأمل الذى جعلت منه مأساة المانيا التى يحكمها النازى أمراً غير واقعى. وعن هذا الوجود يتحدث هوركهايمر عندما يكتب : "إحتقار فرويد للبشر ليس إلا تجلياً لهذا الحب اليأس الذى ربما يكون هو شكل الأمل الوحيد المسموح لنا به" ، [من كتاب "العلم الإجتماعى والاتجاهات الإجتماعية فى التحليل النفسى"، ص22-23] . كان تأثير مدرسة فرانكفورت ومازال عظيم الأهمية، لأن مجتمع يتحكم فيه الإنتاج والاستهلاك والاتصال الجماهيرى يميل إلى إختزال الأفراد فى القيام بأنوار حدها لهم آخرون. وهذا الشكل الحديث من التبعية مختلف تماماً عن تبعية المجتمعات التقليدية التى كانت تخضع الفرد لقواعد وطقوس كلها ثقيلة الوطأة. ولكن ينبغى إضافة أن الشكل الحديث أقل إرغاماً. وصورة المجتمع الآلة ترتبط أكثر بتمثيلات قديمة للعلم أكثر من ارتباطها بتعبيراته

الحديث. إن ما يفسر تشاؤم هوركهايمر وأصدقائه هو غياب أو إنحراف الفاعلين التاريخيين في فترة لم يكن ممكناً فيها الحديث عن حركة عمالية في ألمانيا. ومن غير اللائق تسمية ديكتاتوري الكرملين بمرشدي البروليتاريا. ولكن أليست الصورة التي يعطونها للمجتمع هي صورة الجانب المظلم المحروم من الفاعلين الاجتماعيين والحركات الاجتماعية والديمقراطية؟ وبدلاً من رفض الحضارة التقنية ألا يجدر دفع نقد السيطرة الاجتماعية والنقد السياسي لتدمير الديمقراطية إلى مدى أبعد؟ أن أسف هوركهايمر على الآمال الكبرى للنزعة التاريخية الهيجيلية أقل من أسفه على إستقرار عالم برجوازي يقوم على الثقة في العقل والعلم. لقد استخدمت النظرية النقدية التي بلورتها مدرسة فرانكفورت فيما بعد كسند نظري لكثير ممن يواجهون سيطرة الرأسمالية الكبيرة ولاسيما ما يسميه الألمان الرأسمالية المتأخرة (Spatkapitalismus)، التي تجمع أكثر فأكثر بين السلطة السياسية والسلطة الاقتصادية. ولكن هناك سوء فهم خطير يكمن وراء الخلط بين النقد الاجتماعي والنقد الثقافي. فالنقد الاجتماعي يكاد يكون غائباً في فكر هوركهايمر في حين أن النقد الثقافي بارز الحضور فيه وبصورة أكبر أيضاً في كتابات أدورنو وفي أعمال توماس مان المعاصر لهما. لقد تدمرت روح التنوير التي ارتبطت فيها الفردية بالعقل وارتبطت الحرية بصرامة الفكر وغرق العلم في الفوضى. وقد أبدى ماكس فيبر قلقه من نتائج العلمنة ولكنه ظل قبل كل شيء حداثياً وليبرالياً. وفقد هوركهايمر ثقته في العقل الأدوات الذي كان فيبر قد تمسك به. وعاش في عالم تتدلع فيه النيران؛ في حين أن فيبر لم يعرف هذه الانقلابات الكبرى مثل الحرب العالمية وإنفراط الحركة الثورية الألمانية إلا في أواخر حياته. ويشير تشاؤم مدرسة فرانكفورت لفهم فلاسفتها اليهود الألمان العميق لإنهيار حضارة إندمج فيها اليهود المتحررين طوعية وبشكل كبير لأول مرة، ملقين بأنفسهم بكل قوة على الأنشطة المرتبطة بما هو كوني : العلم والفن والقانون والتأمل الفلسفي.

وبهنا أعضاء مدرسة فرانكفورت اليوم باعتبارهم شهود وليس باعتبارهم محللين. إن حنينهم لعقلانية معتدلة يقنعنا بأن هذا العالم الذى كانوا يطمحون إليه قد إختفى فعلياً ولم يعد ممكناً أن يكون هناك اساس لوحدة معينة بين العالم والانسان وبين نظام الطبيعة وحركة التاريخ. وبينما كان المجتمع الصناعى بتقنياته ومشاركة جماهيره ونظمه فى الإتصال يبنى نفسه عبر صعوبات مأساوية ونجاحات باهرة حاملاً معه مشاكل إجتماعية عديدة، تابع عدد من كبار المثقفين الاوروبيين، ابتداءً بالألمان اللاجئين فى الولايات المتحدة فى الفترة الهلترية إلى الفرنسيين فى الستينات والسبعينات طريقاً يبتعد عن طريق الصناعة الكبير. وواجهوا الحداثة بفكرة أقول العقل وفكرة إقتصاد السلطة المطلقة. ولم يجدوا حلاً موثقاً به فبحثوا عن عزاء فى الخبرة الجمالية وفى الدعوة الجمالية أكثر منها سياسية للهامشيين كقوى ظلت فى منأى عن العفن الذى تنتشره الحداثة وأشكال سيطرتها. القوة الاستثنائية للفلسفة المطبقة على الفكر الاجتماعى فى منتصف القرن العشرين قد اتت لها من هذا الفصل بين الفكر والفعل الاجتماعى كتعويض عن إختفاء الروح النضالية التى أصبحت مستحيلة بانتصار الستالينية وبتحول كثير من حركات التحرر إلى سلطات قمعية. بقدر ما غطت مشاكل الاستعمار والحكم الشمولى على مشاكل المجتمع الصناعى، كان صوت هذه النظرية النقدية مقنعاً وواجهت جبن من تواطأ مع الديكتاتوريين الجدد باسم البروليتاريا والشعوب المضطهدة.

ولكن هذا العداء للحداثة لم يأت بتحليل واقعى للمجتمع الحديث وصار علم الإجتماع مشلولاً بواسطة هذه النزعة الراديكالية اللامبالية بدراسة الممارسات الإجتماعية. خلال عشرات السنين قدمت لنا صورة لمجتمع يسيطر عليه بالكامل منطق إعادة إنتاج النظام الإجتماعى كانت فيه مؤسسات التحكم الإجتماعى والثقافى غاية فى القوة. فى بداية هذه الفترة الطويلة من النظرية النقدية، نجد أنفسنا أمام منظر متغير تماماً من المشاكل والمناقشات والحركات الجديدة. فى هذا العالم المفترض إختفاء

الفاعلين فيه نجد حولنا الفاعلين يعوبون للظهور فى كل مكان، مع طوباويتهم وأيديولوجياتهم، بغضبهم وسجالاتهم، والساحة الجماهيرية التى تصور فلاسفة فرانكفورت ومن بعدهم يورجن هابرماس أنها أغلقت نافذة الحرية التى كانت قد اكتسبتها فى المجتمع البرجوازى. ها هى تتفتح من جديد بشكل هائل وهو ما لا يقضى على أى مشكلة ولا يحسم أى مناقشة ولكنه يجعل من الصعب قبول نزعة عداء للحدائث منغلقة فى الحنين للعقل الموضوعى.

علام تدل هذه المفارقة إلا على إدانة المثقفين أنفسهم؟ فقد حنوا حنور رجال الدين الذين كانوا يتحدثون باسم الله فتحدثوا باسم العقل والتاريخ. وعندما اتسعت الساحة الجماهيرية العالمية وحلت الأنظمة الشمولية محل الاستبداد القديم الفظ والذى كان محدوداً، وعندما أسمعت التجمعات الجماهيرية صوتها فى نفس الوقت الذى أنتظمت فيه حركة الجماهير، فقد المثقفون كما فقد رجال الدين مفتاح سلطتهم الاوليغارشية. لقد قاوم المثقفون الانتاج والاستهلاك وثقافة الجماهير التى كانت تحرمهم من إحتكار الكلام وتسقط عنهم مزاعمهم النخبوية التى يطورون فى ظلها تأملاتهم ويخوضون نضالاتهم. لم يعد فولتير ممكناً بعد الثورة الفرنسية، وبنفس الشكل ليست النظرية النقدية ممكنة فى نهاية القرن العشرين. لأنه متى اتسع مجال الممارسات الإجتماعية وحقل عمل الفاعلين الاجتماعيين يصبح من الصعب على المرء أكثر فأكثر التوجه إلى المجتمع من الخارج، جالساً على فرع من شجرة الابداع أو العقل أو التاريخ، تلك الشجرة التى تمتد جذورها فى السماء وليس فى الأرض. إن ما يلبس المثقفون الالمان والفرنسيين عليه ملابس الحداد فى القرن العشرين هى السماء التى ولدوا فيها ويحنون إليها، وتجعل منهم بشراً يختلفون عن الآخرين، نوى جوهر أسمى باعتبارهم يعيشون فى المطلق أو فى الوجود، فى حين أن البشر العاديين تأخذهم موجات التغيرات المتسارعة فى تيارها.

ينبغي الإنصات إلى احتجاج المثقفين ضد إختفاء نورهم كرجال دين علمانيين، وينبغي أيضاً رفضه فى نفس الوقت. يلزم الانصات اليه لأن الخطر الأساسى، كما فهم نيتشه أكثر من غيره، هو خطر النفعية، وفلاسفة فرانكفورت على حق فى تذكيرهم بأن الرجوع إلى الحاجات هو اليوم لغة السلطة. ويلزم رفضه لأن ليس هناك ما يبرر فكرة عالم مغلق تنتشر فيه السلطة بلا مقاومة كغاز سام. ليس لأن أوروبا فى القرن العشرين وقد عاشت خبرة معسكرات الاعتقال والانظمة الشمولية، يكون لها الحق فى أن تخطط بين مجتمع الاستهلاك الضخم والنظام الشمولى. إن النظريات النقدية تظل محدودة لأنها لا تحمل إلى وعينا أى معرفة جديدة بالمجتمعات الحديثة ولا بأشكال سلطتها ولا بالتحديات التى تواجه الديمقراطية.

ويبدو هذا الضعف على أوضح صورة فى الأعمال الأخيرة لهيربرت ماركيز، الذى كان تحليله للفرويدية قد استرعى إنتباهنا. إن الأطروحة الأساسية فى كتاب "الانسان ذو البعد الواحد" هى : "هكذا لم يعد هناك تعارض بين الحياة الخاصة والحياة العامة وبين الحاجات الإجتماعية والحاجات الفردية. تسمح التكنولوجيا بتأسيس أشكال جديدة للتحكم والالتحام الإجتماعى أكثر فعالية وأكثر رقة فى آن" ويضيف ماركيز أن هذا الوضع يمتد إلى المجتمع الرأسمالى والمجتمع الشيوعى ويجمع بينهما. من ينكر ان التكنولوجيا تسمح بنشر وزيادة وسائل التحكم الإجتماعى؟ ولكن بأى حق ننتقل من هذه الملاحظة العامة والتافهة إلى التأكيد غير المقبول بان التكنولوجيا تفرض هذا التحكم الذى يصبح مع الوقت كلياً ولا يفلت شئ من قبضته؟ لماذا لا نقول مع إدجار موران Edgar Morin بأن تنامى الكثافة الإجتماعية حسب تعريف هوركهايمر، يصاحبه تنامى فى التعقد وفى التحكم، وفى نفس الوقت تنامى فى عدم التحديد وفى الحرية الممكنة؟

إن صورة المجتمع الذى تكون فيه السلطة منتشرة لدرجة تمتد معها لجميع الممارسات الإجتماعية، هى صورة بعيدة عن واقع المجتمعات التى توجد فيها دول قوية

وبيروقراطيات عامة منضبطة ونظم فى التمثيل السياسى، ومجموعات ومصالح ومطالب إجتماعية، ومؤسسات إنتاجية ومراكز للمال ومؤسسات قضائية. ليس هناك أبعد عن الواقع الملاحظ من هذه الصورة عن مجتمع موحد كلية تتصل فيه التكنولوجيا بالمؤسسات الإنتاجية بالدولة بأنماط الاستهلاك وحتى بالمواطنين. بدلاً أن نجعل الحداثة تسبح فى نور العقل جعلناها تسبح فى النور المبهم للتكنوقراطية، وهو ما يخفى الحدث الاساسى والمخصص له هذا الجزء الثانى من الكتاب : إنفراط الحداثة والتعايش فى الثقافة وفى المجتمع - بهذا المعنى ما بعد الحداثى - الذى نعيش فيه منذ قرن، بين الحنين للوجود والإستهلاك السلعى وسلطة المؤسسات الإنتاجية وصعود القوميات.

إننا نفهم أن يبلور المثقفون الذين يغيصون فى الحنين إلى الوجود صورة سلبية للمجتمع الحديث تكون فيها العناصر الثلاث الأخرى متلاحمة بشدة فيما بينها لدرجة تجعلها تكون كائناً مخيفاً، غولا يهيم بإبتلاع الفكر والحريات. مثل هذا الخطر موجود ولكن ليس هناك ما يسمح بالقول بأن الاستهلاك الضخم وتطور الرأسمالية الصناعية والقومية يمثلون ثلاثة رؤوس لوحش واحد يسميه ماركيز المجتمع. "المجتمع هو حقاً الشمول الذى يمارس سلطته على الأفراد وهذا المجتمع ليس تخيلاً يصعب تحديده. إنه مستقر كنواة جامدة وملموسة فى نظام المؤسسات" (P.214). عما يتحدثون؟ عن الدولة؟ يعنى ذلك ان هناك إعتراف بالإنفصال بين الدولة والمجتمع وهو ما يناقض الأطروحة الأساسية عن الحق؟ ولكن ينبغى بيان أن الحق الإجتماعى والضمان الإجتماعى وكذلك النصوص التى تحمى الحريات الفردية ليس لها أى غاية سوى الاندماج الاجتماعى وسلطة المجتمع وهذا ما يقتضى إثباتات لم يقدمها أحد اللهم إلا فى بعض الصيغ المذهبية. هذا المجتمع اسطورة، وما يخص المجتمع الحديث هو أن كلمة مجتمع لا يمكن أن تكتب فيه بألف ولام التعريف وأن كل اشكال الوظيفية سواء كانت محافظة أو نقدية لا يمكن تطبيقها على مواقف إجتماعية يكون فيها دفع الحركة

على نفس الدرجة من أهمية تأسيس النظام، كما لاحظ بعمق ليبراليو اليمين أو اليسار الذين ألحوا بالعكس على غياب مكان مركزي للتحكم، سواء كان فى خدمة التخطيط أو فى خدمة القمع السياسى.

وأخيراً، كيف لا نلاحظ ان هذا الكتاب قد نشر عام 1964 وهى السنة التى نشبت فيها الحركة الطلابية مع حركة الكلام الحر Free speech Movement فى جامعة بيركلى. وفى بداية عقد سيطر عليه، فى الولايات المتحدة وغيرها، الحملات من أجل الحقوق المدنية للسود، ومن أجل مساواة النساء بالرجال، وضد الحرب فى فيتنام والعديد من الهبات الطلابية الكبرى. إذا كانت هذه الحركات قد يمت وجهها شطر النظرية النقدية وشطر الكتابات البنيوية-الماركسية لألتوسير وماركيوز على وجه الخصوص فإن ذلك لا يمنع أن يكون فعلهم، المتعارض غالباً مع وعيهم، قد بين أن مجتمع الجماهير لم يقض نهائياً على الفاعلين الاجتماعيين. إن الخمود السريع لحركات الطلاب هو ما أدى لانتصار الأفكار التى تنكر تدخل الفاعلين الاجتماعيين.

لا يجد تاريخ الفكر الاجتماعى صعوبة فى تحليل هذه اللحظة الخاصة وتحليل الدور الذى تلعبه أفكار كأفكار ماركيز. لقد خلق تحطم ونفاد الحركة العمالية فراغاً هائلاً فى قلب المسرح الاجتماعى. وكانت إصلاحية الاشتراكية الديمقراطية، التى تفتقر للمبادئ الكبرى والمندمجة فى عمل بطى وتقنى لتعديل أشكال السلطة والقوانين، تجذب القليل من المثقفين، وقد اتجه المثقفون إلى نقد شامل وجذرى أدى بهم كما أدى بكثير من طلاب مايو 1968 فى فرنسا إلى الشك فى قدرتهم على الفعل، بما أنهم كانوا برجوازيين يتمتعون بإمتيازات وكانت البروليتاريا وحدها هى التى تبدو لهم على درجة من القوة تسمح لهم برفع علم الثورة. وعى زائف تكذبه الوقائع فى الحال. فتمرد الطلاب هو الذى بقى فى الذاكرة الجمعية وليس إضراب العمال على ضخامته وطول مدته، إن تفكير ماركيز الذى يمثل أحد المصادر الأيديولوجية لهذا الوعي، يسقط عنه أى إمكانية

فى السيطرة على نتائج فعله الخاص. وقد أثار هذا النقد من جانب المثقفين الأصولية الماركسية. فهو لا يسمح لها بتفسير نشأة الاحتجاجات الجديدة فى الحقل الثقافى أكثر منها فى الحقل الاقتصادى ويحقق أكثر فى تفسير الطبيعة الاجتماعية للانتفاضة الطلابية التى لا علاقة بين قاعدتها وبين وصف ماركيز : "هناك تحت الجماهير الشعبية المحافظة. خلاصة من المنبوذين والهامشين والأجناس الأخرى والألوان الأخرى والطبقات المستقلة والمضطهدة، والعاطلين عن العمل وكل من لا يجد عملاً. إنهم يوجدون خارج المسار الديمقراطى: تعبر حياتهم عن الحاجة الواقعية والملحة لوضع نهاية لشروط ومؤسّسات متعسفة لا يمكن التسامح معها. وهكذا تكون معارضتهم ثورية فى حين أن وعيهم ليس كذلك" (P. 280). ينبغى أن نقول عكس هذا عندما نفحص الوقائع : ليست معارضة المهمشين بوجه عام ثورية حتى ولو كان وعيهم ثورياً. وحركات العاطلين أو السجناء حتى وإن ساندتها النداءات الجذرية للمثقفين، تتحول سريعاً إلى مجموعات ضغط ذات أهداف محدودة. كما أن الجذرية المتطرفة لفكر فرانز فانون، Frantz Fanon التى ألهمت بن بيل فى الجزائر قد تحولت بعد موته فى فرنسا وغيرها من البلدان إلى دعوة من النوع الأصولى أدت مؤخراً إلى التطرف بدلاً من الفعل الثورى.

إذا كانت الفكرة الثورية تقوم على الاعتقاد بأن السلطة تتحطم بفعل تناقضاتها وليس بحركة اجتماعية ينبغى إذن أن نقبل كما فعل ماركيز فى نهاية كتابه بأن الأزمة الثورية غريبة عن الديمقراطية وأنها تؤدى بطبيعتها إلى معاداة الديمقراطية، وبالتالي إلى بناء هذه السلطة الشمولية المطلقة التى كان ينتفض ضدها اليساريون. وهم إذن يكونون الفاعلين الغير واعين بما يسميه توماس Thomas وميرتون Merton الإستباق الخلاق Self fulfilling prophecy . إن شجب السلطة التى يفترض أنها مطلقة هو الذى يخلق أزمة كبرى يكون المخرج منها هو خلق هذه السلطة المطلقة التى لم تكن موجودة حتى هذه اللحظة.

ربما يهمل النقد الإجتماعى والسياسى لأفكار ماركيز ما هو جوهرى والذى يوجد فى المجال الثقافى. ويقول هذا القارئ الواعى لفرويد أن الثقافة الحديثة تلغى التسامى قبل كل شئ؛ وتؤدى إلى جنس متمحور حول الأعضاء التناسلية والبحث عن الإشباع الفورى والمباشر للحاجات. كل إبعاد، حسب تعبير بريخت، وكل ثنائية للبعد، كما يقول ماركيز نفسه، تنحون نحو الإختفاء. وهو ما يؤدى إلى إنتصار غريزة الموت فى المجتمع الصناعى ويدمر الفن. مبدأ اللذة يمتص مبدأ الواقع، والجنس متحرر (أو بالأحرى محرر) فى أشكال بناءة إجتماعياً. وهذه الفكرة تتضمن أن هناك أشكالاً قمعية للتسامى. ويضاف إلى ذلك تدمير البيئة، وإختفاء الصورة الرومانتيكية للطبيعة الملائمة للمشاعر العاطفية. بإختصار يختلط الليبيدو بالعوانية، فى حين أن فكر فرويد كان يقوم على نعارضهما. "إن الرفض الكبير" قد رفضه المجتمع الحديث، والفكر السلبي قد حل محله ممارسات الفعل الأداة. فى هذا العالم الذى تكون العقلانية التكنولوجية فيه هى البعد الوحيد ينتشر الوعى السعيد". هذا التأكيد الذى لا يمكن إثباته يوجد فى جوهر كل نقد للحدث. وأنا إن أقبله فذلك فقط من زاوية كونه يبين نضوب المفهوم التقليدى، العقلانى للحدث؛ لأنه لم يعد هناك مكان فى حضارة التقنية لفكرة نظام العالم وفكرة عقدة الذنب التى تعبر عن المسافة المعاشة بين هذا النظام والخبرة الانسانية. لقد إختفت الضمانات الماوراء إجتماعية للحياة الإجتماعية. أينبغى إذن استخلاص أن المجتمع المفرط فى الحدث ليس إلا أداتية أو شهوانية؟

ولكن هذا الحكم يواجهه فى المقام الاول حكم آخر نابع من النزعة اليسارية، ومؤداه أن الحياة الإجتماعية تعمل طبقاً لمنطق السلطة. من المستحيل إثبات إختلاط منطق المستهلك بمنطق السلطة فهما يتعارضان فى كل لحظة، فى المصنع أو فى المكتب، وفى المناقشات السياسية حول ميزانية الدولة أو حول السياسة الاقتصادية

العامّة. وفي المقام الثّاني يجبرنا الموقف المتشائم جذرياً لماركيوز على البحث عن إمكانيّة وضع حدود للأداتيّة. ليس في إطار إحترام الإرادة الإلهيّة أو قوانين العقل ولكن في إطار إرادة الحرّية والمسؤوليّة الشخصيّة والجماعيّة. ولكن هذا يضطرنا للتخلّي عن فكرة نظام بلا فاعلين ولقبول عودة هذا الفاعل وهذا الميلاد للذات الذي طالما عبأ الفكر الاجتماعيّ ضدّهما كل قواه. إذا كانت صيغ ماركيوز تستحقّ الانتباه فبسبب خاصيّتها المتطرفة. لأنّه قد تمّ على يديه، وقد كان تأثيره كبيراً، تفكك العقلانيّة التحديثيّة. لقد كان لهذه الصيغ فضل معارضة شمول الجنس لدى الفرويديين - والماركسيين مثل وليم رايش الذي يختزل التنظيم الاجتماعيّ إلى قمع لممارسة جنسيّة ينبغي لها على العكس أن تتحرر. إن هذا الموقف المتطرف لا يملك إلا أن يواجه طبيعة مبنية إصطناعياً، بالثقافة وهو ما يؤدّي إلى إخفاء معنى كل الأبنية التاريخيّة للقواعد الأخلاقيّة.

لصيغة خلاصة هذا الموضوع على المرء أن يكون مؤرخاً أكثر منه فيلسوفاً. لم ير منتصف القرن العشرين في الفكر إنتصار ما يسميه جان فوراسيتي "الأمل الكبير للقرن العشرين". فالمتفقون على العكس يسيطر عليهم هوس الأزمة. في اللحظة التي شعروا فيها أنهم محصورون بين الفاشيّة والشيوعيّة والتي لم يصمد فيها إلا القليل أمام إغواء كل منها؛ كانت مدرسة فرانكفورت تمثّل مقراً استثنائياً لمقاومة مزدوجة لهذه الإنحرافات عن إتجاه التاريخ. ولكن بعد العنويّة العابرة التي أعقبت التحرر من النازي والتي بلور جان بول سارتر خلالها فكراً عن الحرّية، شعر المثقفون بأنهم مهددون بانتصار ممارسة اجتماعيّة بلا نظرية وبثراء ليس له أي نموذج ثقافي سوى النموذج النفعي. أستبدل رفض مدرسة فرانكفورت للديكتاتوريات الفاشيّة والشيوعيّة وجاء مكانه، بعد مضي جيل، حذر شائع ومقاومة عامّة لحدّاته تبو خطورتها مما تقدّمه أكثر مما تمنعه. وسواء كان المرء مثقفاً أم لا، لا يوجد إنسان حي في الغرب في نهاية القرن العشرين ينجو من القلق أمام فقدان كل معنى، وأمام غزو الحياة الخاصّة، وغزو القدرة على الوجود كذات بواسطة الدعاية والاعلان، وبتهوّر المجتمع إلى مستوى الجمهرة، والحب إلى مستوى اللذة. أيمن أن نعيش بدون الله؟ أعتقدنا خلال بضعة قرون أننا

يمكننا أن نختزل الله إلى العقل، ثم علمنا نيتشه وفرويد أن نستبدل به الحياة أو القانون. ولكن تسقط خطوط الدفاع الأخيرة هذه بدورها ، ويبدو أن مبدأ تقييم السلوك الذي أتت به الحداثة، وهو مبدأ الجدوى الاجتماعية وتوظيف السلوكيات الفردية لصالح المجتمع، قد غزا كل شيء؟ هل يمكننا أن نقاوم هذا الغزو إلا بالاعتراف بمبدأ ما وراء إجتماعى يتجاوز الانسان : الله أو اللوغوس أو الحياة؟ إن فكر القرن العشرين ممزق بين ضرورة الوصول إلى أقصى مدى فى العلمنة وضرورة حماية نفسه ضد فرض الأخلاقية وضد النفعية الاجتماعية التى حبزها الفكر الإجتماعى فى أغلب الأحيان. حينئذ يلقى الفكر بنفسه إلى الخلف باحثاً عن الوجود أو يتقوقع داخل رفض كبير لا يستند إلى أى نموذج للتغيير الإجتماعى، ولا إلى أى أمل، ولا يحتفظ بنفسه إلا بقدر ما تبدو التهديدات قريبة. وقد سمح التحرر الصعب من الإستعمار وبقاء النظام الستالينى ثم الماوى لفترة طويلة بتبرير هذا الرفض الكبير. ولكن لكل شئ نهاية : إنهار النظام الشيوعى وغياب خطر فاشى جديد، وتدعيم الديمقراطية يجبرنا على أن نجد مخرجاً. نجد أنفسنا حينئذ بلا دفاع أمام عالم الاستهلاك الذى يمنحه الكثير أنفسهم لإشباع شهوات كانت مكبوتة لفترة طويلة. ولكن لم الحيرة؟ لماذا لا يتم تعويض التأخير المتراكم وتحليل المشاكل الاجتماعية والثقافية الجديدة التى تؤمن إختيارات ليست ضد المجتمع فى مجمله ولكن ضد بعض أساليب إدارته وتنظيمه؟ ينتزع الفكر نفسه بصعوبة وبطء فى نهاية هذا القرن من الحنين للوجود. ذلك الحنين الذى لم يعد يجد سنداً له فى الرفض العادل للحاضر غير المحتمل. ينبغى التفكير والنقد وتغيير مجتمع راهن أكثر مرونة وأكثر تنوعاً مما كان يظن مؤلف "الانسان نو البعد الواحد" .

ميشيل فوكو، السلطة والذوات

يأتى ضعف أغلب النظريات النقدية للحداثة من إفتراضها القدرة المطلقة لسلطة مركزية، سلطة الدولة أو سلطة الطبقة الحاكمة، وهو ما يقترب من التصور السطحى للتاريخ على أنه مؤامرة. فى حين أن كل شخص يمكن أن يلاحظ أن المجتمعات المسماة مؤخراً ديمقراطية تجعل السلطة المركزية اقل بروزاً من غيرها من المجتمعات بل

تجعلها أحياناً غير مرئية، وأنها متسامحة وحتى ليبرالية أى أنها لا تخضع السلوك الشخصى لتمثيل إجتماعى للحقيقة. يكمن أحد مواطن القوة فى فكر ميشيل فوكو فى أنه يرفض فكرة وجود قمع وتلاعب يعمم بل وحتى وجود سلطة مركزية مستقرة كالعنكبوت فى وسط خيوط من الموظفين ومتخصصى الدعاية. الحركة الرئيسية فى فكره فى هذا المجال، والتي تهبه أصالته وتفسر تأثيره الكبير على رفض فكرة أن السلطة المركزية لا تكف عن التضخم والتركز وإحلال الفكرة النقيضة محلها، والتي مؤداها أن مزاولة السلطة تختلط أكثر فأكثر بمقولات الممارسة نفسها، بشكل تصبح السلطة معه فى المجتمع الليبرالى الحديث فى كل مكان وليست فى أى مكان، وأن التنظيم الإجتماعى لا يدار بواسطة العقلانية التقنية ولكن بممارسة السلطة. وهو ما يدفع بالفكر النقدي الذى يدين الحداثة نفسها إلى مداه الأقصى. إذا كان معيار الخير والشر هو الجدوى الاجتماعية، ألا تختزل هذه الجدوى إلى جدوى بالنسبة للمجتمع وليست جدوى بالنسبة لأعضائه، وبالتالي تختزل إلى دعم سيطرة النظام الإجتماعى على عناصر أدائه؟ هذا هو الشكل الأبسط لفكر فوكو، إن السلطة هى فرض السوية normalisation ومجمل المجتمع هو الذى ينفذ هذه الآلية باستمرار. وينتج بالتالى الفصل بين ما هو عادى وغير عادى، بين الصحيح والمريض، بين المسموح والممنوع، بين الهامشى والمركزى. إن السلطة ليست خطاباً يلقي من فوق منصة. إنها مجموعة من البيانات enonces المنتجة بصورة مستقلة داخل كل مؤسسة وبلغت فعاليتها حداً كبيراً. فلا حاجة للإرتكان إلى إرادة سيادية أو إلى الملاحظة الموضوعية أو حتى إلى العلم. هذا الأسلوب فى التفكير قد سبق أن أدخله توكفيل فى الجزء الثانى من "الديمقراطية فى أمريكا" : "قد يصبح المجتمع الحديث والديمقراطى، والمحرر من الملكية المطلقة عهداً للرأى العام، وللأغلبية التى هى بطبيعتها محافظة وتتسم بالحذر من الابتكارات وكذلك من الاقليات أو الأفكار والسلوكيات التى تهدد النظام القائم .

ولكن فوكو أتى بإضافة لهذا المنطق فى التفكير عدلت من إتجاهه وأوحت بالهم الرئيسى الذى يشغله. أنه لا ينتقد الطبيعة الحقيقية لليبرالية فقط؛ أنه يبدى قلقه أساساً من تزايد حضور الذات عبر التاريخ وتنامى دور الأخلاق الذى يحدده فى كتاب "إستعمال

الذات": "كبلورة شكل العلاقة مع النفس الذى يسمح للفرد أن يشكل نفسه كذات لها سلوك أخلاقي" [ص275] ويكتشف فى هم الممارسة الجنسية التى لم يُعترف بها إلا مؤخراً "دراسة الأنماط التى يكون الأفراد طبقاً لها مدفوعين للاعتراف بأنفسهم كنزوات جنسية". وهو تعريف أستكملة عندما تعرض للممارسات التى جعلت الأفراد يواجهون انتباههم لأنفسهم ويفكون شفرتهم ويقبلون أنفسهم ويقررون بها كنزوات للرغبة [المرجع السابق ص110]. بين نهاية الفترة اليونانية الكلاسيكية وفترة الإمبراطورية الرومانية يرى فوكو تشكل الأخلاق الذى يستبعد اللذة باسم التحكم الذى تمارسه الذات على نفسها باسم الهم بالذات الذى كان اليونان يسمونه *epimeleia heautou* والرومان يسمونه *cura sui* ، والذى يوجد بشكل كبير فى الثقافة المسيحية التى أمدته بمضمون أكثر قمعية، فى الوقت الذى دعمت فيه الدعوة إلى الذاتية، فى حين أن النموذج القديم مازال هو نموذج الفرد الذى يحكم نفسه حتى لا يبدد الطاقة التى ينبغى أن يسخرها لخدمة المجتمع.

منذ أن أقر فوكو بهذا الصعود لتحقيق الذات أصبح هدفه الأساسى هو اثبات أن هذا التحقيق للذات أثر للتوتر الأولى والحاسم للحكومية *governmentalite*. ظهور الذات وتحقيق الذات هما فى نهاية الأمر إذعان. أن تكوين الذات قد أنتج بواسطة كل هذه التكنولوجيات التى للسلطة على الأجساد والتى لا تستطيع تكنولوجيا "النفس" - أى تكنولوجيا التعليم والأطباء النفسيين - أن تتجنبها أو تعوضها لسبب بسيط هى أنها أحد أنواتها ("المراقبة والعقاب" P. 35).

هناك جانبان لتموضع الانسان وبالتالي لنشأة العلوم الانسانية : من جانب يستبعد الفرد غير العادى ويُجَنَّب أو يُحبس، ومن جانب آخر يتم توجيهه كحالة خاصة وفردية بشكل يدفع العقاب مثلاً لأن يأخذ فى حسابه نوايا المذنب ويحاول جاهداً رد إعتباره سواء بالعمل أو بالعزل الذى يشجع عمل الضمير. لا تقتصر إذن عملية فرض السوية على آثار قمعية ومدمرة فقط، وهى أطروحة كانت ترضى كل نقاد الحداثة ولكن فوكو

يرفضها بعجالة كما يستبعد فكرة أن القرن التاسع عشر قد قمع الجنس وأخفاه. إن ما حدث هو العكس تماماً : لم يتناول أى مجتمع عملية تموضع الجنس من قبل بنفس القدر لدرجة مناداته بربطها بالمناهج العلمية المختلفة. إن ما يهم فوكو هو إثبات أن الذات خلقتها السلطة بواسطة مجمل آليات المكونات الصغرى لهذه السلطة أى بالآليات التى تحقق عملية فرض السوية.

تستدعى مرحلتى هذا المنطق بعض الإحتجاجات. فى المقام الأول هل يمكن أن تتماهى السلطة مع عملية فرض السوية؟ هنا نجد أكثر الكتب تأثيراً فى المرحلة الثانية لفوكو وهو كتاب "المراقبة والعقاب" (1975) يكذب هذه الأطروحة. إن المجتمع الذى يحبس الأشقياء فى السجن والتلاميذ فى الإقامة الداخلية والمرضى فى المستشفى والعمال فى المصنع ليس عبارة عن شبكة من آليات فرض السوية. إنه مجتمع فى خدمة طبقة حاكمة - وهنا يظل فوكو متأثراً بشكل مباشر بالابحاث الماركسية - ، طبقة تعمل من أجل التعبئة العامة، حسب تعبير جان بول دو جودمار Jean -Paul de Gaudemar ، التى تحول المجتمع إلى جيش صناعى محكوم عليه بطريقة سلطوية. لا يوجد فرض سوية فقط ولكن هناك أيضاً قمع، ويهدف السجن بالاساس، حسب تحليل فوكو نفسه، إلى عزل الأشقياء عن الجسد الإجتماعى. ينبغى أن نميز بين هذا المنطق فى القمع وبين منطق التهميش الذى يتصل أكثر بعملية فرض السوية. يتم استبعاد التلميذ أو العامل البطئ ويقاد إلى الهامش نحو البطالة قبل أن يتم حبسهم، فى بعض الأحيان، فى مؤسسات متخصصة، تطلق عليهم صفة أشخاص غير أسوياء. ولكن هذا منطق يخص مجتمع ليبرالى وحتى مجتمع جماهير يسعى لدعم وتنوع آليات الاندماج وهو ما ينتج، بواسطة الأثر العكسى، بواقى يصعب تدريجياً استيعابها. ومع ذلك - والامر ليس مجرد جزئية تافهة - لا يشكل هذا عالماً مغلقاً بل على العكس، هامشاً يتمكن من خلاله الكثيرون، إذا سمحت لهم الظروف، من العودة إلى "المجرى الرئيسى". وبينت الدراسات حول الثقافة العمرانية الهامشية فى أمريكا اللاتينية إن الحدود بين القطاع الممتثل

والقطاع غير الممثل هلامية ومتداخلة. هذا الفصل بين الهامشية والحبس أمر جوهري، لأن الاول ينتمى إلى أداء نظام مفتوح فى حين أن الثانى ينتمى إلى أداء سلطة، أو بمعنى أعم بمؤسسات تسعى فى نفس الوقت إلى أن تستبعد وأن تنتج نواتاً مستقلة قادرة على التعامل مع نفسها ومع محيطها، وعلى التحكم الذاتى وعلى أن تهتدى بضمير، وهذا النموذج الإجتماعى والثقافى للقمع يثير تمردات وثورات تدعوا بدورها إلى فكرة الذات وتحدث عن الحرية والعدالة.

فوكو على صواب عندما ينطلق من التموضع الذى يؤدى إلى التدخل المتنامى للمجتمع فى مصير أعضائه، ولكن هذا التموضع - لو كان مرتبطاً بالاتجاه إلى الفردية، فردية المستهلك وفردية "الحالة الإجتماعية" - لا ينتج تحقيقاً للذات. بل على العكس هو مجتمع تقنى وإدارى يحول الانسان إلى موضوع، وهو ما تعنيه كلمة بيروقراطية بمعناها الشائع. لا يمكن الحديث عن الذات إلا عندما تتدخل السلطة، لأن الدعوة للذات تعتبر من مكونات الفاعل الذى يحدد نفسه فى مواجهة السيطرة المموضعة للأجهزة

إن فرض السوية وتموضع الانسان ينتجان الهو. فى حين أن الأنا يتشكل فى غمار مقاومة مراكز السلطة المنظور اليها على انها قمعية.

الوضع الذى يختلط فيه هذان الأمران : التموضع وتحقيق الذات، هو الذى تتطابق فيه السلطة مع الترشييد والعقلانية، وهى حالة الاستبداد المستنير: وفى قرننا الحالى، هى حالة النظم الشيوعية. التى تتميز بالشمولية لأنها تقيم سلطتها على نوات-موضوعات وتغطى المصالح الخاصة للحزب-الدولة باسم التقدم. يمكن قبول تحليل فوكو كنقد للنظم الشمولية ولكنه لا يتعلق بالمواقف التى تكون فيها الدولة والمجتمع المدنى منفصلين وحيث لا تختلط عملية فرض السوية باسم العقل مع السلطة فى جانبها القمعى.

يكتب فوكو في المراقبة والعقاب (P.196) أن الفرد "واقعة مصنوعة بواسطة التكنولوجيا الخاصة بالسلطة والتي نسميها الانضباط discipline. هذا المفهوم يفترض ان تتماهى الذات مع العقل؛ فالانضباط يفرض جهد العقل على طبيعة لا تتصرف إلا بمقتضى اللذة المباشرة. ولكن هذا المفهوم يتناقض مع تحليل فوكو نفسه: فظهور مفهوم للذات فى اليونان وفى روما وأيضاً فى المسيحية لا يطابق فوكو بينه وبين كونيّات العقل، ولكن يطابق بينه وبين تحول الخصوصية الفردية إلى سيرة حياة، وإلى تشخيص يمكن لنا أن نسميه خلاصاً أو مؤسسة، ويُقصد به تحول الفرد إلى فاعل قادر على تغيير عالم القواعد والقوانين والمبادئ اللاشخصية. كان يمكن لفوكو أن يعطى أهمية أكثر لفكرة الذات ولكنه كان يريد القضاء على الفكرة المثالية للذات والتاريخ. وهو ما ساد فى النصف الأول من أعماله وبالأخص كتاب "الكلمات والأشياء": وهو ما دفعه إلى أن يعطى الأهمية المركزية لموضوع السلطة القادر وحده - حسب رأيه - على أن يحطم صورة الذات. ولكن ما الداعى لإختزال الحياه الإجتماعية إلى آليات عملية تعميم السوية؟ لماذا لا يتم قبول أن تختلط الاتجاهات الثقافية باستمرار بالسلطة الإجتماعية، بحيث تكون المعرفة والنشاط الإقتصادى والمفاهيم الأخلاقية حاملة فى داخلها علامة السلطة، وحاملة أيضاً لمعارضة السلطة. ولماذا فى الوقت نفسه لا يتم قبول أن لا توجد سلطة - اللهم إلا إذا كانت استبدادية تماماً - إلا وتكون تنفيذاً للاتجاهات الثقافية التى لا تختزل هى نفسها أبداً إلى مجرد كونها أداة للسلطة؟ إن عاطفة فوكو الموجهة ضد ما يسميه الذات قد قادتته إلى أن يواجه موضوعات أدخلتها نظرتة التاريخية العميقة فى رؤيتنا.

فى نصه المعنون "السلطة كيف تُمارس" والموجود فى كتاب درايفوس Dreyfus وراينو Rabinow يعطى فوكو لأفكاره صيغة مفتوحة جداً (P.320). "هناك فى الواقع، بين علاقات السلطة واستراتيجية الكفاح دعوة متبادلة وتسلسل لا نهائى ودائم. إن علاقة السلطة يمكن أن تصبح فى كل لحظة - وتصبح فعلاً فى بعض جوانبها -

مواجهة بين الأنداد وفي كل لحظة أيضا تؤدي علاقة الندية، في مجتمع ما، إلى وضع آليات السلطة موضع التنفيذ. يؤدي عدم الاستقرار هذا إلى أنه يمكن لنفس المسارات ونفس الأحداث ونفس التحولات أن تفك شفرتها في داخل تاريخ النضالات وأيضا في داخل تاريخ العلاقات أو إجراءات السلطة". ويضيف أنه يجب أن نطلق إسم "سيطرة" على المجموع الذي يتشكل من هاتين النظريتين المتعارضتين والمتكاملتين في آن. ويختتم محدداً كموضوع رئيسي للبحث "تشبيك علاقات السلطة بالعلاقات الاستراتيجية وأثرها على الجذب المتبادل" (P.321) ونحن في هذا النص - الذي كتبه فوكو في آخر حياته - نبتعد عن الفكرة الفظة التي ترى أن ممارسة السلطة هي التي تنتج الذات، إن النضال الاجتماعي هو الذي يضع الفرد-الموضوع في مواجهة الفرد-الذات. وإنتمصار السلطة وسحق نضالات الاحتجاج هما فقط اللذان يمكنهما أن يتركا المجال مفتوحاً لتمثل الفرد كموضوع قابل للفحص والتلاعب. ليس كل شيء سلطة؛ والسلطة المطلقة فقط، بنزعها ذاتية الانسان، تنتهي بخطر العقلنة بالسلطة وذلك بإلغائها قدرة واردة الجميع تقريباً على التصرف كنوات. ويستفيض فوكو في وصف ما أسماه الحركات الاجتماعية المضادة antimouvements sociaux ، في حين أنه لا يشير إلا عابراً إلى الحركات الاجتماعية التي تطرح الدفاع عن الذات ضد سلطة تطرح نفسها كتنويرراطية. لقد ظل فوكو باستمرار مرتبطاً بنظرة نقدية محضة وبشجب الذات كنتيجة للسلطة. ولكن كتاباته لا تنتمي إليه تماماً. كما أنها تبلغ من الثراء حداً يجعلها غير مذهبية، إنني أقرأها، وخاصة المتأخر منها، واصلاً بها إلى حدود إيديولوجيتها الخاصة، حيث تفرض الذات حضورها في قلب المناظرات حول الحداثة. تأتي أهمية فوكو وتفوقه على معاصريه المذهبيين من كونه يقترب بشدة مما يرفضه. شأنه كشأن فنان ديني لا يتفوق فنه إلا عندما يرسم أو ينحت الخاطئين وهم يهرعون إلى الجحيم. يمكن لكتابات فوكو أن تساهم، رغم عن أنف فوكو نفسه، في إعادة إكتشاف الذات.

هذا التصور عن كتابات فوكو يقترب، في جزء منه، من النقد العميق الذي قدمه لها مارسيل جوشييه Marcel Gauchet وجلاديس سوان Gladys Swain في

دراستهما عن مؤسسة العزل. ويقترب بالأساس من كتاب بينل Pinel وإسكيرول Esquirol "ممارسة العقل الانساني" [1980]. فبالنسبة لهم لا تتفصل الحركة الكبرى في عزل المجانين، من القرن السادس عشر حتى القرن التاسع عشر، عن ما أحده هنا بالحدثة، أي خلق مجتمع متمركز حول ذاته ومنفصل عن العالم الانساني، وعن الطبيعة وعن الآلهة في وقت واحد. بينما كان المفترض أن المجانين تسكنهم قوة إلهية وتسيطر عليهم الطبيعة التي تتفصل عنها الثقافة نون أن تقطع تماماً معها. وعندما يتحدد المجتمع بفعله الخاص فقط، لا يكون للمجنون مكاناً فيه، ورغم ذلك هو غير مستبعد، إنه محبوس، وهو ما يعنى العكس تقريبا. بما أن المجتمع يرى ضرورة إعادة جعل المجنون إجتماعياً، والذي يتحدد إغترابه في الواقع كقطيعة مع المجتمعية socialite. وتشترك هذه الأطروحة مع أطروحة فوكو في كونه يعترف بأن الدولة في هذا المجتمع هي التي تصبح "إنسانية" humaniste. إن التغير في تصور الجنون هو الذي يؤدي إلى تدخلها. ولكن جوشيه وسوان يذهبان إلى أبعد من هذا وذلك لأنهما يؤكدان أن الحبس يؤدي بالضرورة إلى إعادة إدماج المريض العقلي إجتماعياً — وهو ما يبدأ مع أول كتاب إسكيرول الذي يكون تأكيده المركزي هو أن المجانين لا يخرجون أبداً من عالم المعنى — وذلك أيضا لأنهم يقولون أن المجنون لا يمكن أن يعاد إدخاله إلى المجتمع عندما يكون اللا إجتماعي الذي يحمله لا يعزى إلى الآلهة أو إلى الطبيعة وإنما يظهر بفضل فرويد كلاوعي، كالهو. وهو ما يرتبط بالفكرة التي حددتها هنا كتفكيك للحدثة تفكيكاً سيسمح، إنطلاقاً من تحطيم الإكتفاء الذاتي للفعل العقلاني، بالنظر إلى المرض العقلي كشئ مختلف عن المرض كقطع للعلاقة بين ما هو إجتماعي ولا إجتماعي أي بين الهو. والأنا الأعلى اللذان يقام عليها تكوين الشخصية. لقد بين فوكو ببراءة، منذ تاريخ الجنون إلى المراقبة والعقاب، تطور السلطة على الانسان ولكن جازف بفصلها عن تحول مجمل ما تمثله الحدثة التي تعتبر سلطة الدولة بالتأكيد هي فاعلها الرئيسي وإن كان لها معنى سوسيولوجي وحتى أنثروبولوجي أكثر عمومية . إن ما يجب أن يبقى من

كتاباته هو أن الحداثة قد حملت داخلها القدرة الكلية لدولة أنتج مثلها الأعلى في العقلنة أسوأ أشكال القمع، وأن أزمة الحداثة بالتالي تعتبر تحرراً.

ويبدو أن فوكو في النص الموجود في كتاب دريفوس ورايينو المشار إليه قد إقترب من الإعتراف بمحدودية التحكم الممارس بواسطة أليات فرض السوية ؛ وبالتالى من الاعتراف بالحضور المستمر لذات محتجة أو متمردة. ويشير إلى الحركات الإجتماعية الجديدة التى تدافع عن الذات ضد الدولة. وتمثل أعماله بالصفحات وخصوصاً الصفحة الأخيرة فى «المراقبة والعقاب» التى يخرج منها صخب التمرد فى الحياة الاجتماعية. ولكن لا يمكننا فى وقت واحد أن نظهر مجتمعا مليئاً بالصراعات والمواجهات وأن نطابق بين السلطة والممارسة الاجتماعية. وكأن هذه السلطة قد صارت غير شخصية ومقننة تماماً. إما أن نناضل داخل المجتمع ضد خصم سياسى أو اجتماعى معين وأما أن نناضل ضد المجتمع نفسه؛ ولكن فى هذه الحالة يتقلص النضال إلى الرفض ويضمحل إلى مستوى الهامشية. أنا أفهم أن علينا، فى مجتمع أجهزة وتقنيات، الابتعاد عن تمثيل للسلطة يضعها بين يدي إله شخصي أو ملك، ولكن هناك جهاز يبقى مركزاً للسلطة ويستمر فى التحدد بعلاقة سيطرة إجتماعية لا توجد هى بدورها إلا فى داخل مجتمع وبالأساس فى داخل ثقافة، كما تشكل صراع الرأسمالية والأجور فى داخل مجتمع وثقافة صناعيتين لم يكن الطرفان المتصارعان يقبلانها فحسب بل يناون بها. لو دمرنا المثلث المتشكل بواسطة الأنداد ودمرنا موضوع النزاع، فإننا نصل باسم النقد الجذرى إلى نفس الرؤية التى تقودنا إليها الوظيفية الإدماجية؛ لم يعد هناك قوى صراع، لم يبق إلا الهامشية والثقافة المضادة، وهما من طبيعة مختلفة عن الصراع الاجتماعى. وهو ما يضطرنا إلى أن نستنتج، ضد فوكو وليس معه، أن تشكيل الذات يتم عبر الصراعات مع السلطات التى تصبح أكثر فأكثر غير شخصية وتكتسى بمظهر السلطة التكنيكية. ينتمى فكر فوكو إلى فترة تميزت باختفاء الفاعلين الاجتماعيين المعارضين، فترة تحول فيها الفاعلون القدامى،

وخصوصاً الحركة العمالية، إلى أجهزه للسلطة وأقتربت الحركات الإجتماعية الجديدة فيها من الثقافة المضادة أكثر من الصراع الإجتماعى. ولهذا السبب، فى الوقت الذى يقوم فيه هذا الفكر بتدمير إمكانية فهم الحركات الإجتماعية والذات، فإنه يشد الانتباه إلى مثل هذه الموضوعات. وبهذا الأمر نفسه يمهّد لميلاد الفكر الاجتماعى الذى يحذر منه فى نفس الوقت باتهامه بأنه مشارك فى سياسة فرض السوية والتصنيف.

هذا الخلط الذى يحدثه فوكو بين جانبيين متعارضين من الفكر الاجتماعى لا يوجد فقط على مستوى التحليل ؛ إن له عواقب عمليه منظورة. إعتقد فوكو مثل ماركيز إن المستبعدين والهامشيين هم المعارضون الوحيدون الممكنون فى مجتمع تعميم السوية والذى لا يترك أى مجال للصراعات الاجتماعيه من النوع التقليدى. ولذا وجه فوكو عناية بالغة لحركة السجناء فى حين أنه لا توجد حركة اجتماعية يتحدد صاحبها بالاستبعاد أو التهويش أو الحبس. فالسجناء مثلهم مثل العاطلين عن العمل لا يشكلون حركة اجتماعية. وضعهم يدفع المجتمع لتساؤل حول ذاته أو يجلب له عقدة الذنب ولكنهم يمكنهم فى أفضل الأحوال أن يشكلوا جماعة ضغط تتقدم بمطالب، بصورة عنيفة أو لا، للحصول على بعض المزايا الملموسة. لا علاقة بين هذا وبين نقد العلاقة مع السلطة من يحددون أنفسهم باللاعلاقة مع مجتمع هو فى مجمله ند لهم عبر جهازه المؤسسى، لا يمكنهم أن يكونوا فاعلين مركزيين للمجتمع وتاريخه.

إن كتابات فوكو على درجة من الأهمية بحيث يمكن أن تقرأ بشكل مختلف عن الذى يرجوه لها فوكو ، نو النوايا النقدية ، يمكن لنا أن نقرأ كتاباته الاخيرة إبتداء من المراقبة والعقاب وإرادة المعرفة كإكتشاف لموضوع الذات. والذى كان قد بدا أنه استبعد نهائياً بواسطة كتاب الكلمات والأشياء. هذه العودة غير المتوقعة فرضت نفسها أثناء تدريس فوكو فى الكوليج دو فرانس. وكتاباً بعد كتاب يكتشف فوكو أنه لا يمكن إتهام المسيحية والاقتصاد الحديث بفرض التقشف ومنع لذة الوثنية. وكان هذا الاتهام

بمثابة الخلاصة لدراسة إستخدام الذات وخصوصا ما يتعلق بحب الغلمان فى اليونان القديمة. إن التاريخ يبرز عملية الانتقال من المواطن إلى الذات أكثر من الانتقال من اللذة إلى معاقبة النفس. ويقاوم فوكو النتائج التى يمكن استخلاصها من هذه الملاحظة ولهذا يريد أن يجعل من تحقيق الذات منتجاً فرعياً من آلية الحكم وفرض الأخلاق وهى فرضية لا يمكن لنا قبولها حتى وإن أعجبنا بقوة وذكاء هذه المحاولة.

وظف المثقفون النقيديون، منذ مدرسة فرانكفورت، كل قوتهم للقتال ضد فكرة الذات. والآن وبعد أن انتهت أشد الغارات حمية وذكاء ضد هذه الفكرة، وهى غارة ميشيل فوكو. ألا ينبغى تنظيف حقل المعركة والاعتراف بأن الذات، التى عاشت رغم كل الهجمات وكل صور الاحتقار، هى الفكرة الوحيدة التى تسمح باعادة بناء فكرة الحداثة؟ ويكفى لكى نقنع انفسنا بهذه النتيجة ان نرى بأى سرعة تحول فكر الحداثة النقدى المحض إلى قطيعة شاملة مع فكرة الحداثة نفسها، ودمر نفسه بالقفز إلى ما بعد الحداثة. وهذا التطور كان يخص جان بودريار الذى حرص على مهاجمة فوكو ليفسر انتقاله من النزعة اليسارية النقدية الى ما بعد الحداثة. ويمكننا على العكس أن نجد فى فشل فوكو مبررات للاعتقاد فى عودة الذات.

رجال الدين ضد القرن

كان المثقفون قد اعلنوا عن التقدم لمجتمع مازال غارقاً فى العادات والتقاليد والامتيازات، وكانوا قد وجدوا بسهولة حلفاء لهم من الارستقراطية أو البرجوازية، كما بين دانيال بروش بالنسبة لفرنسا فى القرن الثامن عشر. وطوال القرن التاسع عشر الذى أستمر حتى الحرب العالمية الأولى والثورة الروسية شدد المثقفون بقوة على تقديميتهم أى على نقدهم للمجتمع باسم مستقبل حتمى من الناحية العلمية ومن الناحية الأخلاقية على حد سواء. وكانت تمدهم بالحماس الحركة الشيوعية ثم بعد ذلك حركات التحرر الوطنى، حتى وإن شعروا أنهم مرفوضون من قبل ثوريين يستنكرون الحريات

التي بناها الغرب كما يرفضون سلطة البرجوازية والقوى الاستعمارية. والعمل على تقدم المعرفة والدفاع عن التسامح والحرية كان يبدو لهم هدفاً مرتبطاً بالثورة الاجتماعية والحروب ضد الاستعمار. كانت فكرة الحداثة، حتى وإن لم يشار إليها صراحة، تجمع نضالات لا تبدو غريبة عن بعضها البعض إلا لأن الكوكب كان منقسماً إلى أغنياء وفقراء، إلى مستعمرين ومستعمرين. لقد قاومت هذه النزعة التقدمية واقعاً رفضت بعناد أن تراه على حقيقته.

ولكن خبرة الأنظمة الشمولية التي سادت القرن العشرين، تفسر رد فعل مجموعة هامة من المثقفين على قدر من الذكاء والشجاعة، يرفضون موقف رفاق الطريق تجاه الأحزاب الشمولية ولا يرون أى مخرج من التناقضات التي تهددهم إلا بالانتقال إلى نقد معمم. وحدثوا قطيعة مع الأمل التقدمي في التوفيق بين التاريخ والحرية؛ وأداروا ظهرهم للماركسية ذات الصبغة الهيجيلية أو الصبغة المسيحية ولكل أشكال النزعة التاريخية وفلسفة التاريخ. ويعبر لويس التوسير، نظراً لقربه من السياسة بوضوح عن هذا الحماس لانتزاع حق الحديث باسم الإنسان من السلطة السياسية، والذي كان يؤدي بدوره لفرض سياسة قمعية. فلو اقتضت حكومة على إدارة الأشياء باسم العلم والضرورة التاريخية لكان لها دور في التحرر من الامتيازات، وما كان لها أن تتحول إلى كنيسة أو محاكم تفتيش. وهكذا تتشكل أصول عقلانية تقضى على كل إحالة للذات التاريخية من باب الحذر من التلقين الشمولي، وتستقر على صخرة العلم تدين بضربة واحدة النظم الشمولية وكذلك مجتمع الاستهلاك. ولا يلاحظ تاريخ الأفكار صرامة حركة المثقفين فقط ولكن يلاحظ نجاحها أيضاً وسلطتها داخل العالم الثقافي والجامعة والنشر والاعلان.

ساد النصف الثاني من القرن العشرين الانفصال بين النظرية والتطبيق. وعلى أطلال النزعة التقدمية انفصل نوعان من المفكرين كل في طريق: فمن جانب هناك من

يضعون ذكائهم في خدمة المؤسسات الانتاجية والحكومات أو في خدمة نجاحهم الشخصي، ومن جانب آخر من يرون في المجتمع الحديث نمو وتوسع لأشكال التحكم الاجتماعي. ألا يدين ماركيز في تسامح المجتمعات الغربية نظاماً للتلاعب لا يقل قمعاً عن ممنوعات النظم الشمولية. وينقسم مجتمع الانتاج والاستهلاك الضخم شيئاً فشيئاً إلى سياقين (situes) كما يقول علماء الاجتماع) ليسا على الإطلاق طبقات اجتماعية ولكن عوالم اجتماعية وثقافية مختلفة نوعياً، من جانب هناك عالم الانتاج والأداتية والفاعلية والسوق ومن جانب آخر هناك عالم النقد الاجتماعي والدفاع عن القيم أو المؤسسات التي تصمد أمام تدخلات المجتمع. ليس التعارض بين المجموعة التقنية-الاقتصادية والمجموعة الاجتماعية-الثقافية مهنيّاً فقط؛ بل يميل إلى أن يصبح عاماً، بما أن الأوائل ينتخبون اليمين في الغالب والآخرين ينتخبون اليسار، ولا سيما أن المجموعة الأولى هي أكثر ذكورية والثانية أكثر نسوية. لقد غير تاريخ الأفكار اتجاهه ومستواه مع التطور المتسارع للتعليم الجامعي الضخم. لأن المثقفين من الآن فصاعداً ليسوا مجموعة متقلصة ومؤثرة، بل تحولوا إلى انتليجانسيا واسعة. ويتوجه بعض المجالات ودر النشر إلى هذه الانتليجانسيا التي تشكل جمهورهم الأهم. وينفس الطريقة لا يمكن للحزب الاشتراكي في فرنسا أن يتجاهل أن دعمه الأكثر صلابة يوجد لدى جماعة الاجتماعيين - الثقافيين، وخصوصاً لدى المعلمين من هنا تأتي العزلة النسبية لمن يجهلون أنفسهم في التفكير في المجتمع المعاصر لأنهم محصورين بين مفكرين نقاد للحدائث، وفاعلين مستغرقين فيها تماماً. وقد انهارت السوسيولوجيا أمام هذا الهجوم المزبوج، وأصيب بالضعف في معظم البلاد أمام هذا التمزق، الذي يتعمق يوماً بعد يوم، الفكر الاجتماعي الموروث من القرن التاسع عشر.

وقد أدى ذلك إلى نوعين من رد الفعل الثقافي والسياسي صبغ خليطهما حركة مايو ٦٨. فمن جانب واجه الفكر الاجتماعي بصورة فعالة التناول الروتيني لايديولوجي التحديث. لقد احتفظ بساحة الرفض التي بدونها لا يمكن تشكيل فاعلين جدد وحركات

اجتماعية جديدة. كما أبرزت مغزى المطالب الجديدة وخصوصاً لحركة النساء، ونقد المركزية اليعقوبية والرفض الايكولوجي لتدمير البيئة. مهدت معاداة الوضعية ومعاداة الانتاجية ليقظة المجتمع الذي كان يبدو أنه قد اختزل بصورة عبثية إلى سوق السلع والخدمات. لكن المثقفين، وبشكل موازى قد حبسوا أنفسهم أكثر فأكثر فى نقدهم "اليسارى" للمجتمع الحديث واصفين إياه كألة للتلاعب وهو ما لا علاقة له بالواقع ، لانه إذا كان المجتمع الحديث شبكة للعلامات تتكثف تدريجياً، لا يمكن ان ننسى أن هذه العلامات أقل سيادة من القواعد، ونتائجها فيما يتعلق بالتنشئة الاجتماعية تصير مع الزمن أكثر ضعفاً. لايفرض العرف ولا قواعد اللعبة أوامر بنفس الدرجة من الصرامة التى نجدها فى بنود التربية الدينية والمذهبية أو أشكال التبعية الشخصية المباشرة.

كان انتصار هذا الفكر، الذى بدا باهراً، قصير الاجل. لقد تغيرت روح العصر بشكل سريع، ليس فقط لأن الدائرة قد دارت على الفكر النقدي نتيجة لانتقال بعض اليساريين إلى ما بعد الحداثة، ولكن بالاساس لأن الظروف الاقتصادية العالمية قد تغيرت فى سنوات الثمانين. وجاءت مرحلة جديدة من الرخاء بدأت من الولايات المتحدة واليابان ولم تصل لفرنسا إلا متأخراً ، واعقت ما سمي "بالأزمة" الضارية التى سببها اضطراب النظام المالى الدولى والارتفاع المفاجئ فى اسعار البترول. لقد كانت الثمانينات سنوات انتقام التطبيق من النظرية، وانتقام التكنو-اقتصاديين من الاجتماعيين-الثقافيين، وانتقام النجاح من النقد. وهى اللحظة التى أخلى الفكر النقدي، الوريث الواهن للتقدمية القديمة، المكان للأفكار الليبرالية الجديدة أو الما بعد-حداثة التى أنجزت تدمير الفكرة الكلاسيكية عن الحداثة.

هل يمكننا أن نتذبذب طويلاً بين رفض المجتمع الحديث وعبادة السوق، وكأن التدخلات السياسية لمجتمعاتنا لتعديل نفسها هى تدخلات كريمة بالضرورة؟ هذا الحذر المزدوج من الاصلاح والابداعات الاجتماعية يمنع فى الواقع تكون حركات اجتماعية

جديدة، لأنها، نظراً لبلورة ثقافية كافية، سرعان ماتسقط الأخلاقية التافهة أو البراجماتية قصيرة النظر. ومجتمعنا، مثل باقى مجتمعات العالم، يبدو فى مواجهة مشاكله الداخلية مفتقراً للأفكار والخيال. غياب وضعف المثقفين هو أكثر مأساوية خارج البلاد المتقدمة. إتصل المثقفون، فى أمريكا اللاتينية ولا سيما فى شيلي، من جديد بالواقع بعد أن ظلوا لفترة طويلة حديثى نزعة ثورية منفصلة عن الجماهير الشعبية التى كانوا يتحدثون باسمها. ولكن ضعفت قوتهم بسبب الازمة الاقتصادية والاجتماعية فى الثمانينات. وفى بلاد اوروىا الشرقية ولاسيما بولندا، لعب المثقفون دوراً رائعاً فى نقد واسقاط الانظمة الشيوعية، لكنهم سرعان ما وجدوا أنفسهم محاصرين ببرامج للتعمير تضحى بكل شئ من أجل اقتصاد السوق. وفى العالم الاسلامى يقف المثقفون النقيدون بلا صوت تقريباً ازاء صعود الحركات الاسلامية التى عندما تصل إلى السلطة تدمر كل حياة ثقافية. لا يسأل المثقفون وحدهم عن الوضع الذى جعلهم ضحاياها. الدعوة المتنامية للايديولوجيا من قبل السلطة السياسية وغزو المعارف الاكثر نفعية قد حول جزءاً كبيراً من الارض التى كانت تنمو فيها الحياة الثقافية إلى اراضى عسكرية ومجمعات تجارية كبرى. ولكن لماذا تركت الحياة الثقافية نفسها تقاد إلى رفض الحداثة وإلى نقد مبتعد عن الوقائع المرصودة؟ لماذا لا ينصت المثقفون إلى ضجيج الشارع إلا قليلاً وبصعوبة؟ لا أرى إلا تفسيراً واحداً لهذا الانسحاب: هو أن المثقفين قد تماهوا تماماً مع الصورة العقلانية والاشراقية للحداثة، وبعد أن انتصروا معها تفككوا معها كلما مالت السلوكيات الاجتماعية والثقافية فى أرجاء العالم لأن تتخلص تدريجياً من الخضوع لهذا التصور. إن إعادة تعريف الحداثة ليس مفيداً للمجتمعات الحديثة أو التى فى طريق التحديث ولكن أيضاً، مفيد للمثقفين، فهو وسيلة لا غنى عنها للأفلات من فقدان المعنى الذى يؤدى بهم إلى أن لا يروا سوى السيطرة والقمع فى الحضارة التقنية وإلى إنكار وجود الفاعلين الاجتماعيين فى عالم هائج بالمشاكل والابداعات، بالمشاريع والاحتجاجات.

الفصل الخامس

مخارج من الحداثة

لم تسد فكرة الحداثة إلا قبل بناء المجتمع الصناعي. كان النضال ضد الماضي! وضد نظام الحكم القديم والاعتقادات الدينية، والثقة المطلقة في العقل يعطى للمجتمع الحديث قوة وتماسكاً، سرعان ما زالا عندما حلت الخبرة محل الأمل، وعندما أصبح المجتمع الحديث واقعاً وليس فقط النقيض للمجتمع الذي أريد تدميره وتجاوزه. إن تاريخ الحداثة هو تاريخ إنبثاق الفاعلين الاجتماعيين والثقافيين الذي تخلصوا تدريجياً من الإيمان بالحداثة كتحديد ملموس للخير. كان المثقفون بعد نيتشه وفرويد هم أول من رفضوا الحداثة. وكان التيار الأكثر تأثيراً في الفكر الحديث، من هوركهايمر وأصدقائه في مدرسة فرانكفورت إلى ميشيل فوكو، قد ذهب بنقد الحداثة بعيداً، وإنتهى بأن عزل المثقفون تماماً عن المجتمع الذي كانوا يصفونه بإحتقار كمجتمع جماهير. ولكن، بجانبهم، وفي اتجاه يقترب أحياناً من هذا النقد الثقافي، ويبتعد في أغلب الأحيان عنه، اكتسبت الأمم واكتسب شوقها إلى التحرر، وإلى تاريخها وهويتها أهمية متنامية، إلى درجة أن القرن العشرين صار قرن الأمم، كما كان القرن التاسع عشر قرن الطبقات، على الأقل في البلاد الحديثة. ثم جاءت بعد ذلك المؤسسات الانتاجية، - في الولايات المتحدة أولاً، ثم في اليابان وأوروبا - وصارت فاعلة تتجاوز سلطتها أحياناً سلطات الدول القومية، وصارت مراكز لأخذ القرار السياسي أكثر من كونها مجرد معامل إقتصادية. وأخيراً، في الولايات المتحدة أولاً ثم في أوروبا ومؤخراً في اليابان، طغى الاستهلاك الضخم وتبعه الاتصال الضخم اللذان أدخلتا إلى عالم الحياة العامة، عالم الرغبة والخيال والجسد الذي كانت العقلانية قد رفضته أو قمعته أو حبسته. ولكن طالما تنسج العقلانية الأدوات شبكة علاقات بين هؤلاء الفاعلين الاجتماعيين والثقافيين، تظل الحداثة مصانة، ويمكن الحديث عن مجتمع صناعي، بل وحتى صناعي جديد، أو صناعي ضخم. تشعر المجتمعات الأكثر حداثة أنها مهددة بالتمزق ولكن فعالية التقنيات تسمح

لهم بتدبر الأمر بالجمع بين التأهيل التقنى والدفاع عن شكل من أشكال التقشف. ويتم الدفاع عن المجتمعات بقوة فى المدرسة التى أعتبرت نفسها - لا سيما فى فرنسا - المدافعة عن عقلانية التنوير، حتى داهمها هى أيضا عودة ما كانت البرجوازية ما بعد-الثورية قد قضت عليه أثناء استلامها للسلطة زمنا طويلاً.

فى أى لحظة يصبح هذا التمزق كاملاً وليس جزئياً؟ بالتحديد عندما ينفصل مجال العقلانية الأداتية كلية عن مجال الفاعلين الاجتماعيين والثقافيين فى هذا الوقت يذهب إيروس والاستهلاك والمؤسسات الانتاجية والأمم كل فى طريق. مثل جبال الثلج عندما تتحل من قاعدتها مبتعداً كل منها عن الآخر أو تتصادم أو حتى يتلاصق الواحد بالآخر. وبصورة ملموسة، نخرج من الحداثة عندما نكف عن تحديد مسار أو شكل للتنظيم الاجتماعى بموقعه فى محور التراث - الحداثة، أو التخلف - التقدم، كما جرى التعبير بالنسبة للبلاد الأقل حداثة. إننا نعى أكثر فأكثر هذا الخروج من الحداثة منذ 1968. ونكف عن تفسير الوقائع الاجتماعية بمكانها فى تاريخ ذى مغزى وذى إتجاه. يتخلص الفكر الاجتماعى التلقائى والايديولوجيات وسمة العصر من كل إحالة إلى التاريخ وهذا ما يعنيه موضوع ما بعد الحداثة الذى يعتبر قبل كل شئ ما بعد-الترعة التاريخية. إزاء هذه الأزمة للفكرة الكلاسيكية عن الحداثة والايديولوجيا التحديثية هناك إجابتان ممكنتان : الأولى هى إجابة ما بعد الحداثيين والتى تؤكد ان تفكك الحداثة لا رجعة فيه؛ والثانية هى أن الحداثة يمكن ويجب أن تصان بل وحتى تتسع. وهذا هو رأى هابرماس، وأيضاً الفكرة التى أدافع عنها فى الجزء الثالث من هذا الكتاب فى صيغة أخرى. ولكن قبل السير فى هذا الاتجاه ينبغى الذهاب أولاً إلى آخر الطريق الذى يبدأ من الفكرة الكلاسيكية للحداثة ثم إلى أزمته وتفككها وأخيراً إلى إختفائها.

السوق والجيتو

تصل أزمة الحداثة إلى نهايتها عندما يبتعد عن المجتمع كل مبدأ عقلانى، سواء كان يعمل كسوق، أو لا يحدد نفسه إلا بهوية تاريخية، وعندما لا يكون للفاعلين سوى

مرجعيات ثقافية أو طائفية أو فردية. أينبغى حتى الحديث هنا عن أزمة للحدثة؟ ليست الحدثة نفسها، كما عرفت مباشرة، هي التي تسعى لهذا الفصل بين النظام والفاعلين، وتاريخها أليس هو تاريخ التدمير التام والتدريجى لكل مبدأ للوحدة بينهما. فبعد الانقطاع عن مجال المقدس جاء تدمير الرؤية العقلانية للعالم وايضا نفاذ صورة المجتمع كمكان للاتصال بين المؤسسات والفاعلين الاجتماعيين عبر الأسرة والمدرسة. فمن الازواجية المسيحية إلى الفردية البرجوازية ومن الرومانتيكية ما بعد-الثورية لثقافة الشباب المتعارضة كلية مع ثقافة المؤسسات الانتاجية الكبرى، ألم ندخل فى التحليل الكبير حيث تكتمل الحدثة وتلغى نفسها؟ لقد تعجلنا طويلاً إختفاء المجال الاندماجى الذى يحتل فيه الانسان مكاناً فى طبيعة خلقها الله، ولكن ما يفزعنا اليوم ليس هو إغلاق عالم جامد وساكن ذى قوانين شديدة الخطر، ولكن على العكس، هو فوضى مجتمع يتصادم فيه مجال التقنيات والتنظيمات بعنف مع مجال الرغبات والهوايات. ويلقى تيار ما بعد الحدثة الضوء على الجوانب المتعددة لهذا الانفراط، ولكن ينبغى وصفه فى واقعة التاريخى قبل البحث عن انعكاساته فى أنساق فكرية هي نفسها منفردة كالعالم الذى تفسره.

لا ينبغى هنا الانطلاق من مفاهيم حول الانسان ولكن على العكس، من تأملات حول الفاعلين الاقتصاديين. كانت سوسيولوجيا التنظيمات هي التي لعبت فى واقع الأمر الدور الثقافى المركزى. أما السوسيولوجيا الوظيفية أو المؤسساتية فقد قدمت التنظيمات ذات الأهداف الاقتصادية أو الإدارية أو الاجتماعية، كتنفيذ للعقلانية الادائية قادر على خلق صلة بين قواعد الاداء والسلوكيات الفردية والجماعية. وقد مزقت سوسيولوجيا التنظيمات هذه الصورة. أحيانا فى شكل نقد إجتماعى، عندما رسمت صورة غير تقريظية "لإنسان التنظيم" على نحو ما فعل وايت Whyte .H.W ، ثم بشكل أكثر عمقا، بإظهار أن قواعد تنظيم ما وحتى أدائه الملحوظ ليسوا إلا توفيقاً هشاً ومتغيراً بين عدد كبير من العوائق والضغوط، وأن التنظيم الفعال ليس هو التنظيم الواضح والصلب والشفاف، ولكن هو الذى يستطيع أن يدير التعقدات والصراعات

والتغيرات. وهنا تحل فكرة الاستراتيجية محل فكرة الإدارة. وقد صاغ بيتر دروكر Peter Drucker هذا الانقلاب بوضوح. وعلى مستوى نظري أعلى فإن كتابات هيربرت سيمون Herbert Simon وجيمس مارش James March في الولايات المتحدة وكذلك كتابات كروزيه Michel Crozier في فرنسا لم تقم بإثبات أزمة العقلانية الأداتية، ولكن على العكس، أثبتت التجدد الممكن هذه العقلانية، على شرط أن تقطع صلتها بفكرة النظام الإجتماعي أو بفكرة المجتمع، وأن ترتبط كلية بموضوع التغير الإجتماعي. هكذا تكف المؤسسة الانتاجية عن أن تكون الخلية الأولى للمجتمع الصناعي الحديث: وتصير هي المقاتل الذي يقاتل في الاسواق الدولية باسم المجتمع القومي أو باسمها نفسها، ويكافح ليحول التكنولوجيات الجديدة إلى مسارات إنتاج، وليتكيف مع محيط من التغيرات المستمرة والغير متوقعة. تحدث سيمون عن العقلانية المحدودة وتحدث كروزيه عن التحكم في عدم اليقين. تقدم هذه التحليلات الهامة المؤسسة الانتاجية كاستراتيجية لا تكون أسيرة التنظيم العلمي للعمل، ولكن منفتحة على العالم الخارجى وعلى المشاكل الانسانية الداخلية ذات التنظيم المعقد. لقد جاء مديح التنظيم الضعيف والمرن والمعقد مكان عبادة التنظيم القوى. هذا المفهوم أكثر ثراء من الحداثية الوظيفية التي حل محلها، وأكثر تواضعا بإعتباره يتخلى عن المبدأ المركزى للسوسيولوجيا الكلاسيكية، ويتخلى عن الصلة بين القواعد المؤسساتية والسلوك. يمكن أن تستند الاستراتيجية على الإخلاص، على الطريقة اليابانية، لمؤسسة انتاجية تقوم على علاقات تسلطية وتشاركية معاً: ويمكن للاستراتيجية أن تكفى إن تدمج في المؤسسة الانتاجية ضغوط وحاجات السوق وهو ما يحدد النموذج المسمى "بوادى السيليكون". ويمكن ايضا تصور استراتيجية مؤسسة إنتاجية مختلفة تماماً، تستطيع أن تجمع الاندماج في المؤسسة مع تشجيع المشاريع المهنية الشخصية. ويمكن للمؤسسة الانتاجية فى نهاية الأمر أن تسعى لأكبر مشاركة ممكنة من الأعضاء فى أدائها وتكيفها مع السوق. هذه التصورات للمؤسسة الانتاجية تتجه بوضوح إلى الخارج رغم إهتمامها باستمرار بتعبئة مواردها البشرية والتقنية.

لو خرجنا بهذا المفهوم من حدود المؤسسة الانتاجية إلى مجمل المجتمع، لقاد ذلك إلى القول بأننا نحيا في مجتمع صناعي تتحكم فيه صراعات إجتماعية مركزية ولكن في شكل سيل لا يتوقف من التغيرات. إننا في خضم تيار جارف خطير، مشدودين لكي نقدم اجابات سريعة لأحداث في الغالب غير متوقعة. البعض يكسب السباق والبعض الآخر يفرق. فكرة المجتمع حل محلها فكرة السوق، وهذا التحول قد أخذ طابعاً مأساوياً بإنهيار النظام الشيوعي. لأن النتيجة التي توصل إليها المسؤولون الأساسيون في البلاد المعنية هي أن نظامها لا يمكن إصلاحه. ينبغي إذن الانطلاق، ولو في أسوأ الشروط، في ذلك النهر الجارف المجهول، والسعى مهما تكلف الأمر لاقامة إقتصاد السوق في بلادهم. هكذا نجد انفسنا في الشرق كما في الغرب، في مجتمع مركب من ثلاث مجموعات : الملاحون، وهم مجموعة قليلة لا تأمر ولكنها تستجيب إلى مطالب السوق والمحيط العام، ثم الركاب وهم مستهلكون وفي نفس الوقت أعضاء في الطاقم، وأخيراً البقايا التي أودت بهم العاصفة أو ألقى بهم في البحر كأفواه لا مجدية ، كحمولة زائدة. هذا المجتمع الليبرالي، القادم محل مجتمع الطبقات الذي كانت تديره الاشتراكية الديمقراطية أو أي شكل آخر من أشكال الدولة الراعية lEtat-providence ، يستبدل الاستبعاد بالاستغلال، ويستبدل بنموذج الاداء إستراتيجية تغيير، وبرؤية تزامنية رؤية تعاقبية.

كثيراً ما تثير هذه الصور للمجتمع الليبرالي إعجاب كثير ممن احبطهم العمل السياسي نو الطابع الارادي. وهو ما يفسر فرح كثير من اليساريين القدامى عندما يلقون بأنفسهم إلى الليبرالية المتطرفة، مكيلين المديح للفارغ أو للعابر، ولتحرير الحياة الخاصة ولنهاية الحدود والقيود التي كانت تفرضها النماذج الارادية للمجتمع. هكذا يتنامى ماسماه الأميركيون الليبرالية التحررية. كيف ننسى أن هذا المجتمع، المختزل إلى أداتيته وتغيره واستراتيجية قادته، هو أيضاً مجتمع همجي تقل فيه تدريجياً فرصة المستبعدين في الدخول إلى مضمار السباق، وتزيد فيه اللامساواة الإجتماعية رغم التنامي المستمر للطبقة الوسطى، ولا ينأى بنفسه عن هذه الطبقة إلا من يتبنون ثقافات

الأقلية الذين يحتفظون بعلاقات قوامها عدم المساواة وعدم التوافق مع ثقافة الاغلبية. هذا التعارض بين هذه الاقليات وأغلبية يقودها سادة الانتاج والاستهلاك والاتصال يعطى معنى جديداً للتعارض بين اليمين واليسار. لم يعد اليمين يدافع عن الأكابر ولكن عن من يستشرفون المستقبل ويثق بخبرة الاستراتيجيين من أجل تقليل التكاليف الإجتماعية للتغيير. صار اليسار يدافع عن المستبعدين أكثر من الفئات الدنيا كما صار أكثر حساسية لعدم المساواة المتنامي بين الشمال والجنوب والتهديدات التي تلقى بأخطارها على الكوكب، ولإستبعاد عديد من الفئات الإجتماعية والثقافية. وتلقى هذه الروح لليسار صعوبات كبرى بما أنها لم تعد تتحدث باسم الأغلبية ولكن باسم الأقليات. يجد حزب الديمقراطى الأمريكى صعوبات جمة فى الأفلات من هذا التحديد التقليدى الذى يحكم عليه بالهزيمة.

تشكل هذه الليبرالية المتطرفة الرأس المتقدمة للحداثية ولكنها تتجاوز وتشكل مجتمعاً إقتصادياً تنمو فيه ثقافة ما بعد - الحداثية. إنها تمثل النموذج لادارة مجتمعنا فى نهاية هذا القرن.

عندما يأخذ المجتمع تدريجياً شكل السوق حيث يبدو أن الصراعات الايديولوجية والسياسية قد اختفت لا يبقى فيه إلا الكفاح من أجل النقود والبحث عن الهوية ؛ وحلت المشاكل الغير إجتماعية محل المشاكل الإجتماعية، مثل مشاكل الفرد ومشاكل الكوكب التى تغمر الحقل الإجتماعى والسياسى من أعلاه إلى أسفله وتفرغه تقريباً من كل محتوى. مجتمع لا يهتم أن يكون موضوعاً للتفكير ولكنه يحذر من الأفكار والخطب الكبرى التى تعكر صفو براجماتيته وأخلاقه. تأتى القوة الكبرى لهذه الرؤية الليبرالية من كونها تبدو الحماية الأكثر أمناً ضد كل محاولات انتزاع السلطة من قبل نخب القادة وخصوصاً تلك النخب التى تزعم أنها تتحدث باسم الانسان وباسم المجتمع. ألا تبدو النقود وكأنها السيد الأقل قسوة لأنها الأقل شخصية فى حين أن البشر نوى المعتقدات، أصحاب المشاريع الكبرى يسعون دائماً إلى فرض ايمانهم وسلطتهم؟

النقد الذى تستدعيه هذه الرؤية هو انها ضحية لأدائيتها الخاصة. انها تختزل المجتمع إلى سوق وسيل لا يتوقف من التغيرات ولكنها لا تحيط بالسلوكيات التى تقلت من هذا الاختزال. ولا تفسر، لا البحث الدفاعى عن الهوية ولا إرادة التوازن؛ ولا تفهم لا العاطفة القومية ولا ثقافة المستبعدين. بإختصار هى ايدولوجية النخب التى تقود التغيير ولا تشعر أنها طرف، بما يكفى، كى تحبذ الحركة على الراحة والهجوم على الدفاع، وعدم شخصية نظم الاتصال على الذاتية. نخب لا ينبغى التهورين من شأنها فى قيادة الأغلبية الصامتة.

الليبرالية ليست إلا وجهاً من وجوه الحداثة المنقرطة، وهو الوجه الخاص بفعل التغيير، والمنفصل عن الوجه الآخر، وجه الهوية المنقطعة عن أى عمل إجتماعى ، والذاتية المداهمة للقوميات والجيتو والعصابات العدوانية والايماءات التى تسجل على الجدران أو عربات المترو ؛ هوية ويهمل فك شفرتها ومجهولة واقعياً.

لا يوجد مجتمع هو سوق فقط. ولكن يوجد بلاد يجاور فيها السوق الجيتو وتحيط فيها الحركة والإبتكار بجيوب الإستبعاد. مجتمعات منقرطة تقدم لنا الولايات المتحدة منذ وقت طويل النموذج الساحر والمقلق والذى تقترب منه البلاد الأوروبية بسرعة هائلة رغم تصريحاتها الاحتفالية عن الاندماج الجمهورى والضمان الإجتماعى النموذجى والكفاح الضرورى ضد عدم المساواة. ولكن يتخذ هذا النموذج أشكالاً مأساوية أكثر فأكثر عندما لا يوجد ثراء وفير يسمح للفقراء بالبقاء على قيد الحياة والخروج من الجيتو. يبدو أن البلاد المتخلفة والبلاد ذات الوضع المتوسط، مثل معظم بلاد أمريكا اللاتينية، مجرورة إلى انقسام متسارع يزيد نسبة الفقراء ويبعدهم تدريجياً عن الفئات التى تشارك فى النظام الإقتصادى العالمى. هل يمكننا الحديث عن هذه المجتمعات إلا بإعتبارها حالة مرضية إجتماعية، بما أن ما يميزها هو ضعف وإنهيار قدرتها على التعامل مع نفسها، إلى درجة تجعلها لم تعد تمثل نظاماً إجتماعية بالفعل ولكن مجتمعات منقسمة على ذاتها، يعيش الفقراء فيها فى عالم مختلف أكثر فأكثر عن عالم الأغنياء،

ويدمر تعايش الطوائف المتعلقة فيها مع مناطق الانفتاح على الاقتصاد العالمى كل إمكانية سواء للتدخل السياسى أو للاحتجاج الإجتماعى؟ لا يمكننا أن نضع رؤية مجتمع متحرك فى مواجهة النموذج العقلانى الموجود فى بدايات العصر الحديث. فهذا النموذج يمثل رؤية كلية، حتى عندما مالت أزمة الحداثة إلى تفكيكها. على العكس لا تصف هذه الرؤية الليبرالية إلا جزء من المجتمع، كمرشد سياحى لا يسمح بزيارة إلا جزء من المدينة : أحيائها الجميلة. ونفس النقد لو عكسنا مصطلحاته، ينطبق على رؤية الحياة الجماعية فى الجيتو أو مجموعات المستبعدين.

لم يعد المستبعدون من الحركة المستمرة للابتكار ومن القرار يستندون على ثقافة طبقية، أو على وسط عمالى أو شعبى. لم يعد تحديدهم يتم وفق ما يفعلون ولكن وفق ما لا يفعلون : البطالة والهامشية. مجتمع التغير هذا هو أيضا مجتمع البطالة والسكون. وتبتلع الفوضى أحيانا هؤلاء المستبعدين، وينجرون أحيانا إلى الجنوح ويندمجون بصورة متزايدة فى جماعة جوار أو جماعة عرقية. وهذا هو الوضع منذ وقت طويل فى الولايات المتحدة وانجلترا. إن من يتحدد بنشاطه يبنى لنفسه هوية إنطلاقاً من أصوله. هذه الظاهرة تكتسب أهمية أكبر عندما ننظر لها على مستوى العالم: ولكن لنقتصر هنا على المجتمعات الصناعية التى أصبحت ما بعد حداثة. مجتمعات ديناميكية وليبرالية لأنها إنخرطت فى تغييرات تعدل باستمرار كل أنماط الاجتماع والحداثة، وهى أيضا مجتمعات جيتو وتجمعات. وعندما يكون الاقتصاد ليس إلا مجموع لاستراتيجيات المؤسسة الانتاجية ويكون الفاعل ليس إلا غير الفاعل ، العاطل أو المهاجر أو طالب الثانوى القلق على مستقبله، ينفصل عندئذ النظام تماما عن الفاعلين. لن تلتقى أبداً موضوعية السوق مع البحث الذاتى عن هوية لا يمكن لها أن تكون اجتماعية مهنية، أى هوية العامل أو الفلاح. هذا الانفصام ينفذ إلى أعماق لا يصل إليها الاقتصاد المتفاوت السرعة الذى يُستنكر غالبا من قبل البلاد الصناعية وبلاد العالم الثالث.

عاشنا فى أوروبا الصناعية، فى بضع سنوات نهاية الحركة العمالية، سواء انحرفت بسبب إشتراكها فى الشمولية الصناعية، أو إندمجت فى نظام القرارات الاقتصادية والإجتماعية، وبالتالي أختزلت إلى مجرد "شريك إجتماعى"؛ وهو ما يعزى لها دوراً هاماً فى النظام السياسى ولكنه ليس مطلقاً فى السجلات الأساسية حول توجهات المجتمع. لو صارت الحياة الإجتماعية سباق عدو، نرى البعض يكافح لكسب السباق ويجاهد الآخرون للبقاء فى المضمار، ويعبر عدد منهم عن خوفهم من التخلف والتعرض للإهمال وينطرح فى النهاية بعضهم ويستسلمون من الإرهاق.

لقد انتقلنا من الصراعات الإجتماعية إلى الآمال أو الإحباطات المرتبطة بتغيرات متسارعة ومن مشاكل بنية إجتماعية إلى مشاكل نمط فى التغيير. تمثل حركات الشباب كتلك التى عرفت فى فرنسا فى عام 1990. تعبيراً عن هذا الظرف الاجتماعى الجديد. فإذا كان طلاب المدارس الثانوية، وخصوصاً فى الضواحي، قد تظاهروا، فذلك لأنهم قادمون من وسط لا يصل فيه الجيل السابق إلى نفس مستوى التعليم ويخشون من الفشل فى الدخول إلى الطبقة الوسطى العريضة من مستهلكى المدينة. وإلى جانب هؤلاء الطلاب هناك شباب يعيشون فى أحياء جديدة فى ضواحي مدينة ليون أو باريس ارتكبوا حوادث جادة، فقد نهبوا المراكز التجارية وأشعلوا النار فى السيارات وكان هذا يتم أحياناً بمناسبة موت أحدهم بسبب التدخل البوليسى الفظ. ليس لهؤلاء الشباب نفس الأمل فى الإندماج الاجتماعى الذى يداعب طلاب الثانوى ، ولكن يحركهم سعار يعكس هذا الاندماج الذى يعد مستحيلاً أكثر منه مرفوضاً. ولكن لا يمثل أى من هذين التصرفين نقطة انطلاق لحركة إجتماعية جديدة، كما لم يؤد ما كان يسمى فى القرن التاسع عشر حركة الطبقات الخطيرة إلى قيام الحركة العمالية. هذه الحركات تشير إلى أزمة نظام يحرف عن العمل الجماعى أكثر من كونه يشجع على الاحتجاج. ونرى بشكل متزايد فى أوروبا كما رأينا منذ زمن طويل فى الولايات المتحدة هذا الاستبعاد من عالم الانتاج والاستهلاك محبذاً العرقية ، أى الوعى بهوية عرقية. إن من لا يمكن تحديدهم بالعمل لأنهم عاطلون، يتحددون بكيونوتهم وبالتالي بالانتماء العرقى بالنسبة لمعظمهم. وهذه

الثقافات المضادة التي تتجسد في الشلل وأيضاً في تعبيرات موسيقية ذات مصادر عرقية طاغية، تصبح نقاط الارتكاز لسكان مهمشين وإن احتفظوا في داخلهم بالرغبة في الدخول إلى العالم الذي لفظهم. إن ما نلاحظه في بعض الأحياء في نيويورك ولندن، وبصورة أقل حدة في باريس ، لا يختلف عن القطيعة التي تزداد كل عام بين الأمم الغنية والامم الفقيرة. لقد ولى الزمن الذي أطلق فيه ألفرد سوفى Alfred Sauvy على هذه الأمم البروليتارية تسمية "العالم الثالث tiers- monde"، ليتمنى لهم نفس المستقبل الذي حظيت به عامة الشعب tiers etat عندما اسقطت الحكم الملكي في فرنسا ؛ وإن كنا نتحدث اليوم عن العالم الرابع فذلك لنبين أن الاحباط قد حل محل الأمل، والهامشية محل مشروع الدخول في الانتاج والاستهلاك الحديث. وهو ما يؤدي إلى تفكك العمل الجماعي الذي لم يعد قادراً على الإحتجاج على التملك الإجتماعى بوسائل الإنتاج، وصار ممزقاً بين إنطواء على هوية أسطورية والانبهار باضواء الاستهلاك.

ما بعد الحداثة

هذا الانفصال الكامل بين عقلانية أدواته أصبحت استراتيجية في أسواق متحركة وجماعات مقفولة على "إختلافها" يحدد الوضع ما بعد الحداثى. كانت الحداثى تؤكد على أن تقدم العقلانية والتقنية لن يكون له آثار نقدية فقط بتصفية المعتقدات والعادات والامتيازات الموروثة من الماضى، ولكنه يخلق أيضاً مضامين ثقافية جديدة. كما أكدت لوقت طويل على تكاملية العقل واللذة، بصورة متحررة وأرستقراطية في القرن الثامن عشر، وبرجوازية في القرن التاسع عشر، وشعبية في القرن العشرين بفضل إرتفاع مستوى المعيشة. عندما تحرر الفرد الحديث من عقدة الذنب التي فرضها عليه الفكر الدينى، أمكن له أن يربط لذات الجسد بلذات العقل وحتى بإنفعالات النفس. كان عليه أن يكون ماهراً بقدر ما يكون حساساً ، وأن يكون حساساً بقدر ما يكون ذكياً . هذه الصورة المثلى، كما كان يقول اليونانيون ، ليست في حقيقة الأمر مقنعة بما فيه الكفاية، لأنها تدل على لا مبالاة مفرطة تجاه شروط الحياة الواقعية لمعظم الأفراد. ولكن فكرة الرباط المباشر بين العقلنة والفردية نادراً ما كانت تُنتقد، ولا حتى عبر الانتقادات

الموجهة إلى عدم المساواة الإجتماعية والاستغلال الاقتصادي. كانت هناك فقط مطالبة بحق الجميع فى الدخول فى العالم الحديث أى فى العالم المنتج والحر والسعيد. هذه الصورة الشاملة للحدثاى هى التى تحطمت، بعد أن تشققت بفعل هجمات من دفعوا فكرة الحدثاى إلى الأزمة إبتداء من النصف الثانى من القرن التاسع عشر.

لم تعد شروط النمو الإقتصادى والحرية الإقتصادية والحرية الفردية تبدو لنا متشابهة ومتكافئة. لقد تم سريعا فصل الاستراتيجيات الاقتصادية عن بناء نمط ما لمجتمع وثقافة ولشخصية. وهذا الانفصال هو ما يسمى ويعين فكرة ما بعد الحدثاى.

إذا كانت الحدثاى تربط التقدم بالثقافة وتعارض الثقافات أو المجتمعات التقليدية بالثقافات أو المجتمعات الحديثة وتفسر كل حدث إجتماعى أو ثقافى بمكانه على محور التراث - الحدثاى، فإن ما بعد الحدثاى تفصل ما ارتبط. إذا كان النجاح الاقتصادى لم يعد يرجع إلى عقلانية المهندس وإنما إلى واقعية الاستراتيجى، إذا لم يكن نتيجة للأخلاق البروتستانتية أو لخدمة الأمة بل نتيجة لموهبة ممول أو لجرأة لاعب - بالمفهوم الذى نقصده عندما نتحدث عن نظرية اللعب - ينبغى التخلّى إذن عن تراث فيبر وكوندورسييه ، وتبعا لذلك ينبغى تحديد الثقافة بون الرجوع من الآن فصاعداً إلى تقدم العقلنة أى بالخروج من مجال الفعل التاريخى. يعتبر جيانى فاتيمو أن هناك تحويلين اساسيين لتحديد ما بعد الحدثاى : نهاية السيطرة الأوروبية على مجمل العالم وتطور وسائل الاعلام التى سمحت بالكلام للثقافات المحلية والاقليات. هكذا إختفت الكونية التى كانت تعطى أهمية كبرى للحركات الإجتماعية، والتى كانت أوروبا فى القرن الثامن عشر والتاسع عشر تظن أنها تكافح من أجل أو ضد التقدم والعقل. لم يعد للمجتمع أى وحدة وبالتالي ليس هناك من شخصية أو لافطة إجتماعية أو خطاب يحتكر المعنى. وهو ما يؤدى إلى تعددية ثقافية تدافع عنها العديد من الكتابات. وعلى مستوى آخر إزاء انفصال سلوكيات الإنتاج والاستهلاك والحياة السياسية، وبالتالي إزاء زوال المجتمع كما عرفه الفكر الغربى، يعايش القلق، الذى أشرنا إليه، هذا الوعى بإختفاء الذات التاريخية. وبشكل

موازي تحقق الذات الفردية تفككها إلى درجة أن اريفنج جوفمان Erving Goffman يختزلها إلى تتابع للتمثيلات الذاتية التي يحددها سياقها وفاعلها ولا تتحدد باتجاهات عملها ومشروعاتها وهو ما يختزل النفس self إلى ضعف شديد.

في نهاية هذا القرن يبدو أن تدمير الأنا والمجتمع والدين، الذي بدأه نيتشه وفرويد، قد وصل إلى نهايته. ودعم ذلك الفكر المنهجي لنيكلاس لوهمان Niklas Luhman ، الذي يستبعد فكرة الفاعلين وفكرة الذات كما كانت ممثلة في وظيفية تاكلوت بارسونز، بتركيزه التحليل على النظام نفسه وعلى الاختلاف المتنامي للنظم الفرعية التي يكون الآخرون بالنسبة لها محيط مثل ما تكون الحياة الاجتماعية مجرد محيط للنظام السياسي.

من السهل إنتقاد المعانى المتعددة لما بعد الحداثة، ولكن هذه الإنتقادات لا تستهدف، ما هو جوهرى. ما بعد الحداثة كما حددته وكما أصف الآن إتجاهاته الرئيسية هو أكبر من كونه مجرد نمط ثقافى. انه يكمل مباشرة النقد المدمر للنموذج العقلانى الذى بدأه ماركس ونيتشه وفرويد. وهو حصيلة حركة ثقافية طويلة، تعارضت باستمرار مع تحديث تقنى واقتصادى لم يفسره أى عمل ثقافى هام خلال القرن الماضى. بإستثناء عمل ديوى Dewey المطعم بالدارونية. كيف لا نلمح أن ما بعد الحداثة فى كافه أشكاله لا يتوافق مع جوهر الفكر الاجتماعى الذى ورثناه من القرنين اللذين سبقا القرن العشرين. وخصوصاً مع أفكار مثل التاريخية والحركة الاجتماعية، والذات التى سادافع عنها ضد هذا الفكر ما بعد الحداثى فى الجزء الثالث من هذا الكتاب .

يجمع الفكر ما بعد الحداثى أربعة تيارات على الأقل يمثل كل منها شكلاً للقطيعة مع الايديولوجية الحداثية :

١- الأول يحدد ما بعد الحداثة كحداثة متضخمة بنفس الطريقة التي يصف بها دانييل بل المجتمع ما بعد الصناعي كمجتمع صناعي متضخم. حركة الحداثة لا تكف عن التسارع، والطلائع تصبح أكثر فاكثراً عابرة وكل الانتاج الثقافي يصبح، كما يقول بحق جان فرانسوا ليوتار Jean Francois Lyotard ، طليعة بواسطة الإستهلاك المتسارع للغات والعلامات. إن الحداثة تلغى نفسها، في حين أن بودلير يعرفها كحضور للخالد في اللحظة الحاضرة ، وهو ما يتعارض مع مثالية الثقافات المرتبطة باستخراج الأفكار الخالدة من تشوهات وشوائب الحياة العملية والاحاسيس. تبدو الحداثة بعد مضي القرن حبيسة اللحظة ومجرورة إلى الإستبعاد الكامل للمعنى. إنها ثقافة لا تتخلى عن الحداثة ولكنها تختزلها إلى بناء ترتيبات تقنية لا تجذب الإنتباه إلا بمبتكراتها ومآثرها التقنية التي سرعان ما يتم تجاوزها.

٢- وبصورة مختلفة وإن تكن مكملة للتيار السالف يأتي نقد الحداثة ، لا التقنية ولكن الاجتماعية والسياسية ، تلك الحداثة التي اخترعت نماذج مضادة لمجتمعات يستدعى تحقيقها تدخل سلطة مطلقة، وذلك كي تكون القطيعة المزمع انجازها كاملة. ولقد قلت من البداية أن فكرة الثورة مرتبطة ارتباطاً وثيقاً بفكرة الحداثة. لقد كان النجاح الثقافي لما بعد الحداثة، في نهاية السبعينيات، نتيجة مباشرة لأزمة اليسارية الثورية. الليبرالية الجديدة التي إنتصرت في الحياة الاقتصادية والسياسية في الثمانينات وكذلك ما بعد الحداثة الثقافية هما منتجان متوازيان لتفكك النزعة اليسارية التي تعتبر أعلى أشكال الحداثة. خصوصاً لدى التروتسكيين الذين دعموا، منذ بداية الثورة السوفيتية يوتوبيا الآلة المركزية التي صارت الخطة المركزية، وأخيراً تحولت إلى كومبيوتر مركزي، مفترض أنه يحول حكومة البشر إلى إدارة للأشياء، وبالتالي يحرر البشر من سلبيات النزعة الذاتية السياسية من النمط الستاليني أو الهتلري. وفي فرنسا كان جان بودريار هو الذي حقق بكل تصميم هذا الإنتقال من النقد اليساري إلى النقد ما بعد الحداثي لليسارية، وجتى إلى نفى ما هو إجتماعي.

هل دخلنا عصر انحلال ما هو إجتماعي؟ بالنسبة لكثيرين، من بويريار إلى ليويفتسكي، هذا هو المعنى العميق للتفكيك. ولا تدرك فكرة ما بعد الحداثة منه سوى جانب القطيعة مع تراث ثقافي. الوضع ما بعد الإجتماعي هو نتاج الانفصال الكامل بين الأدوات والمعنى : الأدوات تدار بواسطة مؤسسات انتاجية، إقتصادية وسياسية تنافس في الأسواق؛ والمعنى أصبح خاصاً تماماً وذاتياً. بحيث لم يعد هناك أى مبدأ لتنظيم الحياة الإجتماعية سوى التسامح. يقول ليويفتسكي في كتابه "عصر الفراغ" : "كل الأنواع وأنواع السلوك يمكن أن تتعايش دون أن يستبعد أى منها الآخر، كل شئ يجب إختياره حسب الرغبة، الحياة البسيطة - الايكولوجية - إلى جانب الحياة شديدة التعقيد في زمن بلا حياة وبلا نقاط ارتكاز ثابتة، وبلا توافقات كبرى" (P.46). يمكن ملاحظة هذا الانفصال بين الخاص والعام في كل مكان. لم تعد السياسة تزعم "تغيير الحياة"، وفقدت البرلمانات ودورها في تمثيل الطلبات الإجتماعية. لم يعودوا الا مكانين تتحد فيهما، بطريقة براجماتية، القاعدة التي تتركز عليها السلطة التنفيذية التي هي عبارة عن مدير، وأيضاً وبالاساس بنك. توقف الفاعلون عن أن يكونوا إجتماعيين، ووجهوا نظرهم نحو أنفسهم، نحو البحث النرجسي عن هويتهم، ولا سيما عندما لا يكونون مندمجين في الطبقة الوسطى التي تتحد بواسطة المهنة والاستهلاك بدلا من قواعد السلوك الإجتماعي. بينما البعض، مثلى أنا، يعتقدون أنهم قد وجدوا في مايو 68 وفي الحركات الإجتماعية الجديدة التي تشكلت حينذاك، الدعوة إلى عالم إجتماعي جديد من الفاعلين والأهداف والصراعات الأكثر اندماجاً ومركزية من نظائرها في المجتمع الصناعي. كان محلى الوضع ما بعد الاجتماعى لا يرون فى كل مكان إلا الغاء للإجتماعية desocialisation وهو ما يشكل حركة أكثر عمقا من مجرد عملية إلغاء الايديولوجية. فلنصف أخيراً أنه فى هذا الوضع ما بعد الاجتماعى حلت "المسألة الطبيعية" محل "المسألة الإجتماعية"، حسب تعبير سيرج موسكوفيتش، وهى مسألة حياة الكوكب المهدد بالآثار المدمرة للتلوث وتكاثر التقنيات المعزولة عن أى إندماج إجتماعى وثقافى.

وهكذا تشكل التيارات الثلاثة الكبرى لعصرنا : إنتصار أدواتية تحولت الى فعل استراتيجى، والانطواء على الحياة الخاصة، والعولمة البيئية للمشاكل التي تطرحها

التكنولوجيا ، مجمل الحقل ما بعد الإجتماعى الذى تتفصل فيه العلاقات الإجتماعية أصلاً، متجهة إلى فاعلين إجتماعيين آخرين فتقيم علاقات مع الذات ومع الطبيعة. حتى علماء الإجتماع أنفسهم يشعرون بالإرتباك أمام كلمة إجتماعى، وكأنها تعنى مجمل أشكال فرض السوية، والكفاح ضد المخدرات والجيتو، وضد الفقر أو العنصرية. إنها إعادة إمتلاك للمشاعر الطيبة والسلطات الصغيرة، والضمير الخير لطبقة وسطى تنتشر خارجها القوى غير الإجتماعية التى لها وحدها القدرة على تعديل السلوك والقيام بتعبئة جماعية. كم تبدو عبثية الدعوات إلى الإندماج وإلى التضامن، فى حين يفد، من جميع الإتجاهات ويخطى عملاقة، تفكك الحياة الإجتماعية الذى يؤدى إلى الفوضى وإلى العنف فى المناطق الفقيرة والهشة. ولكن هذا التفكك على العكس يعاش كجناات عدن وكإضعاف للقيود والقواعد فى المجتمعات الأكثر ثراء. وكأن الندرة فقط هى التى فرضت تركيز السلطة وصلابة القواعد، وهو ما يسمح لمجتمع ثرى أن يتطور بتنظيم نفسه تقريباً بون أى تدخل مركزى.

حتى لو تحكمت بصعوبة فى الغيظ الذى تسببه لى هذه الرؤية، البعيدة عن الملاحظة العينية، أعترف بأن هذا الفكر ما بعد الإجتماعى ، بتدميره الايديولوجيات الحداثية، قد حررنا من الإغواء، الذى تمارسه النظم "التقدمية" حتى أكثرها قمعية، على المثقفين المتمسكين رغم ذلك بحريتهم الخاصة.

٣- هاتان المسيرتان : الحداثة المتضخمة والعداء للحداثة يمكن أن يخرجنا تماماً من حقل الحداثة. ولكن ربما فى إتجاهين متعارضين. إن ما شدد عليه غالباً هو القطيعة مع النزعة التاريخية، أى استبدال محايثة الاشكال الثقافية بتعاقبها. إن العمل المعبأ بالدلالات الدينية والإجتماعية بواسطة مجتمع قليل التنوعات ، جنباً إلى جنب مع ترتيب محض للأشكال أو مع تعبير مباشر للشعور أو مع عمل مشحون بمعنى تجارى أو سياسى ينبغى لها أن توضع فى خيالنا وفى متاحفنا. وليس ذلك لأنها تحيلنا على أفكار خالدة ولكن لأنه لا شئ يسمح بالاختيار بين الخبرات التى ينبغى أن تقبل جميعاً إبتداءً

من اللحظة التي يكون لها فيها أصالة، كما يقول هابرماس. هذه التعددية الثقافية وهذا التعدد للآلهة المختلط بالإلحاد يدفع بالفكرة التي استعارها فيبر من كانط إلى أقصى مداها : إذا كانت الحداثة تقوم على الفصل بين الماهيات والظواهر وإذا كان الفعل التقني والعملى يختص فقط بالظواهر، كان مجالنا الثقافي والسياسي بالضرورة مجالاً لتعدد الآلهة، بما أن وحدة التفسير العقلاني للظواهر تكون منفصلة عن عالم الآلهة الذي لم يعد له من الآن فصاعداً أى وحدة. تعتبر ما بعد الحداثة هنا هي ما بعد التاريخية، وهو ما يعطى لها معناها الأصلي وما يكسبها أهمية. يتصل ما بعد الحداثة. بخبرة معاصرنا الذين يخترقون المكان والزمان بالسفر وزيارة المتاحف وقراءة الكتب وبالفن وسماع الاسطوانات والشرائط التي تجعلهم حساسين لأعمال فنية قريبة منهم أو بعيدة عنهم بقرون مديدة أو بمئات الكيلومترات. وقد ألح جان كازنوف Caseneuve Jean ، مستعيراً موضوع محايثة اللامحايث عند أرنست بلوخ Ernst Bloch ، على قدرة التليفزيون أن يجعل قريباً ومحايثاً ما هو بعيد في الزمان أو المكان. هكذا تتحطم فكرة وحدة الثقافة التي ظلت لوقت طويل بديهية وتدعمت فكرة التعددية الثقافية التي كان لكلود ليفي شتراوس Claude Levi - Strauss الشجاعة لأن يقول بأنها تتضمن عملية انغلاق دفاعي لكل ثقافة، وبدون ذلك ستتدمر كل الثقافات إن عاجلاً أو آجلاً بواسطة ثقافة سائدة أو بواسطة أجهزة تقنية وبيروقراطية أداتية محضة، أي أجهزة غريبة على عالم الثقافة. تغذى ما بعد الحداثة مباشرة نزعة بيئية ثقافية تتعارض مع كونية الإيديولوجيا الحداثية وخاصة في مرحلة الغزو والفتح، وفي البلاد التي تنماهى بشدة مع الحداثة ومع قيم كونية، مثل فرنسا الثورة والولايات المتحدة في الفترة المتأخرة التي تعتبر فترة هيمنتها.

٤- ولكن إذا كانت الأعمال الثقافية، منفصلة عن الاطار التاريخي الذي ظهرت فيه، لا يمكن إذن تحديد قيمتها إلا بواسطة السوق. من هنا تأتي الأهمية الجديدة لسوق الفن. في حين أن الأعمال الفنية ظلت لزمن طويل تنتخب من قبل الأمراء أو من قبل هواة يمثلون طلباً ثقافياً معيناً للارستقراطية أو البرجوازية. وهو ما يقودنا إلى تحليلنا

للمجتمع الليبرالي الذي تنتصر فيه شظيتين من الحداثة المنفرطة وهما المؤسسة الانتاجية والاستهلاك، وتطغيا فيه على الشظيتين الأخرتين إيروس والأمة، أى انتصار الحركة وتغيير الوجود.

هكذا تدفع حركة ما بعد الحداثة بتدمير التصور الحداثى للعالم إلى أقصى مداه. فهي تتخلى عن التفرقة الوظيفية بين مجالات الحياة الاجتماعية من فن، وإقتصاد، وسياسة، وما يكملها؛ أى إستخدام كل واحد من هذه المجالات للعقل الاداتى. وبذلك ترفض الفصل بين الثقافة العليا الاجتماعية والسياسية وأيضا الجمالية التى تستند إلى ضامين ما بعد إجتماعيين للنظام الإجتماعى - العقل أو التاريخ أو التحديث أو تحرير الطبقة العاملة - وإلى ثقافة الجماهير. من هنا جاء شعارها "المعادى للجمالية" الذى شدد عليه [فريدريك جيمسون Fredric Jameson وعلى الأخص فى الكتاب الذى أشرف عليه هال فوستر Hal Foster "ضد الجمالية"]. ثم لو تعمقنا الأمر لوجدنا أن ما هو مرفوض هو بناء صورة العالم Weltanshaung، حسب الكلمة التى يعتبرها هيدجر أكثر الكلمات دلالة على الحداثة ، ولا يقبل الفكر ما بعد الحداثى أن يضع الإنسان أمام العالم، يراه ويعيد انتاجه فى صور لأنه يضع الانسان فى العالم، بلا مسافة، أو بالأحرى يستبدل بهذه المسافة التى تقترض الوجود المسبق للموضوع، بناء شبكة من الاتصالات، أو لغة بين كل من الرسام والمعماري والكاتب من جانب والموضوعات من جانب آخر. يدعو الرسام جان دوبيوفيه Jean Dubuffet إلى واقع محتجب بواسطة البناءات الاصطناعية للثقافة. "إجمالاً، لا يمكن لعقلنا إدراك موضوعات مفردة، أى اشكال، وبناء على ذلك يلعب بأشكاله وكأنها أوراق لعب، يخلطها مشكلاً منها ألف تركيب وإقتران، كالموسيقين أمام آلة البيانو ونغماتهم الأثنى عشر. وبالتالي فمحتوى الأشياء وجوهرها، فى المطلق، هو بالطبع مختلف تماماً عن الأشكال (أشكالنا)؛ فليس هناك أشكال فى المطلق، الأشكال إختراع من عقولنا، إنها حيلة بأسة لعقولنا التى لا تستطيع أن تفكر إلا عبر اشكال، فهي ترى كل شئ من نافذة، تلك النافذة المزيفة والمزيفة فى آن" (Lettres - B.J.pp. 229-228). تجد ما بعد الحداثة فى فكره

هو وآخرين نزعة طبيعية معادية للإنسانية، هي الطرف المقابل تماما لفلسفة التنوير وفكر لوك بوجه خاص. وهو سلوك يرفض بعنف الخطب الأيديولوجية وضمير الحضارات المستريح. هذا هو معنى التصريح الشهير لجان فرانسوا ليوتار المتعلق بنهاية الحكايات الكبرى recit : إن ما تم رفضه فيما وراء محتوى الأيديولوجيات ، هو التصور الروائي للخبرة الإنسانية، وهو ما ينشط عملية تدمير فكرة الذات. لم يعد هناك ذات هيجيلية. مستقبل العالم ليس هو إنبثاق الذات العقلاني المتحرر من الاعتقادات اللاعقلية. ولا هو الحداثة. ليس هناك وحدة خاصة بالأنا ولا بالثقافة. ينبغي رفض زعم الثقافة الغربية في الوحدة والكونية كما ينبغي رفض فكرة الوعي أو الكوجيتو كخالق للأنا. ويذهب جيمسون بنقده بعيداً عندما يعرف ثقافة ما بعد الحداثة بالمعارضة الإصطناعية Pastiche وبالشيزوفرينيا. معارضة، لأن غياب وحدة ثقافة ما يؤدي إلى إعادة إنتاج الأساليب القديمة : ألا يمكن أن نقول على وجه الخصوص أن نهاية القرن العشرين قد قطعت ما بينها وبين القرنين التاسع عشر والعشرين بمعارضتها للقرن الثامن عشر ولاسيما في الخلاعة الأرستقراطية وإفتتانه باللغة، ومفهومه الليبرالي الإباحي لنقد السلطة؟ وشيزوفرينيا - وأسماءها آخرون نرجسية - لأن الإنغلاق في حاضر خالد يلغى المجال الذي يسمح ببناء وحدة الثقافة.

تحدد ما بعد الحداثة نهاية الحملة التي خاضها نيتشه، نهاية مملكة التكنيك والعقل الأدوات. الخبرة واللغة يحلان محل المشروعات والقيم. ولا يصبح للعمل الجماعي أي وجود، وكذلك إتجاه التاريخ. تلقى ما بعد الحداثة الضوء على أن التصنيع الضخم الحالي لأن يؤدي إلى تشكيل مجتمع صناعي ضخم، ولكنه يؤدي على العكس إلى انفصال المجال الثقافي عن المجال التقني. وهو ما يحطم الفكرة التي قامت عليها السوسيولوجيا حتى الآن : التداخل بين الاقتصاد والسياسة والثقافة (الحديثة).

لا يوجد ما يبدو أنه قادر على توحيد ما انفصل منذ قرن. ولهذا إختفت الأيديولوجيات السياسية والاجتماعية، ولم يشغل مكانها إلا تصريحات للنصح الأخلاقي

تثير الشعور لحظة ثم سرعان ما تبدو عبثية ومناققة بل وحتى متلاعبة. هذا التدمير للأيديولوجيا الحديثة قد وصل إلى منتهاه عندما تم تكليف مخرجى الإعلانات بإعداد الإحتفال بالمتوية الثانية للثورة الفرنسية، ففقد الإحتفال كل معنى وتحول إلى فن رخيص Kitsch . إن من كانوا يدعون إلى العودة للقضايا الكبرى والقيم الكبرى راغبين فى إعطاء معنى للتاريخ أو حتى راغبين فى أن يماهوا بين بلادهم سواء كانت فرنسا أو الولايات المتحدة أو غيرها وبين هذا المعنى أو هذه المبادئ الكونية، بدوا حينئذ كإيديولوجيين متخلفين أمام هذا الإختزال الرسمى لما كان حدثاً تأسيسياً هاماً إلى مجرد فرجة ومنتج لثقافة الجماهير، التى يتنوع مضمونها ويتجدد بسرعة كبرامج التلفزيون.

لا يعتبر تكاثر التعريفات وغموض معظم التحليلات حججاً كافية لرفض فكرة ما بعد الحداثة. إن التيارات التى اقر لها التاريخ بالأهمية، من الرومانتيكية إلى البنيوية لم تُحدد بصورة واضحة وثابتة. ولكن فيما يخص ما بعد الحداثة علينا أن نتخطى عقبة أكثر جدية، لأن أسمها يحمل تناقضاً فى ذاته بما انه يلجأ إلى تحديد تاريخى - ما بعد - لىسمى به حركة ثقافية فى طبيعة مع النزعة التاريخية. وهو ما يحرص على البحث فى حالة مجتمع عن تفسير لمجموع ثقافى يسعى هو إلى تحديد نفسه كنص. أليس الجوهري هو الانتقال من مجتمع الانتاج القائم على العقلانية والذهب والإيمان بالتقدم إلى مجتمع إستهلاكى يشارك فيه الفرد فى أداء النظام لا بعلمه وفكره فقط ولكن برغباته وحاجاته التى تحدد إستهلاكه ولم يعودوا فقط مجرد خصائص له يحددها موقعه فى نظام الإنتاج؟ وهو ما يقلب علاقة الانسان بالمجتمع : فقد كان فى موقع منتج، وخالق للتاريخية؛ وها هو الآن ليس واقفاً أمام الطبيعة التى يغيرها بالآلة، ولكن مندمج كلية فى عالم ثقافى وفى جملة من العلامات واللغة ليس لها أى مرجع تاريخى. وهو ما يبدو انه يقضى نهائياً على فكرة الذات المرتبطة دائماً بفكرة الخلق وكذلك بفكرة العمل والعقل . كل شئ يتفتت من الشخصية الفردية إلى الحياة الإجتماعية.

يدمر هذا المفهوم الفكر الإجتماعى التقليدى، الذى يسمح له إنتصار العقل وفرض عليه صلة بين قواعد النظام الإجتماعى وبواقع الفاعلين بحيث يبدو الكائن الإنسانى

عبارة عن مواطن وعامل قبل أى شئ. من الآن فصاعدا حدث طلاق بين النظام والفاعلين. هكذا تنتهى الحقبة الطويلة لانتصار الافكار الحداثية التى سادت الفكر الغربى من فلسفة التنوير إلى فلسفات التقدم والنزعة السوسيولوجية. ولكن النجاح الذى صادفه النقد ما بعد الحداثى لا يعفينا من البحث عن تعريف جديد للحدثة التى تقوم على استقلال نسبى للمجتمع والفاعلين. لأنه من المستحيل أن نقبل بسهولة أن يكون انفصالهما كاملاً، كما يوحى بذلك التواجد المشترك فى نهاية هذا القرن الليبرالية الجديدة وما بعد الحداثى حيث تقوم الأولى بإختزال المجتمع إلى مجرد سوق بلا فاعلين (أى انه يمكن توقع السلوكيات إنطلاقاً من قوانين الإختيار العقلانى) وتتخيل الثانية فاعلين بلا نظام، منغلقيين على خيالهم وذكرياتهم.

سوف يكون للقطيعة الكاملة نتائج أكثر مأساوية مما يمكن أن تفترضه التحديدات المستخدمة سالفاً. من هو الفاعل الذى يتحدد خارج أى إحالة للفعل العقلانى؟ إنه مهووس بهويته ولا يرى فى الآخرين إلا ما يميزهم عنه، وفى نفس الوقت، يسعى كل شخص، فى مجتمع هو سوق ليس إلا، لتحاشى الآخرين أو يكتفى بعقد صفقات تجارية معهم. يبدو الآخر إذن كتهديد مطلق. إما هو وإما أنا. أنه يغزو أرضى، يدمر ثقافتى، يفرض على مصالحه وعاداته الغربية عن مصالحى وعاداتى التى يهددها. هذه الاختلافية المطلقة والتعددية الثقافية، التى بلا حدود كما نراها فى مناطق شاسعة من العالم، والتى تتخذ أحيانا، فى أفضل الجامعات الامريكية، شكل الضغط الايديولوجى الذى يطالب بهذه التعددية الثقافية ويفرضها، تحمل فى داخلها العنصرية والحرب الدينية. لقد تحول المجتمع إلى ميدان معارك بين ثقافات غربية عن بعضها حيث يكون البيض والسود، الرجال والنساء، اتباع دين واتباع دين آخر أو حتى العلمانيون، ليسوا إلا اعداء لبعضهم. الصراعات الإجتماعية فى القرون الماضية والتى كانت دائماً محدودة لأن الطبقات الإجتماعية الموجودة كانت تقبل نفس القيم وتتقاتل من أجل تحقيقها اجتماعياً، قد حلت محلها الحروب الثقافية. حرب بالغة العنف لدرجة أن ما يواجه لعبة المرايا

الثقافية هي القوة الباردة غير الشخصية لأجهزة السيطرة، المشابهة لسفن الفضاء في الأفلام وألعاب الفيديو عند المراهقين، والتي يحركها نظم صارمة للحساب وإرادة شرسة للقوة. الفاعلون منغلزون في ثقافتهم في مواجهة قوى إنتاج مدنى وعسكرى مدرعة فائقة القوة ؛ وبينهما الحرب على وشك الوقوع.

البين بين

ولدت أزمة فكرة الحداثة من الرفض، الذى بدأه أولاً نيتشه وفرويد ثم بعد ذلك الفاعلون الجمعيون؛ رفض اختزال الحياة الإجتماعية وتاريخ المجتمعات الحديثة إلى مجرد إنتصار العقل، حتى عندما يريد هذا العقل أن يرتبط بالفردية. هذا الرفض دعمه الخوف من السلطة سواء كانت سلطة مستبد أو سلطة مجتمع الجماهير ذاته. سلطة تنماهى مع العقلانية وتقمع أو تستغل أو تستبعد كل الفاعلين الإجتماعيين اللذين تعتبرهم غير عقلانيين. وتطرد من الحياة الفردية والحياة الجمعية كل ما يبدو لها غير نافع، ولا وظيفة له فى تدعيم السلطة. هذا الرفض قد تدعم من جهة أخرى بنقد أكثر عدوانية قام به فاعلو التحديث انفسهم سواء دعوا إلى الحياة أو إلى الحاجات أو إلى المؤسسة الانتاجية أو إلى الأمة، والتي لا يمكن ان يختزل أى منها إلى مجرد وجه للعقلنة. بقدر ما يتسارع وتتعدد مسارات التحديث بقدر ما يبدو مستحيلا تعريفها كعناصر مندمجة أى إعتبارها إنجازا للحداثة نفسها. فى كل مكان تكون الدولة والحركات القومية والدينية وإرادة ربح المؤسسات الانتاجية وسلطة المتنافسين هي التي تقود تحديثاً لا يكون أبداً من عمل التقنيين وحدهم.

والعالم المعاصر، الذى يقدم نفسه كإنتصار للعقلانية، يبدو على العكس مكان إنهارها. إنتصرت فكرة العقل الموضوعى فى الاصول، فى الفكر الاغريقى والفكر المسيحى المطعم بأرسطو. العالم، على حسب ما تراه، خلقه إله عاقل وهو الذى سمح للعقل العلمى بفتوحاته. وينبنى المجتمع نفسه إنطلاقاً من قرارات عقلانية وحررة، كما يرى هوبز وروسو. وإبتداء من هنا، ويقدر ما ينبنى مجتمع حديث، فيما وراء فكرة

الحدثة، يخلى انتصار العقل مكانه للانتقال من عقلانية الغايات إلى عقلانية الوسائل. والتي تتراجع بدورها إلى التقنيات، وهو ما يترك فراغاً في القيم يرى فيه البعض تحريراً للحياة اليومية: ولكن يرى الجميع أن هذا الفراغ يُملأ إما بسلطة إجتماعية أو بدعوات زعامية، أو بعودة الأمم وبالدين، أو أخيراً بالعنف واختفاء النظام.

كيف يمكن للمرء أن لا يقتنع بكل نقاط الالتقاء هذه بين إنتقادات الحدثة؟ وكما يبدو لنا اليوم تهافت الكلام الذي يدافع بعناد وبلا فاعلية عن الصورة الغازية للعقلانية التحديثية. لأن المجتمعات الواقعية هي فعلاً بعيدة عن أن تكون مؤسسات انتاجية أو خدمات عامة مدارة بصورة عقلانية لقد إنكفأت العقلانية على المدرسة : ولكن بلا جدوى لأن الضغوط تتراكم بسرعة على التعليم الذي يأخذ في إعتباره كل شخصية الطفل مع علاقاته الاسرية وأصله الثقافي وخصائصه وتاريخ حياته الشخصية. يدافع بعض ممثلي المعلمين، ربما لأن مهنتهم تتراجع في مجتمع يرتفع فيه مستوى التعليم، عن أنفسهم ضد حركة المطالبة بالتعليم وبحقوق الأطفال وضد ضغوط تلاميذهم أنفسهم ويريدون يظلوا أو يصيروا كرجال الدين، وسطاء بين الأطفال والعقل، مكلفين بإنتزاع هؤلاء الأطفال من تأثير عائلاتهم ووسطهم الإجتماعي وثقافتهم المحلية ليدخلوا بهم إلى العالم المفتوح للأفكار الرياضية وللأعمال الثقافية الكبرى. ولا تستطيع التعبيرات الجميلة أن تستر ضعف هذا المسار لأنه يفرض على المدرسة وظيفة تزداد قمعية مع الوقت، وبور يدعم عدم المساواة بما أن الأمر يتعلق بفصل ما هو عام عن ما هو خاص كما يفصل الصالح عن الطالح. ويؤدي هذا القصور إلى الفصل المتنامي للأداتية – وهي هنا الدروس والإمتحانات – عن شخصية الطفل أو الصبي التي هي رغبة في الحياة واعداد للعمل وهوية ثقافية أو قومية أو دينية، وثقافة للشباب في آن. هل يمكن الحديث عن نجاح المدرسة وهي هكذا منقسمة شطرين : من جانب، المعلمين المتقلصين إلى مجرد نقل المعارف المقبولة نظراً لمربوديتها الإجتماعية: ومن جانب آخر أطفال أو صبية يعيشون في مجال ثقافي منفصل تماماً عن مجال التعليم؟ لحسن الحظ يتخلى العديد من المعلمين أثناء نشاطهم الشخصي عن هذا المفهوم الذين يدافعون عنه جماعياً. ولكن

فشل هذا الخطاب الدراسى يثبت سقوط عقلانية تستحق الرفض لأنها تستخدم كقناع يخفى سلطة نخبة دعاة العقلنة، ولأنها محاصرة بكل ما رفضته واحتقرته ويملاً الآن تماماً مسرح التاريخ الجمعى والفردى أكثر من الإسهام التحريرى للعقل نفسه. ومن لا ينصت لهذه الملاحظة يخاطر بأن لا يستمع إليه أحد. إن المفهوم التقليدى للحادثة الذى يطابق بين الحادثة وانتصار العقل ورفض الخصوصية والذاكرة والانفعالات قد نضب لدرجة أنه لا يحمل أى مبدا لوحدة العالم الذى يتصادم فيه التصوف الدينى والتكنولوجيا الحديثة، العلوم الأصلية والإعلانات، السلطة الشخصية وسياسة التصنيع المتسارع

إن القرن العشرين هو قرن سقوط الحادثة وحتى إن كان هو قرن غزو التكنيك. ويسود الحياة الثقافية اليوم الرفض العنيف والمتأخر، للنموذج الشيوعى الذى كان، ومازلنا نتذكر، الأمل الكبير لهذا القرن، ليس فقط للمناضلين العماليين أو للحركات المعادية للإستعمار، ولكن لعدد كبير من المثقفين. ويسودها أيضاً رفض كل فكر التاريخ، وكل تحليل للفاعلين التاريخيين ولمشروعاتهم، ولصراعاتهم والشروط والديمقراطية للمواجهة بينهم. يميل العالم الغربى فى غمرة نشوته بإنتصاره السياسى والايديولوجى، إلى الليبرالية، أى إلى إستبعاد الفاعلين وإلى اللجوء إلى مبادئ كونية للتنظيم، التى يطلق عليها، حسب مستوى التعليم والنشاط المهنى للأشخاص المعنية، المصلحة أو السوق أو العقل. والحياة الثقافية وحتى السياسية منقسمة بين من يسعون لتحديد الفاعلين الجدد والأهداف الجديدة وكذلك لتحديد المجتمعات التى يمكن أن نسميها ما بعد الصناعية وايضا البلاد النامية من جانب، ومن جانب آخر بين من يدعونا فقط لحرية سلبية، أى إلى قواعد مؤسساتية وأساليب إقتصادية تسمح بالحماية من طغيان السلطة. وبالنسبة للبعض يرتدى هذا الرفض لسوسيولوجيا العمل الجماعى مسوح العودة للفردية الإقتصادية ويجهدون أنفسهم لإثبات أن الافراد يبحثون قبل كل شئ عن مصالحهم الشخصية وأن العمل الجماعى الذى يبدو غالباً كوسيلة فردية للدفاع عن هذه المصالح، قد يخاطر بإستمرار بأن يتحول إلى غاية فى ذاته وهو ما كان قد صرح به روبرتو ميشيل Roberto Michels منذ ما يقرب من قرن. وبالنسبة

للآخرين شكل الدعوة إلى إلزامات العقل وادلتها، كمبدأ وحيد وصلب لوحدة الحياة الاجتماعية والضوء الفعال ضد ضغوط الكنيسة الدينية والأقليات واللاعقلانية.

هذا المسلك الدفاعي يزداد قوة، رغم الانتصار على النظام الشيوعي، كلما شعر الغرب بأنه مهدد بالضغوط الديموجرافية والسياسية للعالم الثالث. طالمت ظلت الصورة السائدة هي المجاعة والعنف الحضري في بوجوتا أو كالكوتا، لن ينفعل الغرب إلا في إطار الحملات الانسانية المطمأنه. ولكن عندما يكون العالم الثالث حاضراً في الحي المجاور أو في مجموعة المساكن التي يعيش فيها من يشعر انه ينتمي إلى المجتمع الغربي، فإنه سرعان ما يتم الشعور بالرفض. ولدى من يعتقدون أنهم مهددون بصورة مباشرة، البيض الصغار كما كان يقال في جنوب الولايات المتحدة بعد حرب الانفصال، يكون هذا الرفض مباشراً ويعبر عن نفسه سياسياً واجتماعياً. ولدى من يضمن لهم مستواهم التعليمي ودخلهم الوقاية من هذا التهديد، يتسامى هذا الرفض ويتخذ شكل التأكيد على ان المجتمع الغربي يمتلك الكونية ومن واجبه، اكثر من كونه من مصلحته أن يدافع عن نفسه عند كل الخصوصيات. بينما تتابع الحملات عبر قرن من الزمان، من أجل الدفاع عن حقوق هذه الفئة الاجتماعية أو تلك، مثل هذه الدعوة تثير المخاوف والشبهات اكثر من المساندة. ولا يشعر المجتمع الغربي اليوم بان له القدرة الكافية على الاستيعاب كي يحافظ على الانفتاح الذي سمح فيما سبق لإنجلترا وفرنسا في القرن التاسع عشر أن يصبحا مجتمعات عالمية، وأراضى للجوء والنفى ، إذ يربكها الآن العدد، والفقر، والفارق الثقافي المتنامي بين من يأتون ومن يستقبلونهم، وهم الذين يشعرون بصورة متزايدة بالإنزعاج والقلق من القادمين.

على المستوى الأكثر تجريداً نجد رفض السوسيولوجيا التي كانت يوماً تحليلاً قلقاً ونقدياً للحدثة ، ولكن كان في نفس الوقت إيجابياً ليس لدى نوركهايم وفيير فقط ولكن قبل ذلك لدى توكفيل ولدى ماركس وايضا لدى بارسونز ومدرسة شيكاغو. لقد تحدثت السوسيولوجيا عن التصنيع والطبقات الاجتماعية والمؤسسات السياسية

والصراعات الاجتماعية؛ أنها تتساعل عن الطريقة التي يتوافق بها التجديد الاقتصادي مع اشتراك أكبر عدد في نتائج وأدوات التنمية. اما اليوم يبدو على العكس ان السؤال الأكثر إلحاحاً ليس هو السؤال الخاص بإدارة التنمية ولكن السؤال ضد الاستبداد والعنف والإبقاء على التسامح والإعتراف بالآخر . ولأننى أعتبر نفسى ممن يؤمنون بالإجابات المصاغة فى إطار الأهداف الثقافية والفاعلين الاجتماعيين أعترف قبل الشروع فى تأملات شخصية بأن إجابة الليبراليين على الخراب التى جاءت به الشمولية مقنعه أكثر من إجابتي، المهددة، بصورة مختلفة، بقوة الحركات الطائفية ولا سيما عندما تستند هذه الحركات على الإيمان الدينى أو الوعى القومى.

ينبغى تحمل هذا الليل الطويل للفكر الإجتماعى. كما وجب الإنتظار طويلاً، بعد إنتصار البرجوازية المالية والتجارية حتى تتشكل الحركة العمالية وحتى يتم الإعتراف بالأهمية المركزية "للمسألة الإجتماعية" وحتى تظهر بعد قرن من التنمية والبؤس العلامات النذيرة للديمقراطية الصناعية. منذ حوالى ربع قرن، عندما ظهرت الكتابات الأولى ومن بينها كتاباتى عن المجتمع ما بعد الصناعى كان من الصعب أن ينأى الفرد بنفسه بشكل كاف عن صورة الإنتقال التدريجى من مجتمع إلى آخر وكأن المجتمع الثانى كان يكمل الأول ويتجاوزه فى نفس الوقت . اليوم نعرف على العكس أننا لا نمر مباشرة من سلسلة جبلية إلى أخرى وانه يجب النزول إلى الوادى وعبر الركام وعدم القدرة على رؤية القمة التالية. والخطر الذى يهددنا ليس هو فقدان الايمان بإستمرارية وهمية ولكن على العكس هو فقدان الإيمان بوجود الجبال التى لم تعد ترى، وتصور أنه علينا حينئذ أن نتوقف عن السير . اننى أقبل بلا تحفظ رفض التاريخ وأزمة سوسيولوجيات التقدم، ولكن أعتقد من الخطير أيضاً الرضوخ لهوس الهوية الفردية أو الجماعية وكذلك الميل إلى الأصولية العقلانية.

نعترف مرة أخرى بأن المفهوم المادى للحدثة يحتفظ بميزته التحررية وخصوصاً فى وقت صعود "الأصوليات" ، ولكن لم يعد لهذا المفهوم القدرة على تنظيم ثقافة

ومجتمع. ويؤدي تفكك فكرة الحداثة - الذى كان الموضوع الرئيسى لهذا الجزء الثانى - إلى تناقضات تتزايد خطورتها تدريجياً. تنفصل الحياة العامة عن الحياة الخاصة، يتفكك حقل العلاقات الاجتماعية تاركاً وجهاً لوجه الهويات الخاصة، والمجارى العالمية للتبادل ، فمن جانب، ينغلق كل فرد فى ذاتيته وهو ما يؤدي فى أفضل الأحوال إلى نسيان الآخر، وفى أغلبها إلى رفض الأجنبى. ومن جانب آخر، تؤدي مجارى التبادلات إلى التقوية المستمرة للبلاد والمجموعات الاجتماعية المركزية وتعمق الإزواجية على المستوى القومى والعالمى. إنها تناقضات أعمق من الصراعات الاجتماعية والتي مزقت المجتمع الصناعى. يشكل الجنس والإستهلاك والمؤسسة الإنتاجية والأمة عوامل منفصلة تتصادم ويجهل بعضها البعض بدلاً من ان تترايط ، وبينها تصبح الساحة العمومية فارغة أو لا تعد إلا أرض مجهولة تتصارع فيها عصب متنافسة وينطلق فيها العنف بلا كايح.

كيف يمكن التوفيق بين تفكك للرؤية والعقلانية التقليدية والتي نعرف أنها لا مفر منها بل وأنها محررة ، وبين مبادئ تنظيم الحياة الاجتماعية والتي بدونها تصبح العدالة والحرية نفسها مستحيلة؟ هل توجد طريقة للإفلات من كل من الكونية المسيطرة والتعددية الثقافية المشحونة بالعزم والعنصرية؟ كيف يمكن الإفلات من تدمير الذات الذى يؤدي إلى سيطرة المصلحة والقوة، كما يؤدي إلى ديكتاتورية الذاتية التي أفرزت الكثير من صور الشمولية؟

عالم اليوم الذى تراه بعض العقول موجوداً حول قيم "غربية" إنتصرت على الفاشية والشيوعية وقومية العالم الثالث، إنه هو فى الواقع ممزق بين العالم الموضوعى والعالم الذاتى، بين النظام والفاعليين. نرى منطق السوق العالمى ينتصب مواجهاً منطق السلطات التى تتحدث عن الهوية الثقافية. فمن جانب يبدو العالم كلياً، ومن جانب آخر تبدو التعددية الثقافية بلا حدود . كيف لا نرى فى هذه التمزقات الشاملة تهديداً مزدوجاً لكوكبنا ؟ بينما يسحق قانون السوق مجتمعات وثقافات وحركات إجتماعية، ينغلق هوس

الهوية فى تعسف سياسى شامل لدرجة انه لا يستطيع البقاء والإستمرار إلا بالقهر والتعصب. وليس التأمل فى تاريخ الافكار فقط هو الذى يدعونا إلى إعادة تحديد الحداثة؛ إن المواجهة المكشوفة بين ثقافتين ونمطين من السلطة هى التى تجبرنا على أن نجمع ما انفصل بون الرضوخ للحنين للوحدة المفقودة للكون. إذا لم نستطع التوصل إلى تحديد مفهوم آخر للحداثة، أقل صلفاً من مفهوم التنوير لها، ولكن يكون قادراً على مقاومة التنوع المطلق للثقافات والأفراد، سندخل فى عواصف أكثر عنفاً من تلك التى صاحبت سقوط النظام الملكى القديم والتصنيع.

الجزء الثالث

ميلاد الذات

الفصل الأول الذات

عودة الى الحداثة

كل شئ يجبرنا على أن نعود لهذا التساؤل : هل يمكن للحداثة أن تتطابق مع العقلنة أم! بصيغة أكثر شاعرية ، هل تتطابق مع إزالة سحر العالم؟ ينبغي أيضا أن نستوعب دروس الانتقادات المعادية للحداثة ، فى نهاية قرن كانت تسوده أشكال من "التقدمية" القمعية أو حتى الشمولية، وأيضا يسوده مجتمع استهلاك يستنفذ ذاته فى حاضر قصير الأجل، غير عابئ بخسائر التقدم فى المجتمع وفى الطبيعة. لكن للقيام بذلك ألا ينبغي لنا ان نعود الى الوراء وأن نتساءل عن طبيعة الحداثة وعن مولدها؟

إن انتصار الحداثة العقلانية قد رفض أو نسي، أو حبس فى مؤسسات قهرية ، كل ما بدا أنه يقاوم انتصار العقل. وماذا لو كان صلف رجل الدولة والرأسمالى، بدلا من أن يخدم الحداثة يكون قد بتر منها جزءا ربما هو الجوهرى فيها، بالضبط كما تدمر الطلائع الثورية الحركات الشعبية لتحرر بصورة انجع واوثق من اعدائها الاجتماعيين والقوميين؟

علينا أن لانتأخر فى إغلاق بعض الطرق التى تؤدى الى اجابات زائفة. وأولها طريق العداء للحداثة. يقبل العالم الحالى فكرة الحداثة ويدعو اليها. يوجد فقط بعض الايديولوجيين وبعض المستبدين يدعون الى الجماعة المنغلقة على تراثها وأشكال تنظيمها الاجتماعى ومعتقداتها الدينية. لقد صارت كل المجتمعات تقريباً مخترقة. بالأشكال الحديثة للانتاج والاستهلاك والاتصال. وقد صار مديح الأصالة والنقاء مع مرور الوقت أمراً اصطناعياً، وحتى عندما يلقي القادة لعنات التكفير ضد تغلغل اقتصاد السوق، نجد السكان ينجذبون اليه كما ينجذب العمال الفقراء فى البلاد الاسلامية الى

حقول بترول الخليج، او صغار المستخدمين فى امريكا الوسطى الى كاليفورنيا او تكساس، او عمال المغرب العربى الى أوروبا الغربية. الزعم بأن أمة أو فئة اجتماعية لها ان تختار بين حداثة كونية ومدمرة او حفظ الاختلاف الثقافى المطلق هو كذب بين يتسترعلى مصالح وعلى استراتيجة فى السيطرة. قارب الحداثة يحملنا جميعا، يبقى اذن أن نعرف هل نحن ملاحون أم مسافرون يحملون امتعة ، يحدوهم فى الوقت نفسه أمل كبير ووعى بالقطيعة التى لامفرمنها . جعل زيمل Simmel من الاجنبى الصورة التى ترمز للحداثة، ولكن يجب اليوم ان نختار بدلا منها صورة المهاجر : كمسافر معبأ بالذكريات وبالمشاريع، يكتشف نفسه ويبينها من خلال هذا الجهد اليومى لربط الماضى بالمستقبل، ولربط التراث الثقافى بالاندماج المهنى والاجتماعى.

الطريق الثانى الذى يجب علينا تجنبه هو ذلك الطريق الذى تشير اليه صورة "الاقلاع". وكأن الدخول فى الحداثة يفترض جهداً، وانتزاعاً من أرض التراث، ثم بعد مرحلة من الاعاصير والأخطار، يصل الى سرعة رتيبة واستقراراً يسمح بالاسترخاء وينسيان حتى نقطة الرحيل ونقطة الوصول وبلااستمتاع بالتخلص من الأعباء العادية. تنتشر اليوم هذه الفكرة بشكل كبير وكأن على كل بلد أن تفرض على نفسها قرناً من الجهود الصعبة والصراعات الاجتماعية قبل ان تدخل فى راحة الوفرة وفى الديمقراطية والسعادة. وقد خرجت أول البلاد الصناعية الجديدة، كاليابان وغيرها فى آسيا، من مرحلة الجهد الشاق، فى حين أن كثيرين ينتظرون بفارغ الصبر لحظة الدخول الى مطهر الحداثة هذا. مثل هذه الرؤية المتفائلة لمراحل النمو الاقتصادى لاتستطيع الصمود أمام حكم أكثر واقعية عن العالم الحالى، المهدم والممزق منذ قرن من الزمان حيث لايلبث ان يتزايد فيه عدد من يموتون جوعاً.

هناك طريق ثالث مسدود، وهو الذى يطابق بين الحداثة والفردية، بين الحداثة والقطيعة مع النظم التى يسميها لويس دومون كلية. ان التفرقة الوظيفية بين النظم الفرعية وخصوصاً الفصل بين السياسة والدين أو بين الاقتصاد والسياسة، بين مجالات

العلم والفن والحياة الخاصة هي كلها شروط للتحديث، لأنها تؤدي الى انفراط انواع السيطرة الاجتماعية والثقافية التي تضمن دوام النظام وتقف في وجه التغيير. الحداثة تنماهى مع روح البحث الحر وتتصادم دائما مع العقل العقائدى ومع الدفاع عن أجهزة السلطة القائمة. كما عبر عن ذلك فى قوة برتولد بريشت فى حياة جاليليو جاليلي. ولكن ينبغي أن نكرر انه لا يوجد مايسمح بان نماهى بين الحداثة ونمط معين من التحديث، أى مع النمط الرأسمالى الذى يعرف نفسه بهذا الاستقلال المفرط للعمل الاقتصادى. فمن فرنسا الى المانيا ومن اليابان او ايطاليا الى تركيا والبرازيل او الهند، أثبتت التجربة التاريخية، على العكس، الدور العام للدولة فى عملية التحديث. انفصال بين النظم الفرعية نعم، ولكن بالقدر نفسه تعبئة شاملة. اذا كانت الفردية قد لعبت دوراً كبيراً فى التصنيع، فقد لعبت ادارة الوحدة والاستقلال القومى دوراً مماثلاً. هل يمكن حتى الان أن نعتبر الفكرة البروتستانتية عن الجبر arbitre serf وسبق التقدير نموذجاً للفردية؟ فى الولايات المتحدة والبلاد الجديدة ذات الحدود المفتوحة تسود صورة المستثمر الفرد، انسان المجازفة والابتكار والربح. وقد تم التحديث فى هذه البلاد خارج بعض مراكز النظام الرأسمالى، بطريقة أكثر تنظيماً بل وأكثر قهراً وتسليطاً..

يدور السجال فقط حول تاريخ تجارب التصنيع الناجحة بل يتعلق ايضا بالبلاد التى تسعى للخروج من اطلال ارادية الدولة التى تحولت منذ زمن الى سلطة مستبدة، تقوم على المحسوبية او البيروقراطية. وسواء تعلق الامر ببلاد مابعد شيوعية او بلاد امريكا اللاتينية والجزائر وغيرها فانه يمكن عن طريق اقتصاد السوق التخلص من الاقتصاد الموجه وامتيازات النخب الحاكمة. ولكن اذا كانت اقامة السوق تسمح بكل شئ فانها لاتحل اى شئ.. هي شرط ضرورى ولكن ليست شرطا كافياً للتحديث. هي مسيرة سلبية لتدمير الماضى ولكنها ليست مسيرة ايجابية لبناء اقتصاد منافس. يمكن لإقامة السوق هذه ان تؤدي الى المضاربات المالية ، إلى تنظيم الندرة، وإلى السوق السوداء ، او ربما لا تؤدي إلا الى تشكيل جيوب غريبة حديثة فى قلب اقتصاد قومى غير منظم. ان الانتقال من اقتصاد السوق الى أداء لبرجوازية حديثة لا يكون آلياً ولا

بسيطاً، والدولة فى كل حال نور هام جوهري تقوم به. المحصلة : لحدائث بلا ترشيد؛ بلا تشكل للذات فى العالم؛ ذاتاً تشعر انها مسئلة امام نفسها وامام المجتمع. علينا ان لانخط بين الحدائث وبين النمط الرأسمالى الخالص للتحديث.

ينبغى اذن العودة الى فكرة الحدائث نفسها، وهى فكرة صعبة الفهم فى حد ذاتها لانها اختفت خلف خطاب وضعى، وكأنها لم تكن فكرة ولكن مجرد ملاحظة للوقائع. أليس الفكر الحديث هو الفكر الذى يكف عن ان يحصر نفسه فيما هو معاش او عن المشاركة الصوفية او الشعرية فى عالم المقدس لى يصير علمياً وتكنولوجياً، أى فكر الآن يطرح سؤال كيف ولم يعد يطرح سؤال لماذا؟ لقد تحددت فكرة الحدائث كالنقيض لبناء ثقافى، وككشف لواقع موضوعى . ولذا فهى تُعرض دائماً بطريقة اشكالية اكثر منها جوهريه. فالحدائث هى معاداة التراث ، وسقوط الاعراف والعادات والعقائد، هى الخروج من الخصوصيات والدخول الى الكونية ، بل هى ايضا الخروج من حالة الطبيعة والدخول الى سن الرشد. وقد اشترك الليبراليون والماركسيون فى الثقة فى ممارسة العقل، وكثفوا بنفس الطريقة هجماتهم على ما اطلقوا عليه معاً عقبات التحديث، التى يراها البعض ممثلة فى الربح الخاص ويراها الآخرون ممثلة فى تعسف السلطة واططار الحماية التجارية.

الصورة المنظورة للحدائث اليوم هى صورة الفراغ، صورة السيولة الاقتصادية، وسلطة بلا مركز، وصورة مجتمع للتبادل أكثر منه مجتمع للانتاج. باختصار صورة المجتمع الحديث هى صورة مجتمع بلا فاعلين. هل يمكن لنا أن نطلق كلمة فاعل على من يسلك طبقاً للعقل أو لاتجاه التاريخ ذى البراكسيس غير الشخصى؟ ألم يسقط لوكاتش فى المفارقة عندما رفض أن يعتبر البرجوازية فاعلاً تاريخياً لأنها تنتظر إلى نفسها وتهتم بمصالحها لا بعقلانية اتطور التاريخى كما هو الحال مع البروليتاريا؟ وفى المقابل هل يمكن أن نعتبر العميل المالى أو الرأسمالى الذى يستطيع أن يتعامل مع الظروف ويقرأ مؤشرات السوق فاعلاً؟ بالنسبة للفكر الحديث يعتبر الوعي دائماً وعياً

زائفاً ، وقد جذبت المدرسة العامة فى فرنسا والتي تمثل تعبيراً متأخراً ومتطرفاً للايديولوجيا الحداثية المعرفة العلمية على تشكيل الشخصية. وفى المرحلة النضالية حلمت باستئصال العقائد والتأثيرات العائلية من عقل الطفل ولكن، عندما أدركت عدم تمكنها من تحقيق أهدافها، سرعان ما اكتفت بسلام مسلح مع العالم الخاص، عالم الاديان والعائلات معتقدة ان العقائد ستتحو الى التلاشى تحت تأثير العلم والحراك الجغرافى والاجتماعى .

هكذا لاتشير لنا فكرة الحداثة ذاتها، عبر ماتستبعده وعبر الطريقة التى ترفض بها ان تحدد ذاتها، الى المكان الذى علينا ان نفتش فيه : الحداثة لا تحدد ذاتها الا سلباً؟ ليست هى الا عبارة عن تحرير؟ هذا المفهوم الذى تقدمه عن نفسها قد اظهر قوته ولكن ايضا اظهر نضوبه السريع عندما انتصر عالم الانتاج على عالم اعادة الانتاج. بناء على ذلك الا ينبغى السعى لتحديدها اليوم بصورة ايجابية اكثر منها سلبية، بما تؤكد اكثر من بما ترفضه؟ ألا يوجد فكر للحداثة لا يكون سوى نقد ونقد ذاتي؟

تحقيق الذات

هل يمكن ان نكتفى بصورة العقل مزيحاً غمامات اللاعقلانية، والعلم يحل محل الاعتقاد، ومجتمع الانتاج يحل محل مجتمع اعادة الانتاج - وهى رؤية قادت الى استبدال الانظمة والمسارات غير الشخصية بصورة إله خالق وقادر؟ نعم الأمر يتعلق بتمثيلنا للعالم، وينمط معرفتنا، لانه لا شئ منذ قرون يسمح لنا بنبذ المعرفة العلمية. ولكن هذا لا يمثل الا نصف مانسميه الحداثة، وبصورة اكثر دقة، ازالة سحر العالم. لو وجهنا نظرنا فى اتجاه العقل الانسانى وليس فى اتجاه الطبيعة لتغيرت الصورة تماما. ففي المجتمع التقليدى يخضع الانسان لقوى غير شخصية او لقدر لا يستطيع رده ؛ خصوصاً وأن فعله لا يمكنه فى هذا الحال الا ان يمثل لنظام ينظر اليه - على الأقل فى الفكر الغربى - كعالم عقلانى عليه أن يفهمه. عالم المقدس هو عالم خلقه وحركه إله او عدد كبير من الآلهة وهو فى نفس الوقت عالم معقول. ان ماتحطم حديثاً - ليس هو العالم الذى يقع تحت رحمة النوايا الموائمة او غير الموائمة للقوى الخفية ؛ انه عالم قد خلق

بواسطة ذات الهية وهو ايضا عالم منظم طبقاً لقوانين عقلانية بحيث ان مهمة الانسان السامية فيه هي التأمل في الخلق واكتشاف قوانينه، وايضا هي الكشف عن افكار خلف الظواهر. الحداثة تزيل السحر عن العالم، كما كان يقول فيبر، ولكن كان يعرف ان ازالة السحر هذه لايمكن اختزالها في انتصار العقل ، انها بالاحرى انفراط الصلة بين الذات الالهية ونظام طبيعي، وبالتالي بين مستوى المعرفة الموضوعية ومستوى الذات. أليس الكشف عن هذه الازبواجية هو ما جعل من ريكاردو رمزاً للحداثة وفي نفس الوقت وريث الفكر المسيحي. بقدر ما ندخل الى الحداثة بقدر ما ينفصل الذات عن الموضوعات في حين انهما كانا يختطان في الرؤى ما قبل الحداثية.

ظلت الحداثة لوقت طويل لا تتحدد الا بفاعلية العقلانية الادائية، اى بالتحكم في العالم والذي صار ممكناً بواسطة العلم والتكنولوجيا. لا ينبغي رفض هذه النزعة العقلانية في اى حال لأنها السلاح النظري ضد كل النزعات الكلية، وكل الشموليات وكل الأصوليات. لكنها لاتعطى فكرة كاملة عن الحداثة بل هي تخفى نصفها وهو انبثاق الذات الانسانية كحرية وكابداع.

ليس هناك وجه واحد للحداثة ولكنهما وجهان ينظر كلاهما الى الآخر، ومن الحوار بينهما تتشكل الحداثة : العقلانية وتحقيق الذات. يستشهد جيانى فايتمو (P.A28) بهذين البيتين لهولدرلين : "رغم كونه محملاً بالمكاسب، لايسكن الانسان هذه الارض الا بشاعرية". ان نجاح الفعل التقنى لاينبغى له ان ينسينا ابداعية الانسان.

تظهر العقلنة وتحقيق الذات في وقت واحد مثلها مثل النهضة والاصلاح، اللذان يتعارضان ولكنهما يتكاملان اكثر فاكثراً. وقد حاول الهيومانيستيون humanistes(*)

(*) مصطلح يطلق من حيث المبدأ على مثققي عصر النهضة المتخصصين في الآداب اليونانية القديمة وكلمة "انسانى humanistes هنا تعنى الآداب غير الدينية النابعة من الوحي. وقد تطور المصطلح في الفلسفة ليدل على الفكر الذى يجعل من الانسان معيار المعرفة والحقيقة ومركز الفكر وغاية الفعل.

وانصار إراسم Erasme مقاومة هذا التمزق واراوا الدفاع عن المعرفة والايمان معاً، لكن عصفت بهم الطبيعة التي ميزت الحداثة. من الآن فصاعداً لم يعد للعالم وحدة رغم المحاولات المتكررة للنزعة العلمية، ينتمى الانسان بالتأكيد الى الطبيعة ويكون بالتالى موضوعاً للمعرفة الموضوعية، ولكنه فى نفس الوقت ذاتاً وذاتية. لقد أُحيل اللوغوس الالهى الذى كان يخترق الرؤية ماقبل الحداثة وحلت محله لاشخصية القانون العلمى. وحل محله ايضا وفى نفس الوقت أنا المتكلم التى تعبر عن الذات. وتتفصل المعرفة بالانسان عن المعرفة بالطبيعة. كما يتميز الفعل عن البنية. لم يحتفظ المفهوم التقليدى (الثورى) للحداثة الا بتحرير الفكر العقلانى، ويموت الالهة ونهاية الغائية.

ماذا نعنى بالذات؟ هى قبل كل شىء، خلق عالم منظم بواسطة قوانين عقلية ومعقولة بالنسبة للفكر الانسانى. بحيث يتماهى تشكل الانسان كذات، كما نرى فى برامج التعليم، مع تعلم الفكر العقلانى القدرة على مقاومة ضغوط العادة والرغبة وعدم الخضوع الا لحكم العقل. والأمر كذلك ايضا بالنسبة للفكر التاريخى الذى يعتبر تطور التاريخ مسيرة تجاه الفكر الوضعى، او تجاه الروح المطلق، او تجاه التطور الحر للقوى المنتجة. هذا هو العالم الذى يسميه هوركهايمر بعالم العقل الموضوعى والذى يحن اليه. كيف كان يمكن له ولكثيرين غيره ان لا يحكموا على العالم الحديث حكماً متشائماً، بما أن الحداثة تتماهى تحديداً مع انهيار هذا العقل الموضوعى ومع الفصل بين العقلانية وتحقيق الذات؟ ان مأساة حداثتنا هى أنها قد تطورت وهى تناضل ضد نصفها الآخر، بمطاردتها للذات باسم العلم، وبرفضها كل اسهام المسيحية الذى كان مازال يعيش مع ديكارت والقرن الذى تلاه. وبتدميرها باسم العقل والامة لتراث الثنائية، المسيحية ونظريات الحق الطبيعى التى انجبت الاعلان العالمى لحقوق الانسان والمواطن على شاطئى المحيط الاطلنطى. بحيث مازلنا نطلق كلمة حداثة على عملية تدمير جزء جوهرى من الحداثة، بالرغم من انه لاتوجد حداثة بدون التفاعل المتنامى بين الذات والعقل، بين الضمير والعلم، فقد أريد أن يفرض علينا فكرة انه ينبغى التخلّى عن مفهوم الذات من اجل تحرير العقل، وانه كان ضرورياً سحق الفئات الاجتماعية التى تتماهى مع العواطف : النساء والاطفال والعمال والمستثمرين تحت نير نخبة رأسمالية تتطابق مع العقلانية.

ليست الحادثة هي الانتقال من عالم متعدد من تنوع فى الالهة الى وحدة عالم اكتشافه العلم. على العكس، تمثل الانتقال من الصلة بين المتناهي فى الصغر والمتناهي فى الكبر، بين الكون والانسان، الى القطيعة، التى جاء بها الكوجيتو الديكارتي بعد مقالات مونتاني، والذى توسع بعد غزو الاحاسيس والفردية البرجوازية فى القرن الثامن عشر. تنتصر الحادثة مع العلم، وايضا حينما يخضع السلوك الانسانى للوعى - سواء سمي هذا الوعى نفسا او لا - وليس للسعى للامتثال لنظام العالم. ان الدعوة لخدمة التقدم والعقل، او الدولة التى هى ذراعه المسلح، هى أقل حادثة من الدعوة الى الحرية وادارة المرء المسئولة لحياته الخاصة. ان الحادثة ترفض المثل الاعلى للامتثال، الا عندما يكون النموذج الذى تدعو للامتثال له هو نموذج الفعل الحر، كما هو الحال تحديداً مع نموذج المسيح الذى خضع لارادة ابيه ولكنه بذلك خرج من اطار الكينونة ليدخل فى اطار الوجود، وعاش حياة تاريخية وأوصى بأن يحب كل شخص الاخر كنفسه وليس كقانون او كنظام العالم.

ان من يريدون ان يطابقوا بين الحادثة والعقلية وحدها لايتطرقون الى الذات الا لاختزالها الى العقل نفسه، ولكى يفرضوا نزع الجانب الشخصى، والتضحية بالذات والتماهى مع النظام غير الشخصى للطبيعة او للتاريخ. العالم الحديث على العكس عامر اكثر فأكثر بالاحالة الى ذات محرة ؛ أى يقدم لنا كمبدأ للخير، السيطرة التى يمارسها الفرد على افعاله وعلى وضعه والتى تسمح له بادراك سلوكياته والاحساس بها كمكونات لتاريخه الشخصى، وان يدرك نفسه كفاعل. الذات هى ارادة فرد فى التصرف وفى الاعتراف به كفاعل.

الفرد، الذات، الفاعل

المصطلحات الثلاث : الفرد، الذات، الفاعل، ينبغى أن تُعرّف فى علاقتها ببعضها. وهو ماكان فرويد سابقاً الى فعله، ولاسيما فى مرحلته الثانية، محللاً تكونّ الانا كمنتج نهائى للفعل الذى مارسه الانا الاعلى على الهووالذى ينتمى اليه الانا فى نفس الوقت. كان الانسان ما قبل الحديث يبحث عن الحكمة وكان يتصور ان هناك قوى غير شخصية

تسكنه كالدور والمقدس وايضا الحب. ارادت الحداثة المنتصرة ان تستبدل بهذا الخضوع للعالم الاندماج الاجتماعي. كان ينبغي للمرء ان يؤدي دوره كعامل او كمتناسل او كجندى او كمواطن وأن يشارك في العمل الجماعي، وبدلاً من ان يكون فاعلاً لحياة شخصية، يصير ممثلاً لعمل جماعي. انها شبه حداثه، في واقع الامر، تحاول ان تعطى عقلانية مراقبي السماء القديمة الشكل الجديد لبناء عالم تقني يقهر اكثر من ذي قبل كل ما يساهم في بناء الذات الفردية. ولكي تظهر هذه الذات الفردية ينبغي ان لا ينتصر العقل على الحواس، كي نتكلم بلغة العصر الكلاسيكي، ولكن على العكس، ينبغي ان يتعرف الفرد في نفسه على حضور ماهيته SOI وعلى ارادته في ان يصبح ذاتاً. تنتصر الحداثة عندما يتعرف الانسان على الطبيعة في نفسه بدلاً من أن يكون هو في الطبيعة. ليس هناك انتاج للذات الا بقدر ما تصمد الحياة في الفرد، وبدلاً من ان تظهر كشيطان ينبغي طرده، يتم قبولها كليبيدو او جنس ، وتتحول الى جهد لبناء وحدة الشخص فيما وراء تعدد الازمنة والأمكنة المعاشة. الفرد هو الوحدة الخاصة التي تختلط فيها الحياة بالفكر، والخبرة بالوعي. والوعي هو الانتقال من الهو الى أنا المتكلم Je، والسيطرة الممارسة على المعاش لكي يكون له معنى شخصي، كي يتحول الفرد الى فاعل ينخرط في العلاقات الاجتماعية مغيراً اياها بون ان يتماهى كلية مع اي من المجموعات او التجمعات. وذلك لان الفاعل ليس هو الشخص الذي يتصرف طبقاً للموقع الذي يشغله في النظام الاجتماعي ولكنه الشخص الذي يغير المحيط المادي، وبالأساس المحيط الاجتماعي، الذي يوجد فيه عن طريق تغيير تقسيم العمل او انماط القرار او علاقات السيطرة او التوجيهات الثقافية. ولا تتحدث وظيفة اليمين او اليسار الا عن منطق وضع واعادة انتاج المجتمع. في حين ان المجتمع يتغير باستمرار وبطريقة متسارعة لدرجة أن مانسميه وضعاً هو في الغالب اليوم ابتكار سياسي وليس تعبيراً عن منطق غير شخصي، اقتصادي او تقني. أن فكرة بناء تحتى مادي يتطلب ابنية فوقية، سياسية وايدولوجية، تلك الفكرة المتفق عليها بما يشبه الاجماع في العلوم الاجتماعية عندما نتناول انتصار الرأسمالية الليبرالية من كارل ماركس الى فرد نان برودل؛ لم تعد تناسب قرناً سادته الثورات السياسية والانظمة الشمولية والدول الراعية Etat providence

وامتداد شاسع للساحة العمومية. من الطبيعي إذن ان تهمل العلوم الاجتماعية شيئاً فشيئاً اللغة القديمة الحتمية كي تتحدث أكثر فأكثر عن الفاعلين الاجتماعيين. ولا اعتقد اننى سلمت من هذا التحول. فأنا اتحدث باستمرار عن الفاعلين الاجتماعيين وتخلت فى مسيرتى عن فكرة الطبقة الاجتماعية ووضعت بدلا منها فكرة الحركة الاجتماعية. فكرة الفاعل الاجتماعى لا تتفصل عن فكرة الذات، لانه اذا كان الفاعل لم يعد يتحدد بمنفعته للجسد الاجتماعى او باحترامه للوصايا الالهية، فما هى إذن المبادئ التى تقوده، ان لم يكن تكوين نفسه كذات، وان يوسع حريته ويحميها؟ الذات والفاعل فكرتان لا تتفصلان ويصمدان معاً امام الفردية التى تعطى الافضلية لمنطق النظام على منطق الفاعل مختزلة هذا الاخير الى البحث العقلى - اى المحسوب والمتوقع - عن الريح. فى المجتمع الحديث، يمكن ان يفشل هذا الانتاج للفاعل بواسطة الذات. ويمكن أن يبتعد الفرد والذات والفاعل كل عن الآخر. ونحن فى الغالب مصابون بمرض الحضارة هذا. فمن جانب، نعيش فردية نرجسية، ومن جانب آخر يسكننا الحنين إلى الوجود أو إلى الذات، بالمعنى القديم لهذا المصطلح، ونعطى له تعبيرات جمالية او ادبية، ومن جانب آخر ايضا "نؤدى اعمالنا" ونقوم بأثوارنا ونستهلك او ننتخب او نساقر وكأن هناك من ينتظر ان نقوم بذلك. نحن نعيش أكثر من حياة ونعانى بشدة من الشعور بان هذه الماهية Soi هي النقيض لهويتنا التى نهرب منها بواسطة المخدر او ببساطة بتحمل ضغوط الحياة اليومية.

ليست الذات فينا هي حضور الكونى، سواء اطلقنا عليه قانون الطبيعة أو اتجاه التاريخ أو الخلق الالهى. انها الدعوة الى تحويل الماهية الى فاعل. انها أنا المتكلم Je ، جهد لقول أنا نون نسيان ان الحياة الشخصية عامرة فى احد جوانبها بالهو، والليبيو ومن الجانب الآخر عامرة بأثوار اجتماعية. الذات لا تنتصر ابداً. اذا كان لديها مثل هذا الوهم فذلك لانها ألغت الفرد وايضا الجنس والاثوار الاجتماعية، وانها قد صارت هى الانا الأعلى أى الذات مسقطة خارج الفرد. انها تلغى نفسها عندما تصير قانوناً، وعندما تتماهى مع أكثر الأمور خارجية وأكثرها لاشخصية.

تحقيق الذات هو ولوج الذات الى الفرد وبالتالي هو التحول - الجزئى - للفرد الى ذات. إن ماكان نظاماً للعالم صار مبدأ لتوجهات السلوك. وتحقيق الذات هو نقيض خضوع الفرد لقيم تتجاوزه. الانسان كان يسقط نفسه على الله، ولكن من الآن فصاعداً، فى العالم الحديث، ان مايصبح بالنسبة له اساس القيم، باعتبار أن المبدأ المركزى للأخلاق صار هو الحرية، هو الابداع الذى اصبح غاية له، ويتعارض مع كل الاشكال التبعية.

تحقيق الذات يدمر الأنا الذى يتحدد بالصلة بين السلوكيات الشخصية والأنوار الاجتماعية والذى يُبنى بواسطة التفاعلات الاجتماعية وعمل هيئات اضاء الصبغة الاجتماعية. الانا يتحطم : من جانب بالذات ومن جانب اخر بالماهية (Self). تجمع النفس بين الطبيعة والمجتمع كما تجمع الذات بين الفرد والحرية. وكما يرى فرويد، أن الذات - التى يدركها بوضوح خارج الانا الاعلى - مرتبطة بالماهية Soi فى حين انها فى قطيعة مع الأنا الذى عند تحليله يتحطم الحطم. إن الذات ليست هى النفس فى مواجهة البدن، ولكن هى المعنى الذى تعطيه النفس للبدن فى تعارضه مع التمثيلات والقواعد التى يفرضها النظام الاجتماعى والثقافى. الذات ابولونية وديونيسية فى آن.

ليس هناك مايتعارض مع الذات اكثر من وعى الانا والاستبطان او الشكل الاكثر تطرفاً لهوس الهوية والنرجسية. الذات تدمر الوعى الصالح والطالح معاً. وهى لاتدعو الى عقدة الذنب ولا الى الاستمتاع بالذات، إنها تدفع الفرد او الجماعة الى البحث عن حريتهم عبر كفاحهم الدائم ضد الوضع القائم وضد الالزامات الاجتماعية. ذلك لان الفرد ليس ذاتا الا بالسيطرة على أفعاله التى تقاومه. وهذه المقاومة ايجابية باعتبارها عقلية، لان العقل هو ايضا اداة للحرية، وهى سلبية فى حالة ماتكون العقلية محكومة ومستخدمة بواسطة سادة وتحديثين وتكنوقراطيين وبيروقراطيين الذين يستخدمون العقلنة لفرض سلطتهم على من يحولونهم الى أدوات للانتاج والاستهلاك.

تمت مواجهة هذا الفصل بين الأنا والهوى بشكل مستمر، ليس فقط من قبل قواعد وتحديدات الانوار الاجتماعية ولكن ايضا من قبل الوعى بالذات، الذى يسعى لربط الأنا

بالهو بتجنب عودة الأنا الى عالم الالهة وسقوط النفس فى الهو. منذ بداية القرن السادس عشر، تحدت النزعة الانسانية بالبحث عن هذا الحل الوسط بين الالهة والطبيعة، بين الايمان والكنيسة، وبين الذات والعلم، وكان مونتاني هو أبرز تعبيراتها. ولكن درس الحكمة والحذر هذا لا يستطيع ان يتغلب على اشكال القطيعة الضرورية ولا أن يتغلب على البحث عن الهوية كذات هذا البحث الذى هو دأب الفرد الحديث ودافعه الى قلب الوضع القائم باستمرار. وعندما تنحدر الذات الى استبطان ذاتها وينحدر الهو الى أنوار اجتماعية مفروضة، تفقد حياتنا الاجتماعية والشخصية كل قدرة على الابداع ولا تكون الا متحف مابعد حدائى نقوم فيه باحلال ذكريات متنوعة محل عجزنا عن انتاج اى عمل.

كنت قد ذكرت ان ميشيل فوكو قد رأى فى تحقيق الذات خضوعاً. كان يجب بناء الانسان الداخلى "السيكولوجى"، كما يقولون، كى يتغلغل التحكم الاجتماعى فيه وكى يستحوذ على القلب والعقل والجنس وليس فقط على العضلات. ولكن هذا الانحراف فى تحقيق الذات لا يمكن له ان يحل محل ميلاد الذات او أن يشكل مغزاها الاساسى. أولاً، هناك حيث استقرت الشمولية ، كانت الدعوة للذات هى قوة المقاومة الرئيسية التى تحركت ضد هذه الشمولية ؛ كما تحركت ضدها أيضاً اخلاق الاعتقاد سواء ارتدت ثوبا دينيا أم لا، وسواء أكان اسمها سولجنستين أو زخاروف. منذ قرن دعا فيبر الى انتصار اخلاق المسؤولية ضد اخلاق الاعتقاد.. لكن اعجابنا اليوم يشمل من رفضوا ان يكونوا عمالاً طيبين ومواطنين صالحين، او عبيداً نشطين، ويشمل أيضاً من تمرنوا باسم اعتقاد دينى او باسم حقوق الانسان. هذه المقاومة للتحديث القهرى لا يمكن ان تكون حدثية فقط. فلايكفى القول، كما فعل اشتراكيو التصنيع فى بدايته، بأن الحركة العمالية سوف تعمل على انتصار الحداثة ضد لاعقلانية الربح الرأسمالى. لمقاومة القهر الشامل ينبغى التعبئة الشاملة للذات والميراث الدينى وذكريات الطفولة والافكار والشجاعة. لقد صاغ ماكس هوركهايمر احد أكثر افكار القرن قوة عندما قال "لايكفى العقل للدفاع عن العقل" مشيراً الى عجز المثقفين والمناضلين السياسيين الالمان ضد "صعود أرتورو اى

الذى لايقاوم". هذه العبارة التى تبناها الكاردينال لوستيجى فى مذكراته تحدث قطيعة مع العقلانية المفرطة فى ثقتها بنفسها، عقلانية ايديولوجية التنوير. ان رفض اعطاء اهمية كبرى للتعارض بين ما هو تقليدى وما هو حديث هو تذكير بالذات. وهو ما كان نيتشه وفرويد هما اول من اكتشفاه عندما وجدا فى الانسان الاساطير والاعتقادات القديمة وعندما لم يفصلوا عملهم العقلى عن الهجوم ضد المفاهيم شبه الحداثية - او على الاقل ما قبل الحداثية - للانسان والمجتمع لكائنات واعية ومنظمة. ولاننا لم نلبث ان عاهدنا الكوارث التى انتجها التحديث التسلطى الذى فرضته الدول الشمولية، نعرف ان انتاج الذات، كوجه مركزى للحداثة، ليس ممكناً الا اذا كان الوعى لايفصل الجسد الفردى عن الادوار الاجتماعية ولايفصل الوجوه القديمة للذات، التى تتخذ فى الكون شكل الاله، عن الارادة الحاضرة لبناء النفس كشخص.

فكرة الذات كمبدأ اخلاقى تتعارض مع فكرة سيطرة المجتمع على العواطف، الموجودة منذ افلاطون وحتى ايديولوجى الاختيار العقلى، ما تتعارض مع مفهوم الخير كأداء للواجبات الاجتماعية .

يمكننا حتى تحديد هذه المفاهيم الثلاث المتعارضة كمراحل متعاقبة لتاريخ الافكار الاخلاقية - تأتى اولاً فكرة ان هناك نظام للعالم وما يترتب عليها من كون هذا النظام عقلانياً. السلوك الارقى حينئذ هو الذى يضع الفرد فى اتفاق مع نظام العالم. وقد اضعفت العلمنة هذا المفهوم، بما انها تختزل العقل الموضوعى الى حدود العقل الذاتى. حينئذ تكون المنفعة الاجتماعية للسلوك هى مقياس قيمته، اى اسهام كل شخص فى الخير العام. وفقط عندما هوجمت هذه الاخلاقية الاجتماعية بواسطة المفكرين النقيدين، وخصوصاً ابتداء من ماركس ونيتشه، استطاع تأكيد الفرد كذات ان يحتل مكاناً مركزياً، ولكن لهذا المكان فرصته الكبرى فى ان يتفق مع الفردية التى بمقتضاها لا يكون هناك مبدأ للاخلاق خارج حق كل شخص فى ان يحيا بحرية رغباته الفردية. وهذا موقف طبيعى يودى الى الغاء كل قاعدة وبالتالي كل جزاء والذى لو طبق

- لو كان التنزل والاغتصاب لا يحاكمان - لأدى لربود فعل عنيفة تظهر الى اى حد تكون الدعوة الى الطبيعة هنا أمراً اصطناعياً .

ولكن هذه النظرة التطورية غير كافية بل خطيرة. ان ما تسقطه من حسابها هو ان الدعوة الحديثة للذات تستبعد، وان كان فى شكل علمانى، الفكرة القديمة، الموجودة كمصدر للحق الطبيعى، والتي ترى ان البشر متساوون ولهم نفس الحقوق لانهم عباد الله. والعكس بالعكس، ففكرة الاتفاق مع نظام العالم تتخذ ايضا اشكالاً حديثة مع بقائها باستمرار كمبدأ للمراتبية الاجتماعية، ويتغير محتواها فقط طبقاً لمن يحتل أعلى مرتبة سواء رجال الدين أم المحاربين أم العلماء أم رجال الاعمال. من الأفضل إذن معارضة أخلاق النظام المرتبطة بالرؤية المراتبية للمجتمع وللكون، بإخلاق حقوق الانسان التى يمكن ان تدعو الى فكرة الفضل الالهى وكذلك الى فكرة الذات الانسانية.

إن الجوهرى هو معارضة هذه المفاهيم الأخلاقية بعضها ببعض. وهو ما يبدو لى ان شارل تايلور لم يقم به، وهو الذى يحدد الأخلاق الحديثة باحترام حقوق الانسان ، وفى نفس الوقت بفكرة الحياة الكاملة والمستقلة وبمعنى كرامة كل شخص فى الحياة العامة.

هذه المبادئ الثلاثة اجدها مختلفة أكثر منها متفقة. لانه اذا كان المبدأ الاول يقود الى فكرة الذات فان الاخير يقود الى الأخلاق الاجتماعية التى تتعارض مع فكرة الذات باستمرار، اما الثانى فانه يقود اما الى فردية متطرفة، واما الى فكرة حياة عاقلة والى سيطرة ضرورية على الانفعالات. يبرز هذا الاختلاف بسبب التغير الهام، الذى يشير اليه شارل تايلور عن حق : الاخلاق لم تعد تحدد، بالنسبة للحديثين، حياة فئة أرقى ولكن الحياة العادية للمجتمع. وهى فكرة تستعيد الموضوع المسيحى عن الآخر، وتجعلنا نعجب بالافراد العاديين الذين احترموا وفهموا وأحبوا الآخرين أكثر من اعجابنا بالابطال او الحكماء ؛ أولئك الافراد الذين ضحوا بالنجاح الاجتماعى وكفاءات العقل من اجل هذه الاقتضاعات. فكرة الذات تؤكد تفوق الفضائل الخاصة على الادوار الاجتماعية وتفوق الضمير الاخلاقى على الحكم العام.

لا يمكن لفكرة الذات ان تشكل " قيمة " مركزية تلهم المؤسسات. هذا اللجوء للقيم التي كانت مكرسة في المجتمع ذي الأسس الدينية، سواء تعلق الامر بالولايات المتحدة او المجتمعات الاسلامية، هو في تناقض مفتوح مع فكرة الذات. تلك الفكرة المنشقة التي أوجبت باستمرار الحق في التمرد ضد السلطة الظالمة. وهذا اقتضاء اخلاقي لا يمكن له ان يتحول إلى مبدأ للأخلاق العامة وذلك لان الذات الشخصية والتنظيم الاجتماعي لا يمكن لهما أبداً أن يلتقيا .

الأصل الديني للذات

حددت الروح الحديثة نفسها بقتالها ضد الدين. وكان هذا حقيقيا لاسيما في البلاد التي تأثرت بمعاداة الاصلاح. لا يكفي ان نترك هذا الخطاب الذي فقد كل قدرة على التعبئة يموت في سلام، ولا يكفي التذكير بأن " رجال الدين " في شيلي وفي كوريا على سبيل المثال قد حاربوا الديكتاتورية عن عقيدة وعن شجاعة تفوق الكثير من المفكرين الاحرار. ينبغي ان نرفض بوضوح فكرة القطيعة بين ظلمات الدين وانوار الحداثة، لان الذات في الحداثة ليست شيئا آخر سوى الابنة العلمانية للذات في الدين .

يؤدي تمزق المقدس الى تحطيم النظام الديني وكذلك كل اشكال النظام الاجتماعي ويحرر الذات المتجسدة في الدين كما يحرر المعرفة العلمية التي كانت حبيسة .

ليس هناك ما هو اكثر عبثية ودمار من رفض العلمانية : ولكن ليس هناك ما يسمح برفض الذات والدين دفعة واحدة. وفي مواجهة السيطرة المتنامية للاجهزة التقنية والأسواق والدول وغيرها من مبتكرات الروح الحديثة، نحتاج بشكل ملح ان نبحث في الأديان ذات الاصول القديمة وكذلك في المناظرات الاخلاقية الجديدة عن ما لا يُختزل الى الوعي الجمعي للجماعة ولا الى الرباط بين العالم الانساني والكون، ولكن على العكس، نحتاج الى ان نبحث عن دعوة الى مبدأ غير اجتماعي لتنظيم السلوك الانساني. هذا هو السبب الذي دفعني الى أن أتبني بمثل هذه الحرارة فكرة الحق الطبيعي التي ألهمت إعلان حقوق الانسان في عام ١٧٨٩ : الامر هنا يتعلق بفرض حدود على السلطة

الاجتماعية والسياسية وبالإعتراف بالحق في ان يكون المرء ذاتا اسمى من القانون. وبأن الرأي ليس عقلنة للمسئولية، وبأن تنظيم الحياة الاجتماعية ينبغي أن يجمع بين مبدئين لا يمكن أبداً اختزال احدهما الى الآخر : التنظيم العقلي للانتاج وتحرر الذات. هذه الذات ليست فقط وعياً واردة ولكنها جهد للجمع بين الجنس والبرمجة، بين الحياة الفردية والاشترك في تقسيم العمل، وهو مايفترض ان يكون لكل فرد مجال كبير بقدر الامكان للاستقلال والتراجع، وان توضع حدود على سطوة القانون والدولة على الاجساد والارواح. عودة الاديان ليست فقط تعبئة دفاعية للجماعات التي اضررت من جراء سلطة مستوردة، انها تحمل ايضا في ثناياها، وخصوصاً في المجتمعات الصناعية، رفضاً للمفهوم الذي يختزل الحداثة الى العقلنة والترشيد ويحرم بذلك الفرد من أى دفاع في مواجهة سلطة مركزية لاتعرف وسائل ممارسة سيطرتها حدوداً. هذه العودة الى ما هو ديني لاتؤدى الى زيادة في تأثير الكنائس، فهي مستمرة في الأقول بنفس سرعة الاحزاب الايديولوجية التي ترفع علم العقلانية التحديثية والمعادية للدين. انها لاتعلن بالضرورة العودة الى المقدس والى الاعتقادات الدينية المحضة، بل على العكس لان العلمنة قد استقرت بصلاية، واصبح ممكناً الاعتراف في التراث الديني بمرجع الى الذات يمكن استخدامه ضد سلطة الاجهزة الاقتصادية والسياسية والاعلامية. لقد انتقل الاقتضاء الاخلاقي من الدين الى الأخلاق Ethique ، ولكن هذه الاخلاق عليها أن تبحث في التراث الديني عن اصول للذات لاتتعارض مع ثقافتنا العلمانية. وتتبع الاهمية المركزية المعطاه اليوم لحقوق الانسان وللأختيارات الاخلاقية من انهيار الفلسفات السياسية للتاريخ من النوع الاشتراكي او العناصر للعالم الثالث كما تعتبر ايضا في جزء منها إرثاً للكنائس والاديان القائمة.. وهو تعبير يمكن ان يطبق على المجال المسيحي والمجال الاسلامي واليهودية، رغم وجود تيارات في الاديان الثلاث اما سلفية جديدة واما صوفية.

ينبغي ان نخشى انتشار السلطات والحركات الدينية التي ترفض العلمنة وتريد ان تفرض قانوناً دينياً على المجتمع المدني، ولكن الحركة الكبرى للعودة الى الذات، والتي

تعتمد على رفض هذه الاصوليات ، تعتمد ايضا بنفس القدر على الفشل المأساوى للسياسات التحديثية الموروثة من الاستبداد المستنير، الذى ادخل باسم العقل السلطة الايديولوجية والبوليسية الى كل مكان حتى فى أعماق العقول. لا تتحدد الحداثة بمبدأ وحيد : ولا يمكن اختزالها فى مبدأ تحقيق الذات أو فى مبدأ العقلانية فحسب ولكنها يمكن تحديدها من خلال الانفصال المتصاعد بين المبدئين . ولهذا السبب، وبعد عدة قرون سادتها النماذج السياسية من نفسها كعوامل تقدم، وبعد حقبة طويلة فى إطار حضارات كبيرة ذات أسس دينية نعيش اليوم فى عالم هش، ذلك أنه لا توجد أية قوى عليا ولا حتى هيئة للتحكيم قادرة على حماية فعالة للتداخل الضرورى بين وجهى الحداثة، ألا وهما تحقيق الذات والعقلانية.

إن فكرة الذات كما هى مذكورة ومعرفة فى هذا الكتاب تبدو وكأنها فكرة تسير فى تيار مضاد للفكر الحديث. بل أن الكثيرين يعتقدون أنها فكرة خطيرة. وذلك لأنهم سادة السلطة الذين يروجون لفكرة الانسان ليسيظروا سلطانهم على النفوس. كل ما كتب فى الجزء الثانى من هذا الكتاب هو رد على هذه الانتقادات، التى هى راسخة إلى الحد الذى لا يمكن معه ردها بشكل مباشر.

وسوف تكون الحداثة علامة على المرور من الذاتية إلى الموضوعية. ألم يتطور العلم باعتباره مادياً وباكتشافه لتفسيرات فيزيائية وكيميائية للاحساسات والآراء والعقائد. حتى فى النظام الاخلاقى . الا تحل أخلاق المسؤولية محل أخلاق الاعتقاد الشخصى وأخلاق الواجب محل أخلاق النوايا، وهذه هى سمة الأديان البعيدة عن فكرة الحداثة؟ هذا التمثيل العام للحداثة يتفق مع الفكرة عن العلمنة وعن إزالة السحر عن العالم. ان وقائع الطبيعة لا تحيل الى نية الخالق وانما الى قوانين تحدد العلاقات بين الظواهر مستبعدة كل فرضية عن الوجود. لأحد يستطيع أن يعارض فى افول المقدس حتى وإن ظهر قلق بخصوص بقاء او انبعاث المعتقدات اللاعقلانية او السلوكيات السحرية. ولكن ليس هناك مايسمح باختزال الحداثة فى انتصار المعرفة والفعل

الوضعيين. القول بان المقدس يتحطم وان مجال القوانين ينفصل عن مجال القيم هو شئ مختلف عن تأكيد انتصار العصر الوضعي. ان فكرة الذات، بانفصالها عن فكرة الطبيعة لها مصيران ممكنان ، اما ان تتماهى مع المجتمع او مع السلطة مباشرة واما أن تتحول الى مبدأ للحرية والمسئولية الشخصية. الاختيار بين رؤية دينية ورؤية وضعية للعالم هو امر مصطنع، فكل واحد منا يجد نفسه مضطرا بالعكس للاختيار بين ان يكون رعية للمجتمع بعد ان كان رعية للملك او ان يكون رعية نفسه اى ذاتا شخصية؛ مدافعا عن حقوقه الفردية والجماعية فى آن. يكون فاعلاً لحياته الخاصة وافكاره وسلوكه. إن من يطلقون على انفسهم الوضعيين، مثل اوجست كونت، يتفانون غالبا فى عبادة المجتمع، وعديدة هى الاشكال العلمانية للاخويات التى أدت إلى عبادة الأمة او البروليتاريا او الاخلاق .

الانسان الحديث مهدد باستمرار بالسلطة المطلقة للمجتمع. ولان قرننا وقد سوت الشمولية صفحاته يميل اكثر من القرن السابق إلى الاعتراف بفكرة الذات كمبدأ مركزى لمقاومة السلطة القهرية.

ولد المجتمع الحديث ابان القطيعة مع النظام المقدس للعالم. وظهر بدلا من هذا النظام المقدس الانفصال والتفاعل بين الفعل العقلانى والآداتى والذات الشخصية. اذا أراد الاول ان يتجاهل الثانية ويضع بدلاً منها عبادة المجتمع ووظيفية السلوك، والعكس بالعكس اذا أرادت الذات ان تتجاهل الفعل الاداتى وأن تتحول الى عبادة الهوية الفردية او الاجتماعية.

هناك ايضا طريقة اخرى، اكثر قبولا لرفض هذه الثنائية التى حددتُ أنا بها الحداثة. ان الفكر الليبرالى هو الذى يتميز بالمركزية ويجتهد فى تقريب وحتى فى خلط عالم الطبيعة وعالم الفعل الانسانى مستنداً على نظرة أقل تزمنا للمجتمعات الطبيعية التى بلورها منظرو النظم المعاصرة، والنابعة من الفيزياء والكيمياء والبيولوجيا. لهذا

الجهد المعادى للثنائية فضائل كبرى إذ أنه يسمح باستبعاد مفهوم الحتمية عفا عليه الزمن بعد ان كان هذا المفهوم قد استدعى دائما استجابات مفرطة فى الروحية. ولكن هنرى أتلان Henri Atlan شدد على سوء التفاهم الذى يمكن ان يؤدى الى نشأة مسيرة شديدة التركيب وعلى ضرورة الاحتفاظ بثنائية تكون اشكالها المكتملة فى الفكر تتمثل فى بناء النماذج والتفسير الهرمينوطيقى. وحتى ادجار موران Edgar Morin نفسه، الذى بذل جهدا كبيرا لاثبات الاستمرارية بين العلوم الطبيعية ومعرفة الانسان، ألا يبين فى كتاباته ضرورة العودة للذات فى تحليل مجتمع الجماهير؟ المهم اليوم هو الوقوف ضد ابتلاع احد عنصرى الحداثة للآخر. وهو لايمكن ان يحدث الا بالتذكير بأن الانتصار الكلى للفكر الاداتى يؤدى الى القمع كما تؤدى النزعة الذاتية الى الوعى الزائف. لا يكون الفكر حديثا الا اذا تخطى عن فكرة نظام كلى عام للعالم طبيعى وثقافى فى آن، وعندما يجمع الفكر بين الحتمية والحرية، والفطرى والمكتسب، والطبيعة والمعرفة الاجتماعية، مع عدم نسيان ان هناك علوم طبيعية للانسان، فالكائن الانسانى هو طبيعة وذات فى نفس الوقت .

الحداثة المنقسمة

قد يقول البعض انه لاضرورة لان نطلق كلمة "حديث" على مفهوم يستحق ان يسمى "ما بعد حديث". من الممكن قبول هذه الحجة، بما أنتى اعتبرت أنا نفسى أن الفكر فى نهاية القرن الماضى، إنطلاقا من ملهميه الاساسيين نيتشه وفرويد، هو تعبيرٌ عن الازمة وعن تفكك الحداثة. ولكن هذه الحجة فى الواقع لايمكن قبولها لأن نقد الحداثة، اى نقد اختزال الحداثة الى العقلنة لايمكن ان يؤدى الى وضع مناقض او ما بعد حداثى. يتعلق الأمر، على العكس، باعادة اكتشاف جانب من الحداثة كان قد نُسى او حُورب بواسطة العقلانية المنتصرة. باسم ديكارت وفكرة الحق الطبيعى، كذلك باسم الهم المعاصر للذات يليق فتح جناحى الحداثة واستخدامهما بنفس القدر فى مجال تحقيق الذات كما فى مجال العقلانية. وينبغى، تجاوز الخلاف فى الالفاظ، وتأكيد حداثة موضوع الذات،

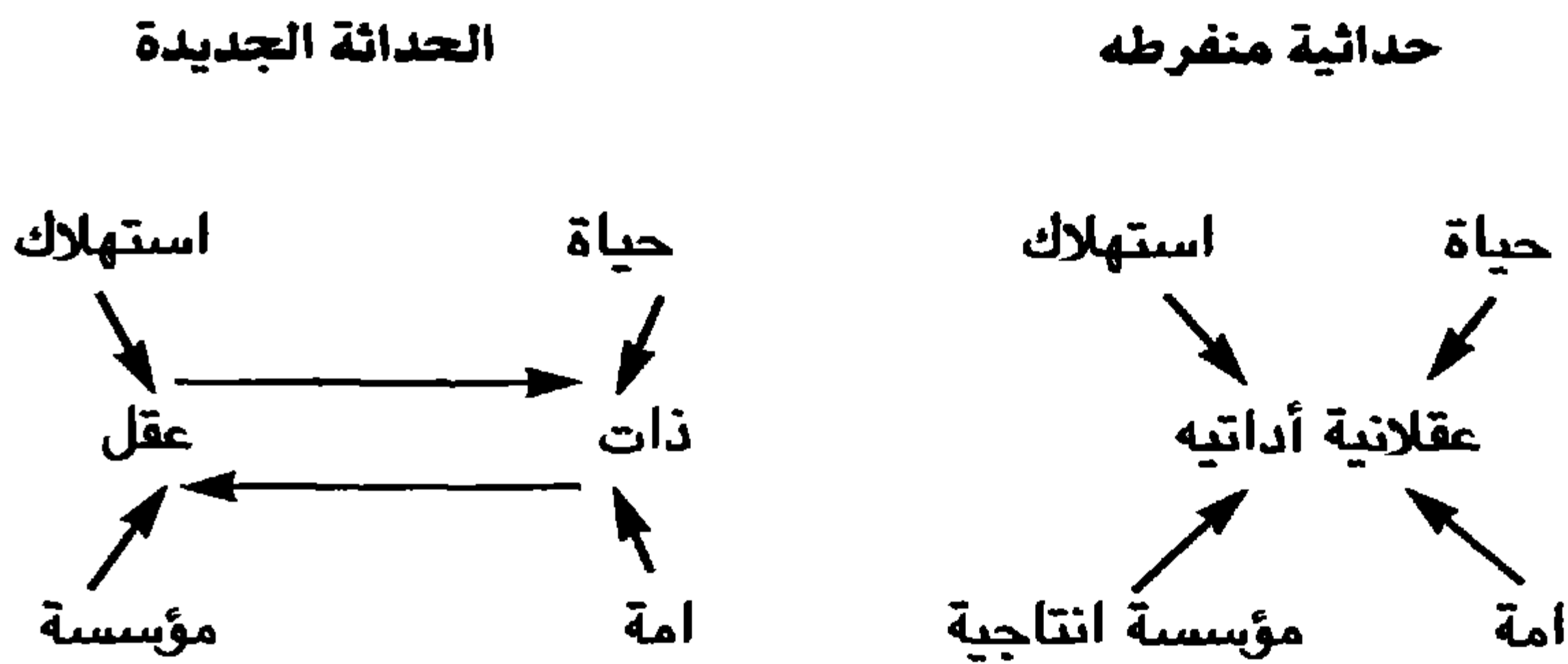
وإعادة التأكيد على كونه مرتبط بالابتكار المتصاعد لعالم اصطناعي، ينتج الفكر والفعل الانسانيان.

ولكن لا ينبغي الارتياح للموقف الحالي للحادثة : اذا كنت قد تحدثت طويلاً عن انقراط وتفكك الحداثيّة فذلك لان الخبرة الانسانية المعاصرة في واقع الامر قد تشتت الى شظايا. وهو ما يمثل الوجه المقابل للتناول الكلي للمشاكل والذي يلح عليه علماء الاجتماع عن حق، وما يعطى لهذا التناول الكلي معناه الحقيقي. إن القول بان التقنيات الجديدة للاتصال قد قربت بيننا وجعلتنا نعي اننا ننتمي الى نفس العالم قد يبدو سطحيًا وتافهاً، اذا لم نصف ان هذا العالم الذي تسارعت فيه الانتقالات وتضاعفت يشبه أكثر فأكثر لعبة المرايا. نحن ننتمي جميعاً الى نفس العالم ولكنه عالم محطم ومشتت. لكي تتمكن من الكلام مجدداً عن الحادثة ينبغي العثور على مبدأ للتماسك في هذا العالم المتناقض وينبغي أن نعيد جبر شظاياها.

اليوم ينطوي جزء من العالم على البحث عن هويته القومية او الجمعية او الشخصية والدفاع عنها، في حين ان جزءاً آخر، على العكس، لايؤمن الا بالتغير الدائم ولا يرى العالم الا كسوق ضخم تظهر فيه المنتجات الجديدة بلا توقف. ويعتبر العالم بالنسبة للبعض مؤسسة انتاجية او مجتمع انتاج في حين أن البعض الآخر يجذبهم في نهاية الامر ما هو غير اجتماعي، أي ما يطلق عليه الوجود أو الجنس. في قلب الشذرات المحملة بالقيم المتعارضة للحياة الاجتماعية ينهمك في العمل جماعات كالنمل مقيدة بالعقلانية التقنية، منفذين، موظفين، فنيين، نوى مراكز عليا أو دنيا؛ يدور كل شيء حول انشغالهم بغايات عملهم. ولأننا لا يمكننا ان نعرض الفيلم معكوساً حتي نقف على الوحدة التي تحطمت بلا رجعة، وحدة عالم التنوير والتقدم، ليس أمامنا اذن إلا التساؤل عن كيفية إعادة تأسيس الوحدة بين الحياة والاستهلاك، بين الامة والمؤسسة الانتاجية وبين كل واحدة منها وعالم العقلانية التقنية. لو كانت إعادة البناء هذه مستحيلة، للزم توقف الكلام عن الحادثة. هل تسمح فكرة الذات وبمعنى أدق حركة تحقيق الذات بان توحد ما

قد انفصل؟ هل يمكن لفكرة الذات وتحقيقها ان يمثل مبدءاً لوحدة خاصة بحدثة جديدة؟ يستدعى هذا السؤال اجابة بالسلب ؛ فلا يمكن تصور مجتمع يكون تحقيق الذات مبدءاًه المركزى. وذلك اولا لأن وجه الذات مشطور دائماً الى قسمين. اذا كانت فكرة الذات تنبثق بيننا بمثل هذه القوة فذلك لأنها رد فعل ضد الصلف الشيطانى للدول الشمولية او البيروقراطية التى ابتلعت مجتمعاتها وتحديث باسمها؛ دول تتظاهر باعطاء حق الكلام لمجتمعها فى حين انها قد التهمت باكملها. هذه المقاومة للسلطة الاجتماعية التى اوصى نيتشه وفلاسفة فرانكفورت وميشيل فوكو بضرورتها، ينبغى لها ان تستند على ما هو أقل اجتماعية فى الفرد الانسانى، وفى نفس الوقت على القوى المتعالية على المجتمع والتى تقاوم أداء السلطة السياسية. انها تستند على الجنس وعلى التاريخ، على الفرد وعلى الامة. كل شخص يدرك بوضوح ان المسافة هائلة بين الشيبية التى ترفض التحكم الاجتماعى فى الجنس والتى هى مفتونة بتأكيد الهوية وحرية كل فرد من جانب وبين التعبئة الجماعية للثقافات والاديان المهددة بتحديث من الخارج من جانب اخر. ولكن الاعتراف بهذه المسافة ينبغى له الا انفصل عن اكتشاف ان الذات منجذبة الى الجنس والى الجماعة فى آن، وان هذه الذات، وباعتبارها تربط احدهما بالآخرى، اى الهو بالنحن، تسمح بالصمود فى وجه الدولة والمؤسسة الانتاجية. كل من الجنس والجماعة بالاضافة الى الحق الطبيعى قبل النزعة التاريخية هى قوى للمقاومة والتمرد تمنع السلطة الاجتماعية من السيطرة الكلية على الشخصية وعلى الثقافة. وبينما كان الموظفين، وعلى رأسهم تالكوت بارسونز، يؤسسون المشروع الكبير لتوحيد دراسة المجتمع والثقافة والشخصية، كنا نعرف نحن، منذ نيتشه وفرويد، انها تتعارض بالضرورة، وأكثر من ذلك علينا أن نؤكد اليوم ان الدعوة للفرد ورغبته، وكذلك التذكير بالامة وثقافتها هما رسالتان متكاملتان تبثهما الذات، وأنها تمنحان الذات قوتها المزدوجة للصمود فى وجه سلطة المجتمع الفعال. ينتج عن ذلك ان فكرة الذات وحدها لايمكنها ان توحد الحقل المنفرط للحدثة. ولا يمكن ان يحقق هذه المهمة سوى اقتران الذات بالعقل. فمن جانب يبعث العقل الاداتى الحياة فى مجتمعنا، مجتمع الانتاج

والاستهلاك، والمؤسسة الانتاجية والأسواق، كسيل من التغيرات وجملة استراتيجيات للتكيف والمبادرة فى محيط متحرك وغير محكوم، ومن جانب آخر يعتبر مجتمعنا مسكون بالرغبة الفردية والذاكرة الجمعية، واندفاعات الحياة والموت والدفاع عن الهوية الجماعية. كان اوجست كونت نبي الحداثة ودين الانسانية، يؤكد على أن المجتمع مكون من موتى اكثر مما هو مكون من أحياء. ويمكن، وفقاً لفكرته، الجزم بأن حداثة مجتمع تقاس بقدرته على حيازة الخبرات الانسانية البعيدة عن تجربته الحاضرة فى الزمان وفى المكان. ويمكن ان نرسم تخطيطاً لاعادة البناء التى شرعنا فى تحديدها على هذه الصورة.



إن الحداثة الجديدة - فالامر يتعلق حقا بالحداثة - تجمع ما بين العقل والذات، كل منهما يندمج بالآخر كعنصرين متحدين ضمن العناصر الثقافية للحداثة المنفرطة. ان الحداثة التى كانت قد كبتت وأسقطت نصف حصيلتها بتطابقها مع نموذج غازى وثورى فى التحديث، نموذج الصفحة الجديدة الذى يلغى الماضى تماما، يمكن لها أخيراً ان تجد نصفها الآخر. والحداثة ليست إلا علاقة وتوتر بين العقلانية والذاتية. بل ان غياب مثل هذا الاندماج بين هذين المبدئين أمر اساسى لتعريف الحداثة ولاستبعاد فكرة المجتمع وهدمها، ويستبدل بها فكرة التغير الاجتماعى.

ان المجتمعات ما قبل الحديثة تعتقد ان هناك نظاما اجتماعيا قائما، يتحول الى نظام جديد تحت ضغط اسباب خارجة عن ارادة الفاعلين. انطلاقا من هذا المفهوم

تسألنا كيف تم الانتقال من العصور القديمة الى العصر الوسيط ، ومن المدينة الى الدولة، او من التجارة الى الصناعة. اليوم لم تعد الفاعلية التاريخية historicite(*) سمة ثانوية للمجتمع، وكانت فلسفات التاريخ هي اول من اشارت الى ذلك الا انها كانت تضع المجتمعات الواقعية في تاريخ للروح او للعقل او للحرية اي في تاريخ لمبدأ غير تاريخي. اذا كنت قد نظمت تأملاتي باستمرار حول فكرة الفاعلية التاريخية، مخاطراً باحداث نوع من سوء التفاهم، فذلك للإشارة بان الحياة الاجتماعية لم يعد يجوز وصفها كنظام اجتماعي تنشئ الدولة قيمه وقواعده واشكال تنظيمه وتدافع عنه، ولكن على العكس ينبغي للحياة الاجتماعية أن تُفهم كفعل اي كحركة، بحيث تمثل مجمل علاقات فاعلي التغيير الاجتماعيين. ولهذا السبب فان الطريقة التي اعيد بها هنا بناء وحدة الحقل الاجتماعي تستبعد مطلقاً فكرة المجتمع، وهي فكرة صار على العلوم الاجتماعية ان تتخلص منها بشكل عاجل، لان الحياة الاجتماعية باعتبارها حديثة هي متأثرة من جانب بابتكارات نظام الانتاج والاستهلاك، ومن جانب اخر بالانفتاح على رغبات العقل الباطن، وبارتباط الذات بالدفاع عن تراث ثقافي وبتأكيد حرية ومسئولية في نفس الوقت.

لا ينبغي ان ينظر للذات على انها وسيلة لتوحيد العناصر المنفرطة للحدث : الحياة والامة والاستهلاك والمؤسسة الاجتماعية، ولكن هي التي تربطهم ببعضهم ناسجة بينهم شبكة متينة من علاقات التكامل والتعارض. فكرة الذات تعيد بناء الحقل الثقافي المنفرد، والذي لم يستطيع ابدأ، بعد انتقادات ماركس ونييتشه وفرويد، العودة الى الوضوح والشفافية التي كانتا تميزانه اثناء فلسفة التنوير. الذات ليست فرداً منفلقاً على ذاته باى صورة من الصور. وقد بين الان رينو Alain Renaut باقتدار التعارض

(*) يميز تورين بين النزعة التاريخية historicisme وبين الفاعلية التاريخية historicite. ويقصد بالنزعة التاريخية اعتبار المجتمع رهين أو أسير لمبدأ خارج عن ذاته وهو حركة التاريخ ، كما هو الحال لدى هيجل وماركس. أما الفاعلية التاريخية فتعني لديه قدرة المجتمع على التحكم والتصرف في نظامه الخاص دون الاستناد إلى أى مبدأ خارج عن المجتمع أو، كما يسميه ما وراء إجتماعي metascial .

بين التراث الذى يطلق عليه مونادولوجى، والذى ادخله ليبنتز وامتد، كما يعتقد، الى هيجل ونييتشه، وبين ما يطلق عليه ايضا الذات. وهو مايضطرنا لاعتبار الذات، لا كالأنا الاعلى، ولا كصورة الاب أو كوعى جمعى، ولكن كجهد لربط الرغبات والحاجات الشخصية بالوعى بالانتماء الى المؤسسة الانتاجية والى الامة، اوربط الجانب الدفاعى بالجانب الهجومى فى الفاعل الانسانى.

هناك صعوبة كبيرة فى أن نتخلص من تمثيل المجتمع أو الانا كنظام موحد بواسطة سلطة مركزية، كجسد اجتماعى يتحكم فيه عقل او قلب. إن الحداثة تهاجم باستمرار من قبل قوى، مهما كانت متعارضة فيما بينها، يجمعها رجوعها الى مبدأ واحد: هو فى الغالب الدين او الامة، وفى حالات اخرى هى العقلانية التقنية أو حتى السوق. كان مثل هذا المبدأ فيما مضى مشروعاً تاريخياً شاملاً يحمله حزب واحد أو حكومة ذات سلطة بلا حدود. أما الحداثة، فعلى العكس، تتحدد قبل كل شئ بالانتقال من مفهوم مركزى للحياة الاجتماعية الى مفهوم ثنائى القطب، وبالتالي الى ادارة علاقات التكامل والتعارض بين تحقيق الذات او العقلنة.

ولهذا السبب تصمد فكرة الذات فى وجه التماهى مع كل شذرة من شذرات الحياة المنفرطة. فلا يتطابق الذات مع الجماعة او الامة او العرق، ليس هناك مؤسسة ذات، ولا اختزال للذات الى الجنس، ولا مجال للخلط بين الذات وحرية المستهلك فى سوق الوفرة. ولكن، فى هذه الحالة الاخيرة، لايتعلق الامر فقط بتفادى مثل هذا الاختزال. لان مانسميه مجتمع الاستهلاك ليس نظاماً تقنياً او اقتصادياً، انه بناء للواقع الاجتماعى طبقاً لنموذج يتعارض مع نموذج الذات، والذى يدمر هذه الذات باحلاله العلامة محل المعنى، وظاهر الموضوع محل عمق الحياة النفسية، والعباب الاغواء محل جدية الحب. مشهد تكسوه التفاهة ويشغله اشخاص منمطون. من يصدق أن العالم العلمانى، المنقطع عن أى ماوراء، يمكن ان يُختزل الى مظاهر والى قرارات شراء؟ فى الغرب الغنى والبارع فى التجارة، تتشكل الذات فى مواجهة مجتمع الجماهير وفى مواجهة الاستهلاك المعمم والمراتبى فى آن، كما تتشكل فى الاماكن الاخرى من العالم فى

مواجهة القومية الثقافية. ان الدعوة الى الذات فقط هي التي تقود الى ايجاد المسافة مع السوق، تلك المسافة المتضمنة في كل حكم اخلاقي، كما تسمح باعادة بناء مايفككه مجتمع الاستهلاك. الزهد في العالم، هذا ما كان يقوله فيبر ليحدد الرأسمالية والحدثة. وهو مالا يؤدي الى ان نرفض، من قبيل النفاق، خيارات الاستهلاك التي يرغبها الجميع. ولكن يؤدي فقط إلى أن نقيم مسافة بيننا وبينها، مسافة تعطى للفرد قوام الذات ودوامها بدلا من ان يذوب في آنية الاستهلاك.

عندما تختزل العقلانية الى التقنية والى الاداتية، لاتعود الشذرات المنقرطة للحدثة التقليدية مرتبطة ببعضها البعض الا برباط الفاعلية والمربودية. كلا منها تبني حول نفسها عالماً غريباً عن الآخرين، نتحدث عن ثقافة المؤسسة الانتاجية او مجتمع الاستهلاك او التطرف القومي والديني. يمكن التعرف على الذات بل وتحديدتها عن طريق جهودها في تجميع ماتشتت. انها النقيض الى الدعوة الى مبدأ خارج العالم، والى كفيل ماوراء اجتماعي للنظام الاجتماعي. انها تمثل حقلاً للفعل والحرية يقرب الاضداد. موسعة مجال خبرتها ورافضة كل اوهام الانا، وكل اشكال النرجسية. تجمع الذات بين لذة العيش وارادة الفعل، وبين تنوع الخبرات المعاشة بجدية الذاكرة والالتزام. انها تحتاج ان يقضى الهو على مقاومات الانا الاعلى بقدر مايكون مخلصاً لوجه الذات او للفتها، لأن قوة الرغبة وقوة التراث وكذلك الدعوة الى الاستهلاك والسفر وايضا الدعوة الى البحث والانتاج تحرر الادوار والقواعد التي يفرضها النظام وتقوم بموضعة للذات من اجل التحكم فيها بصورة افضل: وهو مايجعل اليوتوبيا الخلاقة للنزعة الانسانية تستمر في الحياة داخل فكرة الذات، تلك النزعة التي كانت تعلن الحدثة دون ان تستطيع الدخول الى الارض الموعودة، لانه لايمكن ان توجد حدثة واقعية الا بالتمزق بين النهضة والاصلاح. هذا التمزق لن يتوقف ابداً، وابدأ لن يولد من جديد العالم القديم للواحد. ولكن الذات تحمل اليوم في داخلها الارث المتناقض لإراسم ورايليه ولوثر. انها تعترف على الاقل انهم متكاملون نوعاً ما ويبقى مبررها في الوجود هي ان تجعلهم يتعايشون سوياً بربطها المعرفة بالعالم وبالذات، بالحرية الشخصية والجمعية. هذا العمل السعيد والذي لاينتهي، الخاص ببناء الحياة على انها عمل فني مكون من مواد متناثرة هو الذي يحدد الذات على الوجه الافضل.

نساء ذوات

يوجد فى قلب المجتمع ما اطلقت عليه الحركات الثقافية. أهمها تلك التى تستهدف دعم احد قطبى اتجاه ما فى مواجهة الآخر. والحركة الثقافية الأكثر بروزا والاكثر قدرة هى تلك التى تريد ان تمنح الهيمنة للانتاج والاستهلاك. هذه الحركة تتماهى - مثل كل حركة ثقافية او اجتماعية او تاريخية - مع الحداثة وتتحدى بازالة العقبات فى وجه التغيير وبالتحديث الدائم. وترفع هذه الحركة التى يطالب بها الصناعيون والتجارىون والمنظمون واهصائيو الاعلام راية الليبرالية بل والفردية. هؤلاء الممثلون لا يرون امامهم سوى مجموعات مصالح معادية للتغيرات التى تمس مصالحها المكتسبة. ولكن الحركة الثقافية المعارضة والتى تدافع عن تحقيق الذات تثبت انها ايضا حداثية مثل الحركة المضادة لها.

من هم الفاعلون الواقعيون الذين يحملون لواء هذه الحركة الثقافية؟ الحركة الاهم هى حركة النساء والتى طالبت باسم الحداثة، بالاعتراف برغبة النساء وبهويتهن البيوثقافية، وهو تحد مزدوج فى وجه مجتمع الابتكارات التكنواقتصادية. يوجد بالتاكيد تيارات نسوية ترفض هذه الحركة الثقافية وتطالب فقط بتكافؤ الفرص امام النساء اللاتى يجب الا يتم تحديدهن فى الحياة الاقتصادية او الادارية انطلاقا من جنسهن ولكن انطلاقا من قدراتهن المهنية. سيمون بوبوفوار Simone de Beauvoir واليزابيث بادنتير Elisabeth Badinter من أبرز أعلام هذه الحركة فى فرنسا والتى أوصلت بسهولة صوتها الى السلطات السياسية لدرجة، ان جزءا كبيرا مما نسميه بمكتسبات النساء هو نتيجة لدخولهن الكثيف فى سوق العمل. يدفع مجتمع الاستهلاك فى اتجاه الانتقال الكثيف للنساء من الخدمات الشخصية غير السلعية الى القطاعات الشخصية السلعية كالتعليم والصحة بوجه خاص. ولكن علينا أن لانخلط بين هذه النزعة النسوية الموجودة داخل الحركة الثقافية السائدة والتى تطابق بين الحداثة والعقلنة، وحركة النساء التى تناضل من اجل تحقيق الذات فى مواجهة العقلنة. حركة ضعيفة ومنقسمة لانه بقدر ما هناك سهولة فى اقامة جبهة مشتركة من جماهير المنتجين

والمستهلكين ومن الصناعيين والتجار، هناك صعوبة في الجمع بين التحرر الجنسي والهوية الثقافية للمرأة، بما أن التحرر الجنسي يواجه الانوار التي وضع المجتمع فيها المرأة، في حين أن الهوية الثقافية، في منظور فرويد، تحدد، على العكس، المرأة، وكذلك الرجل والطفل بعلاقتهم فيما بينهم. ولكن هذه الحركة الثقافية، التي يبدو أنها استنفدت نفسها في شقاقتها الداخلية، لم تكف عن نشر تأثيرها وعملت على تقديم الاهتمام بالممارسة الجنسية للمرأة وبدورها الثقافي لدى مجمل النساء. وذلك بنجاح بلغ من أهميته أن كثيراً من الرجال يشعرون، من الآن فصاعداً، أنهم مؤيدون لهذه الحركة وليسوا خصوماً.

الآخر

هل للدعوة الى الذات من حكم غير الذات نفسها ؟ الاجابة مستحيلة لانها قد تخلط بين أنا المتكلم Je والأنا Moi، والتي تفرض فكرة الذات الفصل بينهما. الخروج من الوعي وفخاخه ينبغي ان تؤكد الذات نفسها باعترافها بالآخر كذات. المسيرة تقليدية، والمسيحية بوجه خاص، منذ الموعظة فوق الجبل، قد اعترفت لها باهمية كبرى. ينبغي حب الآخر كمخلوق لله، وحب الله في الآخر. ولكن المفهوم الحديث للذات لم يعد يمكنه ان يعتبر ان فعل الانسان يأتي من كونه مخلوقاً خلقه الله على صورته. ان نظرية الحق الطبيعي والثنائية الديكارتية التي اشرت اليها مراراً هي من الصيغ الهامة تاريخياً بالنسبة لفكر الذات، لكن لا يمكن الان قبولها من جانب الفكر الحديث، لانها تقوم على فكر ديني استبعدته العلمنة. لم نعد نقول اننا نرى في الآخر وفي علاقتنا به حضوراً للوجود، وللا نهائي، وينفس الطريقة لم نعد نتصور الحب كمس الهى او كصاعقة تسقط فوق رأس الانسان ؛ الاعتراف بالآخر كذات لايعنى الاعتراف بالله فيه ولكن بقدرته على الجمع بين الهو والانا. أن مانسميه الحب هو توليفة من الرغبة، وهى غير شخصية، ومن الاعتراف بالآخر كذات. ويؤكد الفرد نفسه كذات عندما يوفق بين الرغبة ومعرفة الغير empathie بون ان يغريه اغواء المطابقة بينهما، تلك المطابقة التي تختزل أنا المتكلم الى نقيضها وهو الأنا. تتأكد الذات إذن من خلال العلاقات بين الاشخاص كالحب

والصدقة، أكثر مما تتأكد في خبرة العزلة العزيزة على الرومانسيين، لأن هذه الخبرة محملة بالنزعة الطبيعية، وأكثر مما تتأكد في الخبرة الاجتماعية التي يرجع إليها دائماً الفكر الوظيفي بامتناله الجوهري.

إن الثقافة الشعبية الحالية، وخصوصاً الأغنية التي تقوم غالباً في صيغة الفيديو كليب clips، تنشر في كل مكان هذه الفكرة التي تبدو بعيدة عن الخبرة المعاشة. ألا تُظهر في أشكالها الأكثر نجاحاً النقاء الإباحية erotisme بالحنان، وتقدم شخصيات حرة ومنجذبة إلى الآخر في آن، دون أن تفقد فرديتها؟ وعلاقات الرغبة والحب هذه ألا يتم المحافظة عليه بقوة خارج كل اندماج اجتماعي وكل مكان وزمان وكل وسط اجتماعي واقعي لأنها تنتمي إلى عالم الذات وليس إلى عالم الحياة الاجتماعية ونماذجها الترشيدية؟ إذا كانت ثقافتنا تفصل بقوة العالم الخاص عن العالم العام، فذلك ليس فقط لأنها نرجسية أو لأن الأيديولوجيات السياسية قد ماتت وإنما لأنها تميز بين ما كان مختلطاً عبر قرون طوال، وهو العقلانية والاحالة إلى الذات، بالغائها تدريجياً ما يربط نظام باخر، ويشكل أكثر تحديداً ما يعطى محتوى اجتماعي للعلاقات بين الأشخاص. لقد لعب عمل النساء، الذي أدى إلى الاعتراف رسمياً بانفصال إعادة إنتاج النوع عن الرغبة الجنسية، دوراً حاسماً في هذا الاكتشاف للذات، على شرط إضافة أن هذه الذات لا تتشكل إلا إذا جمعت بين الرغبة والعلاقات بين الذات. تاريخ الحركة النسائية هو في جزء كبير منه تاريخ إعادة اكتشاف العلاقة مع الطفل، بعد القطيعة المبدئية مع الأدوار النسائية التقليدية، ثم بصورة أكثر تردداً، إعادة اكتشاف العلاقة مع الرجل. بقدر ما اعتبرت الأيديولوجيات الحداثية العلاقات بين الأشخاص إدنى مرتبة من الاشتراك في أعمال جماعية، أي في العمل، بقدر ما تتحد الذات أولاً وقبل كل شيء بالاهمية المركزية المعطاة للعلاقات العاطفية والإباحية. لم تعد الحياة الخاصة حبيسة في المملكة الخفية - التي تديرها النساء - لإعادة الإنتاج الاجتماعي وانتقال الموارث، إنها تصير عامة بمقدار ما تعطى ثقافتنا العامة من أهمية لتأكيد الذات وحريتها، أهمية تعادل التقدم التقني والاقتصادي وأهمية القدرة على إدارة التغيرات الاجتماعية جماعياً.

وفى نفس الاطار اعطت الدراسات حول الطفل وخصوصا دراسات فينيكوت Winnicott واريكسون Erikson مكانا كبيرا لاتصال الطفل مع "الشخص"، وفى الغالب مع الام، التى تمنحه الامان والثقة فى نفسه عندما تكفل له مجالا للمبادرة مصانا ومعتزفا به.

موضوع الوجود من اجل الآخر يلعب اليوم دورا رئيسيا فى الاخلاق، لانه يقطع الوشائج مع هوس الشمول الذى اخذ فى الماركسية اشكاله الاشد صرامة وخصوصا فى كتابات لوكاتش، قطيعة نقود الى ايمانويل ليفيناس Emmanuel Levinas أى إلى الاعتراف بالآخر ليس كموضوع لعلاقة ولكن كموضوع لمسافة لانهائية. إن احترام الآخر هو الشرط الاول للعدالة وبالتالي للتحرر. يصور ليفيناس الآخر كالوجه ولكنه يدرك النهائى عبره فى اللحظة التى يحمى فيها مسئوليته. يتحدث ليفيناس هنا مثل اليوشا شقيق كرامازوف. يقدم المرأة على إنها الآخر ويحددها بالسر والحياء ، لأن الآخر، كى يصمد فى وجه أى علاقة ويظل آخراً بحق عليه ان يكون بعيدا. وهذه رؤية للعلاقة، مشوبة بالسلطة فى الغالب، للاحتفاظ بالآخر فى اصالته أى فى انتمائه للانهائى للوجود. تعلم ليفيناس من هوسرل Husserl ان الوعي هو دائما وعى بشئ ويضيف ليفيناس : وبشخص ، وهو ما يحرر من الفردية والجماعية ويضع الأخلاق والسلوك تجاه الآخر فى اساس الفلسفة. هذه الرؤية تحمى ضد تلاعبات السلطة عندما تبين كيف تشكل الذات نفسها عبر الاعتراف بالآخر. وهو ما يعتبر تأملا للوجه والله عبر الآخر اكثر من كونه تواصل مع الآخر. لا يلح فكر ليفيناس على العلاقة الاخلاقية مع الآخر بقدر ما يلح على منظور للانهائى يتحرر من الحدود ومن عقبات الواقع.

ليفيناس فيلسوف للتحرير اكثر منه فيلسوفاً للعلاقة. الاعتراف بالآخر، بالنسبة له، هو وسيلة لتخليص الله من التمثيلات التصالحية وشبه النفعيه التى تضعه فيها الاديان وان يجعل منه مبدأ لسياسة تقوم على "حق الانسان الآخر". ويعطى بول ريكور Paul Ricoeur معنى اكثر للعلاقة مع الآخر عندما يتكلم (على سبيل المثال فى الفصل

الموجود فى كتابه "عن الفرد" (1987) عن الوعد تجاه الآخر وهو ما يأتى بفكرة التضامن وبصورة لمجتمع لا يكون قادرا فقط على مقاومة الشر ولكن يمكنه ان يحول مبدأ اخلاقيا الى قاعدة مؤسسية. ولكن لفكر ليفيناس قوة الرفض الدينى امام السلطة الغازية التى تفرض نمودجا للهوية والمشاركة والهيمنة، انه يواجه هذا التتميط وهذا الاختزال للمجتمع الى مستوى الجمهرة بالسمة غير الاجتماعية للعلاقة مع الآخر، ويجدر بنا ان نقول باحترام الغريب.

كل فكر للذات عليه ان يقى نفسه من تحوله الى مبدأ للاندماج الاجتماعى والى فرض السمة الاخلاقية. لقد صم اذاننا النداءات للرفاق والمواطنين وحتى للاخوة التى تسالت باسمها السلطات الشمولية الى الضمائر والى المؤسسات. لاشئ يصمد بقوة امام هذه الدعوة الجماعية الا الاعتراف بالآخر، والوعى السلبي بالآخر، وعى نبوى يرى فى الآخر حضورا خفيا للاله الغائب الذى ينتظر الوعى دائما قدومه. لا يمكن لفكر الحدائث ان يبنى نفسه حول فكرة الذات الا بشرط تحطيم كل الاصنام التى فرضت السلطات القائمة عبادتها، اذ ان هذه الفكرة نفسها لاتنفصل عن مقاومة السلطة وعن الحق فى الاختلاف بل وحتى الحق فى العزلة فى مجتمع الجماهير.

ولكن المسافة ، واللاعلاقة النفسية التى تخلق وتحفظ كلاً من الفكر الدينى والاباحية، لاينبغى لها ان تنفصل عن الاتصال الذى يتعرف من خلاله كائنات على بعضهما كنويات ويجاهدان فى تحويل علاقتهما الى اساس لشذرة من الحياة الاجتماعية، للعائلة على سبيل المثال، التى اعتبرت باستمرار كعامل على انتقال الميراث الاقتصادى والثقافى، وكمكان لفرض القواعد. ولكن منذ فرويد نتعلم ببطء وبصعوبة ان نعتبر العائلة مكاناً لتشكيل الذات، ومؤخراً مكاناً لمقاومة الضغوط السلطوية. وهو ما يضطرنا الى مراجعة التعارض التقليدى جدا بين الاسرة المحافظة والمدرسة التقدمية، لان الاسرة هى مكان تحقيق الذات كما ان المدرسة هى مكان العقلنة، والهام هو عدم الفصل بينهما، وبالاخرى عدم اعتبار الذات وهماً محافظاً، ومعادلاً للمجتمع المغلق الذى تقوم قوى العقل بفتحه بقوة العمل وانوار العقل وبالنظام الاجتماعى.

ولكن العلاقات العاطفية هي التي تحمل موضوع الذات بشكل مباشر. بقدر ما تتحلل الصورة القديمة لإله الحب، الذي يخترق سهمه القلوب ويشعل الرغبات، بقدر مايكف الحب عن ان يكون حالة نلاحظها ونعلن عنها كما نعلن عن دخل او عن مرض. ان مايوثر فينا في رواية "العاشق" لمرجريت دوراس Duras Marguerite هو غياب الحب وكلماته ومشاعره لدى المرأة، التي يشعر القارئ، رغم كل هذا أو ربما بسبب هذا، انها عاشت حبا كبيرا. يُعرف هذا الحب في فض الاشتباك وفي النداء المتبادل للرغبات ولقاء الآخر. تتعرف الذات على نفسها في الغياب وفي فقدان التحكم الممارس على الأنا وفقدان القواعد الاجتماعية للسلوك وتشعر بأنها ملتزمة فيما وراء كل مسموح أو ممنوع، تجاه شخص أو شيء يدمر الحرمان منه معنى الحياة وينتج الشعور بفقدان المرء لنفسه. هذه الخبرة المزدوجة لفقدان الأنا وللوصول الى المعنى تتخذ اشكالا حسب كل مجتمع، لكنها تعكس دائما حضور الذات سواء كانت هذه الذات الهية أو طبيعية او انسانية.

إذا كان يلزم بشدة ربط انبثاق الذات في الفرد بعلاقته بالآخر، فذلك لأن الوعي لا يمكنه إظهار الذات، بل على العكس يخفيها. لأن الفرد ليس إلا مكانا للقاء الرغبة بالقانون ولقاء مبدأ اللذة بمبدأ الواقع، وهو ماينتج كبتاً ويختزل بذلك الذات الى نقيضها، والى اللغة الغير شخصية للوعي والتي يفك رموزها المحللون النفسيون. ان المعادى للذات anti-Sujet هو مايكتشفه الوعي. البحث عن ماهو أشد فردية وأشد حميمية لايمكن ان يؤدي إلا الى اكتشاف ماهو لاشخصى بالاصالة. فقط عندما يخرج الفرد من نفسه ويتحدث الى الآخر ليس في اطار أنواره أو أوضاعه الاجتماعية ولكن كذات، هنا يتواجد خارج ذاته وخارج تحديداته الاجتماعية ويصبح حرية.

علاقة الحب هي التي تنحى جانبا التحديدات الاجتماعية، وهي التي تعطى الرغبة للفرد في أن يصير فاعلا، وفي أن يبتكر وضعاً بدلا من ان يمثل الى الوضع المفروض، وهي خصوصا التي تقوده الى التزام مطلق بما فيه الكفاية بحيث لا يكون فقط التزاما

اجتماعيا، وبحيث يبتعد عن سلوكيات الاستهلاك والتكيف، البالغة القوة في العلاقات غير الشخصية التي لم تتحول الى حب او صداقة.

الالتزام النضالي هو من طبيعة الالتزام العاطفي اذا لم ينحرف ويتحول الى ارتباط بمنظمة او بحزب، اذا ساهم في تحرير الآخرين المحددين بصفاتهم القومية أو الاجتماعية او الثقافية. في العلاقة مع الآخر كذات يتوقف الفرد عن أن يكون عنصرا للنظام الاجتماعي ويصبح خالقا لنفسه ومنتجا للمجتمع.

العودة الى الذات

هذا الكتاب هو تاريخ لاختفاء وعودة ظهور الذات. قضت فلسفة التنوير على الازواجية المسيحية وعالم الروح باسم العقلنة والعلمنة. أرادت فلسفات التاريخ أن تتجاوز التعارض بين الروحية والمادية بتأسيس صورة تاريخ يرتقى الى الروح أو الى إشباع الحاجات، أو الى انتصار العقل. هذه النظرة احادية واكبت تغيرات اقتصادية هائلة وانتصاراً للنزعة التاريخية، أي الامل في أن يؤدي تقدم الانتاج الى تقدم الحرية وتحقيق السعادة للجميع حتى نكتشف أن هذه السلطة للمجتمع على نفسه يمكن أن تكون قمعية بقدر ماتكون تحريرية وان الايمان بالتقدم لايقدم اى حماية ضد "خسائر التقدم" حسب عنوان كتاب نشرته النقابة الفيدرالية للعمال C.F.D.T . هذا التطابق بين الحياة الاجتماعية والتقدم وبينها وبين العقلنة، وفي الاتجاه المضاد بينها وبين اشكال المقاومة التي تواجه هذا التقدم وهذه العقلنة هو الذي تعارضه الخبرة التاريخية، والذي ينبغي ان يعارضه أيضاً الفكر الاجتماعي بشكل مباشر.

يكتفى البعض برؤى محدودة لهذه التحولات، فيعتقدون أنه بعد فترة طويلة وعصيبة من الانطلاق، في أثنائها تم بناء البنية التحتية للمجتمع الصناعي ، ثم دخلت البلاد الصناعية مؤخراً في مجتمع الاستهلاك. إن بناء السكك الحديدية ونتاج الاسلحة ومجمل الصناعات الثقيلة قد ساد مرحلة بناء المجتمع ما قبل الصناعي. ندخل الآن في

مجتمع صناعى ناضج يلعب فيه الاستهلاك الشخصى دوراً مركزياً، وجزء متزايد من ميزانية الأسر يخصص لشراء سلع وخدمات رمزية أكثر منها مفيدة أو هى محملة بالدلالات الثقافية : وقت فراغ، معلومات، تعليم، صحة، موضة ، ألخ. ألا يؤدى هذا الانتصار للاستهلاك اليوم الى تهديد التجهيزات الجماعية ونظم الضمان الاجتماعى؟

هذا التفكير ليس خاطئاً ولكنه يشوه ويستتهين بمعنى وأهمية التغيرات الجارية. أنه يختزلها الى مجرد انتصار الفردية ومجتمع الاستهلاك فى حين ان الاستهلاك يتحدد باكتساب سمات مستوى اجتماعى واقعى او مستهدف ، أكثر من تحددته بتأكيد الماهية كفرد حر او حتى كذات. وهى تعبيرات تتخذ هنا معنى مختلطاً وقابلاً لكل اشكال التبريرات الايديولوجية. لاينبغى خلط تغير الظروف الذى دفع باوروبا الغربية خلال بضع سنوات الى التحول من نموذج اشتراكى ديمقراطى الى نموذج ليبرالى مع عودة الذات. هل يمكن لنا ان نعتقد ان حضارة للاستهلاك الفردى هى أكثر تحبيذا لعودة الذات من مجتمع تحركه مشاريع سياسية واجتماعية جماعية؟ هذه الفكرة لايمكن قبولها هى الاخرى. ان عودة الذات تواجه بنفس الصعوبة فى مجتمع ليبرالى محض يخضع نفسه لآليات غير شخصية لانها آليات الحساب العقلى للربح كما فى مجتمع موجه تصيفه الدولة يفرض اندماجاً كاملاً ويهدم الفردية ، وكل إحالة الى ذات شخصية من سماتها معارضة هذا الاندماج. لاينبغى ان يقودنا هذا الى البحث عن طريق ثالث بين الفردية والجماعية. نحن نعرف أكثر من اللازم ان مثل هذا التعبير يحمل معه أخطر التشوشات وأكثر الامال فى أن؛ وأن الثلاثينيات قد قدمت نماذج عديدة على عدوى الدعوة الى الحرية الشخصية التى طالت ايديولوجيات متسلطة وقمعية.

فى اللحظة التى تسقط فيها الحواجز بين شرق اوربا وغربها ، لايمكن لنا ان نكتفى بالاعتقاد بان البشر الذين حطمتهم الانظمة الشيوعية سيدركون مؤخرا الحرية والسعادة التى يقدمها لهم الغرب. نحن نعرف ان ساكنى الشرق يريدون الحصول على السلع الاستهلاكية التى كانوا محرومين منها، لكننا نعرف ايضا ان هذا العالم قد انتج

منشقين افراداً أو حركات اجتماعية، كحركة تضامن البولندية، حملوا فكرة الذات الحرة فوق نزعة اللذة التي أبرزتها ومجدتها الدعاية الغربية.

بالتأكيد ان النظام الشمولى يضطهد عودة الذات بفاعلية تفوق غيره من النظم. ولكن هذه الذات لاتختزل الى الوفرة والى الاستهلاك، واللذين يكتملان بالتهميش لمن لايشاركون فيها؛ لأن عودة الذات تدل على انهيار كل المبادئ التوحيدية للحياة الاجتماعية سواء كانت الدولة او السوق. الساحة العمومية يمكن ان تتدمر بالتجارة فى جميع جوانب الحياة وبنفس القدر بالدعاية لحزب واحد. وتدمر فكرة الذات نفسها بنفسها اذا اختلطت بالفردية. ولايمكن عزلها عن الزوج الذى تشكله مع فكرة العقلنة. أنها تفرض العودة الى رؤية مزدوجة للانسان والمجتمع واضعة نهاية لصلف عقل كان يعتقد ان من الضرورى تحطيم المشاعر والاعتقادات والانتماءات الجماعية والتاريخ الفردى.

هذه العودة الى الحياة الخاصة وفى القلب منها العودة الى الذات قد تفكك الحياة الاجتماعية. لدينا فى الغالب انطباع بأن حياتنا تنقسم تدريجياً الى نصفين، النصف الاول هو العمل والثانى هو وقت الفراغ، أى التنظيم الجماعى والاختيار الخاص، وهو مايقود الشخصية الفردية الى حافة الانشطار، وخصوصاً عندما يتواعم اكتمال الأنوار الاجتماعية والعائلية مع تحرر العنف والرغبات المكبوتة. ولكن يستحسن اليوم قبول هذه المخاطرة بدلاً من افساح المجال للاحلام الخطرة فى إعادة بناء ثقافة موحدة ينظمها مبدأ مركزى.

الحدث كنتاج للذات

لاينبغى أن نختزل الحدث الى ميلاد الذات. فذلك سيكون أضمن طريقة لتدمير هذه الذات، كما يعنى تحويلها الى ما هو عكسها، الماهية، أى الفاعل الاجتماعى الذى لايتحدد الا بما ينتظره الآخرون منه ويتحكم فيه القواعد المؤسسية. "الماهية" يسميها روبرت، ك. ميرتون Robert .K Merton مجموعة الأنوار، مجموعة ليس لها أى

منطق سوى النظام الاجتماعي الذي يسميه البعض عقلانية والبعض الآخر يسمونه السلطة. وقد استقر المقام بالسوسيولوجيا طويلا عند هاتين الفكرتين : فكرة الوضع وفكرة الدور دون أن ترى فيهما اشكالا فعالة لتحطيم الذات. وكما أن الايديولوجيات الفردية والتي تكون في الغالب قريبة من نداء للذات، لاتستهدف إلا تحطيمها واذابتها في عقلانية الاحتكارات الاقتصادية. لاتتحدد الذات الا بعلاقاتها التكاملية والتعارضية في آن مع العقلنة. بل إن انتصار الفعل الأداتي، لانه يزيل السحر عن العالم، هو ما يجعل ظهور الذات ممكنا. هذه الذات لايمكن ان توجد طالما كان العالم مسكونا بالروح وكان سحريا. لاتبدأ اعادة اصفاء السحر على الذات إلا عندما يفقد العالم معناه.

ينبغي لوصف الحداثة اضافة موضوع ميلاد الذات الى جانب الانتاج والاستهلاك الضخم. هذه الذات تشكلت منذ الفكر الديني التوحيدي حتى صورتها الحالية، والتي تعبر عنها في الغالب الحركات الاجتماعية الجديدة مروراً بكل الاشكال الوسيطة، البرجوازية والعمالية، لتأكيد الذات والتي اخترعت المجتمع المدني في مواجهة الدولة. فلنعد الى فيبر والذي اعترف بأن الروح الرأسمالية، لم تتأسس على الانتقال من الزهد الى ارادة للكسب والاستهلاك، ولكن، على العكس، تأسست على الانتقال من زهد خارج العالم الى زهد داخل العالم أي عملية استبطان للحركة التي يتحول الفرد بواسطتها الى ذات. إن أقول الاوصياء ماوراء الاجتماعيين للفعل الاجتماعي لا يؤدي الى انتصار النفعية والفكر الوظيفي، ولكن على العكس، يؤدي الى ظهور الانسان المبدع، الذي يكف عن التكيف مع طبيعة خلقها الله، ويبحث عن نفسه ويجدها في قدرته على الابتكار والبناء، ويجدها كذلك في إرادته للتصدي لمنطق الموضوعات والتقنية واجهزة السلطة والاندماج الاجتماعي. إن الحداثة هي الخلق المستمر للعالم بواسطة انسان يتمتع بقدرته واستعداده على ابتكار معلومات ولغات، وفي نفس الوقت يدافع عن نفسه ضد ما ابتكره عندما ينقلب عليه. ولهذا فالحداثة، التي تدمر الاديان، تحرر الذات وتتملك صورتها التي كانت حبيسة في الت موضوعات الدينية وحبيسة للخلط بين الذات والطبيعة وتنقل ذات الله الى الانسان. إن العلمنة لاتعنى تدمير الذات ولكن انسنتها. وهذه

العلمنة ليست فقط إزالة سحر العالم ولكنها إعادة لسحر الانسان ووضع مسافة متزايدة بين الأوجه المتعددة له : فرديته وقدرته على ان يكون ذاتا، وانا، والماهية، تلك الأوجه التي تبنيها الأنوار الاجتماعية من الخارج. الانتقال الى الحداثة ليس هو الانتقال من الذاتية الى الموضوعية، من الفعل المرتكز على الذات الى الفعل غير الشخصي، التقنى او البيروقراطي، انه على العكس يؤدي للانتقال من التكيف مع العالم الى بناء عوالم جديدة، من العقل الذي يكتشف الافكار الخالدة الى العقل الذي، بجعله العالم عقلانيا، يحرر الذات ويعيد تركيبها. إن احترام الذات هو اليوم بمثابة تعريف للخير : ألا يُعتبر أى شخص أو جماعة أداة في خدمة القوة أو اللذة. الشر ليس هو اللاشخصية المفترضة للتراث، لأن هذا التراث يخطط الفردي بالعام. انه السلطة التي تختزل الذات الى مجرد عنصر انساني يدخل في انتاج الثروة، أو القوة أو المعلومات. لاتعطى الأخلاق الحديثة قيمة للعقل باعتباره أداة لتوافق الانسان مع نظام العالم، ولكن تعطى قيمة للحرية باعتبارها وسيلة تجعل الانسان غاية وليس وسيلة. الشر إذن ينتجه الانسان على عكس الشقاء الذي ينتج من عجز الانسان أمام الموت والمرض والانفصال.

لم نعد نفهم الصعوبة التي واجهها الفكر الدينى فى فهم الشر فى الخليقة التى ابدعها إله خير بلا حدود، لم تعد هناك إرادة سامية ولا غائية للخلق، هناك فقط افعال انسانية تبني الانسان وأخرى تدمره. وهى أفعال حقا، حتى وإن بدت أو تظاهرت بأنها منطق داخلى لنظم اقتصادية وسياسية. الشر هو تسلط الانسان على الانسان وتحويله الى موضوع ما أو الى مجرد معادله المالى. وبين منطق الخير ومنطق الشر هناك سلوكيات محايدة وتقنية وروتينية، ولكن الخير والشر يظهران عندما يكون سلوكا ما اجتماعيا أى عندما يستهدف تعديل سلوكيات فاعل اخر وبالتالي يستهدف زيادة او تقليل قدرته على الفعل المستقل .

انفصال محكوم

تبرز أزمة الحداثة الانفصال بين من كانوا متحدين لآمد طويل : الانسان والكون، الكلمات والاشياء، الرغبة والتكنيك. لا فائدة من العودة الى الوراء، بحثاً عن مبدأ للوحدة

المطلقة. البعض يريد ان يكون العالم من جديد من صنع إله مهندس، والآخرين يريدون أن تعيد اللذة المحررة الانسان الى الطبيعة. ولكن لاشئ يمكنه أن يمنع استمرار انحراف القارات، وأن يمنع عالم الانتاج والسلطة من الابتعاد عن الفرد وعن حاجاته وخياله. ولايكفى الرغبة فى التوفيق بين الجميع عبر تسامح خالص يخفض باستمرار من مستوى القواعد الملزمة والممنوعات حتى تستوعب مزيداً من التعقد. لأن هذا الحل المغرى يختزل الحياة الاجتماعية الى مجتمع أسواق تراقبه بعناية الدولة الحارسة الليلية على الليبرالية القديمة. وبين البحث عن الواحد وقبول الانفراط التام، وبين العودة إلى التنوير وما بعد الحداثية ذاتية التدمير ، ألا توجد مناطق وسيطة يمكن أن يقيم فيها الفكر والفعل الجماعى والأخلاق؟ إذا كان لا بد من قياس الحداثة ، فبدرجة تحقيق الذات المقبولة فى مجتمع ، يتم هذا القياس. وذلك لأن تحقيق الذات هذا لا يمكن فصله عن التوازن غير المستقر بين توجهين متعارضين ومتكاملين : فمن جانب هناك العقلنة التى بواسطتها يكون الإنسان سيداً ومسيطرأ على الطبيعة وعلى نفسه، ومن جانب آخر هناك الهويات الشخصية والجماعية التى تصمد أمام السلطات؛ تلك السلطات التى تضع العقلنة موضع التنفيذ. إن التقنية الخالقة للتغيير تحرر الذات من قانون القبيلة كما تحفظها الذاكرة ضد التحزب. فى كل مرة تنفصل هذه القوى الثلاث عن بعضها وخصوصا عندما تزعم إحداها الهيمنة ، يدخل العالم فى أزمة ، فى مرض مميت. الأصولية الثقافية مميتة وكذلك الصلف التكنوقراطى والعسكرى ، كما هى مميتة أيضاً نرجسية ذات محرومة من أداة كالذاكرة.

أحد أكبر حكايات الحداثة تظهر العلمنة وهى تنتقل بنا من عالم الألهة الساحر إلى عالم الأشياء المنزوع عنه السحر ولكنه قابل للمعرفة. هذه رواية تقريبا مضادة للرواية التى أرويها هنا : القطيعة مع العالم المقدس والتى تبتعد بالطبيعة وقوانينها عن الذات وعن تأكيد حريتها؛ هى قطيعة لو تركناها تصل إلى مداها، لأدت إلى قطيعة للداخل مع الخارج، وإلى قطيعة بين مجتمع متطابق مع السوق وبين فاعلين إجتماعيين مختزلين إلى إندفاعات أو إلى تقاليد. وهو ما يلغى أى مبدأ للتدخل الاجتماعى ضد

العنف وعدم المساواة والظلم والتمييز. ينبغي إعادة بناء تمثيل عام للحياة الاجتماعية وللإنسان من أجل تأسيس سياسة ، و إتاحة السبل لمقاومة تلك البلبلة المفرطة للسلطة المطلقة. هذا التمثيل لا يمكن أن يقام إلا على فكرة أن الذات تولد وتنمو على أطلال الأنا المتموضع بواسطة أصحاب السلطة، والمتحول أيضا إلى ماهية. ذات هي رغبة الفرد في أن يصبح منتجا وليس فقط مستهلكا لخبراته الفردية ولبنيته الاجتماعية. إن ما يحدد الحداثة على أفضل وجه ليس هو تقدم التقنيات ولا النزعة الفردية المتزايدة للمستهلكين ، ولكن ما يحددها هو اقتضاء الحرية وضرورة الدفاع عنها ضد كل ما يحول الإنسان لأداة ، أو موضوع أو إلى غريب مطلق.

الفصل الثانى

الذات كحركة اجتماعية

الاحتجاج

ليست الذات تأملاً للماهية وللخبرة المعاشة: بل هى تتعارض مع ما حاولنا تسميته أولاً أنواراً اجتماعية وإن كان يعنى فى واقع الامر بناء للحياة الاجتماعية والشخصية بواسطة مراكز السلطة التى تخلق مستهلكين ومنتخبين وجمهور بقدر ما يلبون مطالب اجتماعية وثقافية. والفرد، إذا لم يشكل نفسه كذات، فإنه يُشكّل كماهية بواسطة مراكز السلطة التى تحدد هذه الانوار وتصدق عليها. وهذه الأنوار ليست محايدة وتقنية، ولا تتشكل بواسطة التقسيم التقنى للعمل والاختلاف الوظيفى للمؤسسات المتنوعة. إن من يستهلكون المجتمع بدلاً من أن ينتجون أو يغيرونه يخضعون لمن يديرون الاقتصاد والسياسة والاعلام. وتميل لغة الدعاية والاعلام إلى أن تخفى باستمرار هذا الصراع الأساسى، وتفرض فكرة أن تنظيم المجتمع يلبي "حاجات" فى حين أنه يبنى حاجات، ليست اصطناعية بالتأكيد، ولكنها موافقة لمصالح السلطة.

الفرد لا يصبح ذاتاً، منتزِعاً نفسه من الماهية، إلا إذا عارض منطق السيطرة الاجتماعية باسم منطق الحرية، والانتاج الحر للذات. إنه رفض لصورة اصطناعية عن الحياة الاجتماعية كآلة أو كنظام، ونقد لا يتم باسم مبادئ متعالية كالله أو العقل أو التاريخ ولكن باسم الانتاج الحر للذات الذى يؤدى لتأكيد الذات وحقوقها فى عالم تحول الانسان فيه إلى موضوع. هذا الموقف لا يبتعد فقط عن العقلانية التى تنتزع الفرد من موقفه الخاص لتطابق بينه وبين ما هو كونى؛ بل هو بعيد أيضاً عن ليبرالية ايسيا برلين وريتشارد رورتى التى تقوم على قبول تعددية القيم. ولا يمكن رفض التحكيم بين الحرية والمساواة، بين الابداع الشخصى والعدالة الاجتماعية، إلا إذا حددنا الفرد بخصوصيته. ولكن هذا التعريف لا يلائم إلا العباقرة ولا يرضى عالم الاجتماع. فعالم الاجتماع يعرف جيداً السمة الوهمية لهذه النزعة الفردية فى مجتمع الجماهير حيث يتم

صياغة جزء كبير من السلوك بواسطة مراكز القرار القادرة على توقع نوق وطلب ومشتريات السكان. لدرجة ان هذه الفردية لا معنى لها إلا أنها تحمى صفوة تحوز مصادر وفيرة تتيح لها إمكانيات كبيرة فى الاختيار.

ولكن عندما أتحدث عن الذات، أى عن بناء الفرد كفاعل، يكون من المستحيل فصل الفرد عن موقفه الاجتماعى. ينبغى لنا على العكس أن نواجه الفرد كمستهلك للقواعد والمؤسسات الاجتماعية بالفرد كمنتج لهذه الحياة الاجتماعية وتغيراتها. من الممكن على مستوى إستهلاك المجتمع، فى الهيئات والمجموعات المترفة ألا يتم أى تحكيم بين الحرية والمساواة، ولكن فى أغلب الأحوال يفرض هذا التحكيم نفسه : إما أن تخفض الحكومة الضرائب وإما أن تطور الخدمات العامة الاجتماعية. ليس هناك بالتاكيد ما يلزم باتخاذ اختيارات متطرفة لكى على أية حال ينبغى أن يكون هناك إختيار، أى بحث عن الانصاف والعدل حسب التعريف الذى حدده جون رولز John Rawls أفضل تحديد. على مستوى انتاج المجتمع وأيضاً على مستوى الدفاع عن الذات والعقلانية لا يمكن أن يتم الجمع بينهم، كما كان الحال فى المجتمع الصناعى، إلا بخلق حلف بينهم ضد إعادة انتاج الامتيازات وضد الجانب اللاعقلانى الموجود فى كل تصرفات السلطة. ينبغى تحديد الذات فى اطار مفهوم الفاعل والصراع الاجتماعيين: فالذات ليست مبدأً يخلق فوق المجتمع ولا هى الفرد فى خصوصيته، إنها نمط بناء الخبرة الاجتماعية كما هى أيضاً العقلانية الأداة.

وقد أشرت إلى ذلك بتحليل تحقيق الذات كحركة ثقافية مثلها مثل العقلنة. وبينت كيف تتحرك المجتمعات الحديثة بحركتين متعارضتين كما كان الاصلاح والنهضة. فمن جانب خلق نظرة طبيعية، مادية، تنويرية للانسان والعالم؛ ومن جانب آخر إختراع الذاتية التى تدعم أخلاق الاعتقاد المتعارضة مع الأخلاق التقليدية والدينية، أى أخلاق التأمل والتقليد. ينبغى الآن التساؤل عما إذا كانت هذه الحركة الثقافية، وإذا كان هذا الإختيار لصالح أحد أقطاب الثقافة الحديثة هو أيضاً حركة اجتماعية، أى حركة متحققة بواسطة

فاعلين محددين اجتماعياً لا يقاومون إتجاهاً ثقافياً فحسب، ولكن أيضاً طائفة اجتماعية خاصة.

الذات والطبقات الاجتماعية.

هذه هي الفكرة التي نتجه نحوها تأملاتنا، فالذات لا توجد إلا كحركة اجتماعية، وإلا إحتجاجاً على منطق النظام، سواء اتخذ هذا المنطق الشكل النفعي أو البحث ببساطة عن الاندماج الاجتماعي.

تؤدي العقلنة إلى تقوية منطق الاندماج الاجتماعي وبالتالي تؤدي إلى سيطرة كاملة شيئاً فشيئاً للسلطة المستتيرة على أعضاء المجتمع الذين يكونون بهذا المعنى رعايا الأمير الجديد أو للقوى الحاكمة الجديدة كما يعتقد ميشيل فوكو. حينئذ ينفصل تحقيق الذات عن العقلنة مخاطراً بقطع علاقة لا تكون بدونها حادثة. إن التاريخ المركزي لهذه الحادثة هو تاريخ تحول كفاحات الذات ضد النظام المقدس. من كفاح تحالفت في خضمه مع العقلانية إلى كفاح آخر: كفاح الذات ضد النماذج المرشدة، والذي تستدعي الذات خلاله صورها القديمة التي بلورتها الأديان التوحيدية لتحمي نفسها ضد الصلف الشمولي التي يأسر لبه إدعاء تغيير المجتمع والانسان تغييراً شاملاً.

كان تحقيق الذات ولأمد طويل في يد قادة المجتمع. في البدء كان في يد رجال الدين، وذلك على الأقل في المجتمعات التي سادتها المسيحية، بما أن المسيح هو الذي أدى إلى نزول الذات من السماء إلى الأرض والذي أدخل الفصل بين ما هو روجي وما هو زمني في الحياة الاجتماعية. وهذا الفصل هو حجر الأساس الذي بنيت عليه حداثتنا. وهو ما لم يمنع الكنيسة، أو الكنائس، عبر القرون أن تقوم بجهد مضاد فتلحق الفعل الانساني بالقانون الالهي كما يفسره رجال الدين، وهنا ما جعل منهم الأعداء الرئيسيين للعقلانية التحديثية وحكم عليهم بالأفول في اللحظة التي انتصرت فيها العلمنة. ثم بعد ذلك صار تحقيق الذات في يد البرجوازية وهو إسم يستخدم لتعيين فاعلي استقلال

المجتمع المدني فى مواجهة الدولة، أو بشكل أكثر تحديداً هم فاعلو الفصل الوظيفى للاقتصاد عن السياسة وعن الدين وعن العائلة. وهذا هو الحدث الاساسى الذى يتحدد به "التحول الكبير" الذى أطلق سراح الحداثة. إذا كان البرجوازى هو الوجه المركزى للتحديث الغربى فذلك لأنه كان هو عامل العقلنة وعامل تحديث الذات فى نفس الوقت. وهو فى هذا مختلف عن الرأسمالى كما حدده ماكس فيبر والذى كانت تعتمد قوته على استبعاد أى إحالة للذات باسم خضوعه للقدر المسبق، الذى فتح صفحة جديدة مطيحاً بكل المظاهر والمشاعر تاركا المجال مفتوحاً للعمل وللانتاج والربح.

لقد لعب الرأسمالى دوراً هاماً ومؤثراً لدرجة أن البرجوازى بدا وكأنه معارض له، باعتبار أنه انسان الحياة الخاصة والوعى والنظرة والعائلة والتقوى. لقد قدم إدموند لايتس صورة للطهرى puritain فى المستعمرات الأمريكية لانجلترا الجديدة وبنسلفانيا، أكثر ثراء من الصورة التى قدمها لنا ماكس فيبر. هؤلاء الطهريين لا يرفضون الحياة الخاصة، وفى قلبها الجنس، بل على العكس كان قساوستهم من أوائل علماء الجنس، فوفقوا بين البحث عن اللذة والسعادة وبين احترام القانون الالهى مشيدين بالاستقرار أى بالوفاء بين الزوجين والسعادة الاسرية مع بقاعهم مبتعدين عن فظاظة وصية القديس بولس باستخدام خيرات العالم وكأنها لن تنفذ.

برجوازيو النصف الثانى من القرن التاسع عشر، كما وصفهم جيداً فيليب آرياس Philippe Aris واليزابيث بادانثير Elisabeth Badinter ، يعطون للمشاعر وخصوصا العلاقة مع الطفل أهمية جديدة، وفى نفس الوقت احتلت النساء موقعاً مهماً فى الأسرة والمجتمع لن يفقدته إلا يوم إنتصار الرأسمالية العقلانية إبان الثورة الصناعية. إن البرجوازية وليست الرأسمالية هى التى دافعت عن الملكية الخاصة وحقوق الانسان جاعلة من حق الملكية أهم هذه الحقوق. وهذا الجانب السلبي للروح البرجوازى، أهمية الميراث وتخفيف العمل المترتب عليه ، قد أستتكر بشدة وعن حق لدرجة جعلتنا ننسى جانبه الايجابى، وهو الحد الذى كان يضعه فى وجه السيطرة السياسية والاجتماعية.

أسست البرجوازية في صراعها مع الملكية المطلقة والفردية الحديثة وربطتها بنضال إجتماعى ضد النظام القائم وأسسها الدينية. هناك استمرارية كبرى بين الدفاع عن الملكية الذى قام به لوك والمؤسسين الفرنسيين والحركة العمالية التى ستصبح بعد قرن المدافع عن المهنة وعن العمل - اللذين يعتبران مثلهم مثل الملكية مبادئ للصمود فى وجه السلطة القائمة. العودة إلى الذات هى فى جانب منها عودة إلى الروح البرجوازية وفى نفس الوقت عودة إلى الحركة العمالية ضد روح الشمول، التى سادت خلال قرنين من الزمان من الثورة الفرنسية إلى الثورة السوفيتية. إن تجميع أعداء فكر الشمول هو اليوم أكثر أهمية من العودة إلى إعادة إنتاج الخطب التى كانت تدافع عن عالم العمال ضد البرجوازية، جاعلة من عالم العمال هذا ومن ممارسته تجسيدا للشمول التاريخى وهو ما يلزم باستبعاد المفاهيم الغامضة مثل البراكسيس والذى وجدناه لدى لوكاتش مرتبطاً ارتباطاً وثيقاً بمفهوم الشمول فى حين أن سارتر فى كتاب "نقد العقل الجدلى" (n.1 ، p 30) يعطية مدلولاً أقرب للأفكار التى يدافع عنها كتابى هذا، فهو يقول: "الوعى الطبقي ليس هو التناقض المعاش البسيط الذى يميز الطبقة المعنية موضوعياً، إنه هذا التناقض وقد تجاوزه البراكسيس وبالتالي فهو محفوظ ومنفى فى الوقت نفسه". هذا البراكسيس هو فعل للتحرر وليس للتماهى مع التاريخ. فى حين أنه منذ الثورة الفرنسية كما يوضح إريك فايل Eric Weil "الممارسة الاخلاقية إلى ممارسة تاريخية، وذات هذه الممارسة ليس هو الفرد ولكن الانسانية". ومن البرجوازية الى الحركة العمالية كحركة اجتماعية، يتم الدفاع عن الفرد موجوداً فى علاقات اجتماعية ملموسة وليس عن الانسانية كوجه اجتماعى زائف للشمول، دفاع ضد ما يُطلق عليه المجتمع. لأن هذا المجتمع يفرض الكثير من العوائق فى وجه المحتجين والمقهورين، فى العادة باسم المنفعة الاجتماعية والصراع ضد أعدائه الخارجيين والداخليين.

وعندما تكتمل هذه الحداثة التى فى طور التكوين proto-modernite وعندما تنتصر النماذج العقلانية فى السياسة مع الثورة الفرنسية وفى الاقتصاد مع التصنيع

البريطاني؛ فى هذه الحالة تتحطم الوحدة الموجودة بين تحقيق الذات والعقلنة. وتصبح الثقافة مثلها مثل المجتمع ثنائية القطب. ورغم ذلك فقد تحولت البرجوازية إلى رأسماليين قبل أن تصبح فيما بعد عالم الكوادر المهنية الواسع، وتتسحب الاحالة إلى الذات من هذا العالم السائد الذى لا يؤمن إلا بالربح وبالنظام الاجتماعى. والذى يصبح طبقة موجهة ومسيطر، وتتجه الذات الى عالم المقهورين فى المجتمع الحديث والذى سمي فيما بعد الطبقة العاملة. ويشير كتاب دنيس بولو Denis Poulot تحت عنوان "الجليل" (Le Sublime 1869) إلى حضورها فى الورش. بالنسبة لهذا المستثمر الصغير يكون الأجلاء، الذين يحدد أنماطهم مبتدأً بالجليل البسيط والجليل الحقيقى إلى أبناء الله إلى من جل جلاله ، هم العمال المؤهلون والذى يتسمون بأنهم محتجون ومدمنو كحول، عنيفون وثوريون ومتفانون وهو ما يتفق مع الحكم المقدم فى هذا الكتاب تقريباً. تتعارض الذات مع الأنوار الاجتماعية سواء بالدعوة إلى الحياة وإلى الجنس أو بالدعوة إلى حياة الجماعة. وما يجب أن نضيفه الآن هو أن إتصال وجهى الذات يتم بواسطة وعبر النضال ضد الخصم الاجتماعى الذى يتطابق مع التقدم والعقلنة. وقد بينت فى كتابى "الوعى العمالى" ثم بعد ذلك فى كتاب "الحركة العمالية" (مع ميشيل فيفيوركا Michel Wieviorka وفرانسوا دوبيه Francois Dubet) أن الحركة العمالية، أى حضور حركة إجتماعية فى قلب العمل العمالى، تتحدد بالدافع عن الاستقلال العمالى ضد تنظيم العمل الذى سرعان ما سمي ترشيد. ولا تكتفى الحركة العمالية بالمطالبة بشروط عمل أفضل. ولا حتى بالمطالبة فى حقها فى التفاوض وفى توقيع إتفاقيات جماعية؛ انها تتادى بالدفاع عن الذات العمالية فى مواجهة الترشيده، الذى لاترفضه ولكن ترفض ان تراه متطابقاً مع مصالح أرباب العمل.

ومنذ نهاية القرن التاسع عشر، لو تحدثنا عن العدالة الاجتماعية فذلك للإشارة إلى ضرورة التوفيق بين مبدأى الحداثة: الترشيده و"كرامة" العمال. صحيح أن الحركة العمالية، إذا ما تم تحديدها بهذه الصيغة، تكون ملحقه بالعمل السياسى وبالأحزاب الاشتراكية ، أو الاشتراكية الديمقراطية أو العمالية أو الشيوعية. ولكن هذا الانتصار

للعمل السياسى ليس إلا حيلة من حيل الترشييد لفرض منطقته على الحركة العمالية، ولاختزالها إلى مجرد "حركة جماهير" يقودها حزب يتحول بسهولة إلى سلطة ديكتاتورية ويلقى بمناضلى الحركة العمالية فى السجون. فقط فى فترات قصيرة وعابرة توصلت الحركة العمالية لأن يُقر لها باستقلالها عن الأحزاب السياسية : أثناء فترة العمل النقابى المباشر فى بداية القرن أولاً، ثم مؤخراً فى عشية أفولها الكبير فى لحظة الخريف الايطالى الساخن والاضرابات جاءت فى فرنسا بعد حركة مايو ١٩٦٨ بوقت قليل.

هذا النوع من الحركة العمالية والذي لاقى هجوماً شديداً من القادة السياسيين من اليمين ومن اليسار على السواء ينبغى إعتباره أول عمل جماعى يحول تحقيق الذات من توجه ثقافى إلى حركة إجتماعية. وقد قطعت الحركة العمالية بهذا صلتها مع النضال ضد التراث وصراع العقل ضد الدين واقامت كفاحها فى داخل الحداثة، وأظهرت الصراعات التى تعمل بين البحث عن الانتاجية وبين إحترام حقوق العمال الذين يعاملون كموضوعات وكمجرد قوة عمل.

إذا كان فكر سيرج مالىه Serge Mallet قد حظى بتأثير كبير فى الستينيات فذلك لأن فكرة "الطبقة العاملة الجديدة" كانت تحمل فى داخلها الامل الاساسى للحركة العمالية لأن تصبح مستقلة عن الأحزاب السياسية وتصبح وحدها السيدة، والمسؤلة عن عملها خلافاً للمفهوم اللينينى. من الصعب أن نفهم اليوم ما كانت عليه الحركة العاملة بما أن النقابية لاتحتفظ بقوة ويتأثير إلا فى المناطق التى نجحت فيها لأن تتحول إلى قوة سياسية كما هو الحال فى السويد وفى المانيا. كانت الحركة العمالية أبعد ما تكون عن شريك إجتماعى ليس لأنها كانت ثورية - وهو مالم يكن حقيقياً فى كل مكان، وفى المكان الذى كانت فيه ثورية كانت أكثر تبعية للأحزاب السياسية - ولكن لأنها كانت تميل إلى إخراج العمال من نظام العمل، وإلى الدفاع عنهم ضد منطق الانتاجية ، وإلى تفسير جهودهم العفوية للصمود فى وجه قواعد تنظيم للعمل يدعى انه علمى، وذلك ببناء تنظيم غير تقليدى للانتاج وبإقامة سلطة بديلة فى الورش والمؤسسات.

هل يجب الذهاب إلى آخر هذا التحليل والوصول إلى اجراء تطابق بين العقلنة والرأسمالية وبين تحقيق الذات والحركة العمالية؟ لا، لأن حركة إجتماعية هي جهد لفاعل جماعى من أجل حيازة "قيم" التوجهات الثقافية لمجتمع ما، بالوقوف فى وجه خصم يرتبط بعلاقات مع السلطة. ولأن القرينين، العقلنة وتحقيق الذات، يحددان التوجهات الثقافية للمجتمع الحديث، فهما يحددان بالتالى هدف الصراع بين ما نسميه فى المجتمع الصناعى الطبقات الاجتماعية، المحددة بموقعها فى العلاقات الاجتماعية لدرجة تجعل من الصناعيين والآجرا، ومن الحركة العمالية والحركة الرأسمالية، يرجعان إلى نفس القيم الثقافية، إلى العقلنة وتحقيق الذات مع استمرارهما فى قتال بعضهما. وتظل الحركة العمالية، وبالأخص الفكر الاشتراكى، تاريخيين وطبيعيين بشكل واضح مثل الصناعيين ورجال المال، دعاة الداروينية الاجتماعية والذين يعتقدون أن العالم، بفضل التكنولوجيا والاستثمار، يتجه إلى الوفرة والسعادة. وعلى الوجه الآخر نجد لدى الطرفين نفس الإيمان بالعمل والمجهود والقدرة على التوفير ووضع المشاريع وهو ما يسميه علماء الاجتماع "نموذج المكافأة المؤجلة pattern gratification differed" الذى باسمه يفرض العمال وأرباب العمل وعلى أولادهم تعليماً طهيراً وأخلاقاً متشددة؛ بالنسبة للعمال يكون التحكم فى الذات ضرورياً لعدم الوقوع فى إدمان الكحول والتوغل فى البؤس ولأرباب العمل يكون ضرورياً للتوفير والاستثمار.

من الطبقات إلى الحركات

هذا المفهوم للحركات الاجتماعية المطبق هنا على المجتمع الصناعى مقطوع الصلة بالمفهوم الماركسى عن صراع الطبقات حتى وإن حل كلا المفهومين نفس الظواهر التاريخية. لأن المفهوم الماركسى يطابق بين الفعل العمالى والطبيعة والتطور التاريخى ويطابق بين الرأسمالية وبناء عالم إصطناعى لاعقلى من الفائدة المقنعة بالمقولات شبه الوضعية للاقتصاد السياسى وبضباب الفكر الدينى. والانتصار الضرورى للحركة العمالية سيكون تحقيقاً ليس للروح، كما اعتقد هيجل فى الحداثة، ولكن للطبيعة البشرية ولهذا فالوعى الطبقي أو الطبقة لذاتها ليست على الاطلاق بالنسبة

للماركسيين طبقة عاملة واعية بذاتها ولكنها تمثل الوضع العمالي الذي يفسره المثقفون الثوريون كعلامة على تناقضات الرأسمالية وعلى تجاوزها الضروري والممكن.

عندما أتحدث، فيما يخص الحركة العمالية، عن حركة اجتماعية بدلا من وعي طبقي فذلك لأتفادى أى خلط مع الفكر الماركسى. أنا أرجع إلى فاعل جمعى توجهه الأساسى هو الدفاع عن الذات والكفاح من أجل الحقوق وكرامة العمال. ولهذا طالما تحدث الفكر الثورى عن البروليتاريا، أى أنه قام بتعريف العمال بما لا يملكون : الملكية، فى حين أن مؤرخى وعلماء اجتماع الحركة العمالية مثلى أنا، قد أظهروا أن هذه الحركة بدأت على أكتاف العمال المؤهلين المدافعين عن العمل وعن الاستقلال العمالى. وكان نشاطهم إيجابياً أكثر منه سلبياً، يستهدف ابتكار مجتمع جديد ولا يكتفى فقط بنقد الرأسمالية وتنظيم العمل. إن حركة اجتماعية هى صراع اجتماعى وفى نفس الوقت مشروع ثقافى. هذا صحيح سواء كانت حركة للقادة أو للمقودين. إنها تستهدف دائما تحقيق القيم الثقافية وفى الوقت نفسه تستهدف الانتصار على خصم اجتماعى. إن كفاحاً مطالبياً ليس حركة اجتماعية فى حد ذاته. يمكنه أن يكون دفاعاً طائفاً، أو استخداماً لشروط سوق العمل أو حتى ضغطاً سياسياً. لى يصبح حركة اجتماعية عليه أن يتحدث باسم قيم المجتمع الصناعى ويجعل من نفسه المدافع عن هذا المجتمع ضد خصومه. ليس هناك حركة اجتماعية فى مجتمع صناعى إذا ما عارض العمال التصنيع وحطموا الآلات وقاوموا التقنيات الجديدة حتى ولو كان الأمر لأسباب هامة ومشروعة كأن تهدد هذه التقنيات الجديدة إحتفاظهم بعملهم، ليس هناك حركة اجتماعية إذا لم يكن النشاط النقابى موجها لتدعيم الاستقلال العمالى وإذا لم يقاتل هذا الحكم الفظ لأرباب العمل التaylorيين : نحن لا ندفع لكم أجراً كى تفكروا.

ألا يتعلق الامر بإضافة مضمون أخلاقى لفعل جماعى يكون سبب وجوده أساساً إقتصادياً. يتعارض مفهوم الحركة الاجتماعية بنفس القوة مع المفهوم التاريخى والمفهوم النفعى للعمل الجماعى. والفكرة المركزية التى تقتضى التحليل هنا هى أن

المجتمع — محددًا كجماعة تنفذ مستوى معين من الفاعلية التاريخية اى من الحداثة — ليس جسداً من القيم يتغلغل فى كل مظاهر الحياة الاجتماعية، وليس فى المقابل حرباً أهلية تنشب لحيازة وسائل تحكم المجتمع نفسه، سواء كانت هذه الوسائل تخص الانتاج أو المعرفة أو الاخلاق. يؤدى المجتمع الحديث عمله حول الصراع بين القادة والمقودين وعلى التنفيذ الاجتماعى للعقلنة وتحقيق الذات. ولايجب فصل القيم الثقافية عن الصراع الاجتماعى.

ويجب أن يخضع التحليل للأيديولوجيات المتعارضة، أيديولوجية سادة المجتمع الذى يخفون سلطتهم متماهين مع الحداثة؛ ومظهرين خصومهم كعقبة ضد التقدم، وايدىولوجية العمال التابعين، والذين، لافتقارهم للسلطة يتماهون بانتاج يخضعون له، يعلنون أنهم حاملين لمبدأ حى للحداثة، وهو العمل؛ باسم مفهوم حيوى يضع خلق العمل المنتج فى مواجهة الإهدار الذى يمثله النظام الرأسمالى، المولد للازمات والبطالة والبلوس.

تتمزق كل الحركات الاجتماعية بعد بدايتها لأن أيا منها لا يستطيع أن يجمع بين خدمة العقلنة وخدمة تحقيق الذات. إذا كان كتاب "الامل" لأندريه مالرو عمل هام فى القرن العشرين فذلك لان هذا الكتاب مبنى على تناقضات الفعل الجماعى الممزق بين روح الحزب، الفعالة ولكن حاملة لشمولية خطيرة بنفس القدر الذى عليه الشمولية المضادة التى تحاربها، وبين التمرد الفوضوى المشحون بالاحتجاج الاخلاقى ولكنه يتفكك فى صراعاته الداخلية وعجزه عن أن ينظم نفسه. يمكننا أن نقول ان فكرة الشمول قد صاحبت دائما الطبقات الصاعدة فى حين أن فكرة الذات تمثل نفحة الحرارة فى شتاء الفعل التاريخى. فى فترة الحرب الغريبة كتب جورج فريدمان مؤلف كتاب "أزمة التقدم" الذى كان رفيق الطريق للحزب الشيوعى، فى سنة ١٩٤٠ فى كتابه "يوميات الحرب"، أنه لا يكفى أن تكون هناك قضية إجتماعية عادلة كى يكون هناك مقاومة، بل ينبغى أن تكون هناك ايضا خصائص أخلاقية. وهى الفكرة التى عبر عنها تقريباً فى

نفس اللحظة هوركهايمر المنفى من المانيا. إن وعى بعض الافراد الذين يشعرون أنهم مسؤولون عن حرية الآخرين يتلون بألوان المستقبل فى لحظات الوحدة والاستسلام لما يبدو قادماً لا محالة. وهو ما يبتعد عن النزعة الاخلاقية ويؤدى إلى كفاح شخصى ضد نظام ظالم. إن النماذج السياسية التى بناها قرننا توحى بالفزع أكثر مما توحى بالامل؛ نحن محتاجون لنظرية عن الحرية وعن التحرر من المسؤولية أكثر من إحتياجنا لنظرية عن الالتزام، تتحرف فى الغالب إلى نوع من عسكرة العمل الجماعى، فى زمن كان علم الحركة العمالية يرفرف غالباً على قوات لقمع الحركات الشعبية أكثر من وجوده فى صفوف العمال المضربين. كلما كان الظرف مظلماً كلما كان الانطواء على الدفاع عن الذات أكثر بروزاً؛ وكلما كان لنضالات التحرير حظ أكثر فى الانتصار، كلما عاد ظهور التطابق مع التاريخ أو مع العقل. ولكن على التحليل أن لا يفصل الالتزام عن التحرر من المسؤولية وبالأحرى لا يعارض بينهما، وكذلك لا يفصل الامل الجماعى عن الدفاع عن الذات، والتحديث عن الاحتجاج.

الدفاع عن الذات، أو تحقيق الذات مشحون بالحركة الاجتماعية، بما أن التوجهات الثقافية لمجتمع مالىست فوق المجتمع كالشمس فى السماء، اذ هى لا تتفصل عن الشكل الاجتماعى الذى يصبغها بصبغة الصراعات الاجتماعية ، شكل يتراوح بين التطابق المطلق مع مصالح الطبقة الحاكمة والاستقلال الشديد. تحقيق الذات يعارض تطابق العقلنة مع مصالح الطبقة الحاكمة. إذا كانت الذات حركة اجتماعية فهذا باسم انتقادات الحداثة التى اطلقها نيتشه وفرويد للتشديد على أنه كلما كان المجتمع حديثاً كلما كان مختزلاً الى نموذج ترشيدي، والى نظام تقنيات وأتوات أى بنية تقنية وهو ما يجعل المناداة بفكرة الذات أمر لاغنى عنه من أجل التخلص من الأسر فيما كان يسميه ماكس فيبر "بالقفص الحديدى"، للمجتمع الحديث.

هذا التحليل بالغ القوة ويهاجم بطريقة فعالة الاوهام المتحيزة للتقنية والتحكم، ولذا ينبغى الدفاع عنه، ولكن لاينبغى له أن يؤدى الى الفكرة التى تبدو شبيهة، ولكن لايمكن

قبولها، وهي فكرة أن المجتمع الحديث ليس الا التعبير المرشد أو الايديولوجى عن مصالح النظام نفسه أو عن مصالح قاداته. إن الدعوة للذات دعوة احتجاجية وإن كانت لا تقتصر على ذلك، ولكن لايجوز الخلط بينها، لهذا السبب، وبين خلق ثقافات مضادة أو مجتمعات مصغرة والتي يسميها الألمان " البدائل " Alternatives . مثل هذه الاجابات على الحداثة لا أهمية فعلية لها إلا فى وضع من النوع الشمولى حيث يسود عدم التسامح مع كل ما لايمثل للمنطق المركزى للنظام ولمصالح قاداته.

إن الدفاع عن الذات ليس تابعاً للعقلنة وليس متنافراً معها . إنه لا يحلم بالعودة الى نظام طبيعى وليس محركاً لكل المؤسسات. ينبغى رفض الفكر الاخلاقى بنفس القوة التى نرفض بها فكراً نقدياً محضاً. فكلاهما غير قادر على التعرف على ازواجية المبادئ التى تكون الحداثة. وهو ما لا يمنع من الاقرار بأن الدفاع عن الذات، هو قبل كل شئ، التصادم مع الوضعية ومع النزعة التقنية للمجتمع الحديث، ومع أجهزة الادارة والسيطرة، بحيث ينبغى استدعاء المضمون الاحتجاجى لفكرة الذات بقوة اكبر من التى يستدعى بها المضمون التحديثى لفكرة العقلنة.

إن فكرة الذات باستمرار مشحونة بالاحتجاج، لأن المجتمع الحديث يميل لأن ينكر ابداعيتها الخاصة وصراعاتها الداخلية ويقدم نفسه كنظام مضبوط آلياً، متخلصاً بالتالى من الفاعلين الاجتماعيين وصراعاتهم. كما كان للاتجاه الشيوقراطى او اتجاه حكم رجال الدين دائماً فى المجتمعات المسيحية أثراً اكبر من اثر الدعوة الى الايمان أى الى انفصال الزمنى عن الروحى، كانت مفاهيم التكنوقراطية والليبرالية فى المجتمع الحديث أكثر ارتباطاً بالسلطة القائمة من الدعوة الى حرية الذات. ولهذا السبب كانت فكرة الذات بالاساس احتجاجية وهو ما يسمح لنا بالدفاع عن العنوان الذى وضع لهذا الفصل "الذات كحركة اجتماعية". لا يمكن لفكرة الذات أن تحتل موقعاً متطرفاً وذلك لأن اهميتها غاية فى المركزية ولكن لا يمكن لها ايضاً أن تكون فى مركز التحليل بما أنها ليست وحدها ولكن يوجد معها الثنائى الذى تشكله مع فكرة العقلنة التى تحدد

الاتجاهات الثقافية للمجتمع الحديث. كما تميل فكرة العقلنة في الغالب الى الجمع بين المركزية الثقافية والاشتراك في ادارة النظام القائم، تميل فكرة الذات لأن تحتل مكانا على نفس الدرجة من المركزية من الناحية الثقافية، ولكنها مرتبطة بمضمون اجتماعي احتجاجي. والعقلنة مرتبطة بشدة بعمل القوى الحاكمة في حين أن تحقيق الذات كان يشكل في الغالب الموضوع الرئيسي للحركة الاجتماعية للفئات المضطهدة.

إن فكرة الطبقة الاجتماعية ارتبطت بفكر تاريخي. واقامت التعارض بين السادة والمسودين على أنقاض التعارض بين المجتمع والطبيعة اوالتعارض بين الماضي والمستقبل. أما اليوم فعلى العكس، ينبغي تغيير المفاهيم التي حددت الفاعلين بوضع غير اجتماعي واحلال مفاهيم اخرى تحلل الازواج باعتبارها تجليات للفاعلين لعلاقاتهم الاجتماعية. ولهذا السبب فإن مصطلح الحركة الاجتماعية ينبغي أن يحل محل مصطلح الطبقة الاجتماعية كما ينبغي أن يحل تحليل الفعل محل تحليل المواقف، ولايعنى هذا ان نستبدل الرأي بالحدث والذاتي بالموضوعي، ولكن يعنى الاعتراف بأن اتجاه الفعل، وان لم يختزل الى مستوى وعي الفاعلين به فهو مرتبط به أشد الارتباط. إن حركة اجتماعية لاتعنى تيار رأى، وذلك لأنها تتاهض علاقة سلطة توجد بشكل ملموس في المؤسسات والمنظمات، ولكن هذه الحركة هي هدف التوجهات الثقافية عبر علاقات السلطة عدم المساواة. إن الوقوف على العلاقات الاجتماعية خلف المقولات غير الشخصية للتحليل الاقتصادي والاداري أو حتى خلف النظرية لهو دور هام ملقى على عاتق العلوم الاجتماعية ولاسيما منذ ماركس. هذا الدور هو اليوم أكثر اهمية منه في عصر ميلاد المجتمع الصناعي.

المجتمع المبرمج

لايمكن الدفاع عن فكرة الحداثة بون أن نربط وبقوة بين رؤية عامة وبين تحليل وضع تاريخي خاص محدد بوصفه مرحلة من مراحل الحداثة. ولكن كيف نستطيع أن نرفض النزعة التاريخية في الوقت الذي نتحدث فيه عن المجتمع مابعد الصناعي ؟ يكفي

فى هذا الصدد أن ندرک أن النزعة التاريخية هى تصور مجتمع ما لنفسه كشکل معين وكمرحلة ما من التحديث، وأن المرحلة اللاحقة التى نحن بصددھا لايمكن ادراکھا فى إطار من التنمية التاريخية. مثلھا فى ذلك مثل المرحلة السابقة على النزعة التاريخية حيث تشكلت الفلسفة السياسية التقليدية من القرن السادس عشر الى القرن الثامن عشر. كان الحديث فى القرن الثامن عشر يدور حول السعادة لا حول التقدم كما كان الأمر فى القرن التاسع عشر. فلماذا لا يكون مايميز مجتمع مابعد صناعى هو الحديث عن الذات ؟

حددت حدثتنا نفسها بالخروج من المجتمع التقليدى، مع بقائها مرتبطة بثنائية مسيحية، وهو مايلغى، كما رأينا، كل وحدة حقيقية لما أطلقنا عليه روح التنوير. بعد ذلك جاءت المجادلة الكبرى لادماج مرحلتى الحدث فى فلسفات التاريخ مثالية كانت أو مادية. لقد كانت النزعة التاريخية قبل كل شئ رغبة فى توحيد العقلنة وتحقيق الذات. واليوم هناك تصور أكثر حيوية لتاريخنا مرتبط بالوعى النقدى باخطار الانتاجية والحدثية والعودة الى ثنائية تشدد على التعارض بين العقلنة وتحقيق الذات وعلى تكاملهما بنفس القدر.

إن تعريف المجتمع مابعد الصناعى يعنى تفسيراً لأسباب هذه الثنائية الجديدة. وعلى العكس لايمكن فهم هذه الثنائية خارج الموقف التاريخى الذى تتطور داخله، والذى يتحكم فيه النمو السريع للصناعات الثقافية. وأنا أطلق تسمية المجتمع المبرمج - وهو تعبير أكثر دقة من تعبير المجتمع مابعد الصناعى الذى يحدد طابع مجتمع ما بما سبقه - على المجتمع الذى يحتل فيه الانتاج والتوزيع الضخم للثروات الثقافية مكانا هاما كانت تشغله فيما سبق الثروات المادية فى المجتمع الصناعى. فما كان تعدين ونسيج وكيمياء وكذلك صناعات كهربية والإلكترونية فى المجتمع الصناعى أصبح انتاجا وتوزيعا للمعرفة والعناية الطبية والمعلومات، وبالتالي تعليم وصحة ووسائل اعلام فى المجتمع المبرمج.

لماذا هذا الاسم ؟ لأن سلطة الادارة فى هذا المجتمع تتمثل فى التنبؤ وفى تعديل الاراء والاتجاهات والسلوك وتشكيل الشخصية والثقافة وبالتالي تتمثل فى الدخول مباشرة الى عالم "القيم" بدلا من اقتصارها على مجال المنفعة. تحل الاهمية الجديدة للصناعات الثقافية محل الاشكال التقليدية للتحكم الاجتماعى عبر آليات جديدة فى حكم البشر. ويقلب الصيغة القديمة يمكن أن نقول أن الانتقال من المجتمع الصناعى الى المجتمع المبرمج هو مجتمع الانتقال من إدارة الاشياء الى حكم البشر، وهو ما يعبر عنه جيداً التعبير الذى أطلقه فلاسفة فرانكفورت : "الصناعات الثقافية". فى المجتمع المبرمج لن تستطيع مقاومة سلطة الادارة أن تستند على فلسفة طبيعية للتاريخ، انها لا تستند الا على الدفاع عن الذات. أى موضوعات تثير العواطف فى المجتمعات الاكثر تصنيعا اكثر من التعليم والتأهيل والصحة على وجه الخصوص؟ ألا يتعلق الامر فى هذه المجالات بالدفاع عن مفهوم معين للحرية، وللقدرة على اعطاء المرء معنى لحياته ضد اجهزة تقودها ارادة ليبرالية جديدة للتكيف مع التغيير، فكيف يتم كل ذلك عبر رغبة فى التحكم الاجتماعى أو عبر حجج تكنوبيروقراطية؟

أينبغى أن تكون المستشفى على وجه الخصوص، منظمة تدار بخليط من المنطق المهنى والمالى والادارى والتعاونى، أم ينبغى أن تكون متمحورة حول المريض بشكل لايجعل منه مجرد موضوع للعلاج ولكن ذات على دراية وقادرة على التذكر وتصوير مشروعات، وتشترك فى اختيار وتطبيق طرق علاجها؟ مثل هذه المناظرة لم تؤد الى تكوين فاعلين منظمين فى نقابات للمرضى. ولكنها حاضرة فى كل الازهان وتعبر عن نفسها غالبا فى التليفزيون حيث تكون البرامج الطبية التى تحظى بالاهتمام الاكبر هى البرامج التى تعرض الشكل المباشر لموضوع مسئولية وحقوق المرضى، سواء تعلقت بقتل المريض الذى لارجاء من شفاؤه رحمة به Euthanasie أو بالمسكنات أو بالاخصاب الصناعى او بعلاج الامراض المستعصية. لقد صدم رأى العام الفرنسى عندما علم بانتقال العدوى للمرضى عن طريق نقل الدم الذى كان المسؤولون يعرفون أنه ملوث بفيروس الايدز.

وتعتبر المناظرة حول غاية المدرسة أكثر انتشاراً لدى الرأى العام ولدى المختصين انفسهم. ويعايش تلاميذ الثانوى وطلاب الجامعات التوتر القائم بين تعليم يعدهم للعمل وينقل لهم قواعد مدرسية محضة، وتعليم اخر يهتم بشخصية كل تلميذ أو طالب ويواقع الفصل الدراسي. كان تلاميذ الثانوى، الذين قاموا فى سنة 1990 فى فرنسا بحركة احتجاج كبرى، قلقين على مستقبلهم المهنى المهدد بالبطالة، ولكنهم كانوا يريدون ايضا أن لاتكون الثقافة المدرسية غريبة على ثقافتهم الشابة. وكذلك نجد الطلاب الذين استجوبهم ديديه لابيرونى Didier Lapeyronnie يواجهون بالدفاع عن شخصيتهم عالماً جامعياً يرونه غير منظم وعدوانى. وأنهم لا يبحثون عن مصالحهم او لذاتهم ولكنهم يبحثون عن اصالة للحياة فى الظروف التى يجدون انفسهم فيها ورد الفعل هذا لا يودى الى عمل جماعى وذلك لأن هناك حذراً كبيراً تجاه الاحزاب والنقابات ولكنه يقود الى وعى يقظ بصراع عام فى التوجهات بين جهاز التعليم الذى يوجدون فيه وبين مشروعاتهم الشخصية.

واخيراً تظل المناظرة العامة حول التليفزيون - جهاز الاعلام الاساسى - أقل انتظاماً، ويحل محلها غموض شديد فى المواقف تجاهه. هناك قناة تلفزيونية تحول كل شئ الى مشهد ولا تبحث غالباً إلا على زيادة نصيبها فى سوق المشاهدة، لكنها تحمل الى داخل كل بيت وجوها وكلمات وحركات كفيلة بتحويل بشر غرباء الى بشر قريبين منا. إن الاتصال الجماهيرى ايا كان مضمونه، سياسى او اخبارى، يعطى بالطبيعة الاولوية للاتصال أى للتنبيه على الرسالة، وهى فكرة كان قد عبر عنها فى البداية ماكلوهان McLuhan ويدركها بوضوح محترفى العمل التلفزيونى، سواء أيدوا أم لا تحول الاعلام الى غاية للاعلام. ولكن ليس هناك مايسمح لنا بالاعتقاد بأن الجمهور لاينجذب إلا الى العنف والنقود والحماسة. إن جاذبية البرامج السهلة، التى تحول المشاهدين الى مجرد مستهلكين، ليست لحسن الحظ من القوة لدرجة استبعاد البرامج المضادة لها أى استبعاد اثر التعبير أو الایحاء بماهو بعيد أو قريب ويفرض نفسه علينا بكل ثقله الذى يدفعنا الى التساؤل والمشاركة.

بينما تتدهور الحركات الاجتماعية القديمة، وخصوصا النقابية العمالية الى مستوى مجموعات سياسية او وكالات للدفاع المهني لقطاعات الطبقة الوسطى الاجيرة الجديدة بدلا من الدفاع عن الفئات الفقيرة، تؤدى الحركات الاجتماعيين الجديدة، حتى عندما تفتقد الى التنظيم والى القدرة على العمل المستمر، الى ظهور منظومة جديدة من المشاكل والصراعات الاجتماعية والثقافية فى آن. لايتعلق الامر بالصدام من أجل ادارة وسائل الانتاج ولكن من اجل غايات الانتاج الثقافى مثل التعليم والعلاج الطبى الاعلام الجماهيرى.

ان حركات التمرد ضد سلطة شمولية او مستبدة تتسلط على العقول والاخلاق بقدر ما تتحكم فى الانتاج وتحتكر فى يدها كل اشكال السلطة السياسية والاقتصادية والثقافية، لى حركات اكثر تعقيداً وأشد ظهوراً ؛ والنموذج الاكثر قوة فى العقود الاخيرة هو نموذج المنشق. الصورة السائدة عن مقاومة النازية هى المقاومة السياسية ولاسيما مقاومة المناضلين الشيوعيين والديجوليين فى حالة فرنسا. أما فى مواجهة الشمولية مابعد الستالينية فهى على العكس صورة الانسان الوحيد، صورة الضمير الحر والشجاع لىخاروف وسولجنستين وبوكوفسكى وشتشارانسكى وغيرهم كثيرون. أولئك الذين أصبحوا رمزا لحرية لاتدعوا الى الالتزام ولكن الى التنصل، والى الشجاعة، لى فى السيطرة على الباستيل ولكن فى قول لا لسلطة لا تتردد فى استخدام كل اشكال القهر.

ومن منظور مختلف، ألا ينبغى أن نرى فى غاندى أحد الوجوه الهامة لهذا القرن، ودعوته إلى اللاعنف ألم تقم بتعبئه المعتقدات الثقافية والوطنية مع المصالح الاجتماعية فى نفس الوقت؟ إن الاحتجاجات الاشد حيوية لها اليوم أساس أخلاقى، لى لأن العمل الجماعى عاجز ولكن لأن السيطرة تمارس على الاجساد والنفوس وأكثر من ممارستها على العمل وعلى الوضع القانونى، ولأن أشكال الدعاية والقهر الشموليين هى أشد الامراض خطورة فى العالم الذى يعتبر نفسه حديثاً.

نحن نعيش بالفعل إختفاء "نهج" - حسب تعبير شارل تيلي Charles Tilly - الحركات الاجتماعية للمرحلة الصناعية: مظاهرات الجماهير، الشعارات القديمة، فكرة الاستيلاء على السلطة. لقد كنت شاهداً في مايو 68 في باريس للقاء بين هذا النهج القديم وهو نهج الاضراب العام الذي استخدمه الاتحاد العام للعمال C.G.T والنهج الجديد الذي ابتكره الطلاب وتفهمه بذكاء سياسى شديد دانييل كوهين بنديت - Daniel Cohen Bendit ، تعبئة موجهة إلى الذات وليست ضد العدو، إعتصامات سلمية قادمة من الولايات المتحدة. هناك تغير هام وهو الدور الجديد للنساء في هذه الحركات الاجتماعية الجديدة ويشكلن أغلبية المشاركين النشطين ويثرن قضايا ثقافية واجتماعية، وهناك نداء للدفاع عن الذات والذي كان قد وجد في التحركات الجماعية من أجل منع الحمل وحرية الإجهاض أكثر تعبيراته وعياً وتنظيماً.

يمتلئ المجال الاجتماعى اليوم بهذه الحركات الاجتماعية الجديدة، وحتى وإن شعرت الكثير من هذه الحركات بضعفها السياسى. رغم التسلط الذى تمارسه عليهم الاصولية الثورية للطوائف اليسارية أو على العكس، رغم بقائها فى ظل موضوعات غير سياسية وخليط من التأكيدات العمومية والاهداف الخاصة ينبغى الاقرار بأن الاحتجاجات الجديدة لا تستهدف خلق نموذج جديد للمجتمع كما لا تستهدف تحرير قوى التقدم والمستقبل، ولكن تستهدف "تغيير الحياة" والدفاع عن حقوق الانسان سواء كان الحق فى الحياة لمن تهددهم المجاعة أو الابداء، أو الحق فى التعبير الحر والاختيار الحر لاسلوب ومسيرة حياة شخصية. بالطبع تتشكل هذه الحركات الاجتماعية الجديدة فى المجتمعات الصناعية، لكنها تتجلى أيضا فى الدفاع عن السكان الاكثر فقراً والاكثر تعرضاً للاضطهاد .

من هنا جاءت عالمية هذه الحركات التى تتجاوز بمدى كبير الحركة العمالية فى بداية القرن قبل سنة 1914. ليس هناك موضوع يستثير عواطف الشباب اكثر من التضامن مع الشعوب الفقيرة ومع ضحايا التمييز وعدم التسامح. لان الوعي الاخلاقى

الموجود فى قلب الحركات الاجتماعية الجديدة مرتبط إرتباطاً حميماً بالدفاع عن الهوية وعن الكرامة، لدى من يناضلون ضد القهر الشديد واليأس ومرتبطة بالاستراتيجيات السياسية الاجتماعية للنقابات وجماعات الضغط والتي تشكل اليوم جزءاً من نظام البلاد الأكثر ثراء.

هذه العودة إلى العمل الجماعى من الموضوعات الاقتصادية إلى موضوعات شخصية وأخلاقية لا يتم رصدتها فحسب على مستوى اشكال التعبئة الأكثر تنظيماً. بل على العكس تلاحظ بصورة أكبر فى الاهواء والمخاوف والآراء والمواقف التى يتم التعبير عنها فى الحياة اليومية لدرجة أنها تؤدى إلى زوال التعاطف مع المؤسسات السياسية والأفكار الاجتماعية. فى بداية المجتمع الصناعى فى أوروبا الغربية، لم يكن هناك ما يملأ الفراغ بين تشكيل الرأسمالية الفظة وبين اليوتوبيات الاجتماعية والأخلاقية؛ ثم تشكلت ببطء بين هذين القطبين المتعارضين وسائط سياسية. ويتنفس الطريقة نشاهد اليوم تفكك القوى المؤسسات السياسية الباقية من المجتمع الصناعى، والتي لم تعد تعبر عن طلب اجتماعى كبير وتتحول إلى وكالات للاتصال السياسى، فى حين ان الحركات الاجتماعية الجديدة تحرك المبادئ والمشاعر. ولكن هذا الخمود للعواطف السياسية لا يفسره فقط الدخول فى مرحلة طوباوية جديدة . إن دور الأحزاب السياسية، كممثلة للضرورة التاريخية ومتعالية عن الفاعلين الاجتماعيين وغالباً ما تكون ضدهم، يعانى من أزمة ودخل فى طور الإختفاء. كانت الأحزاب الجماهيرية الكبرى أصل النظم الشمولية فى القرن العشرين. وتريد الحركات الاجتماعية الابتعاد بقدر الامكان عن النموذج الذى تقدمه الأحزاب الفاشية والشيوعية. من هنا جاء ضعف القوى السياسية المختصة. وهو الوجه المقابل للانفتاح والنشاط المتنامى للساحة العمومية، ولدور الرأى العام الذى يكتسب أهمية متزايدة والأقرب بمرونته وحتى بهشاشته، للطلب الاجتماعى من الآلات السياسية الضخمة والواثقة من نفسها ومن حقها التاريخى فى تمثيل شعب سرعان ما تختزله هى نفسها إلى الحالة المتدنية "للجمهور". الحركات الاجتماعية الجديدة تتحدث عن التسيير الذاتى أكثر مما تتحدث عن حركة التاريخ وتتحدث عن الديمقراطية الداخلية أكثر مما تتحدث عن الاستيلاء على السلطة.

لا ينبغي أن نخلص من ذلك إلى أن كل أشكال الفردية والحكم الاخلاقي التي تنتشر سريعاً في المجتمعات الصناعية هي تعبيرات عن الذات أو تعبيرات عن حركات إجتماعية جديدة. إنها لا تعبر عن الذات كما لا تعبر مظاهرات العمل النقابي عن الحركة العمالية. كل مجتمع يؤدي وظيفته سواء في المستوى الأدنى أم في المستوى الأعلى. من جانب آخر تنتمي كل بلد بشكل سائد تقريباً إلى نموذج مجتمعي وإلى نظام عمل تاريخي معين، تتحدد هي الأخرى بنمطها في التحديث، ليبرالياً كان أو بإشراف الدولة. ذلك حسب من يقود التغيير، الرأسماليون أم الدولة.

ولكن خلف هذا المبدأ المزيج للتفرقة الداخلية يوجد ما يحدد نظام العمل التاريخي : مجموعة من التوجهات الثقافية – الفاعلية التاريخية – والصراعات الإجتماعية من أجل تملك نماذج لتحكم المجتمع في ذاته.

وقد كان نموذج المعرفة السائد في المجتمع الصناعي هو التطورية، والنموذج السائد للاخلاق هو الطاقة والعمل والتحكم في الماهية ؛ لقد طُمست الإحالة إلى الذات في فلسفة التاريخ. إن أزمة التحولات التي تجعل من المجتمع الصناعي مجتمعاً مبرمجاً قد تؤدي إلى إختفاء الوعي بالفاعلية التاريخية وبالتالي بفكرة الحدثة نفسها، كما أن فكرة الذات تتخلص من أسرار النزعة التاريخية عبر هذه الأزمات.

العالم لا يشهد اليوم زوال أنماط التنمية الإرادية ونهاية الاشتراكية وانتصار السوق فحسب ولكنه ينتقل أساساً من المجتمع الصناعي إلى المجتمع المبرمج، أي ينتقل من الدمج بين العقلنة وبين تحقيق الذات في فلسفات التاريخ إلى انفصالهما وتكاملهما. وهذا التحول يشمل العالم كله نظراً للأثر الضخم لسيطرة المجتمعات التي دخلت في مرحلة ما بعد التصنيع والتي تبث في أركان المعمورة أفكارها وطريقتها في العيش. من غير المحتمل أن يتم الدخول إلى المجتمع المبرمج تم عبر المناهج الليبرالية والتي هي مناهج الغرب المعاصرة. صحيح أن هذه المناهج تنتصر في أوروبا بعد

الشيوعية وفي أمريكا اللاتينية بعد الشعبية، ولكن يمكننا الاعتقاد أنها في الغالب لن تحتل وستعرض لتعديلات في عديد من البلاد وستشكل أنماط من التدخل الشعبى أو من قبل الدولة، لتنتج في شكل آخر الجهد الذى قامت به الاشتراكية الديمقراطية الأوروبية في النصف الاول من القرن العشرين، فليست كل الطرق تؤدى إلى الليبرالية.

في المقابل، كل الطرق تؤدى إلى المجتمع المبرمج، حتى وإن لم تصل جميعها في النهاية إلى مداها. نحن جميعاً مندهشين تماماً لسقوط الانظمة الشيوعية ولتفكك الافكار الاشتراكية لدرجة تجعلنا نرى في التغيرات التاريخية الحالية إنتقام الرأسمالية، بل حتى الانتصار النهائى للطريق الوحيد الصحيح، طريق الليبرالية. وهذا يعنى الخلط بشكل خطير بين أسلوب في التنمية ونموذج للمجتمع. المهم هو أن نعترف بتشكيل ثقافة جديدة وعلاقات إجتماعية جديدة مرتبطة بإحلال الصناعات الثقافية محل الصناعات المادية. تختلف أشكال التنظيم الإجتماعى والسياسى وكما تختلف السلوكيات الشخصية والجماعية بحسب ما إذا كان الدخول إلى هذا المجتمع المبرمج يتم بالطريق الليبرالى أم بطريق مختلف، أكثر قسراً أو أكثر توجيهاً من جانب الحركات الإجتماعية الشعبية، ولكن، فيما وراء هذه الاختلافات التاريخية، تبقى الوحدة الخاصة للنموذج المجتمعى، ولنظام فعل تاريخى جديد ألا وهو المجتمع المبرمج. وما يحدده على أفضل وجه ليس هو ظهور التقنيات الجديدة ولكن عودة فكرة الذات. وإن أنتجت هذه العودة للذات أثراً معادية للحدثة فهو أمر يمكن أن نتفهمه، ولكن يمكن تصوير الأمر على أننا نستعيز بإحدى التفاصيل عن اللوحة في مجملها إذا ما تصورنا تجاوز النزعة التاريخية كقطيعة مع الحدثة.

هذا الإستدعاء لنظام جديد للفعل التاريخى، وهو نظام المجتمع المبرمج بفاعليه وحركاته الإجتماعية والرهانات الثقافية لصراعات هذه الحركات ومفاوضاتها، بعيد كل البعد عن الصور السائدة لمجتمعنا، الصور المرتبطة بفكرة ما بعد الحدثة. وهو ما يدفعنى إلى تحديد وجه التعارض بين هذه الفكرة ما بعد الحدثة وفكرة المجتمع ما

بعد الصناعي أو المبرمج. تؤكد ما بعد الحداثية على الانفصال الكامل للنظام عن الفاعل فالنظام يحيل دائماً إلى ذاته autoreferential كما يقول لومان، في حين أن الفاعلين لم يعودوا يتحدثون بالعلاقات الاجتماعية ولكن باختلاف ثقافي. لا أنكر أن هذه التأكيدات تعبر عن جزء من الواقع، ولكنها أيضاً تقوم بتشويهه مثل وصف المجتمع الصناعي، في بداية القرن التاسع عشر كمملكة للنقود والسلعة. والطبقة العاملة التي لم تكن قد تشكلت تماماً بعد، تم تصويرها على أنها العالم المختلف والرائع، عالم الضواحي والورش والخمارات في المجتمع الرأسمالي. بدا عالم النقود وعالم العمل غريبين عن بعضهما. وكان ينبغي إنتظار النقابات والافكار الاشتراكية لاكتشاف علاقات إنتاج خلف هذا الاختلاف الشديد. واليوم تتعاضد سيطرة المجتمع على نفسه وتتزايد فاعليته التاريخية لدرجة أن هناك إمكانية لقطيعة ثقافية لا تترك أي مجال للصراع الاجتماعي. ولكن التطور العكسي أصبح أكثر احتمالاً. فيحدثوننا عن مجتمعنا كمجتمع للمعلومات. كما كانوا يتحدثون عن المجتمع الصناعي كمجتمع للميكنة. كم من الوقت يلزمنا لكي نعثر على بشر وعلى علاقات إجتماعية خلف التقنيات، ولكي نعي أن هناك أساليب متعارضة إجتماعياً في إستخدام المعلومات وفي تنظيم الاتصال تتصادم، سواء "بصورة تجريدية" لتدعيم سيل المعلومات والذي هو سيل للنقود والسلطة، أو "بصورة ملموسة" لتدعيم الحوار بين أطراف موزعين بصورة غير متكافئة في علاقات السلطة؟

أننى أرى في الافكار ما بعد الحداثية تفسيراً سطحياً من الناحية السوسيولوجية للتحويلات التي تستدعى تحليلات تقترب من تلك التي أستخدمت في المجتمع الصناعي ولا تبتعد عنها . وفي الظواهر التي يلح عليها الفكر ما بعد الحداثي، أرى مواطن للأزمة أكثر من كونها إبتكارات مستديمة. مثل التفرقة المفرطة للنظام السياسي والنظام الإجتماعي والتي يتحدث عنها لومان . ألا تحدد أزمة التمثيل السياسي التي يعرفها الجميع والتي لن يتم تجاوزها إلا عندما يتم تنظيم مطالب إجتماعية جديدة وعندما تعود ديمقراطياتنا تمثيلية من جديد؟ وينفس الطريقة تعتبر الدعوة إلى الإختلاف المطلق

ديمقراطياتنا تمثيلية من جديد؟ وبنفس الطريقة تعتبر الدعوة إلى الاختلاف المطلق سلوك أزمة عندما تتفصل عن الاعتراف بالصراعات الاجتماعية ورهاناتها الثقافية.

نحن نعيش الانتقال من مجتمع إلى آخر. لقد كان الانتقال من المجتمع التجارى إلى المجتمع الصناعى يشغل القرن التاسع عشر كله كما كان يشغله أيضا الانتقال من الروح الجمهورية إلى الحركة العمالية. وذكرونا لومان بحق بأن أى مجتمع لا يمكن تحديده بأحد أبعاده فقط : صناعى أو رأسمالى أو ديموقراطى. هذا حق اليوم وكذلك كان بالأمس.

الاهمية الاساسية لهذه المناظرة هي التذكير بأن فكرة الذات لا تتفصل عن فكرة العلاقات الاجتماعية. فى المجتمع المبرمج، يقف الفرد، المختزل إلى مجرد مستهلك أو ثروة بشرية أو مستهدف، فى مواجهة المنطق السائد للنظام مؤكدا نفسه كذات ضد عالم الاشياء وضد تموضع حاجاته إلى مجرد طلب على السلع. ولهذا ففكرة الذات لا تتفصل عن تحليل للمجتمع الحاضر لا كمجتمع ما بعد حديث ولكن كمجتمع صناعى أو كمجتمع مبرمج. تُظهر لنا النظريات ما بعد الحداثية تفكك الذات ، كما تظهر أيضا الطلب المتزايد للامكانيات وتطور النظم السيبرنيطيقية. ولكن بدلاً من أن لا ندرك سوى هذه الغرابة المتبادلة لهذين العالمين، لماذا لا نرى صراعهما، وذلك لان كلاهما لا يتحدد بذاته بصورة تقنية أو ثقافية، ينبغى أن يتحدد كلاهما بصورة إجتماعية، أو بمعنى أدق ، يتحدد كلا منهما بتعارضه مع الآخر وهذا على وجه الخصوص ما يجعل فكرة الذات تتعارض مع فكرة الهوية أو الوعى ؛ الذات هي احتجاج على نظام كما أن صورة المجتمع كسوق هدفها هو إضعاف الدفاعات الثقافية. ما زلنا نعيش غالبا فى الوعى بالتمزق. ولكن هناك صراعات جديدة ونداء بالتحول العميق للمجتمع الذى تحظى توجهاته الثقافية بالقبول من طرف الحركات الاجتماعية الجديدة والتى تتصارع من أجل تطبيقها السياسى والاجتماعى. هذه الصراعات نسمع أصداها أصداها فى الرأى العام ولكن لا نلاحظها بعد فى الحياة السياسية المنظمة.

إن ما يطلق عليه ما بعد الحداثة، والتي أشرت إلى معناها كشكل متطرف لتفكيك النموذج العقلاني للحداثة، تحدد جيداً ما تتعارض الذات معه، اللغة غير الشخصية للاندفاعات ولما يكتبه القانون والانا الأعلى في اللاوعي، هذه اللغة لم تعد حبيسة الفرد، بل تلاحظ في المجتمع المسمى بمجتمع الاستهلاك والذي يستبدل أيضاً بالمطالب الاجتماعية الانسحاب العدوانى إلى ثقافة مستخدمة كلغة لسلطة جديدة.

هذه الثقافة ما بعد الحداثية ترفض العمق قبل كل شئ أى ترفض المسافة بين الدلالات والمعنى. ولهذا فهي تدفع بإلغاء الذات وإبدالها بالموضوع إلى أقصى مدى - من علبة حساء كامبل أو زجاجة الكوكاكولا، عند أندى وارهول Andy Warhol - تلك الذات التى يمكن أن تصبح موضوعاً إعلانياً كما رلين Marilyn لدى نفس المؤلف. ثقافة الاستهلاك هذه تشكل الحقل الذى يوجد فيه المطالبة بالذات كما كان المجتمع الصناعى هو الحقل الذى تشكلت فيه الحركة العمالية. وهو ما يجعل من نقد ماركس لمقولات الحياة ولمقولات الاقتصاد التى أراد من ورائها أن يكتشف علاقات الانتاج الاجتماعية نقداً مناسباً للواقع الراهن. ينبغى إتباع هذا النموذج مع تكييفه مع الموقف الجديد تماماً. لا يتعلق الامر فى مواجهة عالم الصورة بالدعوة إلى قيمة إستعمالية كما حدث من قبل وكانت هناك دعوة لتحرير قوى الانتاج من لاقلانية علاقات الانتاج الاجتماعية.

إن ما يستطيع أن يقف فى وجه عالم العلامات هذا هو البحث عن معنى لا يعود بنا إلى الطبيعة ولكن إلى الذات. إن الذات وعالم الموضوعات الاستهلاكية لهما نفس علاقات التعارض الموجودة بين رأس المال والعمل فى نموذج المجتمع السابق. وهذا يشدد على أن تأكيد الذات ونقيها مرتبطان بإحلال مجتمع الاستهلاك محل مجتمع الانتاج وعلى أن صورتنا عن الذات غريبة عن صورتها كذات عقلانية وزاهدة كما كان يرسم ملامحها ماكس فيبر. من المستحيل تحديد صراع اجتماعى إذا لم نرسم فى

الوقت نفسه الحقل الثقافي الذي يحدث فيه ويمثل هدفا للعلاقات بين تشكيلات إجتماعية متعارضة. مجتمع الإستهلاك والدفاع عن الذات هما الفاعلان المتعارضان والذات يحدد صراعهما الشكل الاجتماعي الذي يتخذه مجتمع ما بعد صناعي، مجتمعاً ليس ما بعد حدائثي ولكن على العكس مفرط في الحدائة.

إن الاهتمام المتنامي المعطى لفكرة الذات يتعارض مع الرؤى التي تستبعد الذات كلية، إما بإختزالها إلى طلبها السلعي، وإما بالبحث فيها عن بنى تفلت من الفاعل ووعيه، وإما أيضا بإفقار عمل النظرية النقدية والسوسيولوجيا المستلهمة من التوسير والتي تبحث، فيما وراء الوعي الزائف، عن منطقة نظام السيطرة. في مرحلة التحول هذه والتي تتسم فيها الممارسات الإجتماعية للفعل الجماعي بالضعف وفقدان الاتجاه بحيث لا تكون لها قدرة على تحليل نفسها، مال المثقفون لاعطاء أهمية قصوى لهذه السلوكيات ولتفسيراتها التي ترفض أى إحالة إلى الذات ؛ وهم أنفسهم أول ضحايا هذا النزوع، بما أنه لا يوجد مجتمع خال من الفاعلين، ونظراً لرغبتهم في أن يكون نقاداً فقط وأن يستبدلوا بالسوسيولوجيا المرتبطة بالتاريخ أنثروبولوجيا لاتاريخية يقضون على قدرتهم في تفسير الممارسات الجديدة وينتهون بأن يخلقوا لانفسهم بولة داخل الدولة، أو طائفة في المجتمع تكون لغتها الخاصة هي رفض الذات.

العثور على الاتجاه الصحيح للتغيرات الملاحظة، يكفي أن يستعيد المثقفون وعلى رأسهم علماء الاجتماع صلتهم بالتقاليد الكبرى لمهنتهم : إكتشاف ما هو خفي، والخروج قليلاً من الذات ومن الوسط المحيط لاعادة تأسيس المسافة مع موضوع الدراسة والتي تسمح للمؤرخ أو عالم الاثنولوجيا ببناء تحليلاتهم. ألم يفت الاوان كي نفكر الآن في أننا قد دخلنا في مرحلة "ما بعد إجتماعية" و"ما بعد تاريخية" في مجتمع هو محض خيال simulacre وفي تحلل مستمر للفاعلين داخل لعبة المرايا والاشكال؟

ألا نرى بالاحرى المجتمعات التى كانت خاضعة للنظام الشيوعى تسعى لأن تعمر نفسها أو أن تتغير، وفى نفس الوقت نرى سلوكيات شخصية وجماعية كانت مجهولة حتى هذه اللحظة تنتشر سريعاً فى المجتمعات الغربية فى حين أن جزءاً من العالم الثالث يسقط فى البؤس والصراعات العرقية والفساد؟

لم يعد الوقت مناسباً لإعلان موت المجتمع الصناعى والحلم بتوازن جديد بعد مرحلة من التغيرات الكبرى والتنمية المتسارعة. يقترب الليل من النهاية . عبرنا منذ 1968، كل مراحل تغيير المجتمع، منذ تفكك المجتمع الصناعى والأوهام ما بعد التاريخية إلى المشروع الليبرالى المحض لاعادة بناء إقتصاد جديد. حان الوقت لتعلم وصف وتحليل النماذج الثقافية، والعلاقات والحركات الاجتماعية التى تعطىها شكلاً، والنخب السياسية وأشكال التغيير الاجتماعى التى لها القدرة على تحريك ما بدا للحظة كعالم يتجاوز الفاعلية التاريخية. محاولة العثور على فكرة الحداثة تعنى أولاً الاعتراف بوجود مجتمع جديد وبوجود فاعلين تاريخيين جدد.

الفصل الثالث

أنا المتكلم ليست الانا

مجالات العقل

إرادت روح التنوير أن تكون تحريرية وقد كانت ؛ وغالباً ما تم تعريفها كفردية ولكنها لم تكن. ويتذكر القارئ التعارض المبين في بداية هذا الكتاب بين تمجيد العقل والتجريبية التي تميز روح التنوير وبين الثنائية المسيحية الديكارتية الموجودة في إعلان حقوق الانسان. لقد حرر الخضوع لمقتضيات التفكير العقلى البشرية من التطير والجهل! لكنه لم يحرر الفرد. لقد أحل مملكة العقل محل مملكة العادة والسلطة العقلانية الشرعية محل السلطة التقليدية. العقلانية الحديثة تحذر من الفرد وتفضل عليه القوانين غير الشخصية للعلم الى تطبيق على الحياة الانسانية وعلى الفكر فى آن.

الفكر المسمى حديث يريد أن يكون علمياً! إنه فكر مادي وطبيعى! ويذيب خصوصية الظواهر الملاحظة فى القوانين العامة. وفى النظام الاجتماعى حيث أن معيار الخير أصبح هو المنفعة الاجتماعية يتعين على التعليم أن يرفع الكبار والصغار من الانانية إلى الغيرية جاعلاً منهم رجالاً ونساءً يقومون بالواجب ويؤتون أدوارهم طبقاً للقواعد التى تبدو أكثر مناسبة لخلق مجتمع عاقل ومعتدل.

هذا التصور للتعليم كتنشئة إجتماعية وكصعود نحو العقل لم يختلف! وما زال يعن عن نفسه فى مدارس كثير من البلاد. إذ على الطفل أن يكون منضبطاً وفى نفس الوقت محفزاً بمكافآت أو مقموعاً بعقوبات من أجل أن يسيطر على نفسه ويتعلم قواعد الحياة فى المجتمع ومسيرات الفكر العقلى.

هدف هذا التعليم المحمل بالإلزامات هو أن يعطى لكل فرد القدرة على الصمود أمام الصعوبات المادية ولاسيما الثقافية والاخلاقية التى يلتقى بها فى حياته. ينبغى

أن يظل قادراً على أن يكون سيد نفسه وأن يثبت شجاعته وإستعداداته للتضحية. التعلم هو تعلم الواجب وليس صدفة أن كلمة "واجب" تحدد المهمة التي يفرضها المعلم على التلاميذ؛ وكذلك كلمة إنضباط Discipline تطلق فى وقت واحد على نوع من الإلزام وأداة للعقاب ومجال للمعرفة. يمكن أن نستخرج من هذا المفهوم صوراً مضيئة أو قاتمة! ولكن من الصعب تعريفه كمفهوم فردى. فالتعليم يدخل وسائط بين طلبات الفرد وبين إشباعها المقبول! كما يدخل آليات للتسامى تقلت من سيطرة الفرد وتنحو الى العمومية بقدر الامكان.

لقد أُعتبر المجتمع الصناعى فى بداياته تعبئة عامة، والطبقة جيش العمل وتجنيد الناس فى المصانع كان يقوم به العسكريون فى الغالب. قد نوافق على أن هذه الصورة فظة أو جزئية ، ولكنها تحتوى من الحقيقة ما يظهر أن المجتمع الحديث لم يقبل الفردية بالنسبة لاغلب السكان. ولا حتى بالنسبة للصفوة المسيطرة الخاضعة لالزامات شديدة جعلت منهم خدماً للربح أو للصناعة، وجعلت منهم أعضاء فى طبقة أو مهنة مختلفين خلف زيهم الموحد وأعرافهم. من هنا جاء ميل هذا المجتمع للرموز التى تصور الانوار الإجتماعية خارج أى ملمح خاص بمن يمارسها. إن فقدان الفردية كان شاملاً بالنسبة للنساء، المختزلات إلى أنوارهن كزوجة أو كأم أو كعشيقة. هذا النضال ضد الفردية يتزايد ويصبح موضوعاً لحملات الرأى والممنوعات الشرعية عندما يرتبط التحديث بالبعث أو بتكوين أمة. كان هناك نداء لبطولة الجميع للتضحية بالمصلحة والسعادة الفردية من أجل الحصول على الاستقلال أو ازدهار الامة وتستخدم نفس المصطلحات فى المؤسسات الانتاجية ولكن فى حدود أكثر اعتدالاً.

أين هى الفردية فى هذا المجتمع الحديث ؟ كيف لا نفهم البوذيين والكونفوشيوسيين عندما يعارضون بين أخلاق الواجب التى تميز، فى رأيهم، العالم الغربى الحديث وخصوصاً منذ كانط ، والأخلاق المسماة بالتقليدية كانت متمحورة حول الفرد عندما كانت تحاول أن تحرره من انفعالاته ؟ ليست الأخلاق المسماة بالحديثة

عبارة عن مجموعة من القواعد التي ينبغي تطبيقها من أجل مصلحة المجتمع الذي لن يصل إلى الرفاهية إلا إذا ضحى الافراد من أجله؟

وأخيراً كيف لا نشير إلى أن المجتمع الحديث يمكن أن يتحدد كمجتمع جماهير، في الانتاج أولاً، وبعد ذلك في الاستهلاك والاتصال، وبالتالي من المستحيل أن نطلق عليه صفة فردى؟ تعلن المجتمعات الحديثة نفسها أن قوتها تأتي من كونها تحل العمومية محل الخصوصية. وتمتلاً السوسيولوجيا بأزواج من الاضداد تؤكد هذه الطبيعة للتحديث : من الجماعة إلى المجتمع، من إعادة الانتاج إلى الانتاج، من المكانة إلى العقد، من المجموعة إلى الفرد، من الانفعال إلى الحساب.

هذه الدعوة المنتشرة للعقلنة والدور المحرك للعلم والتكنولوجيا قد مارست جاذبية شديدة في الشرق والغرب فلماذا تثير اليوم من المخاوف أكثر مما تثير من الحماس؟ أولاً لان كونية العقل هذه آلة هائلة تدمر الحيات الفردية التي شكلتها المهنة والذاكرة وكافة أشكال الحماية وكذلك العلم والمشروعات والمحفزات. أدى تسارع التقدم، إبتداءً من الجيل الذي كان عليه أن يقوم بالتضحية، إلى الانتقال إلى التضحية الدائمة لجزء كبير من الانسانية. هل يمكن لأوروبا في نهاية القرن العشرين أن تعتقد - كما كانت في الوقت الذي أخرج فيه أيزنشتاين فيلم "الخط العام" - بأن إنتصار التكنيك مرتبطاً بالسلطة الشعبية يحرر الانسان من الجهل واللاعقلانية والفقر؟ لكننا قد رأينا العقل، الجدير بالاحترام عندما يقتصر على العلم الخالص، يتماهى أكثر فأكثر مع السلطات والاجهزة والافراد. قد تحدثت السلطات الشمولية بحماس عن التقدم وعن الانسان وعن الحداثة. وحتى في المجتمعات التي لطفتها عقود من الرفاهية نشعر أننا سجناء للاجهزة العامة أو شبه العامة، والتي باسم العقل والمصلحة العامة التي تمثلها تجهل الواقع الذي تختزله بسذاجة إلى مجرد نتائج لقراراتها. وتمتلاً خطب الدول، وأحياناً خطب الاجهزة الخاصة ولا سيما عندما تكون إحتكارية، بنزعة إرادية تفيض بالروح العلمى وبالانشغال بالصالح العام، وهو ما يتناقض تناقضاً يتعاضم شيئاً فشيئاً مع واقع غالباً ما يكذب أقوال الاقوياء.

لقد دمر الفكر النقدي على المستوى الاجتماعي "أنا" الدولة المختال في سذاجة، كما كشف الفكر الفرويدي على المستوى الفردي، عن أوهام الوعي. ولكن غلطة هؤلاء النقاد أنهم يخطئون حقيقة ما يدمرونه عندما يسمونه ذاتاً. أنهم على حق في قلب كل مبادئ التطابق بين العقل الانساني ونظام العالم، سواء استدعت هذه المبادئ الدين أو العقل أو استدعت التأمل أو العلم. ولكن بتدميرهم أنا فردي أو جمعي مؤسساً سلطته على قوانين للطبيعة، يحررون، كما فعل ديكارت من قبل، العقل العلمي المهدد دائماً بالغائية ويفكرة الذات التي ولدت كمقاومة لسلطة الاجهزة.

علينا ألا نقبل الحديث عن هذه المفاهيم التي صاحبت صعود النموذج العقلاني. لأنه ليس الفكر النقدي هو الذي عمل على إضاعتها ولكنه تحول إجتماعي غيرمتوقع. وهذا التحول كان على أية حال متأخراً في أوروبا التي كانت في طور التصنيع في القرن التاسع عشر : وهو الميلاد والانتشار السريع لمجتمع الاستهلاك. مجتمع الاستهلاك هذا، ومن بعده مجتمع المعلومات، هما اللذان أنتجا الفردية التي وقفت اليوم بفاعلية ضد فكرة الذات أكثر من السلطة المطلقة القديمة للعقل، ولهذا تستحق الفردية إهتمامنا النقدي.

الفردية

لا نستطيع اليوم أن نحترك لحسابنا تمثلات تبلورت في الوقت الذي كان ينتصر فيه، في ألمانيا والولايات المتحدة أكثر منه في إنجلترا وفرنسا، التصنيع الضخم في نهاية القرن التاسع عشر. كيف لا نرى أولاً الصورة المختلفة تماماً والتي فرضت نفسها في مجتمعاتنا الاستهلاكية، والتي يبدو أنها تنتشر إنطلاقاً من الولايات المتحدة إلى كافة أرجاء الأرض؟ اليوم ترتبط فكرة الحداثة بتحرر الرغبات وإشباع الطلب أكثر من إرتباطها بمملكة العقل. هذا الرفض للالزامات الجمعية والتحريمات الدينية والسياسية والعائلية وهذه الحرية للحركة والرأى هي مطالب أساسية تلفظ كل أشكال التنظيم الاجتماعي والثقافي التي تعوق حرية الاختيار والسلوك باعتبارها رجعية وتجاوزها

التاريخ. فى الواقع حل نموذج ليبرالى محل نموذج تقنى وتعبوى. وعلى وجه الخصوص، تكون صور الشباب فى أغلبها صوراً لتحرير الرغبات والمشاعر. هذه الليبرالية مثلها مثل الديمقراطية تحدد الذات بصورة سلبية، برفض ما يعيق الحرية الفردية أو الجماعية. وهو ما يؤدى إلى الإستعاضة عن أزواج الاضداد التى أشرت إليها بالتعارض الذى أعطاه لويسن دومون صيغته التقليدية وهو التعارض بين الكلية Holisme والفردية.

المجتمعات غير الحديثة، حتى وإن كان ظهورها متأخراً، هى تلك المجتمعات التى تحدد الفرد بمكانه الذى يشغله فى مجموع يشكل إما فاعل جماعى أو على العكس مجموعة من القواعد غير الشخصية خلقها فكر أسطورى يرجع إلى خلق إلهى أو حدث بدائى أو إلى تراث الاجداد. ليس للفردية أى مضمون خاص لان القاعدة لا تصدر إلا عن مؤسسة ويكون لها اثر فى التنظيم الجمعى. حرية كل فرد لا تعرف حداً سوى حرية الآخرين. وهو مايفرض قبول قواعد الحياة فى المجتمع والتى هى الزامات محضة ولكنها ضرورية لممارسة الحرية والتى يمكن أن تتحطم بالفوضى والعنف، ليس الفرد هو الذى ينبغى أن يوجه أو يقاد ولكن المجتمع هو الذى يجب أن يتحضر. وقواعد الحياة فى المجتمع صُنعت لتوسيع المجال المفتوح للحرية الفردية. وهذه فكرة متعارضة تماماً مع التعليم التقليدى الذى يفرض على الطفل إلزامات شديدة كى ينتصر فيه العقل والنظام على العواطف والعنف. هذا النموذج الليبرالى لا يمكن تحديده إلا بواسطة دعوة عامة إلى حرية المبادرة فى حين أن نماذج التعليم والتنظيم الموجهه كانت أكثر تعقيداً وأنتجت مبحثاً فى الضمائر casuistique يشبه الكتب التعليمية لقساوسة الاعتراف فى عصورنا الوسطى كما درسها جاك لوجوف Jacques Le Goff. أن ملاحظة العادات الحالية لدى الشباب - خصوصاً فى غالبيته التى تشعر بإنتمائها إلى هذا المجتمع الليبرالى - تظهر ترابطاً وثيقاً بين الفردية والتسامح ورفض إستبعاد فئة إجتماعية أو قومية. من هنا جاء نجاح الحملات التى قادتها الحركة النسائية من أجل الحصول على حق منع الحمل والاجهاض والذى يتعارض مع ضعف وفشل الحركة الايجابية "لتحرير النساء"؛ ومن هنا أيضاً جاء رفض التميز العنصرى رفضاً يوازى فى قوته رفض الأنظمة الاستبدادية والشمولية.

ألا تعنى الحداثة إختفاء كل النماذج وكل أشكال التعالى وبالتالى كل القوى الدينية والسياسية والاجتماعية التى تخلق حضارات تحددها قواعد أخلاقها الجبرية؟ مفهومنا عن الحداثة أى عن التاريخ الحديث قد سادته فكرة أن خمود الأنظمة الاجتماعية ووكالات التحكم الاجتماعى والثقافى - عائلة، مدرسة، كنيسة، قانون - لم يمكن تجاوزها، ولا يصبح المجتمع فى حالة حركة إلا بتفاعل عاملين : إنفتاح حدود النظام وتشكيل سلطة مركزية تحطم آليات إعادة الانتاج الاجتماعى.

الموضوع الأول هو الدور الخلاق للتجارة الذى يؤدى إلى تفوق الدول البحرية كاثينا وفينيسيا وانجلترا الحديثة على الدول القارية مثل تركيا أو روسيا. تعزى أوروبا المعاصرة أهمية كبرى لهذا الموضوع. هذه المراحل سُميت الاتحاد الأوروبى للمدفوعات، اتحاد الفحم والصلب والمجموعة الاقتصادية. نادرا ما وصف بناء أوروبا الموحدة بمصطلحات إيجابية، فدائما تُستخدم مصطلحات إلغاء الحدود، والحدث الرمزي الأكثر دلالة فى سقوط الأنظمة الشيوعية فى أوروبا لم يكن هو أول انتخابات حرة تجري فى بلد شيوعى وهو المجر ولكن كان سقوط جدار برلين. الانتقال الحر للبشر والأفكار والبضائع والرساميل يبدو هو التعريف الملموس للحداثة التى تجعل من موظف الجمرك أثراً من أثار العالم القديم.

الموضوع الثانى هو موضوع الدور التحديثى للدولة: فالمجتمع لا يحدث نفسه لأن الشئ ذاته لا يصبح آخرأ . كل شئ يقاوم التغيير ولاسيما القيم والدوافع التى تنتج عن تمثل الأفراد داخلياً. الدولة لا تنتمى إلى المجتمع ولهذا يمكنها أن تغيره سواء بفتحه على التجارة أو بدفعه إلى فتوحات بعيدة، وسواء بتحطيم الأشكال القديمة للتنظيم الاجتماعى والسلطات المحلية، كما فعل ملوك فرنسا فى بداية العهد الذى سمي لهذا السبب حديثاً.

التكلفة الاجتماعية لهذه الآليات الاقتصادية والسياسية مرتفعة جداً : إنها آليات تدمر لتخلق، وتستثير تعبئة إقتصادية وعسكرية تؤدي للتفرقة والتعارض والغزو قبل أن تدمج وتسدل الأقمعة. أن عمليات التحديث الكبرى في أوروبا وأمريكا قد أستدعت النيران أكثر ما استدعت العقل، وفرضت العبودية والعمل الاجباري والاعتقال وتحويل السكان إلى بروليتاريا. ولكن هكذا خلق المجتمع الحديث الذي أنتج تحديثه الخاص لا بواسطة القوة الملزمة للعقل والمؤسسات التي تسهر على تطبيقه ولكن بتكاثر الطلب والعرض، وبالمبادرة الحرة وتوسع السوق. لقد مهدت الدولة الحديثة لانتصار المجتمع المدني وعينت له حدوده. وكما أنه على المستوى الاخلاقي تقوم المجتمعات الليبرالية بإزاحة القواعد الايجابية وتحل محلها القواعد السلبية وتستبدل الضمانات بالقواعد. ونرى على المستوى السياسي، أن الدولة الحديثة قد عملت على تراجع سلطتها بتشجيعها للترابط الحر للمنتجين أو المستهلكين أو السكان.

تؤدي حصيلة هذين التغيرين إلى سلطة القضاة التي تحل محل سلطة الدولة أو سلطة الكنيسة أو سلطة العائلة في نفس الوقت تذوب الحياة الخاصة والحياة السياسية، وكلاهما مكان للمبادئ والسلطة والاسرار، في حياة عامة هي تركيبة من اللوائح والحسابات. قوة هذا المفهوم تأتي من كونه يستبعد أي إحالة إلى الذات دون اللجوء إلى الالتزام. يميل مجتمعنا إلى أن لا يضع إفتراضات على الذات، ويؤكد في الغالب بشدة على أن الفكر والعادات والقوانين ليست حديثة إلا إذا استبعدت أي حالة إلى الذات المنظور إليها كقناع للجوهر الالهي. الحداثة، هي حسب تعريفها بطبيعتها، مادية.

هذا هو مغزى فكر يمكن أن نسميه ليبراليا ولكنه يتجاوز كثيرا حدود كونه مذهباً اقتصادياً أو سياسياً . إنه يحصر تدخلات الدولة في خلق الشروط والقواعد التي تحبذ الانتقال الحر للأشخاص والثروات والأفكار. ولا تحمل أي حكم أخلاقي على السلوك إلا فيما يخص الخطر الذي يمكن أن تسببه للحياة العامة. وتلجأ للعقل كمبدأ للفردية، أي

مبدأ لمقاومة ضغوط كل الخصوصيات وبالتحديد الدينية والقومية والعرقية، إنها تفصل الدولة عن المجتمع المدني بل وأكثر من ذلك تفصل الكنيسة عن الدول وتدفع بالتسامح تجاه الأقليات الى أقصاه. أليس حقيقيا أن هذا المفهوم للحياة الجماعية والشخصية يبدو "عادياً" اليوم لمن يعيشون فى المجتمعات الغنية والديموقراطية، حيث لم نجد تقريباً أى حركات جماعية تطالب بنمط جديد من المجتمعات أو بالثورة؟

الانتقادات التى تثيرها هذه الليبرالية تكون على مستويين : المستوى الأول، يدين البعض التطبيق السيئ وغير الكافى للمبادئ الجديدة. أنهم يطالبون بمزيد من الحرية والتسامح ومزيد من الحركة وبقليل من السدود أو الممنوعات والآخرين يعترفون، مع شعور بالحرَج، بأن هذه المبادئ لا يمكن أن تنطبق على كل سكان العالم، إما لأنهم حديثون بشكل يفوق الحد أو ليسوا حديثين بما فيه الكفاية، وإما لأن الدول الغنية تعوق الدول الفقيرة عن النمو . طريقتان فى التفكير وإن بدا أنهما متعارضتان إلا أنهما متقاربتان، باعتبارهما يقبلان عن إقتناع بالرجوع إلى نفس النموذج المركزى.

يمنح موضوع الحياة الاجتماعية كتغير دائم وكشبكة من الاستراتيجيات أهمية مركزية للسوق الذى يكفل الصلة بين المؤسسة الانتاجية والمستهلك؛ وعبر التسويق تكيف المؤسسة الانتاجية إنتاجها مع طلب المستهلكين كما يعبر عن نفسه فى السوق. هذا الانتقال من مجتمع نظام إلى مجتمع حركة وتغيير يلقي الضوء على جانب هام فى الحداثة : تفكك كل "شخصيات" المسرح الانسانى سواء تعلق الأمر بالآنا أو بالقانون أو بإرادة الأمير، فردية كانت أو جماعية. ويؤدى أيضا إلى فهم قوة الحركات المضادة التى تسعى لأن تدمج روح الجماعة فى مجتمع مختزل إلى تغييراته. وقد اكتسبت هذه الحركات قوة متنامية ابتداءً من اللحظة التى شعرت الأمم فيها – بعد أن طالبت بالحق فى حمل لواء الحداثة – بأنها مهددة بهذه الحداثة، وتحدت الأمم أكثر فأكثر بتراث ثقافى يقوض الكونية المجردة للحداثة التى ينظر اليها "كفريية". لقد سادت هذه الحركات القرن العشرين لأنها كانت القاعدة للنظم الشمولية التى عمر بها القرن من

العنصرية القومية النازية إلى الشيوعية القومية الستالينية وإلى الامبرياليات الثقافية والعسكرية للعالم الثالث وخصوصا للعالم الاسلامى . إن الإشارة إلى هذه الأنظمة المعادية لليبرالية تجبرنا على التخلّى عن الاتجاهات المريحة للرفض المزبوج والتي تدين مجتمع الاستهلاك الغربى وتدين بنفس القوة الأنظمة الشمولية. هذا الميزان الحساس لا يزن إلا كلمات ينبغى على العكس الاعتراف مع من لديهم القدره على الاختيار بأن أوروبى الشرق ينظرون تجاه الغرب فى حين أن كثير من الغربيين يرون النور يسطع من الشرق. لقد عاصر قرننا كثير من أشكال الاضطهاد والابادة والتصرفات العشوائية لدرجة جعلتنا نفضل ضعف وتوتر مجتمع شديد الحركة على العنف المؤسس للمجتمعات التي تدعو إلى الجماعة أو إلى التاريخ أو إلى العنصر أو إلى الدين. ولكن هذا الاختيار الذى ينبغى أن يتم بكل وضوح يعنى فقط أنه فى عالم متطور وفى تحديث متسارع ونادراً ما يكون متجانساً تأتى أسوأ الأخطار من تدمير المجتمع التقليدى أو الحديث بواسطة الدولة التحديثية المتسلطة.

السوق هو الحماية الوحيدة الفعالة ضد تعسف الدولة؛ وهذا لا يعنى أن السوق ينبغى له أن يكون مبدأ تنظيم الحياة الاجتماعية لأنها تتضمن دائماً علاقات سلطة تستدعى ردوداً أخرى ليست بالضرورة ليبرالية أو تسلطية، ولكن يمكن إدراكها فى إطار علاقات مجموعات اجتماعية وقوى سياسية.

من هنا تأتى أهمية سيكولوجية الجماهير التي شغلت، من لوبون Le Bon إلى فرويد إلى مدرسه فرانكفورت، مكاناً هاماً فى الفكر الاجتماعى للقرن العشرين والتي أعاد اكتشافها سيرج موسكوفيتش، مؤخراً. إذا ما عرفنا المجتمع الحديث بإنحلال المراتبيات والقواعد فحسب ؛ وإذا لم نر فيه إلا استهلاك ومنافسة فإننا بذلك نستحث تشكيل صورة مكمله ومعاكسة فى آن ، تضع العقلانية الحياة الجماعية ولاسيما السياسية فى مواجهة الإنتصار الواضح للعلم والتقنية والإدارة. فمن برجسون ويوانكاريه إلى موسولينى وهتلر وكل من فكر فى مجتمع الجماهير، من الفلسفة إلى

السياسة ومن اليسار الاشتراكي إلى اليمين الفاشي، كانوا مشدوهين بهذا الاكتشاف لحياة جماعية تبدو قوانينها في تناقض مع قوانين الطبيعة. كل مرة تختزل فيها صورة المجتمع الحديث إلى صورته السوق متجاهلة العلاقات الاجتماعية وكذلك المشاريع الفردية والجماعة ، نرى الصورة المفزعة لمجتمع الجماهير تعاود الظهور. واليوم ليس الزعماء السياسيون هم الذين يدعون للقلق ولكن وسائل الاعلام؛ ورغم ذلك فإن التعارض بين الفعل الاستراتيجي والتلاعب السياسي أو الثقافي لم يتغير. كل مرة يتم فيها تدمير الذات نقع في التعارض المصطنع بين العقلانية الأداتية المحضنة والجماهير اللاعقلانية. والطريقة الوحيدة لاستبعاد هذا التفسير السطحي للأنظمة المستبعدة الحديثة هو التخلي عن الصورة الاختزالية للمجتمع الحديث. فهو ليس على الإطلاق مجتمعاً فردياً والنظام المراتبي الذي يميز المجتمعات التقليدية، كما يرى عن حق لويس دومون، قد تم إبداله بالتضامن العضوي وبالعلاقات الاجتماعية وإدارة الموارد الاجتماعية على وجه الخصوص . وكما أن الاندماج في النظام الجماعي قد تممه إنفتاح العالم الصوفي وسعى الفرد لأن يكون في علاقة مباشرة مع المقدس، بنفس الطريقة نجد اليوم أن الانخراط في العلاقات الاجتماعية للانتاج قد تممه العلاقة مع النفس وتأكيد ذات تتحدد بمطلبها في أن تكون فاعلاً. أي تقاوم سيطرة الأشياء والتقنيات واللغة .

المجتمع في طور التحديث كان يخلط بين نمط الأداء الاجتماعي مع نمط النمو التاريخي أي يخلط بين المجتمع المدني والدولة؛ ما يميز المجتمع الحديث أو البالغ الحداثة hyper modern هو الفصل بينهما. وهو ما يمنع من إختزال المجتمع الحديث إلى السوق أو إلى التخطيط الحكومي والتي هي أنماط من النمو. لو اتخذنا الفردية مبدأً عاماً لتحديد المجتمع الحديث لاختزلته إلى النمط الليبرالي والسلعي للتحديث. وهو ما يعنى نسيان واقع العمل والانتاج والسلطة والسياسة. يمكن أن نبرز تفوق السوق على الاقتصاد الموجه، وهناك شبه إجماع على ذلك اليوم، ويمكن نرفض إختزال المجتمع إلى السوق. المجتمع الحديث ليس كلياً ولا فردياً؛ أنه شبكة من علاقات الانتاج والسلطة. وهو أيضا المكان الذي تظهر فيه الذات ليس للهروب من الإلزامات

والتقنية والتنظيم ولكن المطالبة بحقها فى أن تكون فاعلاً. ولكن هنا يخلى التعارض بين الحديث والتقليدى مكانه لاستمرارية ما بينهما. وكما أن الذات ، فى مجتمع انتاج، منخرطه فى العقلنة وتسعى فى الوقت نفسه للتخلص من سيطرة السلع والتقنيات، فى مجتمع نظامى لا تضيع فيه الذات كلية بين الانوار والمراتب لأن الفرد يسعى إلى التحرر من العالم الاجتماعى بواسطة إتصال مباشر قدر الإمكان مع عالم الوجود. التعارض الذى قدمه لويس دومون بحسم يعبر عن قلق كثير من المحدثين الخائفين من الانزلاق إلى مجتمع سيال تنمو فيه القوضى وسلوكيات التفكك الاجتماعى. ولهذا فأنا أدافع هنا عن مفهوم "ليبرالى" للنمو. ومفهوم الذات معارض تماماً للفردية التى تتصور الإنسان ككائن غير اجتماعى، رابطاً على العكس فكرة الذات بالحركة الاجتماعية أى بالعلاقة الصراعية التى تصنع الحياة الاجتماعية. الفردية القائمة على العقلانية الاقتصادية مرتبطة أساساً بتفائل لا محل له اليوم. اورليش بيك Ulrich Beck ، فى حديثه عن "مجتمع المخاطرة" والذى يطلقه على المجتمع الذى تشغل فيه الطاقة النووية، بحوادثها ذات الاحتمال الضعيف والعواقب الهائلة، مكاناً مركزياً، قد أسقط الرؤية التقليدية التى كانت تجعل من الفرد موطناً لما هو غير متوقع فى حين أن النظام الاقتصادى كان يبدو مداراً بالعقل والتقدم. أليس الأمر حالياً هو العكس؟ يسأل أنطونى جيدنس Anthony Giddens ، الذى يحدد مجتمعنا بالبحث عن الثقة فى قلب مجتمع المخاطرة أى بذات تستند على نفسها وعلى علاقاتها البين شخصية وعلى "انعكاسيتها reflexivite" وعلى الشعور العاطفى كى تتزود ضد ما يخبئه لها القدر فى عالم صار عليه اليوم صورة سفينة الفضاء ذات المرامى غير المتوقعة أكثر من صورته الآلة التى تكفل مربودية منتظمة لدى مفكرى التصنيع الأوائل. فلم يعد الفرد هو من يبحث بعقلانية عن ربحه فى السوق أو لاعب الشطرنج، تلك الشخصيات التى تبدو بلا شخصية والتى ستستبدلها النظم التقنية المعقدة فى يوم من الأيام، ولكن أصبح هو الكائن العاطفى المتمركز حول ذاته والمهتم بتحقيق ذاته بنفسه كما يقول جيدنس.

يطور جيندس في كتابه "الحداثة والهوية الذاتية" (1991) أفكاره التي بدأها في كتابه "نتائج الحداثة" (1989) وتبدو موضوعاته قريبة مما أعرضه هنا. أولاً لأن جيندس يلح على تكامل كوكبة الأحداث الاجتماعية مع صعود الفردي، الذي يؤدي إلى إنبثاق "الهوية الذاتية". إن تهاوى الجماعات الصغيرة وقواعدها الثابتة والواضحة يمنح الفرد حرية إختيار أسلوبه في الحياة ولكن يدفعه أيضاً إلى الانعكاسية - أي إلى توجيه سلوكه إنطلاقاً من وعيه به - التي تحتل فيها السيكولوجيا والسوسيولوجيا والاستشارة وكل أشكال العلاج مكاناً يتزايد شيئاً فشيئاً. ولكن هذا الفرد بالنسبة لجيندس يتشكل أولاً بطريقة دفاعية؛ إنه يستند في بداية الحياة على الثقة التي يمنحها الطفل لمن يعتنون به، ثم يحدد نفسه بتمثل خبرات الحياة "في حكاية النمو الذاتي" (P.80).

هذا الهم بالذات، حسب تعبير ميشيل فوكو، ليس له أي مبدأ للوحدة وهو ما يعترف به جيندس في حديثه عن قطاعات أسلوب الحياة . يتعلق الأمر بالوعي بالذات de soi Conscience أي بسلوكيات يتوقعها الآخرون ويحاول الفرد توحيدها؛ إنها مهمة بلا نهاية مشحونة بالنرجسية. هذه الصورة هي صورة التشرنق Cocooning وصورة من سراب الأنا الذي يريد التحكم في ذاته بالانسحاب من العلاقات الاجتماعية المنخرط فيها والتي تهدده. أليس هذا متعارض تماماً مع ما أسميه الذات. التي ليست هي الهم بالذات ولكنها دفاع عن القدرة في أن تصبح فاعلاً؛ أي على تعديل محيطها الاجتماعي ضد سطوة الأجهزة وأشكال التنظيم الاجتماعي التي تتشكل خلالها الماهية؟ الهوية الذاتية التي يستكشفها أنطوني جيندس هي دافع سيكولوجي، ومسيرة للفرد موجهة إلى نفسه في حين أن الذات، كما أعرفها، هي منشق ومقاوم يتشكل بعيداً عن هم الذات، هناك حيث تدافع الحرية عن نفسها ضد السلطة. جاء جيل بعد دافيد ريسمان David Riesman وروبرت بلا Robert bellah أعطى صورة للعادات الأمريكية يضعها في إطار نظرية توكفيل وتوضح حدوده الفردية المتطرفة "وثقافة الانفصال" التي تتبناها. والأمريكيون المنتمون إلى الطبقة الوسطى منجذبون إلى "ثقافة الانسجام" في

العمل أو فى الحياة المحلية أو فى العلاقات الشخصية كما يشهد على ذلك صعود الأيكولوجيا الاجتماعية.

وهذا يعنى أن اكتشاف المرء لنفسه يتخذ أشكالاً على نفس الدرجة من التنوع كأسلوب الحياة الذى يتحدث عنه جيندس وبلا . تقضى الفردية على العلاقات المراتبية والجماعية القديمة، ولكنه لا تشكل نمطاً سائداً للحياة الشخصية والاجتماعية. وهو ما يجب أن يمنعنا من الخلط بين الذات، كأساس متين للدفاع عن الشخص فى صراعه مع أجهزة السلطة، وبين الصورة المتعددة والمتغيرة للفردية والتي، كما يقول روبرت بلا، ما هى إلا طرق متنوعة للتكيف مع محيط متغير. الفردية المتطرفة الشائعة عن الأمريكين بعيدة عن الروح المحلية للمحافظين فى المدن الصغرى وعن تشرنق سنوات الثمانين. لا طائل من محاولة رد هذه السلوكيات إلى نموذج عام. لا ينبغى الخلط بين فكرة الذات وبين لوحة العادات التى تتنوع من بلد لآخر ومن جيل إلى الجيل الذى يليه.

إن ما ينقص كل هذه الصور للفرد هو استخلاص نتائج تدمير الأنا كما أنجزه فرويد. والفرد عندما يعتقد أنه منسلخ برغباته هو نتيجة للنظام وأهدافه وهو ما يضطرنا لأن نفصل بوضوح بين أنا المتكلم، كمبدأ محدد للصمود ضد منطق النظام، وبين الماهية كاسقاط لاقتضاءات وقواعد النظام فى الفرد .

فكرة الذات لا تتعارض مع فكرة الفرد ولكنها تفسرها بشكل خاص. ويلج لوييس دومون مراراً على ضرورة التمييز بين الفرد كتنفرد ملموس والفرد كفكرة أخلاقية. ولكن المعنى الأول وصفى محض، فى حين أن هناك أكثر من طريقة لبناء الفرد كوحدة أخلاقية. بالنسبة للبعض هو البحث عن المنفعة واللذة الفردية والتي يجب أن تكون أساس تنظيم الحياة الاجتماعية؛ وبالنسبة للآخرين الذين لا ينظرون إلى المجتمع كسوق أكثر مما ينظرون إليه كمجموعة من أجهزة القرار والتأثير يرون على العكس فى الذات أولاً مطالبة بالحرية الشخصية والجماعية. وأخيراً هناك من يقفون بين هذين المفهومين المتعارضين فيحددون الفرد بأواره الاجتماعية وخصوصاً بدوره فى الإنتاج ،

ويعتبرونه اذن مع ماركس كائن "اجتماعى". بالغ الليبراليون فى اختزال الفرد إلى مجرد البحث العقلاني عن الربح. الأهمية التى أعزىها إلى الحركات الاجتماعية وإلى ما سميته بعد ١٩٦٨ "الحركات الاجتماعية الجديدة" قد وجهتني إلى المعنى الثانى للفرد؛ فى حين أن الماركسية - وغيرها كثير من المدارس السوسيولوجية - قد اجتازت المعنى الثالث وإن كنت أقاوم استخدام المعنى الأول والثالث لأنه ليس هناك ما هو أقل فردية وأكثر قابلية للتنبؤ بصورة إحصائية من الاختبارات العقلانية، فى حين أن النظرية النقدية قد أظهرت كم كان الفرد موضوعاً لتأثير النظام وفئاته الأدائية والتى يفرضها حائزى السلطة أو تديرها بصورة أكثر انتشاراً نحو تدعيم سطوة الكل على الأجزاء ولكن إذا إستبدلنا بفكره الفرد المشحونة فوق الطاقة بالمعاني المتعددة فكرة الذات الأفضل تحديداً، لن يعود ممكناً التطابق التام بين الحداثة وميلاد الذات وهو ما قادنى إلى تحديد الحداثة بالانفصال والتوتر المتزايد بين العقلنة وتحقيق الذات.

تحلل الأنا

الفكر العقلانى هو فكر معادي للفردية بوضوح، لأنه لا يمكن المناداة بمبدأ عام كونى، وهو مبدأ الحقيقة التى يثبتها الفكر العقلانى والدفاع عن الفردية فى نفس الوقت - اللهم إلا للدفاع عن حرية كل فرد فى البحث عن الحقيقة والتعبير عنها - وهو ما منح الفكر العقلانى قوة كبرى للصمود فى وجه القهر الثقافى والسياسى. موضوع الفردية الذى أحاول أن أظهر غموضه وتشوشه وحتى عدم وجوده، يحجب عظمة الأفكار العقلانية التى تدعو البشر للخضوع لمبدأ ما، للحقيقة التى تعلو بهم فوق تشتت اللهو وإندفاعة العواطف. ولا يمكن لنا ، بعد نيتشه وفرويد، أن نطلق على الفردية اكتشاف الهو، أو بصورة ملموسة الأهمية المعطاة للجنس فى الثقافة المعاصرة وفى الأفكار التى نشأت إنطلاقاً من فلسفات الحياة. هنا أيضاً يحدث عكس التحرر الفردى وهو تحلل الأنا المختزلة إلى أن تكون مكاناً للتوازن غير المستقر والصراعى بين الهو والأنا الأعلى. ولنضيف أخيراً أن ثقافة الاستهلاك تبدو هى الأخرى، على عكس الصورة التى تقدمها عن نفسها، كأحد أسلحة تدمير الأنا والذى يمكن أن نعتبره أحد مهام الحداثة الكبرى.

الأنا الذى كان يعتبر حضور النفس أى الله فى الفرد، قد أصبح مجموعة من الأدوار الاجتماعية . ولم ينتصر إذن إلا فى بدايات الحداثة عندما كان يبدو كمبدأ للنظام، مرتبط بانتصار العقل على العواطف وعلى المنفعة الاجتماعية. وقد إرتبطت الحداثة الأولى بنجاح فن البورتريه فى قلب الحضارة الحديثة، فى الفلاندرز وفى هولندا ولا سيما أيضا فى المدن الإيطالية. يحدد البورتريه الذى كان قد ظهر فى روما الصلة بين فرد ودور إجتماعى. إنه الأمبراطور أو التاجر أو المانع ولكن متحقق فى شكل فردى، ولذة المتفرج هى تخمين العنف، والبخل والشهوانية خلف أزياء البورجوازية والأرستقراطية أو رجال الدين. ولكن ما يطغى هو الدور الاجتماعى، لأنه أولاً هو الذى يفسر وجود البورتريه، الذى أوحى به أحد الأعيان، ثم بعد ذلك لأن نجاح البورتريه يثبت أن هذا الدور لا يمكن استيعابه داخل طبقة أو وظيفة، كما هو الحال فى المجتمع ما قبل الحديث ولكن داخل نشاط يستدعى قوة الخيال، والتى تعبئ الطموح أو الأيمان. فى هذه اللحظة فى بداية الحداثة إانتصرت الفردية مع الروح البورجوازية. ولكن ثقافتنا، بعد قرن طويل من نقد الحداثة العقلانية، قد عملت على تحطيم البورتريه إلى شظايا، وأدت إلى ظهور الرغبة غير الشخصية، ولغة اللاوعى ونتائج التنظيم الاجتماعى على الشخصية الفردية ، بشكل جعل من الإحالة للأنا فارغة من أى معنى.

إذا كان ميلاد الذات مرتبط بإختفاء توافق الأنا مع العالم، فلا يمكن إذن أن تصبح شخصية روائية أو موضوعاً لرسام. ومع تفكك الرواية تنمو كتابة الذات إبتداءً من بروسست وجويس ومع نهاية الرسم التصويري بزغ الانفصال بين اللغة التصويرية التى تبني موضوعات وبين التعبيرية التى تبحث عن تكوين معنى أمام الرأى. يقول سولاجيس Soulages "الرسم ليس وسيلة للاتصال، وأعنى أنه لا ينقل معنى، ولكنه يكون هو معنى بحد ذاته، معنى أمام الرأى بحسب كينونة هذا الرأى" (ber 1991 - Le monde 9-8 septem .

لم يعد الانسان المبدع يتماهى مع أعماله، فقد إستقلت هذه الأعمال بنفسها لدرجة جعلت المبدع يحتاج هو الآخر لأن يستقل عنها. كان الله موجوداً فى العالم الذى خلقه، وأراد الانسان فى بدء الحداثة أن يقلده ويحتل مكانه فدفعه إختياله فى الفخ وصار أسيراً باسم الحرية. وهو ما يضطره إلى العودة إلى الفصل بين الموضوعية والذاتية وأن لا يدرك حريته إلا فى التنقل كالبندول بين الالتزام والتتصل.

هذا الانفجار للأنا Moi يبعد شيئاً فشيئاً الماهية Soi عن أنا المتكلم Je . الماهية هى الصورة التى يكتسبها الفرد عن نفسه من خلال حوارهِ مع الآخرين داخل جماعة. ما يحكم الأمر هنا هى العلاقة الاجتماعية المحددة مع الآخرين، وهو ما يحدد الدور وأغراضه المصاحبة له. يقول شارلز تايلور "لا يكون المرء ماهية إلا بوجوده وسط ماهيات آخر . إذ لا يمكن أبداً وصف الماهية بدون الرجوع إلى من يحيطون بها" (P.33) وهو يستعير مبدأ فتجنشتين فى أن كل لغة تفترض مشاعية اللغات.

توجد الماهية إذن فى مجال الاتصال فى حين أن الذات، أو أنا المتكلم ، توجد فى قلب الفعل أى فى قلب تعديل المحيط المادى والاجتماعى.

قدم جورج هربرت ميد . G.H Mead فى مجال العلوم الاجتماعية فى القرن العشرين التعبير الأكثر تبلوراً لهذا المفهوم للشخصية كتمثل داخلى لنماذج العلاقات الإجتماعية. ولذا يصعب عليه تمييز الماهية عن الأنا Moi . فالأنا هى "مجموعة منظمة من سلوكيات الآخرين يضطلع بها الفرد بنفسه" (P.147) . أما الماهية فتتشكل من الاعتراف بالآخر كموضوع تتصرف أنا المتكلم حياله. إن الجمع بين الأنا والماهية يكون الشخصية. واطروحة ميد الأساسية هى أن "محتوى العقل ليس إلا تطور وإنتاج قام به التفاعل الاجتماعى" (P.163). تتميز أنا المتكلم عن الأنا كبنية نفسية بحريتها فى التصرف سلبياً أو إيجابياً تجاه القواعد الإجتماعية التى تتمثلها الأنا داخلياً. ولكن أسباب الصمود فى وجه عمليات الربط "بآخر معمم" ليست واضحة. يبدو

أن مجرد الوجود الفردي وحده كافى لتفسير هذه الفوارق المألوفة بين فاعل خاص والقواعد العامة. يتحدث ميد عن دور المبتكر والمغير والعبقري ولكنه بعيد تماماً عن فكرة الذات كما أعرضها هنا. ليس للإنسان شخصية إلا لأنه "ينتمى لجماعة ولأنه يتكفل بمؤسسات هذه الجماعة فى سلوكه الخاص" (p.138) : وبشكل أكثر تحديداً يكون «الفرد قادراً على تحقيق ذاته كماهية بقدر ما يستعير سلوك الآخر» (p.165) ليس ميد بالتالى يبعد عن المفهوم التقليدي للشخصية التى تحددها أنوارها الاجتماعية والتى تزداد فريديتها قوة كلما تمتلئ القواعد الاجتماعية داخلياً.

فكرة أن الماهية والذات تتفصلان شيئاً فشيئاً، وفكرة أن الهوية المرتبطة بالماهية تتعارض مع أنا المتكلم - وهو ما يدمر وحدة ما سميناه بصورة غامضة "الشخصية" - لا تفرض تفسيراً راديكالياً، ولكنها تواجه بوضوح كل المحاولات التى تهدف لوضع الفرد والمجتمع، وكذلك الذات والأدوار الاجتماعية فى منظور مشترك. بل على العكس إن الهوية التى بين السؤال والأجوبة هى التى تكفل التغيير المستمر للمجتمع. وكذلك القدرة على التعامل مع هذه الهوية هى التى تحدد فعالية نظام المؤسسات.

لا يمكننى هنا الآن أن أعاود الطريق الذى سلكته من قبل فى الجزء الثانى من هذا الكتاب. إنفراط الصورة العقلانية للحدثة، إنفراط العقل الموضوعى، يظهران القوى الأربع للحدثة والتى تحدد تركيبتهما المشتركة المجتمع المعاصر : الجنس، الحاجات السلعية، المؤسسة الانتاجية، الأمة ؛ ويوجد الأنا المشتت فى الأركان الأربعة لهذه اللوحة. إذ يخترقه الجنس ويصيفه السوق والمراتبية الاجتماعية وينخرط فى المؤسسة الانتاجية ويتمهى مع الأمة، ولا يبدو أنه يعثر على وحدته إلا عندما تفرض إحدى هذه القوى نفسها على الأخريات. هنا يناسبه القناع تماماً ولا يشعر الفرد بنفسه الا تحت السلاح أوفى العمل أو فى رغبته الجنسية أو كمستهلك حر فى إختيار مشترياته التى يهواها. فى المجتمعات الأكثر ثراء يفرض هذا الشكل الاخير نفسه على الأشكال الأخرى مسنوداً بخطاب ايديولوجى مشجع. ولكن فقره واصطناعيته تعادل الفقر

والاصطناعية التي تبثها المؤسسات الانتاجية أو الأمم او الأدب الاباحى. الواقع الوحيد فى هذا المضمار هو الفرد، لأنه هو المكان الذى تلتقى فيه وتتشابك قوى غير شخصية غريبة عن بعضها البعض.

واليوم يلقي الغرب بنفسه بلا حساب، منتشيا بانتصاره على امبراطوريات الشرق ودكتاتوريات الجنوب القومية، فى ليبرالية بلا حدود. لايتعلق الأمر بتحديد الخير ولابتحديد الطريق الذى يقود اليه. ولكن يُكتفى بازاحة السلطات المطلقة والايديولوجيات وترك المجال مفتوحا للمصلحة ولازدهار الفرد وللتعبير عن الرغبات. ليبرالية إنحلالية تخترق المجال السياسى لتقرب بين اليمين المتطرف الإنحلالى واليسار المتطرف من نوع يسار ٦٨. يبدو أن تحديد الخير أمر خطير. إذ يختزل الخير إلى الأصالة ولم يعد يُدرك كنضال تحريرى. تنتصر الفردية ويكون الشر فقط هو المحدد الملامح : تبعية الأفراد ومصالحهم وأفكارهم للدولة الكلية القدرة التى تنادى بحياة الجماعة وتستنكر الغريب وتحذر من كل الأجسام الوسيطة. لقد صارت الأنظمة الشيوعية هى الوجه النموذجى للشر ونشعر بإطمئنان أننا فى الطريق الصحيح عندما نشيد بكل ما ادانته هذه النظم. إن الثقافة المعاصرة ترفض الرمزية، لأنها تحيل الى عالم يتجاوز الانسان، ويستبدل به علامات الخبرة المعاشة مباشرة، والجهد والرغبة والعزلة والخوف، فيستغنى بذلك عن فكرة الذات ؛ طالما أن الجوهرى للمرء هو أن يعيش ويعبر عن نفسه ويتواصل أيضا بون أن يكون مجديا أن يفكر فى نفسه كشئ مختلف عن أن يكون مجرد موضوع يستحلب منه أفضل جزء فيه.

هذه الفرحة بالاستهلاك بلا كايح ليست مدعاة للاحتقار. إنها تميز رد فعل على الانتصار الخائق للايديولوجيات الجماعية التى لم تكن تتحدث الا عن التعبئة والغزو والبناء. ولكن كيف لايشعر المرء بحدود هذه الفرحة؟ لان الفرد فى الواقع ليس إلا نقيض ما يتصوره هو عن نفسه. فبمجرد ما أن تحرر من القيود التسلطية شرع فى التفكك. فمن جانب هو محكم بالموقع الذى يشغله فى السلم وفى الحراك الاجتماعيين : كمن

يتصور أنه يعبر عن نوق شخصى حددته الاختبارات المميزة لفئته الاجتماعية؛ تبدو حريته وهمية بما أن سلوكه قابل للتوقع بدرجة كبيرة. ومن جانب آخر يقوده الهوى اللاواعى وهو ما يسمح للتحليل أن يشجب عن حق أوهام الأنا. أن من لا يتحدثون الا عن الفرد هم من يعتقدون بمنطق النظام ويطاردون بحمية فكرة الذات. اذا كانت مصلحة الإنسان الفردية تقوده ؛ يمكننا أن نفهم سلوكه بون الرجوع الى شخصيته وثقافته وأوضاعه السياسية. ففكرة الذات لايطرحها الا الوعى بالاشكال الجديدة لأزمة الشخصية. المجتمع الليبرالى يلبي رغبة البحث عن المصلحة ولكنه زاهر بالثقوب والتمزقات والتي لا نستمع فى أغوارها إلى صوت الذات ولكن نستمع إلى صرخة، أو حتى صمت، من لا يكون ذاتا، المنتحر أو المدمن أو المكتئب أو النرجسى. وكأن المجتمع حلبة لسباق السيارات تقبع وراءها المستشفى التى يرسل لها المصابون فى السباق.

فكرة الذات بعيدة كل البعد عن الخضوع للقانون أو للانا الأعلى؛ وعلاوة على ذلك ليست هى الأنا. ولهذا السبب أحذر من فكرة الشخص لأنها تفترض توافقا بين الأنا وأنا المتكلم، توافقا أعتقد أنه غير حقيقى. الفاعل هو إرادة واعية لبناء التجربة الفردية ولكنه أيضا إرتباط بتراث جماعى، إنه إنتشاء ذاتى لكنه أيضا خضوع للعقل. إنه لا يضع مبدأ للوحدة نافذ السطوة بديلاً عن العالم المنفرط لما بعد الحداثة ؛ إن الوحدة هنا مفهوم "رخو" يوجد كشبكة من العلاقات بين الالتزام والتتصل، بين الفرد والجماعة اكثر منه تأكيد قطعى جوهري.

ان تفكك فكرة الأنا مواز لتحلل فكرة المجتمع. هذا المجتمع الذى طالما جرى تعريفه كأنا جمعى طابق الكثيرون قبل فرويد بينه وبين صورة الأب أو الأنا الأعلى. أثبت علم الاجتماع المعاصر السمة الوهمية لهذا التصور. فالمجتمع ليس مسخاً للكنيسة والجماعة والمقدس، وليس تشكيلاً وتنظيماً للعقلانية. سواء تعلق الأمر بمجتمع قومى أو بمؤسسة إنتاجية أو بمستشفى أو بجيش. إن مجتمعا ما أو تنظيما ليس الا الحقل

المتغير المتماسك قليلا والمحكوم برخاوة والذي يطرح أكثر من منطق مختلف، وبالتالي مجموعة علاقات متعددة ومفاوضات وصراعات إجتماعية. وقد أثبت علماء إجتماع التنظيم مثل ميشيل كروزيه أنه ينبغي إبدال الاحالة إلى قواعد نظام إجتماعي معين بتحليل استراتيجيات إدارة التغيرات غير المحكومة في معظمها. هناك كثير من السذاجة في إدعاء المؤسسات الانتاجية الدفاع عن ذاتها وشخصيتها وعقلها، وهناك كثير من الأخطار تداهما في استمتاعها بالانرجسية؛ لان الفعالية تقتضى الانفتاح والاستعداد للتكيف والتغير، وللبراجماتية والحساب، في حين أنه على مستوى المؤسسات الانتاجية وكذلك على مستوى الحكومات والأفراد يقود الهوس بالهوية إلى الشلل وإلى سلوكيات دفاعية أكثر فأكثر. لاشيء هناك يملأ المسافة التي تفصل الذات عن أنا هي لذاتها pour soi حسب تعبير كورنوليوس كاستروبيادس Castoriadis . المجتمع والفرد والتنظيم هم، باعتبارهم لذاتهم، قادرون على إمتلاك غاية، وعلى الحساب وعلى حفظ أنفسهم وعلى خلق عالم خاص بهم. ولكن هذا الانغلاق في ما هو لذاته هو نقيض الذاتية القادرة على أن تغير ذاتها وتتصل بالآخرين. الذات تتحدد بالانعكاسية والادارة، وبالتغيير، عن ترو وأناة، لذاتها ولمحيطها. وهو ما يعطى دورا مركزيا، في قول كاستوربيادس للخيال كقدرة على الخلق الرمزي.

سراب الحداثة المطلقة

لقد قادنا مجتمع الاستهلاك بسرعة هائلة إلى ما كان يدركه مجموعة محددة من مثقفي القرن الثامن عشر. والمسافة بين ما هو كائن وما ينبغي أن يكون، بين الرغبة والقانون يبدو أنها أُلغيت كما أُلغيت الحدود بين الانسان من الداخل وسلوكياته الاجتماعية، كما قال دافيد رايزمان David Riesman في كتاب مشهور "الجمهور المعزول". يبدو أن العالم قد عاد مسطحا كديكور أو كصفحة للكتابة. انه لم يعد الانص أوتركيب لعلامات رخوة وغير محددة الاتجاه. الحلم الكبير لهذا المجتمع هو التوافق التلقائي بين العرض وبين الطلب، بين خيال المستهلك وبيع مؤسسات الاستهلاك والاتصال وقوتها. والتفسيرات التي تقدم لمجتمع الاستهلاك هذا ليست ما بعد حداثة

بقدر ما هي بالغة الحداثة حسب تعبير مارشال بيرمان Mareshal Berman الذى استعاره منه سكوت لاش Scott Lash وجوناثان فريدمان Jonathan Friedman. وهو ما يعنى فى الواقع، حداثة متطرفة، معممة، حاضرة فى كل مكان طبقا لمسار مشابه لمسار تحول السلطة الذى وصفه فوكو، مركزة أولا فى القمة ثم تنتشر بعد ذلك فى كل الجسد الاجتماعى والحياة اليومية. هل نحن فى المراكز التجارية، نكون فى مجال داخلى تختلط فيه الرغبات المكبوتة أم نحن فى مؤسسات للخدمة؟

نحن نفهم أن هذا الوضع الذى تختفى فيه الذات وموضوعية العقل معا فى عالم من الصور قد جذب تقريبا كل المستهلكين ابتداء من تدخل الدعاية والاعلان وحتى أشكال أكثر تجريدا، وجميعهم مفتونون بالوحدة الظاهرة لعالم نابع من ماركس والكوكاكولا فى نفس الوقت حسب تعبير جان لوك جودار Jean luc Godard فى فيلم "الصينية". ولكن الا يتعلق الأمر بسراب مشحون بالايديولوجية كالسراب القديم عن تحرر الانسان بالعمل والوفرة؟ هذا الانصهار بين الفرد والتنظيم الاجتماعى فى تدفق الاستهلاك والاتصال اليس هو أكثر حضوراً فى كلمات المعلقين عنه فى السلوك الواقعى؟ فى واقع الأمر تسير الملاحظات السوسيولوجية فى اتجاه معارض لخطاب الفلسفة الاجتماعية الجديدة. أنها تبين انفصلاً شديداً للعالم الذاتى عن عالم الموضوعات والمجموعات الأولية ومجتمع الاستهلاك، كما تبين فى نفس الوقت الآثار السلبية لنويان الذات فى محيط بناءه تجار الوهم. لقد أصاب ميشيل مافسولى Maffesoli Michel عندما رأى قبائل فى المكان الذى يظن أن به أفراداً. فى الضواحي المحيطة بكبرى المدن الغربية نجد أن الشلل أو المجموعات العرقية أو التجمعات ووحدات الجوار هي التى تأتى على ما فى المراكز التجارية. نرى فى مكان صراعات بربرية وعلاقات غريبة وعدوانية بدلا من انصهار الفاعل والنظام فى مجتمع الاستهلاك.

صحيح أن مجتمع الاستهلاك والاتصال بالغ الحداثة وينجز تدمير الماهيات والمكانات الموروثة. ذلك التدمير الذى بدأ فى الرحلة الكلاسيكية للحداثة: ولكن صحيح أكثر أن هذا المجتمع ما هو إلا تحقيق لحركة طويلة من العلمنة، ومن ازالة السحر عن

العالم. والصورة التي يقدمها مجتمع الاستهلاك عن نفسه والتي تضخمها الفلسفة الاجتماعية تحجب التمزقات التي توحى بها طبيعته الحقيقية، كما تحجب القطيعة المتزايدة بين معنى صار خاصاً وعلاقات تغزو الحياة العامة، وبين مشروعات وسوق وكذلك بين بناء القرارات الديمقراطية وحرية الاستهلاك . إن الدفاع عن الذات ضد مجتمع الاستهلاك يكمن أولاً في شجب الايديولوجيا السائدة وفي الكشف، في عالم يقال عليه أنه مسطح ومتآلف، عن علاقات السلطة والتبعية، عن القطيعة والرفض، عن السلوكيات العدوانية والاقنعة. المجتمع البالغ الحداثة لا يوجد فيما وراء الذات والحركات الاجتماعية: إنه يدعم الآليات التي تدمرها ولكنها أيضاً يفسح المجال لعملهم.

إن الفكر الليبرالي، حتى وإن تحدث خطأ عن الفردية، قد استوعب الحركة العامة للقضاء على الماهيات، بل حتى شجع تدمير أوهام الوعي والسريرة، تماماً كما فعل الفكر النقدي الأشد جذرية. تدمير يتم منذ زمان طويل وبقوة لدرجة أننا مبالغون للمطابقة بين الحداثة وبين نتائجها. ألا ينبغي أن نطلق كلمة حديث على مجتمع وعلى ثقافة دفعاً بالعلمنة والتجريبية إلى أقصى مداها، وهما بدورهما قد قضيا جذرياً على كل نداء بمبدأ مركزي في التطبيق، وعلى كل الذوات سواء سميناهما الله أو النفس أو الأنا أو المجتمع أو الأمة؟ وأنا أقبل هذه الأحكام على شرط إضافة إن ميلاد الذات، ليس فقط لا علاقة له بالدفاع عن الأنا وعن الوعي وعن السريرة ولكن أيضاً ينبغي القول بأن تدمير الأنا هو وحده الذي يسمح بإنبثاق أنا المتكلم. وهو ما يقترن بتدمير الطبيعة ذات الشكل الانساني.

مع سيزان Cezanne أصبحت الطبيعة طبيعة وكفت عن ان تكون إنطباعاً وشعوراً وتدخلت من الانسان. وهذا ما أدى إلى اختفاء وحدة الفن : فبينما كانت مدرسة في التصوير تضم السوراليين والتكبيين تستبعد الذات وتبرز البنية ، قصرت مدرسة أخرى - إبتداءً من التعبيرية وحتى التجريد الشاعري - نفسها على الذات أو على إعادة إكتشافها. وحظيت المدرسة الأولى بنجاح كبير لأنها كانت تجعل من الفنانين مبتكري

لغة وأظهر بعضهم قدرة بلا حدود تقريباً على ابتكار سلسلة من اللغات. أعمال المدرسة الثانية أكثر تأثيراً، حتى وإن لم تحظ بنفس القدر من الإعجاب، خصوصاً عندما ربطت تدمير الأنا بإعادة اكتشاف الذات. وهي حالة جاكوميتي Giacometti بشخصه شديدة النحافة والتي يمكن أن توضع أحياناً في علبة ثقاب، تبدو حركة خالصة وزائفة البصر، في حين أن نظرة أكثر انتباهاً تؤكد للتو أن جاكوميتي هو قبل كل شيء رسام بورترية وخصوصاً بورترية شقيقه ديجو وبورترية أيزاكو يواناهاار وايلي كانتور على وجه الخصوص. ألا يقول هو عن عمله : حتى في الرأس الأقل تعبيراً والأقل عنفاً، في رأس الشخصية الأكثر غموضاً والأكثر هلامية، تلك التي تكون في حالة يرثى لها لو بدأت في رسم هذه الرأس وتصويرها أو بالأحرى نحتها، كل هذا يتحول إلى شكل ممتد ودائماً ما تبدو لي ذات عنف مضمّر للغاية، وكأن شكل الشخصية يتجاوز دائماً كينونتها، ولكن هذا الشكل أيضاً هو بصورة ما بؤرة عنف (ecrits p 245) : هذا النص قد أستشهد جزئياً به هيربرت ماتر H. Matter في كتابه "ألبرتو جاكوميتي". ولكن ينبغي التأكيد على تكامل هاتين المدرستين أكثر من التأكيد على تعارضهما : إن ما يقارب بينهما هو قطيعتهما مع تمثيل الأنوار والانماط الاجتماعية، والاستبعاد الكامل لأي مجاز.

أنا المتكلم ضد الماهية Le Je contre le Soi

لا توجد أنا المتكلم إلا عندما لا تستطيع أن ترى نفسها. فهي رغبة الأنا وليست مرآتها. هذا المبدأ ينطبق أكثر على العلاقة بين أنا المتكلم والماهية باعتبارها مجموعة من الأنوار الاجتماعية. وأنا المتكلم لا تتشكل إلا عبر قطيعة أو تمييز بالنسبة لهذه الأنوار. الوجه والنظرة يحتجبان خلف الأقنعة؛ ومن المؤلف ألا نتعرف إلا على أقنعتنا وتنمهي معها، في حين أن وجهنا يبدو لنا غير محدد ونظرتنا فارغة. بالضبط كالعاطل عن العمل الذي يشعر بأنه محروم من الوجود الاجتماعي وليس المهني فقط . يمكن للمجتمع الليبرالي المعاصر أن يحبذ ميلاد الأنا المتكلم لأنه يضاعف الأنوار الاجتماعية

ويمائز بينها، ويفرض في كل دور من أدوارنا شفرة وسلوكيات تتبلور أكثر فأكثر. من فرط ممارسة اللعبة ننتبه إلى أنه ينبغي أن نغير أنفسنا لها لا أن نمنحها أنفسنا تماماً وهو ما يؤدي إلى النرجسية التي ترفض كل التزام وتقفز من دور ومن وضع إلى آخر بحثاً عن أنا متكلم متصلة من كل الأنوار. ولكن ما يمكن أن يؤدي أيضاً إلى إرادة أن يكون المرء ذاتاً، هو أن نكتشف في الموقف سلطة ومنطق لجهاز في مواجهته يبدأ دفاع الذات، بدلاً من التنصل من الأنوار الإجتماعية وتكسير الآلات.

لا يمكن أن نكتفى بالمعارضة التي يقيمها رون هاري Ron Hari بين الشخص والماهية (Self) الشخص بالنسبة له هو الكائن الملموس الموجود اجتماعياً والمرئى على الملأ، المزود بكل أنواع السلطة وبالقدرة على أن يقوم بأفعال عامة تحمل معاني محددة. والماهية هي "الوحدة الشخصية التي أشعر أنها أنا نفسي، وجودى الداخلى الفريد" (P. 16). هذا التمييز يفترض توافقاً - يؤكد عليه رون هاري، (وخصوصاً فى الفصل الرابع من كتابه) - بين الأنا الاجتماعى والأنا الداخلى الذى يعى بوجوده كفرد. هذا الإتصال بين أنا المتكلم والأنا Me، حسب التحليل التقليدى لجورج هربرت ميد، غير كاف. وتقوم المشكلة الرئيسية فى السوسولوجيا بالتحديد إبتداءً من عدم التوافق بين الأنوار الإجتماعية وصور يحددها المجتمع ويفرضها على، وإبتداءً من تأكيدى لنفسى كذات خالقة لوجودها الخاص، وهذه المشكلة هى التعارض بين الحتمية والحرية. ويبدو إريك إريكسون Erik Erikson أكثر حساسية للتعارض بين الماهيات المتغيرة والأنا. فهو يضع تشكل الهوية فى مواجهة التماهيات التى تؤدى إلى "إختلاط الهوية". إن ما أسميه ذاتاً هو تأمل من الفرد لهويته الخاصة.

إن التراجع فيما يخص الأنوار الاجتماعى، وحدود التنشئة الإجتماعية والفصل بين الوظائف الإجتماعية والمشروعات الشخصية كلها أحداث هامة تبعدنا عن الفكرة القديمة للإندماج الاجتماعى وعن النموذج اليونانى للإنسان-المواطن الذى تجاهد مجتمعاتنا الحديثة للدفاع عنه وتجديده - بحديثها عن العاملين أكثر من حديثها عن

المواطنين - فى حين أن الممارسات تبتعد فى معظمها عن هذه الفكرة وأن تأكيد الذات يرتبط أكثر فأكثر برفض النظم ومنطقها فى التنظيم والسلطة كما عبر عن ذلك بحماس كبير أندريه جروز Andre Groz وأورليش بك Ulrich Beck .

لا ينبغي أن يبعدنا شئ عن تأكيدنا الرئيسى : الذات حركة إجتماعية. إنها لا تتكون فى الوعى بالماهية ولكن فى الكفاح ضد أعداء الذات أى ضد منطق الأجهزة ولاسيما عندما يصبح هذا المنطق صناعات ثقافية وبالأحرى عندما يكون لديه أهداف شمولية. ولهذا ارتبط وعى الذات باستمرار بنقد المجتمع، وهذا كان صحيحاً لدى بودلير، وبصورة أكثر درامية فى كتاب "موسم فى الجحيم" وهى لحظة تأسيسية لوعى الذات فى الثقافة المعاصرة. لا تظهر أنا المتكلم لنفسها إلا بالتخلص من كل الروابط الشخصية والجماعية، وبتحويل المعانى وبخبرة صوفية : إن لم تمت البذرة. وهذا الاكتشاف لأنا المتكلم لا يعود سالماً من الجحيم؛ فالذات تحترق فى اللهب الذى أضاء لها وصار رامبو Rimbaud منفياً عن ذاته. نستمتع إلى إقتضاء الذات عبر شهادات الضحايا والمعتقلين والمنشقين وليس عبر الخطب الأخلاقية لمن لا يتحدثون إلا عن الاندماج الإجتماعى. إن إيماءة الرفض والمقاومة هى التى تخلق الذات. وقدرة المرء المحدودة على أن يأخذ مسافة من أدواره الإجتماعية الخاصة وعدم الانتماء والحاجة إلى الاحتجاج كلها تجعل كل منا يعيش كذات. وتحقيق الذات يعارض باستمرار التنشئة الإجتماعية والتكيف مع المواقف والأدوار الإجتماعية، ولكن على شرط أن لا ينطلق هذا التكيف فى ثقافة مضادة للذاتية وأن ينخرط، على العكس، فى الكفاح ضد القوى التى تدمر الذات بفعالية.

تظل فكرة الشخص، على العكس، مخلصة للتراث الأساسى للفكر الغربى، وبالنسبة لها يتجاوز الانسان الفردية التى تأتى له من جسده وحواسه لترتفع إلى العقل؛ لا لأن هذا العقل كونى ولكن لأنه لا يطيع إلا قوانينه الخاصة الموجودة فى الفكر الإنسانى. لقد كان كانط يتحدث عن "الشخصية" Personnalite ولكنه استخدمها

بمعنى "الشخص" وتبعه فى ذلك كثيرون بعده. بل وحتى لدى إيمانويل مونييه Mounier Emmanuel والذي ظهرت لديه موضوعات مختلفة، يعرف تحقيق الشخصية كالالتزام بخدمة القيم العامة، بشكل يجعل الشخص يسمو فوق العالم المادى. وإذا كنت أتحدث عن الذات وليس عن الشخص فلكى أبتعد عن هذا التراث. الدعوة إلى العقل تحرر العواطف ولكنها لا تشكل الذات، إلا فى اللحظات الأولى التى كان الفكر الحديث فيها مازال وريثاً للفكرة المسيحية عن إله عاقل خالق للعالم. هل لديكارت أن يضع الوجود فوق الماهية essence وهل كان يمكنه تصور أن الله قد خلق عالماً لا يخضع لقوانين العقل؟ خصوصاً، وأن انتصار العقل هو إنتصار السلطة الصناعية وسلطة الدولة التى يمكن أن نسميها بصورة سوسيولوجياً "المجتمع"، بحيث أنه أصبح النداء فى العالم الحديث بالالتزام وخدمة العقل هو فى أفضل الأحوال إنغلاق فى قفص التقنية، وفى أسوأها هو مشاركة فى العقل تتم باسم البحث العقلانى عن الانتصار.

يهدف الانقلاب الضرورى إلى ربط الحرية بالذات وليس بالانسان كشىء فى ذاته l'homme -noumen ولكن بالانسان كظاهرة l'homme -phenomen (حسب مصطلحات كانط فى "تأسيس ميتافيزيقا الأخلاق") والانسان كجسد. وليس هذا لاختزال الذات كفرد ولكن لإدراكها على أنها مطالبة بالوجود كفرد، ومطالبة بعيش حياة شخصية، مطالبة هى فى الغالب ضد الأجهزة وتقنيات السلطة؛ وهى أيضاً دعوة لاستخدام قوة العقل للصمود فى وجه السلطة التعسفية أو سطوة الاتصال. الذات لا تتشكل بابتعادها عن الجسد وعن الهو وعن عالم الرغبة ؛ والحدائث لاتعنى سحق العاطفة والعلاقات بين الشخصيات باسم العقل.

بل عل العكس تماماً فالذات دائماً ذات عسية، متمردة على القواعد وعلى الاندماج وتسعى لتأكيد نفسها والاستمتاع بها: وعن طريق مقاومتها للسلطة تحول هذا لتأكيد لنفسها إلى رغبة فى الكينونة كذات. تتحدد الذات بالحرية وبالنضال من أجل التحرر اكثر مما تتحدد بالعقل وتقنيات الترشييد. وهو ما لايجب أن يجعلنا نضع العقل فى

مواجهة الذات. اللذان سنرى فيما بعد أنهما متكاملان، ولكن يجعلنا نفصل بينهما في البداية متخلين عن الفكرة التي ترى أن تحقيق الفرد والتنشئة الاجتماعية هما شيء واحد، وعن فكرة أن الحرية الشخصية لا تتأتى إلا بالخضوع لقوانين العقل ولكن هذا الوعي المأساوي بالذات، المرتبط بالجهد في الانفصال عن الأنوار الاجتماعية وفي مقاومة عواطف الجماعات والرأى العام والأجهزة، لا يمكن له أن يختزل إلى وعي بالتضحية والخدمة، بما أنه لا يخضع لأي قانون ولا أى ضرورة تسمو على الوجود الانساني.

ولكن كيف يمكن لمسيرة نحو الذات أن تكون ساكنة؟ كيف يمكن لها أن تعمل على تحويل تجاوز قواعد الماهية وأوهام الأنا الى خلق أنا المتكلم والعمل على ألا تكون أنا المتكلم هذه وجهاً جديداً لإله خفى يفرض جانسينية جديدة أوفرض أخلاق التقشف والزهد؟ إن من نقدوا الحداثة العقلانية بحثوا عن أجابة في العودة للوجود عبر الحياة أو الإباحية أو تأمل الأفكار. لقد تشكل الفن في المانيا، في نهاية القرن الثامن عشر كبديل عن المقدس والدينى، ودائماً ما بحث نيتشه وأورنو وبارت في الفن عن المطلق بلا تعالى، عما يتجاوز القاعدة والمنفعة. إذا لم نكتف بهذا الحنين للوجود، والذي أصاب ميشيل فوكو بخيبة الأمل عندما بحث عنه في اليونان القديمة، وإذا وعينا بوضوح بأن الذات لا تُختبر إلا في مقاومة الأجهزة بل حتى في مقاومة المجتمع كجهاز شامل، لادررنا أن الذات تدرك نفسها فقط في العلاقة بالآخر كذات. فقط في اللحظة التي تخاطبني فيها الذات الأخرى كى اكون ذاتاً بالنسبة لها أكون ذاتاً بالفعل. ويقدر ما يؤدي الوجود من أجل الغير (*) autrui أى الماهية، بقدر ما يكون الوجود من أجل الآخرين هو الطريقة الوحيدة أمام الفرد كى يحيا كذات. ليس هناك من خبرة أكثر أهمية من العلاقة مع الآخر التي يتشكل خلالها الطرفان كنوات. ولكن سيكون سطحياً أن

(١) يميز تورين بين الآخر l'autre منظوراً إليه على أنه ذات مستقلة، والتعامل معه يكون من شأن الذات: وبين الغير l'autrui وهو الآخر منظوراً إليه في إطار المؤسسات والأنوار الاجتماعية، والتعامل معه يكون من شأن الماهية باعتبارها تتحدد بالصياغة الاجتماعية لها.

نعارض هذه العلاقة الخاصة بالحياة العامة، فكل الأفراد مرتبطون في شبكة من الأنوار، ويوجدون من أجل الغير، ولا يتم اللقاء بالآخر أبداً في أرض مكشوفة كصورة في فليم سينمائي حيث نرى شخصين يظهران أحدهما مقابل الآخر في ديكور خالي. ينبغي دائماً استبعاد العقبات الخارجية والداخلية، وينبغي قبل كل شيء أن يدفع الاعتراف بالآخر كذات إلى المشاركة في جهود الآخر للتحرر من العراقيل التي تمنعه من أن يحيا كذات. وهذه المسؤولية لا يمكن أن تكون فردية فقط، وذلك لأنه إذا كانت الذات دائماً شخصية فإن العراقيل التي تقف في وجه وجودها هي غالباً إجتماعية، سواء كانت في الأسرة أو في الحياة الاقتصادية والإدارية، السياسية أو الدينية. لا إنتاج لأننا المتكلمون حب الآخر، ولا حب للآخر دون تضامن. ينبغي إضافة إنه لا تضامن دون وعي بالعلاقات الواقعية بين شروط حياتي وشروط حياة الآخر؟ لأنه من السهل على البلاد الغنية أن ترسل مليار دولار إلى البلاد الفقيرة عندما يكون هنال عشرين أو ثلاثين مليار دولار تخرج من القارات الفقيرة لتتراكم في بنوك البلاد الغنية. إذا كانت الاخلاق اليوم تبذ السياسة، على الأقل في بعض الظروف وفي بعض أجزاء العالم، فذلك لأننا لم نعد نعتقد أن المجتمع والفرد الأكثر حداثة هم الذين يخضعون أكثر من غيرهم كلية لقوانين العقل. نحن نجد في تأكيد حرية الذات المبدأ المركزي - وليس الاجتماعي، وإن كان مشحوناً بالنتائج الاجتماعية - للصمود في وجه ضغوط السلطة الاجتماعية، سواء كانت سلطه ملموسة في يد ديكتاتور، أو موزعة في كل مسارات التبادلات الاجتماعية.

في البلاد السباق في الصناعة، والموجودة في قلب المجتمع المبرمج، نمت صورة مجتمع الاتصال الذي يغير المفاهيم السابقة للأدوار الاجتماعية. بدلاً من أن تقام وظيفة كل فرد على القدرة الموجود سلفاً، الخاصة بمهنة أو مهارة أو موهبة، يُعاد تحديد النشاط في إطار الاتصال؛ ويتمثل التأهيل في تشفير وإرسال وفك شفرة الرسائل المعقدة بفاعلية كبيرة. وإبتداءً من هنا تكونت إيديولوجيا تشيد بالتبادل وبالتالي بالفهم المتبادل الذي بدونه لن يكون الاتصال ممكناً. إيديولوجيا الجماعات السائدة التي تفرض فكرة أن كل فرد يعبر عن نفسه على أفضل وجه عندما يدخل كله في مسار نقل

المعلومات. نستمع كل يوم إلى مديح مجتمع المعلومات الذى يستقبل فيه كل الأفراد تقريباً معلومات بصورة أسرع من عظماء هذا العالم فى القرن الماضى. وهى ايدىولوجيا ينبغى مواجهتها بالتذكير بأن الاتصال هو تركيبة من مرور المعلومات واستثمار الأفراد فى دورهم الاتصالي: وهما بعدان يتعارضان بسهولة أكثر مما يتكاملان. وينفس الطريقة، تكون الرسائل الإعلانية فعالة لدرجة أن السلوكيات المزمع تغييرها تكون أقل أهمية لدى المستقبلين. فنحن نغير مسحوق الغسيل اسهل مما نغير الدين وهو ما يفسر كون الحملات الاعلانية الاكثر تكلفة مخصصة للجوانب التافهة فى الحياة. إن نظام الاتصال الجيد هو الذى يسمح بنقل رسائل شخصية أى حيث لا تتفصل المعلومات المناسبة عن مجمل عناصر الشخصية وبالاساس لا تتفصل عن مشروع فى السلوك، وحيث تكون اكبر كمية من الضجيج لازمة للسماح بادراك رسالة معقدة. نحن ندخل فى النشاط التقنى جوانب متنوعة أكثر فأكثر للشخصية الفردية. إن انفصال الحياة الاجتماعية والحياة الخاصة المتطابق لزمان طويل مع الحداثة يصبح علامة على شكل بدائى عفا عليه الزمان للحداثة.

ولذا نحن نعود، بعد فاصل دام قرنين، إلى روح إعلان حقوق الانسان المواطن حتى وإن كانت الصورة البرجوازية للذات لا تتناسب مع المجتمع الذى نحيا فيه. وبدلاً من أن نفهم الحياة الاجتماعية من أعلى إلى أسفل ومن المركز إلى المحيط وكأن الممارسات لم تكن إلا التطبيقات الخاصة للقيم والقواعد وأشكال التنظيم العام، ننطلق من إنتاج أنا المتكلم بواسطة الفرد مع كل أشكال تدمير الأنا والماهية التى يقتضيها هذا الانتاج وتسعى بعد ذلك لجعله موعماً لعمل العقل الذى يؤدى إلى نشأة سلطات القهر، ولكن أيضاً وقبل كل شىء قوة دائمة للتحرر.

ساهمت البيولوجيا بشدة فى تيسير فكر للذات لايتعلق بها مباشرة، على الاقل ساهمت فى تدمير التصور الذى يستبعد هذا الفكر. وقد أدت النماذج الفيزيائية زمناً طويلاً إلى إذابة الخاص فى العام، والانسان فى قوانين الطبيعة. وهذه مسيرة بالغة

المركزية فى كل العلوم فلا يمكن استبعادها. لكنها تستكمل اليوم برؤية أكثر تاريخية للطبيعة، رؤية علماء الفلك والجيولوجين، والتي تجاهد فى إعادة بناء تاريخ هذا الكون، وفى نفس الوقت تستكمل بالاهتمام برؤية الفردية الذى شدد فرانسوا جاكوب Jacob Francois على أنه فى مركز علم النسل الذى يدرس، فيما يقول، الآليات الصارمة التى تخلق الاختلاف، وتؤدى إلى أنه لا يوجد فى هذا العالم - عدا التوأم الحقيقى - فردين متطابقين من الناحية البيولوجية. وهذا اكتشاف مرتبط باكتشاف قابلية النظام الإنسانى للتشكيل، ذلك النظام الذى ينتج فيه عشرات المليارات من الخلايا العصبية ومئات المليارات من علاقات تداخل الكروموزوم طاقات للنمو والتكيف عظيمة لدرجة أن التعارض بين الفطرى والمكتسب ينبغى أن يخلى مكانه للاعتراف بالقدرات الفطرية على الأكتساب. فلأن الفرد لم يعد مذابا فى فئات عامة يمكن فحص تركيب الشخص والانا والذات وأنا المتكلم لا كتنشئة إجتماعية ولكن كتدخل للفرد فى نفسه ليؤكد فرديته.

وقد استخدم لوسيان سيف Lucien Seve ، محرر تقرير "البحث الطبى واحترام الشخصية الانسانية" للجنة الوطنية للأخلاق (الأرشيف الفرنسى 1987) ، مفاهيم قريبة من المفاهيم المعروضة هنا، مستنداً على اعتبار أن الذات هى القيمة وليس الشخص؛ وفعلًا تتحدد الذات بتأكيدا بأن الشخص قيمة ويعمل يتم عبر العلاقات الاجتماعية، وخصوصا اللغة عمل يسعى أولا لتكوين جسد ذاتى، أى تكوين أنا قبل تأكيدها لحقوق الشخص. هكذا تتأسس علاقة مباشرة بين الفرد البيولوجى، المتفرد تماما والذات التى تطالب بالحق فى أن تكون شخصا، حق الفرد الموضوعى فى أن يتغير إلى فرد ذاتى بدلا من أن يتماهى بفئة عامة، بل وكونية، ترفعه فوق مستوى فرديته. الفكر الخاضع للفيزياء يؤدى إلى نظرية الأنظمة، والفكر الموجه بواسطة البيولوجيا هو أكثر تحبيذا لنظرية للفاعل ولسياسة للشخص. وهو تعبير ملموس للمبدأ الذى بمقتضاه يكون الاعتراف بالآخر كذات هو فقط الذى يسمح للفاعل أن يشكل نفسه كذات وليس فقط كماهية. هذا المبدأ يبتعد بنا عن الحداثى التى لا تظهر الذات الانسانية بالنسبة

لها إلا فى الفعل الأداة للسيطرة على الطبيعة. وأنا أشارك تماماً يورجن هابرماس رأيه عندما قال فى "الخطاب الفلسفى للحدث": "منذ زمان ونحن لانعول إلا على نوات تتمثل إستعداداتها فى تصور موضوعات والتلاعب بها، وتستثمر جهودها فى هذه الموضوعات وتتعلق بها وكأنها هى نفسها موضوعات. لن يكون ممكناً ادراك التنشئة الاجتماعية على أنها تحقيق للفردية ولن يكون ممكناً كتابة تاريخ للممارسة الجنسية الحديثة يبدأ هو أيضاً من إعتبار أن التمثيل الداخلى للطبيعة الذاتية هو الذى يسمح بتحقيق الفرد. أن القطيعة مع الأسس المتعالية للذات لاتؤدى فقط إلى تجريبية العلوم، بل تؤدى أيضاً، كما كان يقول نوفاليس Novalis للسيطرة على الأنا المفارق وتجعل منها أنا لذاتها الخاصة".

يقاوم الفكر الاجتماعى دائماً مثل هذه الافكار التى تنتزع مما هو اجتماعى بوجه التأسيسى للأخلاقية الذى أعطاه له الفكر الحديث، وارثاً ذلك النزوع عن الفكر اليونانى. ولكن إذا لم تتحاز السوسيولوجيا للذات ضد المجتمع فإنها تحكم على نفسها أن تصبح أداة ايديولوجية فى خدمة الاندماج الاجتماعى وفرض النزعة الأخلاقية، فى أشكال أحيانا تكون وديعة وأحيانا تكون فظة، ولكن تستثير دائماً البحث المأساوى عن الذات الممنوعة.

الذات الغائبة

ظلت فكرة الذات لفترة طويلة متكبرة لدرجة أن الفكر العلمى والنقد اضطرا لمهاجمتها كي يكتشف المنطق غير الشخصى للتصنيف، ولنظم التبادل والأساطير كاللغة واللاوعى. ولكن جاء الوقت لقطع الطريق فى الاتجاه العكسى دون العودة رغم ذلك إلى نقطة البدء وهى النقطة التى كان فيها محور الأنا هو محور العالم، وهى العقل الذى كان ينبغى له إرشاد السلوك الانسانى لانه يجعل الطبيعة معقولة وبالتالي يمكن التحكم فيها واستخدامها.

فى المجتمعات الحديثة والتى تمارس اجراءات تغير كبيرة على نفسها وتتمتع بدرجة عالية من الفاعلية التاريخية لا يكون لتدمير الذات نفس المعنى الموجود فى المجتمعات قليلة الحظ من الفاعلية التاريخية. هذا التدمير هو المواجهة المباشرة بين الهو والأنا الأعلى، بين الرغبة والقانون وهو الذى يكبت فى اللاوعى جزء من اللذة ويمنع بالتالى الفرد من أن يخلق نفسه كذات شخصية. وهو ما دفع محل نفسى مثل لاكان أن يبحث عن ذات الدال والتى لايمكن أن تكون الذات "الشعبية والميتافيزيقية" المنتصرة بسذاجة، كما لايمكن أيضا أن تختزل إلى مجرد "قوى". الذات ضعيفة فهى ليست مقموعة فقط من قبل أجهزه السلطة ولكنها أيضا محرومة من جزء كبير فيها قد تحول إلى اللاوعى. هذا بشكل جعلها لاتظهر ولا تتصرف إلا بالكفاح من أجل تحررها ويفتح مجال داخلها لاتتناقض فيه الرغبة مع القانون. إن الذات تتشكل بواسطة الديمقراطية وحقوق الانسان وبواسطة الحرية والتسامح، وبواسطة تقهقر القانون وتحويل الإندفاعات الى رغبة فى الآخر. لكنها لا تتشكل أبدا بتحولها إلى أنا قانع بنفسه مستسلما للذة الاستيطان النرجسية، ولا بهروبها فى المقابل إلى نظام القانون اللغة غير الشخصية للفعل .

إن الاسهام الرئيسى للتحليل النفسى من فرويد إلى لاكان هو أنه فصل موضوع المنطوق وهو الأنا، عن فاعل النطق وهو ما أسميه الذات. إن المجتمعات الحديثة هى المجتمعات التى يجعل تفكك النظام ولغاته فيها من الممكن السيطرة المفرطة لمنطق السلطة والكبت أو التهميش الذى ينتج عنه ، وكذلك يكون ممكناً أيضاً تشكيل ذات شخصية محتجبة وساعية لتحويل رغباتها إلى سعادة . هذه الذات لاتتصر أبداً فليس لها مكان محفوظ، حتى وإن تصورت أنها وجدته فى أحد نوادى الاجازات، أو فى حياة خاصة منعزلة عن العالم أو فى طائفة دينية جديدة؟ وسوف يكون قبولاً مشيناً بامتيازات البلاد الغنية أن تُختزل حرية الذات فى الحياة المريحة التى تقدمها بسهولة هذه البلاد. الذات لا تؤكد نفسها إلا بنفى المنطق غير الشخصى الداخلى أو الخارجى. وعلى العلوم الاجتماعية ألا تفصل بين الخبرة المعاشة للحرية والتهديدات التى تحقق بها. ينبغى

لعالم الاجتماع والمؤرخ أن يحذرا من الايديولوجيا والارادية وأن يرفضوا كل تماهى للذات مع النظام الاجتماعى. وبصورة أكثر بساطة نقول : ينبغي أن يعترفوا بوجود الجحيم والخطيئة حتى وأن تجليا فى الحياة اليومية. أن قوة الأعمال الكبرى للفكر الاجتماعى، سواء أخذت شكل السوسيولوجيا أو التاريخ أو الروية أو السينما أو المسرح أو الرسم، تمكن من رؤية تدخلات ما هو غائب وخفى ومفتقد. سيكون من الخطأ النظر إلى الاحالة إلى الذات على أنها الطابق العلوى للسلوكيات المؤسسة بصلابة على قاعدة نفعية يأتى فوقها الجهد الجماعى لاكتساب نفوذ سياسى كبير، قبل أن يصل إلى نقد التوجيهات العامة للمجتمع، وهو ما يحدد أى حركة إجتماعية. إن هذه النظرة تفترض أنه عندما لا يوجد هذا الطابق العلوى فإن الطوابق السفلى تبقى صلبة وإن اضطرت فقط لأن تحمى نفسها بغطاء إيديولوجى يقيها من تقلبات الظروف.

فى الواقع، إن غياب الاحالة إلى الذات وإلى العقلانية وإلى الحركات الاجتماعية لا يترك الطوابق السفلى للسلوك سليمة، إنه يبتلعها. إن ما كان يقدمه علم النفس الرومانتيكى على أنه رذائل أو عواطف يمكن أن يعاد تفسيره على أنه تعبير عن إفتقاد، ويبين لنا علم النفس الاجتماعى، فى إدمان المخدرات إفتقاد الذات الذى يدمر فى الفرد قدرته على أن يكون أنا أو ماهية أو كائن اجتماعى. وعندما درس فرانسوا دوبيه Francois Dubet الشباب الهامشين فى كتابه "الحياة الصعبة" أعطى أهمية كبرى لحق هؤلاء الشباب الذى لا يمكن أن يُختزل إلى مجرد نتيجة للتهميش أو للاستبعاد الاجتماعى، لأنه تدمير للأشياء وللذات، وهو ما يظهر الغياب المدمر لأنا المتكلم. وقد وقف ميشيل فيفيوركا على الحدود غير الدقيقة بين حركة إجتماعية منقلبة إلى لاحركة إجتماعية وبين الارهاب الخالص الذى لا يوجد له أى سند اجتماعى واقعى.

فسر كاستروبيادس ولوفور وموران حركة مايو ٦٨ على أنها ثغرة وانبثاق . لهذا التحليل فضيلة الاعتراف بآثر هذا الاحتجاج الشامل. ولكننى أراه رغم ذلك غير كافى

وينبغي أن يضاف إليه الفكرة التي عرضتها في كتابي "الشيوعية الطوباوية"، وهي أن حركة مايو تحمل في داخلها الحركات الاجتماعية والثقافية الجديدة، ولكن يكبح جماحها إيديولوجيا سياسية عفا عليها الزمن وأشكال تسلطية في العمل. في عام 1990 في فرنسا كانت حركة طلاب المدارس الثانوية، على العكس، محرومة من القدرات السياسية وبالتالي محركة من قبل قوى خارجية فأنهات سريعا، إنهياراً صحبه بعض أعمال العنف الهامشية. إن البحث عن الهوية، الذي يأسر الألباب اليوم، لا يعبر عن إرادة في الوجود كذات، بل هو، على العكس، التدمير الذاتي للفرد غير القادر، لأسباب داخلية أو خارجية، على أن يصير ذاتاً. والنرجسية هي أحد الأشكال المتطرفة لهذا البحث المدمر للهوية. الفارغ ينادى الممتلأ، في حين أن الذات هي علاقة غير مباشرة للفرد مع نفسه عبر الآخر وعبر مقاومته للقهر. بدون مثل هذا التحليل نسقط في السوسيولوجيا التي يرفضها هذا الكتاب بشكل مباشر والتي تكون النفعية الاجتماعية والوظيفية بالنسبة لها هي مقياس الأخلاق، والتي تعتبر السلوكيات التي تقلل نظام الأشياء سلوكيات هامشية ومنحرفة.

إن حضور أنا المتكلم يعبر عن نفسه سواء في النموذج الثقافي لمجتمع ما إبتداءً من الأشكال الدينية وحتى الأخلاق العلمانية الراهنة، أو في حركات التضامن والاحتجاج على كل أشكال السيطرة. إن تحليل الذات والحركات الاجتماعية وكذلك تحليل العقلنة لا يمثل القمة ولكن القاعدة، أو نقطة الانطلاق في التحليل الاجتماعي، والسوسيولوجيا التي تعتقد أنها أكثر وضعية وأكثر تجريبية لأنها لا تعرف إلا الأنا والماهية وتنكر أنا المتكلم؛ إنها تضع نفسها في معسكر قوى التحكم الاجتماعي والثقافي والإيدولوجي الذي يحتفظ بسلطة النظام على الفاعلين مستبدلاً بالذات الفرد المستهلك للسلع والقواعد وأشكال التنظيم القائمة. إن الاحالة إلى الذات ليست دعوة لاضفاء بعد روجي أو أخلاقية مجردة مكلفة باحتواء المصالح والعنف. إنها مبدأ مركزي في تحليل كل مظاهر الحياة الفردية والجماعية. أنا المتكلم ليست هي الأنا لكنها تحكمها سواء بغيابها أو بحضورها.

إلتزامات وتنصل

لا تصبح الذات حاضرة بالنسبة للفرد إلا بالتنصل من الأنوار الإجتماعية، وأيضا من الشذرات المنقرطة للحادثة التي تحاول كل شذرة بطريقتها تدمير هذه الذات. إن الاباحية تدمر الذات كما لاحظ السورياليون لأنها تحرر الرغبة اللاواعية، ويدمرها الاستهلاك بطريقة أخرى فهو يستهدف الوصول إلى مستوى إجتماعى معين كما أنه فى نفس الوقت إغواء، أى إنحلال للذات فى عالم العلاقات . يدمرها بطريقة مختلفة تماما التتابع مع المؤسسة الانتاجية وبشكل أوسع الأعمال الجماعية التى تضع الولاء وروح الجسد الإجتماعى والتعبئة العسكرية فوق العلاقة مع الذات. وفى النهاية تتادى الامم بالتضحيات الكبرى لأنها تتكون من موتى ومن بشر لم يولدوا بعد أكثر من البشر الأحياء. بعد قرنين من الإلتزامات الحماسية والهمجية، لم يعد يمكن لنا أن نؤكد نون تحفظ أن الانسان يتجاوز ذاته عبر الإلتزام، بأن يصير خادماً لقضية سواء كانت سياسية أو دينية. يتميز حضور الذات بالمسافة التى يقيماها الفاعل مع وضعه. إنه لم يعد منخرطاً تماماً فى عمله، إذ ينفصل عنه، لا ليراقبه من خارج ولكن ليدخل إلى ذاته ليعايش خبره وجوده من خلال مغزى هذا العمل بالنسبة لوجوده وليس بالنسبة للمجتمع أو للمهمة الملقاة على عاتقه. وهو ما يفعله الرجل المدرع فى لوحة، جيريكو Gericault (متحف اللوفر) فى خضم المعركة، سيفه فى يده والجذع مستدير إلى الخلف، هائم النظرات يفكر فى حياته وفى موته، ساكن فى وسط هياج المحاربين. إذا كانت الرومانتيكية، خصوصاً فى ألمانيا، هى حنين للوجود والجميل وانصهار فى الطبيعة، فقد كانت أيضا عودة إلى الماهية وإلى العزلة بعد الانقلابات الجماعية من جانب الثورة أو من جانب الأمبراطورية. وهذا التخلّى الذى جاءت به الرومانتيكية، بعد أن غيرت نبرتها، استمر يقوى طوال القرن التاسع عشر. لم يدفع أحد تفتت الشخصية إلى أقصى مداه مثل فرانانو باسوا . Fernando Passoa الذى كان يخترع لنفسه أسماء مغايرة : ريكاردو ريس الأبيقورى، والعنيف ألفارو نو كامبوس والعجوز البرتو كاييرو الذى يسكنه القلق. تخيل بورخيس Borges شكسبير يقول لله : "أنا الذى كنت أشخاصاً كثيرون بلا جدوى، أود أن أكون واحداً فقط هو أنا" ولكن الله يجيبه : " ولا

أنا أيضا... أنا لا أكون. لقد حلمت بعالمى، كما حلمت أنت بأعمالك ، ويليام شكسبير. وبين مظاهر حلمى هناك أنت متعددٌ مثلى، ومثلى لست شخصياً بعينه " . هذا التناثر للشخصيات والذي قدم بيرانديللو أقوى تعبير مسرحى عنه يفسر جاذبية الأدب بعد الحرب الأولى ولا سيما فى اللحظة التى تحطم فيها وهم خلود حضارتنا كما يقول فاليرى.

إن تفكيرك الآن إلى وعى وشخصية واضح لدرجة ينبغى معها التخلص من المفهوم المضاد. إن الاتصال المتطرف قد يؤدى إلى إختلاط الذات بالفرد وإلى أنانية حذرة أكثر فأكثر ويؤدى فى النهاية إلى عدم القدرة على النهوض للدفاع عن حرية الذات عندما تكون مهددة. يؤدى هذا فى أحسن الأحوال إلى أخلاق على طريقة كامو Camu : ريو الطبيب فى المدينة المصابة بالطاعون يتقانى مثل تارو وجران، مخاطراً بحياته فى خدمة المرضى دون اللجوء إلى أى إيمان بالله أو بالانسان، دون الالتزام بأى قضية ولكنه لا يتملص من أى طلب، باسم التضامن الانسانى؛ ولكى لا يكون مجرد ضحية وكى يستطيع المواجهة. تشاؤم فعال وعميق خاصة وأن المدينة قبل الطاعون كانت تافهة لا تهتم إلا بالمال. ولكن ما الذى يعادل أخلاقاً لا تليق إلا بالحالات الميئوس منها؟

فلنتذكر أن نداء الذات لا يحل فى الحداثة، محل العقل الموضوعى كمبدأ للوحدة بإتحاده بالعقلنة. الذات ليست مجرد عودة إلى النفس ولا هى مجرد إبتعاد عن الآنأ والماهية. إنها أيضا معنى معطى للالتزامات الآنأ، وهى استدعاء لأنأ المتكلم عبر التزاماتها وليس خارج هذه الالتزامات. وهو ما يجبرنا على النظر لكل أنواع السلوك كبرود أفعال لنوعين من المنطق متعارضين أكثر منهما متكاملين، ويضعنا فى مواجهة السوسيولوجيا التى تجعل من الفرد ومن المجتمع أو مؤسساته مصطلحين يتبادلان نفس الهدف. إن الفارق بين هذين النوعين من المنطق هو ما يفسر أغلب أنواع السلوك فى صراعاتها الداخلية وغناها.

وقد تم التعبير عن هذه الفكرة بوضوح فيما يتعلق بالعلاقات العاطفية. الرغبة في الآخر والاعتراف به لا يسيران بالضرورة سوياً وهو ما يزيد من قوة موضوع الحب : إنه يمثل التزام الذات برغبتها، ويمثل الجمع بين الاباحية والحنان؛ إنه يجعل من الآخر موضوعاً للرغبة وذاتاً في نفس الوقت، ويخلق الانصهار والبعد في آن.

لقد تصورنا الحب لوقت طويل إلهاً يطلق سهماً يخترق القلوب. وعندما تلاشت هذه الصورة مع كل أشكال التمثيل السحري للعالم طابقنا بين الحب وبين الرغبة. إنه يهبط علينا كالقضاء والقدر ويأتى من الجزء الأكثر غموضاً فينا، هو إندفاع أكثر منه شعور، وإنفعال أكثر منه فكرة، وهو ما يتواءم مع إنتصار الفردية وإختفاء كل إحالة إلى المقدس. ولكن ليس كل شئ رغبة، ومعاناة الفراق أو الخسارة لا تُختزل إلى مجرد الحرمان من اللذة. الحب ليس حاضراً فقط في بداية العلاقة أو هو الذى يفتتحها، ولكنه يُصنع بنفس القدر بواسطة العلاقة وبواسطة الاتجاه الذى تتخذه - بسرعة أو ببطء - والذى يسمح بالجمع بين الرغبة التى تدعو للانصهار والاعتراف بالآخر كذات. إتحاد يخلق أو يدمر من خلال الرد المشترك على الانفصال وعلى الصراعات وعلى محن الحياة. إننا لا نولد عشاقاً لكننا نصير كذلك؛ كما أن فرداً لا يكون ذاتاً ولكن يمكن له أن يصبح ذاتاً إذا ما عثر على نفسه فى كل ما يكابده. ليس هناك حب بلا رغبة وبلا اعتراف بالآخر، ولكن أيضاً ليس هناك حب بدون قصة حياة وبدون مقاومة للخصومة أو للضياع. ولهذا إرتبط الحب، فى التراث الغربى على وجه الخصوص، بالموت لأنه بالفعل نقيض الحياة ولأنه كامن فيما وراء الرغبة ويحولها إلى ذات راغبة مخاطراً بأن يجعل من رغبته رغبة مستحيلة.

الحب هو أحد المناطق التى تظهر فيها الذات لأنه لا يمكن إختزاله لا إلى الوعى ولا إلى الرغبة، لا إلى السيكولوجيا ولا إلى الانفعال. إنه التخلّى عن الأنوار الإجتماعية ونسيان النفس بقدر ما هو خبرة للذات تكتشف نفسها باعترافها بالآخر كرغبة وكذات فى آن. فى العلاقات بين الأشخاص وكذلك فى العلاقات الجماعية لا تهدأ الذات أبداً ولا

تتوازن إنها دائماً فى حركة من الابتعاد إلى الانصهار ومن الصراع إلى العدالة. ليس للذات طبيعة ولا مبادئ ولا ضمير، إنها الفعل الموجه إلى إبداع ذاته عبر أشكال من المقاومة التى لا يمكن تجاوزها كلية. الذات هى الرغبة فى النفس.

هذا التوتر بين الذات والالتزام، الشخصى أو الجماعى يوجد فى كل أنواع السلوك الاجتماعى. إن إنخراط الذات فى المؤسسة الانتاجية هو موضوع يفرض نفسه بقوة متزايدة. وفى مواجهة نموذج يابانى يقوم على غياب الإحالة، حتى فى اللغة نفسها، إلى الذات، ويحدد الأنا وكذلك الماهية، بإنتماؤها وولاءاتها، نرى قيام فكرة أن الفعالية المهنية تتعاظم عندما يجتمع مشروع مهنى شخصى مع عقلانية التنظيم. وهو ما نلاحظه جيداً فى منظمات الانتاج الأكثر حداثة، مراكز الأبحاث أو المستشفيات على وجه الخصوص حيث نجد أن الباحثين والمعلمين والمرضى عليهم الاندماج فى نظام معقد من الانتاج ويتحركون بواسطة أهداف شخصية، ولا سيما عبر إلتزام لا بالمنظمة فى حد ذاتها ولكن "بالخدمة العامة" وبالكفاح ضد المرض أو ضد الجهل أو ضد الظلم. ضد الأقوال الدعائية حول روح أو أخلاق المؤسسات الانتاجية تقدم هذه الفكرة الخاصة بالالتزام المزبوج، تجاه المؤسسة الانتاجية وتجاه النفس، تعبيراً ملموساً عن الموضوع العام للربط الضرورى بين التنصل من الأنوار الإجتماعية والالتزام بعلاقات إجتماعية وأنشطة جماعية.

يبدو أن الالتزام الوطنى هو أصعب إلتزام يمكن جمعه مع الدعوة إلى الذات، لأن عدم التوازن يبدو كبيراً جداً بين الفرد وبين كائن جماعى أو القوانين أو السلطات التى تنظم أنشطته. ولكن الدول الغربية كانت أو مازالت بلاداً إستعمارية تجبر مواطنيها على الشعور بإنفصال خبرتين. فلهم خبرة داخلية بجنسيتهم والتى تحتل فيها اللغة والمنظر الخارجى وذكريات الطفولة مكاناً كبيراً؛ ولكنهم أيضاً يستقبلون صورة لأنفسهم يفرضها عليهم من كانوا أو من ظلوا مستعمرين. ولكى نستخدم ألفاظاً أكثر معاصرة، أهل الشمال لديهم صورة عن أنفسهم، ولهم أيضاً صورتهم التى يرسلها إليهم أهل

الجنوب. ولهذا لم يظهر المستعمرون إخلاصاً كاملاً تجاه الإدارة أو الجيش أو الكنيسة التي يخدمونها؛ ونجد أن من بينهم أول المدافعين عن المستعمرين.

لا يوجد توازن مستقر بين هذين الاتجاهين المتعارضين للالتزام والتنصل، ولكن في إطار عدم التوازن هذا يتحقق الوجود الواقعي للذات على أفضل وجه، وهي حالة غير هادئة. ليست الذات أقوى الموجودات، كالآنا الأعلى القابع فوق الفرد وفي وعيه. إنه أرق الموجودات وأكثرها هشاشة ولكنها تمثل في نفس الوقت الاقتضاء الأعظم.

الأخلاق

من الصعب الجمع بين ما هو متعارض: العودة إلى النفس والتنصل من الأنوار الاجتماعية من جهة والفعل التغييري والاندماج في منظمة جماعية للعمل من جهة أخرى. ورغم ذلك لا ينبغي بأي ثمن الفصل بين هذين الوجهين للذات. ولكن ما يجب التخلي عنه هو البحث عن الذات في تطابقه مع اتجاه التاريخ أو مع ميلاد الأمة. نحن نعرف جيداً كم تكون هذه التضحية من أجل القضايا الكبرى مشحونة بالأخطار؛ إنها تمهد لتشكيل سلطات مستبدة وتحول الآخر إلى اجنبي وإلى عدو. هذا المفهوم تزداد ضرورته لأنه بقدر ما تنمو الأنشطة التقنية والإدارية، بقدر ما تتعارض الأيديولوجيات الموجودة في خدمة كبرى المنظمات الاقتصادية والسياسية مع احتجاجات النفوس الطيبة. إن هم الأخلاق الذي يفرض نفسه بقوة كبيرة اليوم، يقاتل هذين الاتجاهين المتعارضين، لأن الأخلاق هي تطبيق مبدأ أخلاقي وليس اجتماعي على أوضاع خلقها النشاط الاجتماعي. يتسع مجال الأخلاق النظرية بقدر ما يتراجع مجال الأخلاق المستلهمة من الدين وبقدر ما يبدو واضحاً للعيان أن التقنية متروكة بلا ضابط، تخضع لسلطة تقنية تفرط في استخدام حقوق العقل بخلطها بين حدود سلطتها وبين القوة الخاصة للحقيقة العلمية. والمدافعون عن الأخلاق يحاربون في جبهتين: من جانب إختزال المجتمع إلى مؤسسة اقتصادية لا تفكر إلا في التجارة الخارجية وفي التضخم وفي السيولة النقدية؛ ومن

جانب آخر ضد العودة إلى الجماعية الدينية. وهو ما يستدعى جهد مزيج للتحليل النقدي ؛ فمن جهة كى لا يختزل العمل إلى جهاز للانتاج؛ ومن جهة أخرى كى لا تختزل صورة الذات الموجودة فى الفكر الدينى إلى مجرد البحث الرجعى عن أخلاق إخوانية.

هناك ربط وثيق بين الذات الشخصية والحركة الاجتماعية فى قلب هذا الكتاب. وهو ما يكذب فكرة البراكسيس وأخلاقية الضمير الحى. تتشكل الذات عبر الكفاح ضد الأجهزة وعبر احترام الآخر كذات؛ والحركة الاجتماعية هى الفعل الجماعى للدفاع عن الذات ضد سلطة السلعة، وسلطة المؤسسة الانتاجية والدولة. بدون هذا الانتقال إلى الحركة الاجتماعية تنحو الذات للذوبان فى الفردية؛ بدون هذا اللجوء إلى مبدأ غير إجتماعى للفعل فى الحياة الاجتماعية تسقط الحياة الاجتماعية فى الاغراء المؤدى للإغتراب والذى يتمثل فى التوافق مع اتجاه التاريخ. لاذات دون التزام اجتماعى، ولا حركة اجتماعية بدون نداء مباشر للحرية ولمسؤولية الذات. هذا الاستبعاد لرؤية متمركزة حول المجتمع واحلال رؤية منتظمة حول الذات الشخصية محلها يتجلى على أفضل وجه فى التعليم. نشعر اليوم بالصدمة لوتهم تحديد هدف التعليم على أنه تشكيل مواطنين مخلصين وعمال مجتهدين وأباء وأمهات واعين بواجباتهم تجاه أولادهم. بل على العكس نجد أن تقدير الذات والتحكم فيها هما بواعث التعليم، ويلاحظ الاختصاصيون النفسيون أن الطفل الذى نقول له "لقد نجحت لأن حظك كان طيباً" لا يصل إلا إلى كفاءة ضعيفة. وينبغى أيضاً ألا يستهدف هذا التقدير للذات الكفاءات فقط ولكن يستهدف أيضاً مقاومة عواطف الجماعة والقواعد الظالمة والتمييز. ولكن الالتزام فى حركة اجتماعية لن يكون له معنى ايجابى إلا إذا تأسس على تقدير الذات وعلى الفضيلة.

الذات ليست مبدأ غير شخصى، كاله او العقل أو التاريخ، حتى وإن كانت الخبرة الدينية، عندما تتخذ شكل دين التجسد والفضل الإلهى، كما فى المسيحية، تقترب من خضوع الفرد لقوانين العقل أو التاريخ. وهو ما يفسر إرتباط التقدم فى تحقيق الذات

بتفسير علماني أكثر فأكثر للألوار والتقاليد التي تتحول من اللغة الدينية إلى اللغة الاخلاقية.

كلما كانت الحداثة حاضرة كلما زالت التمثيلات التي تطابق بينها وبين إختفاء الذات، كالشمس تحل محل القمر في السماء. إن فكرة الذات لا يمكن لها أن تتفصل عن الفاعل الاجتماعي. إذ ينشط الفاعل، فردياً كان أو جماعياً ، لكي يُدخل تحقيق الذات والعقلنة في شبكة من الأدوار الاجتماعية تميل لأن تنتظم وفق منطق اندماج النظام وتدعيم التحكم الذي يمارسه على الفاعلين. الفاعل هو الوجه الآخر للماهية فبدلاً من ان يؤدي ألواراً تناسب أوضاع معينة أو ينطلق في الوعي بالذات، ويعيد بناء الحقل الاجتماعي إنطلاقاً من اقتضاءات من بينها إقتضاء تحقيق الذات الذي يُدخل إلى المجتمع مبدأ غير إجتماعي. لا فاعل بلا ذات ولكن بالأحرى لا ذات بلا فاعل ينخرط بها في الحياة الاجتماعية الواقعية، ويقاقل من أجلها ضد التوازنات والايديولوجيات القائمة. عندما كان تالكوت بارسونز يطور نظرية عامة للفعل، كان يطلق كلمة "فعل" على أداء نظام إجتماعي تديره العقلانية في المجتمعات الحديثة. ليس هناك ما هو أبعد عن هذه الرؤية، والتي تمثل أكثر المحاولات الفكرية طموحاً للسوسيولوجيا الكلاسيكية، من التناول المستخدم هنا والمعروض بصورة أقل جذرية في كتيبي السابقة : "سوسيولوجيا الفعل" (1965) و"انتاج المجتمع" (1973)، لأنه لا يوجد فعل إلا وهو ضد المنطق الداخلي للنظام. يفترض الفعل قدرة ما على التغيير وعلى انتاج مجتمع يميل في المقابل إلى أن يعيد إنتاج نفسه.

تريد السوسيولوجيا "المؤسسية" لتالكوت بارسونز وتلاميذه أن تكون حداثية بما أنها تطابق بين الفعل وبين أنواع السلوك الأداتية وغير الأداتية وبالنسبة للنظام؛ وانا على العكس أبدأ من النقد ومن تفكيك هذه الحداثية واكتشاف الأفكار المهمشة منذ قرنين ومن اعادة تفسيرها من أجل إدماجها في رؤية جديدة للحداثة. رؤيتي أكثر مأساوية من الرؤية الكلاسيكية؛ إنها تعطي رؤية غير إندماجية ودائماً ثنائية القطب

للحياة الاجتماعية؛ في المقابل تحذر رؤيتي من التعارض بين التراث والحدثة المرتبط به تالكوت مثله مثل فيبر وبوركهايم؛ كما تتعرف في الفكر المسيحي وفي فكرة الحق الطبيعي على أشكال من الإحالة إلى الذات ينبغي البحث عن معادل لها اليوم.

من الصعب إجراء قطيعة مع التمثيلات المتعالية للذات بعد قرن من الزمان حيث أصبحت السلطة السياسية حاضرة في كل مكان وكلية القدرة. ألا يغرينا تصور أنه لا شيء يصمد أمامها سوى الاعتقاد الديني والايمان بالله؟ وهو ما يؤدي في أفضل الاحوال إلى رؤية "يهودية" للتاريخ، يعبر عنها بوجه خاص بول ريكور عندما يعرف التاريخ بأنه وعد مقدس مثله مثل الانتظار الانساني لتحقيقه. ولكن بول ريكور نفسه يحذر من إغواء وضع الاخلاق فوق السياسة كالحظة الثابتة للوجود فوق حركية الظواهر الاجتماعية والفردية. من الصعب في مجتمع علماني الاستماع إلى نداء العالم الآخر. إن حضور الذات لا يشبه الشمس التي تضيئ وتدفي الأرض. لا يتم الشعور بهذا الحضور إلا عبر الإحتجاجات الفردية والجماعية ضد أجهزة الادارة والتبريرات التكنوقراطية للنظام الاجتماعي. ليست الذات هي الواحد فوق العالم المتعدد والمتغير ولا تتجلى إلا عبر ومضات من الوجوه والأصوات تبدو للحظة وعبر نداءات واحتجاجات. ولا يمكن تعقل وجودها إلا عبر البحث الهرمنيوطيقى عن الوحدة والتعدد اللذين لا ينفصلان عن كل تمرقات النظام القائم ولا ينفصلان عن نداءات الذات للحرية والمسؤولية. هل يمكن أن ننظم طموحات الذات داخل تاريخ؟ نعم، إلى حد ما، لأن تقدم العلمنة والعقلنة يجبرنا أكثر فأكثر على البحث عن الذات في هذا العالم الأرضي ويجعل من الحنين إلى الوجود الذي جذب الكثير من الفلاسفة مع الزمن أمراً غير واقعي. ولكن في جوهر الأمر تكون الاجابة بلا، على اعتبار أن الذات لا تكشف عن نفسها إلا جزئياً ويستمتع إلى جانب او آخر من ندائها تبعاً للظروف. هذا النداء الذي لا يُصغى إليه إلا إبتداء من اللحظة التي يتم فيها إدراك الوقائع بوصفها وقائع تاريخية. ينبغي على سبيل المثال الاستماع لنداء الذات في الحركة العمالية في المجتمع الصناعي، ولكن هذه الحركة تنتمي إلى المجال التاريخي وتؤمن بالنمو الطبيعي للإنسانية وتقدم القوى الانتاجية وبتعبير أكثر واقعية

هى حركة مختلطة بالفكرة الاشتراكية والتي كنت قد بذلت بصدها جهداً منذ وقت طويل
لأثبت أنها من طبيعة مختلفة. بقدر ما نرتبط بتحليل تاريخى، بقدر ما نعطى أهمية للعمل
الاشتراكى؛ عندما نستبعد مثل هذا التناول نكتشف أن الحركة الاجتماعية تتجاوز مع
حركات أخرى، أقدم أو أحدث ينبثق منها هى أيضاً قوى تاريخية تميز حقبتها كما كانت
الاشتراكية تميز المجتمع الصناعى.

وهكذا نجد تصور مفهوم الذات كتنقيض لمبدأ منظم لثقافة أو لمجتمع وكنقيض
لدين أو لفلسفة أو لايديولوجيا، قد وصل إلى غايته القصوى. فلا يمكن إدراك الذات فى
وضع اجتماعى، فى موقف صمود ونداء ضد نظام أو سلطة. ولا تتحد الذات بمؤسسات
أو بايديولوجيات؛ ولكن فى العلاقات الاجتماعية وفى الوعي بالذات، فى تأكيد أنا المتكلم
فى تعارضها مع كل الأنوار التى تشكل الماهية. إن الفعل أى تعديل الوضع يكون من
الصعوبة بمكان إدراكه بدون الاحتفاظ بمسافة مع الوضع القائم، وبدون هذه الرافعة
التي تسمح بتحريكه. لو إختلطت الدعوة للذات الشخصية بالتعبئة الجماعية لأدى ذلك
إلى قيام سلطة جديدة أشد سطوة من السابقة عليها. وفى المقابل إذا كانت الدعوة إلى
الذات ليست إلا احتجاج فإنها لا تولد إلا ثقافة مضادة وحياة مخنوقة تحت وطأة القواعد
الجماعية أو ممزقة بسبب الصراعات على السلطة. تجمع الدعوة إلى الذات بين الإلتزام
والتنصل، بين الحرية الشخصية والتعبئة الجماعية. هكذا كانت دائماً الحركات
الاجتماعية والتي لا تعتبر مجرد تعبئة للجماهير ولكنها نداءات لما هو غير اجتماعى
لتغير ما هو اجتماعى.

هل الذات تاريخية؟

فى عديد من المقالات استخدمت تعبير: الذات التاريخية وأنا أعترف انه كان
مشحوناً بالتاريخية ويمكن أن نلمح فيه تطابقاً بين الذات والتاريخ، وكأن البروليتاريا،
بعد الثورة البروسية والثورة الفرنسية هى تحقق الروح أو الفاعل التاريخى للكلية. فى
الواقع، إن قراءة هذه الكتابات، وخصوصاً التى خصصتها للحركة العمالية، تبين أنه

لامجال لمثل هذا النوع من سوء الفهم. لأننى أعتبر الحركات الاجتماعية دائماً كفاعلين، وحتى كنويات تتحدد بكفاحها من أجل أن يصيروا فاعلين. إن الحركة العمالية تقوم على "الوعى الفخور" لعمال المهن وليس على "الوعى البروليتارى"، كما أثبتُ فى كتابى "الوعى العمالى"، ولهذا السبب لا أريد اليوم أن أتخلى عن تعبير "الذات التاريخية"، وأنا لا أستخدمه كى أطلقه على التاريخ كذات ولكن على الحركات الإجتماعية والتي تتخذ من خلالها التوجهات الثقافية لمجتمع ما أشكالها الاجتماعية، المتغيرة دوماً حسب الصراعات والمفاوضات بين الأنداد. لأنه لا يجب الاختيار بين ذات تاريخية وذات شخصية؛ فالذات هى شخصية وتاريخية فى آن. فهى تتجلى فى وضع إجتماعى وفى وضع علاقات شخصية أو حتى فى علاقة الفرد بنفسه، وتسعى الذات للعثور على نفسها بتحررها من الاشكال المنقرطة للحدثة وفى نفس الوقت من السلطات التى تختزل كل شئ إلى مجرد شروط لاعادة إنتاجها كسلطة أو شروط لتدعيمها. ينبغى دائماً الوصول إلى الذات الشخصية، أى الفرد كذات فى قلب الأوضاع التاريخية، كما ينبغى اليوم الاعتراف بأن مشاكل الحياة الخاصة، والثقافة والشخصية موجودة فى قلب الحياة العامة.

ينبغى أن تدور خلاصة القول حول الوحدة العميقة بين كل أشكال الدعوة للذات. إن الايمان الدينى قريب من تمرد رامبو وكلا الاثنان بعيدان عن السلطة الدينية والنفعية التجارية. وفى الغرب المعاصر حيث يبدو أن الليبرالية قد انتصرت فى جميع المجالات كما انتصرت الثقة السانجة فى فضائل السوق يكون من العبث الاعتراف بتجليات الذات والدفاع عنها، أيا كان الجانب الذى تأتى منه سواء بزغت من جانب من يؤمن بالسماء أو من لا يؤمن بها.

إن التقدم نحو الحدثة بدلاً من أن يبعد عن الماضى يعيد تفسيره ويستخدمه كدفاع ضد سلطة الاجهزة. وقد حاول المثقفون غالباً أن يجدوا ملجأً من المجتمع التقنى فى الحنين إلى الوجود أو فى الاستمتاع الجمالى. ولكن هذه القطيعة الطوعية مع العالم

الحديث، بنقدها المتشدد للمفهوم العقلانى للحدثات نون أن تستبدل به مفهوماً آخر، قد أدت إلى هذا الانفصال المتنامى بين المثقفين والفاعلين الاجتماعيين. هذا الانفصال الذى أنتج فى زمن ما وهماً حول التأثير الذى يمارسه هؤلاء المثقفون وذلك قبل أن تظهر تناقضات وضعهم واضحة للعيان. إن أهمية جان بول سارتر الكبرى تأتي من كون فكره وحياته قد مرا بكل مراحل هذه العظمة وهذا القول للمثقفين. لقد كان سارتر مؤسساً لفردية ملتزمة تجمع بين نقد الأنا والنقد الاجتماعى وكان بإعتبارة مدافعاً عن الحركة المعادية للاستعمار، قادراً على إعطاء محتوى تاريخى إيجابى لنقد المجتمع ونقد ذاته هو نفسه. ويؤكد، كفيلسوف الحرية، "أن الانسان ليس إلا مشروعاً لذاته، لا يوجد إلا بقدر ما يتحقق، فهو ليس شيئاً آخر سوى مجموع أفعاله وليس شيئاً آخر سوى حياته " (الوجودية نزعة إنسانية P.55). ولكن هذه الحرية، على نحو ما أشار بييرنافيل Pierre Naville، تبدو لامبالية بالاحتميات الاجتماعية. فى الواقع هذه النزعة الذاتية وهذا الغياب لمفهوم الذات كحركة اجتماعية أى تواجه سيطرة اجتماعية هو ما دفع سارتر منذ وقت مبكر للاعتراف بالوزن الطاغى للاحتميات الاجتماعية والسيطرة ويختزل نظريته فى أنها فقط نقد للنظام البرجوازى ودفعه أيضاً إلى الالتحام منذ ١٩٥٣، العام الذى قدم فيه خروشوف تقريره، بماركسية ينظر لها باعتبارها "لا يمكن تجاوزها". وكان هذا هو ما قلص شيئاً فشيئاً من فرديته المعادية للأنا نون أن يقضى عليها تماماً وإن استبدل بها نزعة يسارية نقدية محضة كانت تقترب به من الارهاب وتبتعد به عن الواقع الاجتماعى. هذه سيرة حياة لا ينبغى النظر إليها على أنها فشل أو على أنها إنحراف، لأن سارتر كان دائماً يحتفظ باستمرار بهم الذات ويشهد على ذلك مفهوم العمل الجماعى القائم على الولاء الإختيارى والقطيعة مع الممارسة الخاملة. أما مثقفو الجيل اللاحق عليه فقد إقتصروا على عداء للحدثات يدير ظهره لمسيرة سارتر النقدية ويحدث قطيعة بين المثقفين والمجتمع. قطيعة كان سارتر يتحاشاها طول الوقت وهو ما جعل له تأثيراً كبيراً وياقياً رغم أخطائه المتعلقة بأحكامه السياسية.

أن القضية الكبرى بعد ما فقدت الانتلجنسيا، سواء النقدية أو المتعاونة مع النظم الاستبدادية، تأثيرها، هي إبتكار مفهوم جديد ثرى بصرامته النقدية وأيضاً بثقته فى ذات صارت حاضرة أكثر من ذى قبل بسبب طبيعة الأشكال الجديدة فى السيطرة.

هذا اللاح الذى يشدد على تتصل الذات أكثر من إلزامها، يتوافق تماماً مع فترة انهيار الأنظمة بعد الثورية ومع صعود الفردية لدرجة تستدعى الحذر الجاد والمبكر. ينبغى أن يكون واضحاً منذ البداية أن الذات لا تختلط مع الفرد المعارض للسلطة ولا مع الشعب فى السوق. يمكن أن تكون الذات حاضرة فى هاتين الحالتين ولكنهما يهددانها ويدمرانها. من جانب بواسطة الطبيعة التى تتحدث باسم الشعب وتبنى سلطة دولة تبتلع هذا الشعب؛ ومن جانب آخر بواسطة مجتمع الاستهلاك الذى يخلق وهم الحرية فى اللحظة التى تتحكم فيها المرتبة الاجتماعية فى إختيارات المستهلكين بشكل مباشر.

فيما وراء هذه التذكرة الاساسية والتى لا غنى عنها ينبغى التأكيد على أن المطالب الشخصية لا تنفصل بحال عن العمل الجماعى. ليس هناك إختيار بين ما هو فردى وما هو جماعى ولكنه إختيار بين إنتاج لمجتمع وإستهلاكه، بين الحرية والتحديدات الإجتماعية والتى تتجلى كلاها على مستوى السلوك الفردى وعلى مستوى الفعل الجماعى.

الذات ليست هى وعى الأنا، ولا هى بالأحرى الاعتراف بالماهية الاجتماعية (Self)، بل هى على العكس خروج عن صورة الفرد الذى تخلقه أنوار وعادات وقيم النظام الاجتماعى. هذا الخروج لا يتم إلا عن طريق نضال يكون هدفه هو حرية الذات ووسيلته هى الصراع مع النظام القائم، والسلوكيات المنتظرة ومنطق السلطة. ولا يتحقق هذا الخروج إلا عبر الاعتراف بالآخر كذات، إما بصورة إيجابية بواسطة علاقات الحب والصداقة أو بصورة سلبية برفض كل ما يحول دون تحقق الآخر كذات، سواء

كان البؤس أو التبعية أو الإغتراب والقهر. إن من يعتبر نفسه ذاتاً ولا يرى الآخر الذي بجانبه محصوراً في الصمت أو الموت لا يستطيع أن يخدع الآخرين ولا أن يخدع نفسه، وينبغي في هذه الحالة تفسير سلوكه لا من الداخل ولكن من الخارج كتعبير عن مصالحه وعن الايديولوجيا التي تدافع عن هذه المصالح. وفي المقابل لا تنحصر الحركة الاجتماعية في مجرد الدفاع عن المصالح أو محاولة الوصول إلى السلطة من قبل مجموعة معينة في المجتمع. بل هي دائماً في خدمة الحرية الشخصية ويمكنها أن ترفع من أجلها شعار الثورة الفرنسية: حرية، إخاء، مساواة. هذه الوحدة الوثقى والمستمرة بين حرية الذات والنضالات الجماعية من أجل التحرر من الممكن ملاحظتها اليوم أكثر من ذي قبل، لأن العالم يبدو مشغولاً بالمواجهة القائمة بين النظم الاستبدادية والسوق، بين السلطة المطلقة والأكل الوفير. هذا بشكل يجعل من يطالبون بحرية الذات ومسؤوليتها يسرون بصورة طبيعية بإتجاه اللقاء بمن يسعون إلى إحياء الحركات الاجتماعية.

الأمّل

ينبغي النظر إلى حضور الذات في الفرد على أنه تمييز للفرد عن النظام الاجتماعي وعلى أنه خبرة مباشرة معاشة في آن. وتمتلأ النصوص الدينية بالشهادات حول الحضور الغائب، ويحاول الأدب غالباً إعادة بناء هذه الخبرة، في كتابات برنانوس Bernanos على سبيل المثال، وفي الكتابات التي سادت الفكر الفرنسي في القرن العشرين كأعمال مالرو. وفي مسرحية "حذاء الشيطان" لكوديل Claudel يميل الحب المستحيل إلى التجاوز أكثر من الامتلاك، ولا يكون رفضاً للعالم بل حياة فيه وفي مغامراته وتفاهاته، مستضيئ بنور الله.

وهذه اللغة لا تبتعد كثيراً عن غيرها من اللغات التي لا تحيل إلى الله. إن الفارق بين من يؤمنون بالذات وبين من يؤمنون بالمصالح والقواعد الاجتماعية فقط، أكبر من الفارق بين صورتين للذات حتى وأن آمنت إحداها بالسماء وإمتنعت الأخرى. إن حضور

الذات فى كل أشكاله يشهد على الاشباع الناتج عن التوازن بين ما يرغب فيه كل فرد وبين ما يقدمه له الموقع الذى يشغله. إن فكره الاشباع لا تنفصل عن خضوع الفرد للمجتمع، حتى وإن طابق البعض بين هذا الخضوع وبين السعادة. وهو ما يعبر عنه بوضوح دينرو، وهو فى الغالب مؤلف مادة "المجتمع" فى الموسوعة: كل إقتصاد المجتمع الانسانى قائم على هذا المبدأ العام والبسيط: أريد ان أكون سعيداً". وهو ما يعبر عنه المجتمع المعاصر، الذى اتسع فيه مجال الاستهلاك السلعى، افضل تعبير بكلمة اللذة، بل حتى بالحديث عن أخلاق التمتع Fun morality . هذا الميل للذة محرر. لأنه ليس هناك ما هو أكثر التباساً من طهرية puritanisme جاثمة على مبادئ كبرى تفرض فى الوقت نفسه اندماج متسلط باسم حياة جماعية خانقة ولكنه متوافق أكثر من اللازم مع مصالح التجار، الذين يميلون لقياس درجة الفردية تبعاً لحجم معاملاتهم التجارية.

إن خبرة الذات لا تضع الفرد خارج العالم. ولا تتجسد فى إنصهار فى معنى قادم من عالم مفارق أو حتى فيما هو إجتماعى. إنها مرتبطة بالأمل الذى هو إبتعاد وفراق وأيضاً رجاء فى الامتلاك. هى حركة ملموسة للفرحة بإتجاه سعادة صعبة أكثر منها مستحيلة. يجمع الأمل بين الفرحة والسعادة أو بالأحرى تمتد قواه بين الحركة والاستمتاع.

لا يمكن فصل الحداثة عن الأمل. أمل فى العقل وفتوحاته. أمل مقرون بمعارك التحرر وموجود فى قدرة كل فرد على الحياة أكثر فأكثر كذات. تنادى المجتمعات التقليدية حتى فى بعدها العقلانى بأخلاق الخضوع للنظام بل ويمحو الرغبة والفردية. الأديان السماوية تسودها فكرة السقوط والذات لا تكتشف نفسها فيها إلا عبر عقدة الذنب والوعى بالخطيئة الذى يؤدى إلى طلب العفو والخلاص، وفقط عبر التماهى بالمخلص يكتشف الخاطئ أنه يشترك فى الله الخالق بالعقل والإيمان. يعتبر الوعى الحديث، بصرف النظر عن تنوع أشكاله وتعارضها، تأكيداً للأمل فى الانسان وفى

الكفاح من أجل القضاء على عقدة الذنب. وهو مشروع خطير يتحول في داخله الأمل إلى مجرد شهوة في الاستهلاك سرعان ما يتم التلاعب فيها بواسطة سلطة المال أو سلطة القوة. ولكن لا شئ يمكنه أن يحد من هذا الجهد الحيوى لإحلال الأمل محل عقدة الذنب أى إحلال التحرر محل الزهد. ويقدم السادة والمسودين، كل على طريقته، شكلاً إجتماعياً لهذا الأمل. فالسادة يدعون إلى الفرد كطاقة وكرغبة وكحاجة، والمسودين لا يدركونه إلا عبر الالتزامات والعوائق التي يريدون أن يحرروه منها؛ ولكن يعتقد كلاهما أن الفعل، لو كانت له قوة التحرر، هو أيضاً خلق للماهية. تبدو هذه الرؤية العامة أحياناً مشحونة بالتفاؤل وتتجسد في انجازات وفي ثقة شديدة بقدرة العقل. وأحياناً أخرى على العكس، تحاول هذه الرؤية ان تجد في الانسحاب والتفوق حماية من أشكال السيطرة التي لا تستطيع أن تتحكم في تأثيراتها. لا يمكن أبداً الفصل بين جانب النور وجانب الظل في الأمل الحديث. فبدون نور مدرك أو مأمول لا يكون للفعل معنى، وبدون ظل تبقى الظهيرة ساكنة ولا شئ يمكنه أن يزعج النظام المتقن. إن ما يحد من الفعل في المجتمع التقليدي هو العزلة والجهل والتبعية، وفي المجتمعات الحديثة هو الاثارة وتكاثر الضجيج واستنفاد كل السلع الاستهلاكية. في الجانبين يتسع مجال اللا فعل واللا أمل. ولكن الخلاف بين الفعل القائم على عقدة الذنب والفضل ؛ والفعل القائم على الحرية والأمل ليس أهم من الخلاف بين وقت الفراغ الناتج عن نقص الغذاء ووقت الفراغ الناتج عن الوفرة.

خلال فترة وسيطة بين عالم التراث وعالم الحداثة، تظاهر البشر بمظهر الخالقين وهي حيلة سمحت لهم بتأكيد نواتهم خارج تأثير الله، وحاولوا تقليده باستخدام عقولهم الذي استمروا يعتبرونه صفة من صفات الله الذي خلق عالماً معقولاً. لقد كان الانسان مشغولاً لدرجة أنه اصبح مفتوناً بقدرته وتماهى مع منجزاته، لدرجة أن بطولة البدايات قد أخذت مكانها لطلب على الاستهلاك تم تعويض تفاهته الظاهرة بتقديره لأنه يقوم بتحريك وإثراء عدد كبير ومتزايد من الافراد والفئات الاجتماعية. ينبغي الآن إذن كى لا

يُبتلع الإنسان في الرمال المتحركة لمجتمع الجماهير، أن يعود الإنسان الحديث إلى ذاته، كمبتكر ليس فقط لحركة ولكن لمسافة مع ذاته وليس فقط للتقدم ولكن للحرية. حول مثل هذه التساؤلات وحول الارتداد إلى الذات ينتهي قرن انخرط البشر فيه كلية في الشمولية، وفي الحرب وفي مجتمع الجماهير، لدرجة أنهم هاموا على وجوههم زمناً طويلاً، في ليلة كانت الأضواء الوحيدة المنبعثة من النجوم علامة على نظام العالم وعلى نويا الرب.

عودة إلى الذات. ذات ليست فقط رفض للنظام ولكن أيضاً رغبة في ذاتها. رغبة الفرد في أن يكون مسؤولاً عن حياته الخاصة، وهو ما ينطوي على قطيعة مع الأنوار الاجتماعية وفي نفس الوقت على جهد مستمر لإعادة بناء عالم منظم حول الفراغ المركزي الذي يمكن أن تمارس فيه حرية الجميع. ماتزال فكرة الذات بعيدة عن النفس الفردية وبنفس القدر بعيدة عن البحث الطويلى عن حياة جماعية جديدة، وعن مجتمع قائم على القيم الدافعة للاندماج. إن فكرة الذات تنادى بالإنسان الموجود في العالم وليس بإنسان العالم، تنادى بالإنسان الذي يحول وضعه الاجتماعى إلى حياة خاصة كما يحول إعادة إنتاج النوع إلى علاقات حب وإلى عائلة، ويجد في إنتمائه لمجتمع معين طريق الوصول إلى مجتمعات وثقافات مختلفة. لقد كنا مدعويين لفترة طويلة من الزمان للاندماج والتماهى والتضحية ولأن نقم كل ما هو شخصى فينا. وكنا مفتونين أولاً بفردية الاستهلاك التى سلبتنا بسهولة من أنفسنا. ولكن إقتضاء الوجود كذات حاضِر طول الوقت. وهو يزداد قوة لأنه وحده القادر على الدفاع عن نفسه ضد كل استراتيجيات سيطرة النظام الاجتماعى.

هذا الإقتضاء يبدو ولأول وهلة باحثاً عن معنى للحياة الشخصية وعن تاريخ فردى. ليست الحياة الناجحة هى الحياة ذات المعنى والتى تقدمت من مجرد تصور مشروع كبير إلى تحقيقه سواء كان هذا المشروع فى الحياة الخاصة أو فى العامة، تلك الحياة

التي يمكن إعادة إنتاجها في شكل حكاية narration ؟ على الرغم من ذلك، هذه الصورة التي تنتمي أساساً إلى فكرة الشخص هي خطيرة أكثر منها نافعة. لأنها تمثل الحلم بالصلة بين الفاعل والنظام بين الفرد والتاريخ؛ حلم يلزم التخلص منه. إن ما يؤدي إلى إنبثاق الذات ليس هو وحدة حياة أو بناء الماهية، ولكن تجاوز العقبات ودعوة الحرية والسعي للربط، من خلال حياة فردية، بين شذرات الحداثة. إن تفكك الأنا يمنع الذات من الرضوخ لسحر الماهية الخفى.

الفصل الرابع الظل والضوء

وجهى الذات

أليست الذات ارادة للتوصل ومسافة للابتعاد عن الادوار المفروضة، وحرية فى الاختيار وفى الاستثمار؟ لو كانت كذلك لصارت مرادفا للعقل باعتباره مبدأ تغيير العالم، ولصارت أساس العالم الحديث. ولكن الدفاع عن الذات لا يُختزل إلى مجرد التأكيد الفعال لحريتها الخاصة، انها تستند على ما يقاوم سلطة أجهزة الانتاج أو الادارة. الذات جسد بقدر ما هى نفس، وبقدر ما هى مشروع هى ذاكره وأصول. وهو ما يبدد واضحا فى كل الحركات الاجتماعية. الحركة العمالية هى اراده للتحرر الاجتماعى لكنها أولا دفاع عن الاستقلال العمالى أو عن مهنة، أو عن مدينة أو اقليم. والحركات القومية تكافح من أجل حق تقرير المصير ومن أجل الاستقلال ولكن أيضاً من أجل الدفاع عن الارض وعن تاريخ وعن لغة وعن ثقافة. لقد كان من أول الهموم التى شغلت نقابة تضامن فى بولندا عام ١٩٨١ هو اقامة تماثيل تذكارية تمجيدا للحظات أو للشخصيات الهامة فى التاريخ القومى التى طمسها النظام الشيوعى. وفى الاتحاد السوفيتى جاءت المعارضات الأولى من الذين ينهلون من اعتقاداتهم الدينية القوة التى تجعلهم يقفون مباشرة فى مواجهة النظام وهو ما لا يقلل من أهمية الفكر النقدى لزاخاروف، ولكن يذكر بأن النضالات الكبرى من أجل الحرية تحوز دائما هذين الوجهين الذين يكملان بعضهما : نداء للعقل النقدى ومقاومة من جانب الاعتقادات الاخلاقية والانتماءات الثقافية والاجتماعية للسلطة المطلقة. الذات تخرج من الادوار التى يكلفها بها النظام الاجتماعى من خلال دعوتها لجماعة تقوم على الاصل والاعتقاد وفى نفس الوقت من خلال "هم الذات" والبحث عن الحرية الشخصية.

عندما ينشغل العقل الحديث أساساً بزعزعة النظام التقليدى، فإن العقل و ارادة الحرية الفردية يبدوان مرتبطان احدهما بالآخرى، ولكن كلما ازيج النظام الموروث

واستبدل به تنظيم الانتاج وآلات الادارة، كلما انفك هذا الارتباط واشتد في الوقت نفسه، ارتباط وجهى الحداثة، الوجه الدفاعى والوجه المحرر، أى الانتساب للجماعة ونداء الحرية الشخصية. عندما لا يكون التحديث انتاجا محليا؛ أى عندما لا يعد انتاجا للعمل الخاص بالعقل فى تطبيقه على العلم والتقنية، ولكن يتم بواسطة تعبئة اجتماعية وثقافية ضد "أعداء الحرية" وضد العقبات التى تحول دون تغيير المجتمع والثقافة، فإنه بالماضى نبى المستقبل وكل تقدم للامام يعاش كعودة إلى أصول أسطورية بصورة أو بأخرى.

كيف يمكن لبلدان مستعمرة او مقهورة أن لا تحذر من عقلانية يطابقون بينها وبين القوة التى تقهرهم؟ كيف لا تضع تاريخها وثقافتها فى مواجهة سلطة مهيمنة تتماهى مع الحداثة ومع العقل وتعتبر أن أشكال التنظيم والفكر الملائمة لمصالحها الخاصة اشكالا كونية ؟

ولكن بقدر ما يكون من المستحيل الاكتفاء بكونية مجردة بقدر ما تكون اخطار الدعوة للاختلاف واضحة، وكذلك ايضا أخطار الدعوة للجماعة منظورا اليها بشكل يجعل علاقاتها بالمجتمعات والثقافات الاخرى علاقة ابتعاد ورفض وعدوان. هناك استنتاج يفرض نفسه سواء تعلق الأمر بفرد أو بأمة : توجد فقط بعض صور من الجمع بين الدعوة الكونية للعقل والدفاع عن هوية خاصة ضد القوى العامة كالمال والسلطة تسمح بوجود الذات. هذه الذات تتدمر إذا ما كان هناك انفصال بينها وكذلك تتدمر بواسطة المنطق الاقتصادى او التقنى الذى ينادى بالعقل من جهة وبالدعوات السياسية والدينية للجماعة والقيم التى تختص بها من جهة أخرى . قبل البحث عن صور الجمع بين هذه القوى المتعارضة علينا ان نستبعد بنفس الصرامة كلا الوضعين المتصادمين بلا أمل فى أى مصالحة، فى المجال السياسى كما فى الافكار والتى يؤدى صراعهما إلى جعل تشكل الذات أمرا مستحيلا.

أمنت فلسفة التنوير بطبيعة الانسان، وسعى فولتير على وجه خاص إلى فهم انبثاق هذه الطبيعة لا إلى فهم تغيرها بواسطة التقدم، في حين انكب مونتسكيو على استخلاص روح القوانين. وتمثل النزعة التاريخية قطيعة مع هذه الكونية التي كانت تكتسب عمقا باستمرار. تزداد استجابتنا أكثر فأكثر إلى تعدد طرق التغيير وتعدد الانظمة السياسية أو تعدد صور المجتمع. وهذا لا يؤدي إطلاقاً إلى التخلي عن أى تعريف عام للحدثة، ولكن يدفع إلى عدم الفصل بين الاهداف العامة والوسائل الخاصة والتواريخ المختلفة التي يسعى الافراد والامم بواسطتها للوصول إلى هذه الاهداف العامة وتحقيقها. ولهذا السبب لم يعد العقل يتعارض مع امة منذ ريت هردر، فيلسوف التنوير وتلميذ ليبنتز، بين معرفة التقدم ومعرفة روح الشعب (Volks - geist) .

يمكن أن تكون الامة شكلاً جماعياً للذات. وهي تعتبر كذلك عندما تتحدد بارادة الحياة معا في اطار من المؤسسات الحرة وفي الوقت نفسه تتحدد بذاكرة جمعية. لقد اصبح من المعتاد معارضة المفهوم الفرنسي للامة القائم على الاختيار الحر وعلى التأكيد الثوري للسيادة القومية ضد الملك، والمفهوم الالمانى للامة كوحدة في المصير. وليس هناك ما هو أكثر سطحية وخطورة من هذا المفهوم. فهو خطير لأن هذه الارادة الجماعية يمكن بسهولة ان تختزل إلى سلطة الاشخاص الذين يفرضون ارادتهم على الجميع باسم الامة، وخصوصاً عندما تكون هذه الامة في حالة حرب. وهو سطحي اساساً لأن هؤلاء الذين كانوا قد عبروا بقوة عن وعيهم الوطنى الفرنسى مثل ميشليه Michlet ورينان Renan وبيجى Peguy والجنرال ديغول de Gaule قد شعروا بشدة بالشخصية الطبيعية والتاريخية لبلدهم بجسدها وروحها قدر شعورهم بمؤسساتها، وبالوطن قدر شعورهم بالجمهورية. وكانوا على صواب لان الذات هي دائماً حرة وتاريخ، ومشروع وذاكرة فى آن. إذا لم تكن الا مشروعاً، فردياً او جماعياً، لا ختلطت الذات بانجازاتها وتلاشت فيها. وإذا لم تكن الا ذاكرة لاصبحت جماعة خاضعة لمن يحتكرون الحديث باسم التراث.

من هنا تأتي صعوبة واهمية اندماج القادمين الجدد للأمة. لانه لا يكفى أن يكتسبوا القواعد وأساليب العيش وحقوق المواطنين عبر الاندماج الاجتماعى، والاستيعاب الثقافى والتطبيع، بل ينبغى ايضا أن يشاركوا فى ذاكرة يقوم حضورهم فى الامة بدوره بتغييرها. ومن الخطأ أن نقتضى منهم أن يكتسبوا ذاكرة لامكان لهم فيها وايضا أن يكتفوا بتعددية ثقافية دون مضمون واقعى. ينبغى أن تكون الذاكرة الجمعية حية وأن تتغير باستمرار كي تلعب دورها فى الاندماج بدلا من أن تفرض على القادمين الجدد درسا فى التاريخ جامدا ويقوم بدور ميثولوجيا قومية.

أراد التراث الحدائى النابع من عصر التنوير أن يكون غريبا عن الروح القومى باسم التنقل الحر للأفكار والبشر والسلع. هو ما ساهم فى خلق صراعات تشتد عنفا بين الكونية المرتبطة بطبيعة الحال بالامم السائدة وبين القومية الدفاعية التى اتخذت فى بعض الاحيان شكلا متطرفا من العنصرية. ولقد انتقد بيير اندريه تاجييف - Pierre Andre Taguieff عن حق، اخطار تحول نزعة معاداة العنصرية إلى كونية عدوانية مثلها مثل العنصرية التى تواجهها. واذا كان الوعى القومى قد اتخذ مثل هذه الاهمية فى العالم اجمع فذلك لانه لا توجد ذات شخصية خارج الذات الجمعية، اى خارج الاتحاد بين ارادة جماعية حرة وذاكرة تاريخية. وفى الامم التى استطاعت أن تجمع على افضل وجه هذين العنصرين تجسد بقوة تأكيد الذات الشخصية، حتى فى مواجهة الهوية القومية وكل انواع الانتماء الاجتماعى. لاتوجد ديمقراطية حيث لا توجد جماعة قومية، لانها منقسمة إلى اقاليم أو اعراق أولانها محطمة بسبب حرب اهلية. ينبغى أن توجد الامة كى يستطيع المجتمع المدنى أن يتحرر من الدولة ولكى يستطيع الافراد انتزاع حريتهم الشخصية فى داخل المجتمع. وتتكون الذات فردية وجماعية من روح وجسد والمفهوم الضيق للحدائى هو الذى طابق بين الذات والروح ضد الجسد وبين الذات والمستقبل ضد الماضى. إن الحدائى تتحقق فى تكامل هذه العناصر واندماجها.

عودة الذاكرة

كلما كانت سطوة المجتمعات الحديثة على نفسها قوية، كنتيجة لتطور اقتصادي ولتغييرات اجتماعية متسارعة أو كنتيجة لسياسات تعبوية، كلما انقلبت العلاقة بين السادة والمسودين. كان الشعب في المجتمعات عند دخولها الحداثة يتحدد بنشاطه والمواقع العليا تتحدد بامتيازات موروثية أو مرتبطة بوظائف غير اقتصادية دينية أو عسكرية. في المجتمعات الأكثر تحديثا الآن على العكس يكون القادة رؤساء مؤسسات إنتاجية أو مديرين خصوص أو عموم، في حين ان المقودين قلما يتحدون كعاملين، ولكن اصبحوا يتحدون أكثر فأكثر بصفاتهم الطبيعية أو الخاصة أو الجماعية، بشخصيتهم الفردية من جانب، ومن جانب آخر بانتمائهم لجماعة ثقافية أو مجموعة عرقية أو لجنس. ويتسع باستمرار مجال التدخل المنظم للمجتمع في حياة الافراد، وما هو شديد الخصوصية يجد نفسه بدوره مندمجا في الحياة العامة. والعلاقات والصراعات الاجتماعية التي كانت محصورة أولا في الضرائب اللازمة للسيد أو الملك وبعد ذلك في النشاط المهني قد اتسعت إلى الاستهلاك أي إلى مجمل الثقافة والشخصية. وهذه نتيجة تتعارض مباشرة مع الفكرة المنتشرة عن التقلص المتواصل للعلاقات والصراعات الاجتماعية إلى حقول محدودة. ولكن الفكرتين رغم كل شيء ليسا متعارضتين. فالحداثة تتحدد، كما قال فيبر، بتفرقة متصاعدة لوظائف اجتماعية عديدة، ولكنها تحمل في ركبها اتساعا لسطوة مراكز القرار على الخبرة المعاشة للافراد والمجموعات. نحن مسوقون أكثر فأكثر إلى الحداثة وخاضعون بالتالي إلى مبادرات وسلطة من يقودون التحديث الذي يغير كل جوانب التنظيم الاجتماعي.

من هنا جاء هذا الموقف المتناقض ظاهريا : لم يحدث من قبل في مجتمع لا يتحدد بما فعل أن إتخذت المواقع المعطاة مثل هذه الأهمية. أن هذه الفكرة تصدم من ظلوا مرتبطين بالصورة التقليدية للحداثة كعقلنة. فهي فكرة مرفوضة، على وجه الخصوص، من قبل انصار تحرير المرأة الليبراليين، سواء كانوا جذريين أو معتدلين، الذين يعتبر هدفهم الاساسي هو تحرير النساء أي رفض كل طبيعة نسائية كشرط ضروري لتكافؤ

الفرص. ولكن نجاح هذا التيار لا يمكن له أن يخفى التواجد المتزايد للنساء الحريصات على اختلافهن سواء داخل حركة تحرير النساء نفسها أو فى الحياة العامة، وهو ما تظهره الدراسات حول وضع ونشاط المرأة فى الثقافة كما فى المجتمع. وبنفس الطريقة نجد أن فئات العمر تلعب فى الحياة العامة أو السياسة أو الثقافة دورا متناميا، ودورا لا يستبعد بطبيعة الحال أن يكون الشباب أو الشيوخ شاغلين لمواقع فى فئات متعددة للدخل أو التعليم. وأخيراً كيف لا نعتزف بأن دخول العالم الثالث على المسرح السياسى العالمى يترافق مع اشارات مستمرة إلى الهويات العرقية أو القومية أو الدينية:

فتحدث عن العرب أو عن الامم التى كانت خاضعة للاتحاد السوفيتى أو عن الاسلام، وايضاً عن الباسك والاييرلنديين فى حين اننا كنا نتحدث قديما عن الراسمالية والطبقة العاملة والاشتراكية. هذه الملاحظة لا تحمل اجابة عن السؤال الملح حول الاخطار التى تتطوى عليها هذه العودة إلى الجماعة أو إلى فئات العمر أو الجنس أو إلى العرقية، ولكنها تمنعنا من اعتبارها اثرا من الماضى ينحو إلى الاختفاء. كان هذا سراب العقلانية: وكان على الانوار أن تطرد الظلال بل وحتى الظلمات التى بقيت بسبب العائلة والامة والدين. إن الحداثة التى نحياها مختلفة بشكل كبير: فنحن ندخل فيها روحا وجسد وعقلا وذاكرة مجتمعين. يبدو أن المجال العام للمجتمعات الحديثة قد تضمن اهتمامات تتجاوز تماما الوقائع الاجتماعية والسياسة لدرجة أن هذه الوقائع لم تعد تتمتع بالحسم الذى كان لها فى ما مضى. وأهم هذه الاهتمامات ما يتعلق بالجنس وبالبينة.

إن موضوع الجنس لا يختلط بموضوع وضع المرأة أو وضع الرجل، وهو ما يبرر التفرقة التى تقيمها اللغة الانجليزية بين كلمة *genre* وكلمة *sex* والتى لا توجد فى الفرنسية.

لقد احدث الفكر الفرويدى، القريب من فكر نيتشه كما قلنا، قطيعة تامة مع الصورة التقليدية للأنا كإرادة مستنيرة بالعقل وكحكومة للفرد على نفسه، والانشغال

الحديث بالجنس قد ادخل المقدس والمفارق لما هو اجتماعى فى مجال الكلام فى حين أن الدين كان يحتفظ بالمقدس بعيدا وخاصة فى الاديان السماوية.

أن الاهتمام بالبيئة والاهمية المتزايدة للحزب البيئية يبين بصورة مشهدة إنقلاب الافكار والمشاعر. فى الغالب يبدو انصار البيئة وكأنهم كارهون للحدثة، وكأن البلاد البالغة بعد أن انطلقت فى مسارها عليها أن نستبدل بالتنمية المدمرة للبيئة الاستقرار والتوازن، فى حين أن البلاد القادمة مؤخرا للحدثة عليها أن تحاظر من تقليد نمط تحديث مفترس كالذى اتبعته البلاد الغنية والقوية.

ولكن هذه الصيغة تبقى سطحية حتى وان توافقت مع الاسباب التى تدفع عددا كبيرا من الاشخاص للانتساب للحملات البيئية أو الايكولوجية. لانها تعارض بين ما تسعى الايكولوجيا أو بشكل اوسع البيولوجيا، للتقريب بينها: الطبيعة وفعل الانسان. لقد عارضت أنماط الحدثة الاولى بينهما واشادت بسيطرة الانسان على الطبيعة. اما اليوم فالنزوع يتجه إلى التاكيد، مع الايكولوجيين نوى التكوين العلمى، بان الفعل التغييرى للانسان ينبغى أن يأخذ فى اعتباره الآثار المتنوعة والبعيدة التى يمارسها على كل اجزاء النظام الموجود فيه. كلما اكد البشر على طاقاتهم الخلاقة، كلما عرفوا شروطها وحدودها بشكل أفضل، وكلما حددوا الثقافة ايضا على انها تفسير وتغيير للطبيعة وليس كقهر أو كدميرلها. وما يجرى على الخبرة الفردية يجرى بالصورة نفسها على النشاط الجمعى، وخصوصاً على المستوى الاقتصادى.

أن تعريف الحدثة كانتصار للعام على الخاص امر ينتمى إلى الماضى. والبلاد التى لعبت دورا كبيرا فى خلق الحدثة كانت تميل لان تتماشى مع شكل أواخر من اشكال الكونية. وهذا ينطبق على فرنسا وعلى انجلترا ومؤخرا على الولايات المتحدة وهو ما ساهم فى تدعيم النزوع الاستعماري لهذه البلاد. وقد وهبت فرنسا شكلا سياسيا قويا لهذا الاعتقاد، بتماھيها مع المبادئ التى رفعتها الثورة الفرنسية والتى كانت لحظة خاصة من الاتصال المباشر بين امة معينة ومبادئ ذات مغزى كونى. واليوم

حتى وان لزم فهم اسباب هذا الاعتقاد وقوته، من منا لا يلاحظ افتعالته وخاصيته الايديولوجية؟ ان التأثير الكبير لكتاب فيير عن العلاقة بين البروتستانتية والراسمالية يمكن تفسيره في جانب كبير منه لتكذيبه للمفهوم التقليدي الذي كان يرى الانوار تشرق على اطلال الاعتقادات الدينية، وقد اهتم الفكر الالماني منذ هربر بربط البحث عن الحداثة بالدفاع عن ثقافة وعن شعب يبدو أن التاريخ قد حكم عليهما بلعب دور هامشي. لا يجب أن تقتصر لا المزايم في احتكار الكونية ولا المطالبة بالخصوصية المطلقة ذات الخلاف الجذري مع الآخرين. ترتبط العقلنة بانبثاق الذات المكونة في أن من حرية منتزعة ومن تاريخ شخصي وجماعي مؤكد. ومن هنا يأتي تأثير اليهود على وجه الخصوص، اذا كان البعض منهم ينوب في الشعب والبعض الآخر ينقلب في ارثونوكسية متطرفة، الا أن عدد كبير يجمع بين كونية الفكر والعلم والفن وبين وعي بالهوية وذاكرة تاريخية شديدة الحيوية.

فخ الهوية

هذا الدفاع عن تراث ثقافي بعيد كل البعد عن تأكيد هوية لا تتحدد الا في مواجهة تهديد خارجي وعبر اخلاص لنظام اجتماعي. ونجد مثل هذا التأكيد مألوفا بين المسودين عنه بين السائدين الذي ينحون في الغالب للتماهي مع الكوني. ان من يشعرون انهم مهددون وفشلت جهودهم من اجل الصعود الفردي أو الجماعي، ويشعرون بغزو ثقافة ومصالح اقتصادية تأتي من الخارج ويتصلبون في الدفاع عن هوية موروثه هم حائزوها وليسوا خالقوها. ولكن هذا التأكيد للهوية امر مفتعل. المسودون يجذبهم عالم السادة كعمال البلاد الفقيرة الذين يهاجرون إلى البلاد الغنية التي يمكن أن تمنحهم عملا ودخلا اكبر حتى وان اضطروا لان يصبحوا في المجتمع الذي يدخلون فيه مقطوعى الجنور وفقراء ومستغلين وغالبا مرفوضين. ان المناداة بالهوية يأتي بالامر من جانب القادة السياسيين وايديولوجيين البلاد المقهورة وليس من جانب جماهير السكان. ان هذه المناداة تبرر سياسات قومية تحتقر مصالح الفئات الاكثر عددا بدلا من أن تدافع عنها، هذه الفئات التي تعاني من دولة قادرة وغالبا ما تكون عسكرية، تحل محل مجتمع فاقد القدرة على اي عمل مستقل ويتحول إلى جمهرة أوتجمعات عشوائية.

ان العداء للتنمية يمكن أن يأخذ هذا الشكل العسكرى أو الذى تسوده الدولة أو يتخذ شكل شعبوية يكسوها الطابع الدينى أو السياسى. إن الشعبوية ليست هى الوعى القومى، وبالأحرى ليست هى الإرادة القومية للتنمية؛ انها تلحق اهداف التحديث بالاندماج الثقافى والاجتماعى وهو ما لا يعنى رفض الحداثة ولكن يجعلها صعبة أو محددة، لان كل مسار للتحديث يؤدى إلى اشكال من القطيعة مع الماضى واستعارات من الخارج. الشعبوية مشحونة دائما بفكرة النهضة، أو العودة إلى الاصول، انها تقوم على اسطورة مؤسسية ولا تؤمن بالتقدم ولا تبعية الثقافة للاقتصاد.

ولقد بين جيل كبل Gilles Kepel فى كتابه "انتقام الله" بصورة محددة تعارض وتكامل الأسلمة islamisation من اعلى والتى انتصرت فى ايران مع سلطة الخمينى ولكنها فشلت فى البلاد ذات التراث السنى رغم محاولات تلاميذ سيد قطب، ومحاولات الاسلمة من ادنى ويعتبر "التبليغ" الاتى من الهند، اقوى اسلحته وجبهة الخلاص الاسلامى فى الجزائر اقوى تعبيراتة السياسية. هذه الاسلمة استندت على تحديث اقتصادى متسارع، وخصوصا فى البلاد البترولية، ومرتبطة باندماج اجتماعى غير كافى ويرجع ذلك فى جانب كبير إلى تركيز الموارد فى يد جهاز سياسى معادى للديمقراطية. هذه الاسلمة لا تختزل إلى مجرد سلفية جديدة فهى على العكس مغمورة بافراط فى التحديث وفى نفس الوقت بالحركات الشعبية. وفى ايران، كما بين فاراد خسرو خافار، كان قلب نظام الشاه عام 1979 انتصارا للحركة الثورية التى اختلطت بها الجماهير الفقيرة والنازحين من الجنوب فى طهران والشباب انصار التحديث. هى حركة تحديث لا تجد دعما لها فى بلد استبعدت فيه برجوازية البازار التجارية من السلطة بسقوط مصدق وانتقلت بعد ذلك تحت قيادة الخمينى، وليس رجال الدين، فهو القائد الدينى الوحيد تقريبا الذى خاض كفاحا سياسيا ضد الشاه. ان الاخوانية الدينية الجديدة neo communitarisme لا تتفصل عن حركة اجتماعية تمثل هى بالنسبة لها مرحلتها الدفاعية قبل أن تستخدم كدعم لتكوين ديكتاتورية ثيوقراطية. إن حلف الجماهير النازحة والكادحة مع الطلاب المحرومين من المستقبل المهنى يستثير رد فعل معادى

للحدائق نابع من الورع ومن التضامن الاخواني ومن التعبئة السياسية الاسلامية. هنا وفي حالات اخرى تكون عودة الدين نتيجة لفشل الاندماج الاجتماعي المرتبط بانتشار منتجات العالم المتقدم وعجز القوى السياسية "التقدمية" التي سحقها الدولة القومية. تؤدي هذه الحركات الثقافية أو السياسية إلى الكفاح ضد كل أشكال الفردية. ولكن بقدر ما يكون من الخطر اخفاء خاصية الانغلاق والتحكم الثقافي المتسلط الذي تمثله هذه الحركات والنظم التي تستند عليها، بقدر ما يكون من المستحيل الاقتصار على مواجهتهم بنموذج عقلاني محض، لان هذا النموذج مرتبط بشدة بعلاقات السيطرة التي تساهم في تفكيك المجتمعات المصابة بتحديث قادم من الخارج.

يبو العالم في نهاية القرن العشرين ممزقا بين قواه المتضادة : من جانب هناك العقل الذاتي، الادائي، الذي يجعل من المجتمعات الغنية أسيرة منطق هو منطق الرغبة والقوة في نفس الوقت ، ومن جانب آخر الدعوة المدافعة عن الهوية التي تشل الامم المقهورة والفقيرة. كيف يمكن الرضا بهذه القطيعة ذات النتائج التدميرية من الجانبين والتي تؤدي لتناقضات لا تحل بين الفقراء المهانين والاغنياء المختالين نوى النزوع الابوي؟ في اللحظة الذي يختفي الصدام بين الرأسمالية والاشتراكية بانتصار السوق وانهيار الاقتصاد الموجه واللحظة التي يحتفي فيها بهذا الانتصار من يعتقدون انه نهاية عصر الصراعات الكبرى والاختبارات التاريخية الهامة، نرى اندلاع صراع اخر اكثر عمقا، صراع ثقافي وفي نفس الوقت اجتماعي وسياسي، بين التقنية والدين، بين ما كان يسميه تونيس في نهاية القرن الماضي المجتمع والجماعة. المجتمع مرتبط بالترشيد والعقلنة والجماعة مرتبطة بالدفاع عن القيم التي تتطابق مع اشكال من التنظيم الاجتماعي ولكن لا ينبغي أن نضع العقلنة في مواجهة الجماعة بطريقة بسيطة وسطحية، وذلك لان الدفاع الديني عن الجماعة ليس الا الشكل المتطرف للدفاع الثقافي عن ذات جماعية لا يمكن أن نفصل عنها كلية التأكيد الشخصي للحرية. وينفس الطريقة هذا الدفاع لا يمكن أن يتعارض كلية مع ارادة التحديث الا في حالات متطرفة. ولا ينبغي أن يخفي الصدام المباشر بين التقنية والدين ما هو اهم من ذلك، أي تفاعل العقلنة مع

وجهى الذات : الحرية الشخصية والجماعة. بحيث انه فى حالة ما يكون الصدام حاضرا دائما، كما هو الحال بين الحرية والجماعة وبين النظام الاجتماعى والذات الشخصية أوالجماعية، سيكون من الخطير تمنى انتصار احد الجانبين على الآخر. اذا كان المجتمع مُرشداً فقط فإنه يدمر الذات ويتقهقر بالحرية إلى مستوى اختيارات مطروحة امام المستهلكين فى السوق، وإذا كان مجتمعاً طائفيًا فهو يخنق نفسه ويتحول إلى استبداد ثيوقراطى أوقومى. ان مجتمعا بأكمله موجه إلى تحقيق الذات لا يكون ذا تماسك لا اقتصادى ولا أخلاقى. وما هو جدير بالاعتبار فيما توحى به صورة الصدام بين التقنية والدين هو فكرة أن الوساطة بين هذين النمطين المتعارضين تماما فى النظام لايمكن أن تأتى الا من الذات كحرية؛ ذاتاً لا تنفصل لا عن العقلنة التى تحميها من تنشئة اجتماعية خانقة ولا عن جنور ثقافية تؤمنها ضد اختزالها لحالة المستهلك الخاضع للتلاعب. ينبغى أن يترابط وجهها الذات حتى يمكنها مواجهة النمطين المتعارضين والخطيرين اللذين يؤديان إلى تدميرها لصالح النظام الاجتماعى، النظام المنتج أوالموروث، نظام التكنيك أوالدين.

ان غموض الدعوات إلى الهوية والتى تنتقل بسهولة من بحث ما كان قد اطيح به بفظاظة بواسطة التحديث الراسمالى إلى الانغلاق فى الخصوصية الثقافية وإلى تسلط السلطة السياسية والتى تنصب نفسها مدافعة عن الهوية، نجده فى حركات الدفاع عن البيئة. وهنا ايضا يتزايد الاغراء بالاطاحة بالذات وذلك بالاقتران على رؤية الانسان من الخارج كجزء من نظام يعمل حسب قوانين غريبة عن نوايا الفاعلين. ولكن النقد الصائب لهذه النزعة الطبيعية الجديدة لا ينبغى له أن يخفى السمة الايجابية للحركات التى ترفض أن تطابق بين الانسان وبين منجزاته والتى باقرارها بعوائق وحدود التنمية، تقوم بمراجعة فلسفات التاريخ "التقدمية" التى ورثناها، وتهىئ الشروط للاكتشاف الجديد للذات التى لا توجد خارج العالم ولا فى مركزه، ولكن توجد مهددة من قبل منجزاتها ومحررة بواسطتها فى نفس الوقت. عندما تتفادى الايكولوجيا السياسية شرك العداء العام للتنمية تقدم إسهاما هاما لتجاوز النزعة التاريخية التى تأثرت بها الحركة العمالية

والفكر الاشتراكي على وجه الخصوص. هذه الافكار يدافع عنها بالطبع شريحة متزايدة من الرأي العام الذي يتميز بارتفاع مستواه من المعرفة العلمية عن المتوسط العام. لأنه إذا كان العقل يسمح بالصمود في وجه خطر الطائفية والبيئية المتطرفة، فهو يسمح أكثر بالربط بين الذات - الحرية - الجماعة والتي هي أيضا ذات واعية بانتمائها لوسط طبيعي.

ينبغي بالفعل أن نرى في العقلنة الحليف الذي لا غنى عنه لروح الحرية ضد ضغوط الجماعة. العقل والحرية لا يعتمد كل منهما تماما على الآخر وذلك لأن الذات لا تختزل في الدور النقدي والأداتي للعقل، وإن كان العقل النقدي يحمي الحرية الشخصية ضد الجمود الطائفي. إن من نطلق عليهم الغربيين قد أصابوا عندما واجهوا أشكال الاستبداد الشمولية الجديدة والتي أعقبت حركات التحرر الاجتماعي والوطني في العالم الشيوعي والعالم الثالث وذلك عن طريق انفتاح مجتمعهم الذي تستند فعاليته التقنية على اقتصاد السوق، والذي يشكل في حد ذاته أفضل حماية ضد التعسف والمحسوبية والفساد والشلالية. هذا المفهوم الدفاعي للحرية شديد القصور، ولكنه ثمين جدا لدرجة لا يجوز معها إهماله أو نقده بقسوة.

الدين والحدثة

ظلت العلاقة بين المسيحية والحدثة في فرنسا والبلاد ذات التراث الكاثوليكي حبيسة تصور ايديولوجي فظ. كان الدين هو الماضي والظلامية، وتحدت الحدثة بانتصار أنوار العقل على لاعقلانية العقائد. ألم يكن المجتمع الريفي في الغالب مجالا مغلقاً، مهموماً بالاستمرارية أكثر من التغيير، وتهتم الكنيسة - يساعدها النساء على وجه الخصوص - بالاحتفاظ فيه بتحكمها الثقافي في العقول المضطربة بسبب اغواء المدينة والتقدم؟ لقد تأكدت هذه الرؤية الكاريكاتورية بالصدام بين رجال الدين والعلمانيين والذي كان في حقيقة الأمر صداماً بين فرنسا التقليدية والطبقات الوسطى بالاضافة إلى الطبقة العاملة الصاعدة. تستند هذه اللوحة على وقائع لا تقبل النقاش ولكنها لا تفسرها جيداً. فمن الاجدر القول بأن مقاومة المجتمعات الريفية - وكذلك

الحضرية - للتغيرات الاقتصادية والثقافية قد استندت على اعتقادات، وعلى شكل من الملكية أو التنظيم الاجتماعي، بدلا من القول بأن الدين بطبيعته يلعب دورا محافظا وأنه، على العكس من روح التنوير، يشجع على توسيع المشاركة الاجتماعية.

ينبغي التخلص من هذه التطورية التبسيطية التي تعرف التحديث كانتقال من المقدس إلى العقلاني. هل يجب على مرة أخرى أن اشدد على أنه ينبغي تعريف الحداثة كإنقطاع للصلة بين الذات وبين الطبيعة؟ إن صورة العالم المقدس، متغلغلا في الخبرة اليومية، هي صورة معادية للحداثة، ولكن صورة النظام العقلاني للعالم، الذي خلق اللوغوس أو المهندس العقلي الكبير، لا تختلف كثيرا عن التمثيلات الدينية للكون قدر اختلافها عن الفكر ما بعد الديكارتي القائم على ثنائية عالم الذات، أو العالم الداخلي، كما يقول القديس أوغسطين، وعالم الموضوعات. بالدخول إلى الحداثة، يتفجر الدين ولكن تبقى عناصره لاتختفى. الذات، عندما تكف عن أن تكون إلهية أو عن أن تتحدد كعقل، تصبح انسانية، شخصية، وتصبح علاقة ما للفرد أو لمجموعة مع نفسها.

لن أعود هنا للتعرض لما يمثله الموضوع الاساسى لهذا الكتاب ولكن في المقابل ينبغي تحديد اشكال أخرى، إيجابية أو سلبية، للاحتفاظ بالتراث الدينى فى المجتمع الحديث. وأعنى بإيجابية هنا الاعتقادات والسلوك التى تبقى على الفصل بين الزمنى والروحى وهذا جانب هام فى المسيحية، ويراه بعض المؤرخين وعلماء اللاهوت فى اليهودية وفى الاسلام أو فى البوذية وحتى فى الكونفوشية: مثل العقائد التى أنشأت أخلاقاً للنوايا بعيدة عن أخلاق الواجب. وأعنى بسلبية، الاعتقادات والمؤسسات التى تضيف القداسة على ما هو اجتماعى.

تظل فكرة أن الحياة الاجتماعية ينبغي أن تقام على قواعد عامة ولاسيما على دعائم دينية فكرة قوية فى العالم الغربى. وتكتسب هذه الفكرة قوة خاصة فى الولايات المتحدة حيث يُعترف بالكتاب المقدس كأساس دينى للدستور وحيث يبين عالم الاجتماع روبرت بيل الاساس الدينى للقواعد الاجتماعية فى هذا البلد، وهو ما يشير إلى أن الثقافة

السياسية فى الولايات المتحدة ظلت قريبة من القرن الثامن عشر ومن نزعة الألوهية deisme على خلاف بلاد أوروبا الغربية المتأثرة بقومية القرن التاسع عشر.

هذه الأخلاقية التحديثية التى تربط العقل بالدين وتعارض إذن بين السوية والانحراف وتجعلهما يقومان على تمثيلات اجتماعية ودينية فى آن، تجد نفسها فى مواجهة وضع مضاد لها تماماً، وهو الذى يدافع عن جماعة مهددة من قبل تحديث يعاش كغزو. لقد دافعت الشعوب المسيحية عن نفسها ضد الغزو التركى، وتماهت الامة البولندية مع الكنيسة الكاثوليكية للحفاظ على هويتها ضد السيطرة الروسية، ويوجد على وجه الخصوص جزء من العالم الإسلامى قد انزلق إلى التبعية والتخلف النسبيين منذ بداية "الازمنة الحديثة" يستدعى تراثاً اجتماعياً وثقافياً ودينياً فى آن ليواجه به اندماجاً من نمط استعمارى فى نموذج سوق عالمى للسلع والأفكار تسيطر عليه القوى "المركزية". وهو ما يؤدى إلى تطابق مفرط بين الزمنى والروحى وإلى تحويل الدينى إلى قوة سياسية واختزال الحداثة إلى تقنيات موضوعة فى خدمة إرادة للدفاع أو للهجوم.

هذه هى "الأصولية" integrisme التى لم ينتقدها العلمانيون فقط ولكن انتقدها من يعتقدون أن العودة إلى الإيمان الإسلامى هو أفضل وسيلة للكفاح ضد الإسلام السياسى islamisme .

فى النهاية ، يوجد إلى جانب تكون الذات الشخصية والأخلاقية التحديثية والاخوانية الدينية الجديدة، شكلاً محدوداً للفصل بين الدين والحداثة وهو الذى يؤدى إلى تنمية دين خاص مضاد لحياة حديثة عامة. وهذا ما يفسر تزايد الطوائف الدينية الجديدة فى العالم المسيحى سواء الكاثوليكي أو البروتستانتى. هناك فنيون وحرفيون وموظفون يعيشون، إلى جانب حياتهم فى المكتب أو العمل، خبرة دينية جماعية، خارج المؤسسات الدينية أو على هامشها. يصلون معاً أو ينتظرون قدوم الروح القدس. وهذا مسلك حديث لأنه يؤدى إلى تمزيق وحدة العالم الإنسانى والعالم الإلهى التى كانت

تحافظ عليها الكنائس التقليدية الرسمية والمرتبطة بالسلطة السياسية، وفي نفس الوقت هو مسلك معادى للحدائق لانه يسعى، وإن كان على مستوى محدود، للعثور على كلية الخبرة الجماعية والحضور المباشر للمقدس.

هكذا يتكون مجموع من الأنماط الثقافية النابعة من الدين يتراوح بين الإخوانية الدينية الجديدة وبين التأكيد، ليس الدينى وإنما ما بعد الدينى، للذات الشخصية، مروراً بالاخلاقية التحديثية وخصخصة الحياة الدينية. وهذه نتيجة تختلف كثيراً عن التضاد اللفظ بين الدين والحدائق.

ومن اللائق هنا أن نتخلى عن أى تفسير تطورى، فاحتلال الأخلاقية لمثل هذه المكانة الهامة فى بلد بالغ التحديث كالولايات المتحدة يفرض علينا ذلك. أليس ما يتسم به مجتمع حديث هو ابتعاده عن التطابق مع نظام من العقائد والقيم بشكل يجعله ينتج فى عملية واحدة عقائد تحبذ التحديث والعلمنة وأخرى تعارضها؟ فالمجتمعات الأكثر تحديثاً ليست هى الأكثر لامبالاة تجاه الدين والأكثر تخلصاً من المقدس ولكن هى التى استكملت القطيعة مع العالم الدينى، عبر التنمية المترافقة لتأكيد الذات الشخصية ولمقاومة الهويات الشخصية والجماعية للتدمير.

الخطر الشمولى

ينظر إلى التحديث فى البلاد الأكثر مركزية على أنه ممارسة للعقل. وهو ما اعتقده فى صور مختلفة الانجليز والامريكان وأساساً الفرنسيون الذى طابقوا بين تقدم العقل وإرادة مركزية للتحديث. وهو ما يفسر عمل فلاسفتهم كمستشارين للحكام المستنيرين فى روسيا وبروسيا فى القرن الثامن عشر، ويفسر أن الدولة، ابتداء من الثورة الفرنسية، قد تطابقت مع العقل ونجحت فى اقناع جزء كبير من السكان - وفى مقدمتهم الموظفون فيها - بمهمتها الكونية.

ولكن هذا التماهى بين أداء الحداثة وقوى التحديث فى المركز ليس مقنعاً فى المحيط، ونجد أن القوى غير العقلانية، السياسية والثقافية، كاستقلال الوطنى والدفاع عن اللغة القومية أو بعثها، هى التى لعبت الدور المركزى فى التحديث حتى وإن تحدد هذا التحديث فى إطار اقتصادى. كانت ألمانيا هى الوطن الأول والأهم لهذا التحديث القومى الذى انتصر فيما بعد، ليس فقط فى اليابان وإيطاليا، وإنما أيضاً فى تركيا والمكسيك والهند وإسرائيل كبعض حالات هامة معاصرة. هذه التعبئة القومية ليست خطيرة فى حد ذاتها، فلاغنى عنها فى أى مكان لايمكن للتحديث فيه أن يكون محلياً تماماً. ولكن يمكن أن تتحرف هذه التعبئة وتصبح مجرد نظام، وبدلاً من أن يخلق هذا النظام شروط التحديث المحلى يتحول التحديث فيه إلى مجرد أداة للتعبئة السياسية. لقد خلق بسمارك أو الامبراطور ميجى، بواسطة الدولة وتعبئة الوعى القومى، اقتصاد ومجتمع حديثين، ولكن أيضاً فى مثل هذه البلاد ظهرت عسكرة المجتمع، المرتبطة بفاشية شعبية فى حالة ألمانيا وإيطاليا. من الخطير ألا نعارض الفاشية إلا بديمقراطية البلاد المركزية، لأنه لو لم نقر إلا بشرعية التحديث المحلى والعلاقات الحرة بين فاعليه، فلن نترك طريقاً آخر إلا اللينينية أو الفاشية أو الأشكال المتنوعة للنظام الشمولى فى بلاد المحيط التى يصطدم التحديث فيها بعقبات كبرى داخلية وخارجية.

لا يمكن اختزال كل أشكال التنمية القومية إلى الشمولية. ينبغى أن نفحص عن قرب الأسباب تجعل نمطا معيناً للتنمية ينقلب إلى معاداة التنمية. فى حالة التحديث القومى يظهر الخطر الأكبر عندما تزداد المسافة بين الدولة والمجتمع. وهو ما يؤدى إلى التمييز بين نوعين من القطيعة : إما أن ينتفض المجتمع ضد الازمة وضد الفساد ويلقى بنفسه فى شعبية تجد سريعا قادة متسلطين ليدينوا المؤسسات، وإما على العكس تتحكم السلطة المركزية فى موارد اقتصادية وسياسية وعسكرية شديدة التركيز وتفرض إرادتها على مجتمع غير معبأ ومنقسم إلى شظايا، أسير شبكات من الانتماء، محلية وعائلية وقبلية. ونلاحظ فى الحالة الأولى أكثر من الثانية إرادة سياسية واحدة تحل محل تعددية المصالح والأراء أى تحل محل اتفاقاتها وصراعاتها المحدودة. كلما

كانت التعبئة أى عملية التحديث نفسها قوية، كلما صارت الدولة شمولية وليست فقط استبدادية. لقد كان القرن العشرين قبل كل شئ هو قرن حركة الكوكب بأكمله، قرن عولمة مسارات التحديث وزعزعة المجتمعات التقليدية، وكان هو أيضا قرن الشمولية.

ولا تظهر الشمولية إلا فى أُمم تجذبها حركة قوية إلى التحديث ويحركها التصنيع والعمران والاتصال الجماهيرى. ولا تترك للحريات الشخصية إلا مكانا ضئيلا يضاهى المكان المتروك للتراث الثقافى وحتى للتراث الدينى ؛ هذا اذا لم يتطابق هذا التراث مع سلطة الدولة. لأن الشمولية لا تتسم بالطابع الدينى أكثر من التقنى. إنها تضع السلطة المطلقة للدولة فى محل الفعل المستقل للفاعلين الاجتماعيين والثقافة، كما إنها تبطل المجتمع المدنى. ويوضع العلم والتقنية فى خدمة الدولة وسلطتها، كما يُنتزع الفرد من وسطه العائلى أو المحلى أو الدينى ليعبأ فى خدمة الدولة سواء كانت دينية أو علمانية. وهنا ليست الحرية الشخصية فقط هى التى تقوضت ولكن تقوضت كذلك الانتماءات الثقافية بنفس القدر. إن الشمولية تدمر المجتمع وتختزله إلى حالة الجمهرة وإلى حالة الجماهير المطيعة لكلام أو أوامر القائد. هذا الانتصار للقائد يجمع الدفاع عن الجماعة وعن هويتها المهددة مع إرادة التحديث. الشمولية تدمر المجتمع كشبكة من العلاقات الاجتماعية المنظمة حول طاقة متزايدة للنتاج، وتضع محله تعبئة لهوية فى خدمة قوة جماعية. إن التاريخ يحل محل المجتمع. وانصهار الماضى مع المستقبل يسحق الحاضر ويلغى الساحة العمومية التى تتناظر فيها الاختيارات الجماعية.

إن الدعوة إلى الجماعة وحدها تنتج استبداداً محافظاً جديداً؛ والتحديث الإرادى يؤدى إلى التسلطية؛ ووحدة الدفاع عن الجماعة مع التحديث المتسلط تنتج الشمولية. كل حركة من الحركات التاريخية، القومية أكثر منها اجتماعية، والتى صاحبت دخول أقاليم جديدة فى الاقتصاد والمجتمع الحديثين قد حملت فى داخلها نظاما شموليا وانزلت فى الغالب اليه. لقد انزلت حركة القوميات التى صاحبت دخول أوروبا الوسطى فى الاقتصاد الحديث وتفكك الامبراطوريات القديمة إلى قوميات متسلطة وإلى الفاشية. والثورة الروسية التى لم تكن نتيجة لفعل الحركة العمالية بقدر ما كانت نتيجة لأزمة

النظام القديم، قد أدت إلى الشمولية الشيوعية التي ظهرت، من لينين إلى ستالين إلى ماو، كأكبر قوة سياسية في القرن العشرين. ومؤخراً أدت حركات التحرر الوطني في العالم الثالث إلى ميلاد أشكال تقليدية من الاستبداد أو إلى أنظمة حكم فاسدة تابعة للقوى الكبرى وفي نفس الوقت أدت إلى شموليات جماعية تدعو إلى الاتحاد القومي والديني ضد تحديث يتطابق مع فقدان الهوية الجماعية، وضد تغلغل المنتجات والاخلاق القادمة من الخارج. وحتى في هذه الحالة الأخيرة، التي يشهد فيها رفض التحديث القسري، لا يتعلق الأمر باستبداد محافظ كذلك الذي نجده في المملكة العربية السعودية والذي يقوم على الاحتفاظ بالأشكال التقليدية للتنظيم الاجتماعي، ولكن على العكس، يتعلق الأمر باتحاد وثيق بين التحديث والقومية، المعادية للتراث وينفس القدر للحرية الشخصية.

كانت الشيوعية هي الشكل الأكثر طموحاً والأكثر عنفاً للدولة التحديثية الثورية. فباسم العلم وقوانين التاريخ شرعت في تدمير نظم الحكم القديمة. وكان إرهاب اليقظة مرتبطاً ارتباطاً وثيقاً بحالة الحرب الخارجية والداخلية وذلك كي يستقر ويقاوم تدميره الذاتي. ولأنه لم تكن التنمية هدفه التاريخي ولكن كان لديه فقط هدف سياسي خاص بالنظام والثقافة، لم يكن هناك ما يمكن أن يكبح هوسه بالنقاء ونضاله ضد الانقسامات والانحرافات. وقد واجهت الأنظمة الشيوعية غالباً نفس الصعوبات ونفس الأزمات الداخلية، ولكنها نجحت في البقاء زمناً طويلاً في السلطة عندما ارتبطت بشدة بفكرة التحديث. فاثنتا عشرة السنين تحدد النظام السوفييتي بالخط العام للتصنيع وارتبط تأثيره في كافة أرجاء العالم بنجاحه على مستوى التعليم والصحة العامة والانتاج، وحتى، على مستوى مسارات علمية وعسكرية كاستكشاف الفضاء. هذه الاحالة المستمرة للمعرفة العلمية وروح التنوير تفسر الجاذبية التي مارستها الشيوعية على المثقفين، وخصوصاً على رجال العلم الغربيين. إذا لم تكن النظم الشيوعية قد انهارت تحت وطأة النزاعات بين الانشقاقات القيادية فذلك لأنها عرفت كيف تحولها إلى تكنوبيروقراطية مستبدة وقهرية. ولكن كان على هذه الدولة التحديثية أن تعرف نفس

صور الازمة والتفكك الموجودة فى الفكرة التحديثية نفسها. الدعوة إلى الاستهلاك وبالتالي الفتنة بالغرب وروح الاستثمار التى تريد أن تتحرر من سطوة الدولة، مقاومة الحياة الخاصة ولا سيما الروح الدينية؛ نماذج من قوى عديدة بدأت هجومها على النظام الشيوعى منذ عدة عقود حتى ظهر أخيرا فى بولندا عام ١٩٨٠ حركة اجتماعية شاملة لا تشكل شرخاً فى النظام السوفييتى ولكن نموذجا متعارضا كلية مع النموذج السوفييتى وهى منظمة "تضامن". وفى أقل من عشر سنوات ينهار النظام السوفييتى مخنوقا بشلله الداخلى، ومستنفدا توسعه العسكرى والسياسى وعاجزا عن متابعة التقدم التكنولوجى والاقتصادى فى الغرب، وتحطم رمزه : جدار برلين.

ولكن لا ينبغي التشديد هنا على ازمة الانماط الاقتصادية والمجتمعات سيئة التحديث، وإنما على استنفاد النموذج الثورى، الذى تم إحلاله شيئا فشيئا فى العالم الثالث بالنماذج القومية. وقد أخلت الفكرة الثورية ، أى الحلف بين التحديث الاقتصادى والتغييرات الاجتماعية، مكانها إلى الدفاع عن هوية، أحيانا تقليدية وغالبا ما تكون مبنية أومعاد بنائها ضد الحداثة. إن المثقفين الاسلاميين على وجه الخصوص معادون للسلفية فهم مصلحى الاسلام، ولكنهم يظهرون فى نفس الوقت بمظهر المعادين للتحديث وإن استخدموا تقنياته. ها نحن نرى فى أرجاء العالم بعثا لروح الجماعة ضد السيطرة الاجنبية وضد أشكال القطيعة الاجتماعية التى يسببها التحديث المنطلق بلا حدود. شمولية ثقافية تعقب شمولية اجتماعية، كما وقفت هذه الشمولية الاجتماعية أوالشيوعية يوما ما فى وجه الشمولية القومية التى كانت تمثلها النازية. وبدلا من فكرة التحديث جاءت فكرة التراث، والعودة إلى الشريعة المنزلة، وقبل كل شى رفض العلمنة، ذلك الرفض الذى يعتبر مبدأه المركزى هو استنكار تحرر المرأة.

إن الدعوة إلى الجماعة لا تجد صدى فقط فى العالم الإسلامى حيث تكون اشكال التنظيم السياسى فى الغالب قديمة ، أى غير قادرة على المشاركة القومية، أو تكون قريبة من الاستبداد المستنير الذى بدأه جمال عبد الناصر وسار على خطاه الاخوة

الاعداء فى حزب البعث فى سوريا والعراق. فى امريكا اللاتينية تتخذ الدعوة تعبيرات ثورية، مستندة على علماء لاهوت التحرير الكاثوليك كما تتخذ شكل التضامن الجماهيرى الضخم مع البابا يوحنا بولس الثانى الذى يجمع بين الدفاع عن الجماعة والتحديث المنضبط. وفى أوروبا الوسطى والشرقية التى دخلت إلى مرحلة ما بعد الشيوعية يمكن للدعوة أن تتخذ شكل حلم اشتراكى ديمقراطى كما تتخذ بشكل شعبوية قومية تشبه ما عرفتة أمريكا اللاتينية قبل أزمة سنوات الثمانين.

كانت هناك مهمة كبيرة أمام مثقفى هذا القرن فى كافة أرجاء العالم، وهى التعرف على الحدود التى تفصل بين التعبئة القومية الضرورية للتنمية والحظر الشمولى. وغالبا ما فشلوا حتى وإن كافح بعضهم بصراحة وشجاعة ضد الشمولية. كان هناك العديد ممن أعجبوا وامتنوا بحيوية النظام الهتلرى، واكثر منهم رأوا فى ستالين وتابعيه ورثة ثورة شعبية أو أبطال الحرب المعادية للهتلرية. والكثيرين أيضاً، وخصوصا فى الاقاليم موضع الاحداث، لم يريدوا أن يروا فى نظام الخمينى الا حركة للتحرر الوطنى وفى النزعة العسكرية لصدام حسين تعبيراً عن ثأر العالم العربى. هذه أخطاء مأساوية تبين لنا إلى أى مدى تفرض الفكرة الديمقراطية، التى ليست طبيعية بحال؛ جهداً فى التفكير والعمل للكفاح ضد اغراءات القومية والشيوعية التى يمكنها، عندما يكون هناك تهديد كبير أو هناك إمكانيات للغزو، أن تتحول إلى شمولية.

الشمولية هى أخطر الامراض الاجتماعية فى قرننا؛ ولهذا السبب تجد الدعوة إلى الذات صدى قويا اليوم. إن نظاما شموليا يخضع الأفراد لسلطته بقسوة لدرجة أن الكثير منهم باعتبارهم لا يستطيعون أن يتخذوا اهدافا "اجتماعية" كالتمية أو المساواة الاجتماعية، يناهون مباشرة وبصور مأساوية لاحترام الشخصى الانسانى وحقوق الانسان. ويرى البعض أن هذا هدف غامض وأخلاقى، ولكن ذلك لأنهم عاشوا طيلة حياتهم فى منأى من أنواع الشقاء الكبرى : الاضطهاد، الخضوع لاحتلال أجنبى، فقدان الحرية. لقد انتهت تجربة الشمولية قرنين من عبادة التقدم والنزعة التاريخية وتجبرنا اليوم على أن ندافع عن الانسان ضد المواطن.

ولكن لا يمكن لنا أن نترك العقلانية الأداتية وروح الجماعة ينحرفان كل فى طريق. وإذا كنا قد وصلنا بالتحليل إلى الاشكال الأشد تطرفا لانفصالهما عن بعضهما، وهى نفسها أشكال أزمة الحداثة، فذلك للاحساس بالضرورة الملحة لتحليل جديد للحداثة يحد من الفصل بين ما هو موضوع للتفكير وما هو معاش، بين الأدوات والقيم.

الأخلاقية

يمكن للتهديد الشمولى أن يدفع للسقوط فى فخ الاخلاقية. تتمثل هذه الأخلاقية فى الدفاع عن الذات بعد أن تنزع عنها تماما طابعها الاجتماعى. وهذا إنحراف معاكس تماما للانحراف الذى سبب خراباً كبيراً فى الحقبة الحديثة. فبعد أن قبل المجتمع الحديث إلزام وعبودية أسوأ مما كان فى الماضى باسم النضال الضرورى من أجل الحرية وبعد أن فرض سلطة مطلقة للتخلص من الامتيازات ، ألقى بنفسه فى دفاع عن حقوق الانسان بالغ التجريد لدرجة أنه لا يعرف أن يحدد خصوما ملموسين، ويستبدل الكفاح الواقعى بحملات للرأى ، وفوق كل ذلك يستبدل بالمشاركة الفعالة لمن يعينهم الامر ضغط المال ووسائل الاعلام فى البلاد والذى يظن أنه ضغط لا يقاوم.

فعل عبثى فى الغالب وضار أحياناً لا يغير شى من حياة طبقة وسطى غارقة إلى لجتها فى الاستهلاك وتشترى هكذا بثمن بخس راحة الضمير، مع الأمل فى أن تحميها الدولارات والأغاني التى توزعها من الانفجارات التى يمكن أن تقلق راحتها.

لقد قامت المنظمات الانسانية نفسها بادانة صفقات البر هذه business charity وأخطر ما فى الأمر أنها تتكيف مع انشطار العالم إلى جزئين انشطاراً ينظر اليه على أنه حتمى. أن من يشيرون بسهولة إلى الهوة المتزايدة التى تفصل الشمال عن الجنوب يعتقدون غالباً فى غرابة هذين العالمين كلا منهما عن الآخر واختلافهما اختلاف الليل عن النهار، ويتخلون بذلك عن كل روح نقدية تجاه عالمهم الخاص، اللهم إلا أن يقولوا أنه عالم أنانى، معتقدين فى نفس الوقت أن تلك للأسف هى طبيعة البشر، فمن الصعب عليهم أن يهتموا بمن هم مختلفين عنهم. هذه الأقوال ليست أكثر سطحية من

اقوال اخرى، وإن بدت أكثر راديكالية، تفسر شقاء الجنوب بقسوة ولا مبالاة وجشع الشمال ، وكأن ما يميز الفقراء هو أنهم لا يمتلكون وعياً ولا إرادة ولا قدرة على العمل.

لا يتم تجاوز الأخلاقية إلا عندما ترتبط الدعوة القوية إلى الحرية في البلاد ذات التنمية المتجانسة بالدفاع عن الهوية، الملجأ الوحيد للمقهورين. الأخلاقية خطيرة لأنها ترضى غرور الضمير المستريح لمن يعبر عن إحساسه باطمئنانه لمجتمعه أو يعبر بالعكس بكلمات تجعل منه حكماً عادلاً يتحدث باسم شيء ما وراء المجتمع السياسي أو الاجتماعي أو الديني. أن الدفاع عن الذات لا يمكن أن يكون دفاعاً عن مبدأ خارج التاريخ والمجتمع، بل يجب عليه، عندما يتخلص من الأخطاء المأساوية للتاريخية أن يستعيد استلهام الثورات التي أسست المجتمع الحديث، ثورات بريطانيا العظمى، والمستعمرات الانجليزية في أمريكا، والثورة الفرنسية، وليس استلهام الزهد خارج العالم. وهو ما لا يمكن إلا بإعطاء المجتمع أكبر قوة ممكنة ضد الدولة، قوة تستند على الحرية الشخصية وعلى الدفاع عن الحريات الخاصة والتي هي المكاسب الاجتماعية وفي نفس الوقت على إحترام الذاكرة وثقافة الجماعة والمجموعات ذات العقائد المختلفة. الدعوة إلى الذات ليست هي الملجأ الأخير أو الدفاع النهائي ضد الضغوط السياسية أو الطائفية. ذلك لأن الذات ليست مبدأ يأمر من أعلى أو من خارج السلوك، إن الذات ليست صورة علمانية لله والنفس، إنها ملتزمة ومتصلة في آن، بما أن إنتاج الماهية يفترض التنقل من الأنوار الاجتماعية وفي نفس الوقت الالتزام بفعل يتم فيه ممارسة إمكانيات العقل والرغبة والعلاقة مع الآخرين. ولذا فالذات هي حرية وذاكرة في وقت واحد، وفوق كل ذلك لا تحل محل العقلانية كمبدأ للحدثة. لأن هذا العقلانية لا غنى عنها لكي لا يتحطم التوازن غير الساكن للذات لمصلحة طائفية تكون في خدمة سلطة مطلقة.

الحرية، والجماعة، والعقلانية، هذه المصطلحات لا تتفصل عن بعضها. واجتماعها المشحون بالتوتر والتكامل هو الذي يحدد الحدثة. ويعتقد ورثة فلاسفة التنوير أن الحرية مرتبطة كلية بالعقلنة. وهم مخطئون في نسيانهم للرغبة وكذلك للذاكرة والانتماء لثقافة معينة في الانسان، ويقعون دائماً في "النخبوية الجمهورية" التي تضع السلطة في

يد من يكون له القدرة الضرورية على ممارستها بحكمة والذين يكونون، كما كان يريد جيزو، متعلمين وملاك في آن. لقد ساد التاريخ الغربى الرفض النخبوى للكائنات غير العقلانية، كالنساء والاطفال والعمال والمستعمرين، الذين كان تمردهم الشرعى نقطة انطلاق لتأملاتنا، التى لا يمكنها أن تقبل الاحتقار والتجاهل الذى كانوا ضحاياه. صحيح أن القرن العشرين قد تعرض لسلسلة من ربود الافعال المعادية للعقلانية والشعبوية القومية التى حبست الذات فى تراث عرق معين أو أمة أو دين، ولكن لماذا ينبغى الاختبار بين مفهومين ولدا كلاهما من إنفصال بين موضوعين كان ينبغى لهما أن يترابطا وهما الحرية والتراث.

إذا كان ينبغى الاختيار رغم كل ذلك، وإذا اندلعت الحرب بين المعسكرين ولم تترك أى مكان للمحاولات العديدة والمتنوعة لاعادة الذات، ففي هذه الحال ينبغى بالتأكيد تفضيل المجتمع الليبرالى، لأنه يحمل فى داخله حدوده ونقده الذاتى فى حين أن الدعوة إلى الأمة والى ثقافة معينة تستبدل بالنقد قهرا ونفاقاً وهروباً. ولكن لايمكن لأى تأمل حول الحداثة أن يقبل مثل هذه القطيعة المدمرة، وهذه الاختيارات السطحية. للذات وجهان لاينبغى الفصل بينهما. إذا نظرنا اليها على أنها حرية فقط فانتا نجازف باختزالها لأن تكون منتجا ومستهلكا رشيداً ، وأفضل ضمان ضد هذا الخطر هو الانفتاح الديمقراطى، لأن من يحوزون النقد هم الذين يستطيعون أن يسلكوا طبقا لنموذج الانسان الاقتصادى l'homo economicus . وفى المقابل إذا نظرنا اليها على أنها انتماء وتراث ثقافى فقط فانتا نسلمها بلا دفاع الى السلطات التى تتحدث باسم الجماعة. وفى هذه الحال يكون أحسن دفاع هو العقلنة ونقدها الذى لا يعرف الرحمة لكل من يزعم الحديث باسم الشمول.

الحرية والتحرر

الذات تؤكد نفسها ضد سيطرة السلطات السياسية والاجتماعية، وحريتها مرتبطة بالانتماء لثقافة معينة. وكل الحركات الاجتماعية التى يقوم بها المستضعفون يتخذ الدفاع عنها شكل المطالب الايجابية، وريثة الدفاع عن حقوق العمال والتى تدفع اليوم

الى الحديث عن حقوق المريض أو طالب الثانوى أو مشاهدى التلفزيون، وفى نفس الوقت تتخذ الذات شكلا دفاعيا يتمثل فى الارتباط بثقافة مهددة بتغلغل السلطة الاقتصادية أو السياسية أو الثقافية القادمة من الخارج. ولو تحدثنا بصورة كلاسيكية لقلنا أن هذين الشكلىن يتشابهان مع ما كان من نضالات الرأسمالية والنضالات المعادية للامبريالية، لكنها توجد فى داخل المجتمع القومى وأيضاً على المستوى العالمى. أول نوع من المطالب يمكن أن يتم استيعابه من قبل النظام السياسى، أو يؤدى الى طائفية مهنية جديدة تخص كثيراً من البلاد الصناعية أو أن يُختزل الى تشكيلة من مجموعات الضغط التى يكونها المستهلكون. أما النوع الثانى فهو على العكس قد ينغلق داخل رفض شامل للتحديث أو ينغلق فى المغامرة العسكرية أو فى شعبية متجهة بصورة أو بأخرى الى التفانى لزعيم. ولكن أخطار القطيعة أو التقهقر هذه لا تمنع تأكيد الذات من أن يرتبط بالدفاع عن ثقافة كما يرتبط بتأكيد الحرية الشخصية.

يقتضى التحديث القطيعة وأيضاً الاستمرارية. وإذا كان الانقطاع شاملاً فمعنى ذلك أن التحديث قد جاء كلية من الخارج عبر الغزو، وفى هذه الحال يستحسن الحديث عن استعمار أو تبعية وليس عن حادثة. أما إذا كانت الاستمرارية كاملة فالشئ نفسه لا يصبح آخرأ، ويبقى جامداً ويصبح أكثر فأكثر غير قابل للتكيف مع محيط متغير. وقد اعطت اوربا الغربية والولايات المتحدة أمثلة متينة على الربط بين التغير والاستمرارية، وعلى مدى فترة طويلة استطاعت البلاد الاشتراكية الديمقراطية كالسويد أن توفق بين الانفتاح الاقتصادى والحفاظ على تحكم قومى فى التنظيم الاجتماعى والثقافى. هذا الترابط بين الذات الشخصية والدفاع عن الجماعة يحدد فكراً يتعارض مباشرة مع الفكر الذى ساد الحياة الثقافية والذى خصص له الجزء الثانى من هذا الكتاب.

لقد سعى المثقفون باستمرار الى استبدال صورة أخرى من المطلق بالدين : الجمال أو العقل أو التاريخ، الهو أو الطاقة. وقد عارضوا – وعلى رأسهم ماركس ونييتشه اللذان تلاقى تأثيرهما فى القرن العشرين – العالم الاجتماعى، الذى يدينونه، بعالم أرقى وترتب على ذلك أن عارضوا الذاتية الموصوفة "برجوازية صغيرة" بموضوعية الوجود أو

الصيرورة أو بحركة العقل أو بانطلاقة الذاكرة وإرادة القوة. إذا كان ما هو إجتماعى خطيرا بالنسبة لهذا الفكر، يكون الثقافى، بالمعنى الانتواجى، كريهاً لانه خاص ومنغلق على ذاته، فى حين أن تحرير الانسان يقتضى منه أن يرتفع فوق المجتمعات والثقافات الخاصة كي يدخل الى مجال الكونى والمطلق. هذا الفكر، كما قلت، يرد على أزمة فلسفة التنوير بإجابة تولى وجهها شطر الماضى وتأخذ شكل الحنين الى الوجود أو رفض الحداثة الذى يزداد خطورة مع الزمن. على العكس ينبغى إدراك هذه الحداثة على أنها توليفة من العقلنة وتحقيق الذات ولهذا السبب تتحدد الذات بإراداتها فى تنظيم حياتها وفى نفس الوقت بفعالها ودفاعها عن هوية ثقافية تهددها الاجهزة المسيطرة أو الاستعمارية. الذات ليست مطلق ومضمونها لا يطابق مضمون العقل. وهى لا تختزل مع ذلك الى خصوصيات اجتماعية أو ثقافية أو فردية. ولا هى أيضا أنا فردية أو جماعية. الذات لا تتشكل إلا عندما تتأكد أنا المتكلم عبر الرباط بين تأكيد ذاتها والنضال الدفاعى ضد أجهزة الانتاج والادارة.

الحداثة والتحديث

تحددت الحداثة لفترة طويلة بما تهدمه، وكأنها مساعلة مستمرة لأفكار وأشكال التنظيم الاجتماعى ! فيكون عملها كعمل الطبيعة فى مجال الفنون. ولكن كلما تضخمت حركة الحداثة كلما هبت على ثقافات ومجتمعات غير قادرة على التكيف معها، مجتمعات تعاني من وطأتها بدلا من أن تستخدمها. وما كان يعاش كتحرر أصبح اغتراباً وتقهرراً، حتى انتصرت فى كثير من أجزاء العالم ! القومية المكثفة بذاتها، وجاء بعد ذلك انغلاق عدد من المجتمعات على خطابها وعلى جهاز التحكم السياسى فيها! وأخيراً جاءت الانظمة المتطابقة مع أمة أو ثقافة أو دين. لقد اعتقد الغرب أن التحديث ليس إلا الحداثة فى حالة التنفيذ وإنه كان متجانساً تماماً ومنتجاً بواسطة العقل العلمى والتكنيك. ولكن القرن العشرين قد سادته سلسلة متتابعة من أشكال التحديث الغربية والمفروضة أكثر فأكثر بواسطة سلطة أما وطنية وإما أجنبية؛ هى اشكال من التحديث تتزايد فى إراديتها وتقل فى عقلانيتها لدرجة أن هذا القرن الذى أستهل بالنزعة العلمية يبدو أنه قد انتهى

بعودة الاديان وبالرد ذى الصلافة السانجة من قبل الغرب الذى تتزعمه الولايات المتحدة، بأن التاريخ قد "إنتهى" وأن النموذج العقلانى قد حقق انتصاراً كلياً على المستوى الاقتصادى وأيضاً على المستوى السياسى.

يمكن فهم رد الفعل هذا بسهولة. لقد كان النموذج الراسمالى والليبرالى، طوال القرن كله، موضوعاً لهجمات مستمرة، وكان أعداؤه الرئيسيون هم الأنظمة الشمولية فى العالم الاول والثانى والثالث. وفى اللحظة التى تتحدد بوضوح فيها ملامح انتصار الغرب، كيف لا يعارض الارادية السياسية بالتدابير التدريجية والهشة للسوق، وكيف لا يعارض الاستقطاب المذهبى بحرية الفكر التعبير، ويعارض الايديولوجيا بالبراجماتية.

الغرب الغنى لم يعتقد كثيراً فى التقدم ولا فى انتصار العقل. لقد اتخذ مسلكاً أكثر دفاعية، كمسلك تشرشل عندما عرف الديمقراطية كنظام سياسى سئٍ بالتأكيد، ولكنه أقل سوءاً من النظم الاخرى. أنه يدافع عن العقل كنقد وعن الرأسمالية كالاقتصاد للسوق وكحماية ضد غزو الايديولوجيا والصراع الطبقي والمحسوية للنشاط الاقتصادى. هذا هو معنى الليبرالية الجديدة التى انتشرت فى سنوات قلائل فى العلوم الاجتماعية وفى السياسة والتى تقدم رؤية عقلانية للانسان والمجتمع تلعب المصلحة فيها الدور الرئيسى. هذه العقلانية الجديدة فى شكلها الأكثر طموحاً تدافع عن الغرب عبر ارتباطها بقيم كونية تحمل فى داخلها قوة دائمة للتحرر من الاحكام المسبقة والارتباطات بالجماعة وتضعها فى مواجهة المجتمعات التى تتغلق إرادياً ويجنون فى البحث عن ما يميزها وعن خصوصياتها وهو ما يحكم عليها بالعمى والشلل ويذهب البعض الى أبعد من ذلك فيطابقون بين بلادهم والقوى الكونية. فيمكن للوطنية الجمهورية أن تكتسب أهمية كبرى عندما تصاحبها تعبئة سياسية واقعية.

إذا لم يمكن قبول هذه الليبرالية الجديدة، فذلك لأنها غير قادرة على الالمام بمستويين من الاحداث. أولاً : انها لا تعى بالاهمية المتزايدة للقطاعات التى لا تنتمى الى المجتمع المفتوح. فقراء معزولين، هامشين، أقليات اجتماعية وثقافية، جماعات

عرقية. أليس ما يميز المجتمع الليبرالي، عندما يعمل على أفضل وجه ، أى عندما يعمل بطاقة كبيرة على الاندماج الاجتماعى، هو انتاج اقلية مستبعدة أو مهمشة وتنفصل أكثر فأكثر عن طبقة وسطى عريضة، يكون الدخول اليها بسهولة والحركة والتغيير فيها تحدث بايقاع يزداد سرعة ولكن يتعرض الافراد فيها أكثر فأكثر لمخاطر الفشل والاحداث المؤسفة؟ وثانيا : يتلازم مع هذا التجلى لمجموعات الاقلية تجلى لفئات هى فى ذاتها اغلبية فى كوكب يتزايد فيه عدم تكافؤ الفرص كلما ارتبط التحديث بالشروط الثقافية والسياسية وكذلك النقدية والاقتصادية .

ولأن الانظمة الشمولية فى ضياع لذا من الملح بالنسبة لبلدان المحيط أن تخرج من الحلول الزائفة الشعبوية والعسكرية؛ وبالنسبة للبلدان المركزية أن تنقد الرؤية الليبرالية المحضة التى تدعن بسهولة للتهميش الذى تنتجه وتطابق بسذاجة بين تاريخ وثقافة بلد أو اقليم ما وقيم كونية. هذه البلاد المركزية لا مبرر لها للتخلى عن العقلانية ولكن عليها بنفس القدر أن تشجع تحقيق الذات الذى يرفضه ويستنكره اتجاهات قوية فى الفكر الليبرالى. ولا ينبغى لها أن تدمر تقاليد ثقافية أكثر حيوية مما اعتقد الكثيرون، خصوصا فى عالم متحرك يختلط فيه الماضى بالحاضر والاختلاف بالاستمرارية والجماعات بالمجتمع. خلال جزء كبير من هذا القرن تمزق العالم بشكل متزايد وبدت بلاد الغرب الغنية مهددة أكثر من مرة. انها تنتصر اليوم، ولكن الهوة وعدم المساواة لا تلبس أن تتزايد، والمهمة الأكثر إلحاحا فى المركز عنها فى المحيط هى رفض القطيعة بين الاغنياء والفقراء ، التى تبرر شرعيتها كلا من الحركات الطائفية والليبرالية المتطرفة.

إن انهيار الاتحاد السوفييتى لا يعمل على توحيد العالم كما لم يعمل على توحيدة منذ نصف قرن سقوط النظام الهتلرى. وقد عرفت بلاد أوروبا الغربية بدورها بعد فترة طويلة من الاندماج الاجتماعى الشديد، تم اكتسابه بفضل السياسة الاشتراكية الديمقراطية والكينزية، انفصالا متزايدا بين جماعات عرقية وفئات اجتماعية.

والصورة التي تفرض نفسها ليست هي صورة نهاية التاريخ ولا انتصار النموذج الغربي، ولكنى على العكس صور عالم يتمزق باستمرار، عالم تبتعد فيه تدريجياً القوى التي تتحرك من أجل التحديث والاستقلال عن العقلانية الأداتية التي تنتصر فى البلاد الرأسمالية. إن حطام الشيوعية ونموذجها الاقتصادى الموجه والمخطط يتركان وجها لوجه الاقتصاد والثقافات، السوق والتقاليد، والنقود والكلام، دون أن يبدو أن هناك مفهوماً سياسياً أو اجتماعياً قادر على تقريبهما والجمع بينهما. وكأن عالم الانوار قد انفصل عن عالم الظل : الأول يعمى العيون المبهورة باضواء المدينة، والثانى يصيب بالعمى من ظلوا زمنا طويلا محرومين من الضوء . ويبدو أن هذين العالمين غريبين عن بعضهما، تفصلهما مسافات تتجاوز بكثير تلك التي كانت تفصل قديماً الطبقات الاجتماعية فى البلاد الصناعية الأولى، غريبين ومتفصلين لدرجة أن الصراعات تبدو مستحيلة ويحل محلها حرب بين معسكرات لا تعترف بأهداف ثقافية مشتركة، معسكرات ليست فى حالة ندية ولكنها غريبة. ومتنافسة، من يشعرون أنهم معتدى عليهم ينادون بالحرب المقدسة، ومن يتماهون بالحدثة يريدون أن يفرضوا على الجميع قيمهم التي يعتبرونها كونية ولا يندهشون من رؤيتها متوافقة مع مصالحهم الخاصة.

كيف يمكن الذهاب فيما وراء هذا التأكيد العنيف؟ يعتقد البعض أن الصدمة ستخف حدتها كما خفت من قبل بين الطبقات الاجتماعية فى البلاد الصناعية الأولى ، لا سيما والشموليات الجديدة المدافعة عن ثقافة أو أمة أو دين ستستهلك نفسها بما أنها لا تملك سوى منطق الحرب الذي يقودها لا محالة الى الانهيار أو الى الانتحار، كما حدث للنازية من قبلهم. ولكن من يستطيع أن يفيق تماماً من مثل هذا الحساب البارد وخصوصا من يضمن أن إنهيار الانظمة الشمولية يمكن أن يحل المشاكل الداخلية للمجتمعات الأخرى، سواء كانت المجتمعات الغنية أوالمجتمعات الفقيرة، فى حين أن الانفصال بين الأداتية والانتماء، بين الاشتراك فى مجتمع متحرك والركون الى الانعزال والهامشية يزداد فى كل مكان فى العالم؟ ينبغى أن تراجع المجتمعات المتقدمة صورتها

عن نفسها ، وتصبح قادرة على ادماج جزء كبير ممن استبعدتهم وتجاهلتهم واحتقرتهم. وهو ما يستدعى تعريفا جديدا للذات، قوة الصموة أمام أجهزة السلطة، مستندة الى تراث وفي نفس الوقت محددة بتأكيد الحرية. يترافق مع هذه الحركة للفكر النقدي، تأملات أولئك الذين يسعون، في قطاعات أو أقاليم بعيدة عن الحداثة، الى منع أن تتقلب تعبئة مواردهم الثقافية، اللازمة للتحديث، ضد الحداثة باسم الهوس بهويتهم البائدة والمهددة. وهكذا من زوايا عدة نحصر على تدمير الجدران التي ترتفع في اللحظة التي يسقط فيها الجدار الذي كان يفصل الشرق عن الغرب.

لن يكون هناك اندماج حقيقى للمهاجرين فى البلاد المركزية إذا لم تقبل هذه البلاد إلا بالحل الذى يسلب من القادمين الجدد أى قدرة على تغيير الوسط الذى يدخلون إليه. فى الواقع إن للاختلاط والامتزاج الثقافى أهمية كبرى كما تشهد على ذلك كتابات لمؤلفين مثل سلمان رشدى أو كاتب ياسين اللذين يتعرضان لهجمات من يدافعون عن انفصال الشرق عن الغرب والاسلام عن أوروبا ؛ انفصال يتجلى فى الخطابات الايديولوجية أكثر مما يظهر فى الممارسات الثقافية. اما أن يشكل هذا الاندماج وهذا التحول مجموعة تغييرات ثقافية هشة ومشحونة بامكانية حدوث صور من القطيعة، وهذا أمر لا ينكره أحد، ولكن هذا التكامل بين الذات - الحرية والذات - الجماعة داخل ثقافة للعقلنة هو الحل الوحيد الذى يجيب على موقف يكون فيه من باب الغرور من جانب البلاد الغنية إن تعتقد أنه يمكنها أن تحتوى دائما بواسطة حدود جديدة "البرابرة" الذين يهددون بغزو الامبراطورية.

إن الصراع السياسى الاساسى فى العالم باكملة ليس هو الذى يضع طبقة اجتماعية فى مواجهة أخرى، يضع المأجورين فى مواجهة الملاك، ولكن هو الذى يفصل الدفاع عن الهوية عن الرغبة فى الاتصال. نستمع بشكل متصاعد فى البلاد الغنية كما فى الاقاليم الفقيرة الى الهوس بالاختلاف والخصوصية. يعرف الفقراء أنفسهم بدين معين فى حين يعرف الاغنياء أنفسهم بدعوتهم الى العقل الذى يعتبرونه ملكيتهم الخاصة.

فى أوروبا وفى الأمريكتين تنتقل الآراء بسهولة بين موقفين متطرفين. من جانب تتحول الدعوة الليبرالية إلى مجتمع مفتوح بسهولة إلى امبريالية ثقافية، أما فى الجانب الآخر فتؤدى الدعوة إلى الهوية إلى ميلاد اغلبيات أخلاقية خطيرة وجبهات وطنية أكثر خطرا، ولكنها أيضا تشجع نشأة نزعة يسارية جديدة، اختلافية لا تعترف بأى حقيقة عامة وتطالب بتاريخ للهنود والنساء والشواذ جنسيا مختلف عن التاريخ الذى ينكرونه باعتباره تاريخ الرجل الابيض. ولقد شهدت أفضل الجامعات الأمريكية تطورا ملحوظا لهذه الحركة التى تسمى من باب المفارقة، الصحيح سياسياً *politically correct* ، فى حين انها تتبنى خط الاتجاهات المتطرفة الأكثر ابتعادا عن الديمقراطية. فى فرنسا يسود الخطر المضاد، ففي مجتمع تعرض فيه اليسار لضعف كبير بعد سقوط الشيوعية يتزايد عدم التسامح تجاه الاقليات وتجاه القادمين الجدد، والارتباط الرجعى تماما بنزعة كونية سرعان ما تؤدى إلى خصوصية ضيقة، صماء عمياء عن كل طلب اجتماعى أو ثقافى مختلف أو جديد.

ينبغى عدم اطلاق كلمة حديث على مجتمع يمحو الماضى والاعتقادات ولكن على المجتمع الذى يحول القديم إلى حديث دون أن يغيره، على المجتمع الذى يعمل بشكل يؤدى إلى أن يقل دور الدين كرابط جماعى ويزيد من دوره كدعوة للضمير تؤدى إلى تفتت السلطات الاجتماعية وتثرى حركة تحقق الذات. لقد سبق أن ارتبطت فترة الثورات السياسية والصناعية فى القرن العشرين بصعود الوعى التاريخى، وتعيد مجتمعاتنا البالغة التحديث اكتشاف خصوصية الخبرة النسائية فيما يتجاوز مجرد المطالبة بالتكافؤ فى الفرص، وكذلك خبرة الطفولة، وتعترف بالتعددية الثقافية رغم وجود العديد من التيارات المعارضة لذلك وتعترف فى نفس الوقت بوحدة القدر الانسانى.

إذا لم يؤد سقوط الانظمة الشمولية إلا إلى جعل صلف المجتمعات المنتصرة اعمى عن حدود ومخاطر هذا الانتصار، فإن العزاء الذى صاحب هذا السقوط لن يدوم طويلا

كما لم يدم العزاء الذى أعقب التحرير وسقوط النازية. يجب على العكس أن يرافق سقوط الانظمة الشمولية اعادة تحديد للحداثة من قبل المجتمعات الديمقراطية، وكما أنه لا توجد ديمقراطية دون تقليل المسافات والحواجز الاجتماعية وبدون توسيع مجال اتخاذ القرار؛ لا يمكن أن توجد ديمقراطية دون تقريب بين أخلاق المسؤولية وأخلاق الاعتقاد وبدون تجاوز للحدود المرسومة بين العقل الاداتى والحرية الشخصية والميراث الثقافى، وبدون مصالحة الماضى مع المستقبل. كذلك لا توجد ديمقراطية دون إدانة السيطرة التى تمارس على النساء والصغار والشيوخ، وعلى الفقراء والأمم المهددة بالتفكك والتحول بكاملها الى بروليتاريا، ولكن دون أن ننسى أن للانداد الحاليين توجهات عامة ومصالح متصارعة بشكل مختلف.

بصورة أخرى

يجتاز العالم اليوم صراعات أكثر جذرية من صراعات الحقبة الصناعية. كان الأمر حينئذ يتعلق بصدامات بين طبقات اجتماعية كانت تتعارض ولكن باسم قيم مشتركة. كان المستثمرون الرأسماليون يتهمون العمال بالكسل وبالروتين ويعتبرون أنفسهم فاعلى التقدم، وكانت الحركة العمالية والمفكرون الاشتراكيون يدينون فى المقابل اهدار الرأسمالية خالقة البؤس والازمات، ويدعون الى تحرير العمال والقوى المنتجة من علاقات الانتاج واللاعقلانية. أما اليوم فالصراع لا يضع فاعلين اجتماعيين فقط فى مواجهة بعضهم ولكن أيضا فاعلين ثقافيين؛ يضع عالم الفعل الاداتى فى مواجهة عالم الثقافة وعالم الحياة. وبينهما ليس هناك أى وساطة ممكنة ولا أى مشاركة فى المعتقدات والممارسات. ولهذا السبب يحل تأكيد الاختلافات ورفض الآخر محل الصراعات الاجتماعية. أن من يؤمنون مع فرنسيس فوكوياما بالاجماع الذى تم مؤخرا حول نهاية التاريخ ونهاية المناظرات السياسية والايديولوجية ، واليوم بعد أن سقطت الشيوعية وانتهت مصداقيتها كما حدث مع الفاشية، يرتكبون خطأ كبيراً. لم يحدث من قبل كما يحدث الان أن صارت الصراعات بهذا الشمول لدرجة أن العالم اليوم مملوء بحملات صليبية وبقتال حتى الموت اكثر منه صراعات قابلة للتفاوض سياسيا. فنرى من جانب

هيمنة الغرب الذي يعتبر نفسه كونياً، هيمنة تدمر ثقافات وامم وكذلك أنواع بأكملها من الحيوانات والنباتات، باسم تقنيات الغرب وفعاليتها، ومن الجانب الآخر تنمو معاداة المركزية الاوربية التي سرعان ما تنقلب الى إختلافية عدوانية مشحونة بالعنصرية والكراهية. ينبغي ألا يدفع التفوق الساحق العسكري والصناعي للغرب الى المطابقة بينه وبين العقل والى اختزال خصومة الى الجنون أوالتخلف. فى الواقع ما زال الغرب منذ زمن طويل مسكون بالقومية التي تكون أحياناً مدافعة عن ثقافة وعن طريق يؤدي الى الحداثة ولكنها غالباً ما تصبح أكثر فأكثر رفضاً للآخر واحتقاراً للقيم الكونية العامة. سيكون من الخطأ أيضاً اختزال الحركات التي تهب على العالم الثالث الى سلفية جديدة فى حين أنه جارى البحث بأشكال مختلفة عن تحالفات جديدة بين التحديث وانماط التراث الثقافى. القرن الذى يستهل ستسوده المساواة القومية، كما ساد القرن التاسع عشر المساواة الاجتماعية. عديد من بلاد اوربا الغربية وامريكا الشمالية تشهد اليوم ردود فعل قومية أو اجتماعية أو سياسية تتعارض مع انفتاح المجتمع، ومع وصول المهاجرين ومع الانخراط فى منظومة أوروبية أو عالمية. وفى المقابل تكون الثقافة والمؤسسات الانتاجية التي تعتبر نفسها عالمية أو كوكبية هى فى الغالب امريكية بحيث من المستبعد أن لا تشكل عناصر لسياسة تسلطية بل ولهيمنة. فى جميع ارجاء العالم، يلاحظ التمزق بين كونية مغرورة بخصوصيات عدوانية. والمشكلة السياسية الرئيسية هى الحد من هذا الصراع الشامل، وإعادة ارساء قيم مشتركة بين مصالح متعارضة.

مثل هذا التشكيل الجديد للمجتمع يبدو للكثيرين مجرد بناء للعقل، ولا يمكن له على أى حال أن يختزل الى اختراع حلول ايدولوجية تؤدي بسهولة الى الشعبوية أوالى الفاشية. ولكن هذه الانتقادات اكثر هشاشة من التأملات التي تنتقدها، لأن الأمر لا يتعلق هنا بأبنية إيدولوجية ولا بأشكال دولة. فالمجتمع الليبرالى يحل الذات فى احتياجاتها وشبكات علاقاتها، وتحبسها المجتمعات الطائفية الجديدة فى كتلة من العقائد والسلطات، بشكل يصبح معه من الصعب فى كلا الجانبين ادراك دعوة الذات خلف الاشكال المرئية والمنظمة للحياة الاجتماعية. ولكن يمكن فقط الاستماع اليها،

مختلطة بانواع مختلفة من الضجيج، عبر شقوق وفجوات النظام، وفي الفراغ الذي لم يتمكن التحكم الاجتماعي من ازالته. في المجتمع الليبرالي تتجلى الذات هنا أو هناك، في دوامة الاستهلاك، وعلى وجه الخصوص في الثقافة الموسيقية للشباب، أى في ابعاد مكان عن مراكز الانتاج والسلطة التي يضحى فيها بالذات من أجل منطق النظام. هناك حيث تقترب الرغبة في الحياة من الاحتجاج على النظام تحدد بوضوح ملامح وجه الذات في المجتمع الغربى. وبصورة موازية في المجتمعات الطائفية الجديدة يسمع صوت الذات أولا في رفض النظام السياسى باسم الجماعة، ولكنها لا تتخذ شكلا محددا إلا عندما يتحد هذا الرفض الكبير بتأكيد الحرية الشخصية المستندة على العقل. وليس من السهل التقريب بين هذين النوعين من الانشقاق - سو لجنستين وزخاروف على سبيل المثال - ولكن التحرير سيكون مستحيلا ما لم يتحالف النقد الليبرالى والنقد الدينى أو القومى فى كفاح مشترك. وبنفس الطريقة فى المجتمع الليبرالى، ينقسم الشباب الفقير، الضحية الرئيسية للمجتمع، بين من يريدون ايجاد مدخل الى مجتمع الاستهلاك ومن ينطوون على هوية جماعية، أو فئة عمرية، أو شلة أو جماعة عرقية، ولكن اللحظات التي تؤسس حقلا سياسيا جديدا هى تلك اللحظات، كما فى مايو ٦٨، التي يتقارب فيها هذين النمطين من السلوك.

فكر الذات فى تعارض دائم مع الاعتقاد فى نموذج معين للمجتمع. لا يمكن لنا اليوم أن نؤمن بنظام اجتماعى أو سياسى. ليس فقط لان القليلين، الذين تمنوا الانتقال من الرأسمالية الى الاشتراكية، ولكن ايضا الكثيرين، الذين تمنوا الانتقال من الاشتراكية الى الراسمالية، يريدون جميعهم التخلص من قيود الانظمة التسلطية أكثر من الانتماء الى نموذج معارض من النظام الاجتماعى. ويدفعهم انتقادهم نحو البحث عن أنفسهم أونحو الفوص فى التنافس الاقتصادى بدلا من التوجه نحو كفاحية ايديولوجية جديدة، ولهذا السبب لا يتعلق الامر هنا بالبحث عن طريق ثالث بين الشرق والغرب أو بين الشمال والجنوب، بل يتعلق بمحاولة اظهار مطلب تحقيق الذات فى جميع ارجاء العالم. وهذا هدف يظهر المسافة التي يجب أن تتخذ للابتعاد عن النزعة التاريخية. لقد

اختلفت فكرة بناء مجتمع المستقبل، مجتمع أكثر عدلا وأكثر تقدما فى آن، أكثر حداثة وأكثر حرية، لقد حملتها الامواج المتتابعة للشمولية. إن الاغراء الحالى ليس هو الحلم بالغد السعيد ولكن هو حلم العيش بشكل مختلف، حلم بالانغلاق فى مجتمع مضاد أو فى ثقافة "بديلة". إن روح الطائفة الدينية هى اليوم أكثر قوة من التعبئة السياسية. ولكن كلاهما يقتربان من بعضهما على عكس ما يبدو، لانه فى كلا الجانبين ترتسم ملامح مجتمع متقن، طوباوى ، لا يتغير فى المكان ولا فى الزمان، أى مجتمع ممتلى ومتجانس لدرجة إن حرية الذات لا تجد لنفسها مكان فيه. تشبه قوى الاحتجاج دائما القوى التى تتاضل ضد سيطرتها، كما كان يريد التصنيع الاشتراكى أن يكون نسخة متقنة وأكثر عقلانية من التصنيع الراسمالى. وبالمطريقة نفسها نجد الثقافات البديلة، كالانظمة الطائفية الجديدة تمارس تحكم ثقافى أكثر قوة من الصناعات الثقافية فى المجتمع الليبرالى. فالدعاية تذهب فيها الى مدى أبعد فى بناء الحاجات عن الاعلان التجارى. ينبغى الحذر من نماذج الاتقان.

الفصل الخامس ما هي الديمقراطية ؟

انقلب تمثيل الديمقراطية رأساً على عقب منذ القرن الثامن عشر. لقد حددناها أولاً بالسيادة الشعبية وبتحطيم نظام قديم قائم على التوريث وعلى الحق الإلهي وعلى الامتيازات. انذاك اختلطت الديمقراطية بفكرة الأمة وخصوصاً في الولايات المتحدة وفرنسا. ولكن الخوف من قيام ديكتاتورية وطنية ثورية على منوال عصر الارهاب في فرنسا، وكذلك السيطرة المتزايدة للمشاكل الاقتصادية على الاهداف السياسية قد أديا في القرن التاسع عشر لاستبدال فكرة السلطة في خدمة الطبقة الأكثر عدداً بفكرة السيادة الشعبية وفكرة الأمة بفكرة الشعب ، قبل أن يتحول هذا الشعب بدوره الى طبقة عاملة ، بشكل عام اصبحت الديمقراطية تمثيلية، وجعل منها مفكروها الأساسيون، من بنجامان كونستان Benjamin Constant الى نوربيرتو بوبيو Norberto Bobbio. التحديد المركزي لحرية البشر في العصر الحديث. وهو ما أضاف احترام حقوق العمال المسحوقين تحت وطأة السيادة الرأسمالية الى المبادئ الكونية في الحرية والمساواة. لقد ربطت السياسة الديمقراطية زمناً طويلاً بمفهوم التقدم، وفكرة الحداثة، وحتى العقلنة، بفكرة الدفاع عن المصالح الطبقية، حتى دعا لينين نفسه إلى تحالف مجالس العمال مع كهرية البلاد.

هذا التوازن بين الكوني والخاص، وبين العقل والشعب قد اختل بدوره وبدأت الصورة التي لنا عن الديمقراطية أكثر دفاعية. نتحدث عن حقوق الانسان وعن الدفاع عن الاقليات وعن وضع حدود لسلطة الدولة ولمراكز السلطة الاقتصادية. وهكذا اقتربت فكرة الديمقراطية، متطابقة في البداية مع فكرة المجتمع، تدريجياً من فكرة الذات، التي تميل لأن تكون التعبير السياسي عن هذه الفكرة الديمقراطية. وهو ما يفسر لماذا ينتهي تحليلي عن الذات في المجتمع الحديث بتأملات حول موضوع الديمقراطية.

من السيادة الشعبية الى حقوق الانسان

اولئك الذين اعتبروا انفسهم يوما ما مواطنين واكتشفوا أن السلطة كانت اختراعاً انسانياً وأن شكلها يمكن أن يتغير بقرار انساني، كفوا عن الايمان بلا تحفظ بالتراث أوبالحق الالهي. كانت سيادة الشعب وحقوق الانسان في هذه اللحظات التأسيسية تبدوان كوجهين للديمقراطية . يؤكد الانسان حريته عندما يتخذ موقع المواطن ومن هنا جاء اختراع الجمهورية، في الولايات المتحدة وفي فرنسا، والذي يقدم اكبر ضمان لحقوق الافراد. ولكن تاريخ الديمقراطية ما هو إلا تاريخ الانفصال التدريجي بين هذين المبدئين : السيادة الشعبية وحقوق الانسان. مالت فكرة السيادة الشعبية الى أن تتحرف الى السلطة الشعبية التي لا تعبأ بالشرعية وتمتلى بالطموحات الثورية. في حين أن الدفاع عن حقوق الانسان قد اختزل في الغالب الى الدفاع عن الملكية الخاصة.

اكتسبت اليوم سلطة الدولة "الشعبية" قوة كبيرة وقضت على الحركات الاجتماعية في الوقت الذي قضت فيه أيضاً على الحقوق السياسية لدرجة أنه صار من المستحيل الدفاع عن الديمقراطية الشعبية ضد الديمقراطية "البرجوازية" أوالدفاع عن الحرية "الواقعية" ضد الحرية "الشكلية". نحن نعتقد إذن أن الديمقراطية لا تكون قوية إلا عندما تخضع السلطة السياسية لاحترام الحقوق ، التي يتضح تحديدها مع الزمن ، الحقوق المدنية أولاً ثم الاجتماعية وأيضاً الثقافية. وإذا كانت فكرة حقوق الانسان تكتسب مثل هذه القوة فذلك لان الهدف الاساسي لم يعد هو اسقاط سلطة تقليدية ولكن هو الحماية من سلطة تتماهى مع الحداثة ومع الشعب ولا تترك مكاناً للاحتجاج أوالمبادرة.

وهكذا بالانتقال من الفكرة الجامعة للسيادة الشعبية مع الدفاع عن الحقوق، وفي المقام الاول حقوق المحكومين في اختيار حكامهم، تفرض الديمقراطية على نفسها القتال في جبهتين وليس جبهة واحدة. ينبغي لها أن تقاتل السلطة المطلقة سواء كان الاستبداد العسكري أو استبداد الحزب الشمولي ولكن ينبغي ايضاً أن تضع حدوداً لفردية متطرفة يمكنها أن تفصل تماماً المجتمع المدني عن المجتمع السياسي وتتركه اما أسير ألعاب تشجع على الفساد أو سلطة غالبية للادارة والمؤسسات الانتاجية.

قليلون ما زالت لهم الجرأة على الدفاع عن مفهوم اجماعى وشعبى للديمقراطية، ذلك المفهوم الذى غالباً ما استخدم كتغطية لنظم متسلطة وقمعية. أما الكثيرون فيتمنون فى المقابل اضمحلال النظام السياسى وليس الدولة فقط، ويضعون كل ثقتهم فى السوق، ممتداً الى مجال القرارات السياسية. ينبغى الابتعاد عن كلا الموقفين والاعتراف بأن الديمقراطية تقوم اليوم على الاختيار الحر للقادة وفى نفس الوقت على تحديد السلطة السياسية بمبدأ غير سياسى، كما اكد على ذلك فى القرون السادس عشر والسابع عشر والثامن عشر المنظرون الدينيون أو العلمانيون للحق الطبيعى.

إن حرية كل فرد ليست مضمونة لمجرد أن الشعب فى الحكم، لأن هذا التعبير يمكن أن يبرر ديكتاتوريات قومية أو ثورية. وليست مضمونة فى كون كل فرد يمكنه أن يختار بحرية مما يعرض عليه فى السوق، لأن هذا السوق لا يضمن لاتكافؤ الفرص ولا توجيه الموارد الى اشباع الحاجات الاساسية ولا الكفاح ضد الاستبعاد. ينبغى إذن أن توفق الديمقراطية بين الاندماج، أى المواطنة التى تفترض فى المقام الاول حرية الاختيارات السياسية، مع احترام الهويات والحاجات والحقوق. لا ديمقراطية بون الجمع بين مجتمع مفتوح واحترام الفاعلين الاجتماعيين، بون الجمع بين الاجراءات الباردة وحرارة الاعتقادات والانتماءات ، وهو ما يبعدنا فى آن عن مفهوم شعبى وعن مفهوم ليبرالى للديمقراطية.

الديمقراطية هى النظام السياسى الذى يسمح للفاعلين الاجتماعيين أن يتكونوا وأن يتصرفوا بحرية. إن المبادئ التى تشكل الديمقراطية هى نفسها التى تقتضى وجود الفاعلين الاجتماعيين أنفسهم. لن يوجد فاعلون اجتماعيون إلا إذا توافق الوعى الداخلى بالحقوق الشخصية والجماعية مع الاعتراف بتعدد المصالح والافكار، وخصوصاً تعدد الصراعات بين السادة والمسودين، وأخيراً مسؤولية كل فرد تجاه التوجهات الثقافية المشتركة. وهو ما يمكن ترجمته على مستوى المؤسسات السياسية، بواسطة مبادئ ثلاثة : الاعتراف بالحقوق الاساسية وأن على السلطة أن تحترمها؛ التمثيل الاجتماعى للقادة ولسياسته؛ الوعى بالمواطنة وبالانتماء الى مجموع قائم على الحق القانونى.

من المناسب أن نقدم بدقة أكثر هذه المبادئ الثلاثة التي تحدد نمطاً من العمل السياسى بشكل أوسع مما تقوم به قواعد ولوائح المؤسسات.

الحرية السلبية

ساد القرن العشرين نظم ألغت باسم الشعب الحريات من أجل تحقيق أو الحفاظ على الاستقلال والقوة الاقتصادية للأمة ، أو الحفاظ ، عليها بشكل أدى الى أن الخصوم الاساسيين للديمقراطية لم يعوبوا هم نظم الحكم القديمة وإنما النظم الجديدة الشمولية، سواء كانت فاشية أو شيوعية أو قومية فى العالم الثالث. حينئذ أخلى المفهوم الايجابى للحرية كتحقيق لسيادة الشعب مكانه لمفهوم سلبى، وتُعرف الديمقراطية ويدافع عنها باعتبارها النظام الذى لا يسمح لأى شخص، حسب تعريفات ايسيابرلين وكارل بوبر، أن يستولى على السلطة ويحتفظ بها ضد رغبة الأغلبية. حل الفكر الليبرالى محل الحركة الثورية كمدافع عن الديمقراطية بشكل كامل لدرجة أن الديمقراطية أصبحت تتحدد باحترامها للأقليات، بصورة أفضل من تحديدها بحكم الأغلبية ويدت الديمقراطية مرتبطة ارتباطاً وثيقاً باقتصاد السوق.

فى شرق اوربا، أعطى انهيار النظم الشيوعية، إبتداء من اللحظة التى كفت فيها القوة العسكرية السوفيتية عن حمايتها، الأولوية للحل الصعب لاقتصاد السوق محل الاقتصاد الموجه، والديمقراطية تتحدد فيها لا باعتبارها نظاما يضمن التمثيل الحر للمصالح وإنما باعتبارها النظام الذى يضع نهاية للسيطرة على الاقتصاد من قبل السلطة السياسية للنخبة. يتوارى المبدأ التوحيدى للسيادة الشعبية ويحل محله مبدأ الفصل بين السلطة وبين النظم الاجتماعية الفرعية : ينبغى للدين أن ينفصل عن السلطة السياسية، وهذه السلطة عن ادارة الاقتصاد وأيضاً عن العدالة، وليس للحكومة أن تتدخل فى الحياة الخاصة إلا لحماية الحرية، أى بالتالى باسم التسامح والتعددية وليس باسم الاندماج والتجانس الاجتماعى. تفرض هذه الليبرالية السياسية نفسها فى مواجهة النزعات العسكرية للعالم الثالث والنظم التى تريد أن تفرض احترام إيمان دينى، وينفس القدر فى مواجهة الديكتاتوريات الشيوعية التى ما زالت فى عام 1992 تحكم

الصين وكوبا وفيتنام وكوريا الجنوبية. وبعد أن وضعنا أماننا في العمل السياسي، اقتنعنا تماماً بأن اسوا عقبة أمام الحرية وأمام التحديث هي الاستبداد السياسي سواء كان حكم مطلق تقليدي، أو من نمط شمولي أو حتى تسلطي لدرجة اننا نحذر من كل ما يشدد على الربط بين العمل السياسي والحياة الاجتماعية، ومن كل تحديد للديمقراطية كنمط من المجتمعات وليس فقط نظاماً سياسياً.

لم تعد عواطفنا سياسية ونفكر في السياسة بكثير من الحذر بدلاً من التمسك. بل حتى أحياناً تبدو كلمة الديمقراطية قد تلوثت لدرجة تجعلنا نتردد في استخدامها : إذا كانت "الديمقراطيات الشعبية" هي قناع الديكتاتوريات التي يفرضها جيش أجنبي، ألا تحمل فكرة الديمقراطية نفسها في داخلها بذرة الانحراف ؛ أليس أكثر ضماناً وأكثر وضوحاً أن نتحدث فقط عن الحريات وأن نحذر من كل مفهوم للسلطة؟ وهو ما يشير إليه كلود لوفور عندما يحدد الديمقراطية لا بسلطة الشعب ولكن بغياب السلطة المركزية، لأنه الأهم هو الغاء العرش وليس إجلال أمير جديد عليه؛ الأمر سيان إذا كان هذا الأمير الجديد هو الشعب بدلاً من الملك، فسلطته قد تصبح مطلقة بصورة أكبر من سلطة الملك.

هذا الانقلاب في فكرة الديمقراطية، هذا الانتقال من الحصول بالقوة على السيادة الشعبية إلى احترام الحريات والأقليات يترجم بأمانة المأسى السياسية للقرن العشرين بشكل يدفعنا إلى قبول هذا الانقلاب، ولكن كنقطة انطلاق للتأمل وليس كمحطة وصول. نقطة انطلاق، نعم، لأنه لا يمكن أن تكون هناك حرية سياسية ما لم تكن السلطة محدودة بمبدأ أعلى منها، مبدأ يتعارض مع تحولها إلى سلطة مطلقة. وكثيراً ما جاءت الأديان بمثل هذا المبدأ لتحديد السلطة، في الوقت الذي ضمنت فيه، في المسيحية والإسلام، خضوع السكان للسلطة القائمة. في المجتمعات العلمانية، فقد الدين هاتين الوظيفتين المتعلقةتين بوضع الحدود للسلطة وبشرعيتها. ولكن الفكرة الدينية قد اكتست طابعاً علمانياً بتحولها إلى دعوة لحقوق الإنسان، واحترام الشخص الإنساني. واليوم كما بالأمس، لا يمكن بناء الديمقراطية إلا إذا أقمناها على مبدأ غير سياسي لوضع حدود

للسلطة السياسية. يقف ضد هذه الفكرة كل من تتحدد لديهم الحدائق كتطبيع تدريجي للمجتمع، تطبيعا ينبغي أن يقود الى شفافية المؤسسات والى النشاط الحر للأفراد والجماعات.

ولكن من يجرؤ اليوم على التمسك بمثل هذا المفهوم البالغ الصلف؟ من يستطيع أن ينسى أن سلطة الانسان على الطبيعة وعلى نفسه، أن كانت هى شرط الحرية، يمكن لها ايضا أن تكون العقبة الاخطر فى وجه الحرية بتحويلها للمجتمع الى آلة اوجيش، الى بيروقراطية أو معسكر عمل اجبارى؟ لا ينبغي فقط احترام الارادة الجماعية ولكن ايضا الابداع الشخصى أى بالتالى قدرة كل فرد على أن يكون فاعل حياته الخاصة عند الحاجة، فى مواجهة أجهزة العمل والتنظيم وقوة الجماعة. المفهوم السلبى للحرية الذى صاغه ايسيا برلين بجدارة كبيرة هو الأساس اللازم للديمقراطية. لأن وضع حدود للسلطة اهم من اعطاء سلطة مطلقة للسيادة الشعبية التى لا تكتفى أبداً باتخاذ شكل العقد الاجتماعى أو التشاور الحر، لأنها تكون ايضا إدارة وجيش، سلطة وضمانات قانونية لهذه السلطة.

من المستحيل اليوم الحديث عن الديمقراطية المباشرة، وعن السلطة الشعبية أو حتى عن التسيير الذاتى دون أن نرى منبثقا من بين هذه الكلمات السرابية الوجه الواقعى للحزب الشمولى ومناضليه المتسلطين، والتفاهة المغرورة لزعمائه الصغار، والوطأة الخائفة للدعوات الى وحدة الشعب والامة. لا يمكن أن توجد الديمقراطية. أى الاختيار الحر للحكام من قبل المحكومين، الا اذا حصلت الحرية على حيز لا يمكن تقويضه، وإذا كان حقل السلطة أقل اتساعا من حقل التنظيم الاجتماعى وحقل الاختيارات الفردية ولكن هذا الشرط الضرورى ليس كافيا. إذا كان على السلطة أن تكون محدودة، ينبغي ايضا أن يشعر الفاعلون الاجتماعيون انهم مسؤولون عن حريتهم الخاصة، معترفين بقيمة وحقوق الشخص الانسانى، وعليهم ألا يحددوا أنفسهم والآخرين بالجماعة التى ولدوا فيها فقط، أو بمصالحهم. لديمقراطية صلبة دون هذه المسئولية التى يوجدها أو يقضى عليها الوسط التعليمى وخصوصا الأسرة والمدرسة

المواطنة

الشرط الثانى للديمقراطية هو أن يريد المحكومون اختيار حكامهم ويريدون أن يشاركوا فى الحياة الديمقراطية، أى أن يشعروا أنهم مواطنون. وهو ما يفترض وعياً بالانتماء للمجتمع السياسى الذى يعتمد بدوره على التماسك السياسى للبلد. فإذا كان هذا البلد ممزقاً إلى إثنيات غريبة ومعادية لبعضها، أو حتى فى أبسط الاحوال لو كانت عدم المساواة الاجتماعية كبيرة لدرجة أن السكان لا يوجد لديهم شعور بالملكية العامة أو الصالح العام، فى هذه الحال تفتقد الديمقراطية للأساس. ولكى تكون قوية ينبغى أن يكون هناك مساواة فى شروط الحياة، كما كان يقول روسو، ووعى قومى. ويقدر ما يؤدي خضوع المجتمع للدولة الى إضعاف بل حتى الى تدمير الديمقراطية، يؤدي تماسك ووحدة المجتمع السياسى الى تقويتها. إذا كانت الامور العامة تبدو للمواطنين غريبة عن مصالحهم الخاصة، فلماذا يعبئون بها؟ إنهم يقبلون بسهولة فيما بينهم علاقات الزبائن المستهلكين بخضوعهم السلبي للضغط. يسمح الوعي بالمواطنة وحده كما بين مارشال H. T. Marshall، باعادة تأسيس وحدة المجتمع، المحطم بسبب الهوة والصراع بين الطبقات الاجتماعية.

هل ينبغى أن نذهب أبعد من ذلك ونتطرق الى فكرة إن المجتمع الديمقراطى يقوم بالضرورة على قيم مشتركة، وخصوصاً على قيم دينية وأخلاقية يؤدي حضورها الى وضع حدود للسلطة السياسية؟ هذه الفكرة تتمتع بحضور بالغ فى المجتمع الأمريكى ولكن لها حضور اقل فى المجتمعات الاوروبية والأمم الجديدة حيث يعطى الوعي القومى لنفسه أسساً تاريخية وسياسية أكثر منها دينية وأخلاقية. ولكن فى كلتا الحالتين تحمل الاشارة بالمجتمع القومى فى داخلها أخطاراً على الديمقراطية أكثر مما تحمل دعائم لها. فهى تنتج رفض الآخر، وتبرر الغزو، وتستبعد الاقليات وكل من يبتعد عن "النحن" أو ينتقدها. هنا تتحول المواطنة الى هذا التأكيد المنافس للسيادة الشعبية التى خرج منها الكثير من النظم المتسلطة. فلنحتفظ لفكرة المواطنة بمعنى أكثر دنيوية، بعيداً عن أى عبادة للجماعية السياسية، اولشعب أو لجمهورية. أن يكون المرء مواطناً هو أن

يشعر بمسئوليته عن الاداء الجيد للمؤسسات التي تحترم حقوق الانسان وتسمح بتمثيل
للافكار والمصالح. وهو أمر ليس بالقليل، ولكنه لا يتضمن وعياً أخلاقياً أو قومياً
بالانتماء، وهو وأن كان موجوداً في اغلب الاحيان الا أنه لا يشكل شرطاً أساسياً
للييمقراطية. لقد ربط نوربيرتو بوبيو، عن حق، الديمقراطية بالتحكم في العنف، وذهب
حتى الى التذكير بأنه في نصف القرن الاخير لم ينشب أى صراع حربي بين
ديمقراطيتين.

التمثيل

ينبغي عدم فصل هذا الوعي بالانتماء لمؤسسات عن الوعي بالعلاقات
والصراعات الاجتماعية الذي يفسره. لا يمكن للييمقراطية أن توجد دون أن تكون تمثيلية
representative ، أى دون أن يكون الاختيار بين أكثر من حاكم يتناسب مع الدفاع
عن المصالح والاراء المختلفة.

ولكى تكون الديمقراطية تمثيلية ينبغي أن يكون انتخاب الحكام حراً، ولكن ايضاً
ينبغي أن تكون المصالح الاجتماعية قابلة للتمثيل، وأن يكون لها نوع من الأولوية على
الاختيارات السياسية. إذا كانت المساندة الممنوحة لحزب هي التي تحدد المواقف
المتخذة في مواجهة المشاكل الاجتماعية الاساسية يكون النظام الديمقراطي ضعيفاً.
في حين أنه يكون قوياً عندما تقدم الاحزاب السياسية إجابات على أسئلة اجتماعية
يصيغها الفاعلون انفسهم وليس فقط الاحزاب السياسية أو رجال السياسة.

إذا كانت الديمقراطية قوية في البلاد الصناعية في أوروبا وأمريكا الشمالية فذلك
لأن هذه البلاد شهدت صراعات اجتماعية مفتوحة ذات محصلة عامة ، في نفس الوقت
الذي تكتسب فيه اندماجاً اجتماعياً نسبياً وتماسكاً قومياً. وحيث كان صراع الطبقات
قوياً كانت الديمقراطية قوية ايضاً. في بريطانيا العظمى على وجه خاص يوجد مجتمع
طبقى بمعنى الكلمة وهي أم الديمقراطية. في فرنسا كانت الديمقراطية أضعف لأن
الفاعلين الاجتماعيين كانوا تابعيين لوكلاء سياسيين في المعارضة أو في الحكومة.

إن السلوك الثوري لا يحبذ الديمقراطية، لأنه بدلاً من تجديد صراع اجتماعي قابل لحلول أو إصلاحات سياسية، يسلم بوجود تناقضات سياسية لا يمكن تجاوزها وبضرورة إسقاط الخصم والتخلص منه، وهو ما يقود إلى الحلم بمجتمع متجانس سياسياً واجتماعياً وإلى اعتبار الخصم الاجتماعي خائن للشعب أو للأمة. الصراع الاجتماعي المحض هو على العكس دائماً ما يكون محدوداً، وعندما تختفى هذه الحدود تختفى الحركات الاجتماعية ويحل محلها ثقافات سياسية مضادة أو يحل محلها العنف. الديمقراطية لا تحتمل إلا الصراعات المحدودة ولكن يصابها الضعف نتيجة لغياب الصراعات المركزية والعميقة، لأن هذا الغياب عقبة كبرى في وجه التمثيل الاجتماعي للوكلاء السياسيين. الديمقراطية تفترض إذن مجتمعاً مدنياً قوى البنيان مرتبط بمجتمع سياسي مندمج، وكلاهما مستقل بقدر الامكان عن الدولة المحددة كسلطة تتصرف باسم الأمة ، مسئوليتها الحرب والسلام ومكانة البلد في الساحة العالمية، والاستمرارية بين ماضيها وحاضرها ومستقبلها.

الأحزاب

إن أشكال المؤسسات السياسية ليست على نفس الدرجة من الأهمية بالنسبة للديمقراطية، وهي الأشكال التي تنظم عملية تشكيل الاختيارات السياسية، وهي تنتمي إلى جانب العرض السياسي أكثر منها إلى جانب الطلب الاجتماعي. لا ينبغي أن نضع في هذه الأشكال المؤسساتية حرية اختيار الحكام التي سبق واعتبرناها تعريفاً للديمقراطية نفسها. ولكن كي تؤدي الديمقراطية عملها ينبغي أن تنشأ اختيارات خاصة بشكل يُمكن المواطنين من اختيار حكامهم مع فكرة واضحة بقدر الامكان عما ينطوي عليه هذا الاختيار من عواقب في مجالات أساسية في الحياة الجماعية. كيف يمكن أن يكون هناك اختيار حر للحكام إذا لم يعرف الناخبون ماهي السياسة الاقتصادية أو الاجتماعية أو الدولية للمرشحين؟ إذا كان المرشحون لا يمثلون إلا مجموعة مصالح خاصة، كيف يمكن إقامة صلة بين هذه المصالح والاختيارات العامة ؟ مثل هذا الوضع لا يؤدي إلا إلى وضع حدود لتأثير الناخبين، المنغلقيين في حياتهم، وإلى إلغاء كل تحكم

فى القرارات الكبرى التى تتخذ حينئذ إما بواسطة النخبة السياسية نفسها وإما تحت ضغط المصالح الاقتصادية الأكثر قوة.

لقد اعتدنا على التفكير فى أن الأحزاب السياسية تمثل أصوات لاغنى عنها لهذا الاستيعاب للطلب الاجتماعى وهذه الصياغة للاختيارات السياسية العامة. ولكن مجالها ضيق بين تعدد مجموعات الضغط من جانب وسحق الطلب الاجتماعى بواسطة الايديولوجيا والأجهزة السياسية من جانب آخر. تعاني الولايات المتحدة فى الغالب من ضعف أحزابها التى تختزل الى مجرد آلات انتخابية، وفرنسا مشلولة بسبب خطابات ايديولوجية لاتستخدم فى الغالب الا للحفاظ على سطوة المرشحين والأجهزة السياسية على القوى الاجتماعية التى لم تعد إلا مجرد وسيط لنقل ارادة سياسية. كلما اعتبر حزب ما نفسه حاملا لنموذج لمجتمع بدلاً من أن يكون مجرد جهاز لتشكيل الاختيار السياسى، كلما كانت الديمقراطية ضعيفة وكلما صار المواطنون تابعين لقادة الحزب. هذا الضعف يلاحظ بوضوح فى فرنسا وفى أسبانيا ومعظم بلاد أمريكا اللاتينية، حيث بين البرت هيرشمان Albert Hirschman أن "الأحزاب الجماهيرية الكبرى" تقترب أحياناً بصورة خطيرة من الحزب الواحد كما كان موجوداً فى البلاد الشمولية. ولكن فى المقابل لا تقوى الديمقراطية بضعف المجتمع السياسى وخضوعه للمصالح الاقتصادية أو لطلبات الأقليات. إن المواطنة تفترض الاهتمام بالمصالح العام والتواصل قدر الامكان بين المطالب الاجتماعية والقرارات ذات الأثر الكبير للدولة.

الليبرالية ليست الديمقراطية

يبدو أن الديمقراطية فى أواخر القرن العشرين قد حققت انتصارات كبرى، ولكن هذا يعتبر تفسير بالغ التفاؤل لانهايار النظم الشمولية. لم تحقق الديمقراطية إلا انتصارات قليلة بل حتى لم تخض إلا معارك قليلة. أكثر معاركها مجداً هى معركة منظمة "تضامن" فى بولندا عام ٨١ - ١٩٨٠ ومعركة الطلاب الصينيين فى ١٩٨٩. وفى البلاد الشيوعية الأخرى، من الأصوب اعتبار سقوط جدار برلين الحدث الأكثر أهمية. إن الفرحة التى صاحبتة لم تكن صرخة وانتصار ولكن زفرة عزاء ونهاية لسجن دام طويلا.

لقد أمكن الحديث عن ثورة ديمقراطية فى رومانيا ولكن هل حدثت أم أنها تنتمى الى عالم الممكنات؟ وفى أمريكا اللاتينية وافقت الديكتاتوريات العسكرية على أن تعطى السلطة للسلطات المدنية فى البرازيل وفى أوروغواى وفى شيلى وحتى فى باراجواى، فى حين أن الهزيمة العسكرية فى الأرجنتين وليست الانتفاضة الشعبية هى التى منحت السلطة لنظام الديمقراطية. إن الغبطة التى خلقها سقوط الانظمة الشنيعة وغير الفعالة قد صاحبها غياب غريب للتفكير حول الديمقراطية التى تحدت فقط بغياب السلطة المستبدة أو الشمولية. ففي البلاد الشيوعية سابقاً فى أوروبا الوسطى نفذت سريعاً الافكار والمشروعات السياسية، وفى جميع الأنحاء كانت العودة الى اقتصاد السوق هى التى تحكم جميع التغييرات الأخرى. لا يحفز التعليم ولا العدالة الاجتماعية أى فكر بارز والمسألة الوحيدة التى تستحوذ العواطف هى معرفة من أين ستأتى رؤوس اموال والمستثمرون. ولا يلعب المثقفون دوراً هاماً فى عملية اعادة ارساء هذه الديمقراطية الجديدة، فى حين أنهم كانوا قد احتلوا الصف الاول فى الكفاح ضد الديكتاتوريات. إنهيار الاهتمام بالديمقراطية كبير أيضاً فى البلاد الغربية. فبعد فترة طويلة من تحكم السياسة فى كل شئ تعيش هذه البلاد الآن فترة تحكم الاقتصاد فى كل شئ : تسابق عالمى، توازن التبادلات التجارية، قوة العملة، القدرة على تطوير التقنيات الجديدة. هذه هى أهداف الادارة السياسية، فيما عدا ذلك، يتم الاكتفاء عن طيب خاطر بكوننا فى أمان من الاحتكارات السياسية، وبيروقراطية الدولة، وبلاغة السياسيين وتجاوزات المثقفين الذين أظهر الكثير منهم حماساً للارهابيين القريبين أو للديكتاتوريات البعيدة أكثر من حماسهم للضمانات القانونية والحريات. يُنظر الى الديمقراطية باعتبارها طبيعية مثلها مثل اقتصاد السوق أو الفكر العقلانى وبالتالي ينبغى بالاحرى الحفاظ عليها وحمايتها وليس تطويرها وتنظيمها.

هذا المفهوم لا يمكن قبوله، حتى وإن اعترفنا بأهميته التاريخية. فصحيح أن مجتمعاً ليبرالياً وغنياً له قدرة كبيرة على الاندماج، ويمكن على وجه الخصوص وضع حد للتدخل الارادى أى المتسلط للدولة، وصحيح أيضاً أنه يمكننا ملاحظة أن مجال

الحريات قد اتسع بشكل كبير في البلاد المركزية من بداية القرن التاسع عشر حتى نهاية القرن العشرين، وأن الرفاهية والتعليم والفصل بين العقائد الدينية أو السياسية والمجتمع المدني قد أستبدلت بديمقراطية دافعي الضرائب وبالنخبوية الجمهورية الديمقراطية الجماهيرية وهي التعبير السياسي عن طبقة وسطى قد صارت تشكل اغلبية المجتمع. معبرة بذلك عن الهرم الطبقي الذي تكون قواعده واشكاله بتنظيم شديدة التحرك. ولقد راكم سيمور مارتن ليبست Seymour Martin Lipset الحجج في صالح فكرة أن الديمقراطية مرتبطة ارتباطاً وثيقاً بالوفرة لدرجة أنه يمكن تعريفها باعتبارها البعد السياسي للتحديث.

ولكن صحيح ايضاً، كما قيل بلا توقف منذ الثورة الفرنسية، أن هذا التطابق بين الديمقراطية والمجتمع الليبرالي ، أى مجتمع نو تطور متجانس يختلط فيه العمل التحديثي بممارسة الحداثة نفسها، وبتطبيق الفكر العقلي على الحياة الاجتماعية، مع التفرقة الواضحة قدر الإمكان للأنظمة الفرعية - اقتصادية سياسية، قانونية، دينية، ثقافية - . هذا التطابق لا يحمل أى إجابة على سيطرة سادة المجتمع المدني على الحياة السياسية وخصوصاً سيطرة أصحاب الأموال ، ولا يمنع المجتمع المدني من أن يصبح مجتمع استبعاد في الوقت الذي يكون فيه مجتمع اندماج.

وهنا يتخذ رد مارسيل جوشييه على ميشيل فوكو كل قوته. المجتمع الليبرالي ليس على الإطلاق قناعاً لمجتمع قهري ؛ ومن العبث توجيه هذا النقد له، في الوقت الذي يجد فيه ضحايا النظم الشمولية والمتسلطة ملجأهم الوحيد ولأنه مفتوح ولأنه مرن ويعمل على الاندماج يكون الاستبعاد فيه مأساوياً ، في حين أن مجتمعنا مراتبياً جامداً أو قليل الحركة يشبه منزل قديم مملوء بأركان ومخابئ واقية. إن المجتمعات التقليدية لاتفصل الهامشية عن الدونية ولا الفقر عن الاستغلال. والمجتمعات الليبرالية الحديثة، بالغائها شبه الكامل لقيود وعلامات الدونية تحرر الهامشية. كلما كانت مجتمعاتنا مفتوحة وتنزع الى المساواة كلما أبرزت الهامشية وأبرزت حتى استبعاد أولئك الذين يرتبطون بقواعد اجتماعية أو ثقافية أخرى تختلف عن قواعد التيار العام، أو أولئك الذي يراكمون العوائق

الشخصية والاجتماعية. ليس لمثل هذه الملاحظة قوة كبيرة في أوروبا المتأثرة بشدة بتراث اشتراكي ديمقراطي حيث يتمتع الضمان الاجتماعي بنصيب من الدخل القومي يعادل بل حتى يتجاوز نصيب الدولة نفسها. ولكن هذه الملاحظة وثيقة الصلة أكثر بالولايات المتحدة ذات الثقافة الديمقراطية العميقة والتي لا توجد فيه الحواجز الثقافية والاجتماعية والتي تم رفعها في أوروبا عن طريق " الطوائف " أو الطبقات العليا كي تحمي نفسها، ولكن توجد فيها بكثرة أنماط الجيتو والأشكال المفرطة للبؤس والتفكك الاجتماعي. ولأن النموذج الليبرالي ينتشر بسرعة في أوروبا ينمو أيضا فيها، وفي فرنسا على وجه الخصوص، وعياً حاداً بزيادة اللامساواة، وهو إدراك غير دقيق لذهاب المستبعدين بعيداً عن الطبقة الوسطى وتفكك اليات الصراعات الاجتماعية والسياسية، التي كانت تربط هؤلاء المنكوبين بمجمل المجتمع. لقد كانوا مستغلين فصاروا غرباء؛ وليس من باب الصدفة أن يعرفوا أنفسهم مستخدمين مصطلحات عرقية وثقافية أكثر منها اجتماعية واقتصادية .

هذا الفصل المتزايد بين الداخل والخارج يتخذ شكلاً مشهيداً أكثر فأكثر كلما ابتعدنا عن مراكز اقتصاد الكوكب. إن الانفتاح على السوق العالمي، الذي تمهد له في الغالب أنظمة متسلطة وغير شعبية، يمكن أن يصاحبه عودة للديمقراطية، ولكن يصاحبه أيضاً بروز أكثر للثنائية الاقتصادية. ففي أمريكا اللاتينية على سبيل المثال أعقب تقهقر النظم الوطنية - الشعبية في عديد من البلاد انتصار للديكتاتوريات العسكرية واستبدال سياسة ليبرالية في البحث عن المزايا التنافسية في السوق العالمي بسياسة الحماية الاقتصادية ؛ ولكن هذه السياسة الاقتصادية قد تكيفت مع عودة الانتخابات الحرة دون أن تقضى على الاتجاه، الذي ساد سنوات الثمانينات، الى تصاعد الهامشية وتنامي القطاعي الهامشي للاقتصاد. لقد أصبح الفقراء أكثر فقراً وشهدت قطاعات واسعة من الطبقة الوسطى معلمين وموظفين الخ.. تدهوراً بالغاً في وضعها، في حين أن الاغنياء قد احتفظوا بمواقعهم واستفادوا بالتصدير الضخم للرساميل التي جاءت بها الديون الخارجية لبلادهم. تلك اللامساواة المتفاقمة، والتي أسماها باحثو مركز دراسات

أمريكا اللاتينية PREALC " الدين الاجتماعي " لهذه البلاد، تبرز حدود عملية التحول الديمقراطي. من يمكنه أن يستخدم هذه الكلمة عندما تعمل السلطات الواقعية لمصلحة الأقليات الغنية وعلى حساب الأغليات الفقيرة؟ تزداد الهوة على مستوى جميع البلاد بين المنتجين والمستبعدين، وكذلك بين البلاد التي يمثل المنتجون فيها ٨٠ ٪ وتلك التي لا يتعدون فيها من ٢٠ ٪ الى ٤٠ ٪ مثل بلاد افريقيا الساحلية أو البلاد المطلة على جبال الأنديز في أمريكا اللاتينية. من المستحيل إذن الاكتفاء بمفهوم ليبرالي محض للديمقراطية حتى وإن اعترفنا بأن النمو المتجانس هو الأساس الأقوى للديمقراطية.

نظرية الديمقراطية لدى يورجن هابرماس

عدم كفاية المفهوم الليبرالي، الذي يصطدم بالواقع القاسي للامساواة، يوجه الفكر المعاصر في اتجاه مخالف نحو العودة لكونية عصر التنوير. لا يمكن أن تكون هناك ديمقراطية إذا لم يستطع المواطنون، أيًا كانت أفكارهم ومصالحهم الخاصة، أن يتفاهمون حول مقترحات يقبلها الجميع. المجتمع العلمي كما وصفه روبرت ميرتون يمكن وصفه بأنه ديمقراطي باعتبار أن السلطة الشخصية والمنافسة بين المدارس والمعاهد تتبع فيه البحث والتدليل على الحقيقة. هذا المفهوم يبتعد تماما عن الفكر الليبرالي الذي لا يؤمن بالاجماع ولكن بالحلول الوسط، وبالتسامح واحترام الأقليات. إن الليبراليين شكاك agnostiques في حين أن المدافعون عن التنوير عقلانيون أو مؤمنون بالله. كما يجب ألا تبقى روح التنوير حبيسة في مجال الفكر العلمي وعليها أن تخترق الحياة الاجتماعية أي مجال القيم والقواعد بل وحتى التجارب الأكثر ذاتية مثل النوق والحكم الجمالي. إن الصعوبة بالغة والمجازفة كبيرة للوقوع في الصور التسلطية لعقلانية تحطم أو تحتقر كل ما يبدو لها غير عقلاني، ابتداء من المشاعر العاطفية إلى الدين، ومن الخيال إلى التراث. هذه هي الصعوبة التي حاول أن يتجاوزها يورجن هابرماس.

انه يستبعد حلين متطرفين : اختزال الفاعل الانساني الى الفكر العلمى والتقنى
والى العقل الاداتى وفى الاتجاه المعاكس الدعوة الى خصوصيات الفرد أو الجماعة فى
مواجهة ضغوط العقلانية. وينتقد، متتبعا خطى أدرنو وهوركهايمر، سيطرة الفكر الذى
يطلق عليه الاستراتيجى، ولكن لديه رعب لاحد له من الدعوة الى القوى الشعبية
Vlkisch التى أتت بالنازية فى المانيا. كما يؤمن بإمكانية اظهار ما هو كونى فى
الاتصال بين الخبرات الخاصة المشبعة بخصوصية العالم المعاش، وبثقافة معينة.
ينبغى ألا نكتفى بالحل الوسط الذى تقدمه السياسة الليبرالية، ولا حتى بتسامح يؤدى
الى تجاوز الخصوصيات بدلا من اندماجها. علينا أن نقبل أنه لا توجد ديمقراطية بلا
مواطنة، ولا مواطنة بلا اتفاق ليس فقط على اجراءات ومؤسسات ولكن أيضاً على
مضامين.

ولكن كيف يمكن ربط الكونى بالخاص؟ بالاتصال وعلى وجه التحديد بالمناقشة
والبرهنة اللتان تسمحان بالعثور فى الآخر على ما هو أصيل وما يرتبط بقيمة أخلاقية
أو قاعدة اجتماعية كونية. هذا المنحى فى الاحترام والاستماع الى الآخر يبدو كأساس
لليديمقراطية اكثر صلابة من صدام المصالح التى تقود الى حلول وسط وضمانات
قانونية.

ولكن كيف يمكن انجاز هذا الانتقال من المعاش الى المفكر فيه ومن الخاص الى
الكونى؟ كيف يمكن قلب الاتجاه السائد لحدائنا التى عارضت خصوصية الإيمان
وعارضت التراث وحياة الجماعة بكونية العقل؟ يعطى هابرماس هنا لمشكلة الديمقراطية
أهمية أكبر مما يعطيها لها العلم السياسى بشكل عام. الأمر يتعلق بتأسيس التواجد
والاتصال بين مواقع أو آراء أو أنواق تقدم فى البداية على أنها شخصية وبالتالي تمتنع
عن أى إندماج. ألا يتحدد المجتمع الحديث بالانفصال المتنامى، كما يقول هابرماس
بعد بياجيه، للموضوعى والاجتماعى عن الذاتى؟ ألم يفقد لى مبدأ مركزى للوحدة
وينادى بنظرية فى الاتصال تكون نظرية للتفاهم والتبادل وبالتالي للاجتماعية socialite
. يذكر هابرماس باستمرار بأنه لا ديمقراطية دون استماع للآخر واعتراف به،

وبدون بحث عما له قيمة كونية فى التعبير الذاتى عن نوق أوتفضيل. إن النشاط الديمقراطى فى البرلمان أو أمام المحكمة أو فى وسائل الاعلام يفترض أولاً أننا نعتز بصلاحيه ما لموقف الآخر. إلا فى حالة ما يضع هذا الآخر نفسه بوضوح وحتى عن قصد فوق حدود المجتمع. وهو ما يؤدى مباشرة الى التأكيد الكلاسيكى - الذى يستعيره هابرماس من بارسونز ومن بوركايم - الذى بمقتضاه تكون الأحكام الأخلاقية والاجتماعية هى وسائل لصيانة وإعادة انتاج القيم الثقافية والقواعد الاجتماعية وآليات التنشئة. فى حالة الأحكام الجماعية يذهب الاتصال الى مدى أبعد من الأحكام الخلاقية بما أنه يستند الى شرط انسانى أو الى مسيرات للعقل ذات طبيعة كونية تقريباً، أو يتم تطبيقها على الأقل فى منظومة أوسع من مجتمع واحد والتي نسميها أحياناً بالحضارة. وينضم هابرماس هنا لمجموعة من المنظرين الذى لا يعتبرون المجتمع منظومة انتاج وحسب ولكن تجمع له اقتضاءات تتعلق بالاندماج الاجتماعى وبالحفاظ على قيمة الثقافية قدر حرصه على الانتاج؛ أو بكلمات أكثر واقعية حيث يكون للتعليم والعدالة نفس أهمية الاقتصاد والسياسة.

ولكن إذا كان لهذا المفهوم قوة كبيرة فى مواجهة مفهوم أداتى متطرف يختزل الحياة الاجتماعية إلى العمل التقنى وصدام المصالح وحلول الوسط التى تتم بينهما إلا أنه يخضع لانتقادات ثم عرض أغلبها فى هذا الكتاب، ولأسيما نقد فكرة التوافق بين المؤسسات التى تعمل على احترام القيم والقواعد والأفراد الناشئين اجتماعياً بواسطة العائلة أو المدرسة أو أى هيئة أخرى للتنشئة الاجتماعية. ففى الواقع يوجد فارق مستمر بين النظام والفاعلين، لأن للنظام أيضاً هدف هو قوته الخاصة. ويبحث الفاعلون عن استقلالهم الفردى أياً كان شكله، وهو ما يقف حائلاً دون قبول صورة المجتمع الذى يدعو له هابرماس. وهو مجتمع الحركة المستمرة من الخاص الى الكونى والذى تلعب فيه الحياة السياسية دور تثقيف يرتفع بالأفراد الى فوق مستواهم. هذه الصورة التى تختزل الاتصال أى الاستماع المنتبه للآخر. وهنا التشاور الذى يهتم قبل كل شىء بالصالح العام ينبغى معارضته بما يضع نفسه بين الوعى وسيل المعلومات واللغات

والتمثيلات ويكون محكوماً بسلطات مثله مثل سيل المال ومثل القرار. إن ما يؤكد عليه هابرماس عن حق هو أن الصراع الاجتماعي لا يكون أبداً صداماً كاملاً أو لعبة حصيلتها صفر، كالعلاقة بين البائع والمشتري في السوق لأنه لا يوجد صراع اجتماعي بدون مرجعية ثقافية عامة بين خصمين وبدون فاعلية تاريخية مشتركة. إذن تجمع المناظرة الديمقراطية دائماً بين ثلاثة أبعاد : الإجماع الذي هو الاستناد إلى توجهات ثقافية مشتركة، والصراع الذي يضع الخصوم في مواجهة بعضهم البعض، والحل الوسط الذي يجمع بين هذا الصراع واحترام إطار اجتماعي – وبشكل أخص قانوني – يضع حدوداً لهذا الصراع. وفيما يخص الخبرة الجمالية يكون للاتصال طبيعة مختلفة، محدودة أكثر من غيرها، لأنها تجمع المرجعية المشتركة إلى ما يسميه هابرماس بالاصالة والحضور المحسوس للخبرة الجمالية مع محتوى ثقافي يمثل تراثاً وتاريخاً تكشف حضوره مسيرة تاويلية، ويخلق مسافة لا يتم تجاوزها مع أنواع التراث الأخرى. لدرجة أننا نجد صعوبة نحن أنفسنا في الربط بين فنون التمثيل التي انتصرت في الحداثة الكلاسيكية وبين الفنون المعاصرة التي تتحول لأن تكون أما لغة وأما غنائية ولكن نون أي مرجعية إلى موضوع يتم تمثيله.

هذه المسافة بين الخاص والكوني والتي تتخذ أشكالاً مختلفة من السلوك الأخلاقي ومن الخبرة الجمالية لا يمكن تجاوزها، فيما يبدو لي، إلا إذا أعطينا قيمة كونية، كأحد أسس الحداثة، إلى التأكيد الحر للذات. وهو ما لا أظن أن هابرماس سيعارضه، لأنه إذا كان ينتقد فكرة الذات باسم تفاعل النوات intersubjectivite ، فذلك لأنه أعطى لمفهوم الذات نفس المعنى الذي كان يعطيه له هيجل ومن قبله الميتافيزيقا الغربية. ولأنني مثله للا أدعو لمثل هذا المبدأ، فإنني أخشى أن يقبل بسهولة أن يستبدل به الأفكار الكلاسيكية للمجتمع والثقافة والتي أعيد إدخالها تحت اسم "العالم المعاش" (Lebenswelt) . وهو ما ينزع عن الحياة الاجتماعية سميتها المساوية وأيضاً الديناميكية. نحن نقرب قدر الإمكان مما هو كوني، وبالتالي من الحداثة عندما نطالب بأنفسنا كنوت، ونحول فرديتنا التي يفرضها علينا وجودنا البيولوجي إلى إنتاج لأننا

المتكلم فينا، وإلى تحقيق للذات. وهذا الإنتاج للذات لا يتم إلا عبر وبواسطة الكفاح ضد الأجهزة، وبالأخص ضد نظم السيطرة الثقافية، ولاسيما ضد الدولة عندما تتحكم في الثقافة بنفس القدر الذي تتحكم به في الحياة السياسية والاقتصادية. وكون الذات الشخصية لا تتشكل إلا بالاعتراف بالآخر كذات تدعم هذه الفكرة المركزية : إنها الذات وليست التفاعل بين النوات؛ إنتاج الذات وليس الإتصال هو ما يشكل أساس المواطنة ويعطى مضموناً إيجابياً للديمقراطية.

هناك مثال حديث العهد يوضح هذه الفكرة. كانت في فرنسا مناظرة تقليدية حول تعريف الجنسية، بين المدافعين عن حق الدم، المعمول به في ألمانيا، وأنصار حق الأرض الذي تتبناه بسهولة بلاد الهجرة. في حين أن لجنة إصلاح قانون الجنسية، التي أقامتها الحكومة الفرنسية عام ١٩٨٧ قد ابتعدت سريعاً عن هذا التعارض التقليدي وعلى غير ما يتوقع الجميع، توصلت إلى إجماع صريح على قضية أن الجنسية ينبغي أن تكون نتيجة لإختيار من قبل القادم الجديد. وأنه ينبغي تسهيل هذا الإختيار قدر الإمكان. وأن على فرنسا أن تطبق سياسة اندماج وليس رفض أو تهميش للمهاجرين.

كان لهذه الخلاصة تأثير عام : فضد كل تعريفات الأغلبية أو الأقليات المستندة على طبيعة إجتماعية أو إرث ثقافي يقوم بتنميط الأفراد قامت اللجنة بتوسيع ما أطلق عليه التعريف الفرنسي للجنسية – الرغبة في العيش سوياً – دون التأكيد على لزوم التخلي عن أى أواصر أخرى كي يصير المرء فرنسياً. وضد كل أشكال التحديد الآلى للجنسية – بالموطن الأصلي أو بالميلاد – تم التشديد على أن إكتساب الجنسية ينبغي قدر الإمكان أن يتم عن إختيار. وكنت أتمنى حتى أن تذهب اللجنة أبعد من ذلك وتطلب من الجميع، بصرف النظر عن جنسية آبائهم أو أجدادهم، أن يعبروا عن هذا الإختيار بصراحة. يمكن فقط لمثل هذه الدعوة إلى الحرية أن تستبعد كل أشكال العنصرية وكراهية الأجانب ورفض الأقليات.

إذا كانت الديمقراطية ممكنة، فذلك لأن الصراعات الاجتماعية تضع في المواجهة فاعلين، في الوقت الذي يتقاتلون فيه، يرجعون إلى نفس القيم التي يحاولون إعطائها أشكالاً اجتماعية متعارضة. وبدلاً من الثقة في العقلانية المعممة، كمحاولة للعودة إلى مملكة العقل الموضوعي ونشر روح التنوير، ينبغي التوجه شطر الذات كمبدأ يؤسس المواطنة وينبغي تحديد الصراعات الاجتماعية كمناظرة حول الذات - كرهان ثقافي مركزي - بين الفاعلين الاجتماعيين المتعارضين والمتكاملين في آن.

ولكن هذه الدعوة إلى الذات لا يمكن أن تكون طبعة جديدة من الدعوة إلى العقل أو إلى الحداثة الخاصة بفلسفة التنوير. كان الأمر يتعلق بالنسبة لفلسفة التنوير بالتخلص من الخاص من أجل التوجه إلى الكوني. وأنا أعتقد على العكس أن هذه الدعوة تعني تلازم وارتباط الإنخراط في صراع اجتماعي مع توجه ثقافي. لا يمكن أن نبني مجتمعاً على العقل، ولا على الذات. وهذا الوهم الخطير أشد خطراً من سابقه الذي أدى للكوارث التي سببتها النظم الشيوعية. الدعوة إلى الذات ليست مبدأ يمكن أن يحكم بشكل مباشر وإيجابي القانون والتنظيم الاجتماعي. إنها ملجأ ضد سطوة الأجهزة التي تقدم نفسها على أنها مشرفة على المعلومات بل وعلى أنها منتجة لها. يتحدث هابرماس عن "الفعل الإتصالي"، لكن ما معنى الإتصال؟ لو اصطالحنا على أنه يعني استخراج الكوني إنطلاقاً من الخاص، لوقعنا من جديد في الأوهام العقلانية، ولكن لو رأينا فيه متحاورين منغلقيين على هويات وثقافات مختلفة كلية، لن يكون هناك مجال لأي شيء يتم بينهم سوى الحب والكراهية. في الحالة الأولى يختفى الصراع وفي الحالة الثانية يصبح شاملاً ولا يمكن تجاوزه. الإتصال هو في الواقع مواجهة بين متحدثين وفي نفس الوقت إنتقال للرسائل فيما بينهم؛ إنه سيل المعلومات وهو أيضاً إشارة لعملية تحقيق الذات التي ينجزها كل فرد من جانبه ويسعى لأن يجدها في الآخر. إن ما تأتي به فكرة الإتصال يكون سلبياً : المجتمع لم يعد يستند هنا على التاريخ أو الطبيعة أو الإرادة الإلهية؛ لكنه يصبح تفاعلاً وتبادلاً، أي في كلمة واحدة يصبح فعلاً. وهو ما يدفع بما كان ملحوظاً في المجتمع الصناعي إلى أقصى مداه. فقد كان الحديث يدور حول العمل،

وكانت هذه الكلمة تتضمن نشوب الصراع بين الاستقلال العمالي والتنظيم الصناعي. وعلى نفس المنوال، عندما نتحدث عن الاتصال لا نلغى الصراعات المتضمنة في حديثنا عن العمل. بل على العكس نجعلها تظهر بوضوح لأن الاتصال هو نقيض الاعلام وأكثر من ذلك هو نقيض التعبير عن الذات. فاذا انتصر التعبير وحده لظل حبيس الوعي وتأكيد الذات. وهو مايلقى بنا الى جميع أخطار الهوية الثقافية والاختلافية المطلقة. وإذا انتصر الاعلام لجعل من الافراد والجماعات تابع لسلطته التى لها نفس طبيعة سلطة المال.

لكى يكون هناك ديمقراطية ينبغى أن توضع حدود فى القمة للصراعات الاجتماعية وذلك عبر قيم مثل قيم الحداثة : العقلنة وتحقيق الذات: ولكن ينبغى ايضا أن توجد قوى سياسية ممثلة أى قادرة على تمثيل الوجوه المتعارضة لمجتمع الاستهلاك.

توجد المناظرة الديمقراطية عندما تحكم المطالب الاجتماعية الحياة السياسية ولكن هذه المطالب محكومة بدورها بالتوجيهات الثقافية والتى ماهى إلا تعبيرات اجتماعية عنها، تعبيرات متعارضة ومتكاملة فى آن. أن يكون هناك صراع اجتماعى مركزى ولكن فى اطار اهداف ثقافية مشتركة بين الخصوم - هذا هو الشرط الاساسى للديمقراطية. إن حرية اختيار الحكام، والتى لاغنى عنها لتكفى لتكوين الديمقراطية.

يعتقد هابرماس عن صواب أن الديمقراطية لايمكن أن تختزل الى حلول وسط وأنه لامواطنة بلا اجماع لكنه يسعى لأن يحفر مجرى يجمع بين هذا التراث للتنوير والماركسية. وهو امر صعب لأن الماركسية تتحدث عن التناقضات الطبقية وعن النضال حتى الموت بين القوى المنتجة والعلاقات الاجتماعية للانتاج. وأنا على العكس اتحدث عن صراعات، وليس عن تناقضات، صراعات موجودة داخل أهداف كبرى للحداثة. وهو مايعنى أنه لايمكن للفاعل الاجتماعى أن يتطابق تماما مع الحداثة، ولا الاجهزة التى تدير الصناعات الثقافية ولا ذاتية الافراد أو المجموعات التى تدافع عن تراث أو عن هوية جماعية فى نفس الوقت الذى تشدد فيه على حقوق الذات. أخشى أن

يضحي هابرماس بالبعد الصراعى للديمقراطية، لأنه إذا كان يدافع عن استقلالية الفاعلين فى مواجهة منطق النظم، فذلك مع الأمل فى إمكانية أن تندمج خصوصية عالمهم المعاش فى عالم التنوير وكونيته. وليس لهذا معنى ملموس إلا فى منظور ليبرالى، وهو ليس منظور هابرماس، فالسوق يحترم أقصى حد من التعددية والتعقيد. لاتقود البرهنة والمناظرة الى اندماج المنظورات والمطالب؛ انها لاتستطيع إلا أن تلقى الضوء على الصراع الذى لايمكن تجاوزه بين قوة الاجهزة وحرية الذات الشخصية.

يأتى الفرق بين المنظورين اساساً من كون هابرماس ينطلق من الخبرة الالمانية للثقافة كثقافة تاريخية خاصة، كروح الشعب Volksgeist وروح العصر Zeitgeist، فى حين أننى لا أعرف الذات كفردية ولا كجماعية، ولكن كاقترضاء للحرية، يكاد يكون بلا مضمون ولكن نو قدرة كبيرة على المقاومة والكفاح وعلى ارادة التحرر. يسعى هابرماس للوصول الى الكونية انطلاقاً من الثقافات والشخصيات الخاصة، وأنا أسعى على العكس للوصول الى الحرية الخلاقة للذات ضد سيطرة الاجهزة التى تحوز المال والسلطة والاعلام على الحياة الفردية والجماعية أى ضد سيطرة منطق النظم.

إن فكرة العالم المعاش التى يلجأ اليها هابرماس مليئة بالظلام. لأنها من جانب هى نسخة من فكرة الثقافة وتشير الى قيم وقواعد تنقلها اللغة كما تنقلها الآثار والمؤسسات، ومن جانب آخر وجود هذا المفهوم يكذب الصلة التى تفرضها فكرة الثقافة بين النظام والفاعل، ويبعث الصورة الرومانتيكية عن خبرة معاشة تتعارض مع القواعد الاجتماعية وتتوقع فى حميمية داخلية أو تضيق فى الطبيعة الواسعة كى تهرب من العرف وضغوط الحياة الاجتماعية. فى حين أن هذا الفصل بين العالم المعاش والتنظيمات هو الذى يدينه اليوم الفكر النقدى والذى أدى الى ميلاد هذه الحركات الاجتماعية الجديدة التى لم تتمكن من تنظيم نفسها لأنها تضع نفسها خارج المجتمع وليس ضد السلطة: وتكون قريبة من كونها ثقافة مضادة أكثر منها نشاط مطالبى. إن ادراك العالم المعاش على أنه عالم التنظيم الاجتماعى والثقافة يعنى العودة الى الوراء، الى أحلام العقل الموضوعى، فى حين أن فكرة الذات لاتظهر إلا عندما يتم التعرف على

التمزق بين الفاعل والنظام. ينبغي أيضا إضافة أن هذه المناظرة ليست نظرية فقط بل هي تضع البحث الصعب عن حركات اجتماعية احتجاجية جديدة في مواجهة بزوغ الليبرالية العقلانية. وهنا أيضا، تميل الصيغة الفلسفية من الفكر الاجتماعي الى البحث عن الواحد المفقود، في حين يتمتع الفكر الاجتماعي بحساسية أكبر تجاه الأشكال المتطرفة لتمزق نظام العالم.

تحدد الديمقراطية بالنسبة للكثيرين بالمشاركة وبالنسبة لى تتحدد بالحرية، ويابدع الافراد والجماعات، وكما انه على مستوى العلاقات بين الاشخاص يكون الحب اعترافاً بالآخر كذات فيما وراء اللذة الجنسية وذلك ضد المثل الاعلى لانصهار الافراد فى الكونى، أو فى الحقيقة أو فى القانون الأخلاقى. وهو مايفرض أن لانضع مطلقاً الكونية فى مواجهة الخصوصية ولا العقل فى مواجهة الدين أو التقنية فى مواجهة الجماعة. الديمقراطية هي الشكل السياسى الذى يضمن توافق وترابط مايبود فى الغالب متناقضاً ويقود الى الصراع بين أجهزة السيطرة وديكتاتوريات الهوية، وهو صراع مميت اياً كان المنتصر. إن الدعوة الى الذات تفرض قبول تعددية فى القيم، حسب المعنى الذى صاغه ايسيا برلين والذى أراد أن يقاتل فى مرة واحدة ضد حلف فكر التنوير الفرنسى وأخطار الرومانسية الألمانية.

تحقيق الديمقراطية

نقلتنا هذه التأملات من تحليل المؤسسات الديمقراطية الى تحليل الفعل المحقق للديمقراطية. ينطلق التحليل الأول من الاهمية المركزية للانتخابات الحرة ثم يستمر عن طريق التأمل حول المواطنة والمشاركة السياسية. ويقوم على فكرة أن الديمقراطية مرتبطة ارتباطاً وثيقاً بالتنمية المتجانسة : وفى هذا الوضع تكون العقلنة هي هدف الصراعات بين الفاعلين الاجتماعيين اللذين يعتبرون أنفسهم فاعلى التحديث ويقاثلون فى نفس الوقت ضد المصالح الانانية والضيق لخصومهم. لقد أثبت التاريخ بحسم أن النظم الديمقراطية كانت تتشكل بالفعل فى الموقع الذى كانت تنتصر فيه العلمنة والعقلنة، حتى وإن كانت الملكية المطلقة فى البداية هي الفاعلة التحديث الاساسية،

لا يمكن استبعاد هذا النوع من التحليل. من المستحيل أن يعيش نظام ديمقراطي في مكان يسود فيه الواحد، سواء كان عبارة عن وحدة دين للدولة أو وحدة سلطة مطلقة أو وحدة ثقافة تتحدد بتعارضها مع الثقافات الأخرى. إن مجتمعاً يحدد نفسه قبل كل شيء بهويته وبأحاديته لا يمكن أن يكون مجتمعاً ديمقراطياً؛ إنه مندمج في منطق لا يفيد إلا السلطة التي تختزل المجتمع إلى الأمة وتختزل تعدد الفاعلين الاجتماعيين إلى وحدة الشعب.

ولكن هذا التحليل يمكن أن يؤدي إلى التباسات وخيمة العواقب ولذا ينبغي فحصه بطريقة نقدية. لا يمكن أن نقبل بدون مقاومة فكرة أن البلاد ذات التنمية المتجانسة هي وحدها صاحبة الحظ في أن تكون ديمقراطية وباقي البلاد الأخرى محكوم عليها بالنظم السلطوية. صحيح أنه ليس هناك فقط علاقة بديهية بين النظام الديمقراطي والتحديث الاقتصادي، ولكن أيضاً، وكما رأينا، تلتقي العناصر المكونة للديمقراطية - الوعي بالحقوق وتمثيل القوى السياسية والمواطنة - بصورة أسهل في هذه المجتمعات ذات التنمية الاقتصادية المتقدمة أكثر منه في المجتمعات الخاضعة للعنف الخاص، والمجزئة إلى قبائل وأعراق ويسودها الغزاه.

ولكن يمكن أن نقدم افتراضاً آخر. وهو أنه كلما ابتعدنا عن التنمية المتجانسة كلما وجدنا أنفسنا في مجتمعات مدنية ضعيفة يقودها الاستبداد المستتير أو الديكتاتورية الشمولية بدرجة أو بأخرى، وكلما ارتبط مصير الديمقراطية بتكوين الحركات الشعبية القادرة على التعبئة الكبيرة. وهو ما يعيد إدخال فكرة الثورة إلى هذا الكتاب الذي طالما تجنبها مرات عديدة.

ألا يمكن رصد قوى اجتماعية أو حتى ثقافية تواجه الدولة المتسلطة أو ما بعد - الثورية؟ وفي مواجهة النظم السلطوية القائمة بالتحديث من النمط الألماني أو الياباني وبعد ذلك التركي أو المكسيكي أو البرازيلي ألم تكن التعبئة الاجتماعية، ذات التوجه الثوري في الغالب، هي التي ساهمت في تطور المجتمع المدني كما رأينا في ألمانيا

بعد بسمارك أو في اليابان قبل انتصار القوميات المتطرفة في لحظة التوسع الاستعماري الكبير، أو حتى في كوريا الجنوبية في العقود الأخيرة؟ ألم يكن هذا التوجه القومي المعادي للرأسمالية أو المعادي للامبريالية هو الذي منح محتواه الديمقراطي للمكسيك في عهد كارديناس؟

ولكن اليوم ينبغي الذهاب أبعد من ذلك، لأن القرن العشرين قد شهد تشكل نظاماً تسلطية أكثر فأكثر، من الشيوعية السوفيتية أو الماوية إلى الثورة الإسلامية، نظاماً تستند في البداية على ثورة اجتماعية، ولكن سرعان ما تتحول إلى سلطة شمولية قمعية. ألا ينبغي القول بأن القوى الثقافية وهي أقل تعبئة من القوى الاجتماعية أو المؤسسية، هي وحدها القادرة على الصمود في وجه هذه الأنظمة وتشكل أساساً لديمقراطية ممكنة؟ المنشقون السوفيت، الطلاب والمثقفون الصينيون منذ حائط الديمقراطية حتى مجازر ميدان تيان انمين، يمثلون نماذج لمقاومة ثقافية أكثر منها اجتماعية، تحدث باسم القيم أكثر من المصالح.

فرص الديمقراطية ضعيفة في نظام تسلطي يكون المحتجون فيه معزولين. يرجع سقوط الأنظمة التسلطية إذن إلى تفككها الداخلي أكثر منه إلى نجاح حركات المعارضة الشعبية. وهو ما يؤدي في النهاية إلى انتصار سلبي تقريباً لديمقراطية مختزلة إلى اختيار سياسي حر، سرعان ما تظهر سطحيته عن طريق ضعف المشاركة السياسية وحتى ضعف الأحزاب السياسية على نحو ما رأينا في الاتحاد السوفيتي بعد فشل انقلاب صيف 1991.

ولكن قوى التحرر الثقافي، حتى وإن كانت هشة في مجملها، يمكن أن تشير إلى الشروط الحالية لتحقيق الديمقراطية في البلاد البعيدة عن النموذج المتجانس في التنمية. هذا مع العلم بأنه حتى في البلاد المتطورة نفسها نجد الاحتجاج الأخلاقي والثقافي هو الذي يصمد على خير وجه أمام سطوة مجتمع الاستهلاك الذي امتص الجزء الأكبر من الحركات الاجتماعية السابقة. وضد الصناعات الثقافية التي تتحكم في

الاعلام تتكون حركات اجتماعية تتأسس الديمقراطية على نشاطها، وهي تتكون باسم المستهلك وليس باسم المنتج، أى باسم الثقافة والشخصية وليس باسم الاقتصاد. فى هذه البلاد أيضاً يتشكل الطلب بصعوبة، وذلك لان مجتمع الاستهلاك يمارس، بلا عنف، سطوة لا يصح مقارنتها بسلطة النظم الشمولية وإن كانت عظيمة التأثير.

هذه الموازنة ليست سطحية فدائماً ما فرضت نفسها. فكما كانت الحركات المعادية للرأسمالية والسياسات المعادية للامبريالية مترابطة جزئياً، وهو ما أعطى تلك القوة الاستثنائية للماركسية اللينينية، نرى اليوم النقد الثقافى لمجتمع الاستهلاك يلتقى بالنقد الأخلاقى السياسى للمجتمع الشمولى. فكلا النوعان من الاحتجاج يدعوان للحرية الشخصية واحترام هوية جماعية تمتد الى البشرية بأكملها.

لن نعود الى استسهال ليبرالية تتصالح بلا مشقة مع بؤس وتبعية جزء كبير من البشرية وتتوغل فى مجتمع "استهلاك" تنحل فيه الذات. فصد الشمولية، مع بقاها فى نفس الوقت بعيدين عن مجتمع مختزل الى مجرد سوق، ينبغى تصور ديمقراطية تقوم على الحركات الاجتماعية التى تدافع عن الذات الانسانية ضد اللاشخصية المزبوجة للسلطة المطلقة ومملكة السلعة. فى شرق أوروبا اليوم ليست هناك ثقة إلا فى السوق. وهو امر مبرر لان العودة لاقتصاد السوق لاغنى عنها من اجل القضاء على النخبة الحاكمة. ولكن ما يقضى على الماضى لا يكفى لبناء مستقبل. ومرحلة الثقة المطلقة فى اقتصاد السوق والمساعدة الخارجية لن تدوم طويلا. إن حركات الاحتجاج التى بدأت فى التشكل يمكن أن تتطور فى اتجاه خطير، شعبوى أو قومى، يحبذ حلولاً تسلطية جديدة. من المُلح إذن التفكير فى التشكيل الممكن لحركات اجتماعية جديدة تحول مقاومة الشمولية الى مؤسسات ديمقراطية. وينفس الطريقة، فى بلاد أمريكا اللاتينية أو أفريقيا التى تعود الى الحرية السياسية، لن يتم انقاذ الحريات فقط بواسطة الانفتاح الاقتصادى على السوق العالمى، لأن هذا الانفتاح يمكن أن يزيد عدم المساواة وبالتالي يأتى بطول تسلطية. ينبغى على الدعوة الى الحرية المتحالفة مع حركات الدفاع عن الجماعات أن تتحرك لأن تمنع انتصار ديمقراطية مالية قائمة على الاستبعاد الاجتماعى وعلى التلاعب السياسى بأغلبية السكان.

هكذا لا تختزل شروط تحقيق الديمقراطية الى مبادئ أداء الديمقراطية، كما أن التحديث لا يمكن أن يختزل الى حداثة في حالة أداء. ولكن أشكال الكفاح من أجل تحقيق الديمقراطية تتحرف عندما لا يكون هدفها هو استقلال المجتمع المدني وفاعليه الاجتماعيين. وكما أن أشكال التحديث التسلطية قد انزلت الى الكارثة عندما لم تعتبر نفسها مجرد وسائل عابرة لبناء مجتمع مدنى وبناء تنمية "مدعمة ذاتيا". هل نحن لسنا قادرين على صيانة انفسنا من سراب الليبرالية التى تفيد المركز اكثر من المحيط، وفى نفس الوقت من خطر مميت لسلطة ثورية أو قومية تحقق مصالحها بدلا من مصالح الشعب الذى اصبحت سيدة عليه؟

الساحة العمومية

لا يوجد مجتمع يتمتع بالشفافية من الناحية السياسية، تتحول فيه كليه ارادة الاستقلال والتحرر من الضغوط الداخلية الى مؤسسات تمثيلية. يظهر دائما توتر كبير بين هذه المؤسسات وحركات التحرر السياسية. فتميل الاولى الى أن تصبح أوليجارشيه، كما يمكن للثانية أن تصبح تسلطية أو شعبوية. من هنا تأتى ضرورة نظام سياسى مستقل قدر الامكان بالنسبة للدولة من جانب ولممثلة المجتمع المدنى من جانب آخر، ولكن على أن يكون قادراً على القيام بدور الوسيط بين طرفين. لا يتحدد فقط هذا النظام بمجموعة من المؤسسات الديمقراطية، وبآليات اتخاذ قرار معترفاً بشرعيتها؛ بل هو مرتبط بمجمل الساحة العمومية ولاسيما تأثير الاعلام ومبادرات المثقفين.

ليس دور الصحفيين والمثقفين فى مجتمع هو معارضة سلطة الدولة بالارادة الشعبية، كما هو الحال فى النظم غير الديمقراطية، ولكن الجمع بين تنفيذ التنمية المتجانسة، ولاسيما الصراعات الاجتماعية التى تكون موضوعها هى الاستخدام الاجتماعى للعقلنة، وبين تعبئة قوى التحرر. والجمع بين الحرية والتحرر ليس أمراً سهلاً، فقد فشلت كثير من القوى السياسية وفشل كثير من المثقفين فى هذه المهمة، ولكن الاشتراكية الديمقراطية - بالمعنى المعاصر للكلمة - وبعض المثقفين قد عملوا على

ايجاد هذا الجمع وعلى خلق الساحات السياسية الاكثر ديمقراطية، أى الساحات التى لاتكون فيها الحريات العامة متينة الدعائم فحسب ولكن أيضاً التى يكون فيها الوعى بالمواطنة قوياً .

وكان لهؤلاء المثقفين قبل كل شئ الفضل فى الكفاح ضد الشعبوية التسلطية التى تتعارض مع الحرية السياسية ومع الدفاع عن الحقوق الفردية فى آن؛ تلك الشعبوية التى بدا - أياً كانت تنوع اشكالها من الشيوعية الى القومية العالم الثالث - أنها تسود العالم فى أواسط هذا القرن. ويتبارى الثوريون والليبراليون فى العنف والاحتقار عندما يتحدثون عن هؤلاء الانسانيين، رغم ذلك فالإنسانيون هم الاكثر واقعية وهم الذين نجحوا أكثر من أى فرد آخر فى الجمع بين المؤسسات الحرة و ارادة جماعية فى المشاركة، وهو تعريف علمى جيد للديمقراطية.

ويزداد حجم دورهم عندما لا يمكن لمشاكل الديمقراطية أن تطرح الاعلى المستوى العالمى. لان العلاقات الدولية يزداد ضغطها أكثر فأكثر على أداء الانظمة السياسية القومية. لانستطيع أن نتفاخر بالاداء الجيد لمؤسساتنا الديمقراطية بون أن نرى أن بلادنا تمارس سيطرة على غيرها وتشكل بالتالى عقبة فى وجه تحقيق الديمقراطية فيها. هذا المنطق يصلح ايضا فى داخل حدود كل بلد، تتباهى غالباً فيها النخبة المستتيرة بليبراليتها فى الوقت الذى تمارس فيه سيطرة أو تدبير آليات استبعاد تخلق منطقة واسعة لاتدخل اليها الديمقراطية.

ليس من المقبول البقاء باعتيال فى عالم الحريات بون التساؤل عما اذا كانت هذه الحريات لاتفترض الكثير من اشكال العبودية حولها، بالضبط كما تخفى أناقة الطبقة الراقية فظاظة ظروف حياة الجماهير المحرومة. ومن الخطير ايضاً أن نطلق وصف ديمقراطى على غزو مساحات الحرية بواسطة جماهير شعبية سرعان ماتتحول الى كتائب منظمة للهجوم؛ ولايؤدى تدخلها إلا الى أن يأتى الى السلطة مستبدون أقل سماحاً بالحرية من الطغمة السابقة. من المستحيل الاختيار بين الدفاع عن المؤسسات

الديمقراطية وبين المطلب الشعبى بالمشاركة؛ لا يوجد حل سوى التوفيق بينهما. تحقيق الديمقراطية يعنى تحقيق الذات بالنسبة للحياة السياسية. وكما أن الذات هى حرية شخصية وانتماء جماعى فى آن، تكون الديمقراطية معالجة مؤسسية للصراعات القائمة حول العقلانية الحديثة وفى نفس الوقت دفاعاً عن الحرية الشخصية والجماعية. فى القرن الماضى أكتشف أن الديمقراطية ينبغى أن يكون لها محتوى قانونى واقتصادى فى آن: ونحن نعرف اليوم أنه ينبغى أن يكون لها محتوى ثقافى وسياسى فى آن.

بدأت الديمقراطية لزمن طويل كصيغة سياسية تسمح للبرجوازية بالتخلص من الزامات الدولة، أما الجماهير الشعبية التى كانت تتعامل بحذر مع هذه الديمقراطية، كانت تنتظر من الأحزاب والزعماء الثوريين أو الشعبيين أن يقللوا من الظلم الاجتماعى. واليوم على العكس تشهد انهيار اليمين واليسار غير الديمقراطيين وتحل الديمقراطية محل الثورة كهدف قادر على تعبئة الجماهير. هكذا يتم التقارب بين المؤسسات الديمقراطية وحركة تحقيق الديمقراطية.

ألم تكن اللحظة بعد كى نعى مغزى أحداث عام ١٩٨٩ التى لانتسى، تلك الأحداث الأكثر إثارة للحماس بين تلك التى عشناها منذ منتصف عام ١٩٨٩، وكى نتجاوز التعارض بين المفهوم الشعبى والمفهوم الإيجابى للحرية، بين الديمقراطية السياسية والديمقراطية الاجتماعية، بين المؤسسات الديمقراطية وإرادة تحقيق الديمقراطية، ونعطى بذلك لفكرة الديمقراطية مكاناً مركزياً فى الفكر السياسى؟ هدف يمكن أن يبدو تافهاً، ولكنه فى الحقيقة الأمر ليس كذلك، ففى وراء هذا الاجماع الديمقراطى سرعان ما نكتشف قوة صمود فى مواجهة ليبرالية تختزل الديمقراطية الى مجرد سوق سياسى؛ وفى مواجهة حركات تحرير تهتم بالدفاع عن هوية وقيمة بلد ما أكثر ما تهتم بالدفاع عن حريات مواطنيها.

علينا ألا نتنازل أمام الاغواء، الذى ولد فى القرن الثامن عشر، بالمطابقة بين الانسان والمواطن، هذا الأمل الضخم الذى جاء بكوارث كبار، لأنه أدى الى تحطيم كل

الحواجز التي كان يمكن أن تضع حدوداً للسلطة المطلقة. على الديمقراطية، بدلاً من أن تخطط بين الإنسان والمواطن، أن تعترف بوضوح، كما فعل إعلان حقوق الإنسان والمواطن، بأن السيادة الشعبية يجب أن تحترم الحقوق الطبيعية بل وأن تقام عليها. فالمجتمع الأكثر ديمقراطية هو المجتمع الذي يضع الحدود الصارمة لسلطة السلطات السياسية على المجتمع وعلى الأفراد. وهو ما يعني أن المجتمع الأكثر حداثة هو المجتمع الذي يعترف صراحة بالحقوق المتساوية للعقلنة ولتحقيق الذات وبضرورة الجمع بينهما.

ليست الديمقراطية هي انتصار الواحد أو تحويل الشعب إلى أسير بل هي على العكس تماماً، تبعية المؤسسات للحرية الشخصية والجماعية. وتحمي هذه الحرية ضد السلطة السياسية الاقتصادية من جانب، وضد ضغط القبلية والتراث من جانب آخر. وتحمي نفسها ضد نفسها، أي ضد انعزال نظام سياسي معلق بين لامتسؤولية الدولة ومطالب الأفراد، في فراغ تملؤه بمصالحها الخاصة وبصراعاتها الداخلية وخطاباتها. إن ضغط الدولة اليوم على المجتمع هو بالضرورة هائل كلما كانت مشاكل التحديث والمنافسة الاقتصادية والعسكرية ملحة. إذن يبقى تدعيم الذات هو المهمة ذات الأولوية. ومجتمعاتنا، على اختلافها، تميل للخضوع لقانون الأمير أو لقانون السوق؛ وتقتضي الديمقراطية أن تقاوم روح الحرية والاستقلال والامتسؤولية هذين المبدأين للسلطة. وهو ما يعطى نوراً هاماً لما أطلق عليه بكلمات غير مناسبة، وكالات التنشئة الاجتماعية، الأسرة والمدرسة على وجه الخصوص، والتي بدلاً من أن تكتفى بالتنشئة عليها في المقابل أن تحول الأفراد إلى نوات واعية بحريتها وامتسؤوليتها تجاه أنفسهم. وبدون هذا النشاط في تحقيق الذات للأفراد لن يكون للديمقراطية أساس متين.

تفترض روح الحرية أن يُحترم القانون. لا توجد ديمقراطية حيث يوجد تحكم المال والمحسوبية وروح النفاق والعصابات والفساد. وهو ما يفترض، كما يقول عن حق المدافعون عن الروح "الجمهوري" في فرنسا - والذين غالباً ما ينسون البعد التمثيلي للديمقراطية - أن السلطة المركزية تعمل على تطبيق القانون بدلاً من أن تخضع لتأثير

المصالح المحلية. عندما يختفى القانون والمندوبون المنتخبون أمام مواجهات العصابات والبوليس أو صدام الجماعات العرقية الذى يختصمون حول السيطرة على بقعة من الارض، لن يكون ممكناً الحديث عن الديمقراطية حتى وإن كانت الانتخابات حرة وتناوبت الاحزاب على السلطة. لاديمقراطية ان بدون سلام اجتماعى، لأنه بدون هذا السلام الاجتماعى لن يمكن الدفاع عن الضعفاء. اما الثورات وإن كانت تغير سريعاً طبيعة النخبة الحاكمة؛ الا أنها تهدد الديمقراطية أكثر مما تدعمها. لاتختزل الحرية الشخصية إلى "دعه يعمل دعه يمر" والذى يمكن أن يعبر عن سلطة المجموعات الاقتصادية الحاكمة: ولا يمكن بالأحرى أن تختزل الى وصول المدافعين عن الشعب الى السلطة لانهم يمكن أن يشكلوا نخبة حاكمة جديدة تفلت من كل رقابة شعبية واقعية. ولاديمقراطية بون إرادة منظمة لوضع أداء كل المؤسسات فى خدمة حرية وأمن كل فرد وكذلك تخفيض عدم المساواة الاجتماعية قدر الامكان. لا ينبغي لنا أن نتخلى عن الفصل بين الديمقراطية الشكلية والديمقراطية الحقيقية، بالطبع شريطة ألا نخلط هذه الديمقراطية الحقيقية بالديكتاتوريات التى تعلن نفسها ديمقراطيات شعبية.

الشخصية الديمقراطية

توصل تيودور أدرنو، نو التكوين الماركسى، فى محاولته لفهم النازية الى بلورة مفهوم الشخصية المتسلطة، متأثراً جزئياً بنفيت سانفورد Nevitt Sanford وباحثين أمريكيين آخرون يقترب إتحاهم من السيكلولوجية الاجتماعية. والنظام النازى والذى تم تفسيره عامة بالظروف التاريخية أو حتى بشخصية الديكتاتور، يوحى فى نظر أدرنو، فى ادائه ولاسيما فى قدرته على التعبئة ببعده عام فى الشخصية وهو التسلطية والتى نجد تعبيرات لها فى السلوك الجنسى وفى الحياة السياسية وفى العلاقة بالاقليات وكذلك فى تعليم الاطفال. هذا النموذج المشهور يلزمنا بالبحث عن اسس للديمقراطية فيما وراء نمط التنمية، فيما وراء التحديث المتجانس الذى يفسر فقط وجود الحرية "السلبية" فى نمط معين من الشخصية وفى قدرة الافراد على التصرف كنوات وليسوا فقط كمستهلكين. من المناسب أيضاً البحث خارج الحقل السياسى عن سبب ظهور

واستمرار نظم ديمقراطية. لاتوجد ديمقراطية صلبة اذا لم يكن هناك، فى مواجهة الدولة وفى مواجهة النظام القائم، ارادة للحرية الشخصية تقوم بدورها فى الدفاع عن تراث ثقافى. لأن الفرد منفصلاً عن أى تراث ليس الا مستهلك لبضائع مادية ورمزية وغير قادر على مقاومة الضغوط والاغراءات التى يمارسها الحائزون على السلطة. ولهذا ارتبطت الديمقراطية غالباً بإيمان دينى يحمل فى طياته إقتضاعات الضمير وفى نفس الوقت يوفر دعم سلطة روحية قادرة على مقاومة السلطة الزمنية.

الديمقراطية قوية عندما يأتلف الوعى الديمقراطى مع مجتمع مفتوح تضعف فيه قوى التحكم الاجتماعى لصالح روح الابتكار والاستثمار والعقلنة. الشخصية الديمقراطية والمجتمع المفتوح يتكاملان واحياناً يتطوران فى ترابط متبادل، وحينئذ تكون الديمقراطية فى أقوى أحوالها. فلو تطورت الشخصية الديمقراطية فى مجتمع يبقى منغلِقاً وخاضعاً لسلطة مطلقة أو لآليات قوية لاعادة انتاج النظام القائم، لصارت الروح الديمقراطية، التى تحمل لواعاها الاقليات النشطة، روحاً مطالبية وحتى انتفاضية باسم مقاومة القهر.

ولكن فى المقابل حيث يكون المجتمع مفتوحاً على مصراعيه للتغيرات التى تأتى من الخارج ومن الداخل، ولكن الجماهير العريضة فيه تقبل سلطة تقليدية أو زعامية، لا تبعث الشخصية الديمقراطية فيه الروح فى المؤسسات الديمقراطية ولا يكون المجتمع الليبرالى قادراً على الأداء بواسطة الشعب ومن أجل الشعب.

هذا التكامل بين المجتمع المفتوح والشخصية الديمقراطية ليس الا شكلاً جديداً من الجمع بين العقلنة وتحقيق الذات فى تعريف الحداثة. ليست الحداثة هى التى تنتج الديمقراطية ولكن القدرة على الجمع بين العقلنة وتحقيق الذات هى التى تحدد الحداثة. ولهذا السبب تعتبر روح الحرية والبحث عن الفاعلية هما أصل الحداثة. ولكن من أين يأتیان ؟

روح العقلنة كما قلنا مراراً لها أصل سلبي : تفكيك نظم إعادة الانتاج والتحكم الاجتماعي، وهو ما وعاه تماماً الفكر الليبرالي. أما تحقيق الذات فعلى العكس يظهر حيث توجد مطالب إيجابية للحرية والجماعة، حيث تكون السلطة السياسية والاجتماعية محدودة بصوره نشطة بواسطة الدعوة الدينية، أو الروحية بوجه عام، للحرية وبواسطة الوعي بالمسؤولية تجاه الجماعة أو العائلة أو الأمة أو الكنيسة أو غيرها. هذان الشرطان متكاملان بصورة مباشرة ؛ الديمقراطية قوية حيث يكون النظام السياسي والاجتماعي ضعيفاً تجتاحه الأخلاق من أعلى والجماعة من أسفل. وهذه فكرة معارضة تماماً للفكرة التي سادت زمناً طويلاً والتي طابقت بين الديمقراطية والمشاركة، ووضع الشعب في السلطة، وحكم الاغلبية. لقد اعترفنا بأهمية كل هذه المكونات ولكننا عانينا طويلاً من الانظمة المتسلطة والشمولية والتي كانت تدعو إلى المشاركة وإلى حكم الشعب، معاناة ترباً بنا عن ألا نعرف اليوم أن الديمقراطية تقوم على وضع حدود للسلطة المركزية، كما ينادى الفكر الليبرالي. بشكل يدعونا إلى ضرورة اهمال المناظرة بين الفكر الليبرالي وفكر اليسار، لأنه لا توجد ديمقراطية بدون الجمع بين الافكار التي دافع عنها كل منهما، دون سلطة محدودة تفترض مجتمع مفتوح ودون وعى بالمواطنة. ولكن تتألف هذه الافكار المتعارضة لأول وهلة عندما نضعها في قلب تحليل فكرة الذات ونضال هذه الذات ضد أجهزة السيطرة. فالديمقراطية ليست فقط مجموعة من المؤسسات أو نمط من الشخصية؛ إنها قبل كل شئ نضال ضد السلطة وضد النظام القائم سواء كان الامير أو الدين أو الدولة، ومن أجل الدفاع عن الاقليات ضد الاغلبية. إنها التزام بكل هذه النضالات، وفي نفس الوقت تتصل من قبل ذات ترفض أن تختزل إلى المواطن أو العامل، ولا تكفى بأن تختلط بهذا الغمام الايديولوجي وهو فكرة الانسانية. الديمقراطية ليست فقط حالة لنظام سياسي ولكنها أكثر من ذلك، هي عمل وقتال دائم لجعل التنظيم الاجتماعي تابعاً لقيم ليست في ذاتها اجتماعية : العقلانية والحرية. الديمقراطية ليست هي انتصار الشعب ولكن هي تبعية عالم الانجازات والتقنيات والمؤسسات للقدرة الخلاقة والمغيرة للأفراد والجماعات

نقطة الوصول صورة المجتمع

لم تتكون السوسيولوجيا كدراسة للمجتمع! فهذا تعريف واسع أكثر من اللازم ولكنها تكونت من خلال تحديدها للخير كجدوى اجتماعية للسلوكيات الملاحظة. بالنسبة لهذه السوسيولوجيا التقليدية ليس الخير هو الامتثال لنظام العالم او للقوانين الالهية ولا هو حتى خلق نظام يسيطر على الانفعالات والعنف ولكن الخير هو مساهمة الفاعل - أو بالاحرى العضو - فى أداء الجسد الاجتماعى. أن حياة أى مجتمع تقوم على تمثّل القواعد داخلياً وعلى الصلة بين المؤسسات التى تبلور القواعد وتعمل على احترامها، والمؤسسات المكلفة بالتنشئة الاجتماعية لأعضاء الجماعة، وخصوصاً القادمين الجدد، اطفالاً ومهاجرين. الفرد إذن محدد بموقعه المرتبط بأدوار هى عبارة عن توقع الغير لسلوك الفرد.

الانسان السوسيولوجى لا تقوده مصالحته ولكن ما يُنتظر منه : الاب هو من يتصرف حسب ما يتوقع الابن ويأمل ؛ العامل أو الطبيب هما من يؤديان أدوارهما طبقاً لنماذج مصاغة حسب القانون والعقد الجماعى وقبل كل شئ حسب منظومة الأخلاق والأفكار.

الإخاء الذى نتحدث عنه الثورة الفرنسية يحلم بمجتمع يضع كل فرد فيه نفسه فى خدمة العائلة الكبرى. هذه النزعة الوظيفية تفترض أن يكون المجتمع منظماً ليس حول تقاليد وامتيازات خصوصية بطبيعتها، ولكن حول العقل الذى بوصفه كونياً يكفل التنشئة الاجتماعية لكل أعضاء المجتمع. والمدرسة كما تصورها هذا الفكر الاجتماعى قد سعت الى تخليص الطفل من إرثه الخاص بوضعه فى علاقة مع العقل، وذلك إما بالثقافة العلمية أو بتعامل مباشر قدر الامكان مع الاعمال الانسانية الكبرى فى الفلسفة والفن. وبداية من المفهوم الألمانى للتثقيف BILDUNG وحتى بناء بيوت

الثقافة بواسطة اندريه مالرو تراكمت الجهود للجمع بين تعلم العقل والجمال وبين الاندماج الاجتماعي. لقد قدم تالكوت بارسونز في منتصف القرن العشرين الصيغة الأكثر تبلوراً لهذه السوسيولوجيا الكلاسيكية والتي تقوم على الفكرة المزوجة لانتصار العقل في المجتمع الحديث والوظيفة كمعيار للخير. إن فكرة المجتمع تسيطر على السوسيولوجيا ليس كتعريف بسيط لحقل من حقول البحث ولكن كمبدأ للتفسير. يتجسد العقل في المجتمع الحديث، كما أن السلوك السوى هو الذي يساهم في الأداء الجيد للمجتمع. الانسان قبل كل شيء هو مواطن .

حول هذه النواة المركزية للنزعة السوسيولوجية التي تسيطر علينا حتى قبل ابتكار السوسيولوجيا، يمتد مجال واسع لتفسير أنواع السلوك بواسطة الكل التاريخي الذي يشملها وبواسطة الوضع الذي تحتله هذه الأنواع من السلوك على المحور الذي يقود من التراث الى الحداثة. لقد كثر الحديث عن المجتمع الشامل أو عن روح العصر أو عن نمط الانتاج. إنها نزعة تاريخية بسيطة أو أخرى معقدة، وسيطة بين التعريف الأقدم للسلوك بانتمائه لثقافة ما وبدوره في عملية إنتاج المجتمع لنفسه عبر ابداعاته الثقافية، ومناظراته السياسية وأشكال تنظيم سلطته. هذه النزعة التاريخية تتهار أمام أعيننا. وينقلب الفكر الاجتماعي من ناحية الفاعل، لا لكي ينخلق هذا الفاعل على ذاته، ولكن لكي يمارس كل أشكال الفعل، التي تبدأ من البحث العقلي عن المصلحة، مروراً بالمناظرات حول السياسات الاجتماعية والحريات السياسية وحتى صدام الذات بالسلطات.

السوسيولوجيا التقليدية اليوم في موضع الاتهام، فلم تعد الصلة بين الفاعلين والنظام تبدو طبيعية. ونحن لسنا مقتنعين بأن العقل الكوني يجب أن ينتصر على التقليد المصالح الخاصة؛ بل العكس فالمجتمع الحديث كما يقول عدد كبير من صفوه علماء الاجتماع، تسوده هذه القطيعة بين النظام والفاعلين. فمن جانب تميل السلطة الى التمرکز وتتحكم مجموعات محدودة في سيل المال وفي النفوذ والاعلام. وما نسميه

بالاندماج الاجتماعى يمكن تفسيره على أنه تحكم تمارسه مراكز السلطة فى الفاعلين الاجتماعيين الخاضعين أكثر فأكثر للتلاعب بهم. وبصورة موازية يتحدد هؤلاء الفاعلون بموقعهم فى السوق أكثر مما تحددهم أنوارهم، أى يتحدون بمصالحهم الخاصة من جانب، ومن جانب آخر بذاتية تحمى حرية الفاعل ضد المجتمع المفرط فى التنظيم كما تدافع عن هوية وخصوصيات ثقافية، من اللغة الى الدين ومن الارض إلى الوحدة العرقية.

هناك صورتان متعارضتان حلتا محل الصلة بين الفاعل والنظام : صوره النظام بلا فاعل وصورة الفاعل بلا نظام. وقد سادت الصورة الأولى فى السبعينيات والثانية فى الثمانينيات. وفى صبيحة مايو 1968 وبعد أن تبخرت الشيوعية الطوباوية وحالة الضعف السريع التى انتابت الحركات الاجتماعية، بدأت فترة طويلة من التجمد للفكر الاجتماعى. لقد نُظر للمجتمع على أنه نظام للتحكم والقمع ولإعادة إنتاج المساواة. وكرد فعل على الحداثىة المتفائلة فى فترة بعد الحرب انتشرت فكرة أن كل محاولات الإصلاح، وكل محاولات تدخل المجتمع فى نظامه الخاص، لا تؤدى إلا الى زيادة سيطرة المركز على المحيط. فالمجتمع هو فى واقع الامر آلة. ولكنها آلة جهنمية.

كان هذا الخطاب بعيداً عن الواقع بحيث لم يسمح بتشجيع الأبحاث العينية التى اختفت كلها تقريباً لمدة عقد من الزمان، حلت خلاله أبنية إيديولوجية، مستترة أحياناً خلف بعض الأرقام، محل التحليل السوسيولوجى. لم تكن المهمة الرئيسية هى وصف الحياة الاجتماعية، ولكن تقديم ايدولوجية تتوافق مع قلق جزء كبير من الوسط الثقافى وقلق مجمل الحياة الاجتماعية. هذه الرؤية للمجتمع والتى تدفع بالروح النقدى الى درجة العداء للحداثىة، تعبر عن مخاوف العالم الاجتماعى الثقافى أمام الانتصار المغرور لعالم التكنولوجيا الحديثة والاستهلاك. لقد كان الخطاب البنىوى - الماركسى يمثل لغة وايدولوجية لأنتليجنسيا فى قطيعة مع المجتمع. ولكن لم تتمكن هذه المرحلة الوسيطة من الاستمرار زمنياً طويلاً . ففى الوقت الذى كان فيه فلاسفة وعلماء اجتماع يعلنون أن

النظام جامد، كان كل شئ يتحرك حولهم، التعليم والاستهلاك السلعي، وتقنيات التعليم وتقنيات الصحة. منذ بداية الثمانينيات، وفي بعض البلاد، في وسط هذا العقد في فرنسا، أو في آخره في بلاد الشيوعية في وسط وشرق أوروبا انهارت النظم الارادية في ذات الوقت الذي حل فيه الانتصار الصاحب لاقتصاد السوق ومطالب الاستهلاك والحركة والحرية محل الفكر النقدي المحض.

يريد البعض المشاركة في هذا الانتصار الليبرالية بوضع الانسان السوسيولوجي داخل الانسان الاقتصادي، مفسرين السلوكيات المتنوعة بإختيارات عقلانية. ورأى آخرون، أكثر تشاؤماً، أن الفاعل الاجتماعي هو إنسان يتخبط في عالم لا تضويء القيم ولا القواعد ولا أشكال التنظيم، هو إنسان يتبادل علامات مشحونة بالمعاني الخفية والاكاذيب والفساخ مع فاعلين آخرين يتخبطون في نفس الضباب. عالم يتصرف فيه كل فرد دون أن يؤمن بأي شئ، اللهم إلا الرغبة في ان ينجو بنفسه من عالم معاد عن طريق تعلم التعامل معه بمنطقه.

هاتان الصورتان المتعارضتان، صورة النظام بلا فاعلين والتي بلغت أقصى حدها مع نيكوس بولنتزاي Nicos Polantzai ومدرسة التوسير، وصورة الفاعل بلا نظام والتي قدم ايرفينج جوفمان Erving Goffman أكثر أشكالها تبلوراً، تعنيان في تعارضهما الجذري تفكك السوسيولوجيا التقليدية، لكنهما لا يقدمان أكثر أشكال هذا التفكك تطرفاً. فهذا التفكك يمكن أن يذهب إلى أبعد من ذلك. من جانب يصور نيكلاس لوهمان Niclas Luhman النظام الاجتماعي كنظام يتغير من الداخل بل ويتخذ شكلاً مختلفاً تماماً. وهذه الصورة تتوافق تماماً مع جوانب هامة في مجتمعنا المفكك، أي أنها تتوافق مع تطور الفن للفن ومع الاستقلال المتبادل لكل من الحياة الاقتصادية أو الحياة السياسية أو المجال الديني أو الحياة الخاصة. ومن جانب آخر يوضع الفاعل الاجتماعي داخل تراث، ويصير تحليل الفاعل هرمينوطيقياً. فليس هناك أية امكانية للاتصال بين هذا التصور للمجتمع كنظام وهذه الهرمينوطيقا. ولم يعد الموضوع الذي

قامت ببنائه السوسيولوجيا التقليدية موجوداً، وبناءً على ذلك نفهم أن مجالات هامة للتحليل الاجتماعي تنهض بها الفلسفة من جانب والعلوم الاقتصادية من جانب آخر. بحيث يبدو أنه لا معنى لأداء المجتمع وتحولاته التاريخية ووحداته الملموسة والتي تتصل على الدوام تقريباً بالدول القومية، وتبدو وكأنها لا تتصل بقيم أو بقواعد أو بمشروعات سياسية على وجه العموم. يمتد بين الذاتى والموضوعى حالة من البوار الاجتماعى: ومن ظلو: يعتقدون أن المجتمع يمثل منظومة من المؤسسات فهم مخدعون بسراب أو اسرى لرغباتهم. فكرة مابعد الحداثة كما قلنا، تصف جيداً هذا التفكير للصورة التقليدية للمجتمع لدرجة أنه يمكننا أن نعيد النظر إليها كفكرة لعصر ما بعد اجتماعى أو مابعد تاريخى. وهذه مصطلحات تحدد القطيعة الكاملة أكثر من فكرة ما بعد الحداثة إذا أخذنا فى الاعتبار خبرة القرون الماضية.

لا توجد أى ضرورة كى تجتمع الثقافة مع الاقتصاد، أو القيم مع المصالح بواسطة وسائل مؤسساتية وسياسية كى تشكل مجتمعاً. إننا نلاحظ على العكس انفصال واختلاط متزايد بين هذين العالمين. ففى حين أن جزءاً من سكان العالم، أغلبية فى الشمال وأقلية فى الجنوب، يعيش فى عالم تقنى واقتصادى، هناك جزء آخر، أقلية فى الشمال وأغلبية فى الجنوب، يعيش سعياً وراء هوية دفاعية. حتى فى فرنسا بينما يتحدث البعض عن الانفتاح والمنافسة والتقنيات الجديدة، يريد البعض الآخر إنقاذ إستقلال وأصالة الأمة. فهل يمكن الإستمرار فى القول أنهم ينتمون لنفس المجتمع؟ إن تعارضهم أعمق من التعارض بين اليمين واليسار. وأحياناً يمتد هذا التعارض حتى داخل الفرد نفسه، فعند عالم الاقتصاد جان فوراستيه على سبيل المثال، الذى تغنى بالثلاثين سنة المجيدة وبتقدم التقنية، وهو أيضاً مفكر مسيحى ينتابه القلق أمام بعض تأثيرات الحداثة، نجد العالمين يلتقيان ويتصادمان أكثر مما يتآلفان.

وينقشع الحلم الجمهورى : فليس العالم السياسى صلباً بما فيه الكفاية كى يسمح باندماج الدفاع عن الهوية الثقافية والثقة فى السوق. وقد عملت هذه التناقضات على

إضعاف الحياة السياسية التي لم تستطع امتصاصها، وهو ما يؤدي إلى تفكك الأحزاب الكبرى التي كانت تعتبر نفسها حاملة لمشروع للمجتمع. هذا الانفصال بين الهوية الثقافية والعقلانية الاقتصادية يفسر أزمة ما هو اجتماعي، ويبرر الاختفاء التقريبي لهذه الكلمة والتي تبدو من الآن فصاعداً كلمة عفا عليها الزمن، كلمة مشحونة بالحنين وبفعل الخير.

ولا نرى في تفكك ما هو اجتماعي أزمة ذات آثار خطيرة فقط. بل إن استنفاد فكرة المجتمع يعين مرحلة جديدة من الحداثة والعلمنة. فمحل الصورة الرومانية للمواطن، ومحل صورة دين الصالح العام والمنفعة الاجتماعية، تأتي صورة الذات الانسانية التي لا يحمي أي قانون جهودها في الحرية والمسئولية لدرجة أن هذه الجهود تتحدد أكثر فأكثر برفضها للقوانين التعسفية. إذا كان ماركيز وفوكو على حق في إدانتها للأشكال الجديدة للامتثال الاجتماعي والضغط التي تمارس باسم الصحة أو باسم مصلحة كل شخص في التحكم في عواطفه، ووضع حد للانحراف والعمل على انتصار نزعة أخلاقية تستند على العلم، فإنه ينبغي مواجهة الأشكال الجديدة للاندماج الاجتماعي والثقافي بفكرة ذات تكون في طبيعة مع قانون المنفعة الاجتماعية ومنطق الأجهزة، ذات لا ينفصل مطلبها في الحرية عن الرغبة وعن التراث، عن الهو أو عن النحن.

صحيح أننا نرى بنبول التاريخ في نهاية القرن العشرين ينتقل من اليسار إلى اليمين. بعد الجماعية تأتي الفردية، وبعد الثورة يأتي القانون، وبعد التخطيط يأتي السوق. وهذا التحول يبدو انتقاماً "للطبيعة" التي ظلت حبيسة زمناً طويلاً في دكتاتورية الأجهزة والايديولوجيات. ولكن ليس ارتباط فكرة الذات باقتصاد السوق بأوثق من ارتباطها بالتخطيط المركزي أو هما نموذجان متعارضان لمنطق النظم. وفي المقابل نرى منطق الاندماج الاجتماعي، الذي يتجه أكثر فأكثر للنفعية، يتعارض مع ذات تتحدد بعلاقة الفرد بنفسه وليس بانتمائه لجوهر أو جماعة. إن الانهيار الحالي للنظم الشيوعية والقومية يؤدي في نهاية إلى الخلط بين الذات الشخصية والمجتمع كذات جماعية، وإلى

نهاية التطابق بين حقوق الانسان وواجبات المواطن.

لقد كان المجتمع، كما كان العقل نفسه، تعبيراً تأليهاً deiste عن الروح الدينية القديمة، شكلاً جديداً للحلف بين الانسان والكون. لم يعد ممكناً أن يدوم هذا الحلف، وجاعت القطيعة بين نظام الانسان ونظام الاشياء فأدخلتنا الى قلب الحداثة. ولم يعد ممكناً للاخلاق أن تطالب بالسير طبقاً لنظام ما. ولكن عليها أن تدعو كل فرد أن يتولى مسؤولية حياته، وأن يدافع عن حرية، بعيدة عن الفردية المنفتحة على كل اشكال الحتمية الاجتماعية، ولكن حرية تدير العلاقات الصعبة بين الوحدات المنفرطة للحداثة العقلانية : الجنس والاستهلاك والأمة والمؤسسات الانتاجية.

ظل كثير من الناس مرتبطين بالنموذج القديم للمجتمع وخصوصاً في فترة تنطلق فيها التبادلات الدولية في جانب والنزعات الطائفية في جانب آخر. ولكن هذا الحنين للعقل الموضوعي وللمدينة، مع احترامنا له، لا يقدم أى إجابة على المشاكل الواقعية للحياة الشخصية والجماعية. فالانسان الحديث ليس مواطناً في مجتمع عصر التنوير وليس مخلوقاً لإله، أنه ليس مسؤولاً إلا أمام نفسه.

يظهر هذا الاتجاه أولاً من الجانب الليبرالي الجديد، مع الاهتمام الخاص باستراتيجيات المؤسسات الانتاجية والحكومات التي تسعى للتكيف مع محيط دائم التغير ومن الصعب التحكم فيه، ومع سوق عالمية في حالة مستمرة من عدم التوازن. ولكن ينتشر في نفس الوقت مفهوم للفاعل أقل عدوانية وأكثر تكيفاً مع أولئك الذين يريدون أن يسيروا أمورهم بدلاً من أن ينتصروا في هذه الحال يقدم الفاعل كفرد يسعى لتنظيم محيط لا تحكمه قيم ولا قواعد ولا حتى الاعتقادات. وهو مفهوم يتحكم في ميراث السوسيولوجيا النقدية، لأنه إذا كان المجتمع نظاماً لا يعمل إلا للحفاظ على قوته الخاصة، يكون الفاعل والنظام منفصلين، ولا يمكن للفاعل أن يتصرف إلا بصورة أنانية واحتمالية. وبطريقة موازية تنقلب سوسيولوجيا التحديث الى سوسيولوجيا للفعل

تضع قيم الحرية والمسؤولية فى مواجهة مصالح النظام. وأخيراً تصير سوسيولوجيا الفعل بوضوح سوسيولوجيا للذات وهو ما كان دائماً من سماتها ولكنها لم تكن بعد قد تحررت من القالب التاريخي. وهذا الكتاب الذى نوشك على الانتهاء من قراءته ينتمى الى هذا الاتجاه الذى يسعى للبحث عن طريقه انطلاقاً من رفض مزيج السوسيولوجيا الحديثة النقدية المحضة وللنزعة التاريخية.

علينا مع ذلك أن نتجنب أن نعارض معارضة تامة بين صور متعاقبة من الفكر. لأن فكرة الذات، بعد أن كانت مرتبطة بصيغة مبدأ مفارق لنظام العالم، تجسدت فى التاريخ فى مرحلة الحداثة المنتصرة قبل أن تقوم بمقاومة سطوة السلطات والأجهزة. إن تاريخ التحديث هو أولاً تاريخ تحقيق الذات. وضد رأى من يفسرون هذا التاريخ باعتباره تاريخ الانتقال من الذاتى الى الموضوعى ومن أخلاق الإعتقاد إلى أخلاق المسؤولية، ينبغى الاعتراف بعلمنة الذات انطلاقاً مما أسماه ماكس فيبر الزهد داخل العالم. ليست السوسيولوجيا قاصرة على دراسة العقلنة وأداء المؤسسات الانتاجية. إن موضوعها الرئيسى هو الصراع بين الذات والنظام، بين الحرية والسلطات. هذا الكتاب دفاع عن الحداثة باعتباره يجتهد ليثبت أن الحياة الاجتماعية بناء يقوم على الكفاح والمفاوضات التى تنتظم حول التنفيذ الاجتماعى للتوجهات الثقافية والتى يشكل مجموعها ما أسميه الفاعلية التاريخية *historicite*. واليوم فى المجتمع ما بعد الصناعى والذى أسميته المبرمج، ليس موضوع هذه الصراعات هو الاستخدام الاجتماعى للتقنية ولكن الانتاج والتوزيع الضخم لتمثيلات ومعلومات ولغات. هذا التأكيد الأساسى يملأ الفراغ الذى استقر بين الاقتصاد والثقافة. فبدلاً من تعريف الفاعل بهويته، يُعرّف الفاعل بالعلاقات الاجتماعية، وبالتالي بعلاقات مع السلطة، لأنه لا توجد علاقة اجتماعية دون أن تكون السلطة أحد أبعادها، وكذلك التباين بين سادة ومسودين. ومن جانب آخر تحل فكرة المؤسسة محل فكرة السوق كمركز للسلطة سواء كانت هذه المؤسسات إقتصادية أو سياسية أو ثقافية.

يتحدد موقع الذات بالعلاقة مع منطق النظام. الذات والنظام ليسا عالمين منفصلين، ولكنهما حركتان اجتماعيتان متعارضتان، وفاعلان اجتماعيان وسياسيان يتصادمان، حتى حين لا يتكفل ممثلون سياسيون بالتعبير عن مطالب الذات وحتى حين تسعى نظم الانتاج لاقتناع الكثيرين بأنها ليست إلا ممثلة للعقلانية الاقتصادية، وحتى خدمة للجمهور. ولم يعد يمكن تحديد المجتمع كمجموعة مؤسسات أو أكثر لإرادة سيادية؛ إنه ليس من إبداع التاريخ ولا من إبداع أمير؛ إنه حقل صراعات ومفاوضات وتوسطات بين العقلنة وتحقيق الذات الذين يمثلان وجهي الحداثة المتعارضين والمتكاملين. يحمل هذا التأكيد في طياته نقد النزعة الثقافية والنزعة الاقتصادية واللتين يتصلان يقيناً بالتفكك الراهن لفكرة المجتمع، ولكن كل منهما غير قادر على استيعاب تحليلات الآخر، وهو ما يدمر كل جهد من أجل بناء فكر إجتماعي شامل، وعلى وجه الخصوص من أجل فهم العلاقات بين الشمال الاقتصادي والجنوب الثقافي. إن فكراً إجتماعياً خالصاً أى سوسيولوجياً هو وحده القادر على تقديم شرح وافى وليس فقط تفسير لجزء من الظواهر الملاحظة. يصنع البشر تاريخهم ولكنهم يصنعونه خلال صراعات إجتماعية وفي نفس الوقت إنطلاقاً من توجهات ثقافية. نحن لم نخرج من المجتمع الصناعي كي ندخل في ما بعد الحداثة؛ نحن نبني مجتمعاً مبرمجاً احتل فيه إنتاج السلع الرمزية المكان المركزي الذي كان يحتله إنتاج السلع المادية في المجتمع الصناعي. في مثل هذا المجتمع يمكن أن تحدث قطيعة عميقة بين الاقتصاد والثقافة، كما حدث قديماً في بداية الحداثة أن خلقت قوى التطور الاقتصادي والعلمي جزءاً من العقلانية في محيط من التراث والحياة الجماعية. ولكن ينبغي إعتبار هذه القطيعة حالة مرضية ولا يمكن تحليلها إلا باعتبارها انفصلاً لمجالين متكاملين، ثم يقوم النظام السياسي بالتوسط بينهما.

ينبغي على العلم الاجتماعي أن يجد خلف الفصل بين السوق والجماعة، بين النزعة الاقتصادية والنزعة الثقافية وحدة نسق فعل تاريخي أى نسق توجهات ثقافية وفاعلين إجتماعيين، في صراع كلما سعوا لأن يصيغوا أشكالاً اجتماعية متعارضة لهذه

التوجهات الثقافية. لم يعد يتحدد الفاعلون بوضعهم الاجتماعي، كما كان الأمر في المجتمع الطبقي ولكن ينبغي النظر إليهم مباشرة على أنهم حركات إجتماعية. نتحدث إحداها عن استراتيجية وعن تكيف مع التغيرات ومع السوق وعن الفكر العملي وحساب التكلفة والمزايا، وتتحدث الأخرى عن الذات وعن حريتها وعن إرادة الفرد في أن يكون فاعلاً.

يواجه هؤلاء الفاعلون بعضهم بعضاً ولكنهم متحدون باشتراكهم في الرجوع الى حركة خلاقة أى باشتراكهم في حداثة بالغة. ولكن، وكما هو الحال في كل مرحلة تاريخية، يمكن أن تتحول هذه الحركات الاجتماعية الى نقيضها، الى حركة إجتماعية مضادة. حينئذ ينقلب العمل الهجومي للذات الى عمل دفاعي يدعو الى الهوية والى الجماعة بدلاً من ان يدعو الى الحرية، وحينئذ أيضاً وبصورة موازية تنقلب المؤسسات الاقتصادية والسياسية والثقافية بواسطة مملكة المال، وتترك رأسمالية الانتاج مكانها للرأسمالية المالية. لقد تشكل مجتمعنا، على المستوى العالمى وعلى مستوى جميع البلاد الصناعية، من هذه الاتجاهات المتعارضة التى تنحو الى بناء نظام جديد للعمل التاريخى أو تميل إلى هدمه لصالح ثنائية تفصل الاقتصاد عن الثقافة، والشمال عن الجنوب، وهما بدورهما لا يمثلان قارتين منفصلتين ولكنهما موجودان كلاهما داخل كل بلد .

منذ بداية الثمانينيات، تزايدت عدم المساواة على المستوى العالمى لأن البلاد الصناعية، رداً على أزمة السبعينات، قامت بقفزة تكنولوجية غير مسبقة فى الوقت الذى تعاني فيه أقاليم واسعة فى العالم الثالث من تفقر مأساوى. نحن نعيش إذن تمزق بالغ بين رؤية إقتصادية ورؤية ثقافية للمجتمع : من جانب، رؤية الاغنياء، وتعود مدرسة "الاختيار العقلانى rational choice" الى فكرة الانسان الإقتصادى "homo micus-oecon" : وفى الجانب الآخر البلاد الفقيرة والمشلولة، وتصبح النزعة الثقافية فيها أكثر عدوانية وترفض حداثة منظوراً إليها من الخارج وتبحث عن ماضى أسطورى يعوضها

عن حاضر بلا مستقبل. وبدلاً من اختيار الانضمام لمعسكر أو الدخول في معارك خطابية علينا أن نرى في هذين الموقعين، على إختلافهما، وحدات مفككة من مرحلة جديدة من الحداثة تجد صعوبة في التشكل ولكن ينبغي على أى حال أن تخضع للتحليل.

هذه الصورة للمجتمع تُهم بأنها تقودنا الى النزعة التاريخية التي انتقدت كثيراً في الجزء الثانى من هذا الكتاب. ولكن ينبغي الفصل بين حكمين مختلفين. الاول، أكثر عمومية، هو أن كل مجتمع حديث ينبغي أن يعتبر نتاج لنشاطه الخاص وينبغي بالتالى تحديده بنمط انتاجه لنفسه. والحكم الثانى هو أن المجتمع الصناعى بالمعنى الواسع للكلمة، هو وحده الذى اخضع نفسه كمجتمع لفكره، وبُنى فى اطار من النمو التاريخى والتطور. وليس من التناقض على الاطلاق تحديد مجتمعنا باعتباره بالغ الحداثة وأن نقول أنه نابع من هذا الفكر التطورى الذى ميز مرحلة ما من تاريخ المجتمعات الحديثة. وينفس الطريقة كان المجتمع الكلاسيكى، أى المجتمع من القرن السادس عشر والى القرن الثامن عشر، مجتمعاً حديثاً: مجتمع النهضة وإبداع العلوم والدولة الحديثة، ولكنه اعتبر نفسه نظاماً وليس حركة، وحل نفسه فى اطار سياسى وليس اقتصادى. بعد هذا المجتمع الذى اخضعه للتفكير ميكيافيالى وهوبز وروسو، وبعد المجتمع الصناعى الذى اخضعه للتفكير كونت وهيجل وماركس نجد أمامنا مجتمع ما بعد صناعى فى طور التشكيل، مجتمع مبرمج تحتل فيها المقولات الاخلاقية المكان الاساسى والذى كانت تحتله المقولات السياسية ثم الاقتصادية والفكر الدينى فيما قبل بداية الحداثة.

إن الانتقال من المجتمع الحديث الى المجتمع المبرمج لم يتم عبر استمرارية لانهاية من التقدم. لقد تم بصورة مأساوية وبطيئة وينفس الطريقة تم الانتقال من المجتمع السياسى الى المجتمع الاقتصادى ومن مجتمع الاقتصاد السلعى والحق القانونى الى المجتمع الصناعى وصراع الطبقات، فى القرن التاسع عشر، عبر أزمات وصدامات. ومنذ عام 1968 نشهد أزمة وتفكك المجتمع الصناعى، تفكك حقله الثقافى وفاعليته الاجتماعية وأشكال عمله السياسى. وفى بداية الثمانينيات، وصلت هذه الازمة

الى منتهاها، ادرجة أننا لا نرى سوى المواجهة بين عالمين، عالم الحساب الاقتصادي وعالم الهوية الثقافية، ولا نرى سوى الاخطار التي تهدد الكوكب إذا ما استمر في الركون الى التنمية بلا ضابط. ولكن يمكن أن نتنبأ أو حتى نلاحظ بعث ما هو اجتماعي. ويظهر فاعلون جدد. أولئك الذين كنت أول من أسماهم الحركة الاجتماعية الجديدة لم يكونوا إلا أشكالاً هشة وتقريباً مشوهة، مكونة من خليط من فاعلي المستقبل وإيديولوجيا الماضي. إنها غيلان إجتماعية، ولكن الرأي العام، بفضل وسائل الاعلام وبعض المثقفين المتحررين من مقولات الماضي، قد صار منتبهاً الى المشاكل الاجتماعية الجديدة وشرع في مناظرات جديدة. والموضوع الرئيسى لهذا الكتاب هو تحديد الحقل الثقافى، وعلى وجه الخصوص أشكال الفكر الاجتماعى التى تكون موضوعاً للعلاقات والصراعات الاجتماعية ولأشكال العمل السياسى التى تنتظم أمام أعيننا.

ليس لدى أى نية فى العودة الى مفهوم إلهى للحق الطبيعى وفى تحديد السلوك بموافقة أو عدم موافقته للمبادئ التى أرساها إله خالق أو أرسنها الطبيعة. إذا كان تحليلى فى نظرى سوسيولوجياً فذلك لأن الذات لا تتحدد ولا تنشأ إلا كفاعل فى صراعات إجتماعية وكخالق لفاعلية تاريخية معينة فى الوقت نفسه. هذا الجمع بين صراع إجتماعى - مع أشكال التفاوض المرتبطة به - والتوجهات الثقافية المشتركة بين الخصوم يحدد الفاعل الاجتماعى وبصورة مباشرة يحدد الحركة الاجتماعية. وهو ما يمنعنا من اختزال الحياة الاجتماعية الى تحقيق القيم المشتركة ولا فى المقابل الى صراع طبقى يفوق فى جذريته الحرب الاهلية. لا يمكن إدراك الذات إذن خارج الصراعات الاجتماعية، وبشكل خاص خارج السلطة التى تحول العقلانية الاداتية الى نظام سعياً للوصول الى أقصى قوة لها. إن النهج الذى يضع فى مركز التحليل فكرة الذات هو نفسه النهج الذى يحدد نشأتها وانتهيارها فى إطار اجتماعى.

إن ما يعوق في الغالب عن رؤية الانقلابات الكبرى في العلم الاجتماعي، هو التعارض الذي ورثناه عن القرن الماضي بين فكر اليسار الذي يشدد على المنطق غير الشخصي للنظم، خاصة الاقتصادية منها، وفكر اليمين الأكثر ميلاً إلى الفردية والليبرالية. يمكننا أولاً أن نجيب بأن الصراعات الأيديولوجية تنور اليوم على جبهات معكوسة، فاليسار يدافع عن الأفراد وعن الأقليات ضد الربح والقوة، واليمين يظل مرتبطاً بالمنطق غير الشخصي للسوق، ولكن هذه الأجوبة تفتقد إلى ماهو جوهرى وهو أنه إذا كان الاقتصاد قد ساد القرن التاسع عشر والسياسة سادت القرن العشرون وخصوصاً مقاومة الشمولية. وهو مأموننا من اختزال الفرد إلى البحث العقلاني عن المصلحة. لقد نشأت الأهمية الجديدة المعترف بها للذات المعنوية من مقاومة السلطة المطلقة، مما جعل المناظرة الهامة اليوم ليست بين الفردية والكلية ولكن بين سوسيولوجيا الذات والفردية العقلانية الآن تدعو النظم التي تسود العالم إلى السوق والمصلحة وليس إلى الرسالة التاريخية للدولة أو إلى تعبئة طبقة من الطبقات.

دور المثقفين

إذا كان هناك من المثقفين من يعمل على بناء المسرح الثقافي الجديد الذي يبدأ في الظهور عليه فاعلون اجتماعيون مختلفون عن عالمي المصنوع الصناعي أيضاً متمرس، بانزعاج متزايد، لأنهم في مجملهم غائبون أكثر فأكثر عن الحياة العامة، لدرجة تصفع إلى السؤال : ألا يختفون من مراكز الحياة الجماعية كما حدث لرجال الدين قبلهم عندما استبعدوا وقتما انتصرت العلمنة، وعندما حل مؤرخون محل علماء اللاهوت و علماء محل مفسري النصوص المقدسة؟

لقد ارتبط المثقفون ارتباطاً وثيقاً بالعلمنة. لقد تسولوا باستحقاق ضد سيادة السلطة والمال باسم حركة التاريخ الحتمية، أعلن في أن تسقط هذه الحركة الامتيازات والجهل وتزيد من مشاركة أكبر عدد في الاستفادة من نتائج التقدم وإدارته. كلما كان الانتاج اجتماعياً كلما فرضت الاشتراكية نفسها، هكذا كان يعتقد ساركس. لقد تحدث

المثقفون إذن باسم من لا صوت لهم ولكنهم اكتسبوا شرعيتهم من معرفة قوانين التاريخ. وهذا ما جعل منهم في آن مستشارين تحديثيين للأمير ومدافعين عن الشعوب المقهورة، وفي آن أيضاً صفوة متخلصة من الأعراف والتقاليد وثوريين مقتنعين بأن العلم وحده يمكن أن يدمر النظم القديمة ويحرث الأرض بعمق كي يبرز منها يوماً حصاد الحرية. هذا الصورة للمثقف لا تنتمي لوقتنا الحاضر. لقد حدث طلاق بين أغلب المثقفين والحدثة، وأولئك الذين ظلوا مرتبطين بها تركوا أنفسهم للانخراط في خدمة المستبدين الذين اعتبروهم مستنيرين ولم يكونوا سوى طغاة شموليين. وهو ما أدى إلى تشويه صورة المثقفين بشكل أكثر فداحة من التصرف، الذي نظر إليه كعمل هامشي وأخرق من قبل من انحازوا للقومية الفاشية. أن أكثر التيارات صلابة في الحياة الثقافية منذ قرن من الزمان هو معاداة الحدثة الذي استمد زاده من نيتشه وجزئياً من فرويد. ولقد منحته مدرسة فرنكفورت وميشيل فوكو تعبيراته الأكثر انتشاراً قبل أن تختلط النزعة اليسارية المتطرفة بالليبرالية الجديدة فيما بعد الحدثة. لقد أخلى دين المستقبل مكانه شيئاً فشيئاً للحنين للوجود، والندم على ما اسماه هوركهايمر "العقل الموضوعي".

قاتل كثير من المثقفين منذ قرن ضد فكرة الذات. وقد فعلوا ذلك غالباً باسم العقل أو باسم التاريخ، وأحياناً باسم الأمة. وقد استعاد البعض ميراث رجال الدين الذين كانوا يفكون شفرة النظام العقلي لعالم خلقه الله منفتحاً أمام العقل الانساني. وسعى آخرون بقبولهم لموت الاله، أن يخضعوا الى الوعي الانساني، لا الى وحى الله والى قوانين العالم الذي خلقه، ولكن لقوة غير شخصية وهي التقدم والتطور. وافتتن أفضلهم بتدمير العرف تدميراً يقوم به الجنس المتحرر والذي بتوقفه عن أن يكون نشاطاً وظيفياً يحمل في داخله غريزة الموت وإندفاع الحياة معاً. تعاضد الحنين الى الوجود مع التفكير حول الجنس في تغذية فكر خلاق ونقدي تجاة فلسفة التقدم الاجتماعي التي كانت تدعو الى مجتمع حديث وعقلاني ضد الامتيازات وضد اعتقادات الجماعات التقليدية. لا يتعلق الامر بالحلم بطريقة طوباوية بمجتمع ينيره العقل ولكن بالافلات من

سطوة المجتمع والسلطات إما بالجوء الى الخبرة الجماعية كما فعل الالمان غالباً منذ نهاية القرن الثامن عشر وإما بعبور شاشة الوعي سعياً وراء جنس متحرر من القواعد الاجتماعية كما فعل السوراليون أو جورج باتاي Georges Bataille . بحيث يكون عالم الثمانينات الذى يدعو الى العقلانية الاقتصادية أو الى الاستهلاك فى الشمال والى الهوية الثقافية المهددة فى الجنوب، عالماً بلا مثقفين ما دام هؤلاء يحاذرون من المستقبل.

عاش كثير من المثقفين فى فرانكفورت وغيرها انبثاق مجتمع الاستهلاك كإنحطاط. ولكن رغم ذلك له أهمية كبرى اليوم، فقد ظهر فى بعض أجزاء من العالم منذ بضعة عقود، وفى الولايات المتحدة قبل اوربا واليابان، فكر "إيجابى" يمكن ان يتخذ أكثر الاشكال تفاهة - كما كان الفكر السلبي قديماً يمكنه أن يكتسى بالشكل التافه للتطير ولتقديس الظلم الانسانى - ويستبدل الرغبة بعقدة الذنب واردة السعادة بقلق الخلاص والبحث عن المسؤولية والتضامن بالخضوع للأمر الالهى والطبيعى.

ليس نور المثقفين بالقطع المشاركة فى الانماط السلعية لمجتمع الاستهلاك ولكن ليس نورهم هو رفضها جملة وتفصيلاً، واحتقار مطالب أولئك الذين ظلوا زمناً طويلاً محرومين من الاستهلاك ومن الحرية والتعليم، وعدم التفكير فى الأشكال الأرقى التى يمكن أن تتخذها هذه الانماط. يميل المثقفون المخلصون لتراث عصر التنوير فى الغالب الى إدانة مجتمع الجماهير ويعتبرونه فظاً. ويكتفون بشجب فقر أو أخطار الاستهلاك الثقافى الضخم وتظهر مواهبهم فى النقد أكثر مما تظهر فى المقترحات، وهو ما يتضمن عجزاً بالغاً من جانبهم حيال الوعي الذى يعتبرونه دائماً وعياً زائفاً. وهو اتجاه ينتسب لاتجاه النخبة الجمهورية التى رغبت فى الاحتفاظ بالسلطة للمواطنين المتعلمين باعتبارهم حائزين للكفاءة أو مفسرين جديدين لاتجاه التاريخ. وطالما تحدث المثقفون من جيزو Guizot الى لينين باسم الطليعة : ألم تكن البرجوازية طليعة لشعب لا يستطيع فى ضربة واحدة اكتساب التعليم اللازم؟ والحزب الثورى ألم يلق على نفسه

واجب تنوير الشعب وال جماهير حبيسة الجهل والعزلة والقهر؟

دأب المثقفون يوما على مصالحة رغبتهم فى العمل من أجل الشعب مع حذرهم من حكم الشعب لنفسه. كلما ظل المثقفون حبيسى العداء للحدثة وأسرى موقف نقدى محض كلما دعموا تأثيرهم على وسط الكوادر الاجتماعية الثقافية، طلاب ومعلمين على وجه الخصوص، والذين يزداد عددهم ويزداد تدمرهم من وجودهم فى شروط مادية أدنى عن الكوادر التقنية الاقتصادية. ولكنهم فى نفس الوقت فقدوا تأثيرهم على مجمل المجتمع.

لقد فرضوا بسهولة عداهم للحدثة على الوسط الجامعى وجزئياً على مجال الصحافة والنشر ولكن لم يطالوا الجماهير العريضة من أولئك الذين يكرسون وقتاً أكثر للتلفزيون أكثر من الكتب، والذين هم أكثر اهتماماً بارتفاع مستوى المعيشة الذى يسمح لهم بشراء أدوات كهربائية منزلية أو سيارة جديدة أو قضاء عطلة سياحية أو إدخال اولادهم للجامعة. أينبغى ألا نرى فى ثقافة الجماهير هذه وفى تأثير وسائل الاعلام سوى امتثال واستهلاك للمنتجات السلعية؟ هذا حكم متسرع مثله مثل الحكم على كتب المثقفين بأنها ظلاميات لا مجدية وحذقة مزعجة. فى الواقع أن ثقافة الجماهير هذه، والتي يعتبر التلفزيون هو أدواتها الأساسية فى الابداع والتوزيع، وهى التى استقبلت هذه الذات التى طردتها " الثقافة الراقية " متهمة اياها بمختلف الجرائم. عودة الذات هذه يمكن أن تتخذ أكثر الاشكال تجارية ولكنها أيضاً تؤدى الى ولادة انفعالات وحركات تضامن وتأملات حول المشاكل الكبرى للحياة الانسانية : الميلاد، الحب، اعادة الانتاج ، أغنياء المرضى، الموت، والعلاقات بين الرجال والنساء، الالباء والابناء، الاغلبية والاقلية ، الأغنياء الأرض وفقراؤها . أن المشاكل الاجتماعية، التى لاتهم أولئك الذين يريدون كل شئ إلى المصلحة، أو أولئك الذين لا يتحدثون الا عن الثقافة، ها هى بعد أن طردت من الباب تعود من نافذة التلفزيون الذى تناقش فيه مشاكل التعليم والصحة والهجرة وغيرها، بكفاءة وحماس أكثر منها فى داخل حرم البرلمان أو الجامعات.

وبدلاً من إدارة الظهور لثقافة الجماهير هذه، ينصب دور المثقفين على إبراز ما فيها من إبداع، وفي نفس الوقت يقاتلون الاستخدام التجاري لها ويحمونها من الديماغوجية والتشوش. وهو ما يفترض أن نتخلص من الحواجز التي تفصل غالباً المتعلمين عن باقي السكان، وأن على الشبيبة الطلابية أن تتجاوز الهوة بين التأهيل المهني المكرس للمستقبل وثقافة عامة يغذيها العداء أو الارتباط بكونية محملة بروح السيطرة أكثر من الانفتاح على الخبرة المعاشة. ينبغي أن يكون دور المثقفين هو المساعدة في انبثاق الذات عن طريق زيادة ارادة وقدرة الأفراد على أن يكونوا فاعلي حياتهم الخاصة. تصطدم الذات بالمنطق السائد للنظام الذي يختزلها الى مجرد مستهلك ومدافع عن مصالح داخل محيط متغير؛ كما إنها أيضاً مهددة بالهرب خارج الحقل الاجتماعي وتنوعه، هرب نحو التجانس المصطنع لتقليد جماعي، أو نحو إيمان ديني. ان مهمة المثقفين الكبرى هي بناء تحالف الذات والعقل، تحالف الحرية والعدالة. كيف لا يتحدثون باسم العقل في حين أنه قوتهم الوحيدة في مواجهة المال والسلطة وعدم التسامح؟ كيف لا يدافعون عن الذات وهي حركة تأملات الفرد حول ذاته ضد الأوامر المفروضة والممنوعات الموروثة وكل أشكال الامتثال.

إن المثقفين "من أسفل"، أولئك الذين يتحدثون عن الفرد وعن حقوق الانسان ينبغي لهم أن يحلوا محل المثقفين "من أعلى"، أولئك الذين لا يتحدثون الا عن اتجاه التاريخ. لقد أفتتن المثقفون زمناً طويلاً بالسلطات التي كانت تقدم نفسها على انها ممثلة العقل، وينبغي اليوم أن نطلب من الذين كانوا في خدمة الطغاة أن يسكتوا ومن الآخرين ان يدافعوا بصورة أفضل عن الحرية ضد السلطة، وعن اصالة هذه المطالب الشخصية والجماعية ضد الضمير المستريح لأصحاب المال. إن تحقيق هذا التغيير لصورة المثقف هو في فرنسا أصعب ما يكون، لكثرة ما تماهى المثقفون الفرنسيون بشدة مع مبادئ العقل وتحققها التاريخي. واليوم كل فلسفات التاريخ، والتي لا تبالى بحرية الأفراد والأقليات، بل وحتى الاغليات، قد فقدت أهليتها كما فقدتها أيضاً المبادئ التي خدمتها هذه الفلسفات، ولم يعد مثقفوها العضويون أهلاً للثقة. إن من حازوا احترام

أكبر عدد من الناس هم المثقفون الذين قاوموا الطغيان، منشقين وشهود وصرعى
ومسجونين ومتقيين ومهانين، فى الغالب ايضاً من جانب من لا يقدرّون سوى العقل حتى
عندما يصير عقلاً للدولة.

إن سلوكهم النموذجى بالغ الدلالة أمام من عرفوا الحرمان أكثر مما عرفوا
البرمجة، أمام من هم حساسون للعطف أكثر من شاعرية مسيرة الفرسان عبر التاريخ.
على الحياة الثقافية أن تتخلى عن مطاردة الذات، التى كان هاجسها منذ زمن طويل،
وعليها أن تتعلم أن ألا تقيم تعارضاً بين الحس والوعى، بين الفرد والمجتمع.

الحدثاء الكاملة

إن القرن الطويل الذى يوشك على الانتهاء ولم يكن فقط ملحمة من الصخب
والعنف تعقب الامال المسالمة للقرن الثامن عشر والتاسع عشر. إن الانقلابات التى تمت
كانت غاية فى العمق بحيث لا يستطيع أحد أن يحلم بالعودة الى المياة الهادئة لفلسفة
التنوير، حتى وإن شعرنا، حسب تعبير فرانسوا فوريه ، أن الثورة الفرنسية قد انتهت،
وأن الاحتفال بمرور مائتى عام على مرورها لم يحتفظ منها سوى باعلان حقوق الانسان،
أى ما ارتبط منها بالتراث المسيحى والعلمانى للحق الطبيعى، ونسى ما كان يبشر فيها
بعصر الثورات وتشكيل سلطة مطلقة، والارهاب وانتقال الروح الثورية الى
السلطة البوايسية. نحن لا ننتقل اليوم من الحدثاء الى ما بعد الحدثاء كما لانعود الى
التوازنات الكبرى التى سقطت بواسطة أفكار التقدم والتنمية. وعندما نحاول تحديد
القرنيين الذين اوشكوا على الانتهاء، ينبغى أن نقيمهما كفترة حدثاء محدودة. إذا
كانت الحدثاء هى تمثيل المجتمع كنتاج لنشاطه الخاص، فان الفترة التى تسمى
"حديثاً" لم تكن بالفعل كذلك إلا جزئياً. إنها لم تقطع تماماً الرباط الذى كان يربط الحياة
الاجتماعية بنظام العالم. لقد آمنت بالتاريخية، كما آمنت فترات أخرى قبلها بالخلق
الالهى أو بالاسطورة المؤسسة للجماعة. وبشكل موازى تبحث عن أساس الخير والشر
فى منفعه سلوك ما أو ضرره بالنسبة للمجتمع. هكذا ظلت الانسانية وإن تحررت من

الخضوع لقانون الكون أو الإله، خاضعة لقانون التاريخ، أو قانون العقل أو قانون المجتمع. لم تقطع شبكة الاتصال بين الإنسان والكون. هذه الشبه - حادثة كانت تحلم ببناء عالم طبيعي لأنه عقلاني. إن أزمة الحادثة التي تبدو للبعض كقطيعة مع العلمنة والثقة في العقل، ليست بالأخرى مدخلاً إلى حادثة أكثر اكتمالاً، حادثة قطعت كل الوشائج التي كانت تربطها بصفة النظام الطبيعي، أو الإلهي أو التاريخي، للأشياء؟ أثناء حقبة الحادثة المحدودة، اعتبر الإنسان نفسه إلهاً، إذ كان منتشياً بقوته وحبيس قفص من حديد، هو قفص السلطة المطلقة أكثر منه قفص التقنية، قفص استبداد كان يريد أن يكون تحديثياً وصار شمولياً. وفي نفس الوقت، منذ منتصف القرن التاسع عشر أصبحت فكرة الحادثة أكثر فأكثر محجوبة خلف فكرة التحديث وتعبئة المصادر غير الاقتصادية وغير الحديثة بهدف ضمان نمو لم يمكنه أن يكون تلقائياً ومتجانساً. تتلاقى هاتان الصورتان كي تمحيا صورة الحادثة التي تكتسب كل قوتها من دورها التحرري. وبقدر ما كانت تسقط الانظمة القديمة أو تتفكك بقدر ما كانت تُستنفذ حركات التحرير، ويجد المجتمع الحديث نفسه أسير قوته ذاتها من جانب وشروط تحققه التاريخية والثقافية من جانب آخر. وبوصول الحادثة إلى نهاية القرن العشرين كانت قد اختفت، وانسحقت تحت أقدام ممثليها انفسهم، وتقلصت إلى نزعة طليعية سريعة الإيقاع تتقلب إلى ما بعد حادثة لا اتجاه لها. من مثل هذه الازمة للحادثة في طور التكوين ولدت، في وقت واحد مع ألعاب ما بعد الحادثة وفظائع العالم الشمولي، حادثة أكثر اكتمالاً نشرع في الدخول إليها.

أو بالأحرى يجد المجتمع الحديث نفسه أمام اختيار. يمكنه أن يخضع تماماً لمنطق الفعل الاداتي والطلب السلعي، وأن يدفع بالعلمنة إلى حد إلغاء كل صورة للذات، ويقتصر على الجمع بين العقلانية الادائية والاستهلاك الضخم وبين ذاكرة التقاليد الموروثة والجنس المتحرر من القواعد الاجتماعية. والطريق الآخر الذي يفتح أمام المجتمع الحديث هو الجمع بين العقلنة وتحقيق الذات، بين الفاعلية والحرية. ولو أضفنا أنه في بقاع كثيرة من العالم، الذي يكتسح الآن أكثر فأكثر هو الدفاع الطائفي والتعبئة

القومية، يمكننا أن نضع هذا الطريق الثانى على مسافة معادلة للنفعية المتطرفة والبحث المهووس عن الهوية. العقل لا يختزل الى المصلحة ولا الى السوق إذا ما كان يبعث الحياة فى روح الانتاج. والذات لا تختزل الى الجماعة، أى الأنا الجمعى، إذا ما كانت تدعو الى الحرية التى لا تنفصل عن العمل النقدى للعقل . أن الليبرالية والنزعة الثقافية تظهران مرة أخرى لنا كعناصر مفككة من الحداثة المحطمة. هذه الحداثة لا توجد إلا بالجمع بين العقل والذات، جمعاً مشحوناً بالصراعات، ولكن صراعات بين قوى تشترك فى نفس المرجعية الى الابداع الانسانى ورفض كل الجواهر وكل مبادئ النظام. أن الحداثة المتحققة لا تحكم على السلوك حسب تطابقه مع القانون الالهى ولا بحسب جدواه الاجتماعية ؛ لاهداف لها سوى السعادة. وهو احساس الفرد عندما يكون ذاتا ويعترف به كقادر على اعمال اجتماعية تستهدف زيادة وعيه بالحرية والابداع. هذه السعادة الشخصية لا تنفصل عن الرغبة فى سعادة الآخرين، والتضامن معهم فى سعيهم للسعادة، والتعاطف معهم فى شقائهم. الحداثة لا تنشأ وتستقر الا إذا انقشعت ظلال عقدة الذنب والامل فى خلاص يرتدى غالباً مسوحاً سياسية ودينية. الفكر النقدى المحض والذي لا ينفصل عن نفى الذات هو دائماً مضاد للحداثة وتسكنه دائماً نزعة عداء للحداثة يدعمها الحنين الى الوجود بل على العكس إذا كان ينبغى الحذر من الفكر الذى يدعو فقط الى الاندماج عبر الاستهلاك وعبر الاجماع على الغاء الصراعات، ألم يحن الوقت بعد لقبول السعادة، وأليست هذه الضرورة فى الجمع بين العقل والذات اللذان تعارضا زمنا طويلا هى التى تجعل من العالم الحديث عالماً من النساء بما أن الرجال قد تطابقوا مع العقل ضد الشعور والحميمية والتراث، فى حين أن النساء "الحديثات" تطمح فى أن يدرن أنوات العقل وفى نفس الوقت أن يعشن سعادة ان يكونن نواتا، فى وحدة النفس والجسد، كما اظهره بحث سيمونتا تابونى Simonetta Tabboni فى ايطاليا؟ لن تكتفى الحداثة بروح الغزو ولا بالتقشف، إنها فى تناقض مع الحنين للتوازن والجماعة والتجانس . إنها حرية وعمل فى آن، جماعية وفردية، نظام وحركة . إنها تجمع ما كان مفصولا وتكافح ضد التهديدات بالقطيعه التى تميل بصورة

أكثر خطراً من ذي قبل لفصل عالم التقنيات عن عالم الهويات.

مسارات

هل هذه الافكار تمثل استمرارية أم تعارضاً مع أفكارى التى عرضتها فى كتيبى

السابقة؟

أطلقت مصطلح "فاعلية تاريخية" *Historicite* على مجموعة النماذج الثقافية التى ينتج مجتمع ما بواسطتها قواعده فى مجالات المعرفة والانتاج والاخلاق نماذج ثقافية تشكل موضوعاً للصراع بين الحركات الاجتماعية التى تكافح لاعطائها شكلاً اجتماعياً موافقاً لمصالح الفئات الاجتماعية المختلفة. هذه الصيغة هى بالتأكيد تاريخية ؛ انها لا تأخذ فى الاعتبار المشاكل العامة للنظام الاجتماعى والديمقراطى ونهجها مختلف عن نهج الفلسفة السياسية؛ إنها تحدد مجتمع ما بعمله ومنتجاته ويقدرته على التدخل فى شؤونه الخاصة وبالتالي هى تتعلق بالمجتمع الصناعى - وبعد ذلك بالمجتمع ما بعد الصناعى - وليس بالمجتمع بوجه عام. إن تأثير الفكر الماركسى أو ببساطة تأثير التاريخ الاقتصادى والاجتماعى المتأثر بالماركسية عليها شديد الوضوح . أما السوسيولوجيا التى انتجتها فهى تمثل جزءاً من فكر الحداثة . ويبدو لى اليوم أنه من المستحيل التخلّى عن هذا المفهوم للمجتمع، كنتاج لاستثماراته الثقافية والاقتصادية، كما يستحيل أيضاً التخلّى عن فكرة الذات . تقوم فكرة الحركة الاجتماعية على رؤية تاريخية ولكنها دائماً كانت تستدعى بشدة إحالة الى الذات . أى الى ابداع وحرية فاعل اجتماعى مهدد بالتبعية والاغتراب بسبب القوى السائدة التى تحوله الى ممثل لارادتها هى أو ممثل لضرورة ينظر اليها على أنها طبيعية . وهو ما يعنى إدارة الظهر لمفهوم ماركس ولوكاتش الذين لا يعتبرون الفاعل ذا أهمية إلا إذا كان ممثلاً للضرورة التاريخية.

عندما أتحدث عن الفاعلية التاريخية، أتحدث عن إبداع خبرة تاريخية، وليس عن وضع فى التطور التاريخى وفى نمو منطق أو قوى الانتاج . هل أخطأت عندما أردت

استخدام هذه الكلمة مع تحريفها عن معناها الأصلي. على أى حال لقد أردت هذا الاختيار عمداً لكى أتخلص من الرؤية التطورية.

اليوم، فقدت ثقتى بالتاريخ ولم أعد أقبل المطابقة بين الانسان والعامل أو المواطن نعم خوفى من الدولة الشمولية من كل اجهزة السلطة هو أكبر من خوفى من الرأسمالية التى أصبحت أقل همجية بفضل جيلين من حالة الرفاهية نعم أفضل الديمقراطية حتى وان لم تقض على الظلم، على الثورة التى تقيم دائماً سلطة مطلقة ولكن كل ما يجعل منى اليوم انسانا ليس صورة طبق الاصل من ذلك الشاب الذى دخل الجامعة بعد موت هتار بقليل لا يمنعنى من أن الأحظ استمرارية كبرى لا فى حياتى الشخصية فحسب ولكن استمرارية ايضا فى تراث طويل ومتعدد؛ أشعر بانتمائى اليه اكثر فأكثر؛ أهتدى اليه بواسطة القديس أوغسطين وديكارت وبواسطة اعلان حقوق الانسان وبعض المناضلين العماليين وبواسطة المثقفين التحديثيين فى أمريكا اللاتينية ونقابة "تضامن" البولندية كلهم واجهوا النظام القائم بمبدأ غير اجتماعى - والذى يتحتم ان نطلق عليه "روحى" حتى فى حالة تلاميذ جون لوك - للاحتجاج والفعل كلهم قبلوا الحداثة وأرادوها؛ الحداثة التى لا يمكن أن تتفصل عن العقلنة، لكنهم واجهوا صلف العمل التقنى والادارى بالمقاومة والانشقاق وحرية الذات الانسانية .

كنت قد حلت الحركة العمالية كدفاع عن الاستقلال العمالى ضد تنظيم العمل، مميزاً أياها عن الاشتراكية المشحونة بالثقة التاريخية فى التقدم. ثم عرفت المجتمع ما بعد الصناعى بأنه المجتمع الذى يخلى فيه انتاج السلع المادية المكان المركزى لانتاج السلع الثقافية، والمجتمع الذى يكون الصراع الاساسى فيه بين الدفاع عن الذات ومنطق نظم الانتاج والاستهلاك والاتصال. وأحدد الحداثة اليوم بتحقيق الذات من جانب والعقلنة من جانب آخر. كيف كان لى أن أسلك طريقاً آخر وأنا منذ بداية سن الرشد شاركت بنشاط فى الاحتجاجات والمظاهرات ضد الحروب الاستعمارية التى خاضتها بلادى، قبل شعورى بالأخوة مع المثقفين والعمال الذين كانوا يرفضون الديكتاتورية

الشيوعية فى بوايست عام 1956 وفى براغ عام 1968 وفى جدانسك عام 1980 وقبل ان اؤكد فى مايو 1968 أن خلف الايديولوجية العتيقة تومض اشكالا جديدة من الاحتجاج تدعو الى الشخصية والى الثقافة اكثر مما تدعو الى المصلحة، ودافعت عن اللذين يقاتلون فى أمريكا اللاتينية ضد الظلم والديكتاتورية ليس باطلاقهم حرب عصابات لينينية متطرفة ومدمرة للعمل الجماعى ولكن بالدعوة الى الديمقراطية؟ إن فكرة الحركة الاجتماعية التى تحتل مكانا مركزيا فى اعمالى، تتعارض تماما مع فكرة الصراع الطبقي، لأن هذه الفكرة تستدعى منطق التاريخ فى حين أن فكرة الحركة الاجتماعية تستدعى حرية الذات حتى ضد قوانين التاريخ المزيفة .

ولا أجهل أن الاحالة الى الاخلاق أو الى حرية الذات تجعل الخطاب سريع الاستهلاك، ولكن ألا يُستهلك بصورة أسرع ويكون محملا بالاحطار عندما يدعو الى التاريخ والى العقل؟ ويبدو لى اليوم أنه من المستحيل ايضا أن أكتفى بمجتمع استهلاك يقضى على فكرة الذات كما يقضى على الأنظمة الجماعية الجديدة التى تحول المؤمنين الى بوليس سياسى. لكى لا نستجير من الرضاء بالنار ألا ينبغى الدفاع عن الانسان بصرف النظر عن نوره الاجتماعى أو انتمائى معولين على قدرته على الوعى والمقاومة؟ كان هذا القرن الذى ينتهى بالغ العنف لدرجة تجعلنا لانتق فى التاريخ أو التقدم . إنه يدعونا بصوت خفيض ولكن اكثر اقناعا لأن نفتح فسحة من نور فردية وجماعية داخل غابة التقنية والقواعد والسلع الاستهلاكية وألا نفضل على الحرية أى شئ .

قد يرى البعض أن هذا الفكر هش وعابر مثله مثل الحركات الاجتماعية التى كان تعبيرا نظريا لها فى نهاية السبعينات. وكيف لا نعترف، كما يقولون، بأن هذه الحركات لم تدم زمنا أطول من الفرق السياسية للاشتراكية الطوباوية فى القرن التاسع عشر، وأن الدعوة الى الذات ليست الا قناعا يخفى غياب الفاعلين الاجتماعيين والسياسيين الواقعيين؟ صحيح أن اللجوء الى الله أو عبادة العقل أو الدعوة للتاريخ محملة بالاحطار ولاسيما بالثيوقراطية القمعية، كما تبين بعض انتقاداتى، ولكنها حركت الأمم والطبقات.

ليست دعوتك للذات نسخة شاحبة من هذه الانتفاضات الكبرى، ليست هي التعبير الاخلاقي عن مخاوف طبقة وسطى جديدة مهمومة بالأمن أكثر من الصراعات وبالنظام أكثر من التغيير؟ هذه الملاحظات تحرف الواقع فبعد قرن طويل سادته البرامج والاجهزة السياسية، فتح أفولها للمبادئ الاخلاقية والحركات الاجتماعية مجالا كان مملوءاً فيما سبق، وهو ما لا يدركه من ينظرون في الاتجاه المضاد الذي يميل في أضواء وضجيج المجتمع الصناعي الى الاختفاء.

تأملاتي مثل غيرها من التأملات، المختلفة عنها والمتعارضة معها أحيانا، تسعى لأن تستخلص معنى الافكار الجديدة؛ وليس هذا فحسب بل معنى الممارسات بمختلف أنواعها فردية وجماعية، التي تظهر موضوعات الصراعات وفاعليها في عالم جديد. الى جانب السلوكيات الاستراتيجية المتجهة نحو المصلحة والقوة، نجد عالما مليئاً بأنواع اليوتوبيا التحررية، والدفاعات الطائفية والصور الاباحية وحملات المساعدة الانسانية، والبحث عن نظرة الآخر. كلها عناصر متفرقة من تشكل ذات هي عقل وحرية، حميمية وجماعية، التزام وتتصل. هذا الكتاب مخصص لاعادة بناء هذه الصورة للذات التي لن تتحول ابدا الى اثر إلا بعد اختفائها من التاريخ. إنه لا ينتمى الى تاريخ الافكار فحسب، ذلك لأن تاريخ الافكار ليس إلا جزءاً من التاريخ الاجتماعي والثقافي، ومعنى السلوك الانساني حاضراً في الممارسات اليومية وفي الأفعال الجماعية المنظمة وكذلك في ابداعات الفن والفكر. عديد من الاقوال وعديد من الممارسات الجديدة اقنعنا بأننا قد خرجنا من الفكر التاريخي ومن المجتمع الصناعي ومن الايديولوجيات التي واكبت التراكم الرأسمالي والاشتراكي. ألم يحن الوقت بعد للاعتراف بأننا قد دخلنا الى قلب الحداثة، وأن نعترف بالمكان والزمان الذي يظهر فيه فاعلون اجتماعيون جدد وثقافة جديدة وخبرات معاشة جديدة ؟

مرحلة

لم يعد لدينا ثقة في التقدم . لم نعد نؤمن بأن الثراء يقود الى تحقيق الديمقراطية

والسعادة . لقد زهبت الصورة التحررية للعقل وأعقبها الخوف من العقلنة التي تؤدي الى تركيز سلطة القرار فى القمة. ويزداد خوفنا أكثر فأكثر أن تدمر التنمية التوازنية الطبيعية الأساسية، وتزيد من عدم المساواة على المستوى العالمى وان تفرض على الجميع سباقا مهلكا تجاه التغيير. يظهر خلف هذه المخاوف شك عميق : ألا تكون الإنسانية بازاء فض تحالفها مع الطبيعة وتتحول إلى همجية فى الوقت الذى تعتقد فيه أنها تحررت من العوائق التقليدية وأنها سيدة مصيرها. يتحسر البعض على مجتمع التقاليد بشفراته ومراتبه وطقوسه، وهم كثيرون لاسيما فى البلاد التى جاءها التحديث من الخارج على يد المستعمرين أو المستبدين. ويستدير البعض تجاه الرؤية العقلانية للعالم، علمانية كانت أو دينية، والتى تدعو البشر الى ترقية العقل الذى يخضع لنفس القوانين التى يخضع لها الكون. والمعرفة ؛كما يقولون، تحرر من الانفعالات كما تحرر من الجهل والفقر ولا يهب العلم القدرة للانسان إلا لأنه يخضعه للقوانين الموضوعية للعالم . هذا الاتجاه نراه خصوصا فى البلاد والفئات الاجتماعية التى لعبت دورا مركزيا فى تنمية محددة اساسا على أنها عقلنة. ويؤمن البعض فى النهاية بالنظام الاجتماعى، ليس بالمصالح المكتسبة ولا بالدفاع عن الامتيازات، ولكن بالبحث عن الصالح العام، ويعتبرون المجتمع غالبا نظاما طبيعيا أو آليا أو عضويا ينبغى اكتشافه واحترام قوانينه الشبيهة بباقي قوانين الطبيعة. هناك بين هذه الاتجاهات جميعا ملامح مشتركة أكثر منها متعارضة : إنها تسعى لاعادة بناء النظام الاجتماعى الذى يكون فى نفس الوقت طبيعيا، وتسعى لجعل البشر فى توافق مع العالم عبر اخضاعهم للعقل.

ولقد لعبت السوسيولوجيا دورها فى هذا البحث عن الوحدة المفقودة. لقد نشأت فى فرنسا، عبر جهد مستمر من كونت الى بوركايم، كى تجمع بين الحداثة والاندماج الاجتماعى والثقافى. واليوم وبعد تحول الحركات الاجتماعية المعادية للراسمالية والمعادية للإمبريالية الى نظم شمولية قد ذهب الكثير الى الاستدارة الصريحة الى الماضى، والتخلى عن العلم الاجتماعى للحداثة واحلال الفلسفة السياسية محله. تلك الفلسفة السياسية التى تتساعل - مثل أمبروجيو لورنزيتى Ambrogio Lorenzetti فى

لوحتة الجدارية فى قصر سينا عن الحكومة الصالحة - مخضعة بذلك الفئات الاجتماعية لفئات التحليل السياسى أو الاخلاق، عبر مسيرة معاكسة لتلك التى انجزها كثير من مفكرى الحداثة من توكفيل الى ماركس.

ولكن لم تتمكن أى من هذه الاجابات من القضاء على الفصل بين الانسان والطبيعة وذلك الفصل الذى نحياه كتححر وكتهديد فى آن. لقد أصبحت قدرتنا الجماعية كبيرة لدرجة اننا لم نعد نعرف ماذا يعنى العيش فى وفاق مع الطبيعة. كل شئ تقريبا، من الغذاء الى الالعاب مروراً بالالات هو إنتاج للعلم والتقنية، ولا يتمنى أى شخص أن يوقف مسيرة الكشف العلمى التى مازلنا ننتظر منها انجازات نافعة. وفى نفس الوقت نشعر بأن السلطة موجودة فى كل مكان وأن المجتمع يدار بواسطة مؤسسات خاضعة لاقتضاءات المنافسة الاقتصادية أو برامج التخطيط أو حملات الدعاية والاعلان أكثر من كونها مؤسسات قائمة على القانون والاخلاق. إن المجتمع الذى هو تقنية وسلطة، تقسيم عمل وتركيز للموارد، يصير غريباً أكثر فأكثر عن القيم وعن مطالب الفاعلين الاجتماعيين.

إذا كانت فكرة مجتمع الجماهير أو مجتمع الاستهلاك قد أحلت محل المجتمع الصناعى فذلك لأنها تأخذ فى الاعتبار الفصل بين عالم الانتاج وعالم الاستهلاك، فى حين أن المجتمع الصناعى كان يعرف الانسان كعامل أى بنفس مصطلحات نظام الانتاج.

لم نعد نلاحظ وجود مجتمع منظم حول المؤسسات السياسية. إننا نرى من جانب مراكز الادارة الاقتصادية والسياسية والعسكرية ومن جانب آخر المجال الخاص للحاجة. يبدو أن كل اتصال بين النظام أو الفاعل قد اختفى. نحن لم نعد ننتمى الى مجتمع أو طبقة اجتماعية أو أمة ؛ على اعتبار أن حياتنا، فى جزء منها، محددة بواسطة السوق العالمى وفى الجزء الاخر منغلقة فى مجال حياة شخصية وعلاقات بين شخصية

وتقاليد ثقافية. ويمكن لدانييل بل أن يبدي قلقه على أفول المجتمعات التي يشكل فيها الانتاج والاستهلاك والادارة السياسية عوالم مستقلة تدير قواعد متنافرة فيما بينها .

بينما يضع السوق المنافسة محل القواعد الاجتماعية والقيم الثقافية، يضع السلوك الشخصى الهوس بالهوية محل المشاركة الاجتماعية، وتصبح مجتمعاتنا زُمراً، يقل تناسقها شيئاً فشيئاً، من الجماعات والثقافات الفرعية والأفراد. وكما ان الهوية الجماعية وكذلك الفردية هشة فى عالم منفتح على رياح السوق، تمتد بين السوق والحياة الخاصة منطقة تقع بين الحدود مازال يُرى فيها أطلال الحياة العامة ويستقر فيها العنف بنفس الايقاع الذى تتراجع به التنشئة الاجتماعية .

أى إجابة نقدمها، فى موقف يبدو فيه الحنين الى الواحد والى نظام العالم غير مجد، ويؤدى فيه الانفصال التام للفاعل عن النظام الى تواجد ذاتية همجية ونظام قسرى بلا ادنى تلاحم؟ لقد بحث الكتاب الذى انتهينا للتو من قراءته عن هذه الاجابة. فبعد ان تابع تراجع الثنائية المسيحية والديكارتية، والتي كُتبت بواسطة المادية المتفائلة لعصر التنوير وبصورة أشد بواسطة فلسفات التقدم، ثم تعرض بعد ذلك لرد الفعل ضد الحداثى، فى مواجهة النزعة التاريخية من نيتشه الى مدرسة فرانكفورت وميشيل فوكو، ورصد أخيراً القطيعة بين الليبرالية الجديدة والعقلانية التى لا تؤمن إلا بالتغيير وبين الذاتية ما بعد الحداثية التى تتركب من خليط من علامات الثقافات الماضية، واقتراح الكتاب فكرة أن الطريقة الوحيدة لتفادى انفراط المجتمع الحديث هى الاعتراف بأن الحداثة لا تقوم كلية على العقلنة، وأنها تتحدد، منذ نشأتها، بالانفصال – ولكن أيضاً بالتكامل – بين العقل والذات وبصورة أكثر تحديداً بين العقلنة وتحقيق الذات. وبدلاً من اعتبار أن العقلنة التقنية والاقتصادية تدمر الذاتية بصورة متصاعدة يبين الكتاب كيف أن الحداثة تنتج الذات، التى ليست هى الفرد ولا الماهية التى يبنها التنظيم الاجتماعى، ولكنها هى العمل الذى يتحول من خلاله الفرد الى فاعل، أى الى شخص فعال قادر على تغيير موقعه بدلاً من الاكتفاء باعادة انتاجه بواسطة سلوكه.

لم يجد هذا الفكر جذوره فى السوسولوجيا بمعناها المعروف ولكنه وجدها فى أعمال فرويد، هذا إذا أردنا أن نتفق على أن فرويد سعى، فى نظريته وفى ممارسته، الى تجاوز التعارض الحاد بين الهو والأنا والأنا الأعلى وحاول العثور على أساس لأنا هى بالنسبة له لا يمكن ان تكون سوى أنا المتكلم، إذ أنه طالما شجب باستمرار أوهام الأنا والوعى.

إن الدعوة الى الذات يمكن أن تتحول الى العداء للعقلنة وتراجع الى هوس بالهوية أو انغلاق فى جماعة، ويمكنها أيضاً ان تكون ارادة للحرية وتتحالف مع العقل كقوة نقدية؛ وبصورة موازية يمكن للعقل أن يتطابق مع أجهزة الادارة التى تتحكم فى سيل المال وفى القرار وفى المعلومات، ويدمر الذات والمعنى الذى يسعى الفرد لأن يعطيه لافعاله. ولكن يمكنه ايضا أن يتحالف مع الحركات الاجتماعية التى تتولى الدفاع عن الذات ضد تركيز الموارد الذى يرتبط بمنطق للسلطة وليس بمنطق العقل.

الاجابة المحددة التى يقدمها هذا الكتاب هى أن العقل والذات اللذان يمكن أن يصيرا غريبين ومتعارضيين، يمكنهما أيضاً أن يتحدا، وأن يكون مفاعل هذا الاتحاد هو الحركة الاجتماعية، أى تحول الدفاع الشخصى والثقافى للذات الى فعل جماعى موجه ضد السلطة التى تخضع العقل لمصالحها. هكذا تعود الحياة الى مجال اجتماعى كان قد بدا عليه أنه قد فرغ من كل مضمون، مجالا يقع بين الاقتصاد الذى يكتسب البعد العالمى وبين ثقافة مخصصة. ويقدر ما تحطم نهائيا التعريف القديم للحياة الاجتماعية كمجموع اتصالات بين مؤسسات وآليات تنشئة اجتماعية، بواسطة الحداثة المنفرطة، بقدر ما تعتمد المضامين الواقعية لهذه الحداثة على القدرة التى للحركات الاجتماعية، حاملة لواء تأكيد الذات، على كبح جماح قوة الاجهزة وهوس الهوية فى آن. بنى الجزء الثالث من هذا الكتاب حول هذا التطابق بين مفهومى الذات والحركة الاجتماعية.

ان تاريخ الحداثة هو تاريخ التأكيد المزيج للعقل والذات، منذ التعارض الذى كان موجوداً فى عصرى النهضة والاصلاح والذى لم يتمكن إراسم من تجاوزه. والحركات الاجتماعية، ابتداء من حركات البرجوازية الثورية، ثم الحركة العمالية، وأخيراً الحركات الاجتماعية الجديدة ذات الاهداف الثقافية أكثر منها اقتصادية، تدعو جميعها بشكل متزايد ومباشر الى الجمع بين العقل والذات، وذلك بالفصل المتنامى للعقل عن المجتمع من جانب، وللذات عن الفرد من جانب آخر.

هذه الخلاصة تستبعد أى عودة لفلسفة ما للنظام الاجتماعى أو للتاريخ، رغم أن كل فرد يشعر فى داخله بدفعة تجاه الاندماج الاجتماعى سواء كان من نمط دينى أو سياسى أو قانونى. ولكن هذا هو الثمن الذى يجب أن يُدفع من أجل الحماية من كل الاغواءات الشمولية التى تتاوت على العالم منذ ما يقرب من قرن وغطته بمعسكرات اعتقال وبحروب مقدسة وبدعاية سياسية.

إن الحداثة رافضة لكل أشكال الشمول، والحوار بين العقل والذات، ذلك الحوار الذى لا يمكنه ان ينقطع ولا ان يكتمل، هو الذى يحتفظ بطريق الحرية مفتوحاً.

مراجع أساسية

Première partie

- ALQUIÉ Ferdinand, *La Découverte métaphysique de l'homme chez Descartes*, PUF, 1950, 384 p. (citation p. 198).
- SAINT AUGUSTIN, *Confessions*, Seuil, Points Sagesse, Intr. A. Mandouze, 1982, 418 p., en particulier livres VIII, X et XI.
- BENETON Philippe, *Introduction à la politique moderne*, Hachette Pluriel, 1987, 490 p. (1^{re} partie : « Les anciens et les modernes », pp. 29-147).
- BENICHOU Paul, *Morales du Grand Siècle*, Gallimard, Bibliothèque des Idées, 1948, 231 p.
- BENJAMIN Walter, *Paris, capitale du XIX^e siècle. Le livre des passages, 1927-1929 et 1934-1940*, 1^{re} éd. 1982, tr. fr. Cerf, 1989, 972 p. (en particulier Baudelaire, pp. 247-404).
- BESNARD Philippe, *Protestantisme et capitalisme*, Colin U2, 1970, 427 p.
- BLOOM Alan, *L'Ame désarmée. Essai sur le déclin de la culture générale*, Préface de Saul Bellow, tr. fr. Julliard, 1987, 332 p.
- BRUBAKER R., *The Limits of Rationality. An Essay on the Social and Moral Thought of Max Weber*, Londres, Allen and Unwin, 1984.
- BURLAMAQUI J. J., *Éléments de droit naturel*, Genève, 1751 (nouv. éd. Paris, 1983).
- CASSIRER Ernst, *La Philosophie des Lumières*, 1932, tr. fr., Fayard (nouv. éd., 1966, 351 p.).
- CHARTIER Roger, *Les Origines culturelles de la Révolution française*, Seuil, 1990, 245 p.

- COLIN Pierre et MONGIN Olivier (sous la dir. de), *Un monde désenchanté? Débat avec Marcel Gauchet*, Cerf, 1988, 104 p.
- COLLETTI Lucio, *Ideologia e societa*, Bari, Laterza, 1969 (en particulier la 2^e partie consacrée à Rousseau).
- COMTE Auguste, *Discours sur l'esprit positif*, 1844, nouv. éd. Vrin, 1983, 172 p.
- *Discours sur l'ensemble du positivisme*, 1849;
 - *Catéchisme positiviste*, 1849, Éd. P. F. Pécaut, Garnier, 1909;
 - *Système de politique positive*, 1851-54, vol. 7-10 de la reproduction de l'édition originale, Anthropos, 1968-71;
 - Cf. aussi *Politique d'Auguste Comte*, textes réunis par P. Arnaud, Colin, Coll. U., 1965, 392 p.
- CONDORCET, *Esquisse d'un tableau historique des progrès de l'esprit humain*, 1795, Éd. A. Pons, Flammarion, 1988, 352 p.
- DARAKI Maria, «L'Émergence du sujet singulier dans les "Confessions d'Augustin"», *Esprit*, 1981, pp. 95-117.
- DERATHE Robert, *Jean-Jacques Rousseau et la science politique de son temps*, Vrin, 2^e éd., 1950, 464 p.
- DESCARTES René, l'édition Bridoux de La Pléiade comprend le *Discours de la méthode*, 1637 (pp. 125-179), les *Méditations métaphysiques*, 1641 (pp. 257-334) suivies des *Objections et réponses* (pp. 335-552), *Les Passions de l'âme*, 1647 (pp. 695-802) et des lettres, parmi lesquelles les «Lettres à Élisabeth».
- DUMONT Louis, *Essais sur l'individualisme. Une perspective anthropologique sur l'idéologie moderne*, Seuil, Esprit, 1983, 267 p. (en particulier 1^{re} partie pp. 33-114).
- DURKHEIM Émile, *Montesquieu et Rousseau précurseurs de la sociologie*, Rivière, 1953, 200 p.
- EHRARD Jean, *L'Idée de nature en France à l'aube des Lumières*, Flammarion, 1970, 445 p.
- EISENSTADT Shmuel N., *The Protestant Ethic and Modernization. A Comparative View*, New York, Londres, Basic books, 1968, 400 p.
- ÉRASME, on se reportera à Jean-Claude MARGOLIN, *Érasme par lui-même*, Seuil, 1965. Je remercie J.-C. Margolin de m'avoir communiqué plusieurs de ses articles publiés dans des revues françaises et étrangères.
- FEBVRE Lucien, *Un destin : Martin Luther*, Rieder, 1928, 3^e éd. PUF, 1952, 219 p.
- FLEISHMANN Eugen, *La Philosophie politique de Hegel*, Plon, 1964, 402 p.

- FURET François, *La Révolution 1770-1880, Histoire de France*, t. IV, Hachette, 1988, 525 p.
- FURET François et OZOUF Mona, *Dictionnaire critique de la Révolution française*, Flammarion, 1988, 1 125 p.
- GAUCHET Marcel, *Le Désenchantement du monde. Une histoire politique de la religion*, N.R.F., Bibliothèque des Sciences Humaines, 1985, 303 p.
- *La Révolution des droits de l'homme*, N.R.F., Bibliothèque des Histoires, 1988, 341 p.
- GIERKE Otto, *Natural Law and the Theory of Society 1500-1800*, rééd. (avec un essai de E. Troeltsch), Boston, Beacon Press, 1960, 423 p.
- GILSON Étienne, *Études sur le rôle de la pensée médiévale dans la formation du système cartésien*, 1930, 336 p.
- GOYARD-FABRE Simone, *La Philosophie des Lumières en France*, Klincksieck, 1972, 341 p.
- *John Locke et la raison raisonnable*, Vrin, 1986, 197 p.
- *Philosophie politique xvr-xx^e siècle*, PUF, 1987, 544 p.
- GROETHUYSEN Bernard, *Philosophie de la Révolution française*, Gallimard, 1956 et 1982 (précédé d'un texte sur Montesquieu), 307 p.
- *Origines de l'esprit bourgeois en France*, t. I, *L'Église et la bourgeoisie*, 1927, éd. fr. Gallimard, 1977, 305 p (seul le tome I a été publié),
- *J.-J. Rousseau*, Gallimard, 1949, 2^e éd. 1983, 409 p.
- GROOT (GROTIUS) Hugo de, *Le Droit de la guerre et de la paix*, 1625, publication de l'Université de Caen, 1984, 2 vol., 1 043 p.
- HALÉVY Élie, *La Formation du radicalisme philosophique. La Révolution et la doctrine de l'utilité 1789-1805*, Alcan, 1901-1904, 3 vol. (t. I : *La Jeunesse de Bentham*, t. II : *Évolution de la doctrine utilitaire*; t. III : *Le radicalisme philosophique*).
- HAZARD Paul, *La Crise de la conscience européenne 1680-1715*, 1935, nouv. éd. Fayard, 1971, 443 p.
- HEGEL G. W. F., *La Phénoménologie de l'esprit*, 1806, tr. fr. de J. Hyppolite, t. I, Aubier, 1938, 358 p.
- *Le Droit naturel*, 1801, tr. fr. Gallimard Idées, 1972, 186 p.
- HOBBS, *Leviathan*, 1651, Pelican Classics, Penguin Books, 1968, 729 p, tr. fr. de F. Tricaud, Sirey, 1971, 781 p.
- *Le Citoyen ou les Fondements de la politique*, Flammarion, avec une introduction de Simone Goyard-Fabre, 1982, 408 p.
- HYPPOLITE Jean, *Études sur Marx et Hegel*, Rivière, 1955

- *Introduction à la philosophie de l'histoire de Hegel*, Rivière, 1944, nouv. éd. Seuil, 1983, 124 p.
- KANT Emmanuel, *Fondements de la métaphysique des mœurs*, 1785, tr. fr. Vrin, 1987, 153 p.
- *Critique de la raison pratique*, 1788, tr. fr. avec Intr. de F. Alquié, 1943, Quadrige, PUF, 1985, 189 p.
- LEITES Edmund, *La Passion du bonheur. Conscience puritaine et sexualité moderne*, 1986, tr. fr. Cerf, 1988, 191 p. et illustrations.
- LEWIS Geneviève, *L'Individualité selon Descartes*, thèse 1947, PUF, 1950, 250 p.
- LOCKE John, *Deuxième Traité du gouvernement civil*, Londres, 1688, éd. S. Goyard-Fabre, Flammarion, 1984, ou éd. B. Gilson, Vrin, 1985 (l'édition critique de P. Laslett, Cambridge University Press, revue en 1963, apporte des commentaires importants).
- LUKACS Georg, *Histoire et conscience de classe*, 1923, tr. fr. Minuit, Arguments, 1960, 381 p.
- LUTHER Martin, on se réfère surtout ici aux écrits de 1520 :
- « De la liberté du chrétien. »
 - « A la noblesse chrétienne de la nation allemande sur l'amendement de la condition du chrétien. »
 - « Prélude sur la captivité babylonienne de l'Église. »
 - « Le traité du serf arbitre » est de 1525.
- MANDOUZE André, *Saint Augustin. L'aventure de la raison et de la grâce*, thèse, Études Augustiniennes, 1968, 797 p.
- MANENT Pierre, *Histoire intellectuelle du libéralisme*, Calmann-Lévy, 1987, et Pluriel, 250 p.
- *Naissance de la politique moderne, Machiavel, Hobbes, Rousseau*, Payot, 1977.
- MARCUSE Herbert, *Raison et révolution, Hegel et la naissance de la théorie sociale*, 1941, tr. fr. Minuit, 1968, 472 p. ;
- *L'Homme unidimensionnel. Essai sur l'idéologie de la société industrielle avancée*, tr. fr., Minuit, 1968, 281 p.
- MARX Karl, dans l'édition M. Rubel de La Pléiade, *Les Manuscrits de 1844* (t. II, pp. 3-141), *L'Idéologie allemande* (avec Friedrich Engels) (t. III, pp. 1039-1325). Cf. aussi *Les Luttes de classes en France, 1848-1849*, et *La Guerre civile en France, 1871*.
- MAUZY Robert, *L'Idée de bonheur dans la littérature et la pensée françaises au XVIII^e siècle*, Colin, 1960, 727 p.
- MENDES SARGO Emmanuel, *La Guerre des Paysans. Thomas Müntzer et le communisme*, thèse non publiée, Nanterre, 1985.

BIBLIOGRAPHIE

- MORNET Daniel, *Les Origines intellectuelles de la Révolution française, 1715-1787*, 1933, rééd. Colin, 1967 et La Manufacture, 1989, 632 p.
- PARSONS Talcott, *Sociétés. Essai sur leur évolution comparée*, 1966, tr. fr. 1973, 158 p.
— *Le Système des sociétés modernes*, tr. fr. Dunod, 1973, 170 p.
- PASCAL, *Pensées*, Éd. Brunsvicg, Hachette, 1897.
- POLANYI Karl, *La Grande Transformation*, 1944, tr. fr. (avec une préface de Louis Dumont), Gallimard, 1983, 423 p.
- POLIN Raymond, *Politique et philosophie chez Thomas Hobbes*, PUF, 1953 (et colloque Thomas Hobbes dirigé par R. Polin, PUF, 1990, 421 p.);
— *La Politique morale de John Locke*, PUF, 1960, 320 p.
- POPPER Karl, *Misère de l'historicisme 1944-45*, tr. fr. 1956, revue par Renée Bouveresse, Vrin, 1986, éd. Agora, 1988, 214 p.
- PUFENDORF Samuel, *Le Droit de la nature et des gens*, 1672, publication de l'Université de Caen, 1987, 2 vol., 619 et 506 p.
- RAYNAUD Philippe, *Max Weber et les dilemmes de la raison moderne*, PUF, 1987, 217 p.
- RIALS Stéphane, *La Déclaration des droits de l'homme et du citoyen*, Pluriel, 1988, 772 p.
- ROUSSEAU Jean-Jacques, *Discours sur les sciences et les arts*, 1750;
— *Discours sur l'origine de l'inégalité*, 1754;
— *Du contrat social*, 1762;
— *Émile ou De l'éducation*, 1762.
- SALVADORI Massimo, *Dopo Marx*, Turin, Einaudi, 1981.
- SCAFF Lawrence A., *Fleeing the Iron Cage : Culture, Politics and Modernity in the Thought of Max Weber*, Berkeley University of California Press, 1989, 265 p.
- SÈVE René, *Leibniz et l'école moderne du droit naturel*, PUF, 1989, 237 p.
- STAROBINSKI Jean, *Jean-Jacques Rousseau. La transparence et l'obstacle*, Plon, 1957, nouv. éd. Gallimard Tel, 1982, 475 p.;
— *L'Invention de la liberté 1700-1789*, Genève, Skira, 1964, 224 p.
- TAWNEY R. H., *La Religion et l'essor du capitalisme*, 1926, tr. fr. avec préface de E. Labrousse, Rivière, 1951, 320 p.
- TAYLOR Charles, *Sources of the Self. The Making of Modern Identity*, Cambridge University Press, 1989, 601 p.
- TOCQUEVILLE Alexis de, *De la démocratie en Amérique*, 1835 et 1840, éd. Garnier-Flammarion avec préface de F. Furet, 2 vol.,

BIBLIOGRAPHIE

- 1981 570 p. + 414 p., en particulier t. I, 2^e partie, et t. II, 3^e et 4^e parties.
- TOULMIN Stephen, *Cosmopolis. The Hidden Agenda of Modernity*, New York, Free Press, 1990, 228 p.
- VENTURI Franco, *Au siècle des Lumières*, Mouton, 1971, 301 p.
- VERNANT Jean-Pierre, *L'Individu, la mort, l'amour. Soi-même et l'autre en Grèce ancienne*, Gallimard, Bibliothèque des Histories, 1989, 232 p.
- WAHL Jean, *Le Malheur de la conscience dans la philosophie de Hegel*, Rieder, 1929, PUF, 1951, 208 p.
- WEBER Max, *L'Éthique protestante et l'esprit du capitalisme*, 1905. J'ai utilisé la traduction anglaise de T. Parsons, 3^e éd., Londres, Allen and Unwin, 1950;
- *Économie et société*, 1922, tr. fr. t. I, Plon, 1971, 637 p. (j'ai utilisé la tr. espagnole en 2 volumes de J. Medina E. Mexico, Fondo de cultura económica);
- *Le Savant et le politique* (« La science comme vocation » et « La politique comme vocation », 1919), Plon, 1959, 201 p.

Deuxième partie

- ADORNO Theodor, FRANKEL-BRUNSWIK Else, LEVINSON Daniel J. et NEVITT SANFORD R., *The Authoritarian Personality*, New York, Harper, 1950, 990 p. (cf. aussi M. Horkheimer).
- ALBERT Michel, *Capitalisme contre capitalisme*, Seuil, 1991, 318 p.
- ARENDT Hannah, *La Crise de la culture* (recueil d'essais), 1954, tr. fr. Gallimard, 1972, 380 p.
- ARON Raymond, *Dimensions de la conscience historique*, Plon, 1961, 341 p.
- *Les Désillusions du progrès. Essai sur la dialectique de la modernité*, Calmann-Lévy, 1972, 381 p.
- BAREL Yves, *La Société du vide*, Seuil, 1984, 268 p.
- BAUDRILLARD Jean, *A l'ombre des majorités silencieuses ou La Fin du social*, 1^{re} éd. 1978, Médiations Denoël-Gonthier, 1982, 115 p.
- *Pour une critique de l'économie politique du signe*, Gallimard Les Essais, 1972, 268 p.
- BECK Ulrich, *Risikogesellschaft*, Francfort, Suhrkamp, 1982.
- BELL Daniel, *Les Contradictions culturelles du capitalisme*, 1976, tr. fr. PUF, 1979, 293 p.

BIBLIOGRAPHIE

- *La Volonté de savoir, Histoire de la sexualité*, t. I, Gallimard, Bibliothèque des Histoires, 1976, 211 p.
- *L'Usage des plaisirs, Histoire de la sexualité* t. II, N.R.F., Bibliothèque des Histoires, 1984, 287 p.
- *Le Souci de soi, Histoire de la sexualité*, t. III, N.R.F., Bibliothèque des Histoires, 1984, 288 p.
- *Résumé des cours 1970-1982*, Julliard, 1989, 166 p.
- FOURASTIÉ Jean, *Le Grand Espoir du xx^e siècle*, 2^e éd., PUF, 1950, 224 p.
- FREUD Sigmund, *Pour introduire le narcissisme*, 1914 (tr. J. Laplanche in *La Vie sexuelle*, 1969).
- *Métapsychologie*, 1915, tr. fr. N.R.F. Idées, 1968, 187 p.
- *Psychologie collective et analyse du Moi*, 1921 (dans *Essais de psychanalyse*, tr. Jankélévitch).
- *Le Moi et le Ça*, 1923, *ibid.*
- *Sigmund Freud présenté par lui-même*, 1925, tr. fr. N.R.F., 1984, 143 p.
- *Malaise dans la civilisation*, 1929, tr. fr. PUF, 1971, 107 p.
- *L'Homme Moïse et la religion monothéiste*, 1939, tr. fr. avec préface de Marie Moscovici, N.R.F., 1989, 256 p.
- FRIEDMANN Georges, *La Crise du progrès*, Gallimard, 1936;
- *Où va le travail humain?* (nouv. éd., Gallimard, 1963, 450 p.)
- *Sept Études sur l'homme et la technique*, Gonthier Média-tions, 1966, 215 p.
- FROMM Erich, *La Peur de la liberté*, 1941, tr. fr. Buchet-Chastel, 1963, 245 p.
- GAUCHET Marcel, SWAIN Gladys, *La Pratique de l'esprit humain : l'institution asilaire et la pratique démocratique*, Gallimard, Bibl. des Sciences humaines, 1980, 524 p.
- GELLNER Ernest, *Nations et nationalisme*, 1983, tr. fr. Payot, 1989, 208 p.
- GRODDECK Georg, *Au fond de l'homme, cela (Le livre du Ça)*, tr. fr. Gallimard, Bibliothèque des Idées, 1963, 330 p., avec une introduction de L. Durrell.
- HOBBSAWM Eric, *Nations et nationalisme depuis 1780*, tr. fr., Gallimard, Bibliothèque des Histoires, 1992, 247 p.
- HORKHEIMER Max, *Théorie traditionnelle et théorie critique*, tr. fr. Gallimard, Les Essais, 1974, 311 p.
- *Critique of Instrumental Reason* (recueil d'essais écrits entre 1957 et 1967), New York, Continuum, 1974, 163 p.
- *Éclipse de la raison*, 1947, Payot, 1974, 239 p.

BIBLIOGRAPHIE

- avec Th. Adorno, *La Dialectique de la raison*, 1947, tr. fr. Gallimard, 1974, 281 p.
- HUGHES Stuart, *Consciousness and Society, the Orientation of European Social Thought, 1890-1930*, Random House, 1958, 433 p.
- JAMESON Fredric, *Post-Modernism or the Culture Logic of Late Capitalism*, Londres et New York, Verso, 1991, 438 p.
- JAY Martin, *L'Imagination dialectique. L'École de Francfort, 1923-1950*, 1973, tr. fr. Payot, 1977, 416 p.
- *Marxism and Totality. The Adventures of a Concept from Lukacs to Habermas*, University of California Press, 1984, 576 p.
- LACAN Jacques, *D'une question préliminaire à tout traitement possible de la psychose et Subversion du sujet et dialectique du désir dans l'inconscient freudien*, in *Écrits*, Seuil, 1966, 924 p., pp. 531-583 et 793-827.
- LACLAU Ernesto, *Politics and Ideology in Marxist Theory*, Londres, Verso, 1979.
- LASH Scott, *Sociology of Post-Modernism*, Londres, Routledge, 1990, 300 p.
- avec Jonathan FRIEDMAN (sous la dir. de), *Modernity and Identity*, Oxford, Blackwell, 1992.
- LE RIDER Jacques, *Modernité viennoise et crises de l'identité*, PUF, 1990, 432 p.
- LIPOVETSKY Gilles, *L'Ère du vide. Essais sur l'individualisme contemporain*, Gallimard, 1983, 247 p.
- *L'Empire de l'éphémère. La mode et son destin dans les sociétés modernes*, Paris, N.R.F., Bibliothèque des Sciences Humaines, 1987, 340 p.
- LIPSET Seymour M., *L'Homme et la politique*, tr. fr. Seuil, 1963, 464 p., avec une présentation de J.-M. Domenach.
- LOWENTHAL Leo, *Literature, Popular Culture and Society*, Englewood Cliffs, Prentice Hall, 1961, 169 p.
- LYOTARD Jean-François, *La Condition post-moderne*, Éd. de Minuit, 1979, 108 p.
- *Le Post-moderne expliqué aux enfants*, Galilée, 1986.
- *Le Différend*, Minuit, 1983, 280 p.
- MAFFESOLI Michel, *Le Temps des tribus*, Klincksieck, 1988, 226 p.
- MALDONADO Tomas, *Il futuro della modernità*, Milan, Feltrinelli, 1987.
- MARCUSE Herbert, *Éros et civilisation*, 1955, tr. fr. Minuit, 1963, 240 p.

BIBLIOGRAPHIE

- *L'Homme unidimensionnel*, 1967, tr. fr. Minuit, 1968, 281 p.
- MOSCOVICI Marie, *L'Ombre de l'objet. Sur l'inactualité de la psychanalyse*, Seuil, 1990, 149 p.
- MUSIL Robert, *L'Homme sans qualités*, tr. fr. Ph. Jaccottet, Seuil, 1966, 800 et 1043 p. (éd. antérieure 1957-58 en 4 vol.).
- NIETZSCHE Friedrich, *La Naissance de la tragédie*, tr. fr. de G. Bianquis, Gallimard, 1940, 239 p.
- *Humain, trop humain. Un livre pour esprits libres*, 1878, tr. fr. Gallimard, Folio, 1968, 400 et 413 p.
- *Aurore. Pensées sur les préjugés moraux*, 1881, tr. fr. Gallimard, 1970, 787 p.
- *Le Gai Savoir, la gaya scienza*, 1882, tr. fr. et intr. de P. Klossowski, Club Français du Livre, 10/18, 1957, 431 p.
- *Le Crépuscule des idoles suivi de Le Cas Wagner*, 1848, tr. fr. Flammarion, 1985 (avec introduction de Christian Jambet), 250 p.
- *Par-delà le bien et le mal*, 1888, tr. fr. Bordas, 1948, Pluriel, 257 p.
- ROHEIM Geza, *Psychanalyse et anthropologie. Culture. Personnalité. Inconscient*, Gallimard, 1967, tr. de Marie Moscovici, 605 p.
- SCHOPENHAUER Arthur, *Le Monde comme volonté et comme représentation*, 1818, tr. fr. A. Burdeau revue par R. Roos, PUF, 1966, 1434 p.
- SCHORSKE Karl, *Vienne fin de siècle*, 1979, tr. fr. 1983, 383 p.
- SENNETT Richard, *Les Tyrannies de l'intimité*, 1967, tr. fr. Seuil, 1979.
- SIMON Herbert, MARCH James, *Les Organisations*, 1966, tr. fr. 2^e éd. Dunod, 1969, 253 p., avec préface de M. Crozier.
- THUROW Lester, *Head to Head : the Coming Economic Battle among Japan, Europe and America*, Morrow, 1992, 336 p.
- TURKLE Sherry, *The Second Self Computer and Human Spirit*, New York, Simon and Shuster, 1984.
- TURNER Brian S. (sous la dir. de), *Theories of Modernity and Post-Modernity*, Londres, Sage, 1990, 184 p. (en particulier articles sur Habermas et Lyotard).
- VATTIMO Gianni, *La Fin de la modernité. Nihilisme et herméneutique dans la culture post-moderne*, 1985, tr. fr. Seuil, 1987, 191 p.
- *La Société transparente*, Desclée de Brouwer, 1990.
- (sous la dir. de), *La Sécularisation de la pensée*, 1986, tr. fr. Seuil, 1988, 217 p.

BIBLIOGRAPHIE

- WEBER Eugen, *La Fin des terroirs : la modernisation de la France rurale*, 1977, tr. fr., Fayard, 1983, 945 p.
- WESTBROOK Robert B., *John Dewey and American Democracy*, Cornell University Press, 1991, 570 p.
- WIEVIORKA Michel, *L'Espace du racisme*, Seuil, 1991, 251 p.

Troisième partie

- ARDIGO Achille, *La sociologia oltre il post-moderno*, Bologne, Il Mulino, 1988.
- ATLAN Henri, *Entre le cristal et la fumée. Essai sur l'organisation du vivant*, Seuil, 1979, nouv. éd. Points Sciences, 1986, 286 p.
- *Tout, non, peut-être*, Seuil, 1991, 351 p.
- BALANDIER Georges, *Le Détour. Pouvoir et modernité*, Fayard, 1985, 266 p.
- BAUDELAIRE Charles, *Le Peintre de la vie moderne*, en particulier IV : *La Modernité*, in Robert Laffont, «Bouquins», 1980, pp. 797-799.
- BELLAH Robert, et al., *Habits of the Heart. Individualism and Commitment in American Life*, Berkeley, University of California Press, 1985, 355 p.
- BERLIN Isaiah, *Éloge de la liberté*, 1969, tr. fr., Calmann-Lévy, 1988, 288 p.
- *The Crooked Timber of Humanity*, New York, Knopf, 1991.
- BERMAN Marshall, *The Politics of Authenticity. Radical Individualism and the Emergence of Modern Society*, New York, Atheneum, 1970.
- BERNSTEIN Richard (sous la dir. de), *Habermas and Modernity*, Cambridge, MIT Press, 1985.
- BIRNBAUM Pierre, LECA Jean (sous la dir. de), *Sur l'individualisme*, Presses de la Fondation nationale des sciences politiques, 1986 (en particulier l'article d'A. Pizzorno).
- BIRNBAUM Pierre, *La Fin du politique*, Seuil, 1975, 285 p. (en particulier la 2^e partie);
- *La Logique de l'État*, Fayard, 1982, 236 p. (en particulier les deux premières parties).
- BOBBIO Norberto, *Il futuro della democrazia*, Turin, Einaudi, 1984 (nouv. éd. 1991, 220 p.).

BIBLIOGRAPHIE

- BOURETZ Pierre (sous la dir. de), *La Force du droit. Panorama des débats contemporains*, éd. Esprit, 1991, 274 p. (en particulier les articles de Bouretz sur Rawls et de Lenoble sur Habermas).
- CASTELLS Manuel, *The City and the Grass-Roots*, Londres, Edward Arnold, 1983, 450 p.
- COHEN Jean, ARATO Andrew, *Civil Society and Political Theory*, Cambridge, MIT Press, 1992, 771 p.
- DUBET François, *La Galère. Jeunes en survie*, Fayard, 1987, 503 p.
— *Les Lycéens*, Seuil, 1991, 311 p.
- DUMONT Louis, *Homo aequalis 1 : Genèse et épanouissement de l'idéologie économique*, Gallimard, Bibliothèque des Sciences humaines, 1977, rééd. 1985, 270 p.
— *Essais sur l'individualisme. Une perspective anthropologique sur l'idéologie moderne*, Seuil, 1983, 280 p.
— *Homo aequalis 2 : L'idéologie allemande. France-Allemagne et retour*, Gallimard, Bibliothèque des Sciences Humaines, 1991, 312 p.
- ERIKSON Erik, *Adolescence et crise. La quête de l'identité*, Flammarion, 1972, 341 p.
- FERRY Jean-Marc, *Habermas, l'éthique de la communication*, PUF, 1987, 587 p.
- FERRY Luc et RENAUT Alain, *68-86, itinéraires de l'individu*, Gallimard, 1986, 134 p.
- FRIEDMANN Georges, *La Puissance et la sagesse*, Gallimard, 1970, 503 p. (en particulier la 2^e partie, « L'effort intérieur »).
— *Journal de guerre 39-40*, Gallimard, 1987, 308 p.
- FUKUYAMA Francis, *La Fin de l'histoire et le dernier homme*, tr. fr., Flammarion, 1992, 452 p.
- GIACOMETTI Alberto, *Écrits*, Hermann, 1990, 306 p.
- GIDDENS Anthony, *The Consequences of Modernity*, Cambridge Polity Press, 1990, 186 p.
— *Modernity and Self-Identity*, 1992.
- GOFFMAN Erving, *The Presentation of Self in Everyday Life*, Doubleday, 1959, éd. Anchor, 255 p.
- GORZ André, *Adieu au prolétariat*, Galilée, 1980, 240 p.;
— *Métamorphoses du travail, quête du sens. Critique de la raison économique*, Galilée, 1988, 302 p.
- HABERMAS Jürgen, *Théorie et pratique. Critique de la politique*, 1963, tr. fr. Payot, 1975, 2 vol., 240 et 236 p.
— *Après Marx*, 1976, tr. fr. Fayard, 1985, 340 p.
— *Théorie de l'agir communicationnel*, 1981, tr. fr. 2 vol.,

BIBLIOGRAPHIE

- Fayard, 1987, 447 et 477 p. (tr. de J.-M. Ferry t. 1 ; J.-L. Schlegel, t. 2).
- *Le Discours de la philosophie de la modernité. Douze conférences*, 1985, tr. fr. Fayard, 1988, 484 p.
- *Morale et communication*, 1983, tr. fr. Cerf, 1986, 212 p.
- *Écrits politiques 1985-1987-1990*, tr. fr. Cerf, 1990, 263 p.
- HARRÉ Ron, *Personal Being: A Theory for Individual Psychology*, Oxford, Blackwell, 1983, 299 p.
- HELLER Agnes, *The Power of Chain*, Londres, Routledge and Kegan Paul, 1985, 317 p. (surtout chap. III, «Everyday life, Rationality of Reason, Rationality of intellect»).
- HIRSCHMAN Albert, in David Collier (sous la dir. de), *The New Authoritarianism in Latin America*, Princeton University Press, 1979.
- KEPEL Gilles, *La Revanche de Dieu*, Seuil, 1991, 283 p.
- KHOSROWKHAVAR Farhad, *Rupture de l'unanimisme dans la révolution iranienne*, thèse pour le Doctorat ès Lettres non publ., 1992, 567 p. et 186 p. d'annexes.
- KOHUT Heinz, *The Analysis of the Self*, New York International University Press, 1971, trad. fr.: *Le Soi: la psychanalyse des transferts narcissiques*, PUF, 1974, 376 p. ;
- *The Restoration of the Self*, New York International University Press, 1977.
- LAING Ronald D., *The Divided Self*, Harmondsworth, Penguin, 1965, trad. fr. *Le Moi divisé*, Stock, 1970, 191 p.
- LAPEYRONNIE Didier, *De l'expérience à l'action*. Mémoire d'habilitation, n.p., EHESS, 1992, 248 p.
- LAPEYRONNIE Didier, MARIE Jean-Louis, *Campus Blues. Les Étudiants face à leurs études*, Seuil, 1992, 266 p.
- LASCH Christopher, *The Culture of Narcissism*, New York, Norton, 1978, 268 p.,
- *The Minimal Self*, Londres, Picador, 1985.
- LASH Scott, FRIEDMAN Jonathan (sous la dir. de), *Modernity and Identity*, Oxford, Blackwell, 1992.
- LEFORT Claude, *Essais sur le politique XIX^e-XX^e siècle*, Seuil, Esprit, 1986, 332 p.
- *L'Invention démocratique, Les limites de la domination totalitaire*, Fayard, 1981, 347 p.
- LEVINAS Emmanuel, *Humanisme de l'autre homme*, 1971, Livre de Poche, 1988, 122 p.

BIBLIOGRAPHIE

- LEVY Bernard-Henri, *Les Aventures de la liberté*, Grasset, 1991, 489 p.
- MAC INTYRE Alasdair, *After Virtue*, Londres, Duckworth, 1981.
- MAFFESOLI Michel, *Le Temps des tribus*, Méridiens Klincksieck, 1988, nouv. éd. Livre de poche, 280 p.
- MAHEU Louis, SALES Arnaud (sous la dir. de), *La Recomposition du politique*, L'Harmattan et les Presses de l'Université de Montréal, 1991, 324 p.
- MALLET Serge, *La Nouvelle Classe ouvrière*, Seuil, 1963, 266 p.
- MARSHALL T. H., *Citizenship and Social Class*, Cambridge University Press, 1950.
- MATTER Herbert, *Alberto Giacometti*, tr. fr. Gallimard, 1988, 223 p.
- MAUPEOU-ABBOUD Nicole de, *Ouverture du ghetto étudiant. La gauche étudiante à la recherche d'un nouveau mode d'intervention politique 1960-1970*, Anthropos, 1974.
- MEAD George Herbert, *L'Esprit, le soi et la société*, 1934, tr. fr. PUF, 1963, 332 p.
- MELUCCI Alberto, *L'invenzione del presente*, Bologne, Mulino, 1982;
- MONGARDINI Carlo, *Il futuro della politica*, Milan, Franco Angeli, 1990, 124 p.
- MORIN Edgar, *L'Esprit du temps*, Grasset, 1962, 277 p.
— *Pour sortir du xx^e siècle*, Nathan, 1981, 380 p.
- MOSCOVICI Serge, *L'Age des foules*, Fayard, 1981, 503 p.
— *La Machine à faire des dieux. Sociologie et psychanalyse*, Fayard, 1988, 485 p.
- PERRON Roger, *Genèse de la personne*, PUF Le Psychologue, 1985, 256 p.
- POULANTZAS Nicos, *Les Classes sociales dans le capitalisme aujourd'hui*, Seuil, 1974, 365 p.
- RAWLS John, *La Théorie de la justice comme équité; une théorie politique et non pas métaphysique*, in *Philosophy and Public Affairs*, XIV, 3, 1985, tr. fr. in *Individu et justice sociale*, Seuil, 1988, 317 p. Publication d'un colloque tenu autour de John Rawls, *Théorie de la justice*, 1971, tr. fr. Seuil, 1987.
- RENAUT Alain, *L'Ère de l'individu. Contribution à une histoire de la subjectivité*, Gallimard, Bibliothèque des Idées, 1989, 299 p.
- REX John, *Ethnic Identity and Ethnic Mobilization in Britain*, Economic and Social Research Council, 1991, 129 p.

BIBLIOGRAPHIE

- RICŒUR Paul, *Soi-même comme un autre*, Seuil, 1990, 428 p. (en particulier la préface sur l'analyse critique du *cogito* et les premières études sur l'ipséité, la personne et l'approche pragmatique).
- RORTY Richard, *Contingency, Irony and Solidarity*, Cambridge University Press, 1989, 201 p.
- SARTRE Jean-Paul, *L'existentialisme est un humanisme*, Nagel, 1946, 141 p. ;
 — *Critique de la raison dialectique*, précédée de *Questions de méthode*, t. 1, *Théorie des ensembles pratiques*, Gallimard, Bibliothèque des Idées, 1960, 755 p.
 — *Situation III*, N.R.F., 1949 (en particulier « Matérialisme et révolution », pp. 135-225) ;
 — *Situation VII, Problèmes du marxisme* (en particulier la polémique avec Claude Lefort).
- TABBONI Simonetta, *Costruire nel presente. Le giovani donne, il tempo e il denaro*, Milan, Franco Angeli, 1992, 169 p.
- Le Temps de la réflexion*, 1981, II, « Le religieux dans le politique » (articles de C. Lefort, M. Abensour, E. Weil, L. Strauss, etc.), Gallimard, 542 p.
- Thesis Eleven*, n° 23, Melbourne, 1989, « Redefining Modernity. The Challenge to Sociology » (art. de Bauman, Beck, Böhm, Arnason, Raulet, Touraine) ;
 — n° 31, 1992 : « Interpreting Modernity » (articles de A. Heller, C. Castoriadis, A. Honneth, M. Jay, N. Luhman).
- TOTARO Francesco, *Produzione del senso. Forme del valore et dell'ideologia*, Publication de l'Université Catholique de Milan, 1979, 216 p. (en particulier ch. IV sur Weber).
- TOURAINE Alain, *Sociologie de l'action*, Seuil, 1965, 501 p.
 — *Production de la société*, Seuil, 1973, 543 p.
 — *Pour la sociologie*, Seuil, Points, 1974, 243 p.
 — *La Voix et le regard*, Seuil, 1978, 310 p.
 — *Le Retour de l'acteur. Essai de sociologie*, Fayard, 1984, 350 p.
- WALZER Michel, *The Revolution of the Saints. A Study in the Origin of Radical Politics*, Cambridge, Massachusetts, 1965, 2^e éd., 1982, 334 p.
- WEINER Richard, *Cultural Marxism and Political Sociology*, Londres, Sage, 1981, 271 p. (ch. IV, V et VI sur la formation de la conscience de classe).
- WIEVIORKA Michel, *Sociétés et terrorisme*, Fayard, 1988, 565 p.

BIBLIOGRAPHIE

- *L'Espace du racisme*, Seuil, 1991, 252 p.
ZINOVIEV Alexandre, *L'Avenir radieux*, L'Age d'Homme, 1978, 280 p.

محتويات الكتاب

7	مقدمة المترجم
19	مقدمة المؤلف
	الجزء الأول : الحداثة المتتصرة
29	الفصل الأول : أنوار العقل
59	الفصل الثاني : النفس والحق الطبيعي
93	الفصل الثالث : اتجاه التاريخ
	الجزء الثاني : الحداثة فى أزمة
129	الفصل الأول : التفكك
147	الفصل الثاني : تدمير الأنا
185	الفصل الثالث : الأمة والمؤسسة الإنتاجية والمستهلك
205	الفصل الرابع : المثقفون ضد الحداثة
237	الفصل الخامس : مخارج من الحداثة
	الجزء الثالث : ميلاد الذات
267	الفصل الأول : الذات
305	الفصل الثاني : الذات كحركة اجتماعية
331	الفصل الثالث : أنا المتكلم ليست الأنا
383	الفصل الرابع : الظل والضوء
417	الفصل الخامس : ماهى الديمقراطية ؟
449	نقطة الوصول : صورة المجتمع
479	قائمة المراجع

المشروع القومى للترجمة

أ. د. أحمد درويش	جون كوين	اللغة العليا
أ. أحمد فؤاد بلبع	مادهو بانيكار جى. ام	الوثنية والإسلام
ت : شوقى جلال	جورج/ جيمس	التراث المسروق
ت : أحمد الحضرى	اتى كارييتنكوف	كيف تتم كتابة السيناريو
ت : د. محمد علاء الدين منصور	إسماعيل فصيح	ثريا فى غيبوبة
ت : د. سعد مصلوح/ د. وفاء كامل فايد	ميلكا إفيتش	اتجاهات البحث اللسانى
ت : يوسف الانطاكى	لوسيان غولدمان	العلوم الإنسانية والفلسفة
ت : د. مصطفى ماهر	ماكس فريش	مشعلوا الحرائق
ت : د. محمود محمد عاشور	أندرو س. جودى	التغيرات البيئية
ت : محمد معتصم وآخرون	جيرار جينيت	خطاب الحكاية
ت : د. محمد هناء عبدالفتاح	فيسوفا شمبيوريسكا	مختارات
ت : أحمد محمود	بيفيد برانستون وايرين فرانك	طريق الحرير
ت : عبد الوهاب علوب	روبرتسون سميث	ديانة الساميين
ت : حسن المودن	جان بيلمان نوبل	التحليل النفسى والأدب
ت : أشرف رفيق عفيفى	ادوارد لويس سميث	حركات الفن المعاصر
ت : د. لطفى عبد الوهاب يحى/ د. فاروق القاضى/ د. حسين الشيخ/ د. منيرة كروان / د. عبد الوهاب علوب	مارتن برنال	أثينة السوداء
ت : محمد جمال عبد الرحيم	هانز جورج جادامر	واحة سيوة وموسيقاها
ت : سيد توفيق	جلال الدين الرومى	تجلى الجميل
ت : د. إبراهيم السوقي شتا	باتريك بارندر	المتنوى
ت : د. بكر عباس		ظلال المستقبل
		مصادر دراسة التاريخ الإسلامى
ت : د. حياة جاسم	والاس فاوتن	النظريات الحديثة للسرد
ت : خليل كلفت	پول . ب . ديكسون	الأسطورة والحداثة

مختارات الشعر النسائي في أمريكا اللاتينية الأعمال الكاملة قصة العلم	فيليب لاركين مختارات	ت : د. محمد مصطفى بدوى ت : د. طلعت شاهين
خوخة وألف خوخة مذكرات رحالة دين مصر العام التنوع البشرى الخلاق	جورج سفيريس ج. ج. كرواثر	ت : د. نعيم عطية ت : د. يمنى طريف الخولى د. بدوى عبد الفتاح
الانقراض الرواية العربية الاغريق والحسد الموت والوجود نقد الحداثة التاريخ الاقتصادى لافريقيا الغربية الأعمال الكاملة لسفيوليس رسالة فى التسامح	صمد بهرنكى جون أنتيس محمد حسين هيكل	ت : د. ماجدة محمد على ت : د. سيد أحمد على الناصرى ت : أحمد محمد حسين هيكل ت : نخبة
	ديفيد روس روجر ألن بيتر والكوت	ت : د. مصطفى إبراهيم فهمى ت : د. حصة عبد الرحمن منيف ت : منيرة عبد المنعم كروان ت : بدر الديب ت : د. أنور مغيث ت : ا. أحمد بليغ
		ت : د. منى أبو سنة

المشروع القومى للترجمة (نحت الطبع)

قصائد حب
الدراما والتعليم
العلاج النفسى التدعيمى
تاريخ النقد الأدبى الحديث
مصر الفرعونية
ت . س . إليوت
الرواية الاسبانونامريكية
ما بعد المركزية الأوربية

طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

رقم الإيداع ٢٤٦٤ / ١٩٩٨

الترقيم الدولى (7 - 990 - 235 - 977 - I. S. B. N.)

Critique de la modernité

Alain Touraine

اعتقد الغرب زمناً طويلاً أن الحداثة هي انتصار العقل ، وتحطيم التراث ، والانتماءات ، واستعمار الخبرة المعاشة بحساب المصالح .

ولكن اليوم ؛ تتمرد كل الفئات التي كانت قد خضعت للنخبة المستنيرة ، العمال والمستعمرين والنساء والأطفال ، وترفض أن تطلق كلمة حديث على عالم لا يعترف بخبرتهم الخاصة وبولوجهم إلى ما هو كوني ، وذلك بشكل جعل من يتماهون مع العقل يبدون من الآن فصاعداً كحماة لسلطة تعسفية .

هل ينبغي العصف بهذه السيطرة والإقرار بتنوع غير محدود للخبرات المعاشة وكافة أشكال التراث ؟ ولكن هذه الاختلافية المفرطة تحمل في ثناياها عدم التسامح والعنصرية وحروب الدين ، والهروب إلى ما بعد الحداثة لا يكشف إلا عن نضوب الايديولوجية التي تطابق بين الحداثة والترشيد .

ينبغي إعادة بناء الحداثة ، وذلك بالعودة أولاً إلى أصولها . فمنذ البدء ، منذ القطيعة بين النهضة والإصلاح ، فصمت الحداثة عرّى وحدة العالم القديم ، العقلاني والمقدس في آن . لقد كلفت العقل باكتشاف قوانين العالم ، وكلفت الوعي بإظهار ذات لم تعد إلهية ولكن إنسانية . ثنائية الحداثة هذه والموجودة لدى ديكرت وفي إعلان حقوق الإنسان ، قد قوضها كبرياء فلسفة التنوير وفلاسفة التاريخ . واليوم وبعد أن تداعت مملكة العقل الغازي ، والتي عصف بها نيتشه وفرويد ، وكذلك عصف بها الاستهلاك المتزايد وظهور القوميات ، ينبغي الاستماع لصوت الذات والذي لا يكون استبطاناً بل كفاح من أجل الحرية ضد منطق السلعة والسلطة . هذه الذات هي إرادة الفرد والجماعة في أن يكونا صانعي حياتيهما ، وهي أيضاً ذاكرة وانتماء . إن الحداثة تتكون من تكامل وتعارض ، بين عمل العقل وتحرير الذات ، ومن توطيد الجذور في جسد جماعي وفي ثقافة .

هذا الكتاب يمثل مرحلة جديدة أساسية ، بعد «سوسيولوجيا الفعل» و «إنتاج المجتمع» في الإنتاج الفكري لألن تورين .